

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية - قسنطينة -

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل:

المبوتات الأندلسية في المغرب الأوسط

من نهاية القرن 3 هـ إلى نهاية القرن 9 هـ

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الأوسط

بإشراف الدكتور:

نجيب بن خيرة

إعداد الطالب:

رفيق خليفي

لجنة المناقشة:

الصفة	الجامعة الأصلية	الرتبة	أعضاء اللجنة
رئيسا	جامعة منتوري - قسنطينة	أستاذ التعليم العالي	بوبة مجاني
مشرفا ومقررا	جامعة الأمير عبد القادر	أستاذ محاضر	نجيب بن خيرة
عضوا مناقشا	جامعة الأمير عبد القادر	أستاذ محاضر	علاوة عمارة
عضوا مناقشا	جامعة الجزائر	أستاذ محاضر	محمد الأمين بلغيث

السنة الجامعية: 1428-1429 هـ / 2007-2008 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الأميرة
الاسلامية
مركز العلوم
والتكنولوجيا

الإهداء

إلى مروح الإمام الشهيد أحمد ياسين
إلى حركة المقاومة الإسلامية حماس
إلى كتائب الشهيد عز الدين القسام
إلى كل قوى الممانعة والصمود
التي تمنع تكرار مأساة الأندلس
إلى الوالدين الكريمين
الذين علماني أن أعيش هذه المعاني

شكر وتقدير

جزيل الشكر عطفاً وأوفاه أرفعه لفضيلة الأستاذ المشرف
الدكتور نجيب بن خيرة لما بذله من جهد في إكمال هذه الرسالة
بملاحظاته وتبنياته القيمة وبصبره علي.
كما أجزل الشكر للأساتذة الذين استفدت من قرائهم للمسودة الأولى من المذاكرة
وأعانوني بنوحيهاهم وأخذت من وقتهم وجهدهم.
وأمدوا لي يد العون بكتاب أو بفكرة:
الدكتور محمد فرقاني، الدكتور علاوة عمارة، الدكتور يوسف عابد،
الأستاذة الدكتورة بوبتة مجاني، الأستاذة صابرة خفيف.
ولا أنسى الدكتور أحمد الطاهري والدكتور إبراهيم القاسري بوتشيش.
من المغرب الأقصى على تشجيعهم لي لمواصلة البحث.
والفضل أقرب لمن أعانني على كتابة الرسالة وتصحيحها وطباعها من الأخوة والزملاء:
الدرة، عبد العالي، شوقي، خالد، الطاهر.
وخاتمة العقد موظفي مكتبة جامعة الأمير عبد القاسم
الذين أعانونا بخدماهم المنمزة وتسهيلهم ومائة أخلاقهم:
السيدة حلیمة، هيكل، إبراهيم، أمير.
وكنا موظفي المكتبة الوطنية بالجزائر، وأخص موظفي جناح الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي.

كله مرفيق

جامعة الجزائر

مُقَدِّمَةٌ

تعددت أنماط المعالجة التاريخية لماضي المغرب الأوسط، وتعددت معه الموضوعات المطروقة في ميادين شتى، في السياسة والاقتصاد والثقافة والدين وغيرها، إلا أن زوايا كثيرة في تاريخ هذا الفضاء المغربي بقيت غامضة لم تنل حظها من البحث والدراسة، كبحوث الديموغرافيا والبنى الاجتماعية، والرؤى السوسيو ثقافية وحقول المعرفة المتخصصة، إذ ساهمت كثير من الظروف السلبية في صناعة تلك الحجب بيننا وبين البحوث الواعية غير التقليدية.

ومن بين المواضيع المهملة موضوع البيوتات التي لها علاقة وثيقة ببحوث الديموغرافيا والبنى والرؤى المشار إليها، سواء ما تعلق بالبيوتات الأصلية في البلد أو الوافدة عليه؛ كالبيوتات الأندلسية موضوع بحثي هذا، على أهميتها في تاريخ المغرب الأوسط.

إن البيوتات ظاهرة بشرية قديمة جدا؛ قدم الأسرة بمفهومها البسيط، استطاع البعض منها أن يتحول إلى قبائل والبعض الآخر إلى دول وممالك، عمرت لقرون طويلة، فما كندة وقريش وتزاعة وغسان وصنهاجة وزناتة ومرين إلا نتاج لهذه الظاهرة.

وفي المغرب الأوسط ظهرت عدة بيوتات محلية ووافدة، اقتسمت بينها النفوذ والسلطة بأشكالها المتنوعة، دينية كانت أم ثقافية أم سياسية، منذ النصف الأول من القرن الثاني مع بيت عبد الرحمن بن رستم الفارسي الذي كون أول بيت وافد في المغرب الأوسط، سرعان ما تحول إلى إمارة ودولة مستقلة عن الخلافة الإسلامية، فاسحا المجال لكل الطامحين في إتباع هذا التقليد، فكان البيت اليفرنى المغراوي الذي حكم الجهة الغربية من المغرب الأوسط ثم البيت الحمدي الأندلسي أمراء المسيلة فالبيت الصنهاجي: الزيري والحمادي أمراء أشير والقلعة والمهدية وبجاية.

لكن الملفت للانتباه أن البيوتات الوافدة خاصة الأندلسية كانت الأكثر عدد والأكثر أثرا في تاريخ المغرب الأوسط، بما أوجد لها من النفوذ الذي لم تستطع بيوتات المغرب الأوسط أن تجده إلا خارج فضاءها الأصلي، كما هو الشأن مع أبناء بلكين بن زيري الصنهاجي في المهديّة وغرناطة، وأبناء عبد المؤمن بن علي التلمساني في المغرب الأقصى، والبيت الطنجي وبيت ابن سيد بونة في الأندلس وبيت بني العجوز الكتامين في المغرب الأقصى والأندلس وغيرهم.

ومن هنا كان الوقوف على الإشكالية الرئيسة وهي:

- كيف استطاعت البيوتات الأندلسية التفوق على البيوتات المغربية في ميادين مختلفة حتى القرن الثامن؟ ولماذا بقيت الإمارة أبعد منلا من كل طموحاتهم؟.

أما الإشكالات الجزئية فنطرحها في التساؤلات الآتية:

- كيف ظهرت البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط؟ وما هي أسباب وعوامل نجاحها؟

- ما هي وظيفتها في تاريخ المغرب الأوسط؟

- ما هي الآليات التي تتوارث بها مجموعة القيم المعرفية والسلطوية في غير بيتها؟

- كيف تختفي وتلاشى؟ وما هي العوامل المتحكمة في ذلك؟

منهج الدراسة

وللإجابة عن هذه الإشكالات اتبعت المنهج الكمي التركيبي، والمنهج الاستقرائي، ثم المنهج التحليلي، فمعالجة الموضوع تستدعي أولاً المعالجة الاستقصائية بالتنقيب الطويل في المصادر التاريخية المتنوعة، لضبط أعلام البيوتات إذ نجدتها متفرقة، ثم العمل على إعادة بناء مخطط لتلك البيوتات ووضعها في سياقها التاريخي، ومن ثمة تحليل مختلف الظواهر والأحداث التي تحكمت في ظهورها والتي ساهمت في إيجادها، إلا أن هذه المناهج تختلف درجة تطبيقها بحسب نوع البيت وتصنيفه إلى علمي ثقافي أو سياسي، وتختلف أيضاً بحسب المادة المتوفرة عن كل بيت.

الدراسات السابقة

ولنا أن نتساءل الآن: ماذا أنجز عن البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط؟

لم تحظ البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط بدراسة جادة شأن نظيراتها في الأندلس أو المغرب الأقصى، فلم تنجز عنها أي دراسة أكاديمية مستقلة، فكل ما كتب عنها إنما مقالات لم تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، كان أولها مع ماريوس كنار Marius Canard الذي كتب عن بني حمدون أمراء المسيلة، وقد أجهدي الوصول إلى المقال رغم أنه على مرمى حجر مني.

ثم تلى ذلك مقال للمرحوم يحي بوعزيز سنة 1984 فتناول جزئية من تاريخ البيت العقباني الأندلسي التلمساني، بعنوان: علماء أسرة العقباني ودورهم في التوفيق بين عرشي تونس وتلمسان،¹ وأعاد تقريبا نفس الحديث عنها في كتابه "أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة".²

كما شاركت الباحثة التونسية منيرة شابتو رمادي في إحدى المنتقيات بمدخله تخص بيت ابن سيد الناس الإشبيلي في الدولة الحفصية (بجاية وتونس) بعنوان:

La diaspora des Banu Sayyid al-nas dans les pays musulmans méditerranéens, communication inédite au Colloque d'al-Husayma, Maroc, Juillet 1988.

لكن البحث لم ينشر إلى غاية سنة 2006، لذا لم أقف عليه، إنما أشار إليه صالح بعيزيق في أطروحته.³

وكسبت الباحثة الإسبانية هيلينا دي فليب Helena De Felipe مقالا عن بيت بني ذكوان القرطبي المنفي إلى

وهران بعنوان:⁴ *Banū Dakwān*

¹ الحياة الثقافية (تونس)، 1984، عدد 32، ص 81-86، وأنظر كذلك كتابه: مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، وهران: دار الغرب، 2004، 149-159.

² ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995، 76/2-80.

³ بجاية في العهد الحفصية: دراسة اجتماعية واقتصادية، تونس: منشورات كلية الآداب- جامعة تونس، 2006.

⁴ dans : *Identidad y Onomástica de Los Beréberes de Al-Andalus*, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1997. p. 108-114.

في نحو 6 صفحات، لكنها لم تشر مطلقا إلى دخولهم المغرب الأوسط، واكتفت بدراسة نشاطهم في الأندلس. أما الباحث علاوة عمارة فقد تناول في أطروحته إحدى البيوتات الأندلسية التي تولت مقاليد الوزارة وقيادة الجيش في الدولة الحمادية، أي بيت بني حمدون الثاني.⁵

I - بواعث العمل

إن بحثنا الذي يتناول البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط يتخذ له جملة من البواعث التي تتراوح بين البواعث الموضوعية والبواعث الذاتية، ذلك أن كل اختيار يتجاوز اعتبارية القول طالما أن العقل هو القيم الضامن، وطالما أن التاريخ هو عمل العقل البشري في الزمن، ولذلك فقد حاولنا تقديم البحث وبواعثه وصعوباته وأهم ما سيتناوله وأهم طموحاته ضمن تنظيم عرضنا له داخل هذا التلخيص.

أ- البواعث الموضوعية

لقد اخترت دراسة البيوتات الأندلسية لأن البيوتات تحتل مساحات واسعة في التاريخ الإسلامي عموما وتاريخ المغرب الأوسط خصوصا، ولو تمكنا من تجلّيت ظاهرة البيوتات لأمكن تفسير كثير من الأحداث الغامضة في أحقاب تاريخنا الطويل، نظرا لأن العديد من هذه البيوتات كان لها أثر سياسي وثقافي بارز جدا وبشكل واسع في العهدين الحفصي والزيري، والمتتبع لتاريخ المغرب الأوسط في الفترة المشار إليها خصوصا في حاضرتي بجمالية وتلمسان يتجلى إليه أن هذا التاريخ هو صناعة متفوقة لبيوتات الحكام والقضاة والوزراء والحجاب، وبقية أطراف المجتمع مواد أولية في يد هؤلاء الصناع يشكلونها كيفما شاءوا. فلما كانت البيوتات بهذا الحجم وهذا الأثر لم يمكننا إغفالها في دراستنا الأكاديمية.

ب- البواعث الذاتية

إن البواعث الموضوعية لا يمكن أن تكون حافزا الأوحده على اختيار البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط، بقدر ما تخفي وراء ذلك جملة من الدواعي الذاتية، منطلقها الإعجاب الخاص بقدرة هؤلاء الوافدون الأندلسيين على فرض كفاءاتهم ومؤهلاتهم داخل المجتمعات المستقبلية لهم، إن على مستوى السلطة وإن على مستوى النخبة العلمية وما دوغهما، في الوقت الذي لم تستطع كثير من الشخصيات المغربية الأصيلة من علماء وساسة وعسكريين من رسم بصماتها في المغرب الأوسط، كما هو إعجاب بمنهج هؤلاء في بناء المجد وتوريثه في أعقابهم لعشرات السنين بل لقرون، وإعجاب كذلك بقدرة الأحفاد على الاستفادة من تراث الآباء والمحافظة على بناء المجد قائما، وقد قيل: "أن المحافظة على المجد أصعب من إيجادها من العدم".

⁵ *Pouvoir, économie et société dans le Maghreb Hammadide (395-547/1004-1152)*. Thèse de doctorat, Université Paris I - Sorbonne -, 2000, vol I, p.163-168.

كما أن منطلقه الذاتي منبعث من هميش الباحثين الجزائريين لهذه الظاهرة "ظاهرة البيوتات" المحلية منها والوافدة، فأثرت المغامرة في هذا البحث الشائك على اجترار موضوعات طرحت سلفا أو ليست ذات بعد تاريخي.

II-الصعوبات:

وتنقسم إلى صعوبات سبقت الإنجاز وإلى صعوبات أثناء الإنجاز وإلى صعوبات في المنهج.

أ- سوابق العمل:

عند تفكيرنا في اختيار هذا الموضوع وعند بداية البحث عن المراجع الضرورية اصطدنا بمجمل من الصعوبات.

1- تمثلت في عدم توفر المراجع المفردة للعمل، أي المفردة لبحث البيوتات في المغرب الأوسط، إذ لم نجد إلا بعض المراجع التي تبحث البيوتات الأندلسية داخل الأندلس نفسها أو في المغرب الأقصى، لذا سعينا للاعتماد على النصوص الأصلية في مضامها المصدرية.

2- كما تعرضنا إلى مشكلة تتعلق بالفضاء المغربي الواسع، الذي لم يكن يعرف للحدود السياسية قيمة إلا لدى السلطة الممثلة في البيت الحاكم، فكثير من هؤلاء الأندلسيون كانوا يتنقلون بين البلاطات المختلفة دون عقدة، ودون وجل من معرة تلحقهم أو هممة تطالهم جراء التعاطي مع هذه العروش المتناحرة، ففي تبعتها لهم في هذه الأقطار وجدنا أنفسنا مرغمين على الإلمام بجوانب كثيرة تتعلق بتاريخ الأندلس وتاريخ المغربين الأدنى والأقصى، إذ أن إهمال تحركات هؤلاء في الأقطار المشار إليها يفضي بنا إلى نتائج مبتورة ومشوهة، لا تقوم على كشف كنه حقيقة الظاهرة المدروسة.

3- أما أسوء مشكلة صادفتنا هي أننا لا نملك من مصادر تراث المغرب الأوسط إلا التزر اليسير، وهذا التزر لا يمكن أن يفي بمتطلبات هذه الدراسة، وسندرك ذلك من خلال بعض المناقشات في صلب الموضوع، كما ندركه من خلال التمعن في القائمة البيليوغرافية المرفقة بالدراسة.

ب- منهج العمل:

أبرز الصعوبات التي اعترضتنا في مستوى المنهج هي:

1- في الفصل الأول من البحث حاولنا أن نحدد مفهوم البيوتات وأسباب تشكلها وعوامل اختفاءها وتلاشيها، وهو ما شكل صعوبة في مستوى تحديد تلك الإشكالات، وفي مستوى التحديد الكمي للبيت، ولذلك سعينا إلى محاولة البحث عن كل إشارة في التراث العربي المشرقي القلتم نخدم الموضوع من قريب أو من بعيد، لصعوبة العثور على مثلها في التراث المغربي والأندلسي.

2- الصعوبة الثانية والتي سبقت أيضا إنجاز العمل هي كيفية الربط بين الفصل الثاني والفصول الثلاث الأخيرة لعدم الكشف بين الجلي عن مدى ارتباط قوة البيوتات بالجالية والوفود الأندلسية المختلفة،

وكذا صعوبة الربط بين الفصل الأول والفصول الرئيسية، فالفصل الأول هو تنظير لظاهرة البيوتات في التاريخ الإسلامي عموماً، ومن الصعب إسقاطها على المغرب الأوسط لخصوصياته المعقدة.

ج - العمل أو الانجاز

- 1- الصعوبات التي اقترنت بالانجاز اقترنت بالمصادر نفسها، وأول هذه الصعوبات هي أن أغلب المصادر ثانوية، لا تخدم الموضوع بشكل مباشر وفي نفس الوقت لا يمكن الاستغناء عنها، وهي لكثرتها تحتاج إلى وقت طويل وجهد مضني لمعالجتها واستخراج الشذرات المطلوبة.
- 2- كما اقترنت الصعوبة بالفترة الزمنية المخصصة لدراسة الظاهرة، حيث لم يكن من الممكن الاقتصار على عصر معين أو قرون معينة لقلّة المادة، بل فرضت علينا طبيعة تاريخ المغرب الأوسط أن تتناول الفترة الزمنية الواسعة الممتدة من نهاية القرن 3 هـ إلى نهاية القرن 9 هـ، وهي الفترة التي شهدت خمسة أنظمة وسلالات تعاقبت على حكم المغرب الأوسط؛ بدءاً بالفاطميين الشيعة وانتهاء بالزيانيين، بما تحمله من مميزات وخصائص مختلفة في جوهرها وجزئياتها، الأمر الذي شتت - قسراً - رؤيتنا للموضوع ومعالجته.

III- مشروع العمل

لكل عمل سند ومراجع وجملة من المنطلقات باعتبار أن العمل لا يمكن أن يكون عملاً ناجحاً من غير أن يوضح منطلقاته ومطامحه.

أ- سند العمل (تقديم المصادر)

تنوعت مصادر الدراسة لتنوع الأحداث والجزئيات التي تناولها الموضوع نفسه، فشملت أغلب صنوف الكتابة التاريخية التراثية، وهي:

1- كتب الطبقات والتراجم

إن دراسة موضوع البيوتات يتطلب الوقوف على أكبر عدد ممكن من كتب التراجم والطبقات والفهارس والأنبات، خصوصاً إذا كانت السمة العلمية والدينية هي السمة البارزة التي طبعت تاريخ بيت ما، وأبرز هذه المؤلفات التي لا يمكن الاستغناء عنها ما يأتي:

- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، للغريبي.
- التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار البلنسي.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لابن عبد المالك المراكشي.
- صلة الصلة، لابن الزبير الغرناطي.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب الغرناطي.
- الفصون الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة، لابن سعيد.

- نفع الطيب وكتاب أزهار الرياض، للمقري التلمساني
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، لابن مريم المليتي التلمساني
- نيل الابتهاج، للتبكي

وذلك لما تضمنته من معلومات قيمة جدا عن بيوتات العلماء والقضاة والكتاب والزهاد، وبعض مؤلفي هذه المصنفات كان معاصرا وعلى علاقة مع بعض أفراد البيوتات محل الدراسة، لكنها في الغالب الأعم لا توردها أخبار البيت الواحد بشكل متتابع؛ فهي لا تشير إلى كون العَلَم المترجم به من بيت ما، ولا تركز على الربط بينه وبين بقية أخبار البيت الواردة تراجمهم في نفس الكتاب، لأنها تعتمد على الترتيب الأبجدي عموما في تراجم الأعلام، ولا تراعي ما أشرت إليه، مما يستدعي قراءة تلكم الكتب بأجزائها كاملة.

2- كتب الفهارس والبرامج

أما كتب الفهارس والبرامج والأبواب فهي تسمح لنا بتتبع الإنتاج العلمي المعرفي لأعلام البيوتات العلمية، كما تسمح لنا بتتبع مشايخهم ومروياتهم وتلاميذهم وتنقلاتهم، ومن أهمها:

- برنامج التجيبي، لابن رشيد التجيبي السبتي.
- برنامج الوادي آشي، لابن جابر الوادي آشي.
- برنامج المجاري، لعبد الواحد المجاري الغرناطي.
- تبت البلوي، لابن داود البلوي الوادي آشي.

وبقية كتب فني التراجم والفهارس المثبتة في نهاية الدراسة فاستفدنا منها في الفصل الثاني لضبط معالم الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط عبر مراحلها المختلفة، والمصادر المشرقية على وفرتها لا تفيدنا كثيرا في هذا الموضوع، لأنها تركز على حياة الأندلسيين في الأندلس أو في البلاد المشرقية التي زاروها أو استقروا بها، ومع ذلك فلا يمكن الاستغناء عنها؛ فمثلا ورد في المجمع المؤسس للمعجم المفهرس لابن حجر⁶ أن أبا سرحان مسعود بن نذير المالقي قدم تلمسان ودرس بها ومن تلامذته بها ابن مرزوق الخطيب، وهذه الإشارة لا نجدتها في المصنفات المغربية مطلقا.

3- كتب التاريخ العام

وفي مقدمة هذه الكتب نجد "رسالة الفتح الدعوة" للقاضي النعمان الشيعي، و"المقتبس" لابن حيان الأندلسي، و"نهاية الأرب" للنويري، و"البيان المغرب" لابن عذارى المراكشي، و"عيون الأخبار" للداعي عماد الدين القرشي اليمني الشيعي؛ فقد أمدتنا بمعلومات مهمة عن البيت الحملوني أمراء المسيلة، أما أهمها على الإطلاق فهو كتاب "العبر وديوان المتأخر والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر" المعروف اختصارا "بتاريخ ابن خلدون" خصوصا وأنه عاش في بجاية وتلمسان مدة من الزمن وكان شاهدا على كثير من الأحداث ومعاصرا لبعض البيوتات، وهو ينفرد بتفاصيل مهمة جدا عن بيوتات العصر

⁶ تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، ط1، بيروت: دار المعرفة، 1415-1994، 3/264.

الحفصي في بجاية كبيت ابن سيد الناس وابن الغمر وابن فرحون، أما كتاب أخيه يحيى بن خلدون المسمى "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" فأفادنا بشكل كبير في جزئه الأول؛ حيث صدره بذكر تراجم ثلة من العلماء وركز على الأندلسيين الذين استقروا بتلمسان، أما كتاب "أعمال الأعلام فيمن بويج قبل الاحتلام من ملوك الإسلام" لابن الخطيب فقد أفادنا عن أصل بعض البيوتات ووضعها في الأندلس قبل هجرتها إلى المغرب الأوسط، كما أفادنا عن نشاط بعض أعلامها ممن عاد إلى الأندلس لفترة معينة مثل البري التلمساني وأخيه أبي إسحاق التلمساني وحفيده محمد.

4- كتب الرحلات والجغرافيا

أما أهم الرحلات فهي رحلة ابن خلدون التي ضمنها التعريف بنفسه وبأصول بيته منذ أن كانوا باليمن ثم الأندلس ثم هجرتهم إلى العدو المغربية، وفيها دواء نشاط وتحركات بعض أفراد أسرته في بونة وبجاية وتلمسان.

أما كتب الجغرافيا الوصفية فاستفدنا منها في الفصل الثاني لرصد النشاط التجاري والعمري للبحارة والتجار الأندلسيين في القرون الأولى السابقة والمتزامنة مع ظهور البيوتات في المغرب الأوسط، وأهمها "صورة الأرض" لابن حوقل، و"المسالك والممالك" للبكري، و"نزهة المشتاق" للإدريسي، و"الروض المعطار" للحميري.

5- كتب النوازل والفتاوي

ومن أهمها "الدرر المكنونة في نوازل هازونة" للمغلي المازوني، ونوازل الونشريسي المسماة "المعيار المغرب"، و"نوازل ابن مرزوق"، و"نوازل الغرناطي"، التي من خلالها أمكن التعرف على أوجه الحضور الفقهي للبيت العقباتي انطلاقاً من فتاويهم الموثقة فيها.

6- الكتابات المادية

ونقصد بها شواهد القبور المحفوظة في متحف تلمسان وهي تعطينا أسماء جديدة لم نجد لها أي ذكر في المصنفات المتنوعة، وتخص البيت العقباتي التلمساني.

7- فهرس المخطوطات

وهذا النوع من التأليف أفادنا في معرفة ما سلم من المخطوطات التي ألفها أعلام البيوتات وأماكن تواجدها.

ب- عناصر العمل

لقد قسمت دراستي هذه إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

ففي المقدمة وقفت على أهمية الموضوع وإشكالاته والمنهج الذي اتبعته في معالجته، ثم تطرقت إلى بواعث ودوافع اختياري له والصعوبات التي واجهتني في مراحل إنجازها، واستعرضت بعدها بشكل موجز أهم المصادر التي خدمت الموضوع.

أما **الفصل الأول** فقد أفردته للحديث عن معنى لفظة البيت والبيوتات ومدلولاتهما اللغوية ثم الاصطلاحية، كما بحث التحديد الكمي الذي يشمل مصطلح البيوتات مستدلا على ذلك بنصوص مقدسة؛ أي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وبنصوص تراثية، وتطرق إلى كيفية توظيف السلطة السياسية الحاكمة للبيوتات ومدى الاستفادة منها، مع بحث عن العوامل الأخرى التي تتحكم في هذه الظاهرة وجودا وعدما، والأسباب التي تمهد لقوة أو ضعف بيت ما، ثم أدرجت أهم ما ألف عن البيوتات في التاريخ الإسلامي مشرقا ومغربا قديما وحديثا، تدليلا على أهمية الموضوع.

وفي **الفصل الثاني** الذي يعتبر البوابة الواسعة للدراسة؛ تطرقت إلى الصلات والعلاقات التي ربطت المغرب الأوسط بالأندلس قبل وبعد الفتح الإسلامي، لأصل إلى رسم المحطات وتحديد المراحل الكبرى للوجود الأندلسي في المغرب الأوسط، بدءا بالتجار، فالبحارة المؤسسين للمدن الساحلية، ثم الجالية التي تزامنت مع انهيار الكيان الموحد للأندلس وسقوط كثير من مدنها في يد الصليبيين، وقد حوّلت كثير من المعلومات الخاصة بالمرحلة الأخيرة إلى أرقام رياضية إحصائية، صنفتها في عينات تضمنت مدن نزوح هؤلاء الأندلسيون، وانتماءاتهم الإثنية، والوظائف التي شغلوها في المغرب الأوسط، ونوع استقرارهم فيه.

أما **الفصل الثالث** فقد خصصته للبيوتات التي ظهرت في العهدين الفاطمي والحمادي، فوقفت على أربع بيوتات هي: بيت بني حمدون أمراء المسيلة، وبيت ذكوان المنفيين إلى وهران، وبيت صُمادح أمراء المرية النازحين إلى تدلس، ثم بيت بني حمدون وزراء الدولة الحمادية ببجاية.

أما **الفصل الرابع** فقد خصصته لبحث البيوتات التي ظهرت بشكل قوي في تلمسان في أزهى عهدها أيام الموحدين والزيانيين، والتي بلغت عشر بيوتات تنوعت وظائفها وسماتها من بين بيوتات العلم والقضاء والوزارة والكتابة، فكان منها بيت العقباني التحجبي وهو أشهر بيت أندلسي في المغرب الأوسط بعد بيت ابن حمدون بفرعيه (أمراء المسيلة، ووزراء بجاية الحمادية)، فكان لعلماء تلك البيوتات آثار علمية بارزة جدا، خدمت بها الثقافة الإسلامية العربية في المغرب الأوسط وعموم المغرب، بما خلفته من مؤلفات قيمة لا يزال بعضها متداولاً إلى يومنا هذا.

وفي **الفصل الخامس** تطرقت لبحث البيوتات التي ظهرت في بجاية في عهد الموحدين والحفصيين، التي كانت لها آثار جلية في توجيه سياسة الدولة الحفصية سواء على المستوى الداخلي أو على مستوى علاقاتها الخارجية مع البلدان المجاور لها، كما حددت في كثير من الأحيان موقف سلطة بجاية من الحكم المركزي في تونس، وأشهر هذه البيوتات بيت ابن سيد الناس وابن غمر وابن خلدون.

أما الخاتمة فقد ضمنتها أبرز وأهم النتائج التي توصلت إليها من خلال دراستي للموضوع.

ج- طموحات العمل

يطمح هذا العمل أن يكون باكورة ولبنة أساسية لمشروع أكبر وهو مشروع معجم بيوتات المغرب الأوسط الأصيلة والوافدة، لفهم حلقات تاريخه وأحداثه بعيدا عن التهويل والتهوين.

مصطلح البيوتات: مفاهيمها ودلالاتها في القواميس اللغوية

البيوتات جمع بيوت ومفرده بيت، فيقال: بيت العرب أي شرفها، والبيت من بيوتات العرب الذي يضم شرف القبيلة كآل حصن الفزازيين وآل الجديين الشيبانيين وآل عبد المدان الحارثيين، وهي أعلى بيوتات العرب عزة وسؤدد، حسب ابن الكلبي.

ويقال بيت عيم في بني حنظلة أي شرفها.

وقد قال العباس بمدح النبي ﷺ:

حتى احتوى بيتك المهيم من خندفَ علياءَ تحتها التُّنُقُ

فجعلها في أعلى خندف بيتاً؛ أراد بيته: شرفه العالي، والمقصود بالمهيم هنا: الشاهد بفضلك.

وتقول العرب فلان بيت قومه أي شريفهم.¹

ومن معاني البيت والبيوتات: الشرف والشريف.²

وقال ابن المطرز: "البيوتات جمع بيوت، جمع بيت وتختص بالأشراف".³

فالملاحظ أن اللغويين يركزون على معنى الشرف دون غيره.

ومن مرادفات مصطلح البيوتات نجد: الأبيات، والأسر، والعوائل، والمصطلح الأخير هو الأكثر شيوعاً في

الأبحاث الشرقية الحديثة، في حين يستعمل الباحث المغربي مصطلح البيوتات والأسر بالتوازي.

شرف ابن خلدون للبيوتات

لم أجد حسب اطلاعي في كتب التراث العربي والإسلامي من أعطى تعريفاً للبيوتات غير ابن خلدون،

الذي قال: "معنى البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرافاً مذكورين، تكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلّة

في أهل جلدته، لما قر في نفوسهم من تجلّة سلفه وشرفهم بخلالهم".⁴

والشرف الذي يعنيه ابن خلدون هنا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحسب والعصبية في القبيلة التي منها البيت.

مصطلح البيوتات في القرآن الكريم

لم يرد في القرآن الكريم مصطلح البيوتات بصيغة الجمع، لكن ورد مفردة المراد منه الشرف والسؤدد في

أربعة موضع:

¹ ابن منظور. لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير وآخرين، القاهرة: دار المعارف، 1/ 393، مادة بيت.

² الفهري آهادي. القاموس المحيظ، تحقيق يوسف محمد البقاعي، بيروت: دار الفكر، 1426-2005، ص 137، مادة: ب ي ت.

³ المغرب في ترتيب المغرب، تحقيق محمود ماحور وعبد الحميد مختار، ط 1، حلب: مكتبة أسامة بن زيد، 1979، 1/ 95، مادة بيت.

⁴ المقدمة، بيروت: دار الفكر، 1422-2002، ص 137.

الأول: قول الله ﷻ حكاية عن سارة زوجة إبراهيم ﷺ لما بشرها الملائكة بإسحاق ويعقوب عليهما السلام: ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

﴿ [هود: الآية 73]

الثاني: قوله ﷻ حكاية عن أخت موسى ﷺ: ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ

لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِیحُونَ ﴿ [القصص: الآية 11].

الثالث: قوله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا

﴿ [الأحزاب: الآية 33]

فأهل البيت المقصود منهم في الآية أزواج النبي ﷺ خاصة، كما ورد في التفسير.¹

الرابع: قوله ﷻ حكاية عن قرية لوط ﷺ: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿

[الذريات: الآية 36]

وورد في القرآن الكريم أيضا مرادف لكلمة البيت؛ أي كلمة "أهل" في قوله تعالى: ﴿ وَأَجْعَلِ لِي وَزِيرًا

مِّنْ أَهْلِي ﴿ [طه: الآية 28] قال أهل التفسير: "يقول: واجعل لي عوناً من أهل بيتي".²

مصطلح البيوتات في السنة النبوية المشرفة

أما في السنة النبوية المشرفة فلم يرد فيها إلا مصطلح بيت بصيغة المفرد كذلك؛ تخصيصاً بآل النبي ﷺ، وهي

أحد عشر كثيرة تقتصر على ذكر بعضها، كحديث ابن عباس ؓ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿ [الضحى: الآية 5]، قال: "من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل

بيته النار".³

¹ الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، القاهرة: دار الفكر العربي، 10/294، ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار الفكر،

1422-2002/3/1480

² الطبري. جامع البيان، 8/410

³ المصدر نفسه، 12/624

وكحديث كعب بن عجرة قال: (...سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت فإن الله قد علمنا كيف نسلم عليكم؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد).¹

من كد علم يتكون البيت؟

يرى ابن خلدون أن نهاية شرف البيت وحسبه يكون بعد أربعة آباء حيث يقول: "أن كل شرف وحسب فقدمه سابق عليه شأن كل محدث، ثم إن نهايته أربعة آباء".²

وابن خلدون نقل هذه الفكرة عن مدونات التراث العربي العتيقة، فقد أوردها الأصبهاني نقلا عن ابن الكلبي: "قال كسرى للنعمان هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة؟ قال: نعم، قال: بأي شيء؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، ثم اتصل ذلك بكمال الرابع، والبيت من قبيلته فيه"، ولما جمعت البيوتات التي انطبق عليها هذا الوصف أمر كسرى شعراءها أن تتكلم بمآثر بيوتاتها فذكرت: وراثة الملك عن الآباء الأقدمين، الثبات في القتال، أخذ الثأر، قول الحق، الكرم، منعة الجار، كثرة العدد، وغيرها من الخلال، فلما سمع كسرى ذلك منهم قال: "ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه".³

فملخص ذلك أن البيت يتكون من أربعة شخصيات فأقل، لكن هاتين الفقرتين لا تفيدينا بالحد الأدنى الذي يتكون منه البيت، لذا سنعود إلا الفترة السابقة للأصفهاني ولابن خلدون لمحاولة معرفة ذلك، وتحديدًا إلا تفسير الآيات المذكورة سلفًا.

قوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾، فالبيت هنا مكون من أربعة أعلام وهم: إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة وابنه إسحاق وحفيدهما يعقوب عليهما السلام؛ المبشر بهما في قوله تعالى قبل الآية المذكورة: ﴿فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.⁴

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أن هذا البيت يمثله ثلاث أعلام هم: سيدنا لوط عليه السلام وابنتيه فقط؛ وهو الصحيح وعليه أكثر المفسرون.⁵

¹ البخاري. الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط3، بيروت: دار ابن كثير - دار اليمامة، 1407-1987، 1233/3، (حديث رقم 3190، كتاب الأنبياء).

² ابن خلدون. المقدمة، بيروت: دار الفكر، 1422-2002، ص140، فصل 15: في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء.

³ أبو الفرج الأصفهاني. الأغاني، تحقيق سمر حابر، ط2، بيروت: دار الفكر، 196/19-200.

⁴ الطبري. جامع البيان، 74/7.

⁵ ابن عطية الأندلسي. تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1422-2001، 179/5.

ابن حبان الأندلسي. تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1413-1993، 8/8.

والرقم ثلاث هو الحد الأدنى الذي نرتضيه لإقرار القرآن الكريم له، وقد ارتضاه قبلنا بعض الدارسين كرضا هادي عباس الذي قدم أطروحة دكتوراه بعنوان "القضاء والقضاء في الأندلس من عصر الفتح حتى عصر غرناطة: 92-635 هـ"، ففي الفصل الرابع منها تطرق إلى بيوتات القضاء أين أحصى 63 بيته، وكان أكبر بيت يظم 9 قضاة وأدناها يظم 3 قضاة، وأكد أن هذه البيوتات ستكون مجالاً رحباً لإعداد بعض البحوث والدراسات المستقبلية.¹

توظيف البيوتات في التاريخ الإسلامي

ظاهرة البيوتات ظاهرة متجذرة في التراث والتاريخ العربيين تجذر الفكر القبلي والقبيلة نفسها، ذلك أن منشأ كل قبيلة هو بيت نبيه² بدأ بشخصية واحدة ذات تأثير واسع ومكانة مرموقة ورثتها في عقبه المتناسل. وفي كثير من الأحيان كان الولاء للبيوتات يوازي الولاء للقبيلة، وبالتالي الاستفادة من الخطوة والجاه والسلطة، كما كانت قوة القبيلة تنبع من قوة البيوتات المكونة لها والعكس كذلك، فمن الفخر أن يقول المرء عن قبيلته أو وطنه أنه أصل البيوتات، وهذا ما عبر عنه ابن القزويني لما أخذ أسيراً للحجاج فحين سأله هذا الأخير عن أهل اليمن قال: هم "أصل العرب وأهل البيوتات والحسب".³

ومما شجع على ظهور هذه البيوتات في الدولة الإسلامية بعد الخلافة الراشدة هو تكريس مبدأ الملك العضوض منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان (41-60)، إذ ترتب على مصادرة الحكام لإرادة الأمة عبر تاريخها الطويل، وعلى جموحهم "الغريزي" في توريث الحكم قسراً، أن شاعت في الرعية روح اليأس الأبدي من الإصلاح، في ظل حكم تقاسمه البيوتات دون غيرها، وهو ما عبر عنه الشاعر الأموي عبد الله بن همام⁴ (توفي نحو 100 هـ) ساخراً:

فإن تأتوا برملة أو بهند نباعها أميرة مؤمنينا
إذا مات كسرى قام كسرى بنوه بعده متناسقينا

138، عبد الرحمن النعالي. الجواهر الحسان في تفسير آي القرآن تحقيق محمد علي عوض وآخرين، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي- مؤسسة التاريخ العربي، 1418-1997 / 5 / 303، ابن عاشور. التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984، 8/27.

¹ الأندلس محاضرات في التاريخ والحضارة، مالطا: منشورات إلجا ELGA، 1998، ص197، 200-212.

² أحيانا يصل البيت إلى قمة السلطة مروراً بتشكيله للقبيلة كما الشأن مع قريش والدولة البوية ودولة الخلفاء الراشدين، أنظر في ذلك: خليل عبد الكريم. قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، ط2، بيروت- القاهرة: دار الانتشار العربي- سينا للنشر، 1997، (ص402)، وأحيانا يصل إلى السلطة مباشرة متجاوزاً في ذلك القبيلة كما هو الحال مع البيت السفياي والمرواني في الدولة الأموية والبيت العباسي في الدولة العباسية والبيت الأغلبي والرستمي والحمادي والموحدي والحفصي والزياتي في المغرب الإسلامي، ومن هذا المنطلق أصدر المستشرق النمساوي إدوارد فون زامباور كتاب بعنوان: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرين، بيروت: دار الرائد العربي، 1400-1980، (ص543).

³ أحمد زكي صفوت. جمهرة خطب العرب، بيروت: المكتبة العلمية، 246/2.

⁴ هو عبد الله بن همام بن نبيشة بن رباح السلولي من بني مرة بن صعصعة، لقب بالقطار لحسن شعره، أنظر: ابن سلام الجمحي. طبقات فحول الشعراء، بيروت: دار النهضة العربية، ص132، ابن قتيبة. الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار المعارف، 561/2، الزركلي. الأعلام، ط15، بيروت: دار العلم للملايين، 4/2002، 143.

خشينا الغيظ حتى لو سُقينا دماء بني أمية سُفينا

وقد وردت هذه الأبيات في معرض ذم الطريقة التي آلت بها الخلافة إلى يزيد بن معاوية،¹ بعد أخذ البيعة له في حياة أبيه سنة 47 هـ، فأصبحت بعض الوظائف في الدولة كالوزارة والحجابه والقضاء والكتابة وقيادة الجيش تورث كما تورث العروش والممالك، كتحالفات لضمان استقرار العرش نفسه.

وبعض هذه القناعات لدا السلطة السياسية آنذ في توريث المناصب لأهل البيوتات؛ هي مقتبسة من تراث الفرس واليونان، فقد قال كسرى أنوشروان: "ينبغي أن يكون صاحبُ إذن الخاصة [أي لحاجب] رجلاً شريف البيت".²

وينبغي أن نذكر في هذا الموضوع رسالة أرسطو إلى الإسكندر في معنى المحافظة على أهل البيوتات وذوي الأحساب، وأن يحطهم بالرياسة والإمرة ولا يعدل عنهم إلى العامة والسفلة، حيث ينصح قائلاً: "إنك إن تقتل أشرفهم تُخلفَ الوضعاء على أعقابهم وتورث سفلتهم على منازل عليتهم وتغلب أدنياءهم على مراتب ذوي أخطارهم، وأشد توهيناً لسلطانهم من غلبة السفلة وذلل الوجوه.. أعمد إلى مَنْ قبلك من أولئك العظماء والأحرار، فوزع بينهم مملكتهم وألزم اسم الملك كل من وليته منهم ناحيته...".³

فتوظيف السلطة السياسية للبيوتات لم يكن دائماً مبدأ سليماً، بل كانت الحاجة الملحة في فترات معينة هي التي تدعو إليه، فمما جاء في وصية الإمام علي عليه السلام لمالك بن الأشتر النخعي لما ولاه مصر وأعمالها سنة 37 هـ (وهي سنة وفاته) قوله: "ثم ألحق بذوي المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جماع الكرم وشعب العرف، ثم تفقد أمورهم ما يتفقده الولدان من ولدهما".⁴

وقال عمر بن عبد العزيز عليه السلام لإياد بن معاوية: "دلني على قوم من القراء أولهم، فقال له: إن القراء ضربان: ضرب يعملون للأخرة، وأولئك لا يعملون لك، وضرب يعملون للدنيا فما ظنك بهم إذا مكنتهم منها، فقال: ما أصنع؟ قال: عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأنسابهم ويرجعون إلى أعراقهم فولهم".⁵

فحين لم يكن في زمن هؤلاء مدارس لتكوين الموظفين الإداريين يعتمد عليهم في تسيير شؤون إدارة المدن والأقاليم ومختلف المناصب؛ كان المخرج هو الاعتماد على أعلام أهل البيوتات الذين رباهم آباؤهم تربية نموذجية من طراز عالي،⁶ فعلموهم الكتابة والقراءة والأدب والشعر والفصاحة والسير والأخبار والأيام وما إلى ذلك، بالإضافة إلى التربية النفسية والاجتماعية من لباقة وكرم وجرأة وإقدام وفروسية، كما علموهم مبادئ

¹ ابن طاهر المقدسي. البدء والتاريخ، تحقيق كلمان هوار، باريس، 1916، 8/6.

² الجاحظ. رسائل الجاحظ، تحقيق عبداً مهنا، ط1، بيروت: دار الهداية، 1988، 2/25.

³ ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار الفكر، 13399-1979، 17/55-57.

⁴ ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة، 17/51، عبد الحميد شاكر. وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، ط1، طرابلس-لبنان، جورس برس، 1415-1994، ص128.

⁵ أبو حيان التوحيدي. الدخائر والبصائر تحقيق وداد القاضي، ط1، بيروت: دار صادر، 1984، 69/1.

⁶ مهدي شمس الدين. دراسات في نهج البلاغة، ط3، دار الكتاب الإسلامي، 1401-1981، ص87.

الوظائف التي كانوا يشغلونها هم، وينقلون إليهم تجارهم في الممارسة السياسية وطرق الوصول إلى المناصب والاحتفاظ بها.

واهتمام السلطة بالبيوتات لم يقتصر على فتح المناصب الرفيعة أمامهم بل تعدى ذلك إلى رعاية أحوالهم الاجتماعية والمادية، بالإحسان إليهم والسؤال عنهم وتقديم المعونة لهم وتسديد ديونهم ونحو ذلك، فقد جاء في وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما سنة 206 هـ .. وأنظر أحرار الناس وذوي الشرف منهم ثم استيقن صفاء طويتهم وتهذيب مودتهم لك؛ ومظاهرتهم بالنصح والمخالطة على أمرك فاستخلصهم وأحسن إليهم، وتعاهد أهل البيوتات منهم ممن دخلت عليهم الحاجة فاحتمل ثنوتهم وأصلح حالهم حتى لا يحسوا لخلتهم مسا".¹

أما أبو بكر بن عبد الله؟ والي المدينة كان إذا عزم على أمر ذا بال خطب في الناس يوم الجمعة وأمر أهل البيوتات ووجوه الناس أن يتقدموا الصفوف الأولى ويدنيههم من المنبر،² دون غيرهم تحجيلاً وإقراراً بمكانتهم. ثم إن توظيف السلطة للبيوتات تختلف أهدافه باختلاف وتنوع البيوتات، من علمية ودينية وسياسية.

فحالها مع البيوتات العلمية يفرض عليها التعاطي معها لكسب جزء من الشرعية، ففي غياب عمل المؤسسات تبقى السلطة السياسية بحاجة إلى نوع من معارف البيوتات تساعد في صراعها مع منافسيها وتمكنها من الاحتفاظ بها، وهي معارف تعطي السلطة نوعاً من الشرعية التي يقبلها المجتمع الذي يخضع لتلك السلطة، وترسخ صورتها "الحسنة" لدى الناس المحكومين، ليحقق من خلال ذلك كسب تأييدهم لصاحب السلطة.

لأن "التاريخ الإنساني يبيّن أن أصحاب السلطة غير متفرغين لامتلاك هذا النوع من المعارف، وهم غالباً ليسوا - قبل استلامهم السلطة- ممن يملكون المعرفة التي تمكن صاحبها من اكتساب الاحترام والإجلال في الوسط الاجتماعي، وتجعله يهيمن على أفراد، فيسمعون رأيه، ويحكمون إليه عند الحاجة، ويسلمون بما يصدر عنه، فهم بحاجة إليه لأنه يشكل مرجعاً، حياتياً ويومياً وعملياً لكافة أشكال العلاقات الإنسانية والاجتماعية والدينية والتاريخية والقضائية والمالية والروحية، يجدون لديه رداً على كل احتياجاتهم وتساؤلاتهم، وحلولاً لكل مشكلاتهم، ولذلك فإن أصحاب السلطة السياسية بحاجة إلى هؤلاء، وهذا يعني افتراض أن السلطتين في الأصل كانتا مجتمعيتين لضرورة كل واحدة منهما للأخرى، ولكن ظروفًا مختلفة أدت إلى الفصل بينهما.

وكما تتعدد أشكال السلطة السياسية وتختلف، فإن من يملكون المعرفة تتعدد أشكالهم المعرفية وتختلف، وهؤلاء تتنوع مواقفهم من السلطة من استجابة ورفض وحيادية، فالعلاقة بين الطرفين علاقة جدلية قائمة على مصلحة، ولذلك فهي تقوم على الصراع والمعارضة غالباً، وعلى الاتفاق في بعض الأحيان عند فئة من ممثلي المعرفة".³ وكذلك الحال مع بيوتات القضاء والكتاب والوزراء.

¹ الطبري. تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1967، 589/8، ابن الأثير. الكامل في التاريخ، ط4، بيروت: دار الكتاب العربي، 1424-2004، 525/5، أحمد زكي صفوت. جبهة خطب العرب، 3/ 226.

² المرجع نفسه، 3/ 226.

³ حسين الصديق. الإنسان والسلطة: إشكالية العلاقة وأصولها الإشكالية، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2001، ص 18-19.

السلطة والجاه وأثرهما في صناعة البيوتات

لقد استفادة البيوتات من جاهها ووجاهتها التي جعلتها تحتكر العمل السياسي وتتصدر المناصب الرفيعة في الدولة، وهذه الوجاهة منها ما هو مكتسب ذاتي ومنها ما هو نتيجة مباشرة لتلك المكتسبات، من مال ورجال وخصال وفضائل ونحو ذلك، فقد قال قيس بن سعد بن عباد: "اللهم أرزقني حمداً ومجداً، فإنه لا حمد إلا بفعال ولا مجد إلى بحال"¹، وفي تعقيب الجحباب بن المنذر بن الجموح على كلام أبي بكر الصديق وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما يوم السقيفة قال: "أنتم [قريش] أهل العز والثروة وأولو العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنحلة"².

وقد كانت هذه البيوتات حريصة على أن تكون كل وشائجها وعلاقاتها تصب في خدمة وتكريس التفوق والمحافظة على عراققتها بالمصاهرة في البيوتات العريقة مثلها، ففي وصية غيلان بن سلمة (من أهل القرن I هـ) لابنه يوصيه بمصاهرة أهل البيوتات قال: "يا بني قد أحسنت خدمة أموالكم وأجمدت أمهاتكم، فلن تزالوا بخير ما غنوتم من كرم وغذا منكم، فعليكم ببيوتات العرب فإنها معارج الكرم"³، وهذا ليضمن اتقاد الشعلة الروحية والنفسية التي تجعل الأعقاب والأحفاد يشعرون بمكانتهم وسموهم في المجتمع وحاجة الدولة والسلطة إليهم، وبالتالي العمل من أجل تحويل هذه الحالة الشخصية إلى واقع ممارس، فالصورة النقيض لذلك أي الخمول والاستكانة والعجز أول أسبابها هي الشعور بمهانة الأصل أو النفس.

وبقاء الوجاهة والشرف محصورين في فئة قليلة ومحدودة له ما يبرره؛ لأن كل خصلة وكل فضيلة وكل صنعة إنما تكسب قيمتها من قلتها وتفقدتها بكثرتها، لذا قال أحد الحكماء: "إنما صار العلم والمعرفة واليقين والفضائل بأسرها قليلة في هذا العالم لشرفها في أنفسها واتصالها بعالمها، وهكذا أعزه كل شيء شريف في نفسه وعزيز في جوهره، أنظر إلى المعادن في الأرض وإلى قلتها إذا تدبرت سائر الأجسام، ثم أنظر إلى قلة الأشرف منها وهو معدن الذهب، ثم أنظر إلى بخل المعدن بما فيه إلا لمستحقه بالطلب والجهد والمعاناة والكدح، وهكذا المعارف والفضائل تعرف في هذا الجانب؛ لأنها تنبو عنه فلا تقر فيه ولا تأنس به"⁴.

ورغم أن كثرة البيوتات مهمة في حياة أي مجتمع؛ لأن المرء إذا كثر في يده معدن الذهب عُد غنياً، فكذلك المجتمع إذا كثرت فيه البيوتات دلت على خيريته وحيويته ورقية حسنا ومعنى، وهذا معتقد سيدنا إبراهيم عليه السلام حين كان يجادل الملائكة التي بعثها الله عذاباً لقرية لوط عليه السلام أن يتركوها، فقال: "أرأيتم إن كان فيها عشرة أبيات من المسلمين أتركوهم؟ فقالت الملائكة: ليس فيها عشرة أبيات ولا خمسة ولا أربعة ولا ثلاثة ولا

¹ الجاحظ. البيان والبيان، تحقيق عبد السلام هارون، ط7، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1418 - 1998، 2/ 147.

² الطبري. تاريخ الأمم والملوك 3/ 220.

³ الأصبهاني. الأغاني 13/ 228.

⁴ أبو حيان التوحيدي. المقابسات، تحقيق حسن السندي، ط2، الكويت: دار سعاد الصباح، 1992، ص 319.

اثان"، فذلك قوله ﷺ: ﴿تُجَدِّلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٦﴾. ¹ |هود:

[الآية 74 - 75]

ومن أجل أن تبقى دائرة الوجاهة والسؤدد² في نطاق ضيق تحكركه بيوتات محدودة حتى لا تنافسها العامة³ ومن في حكمهم، ومن أجل ألا تفقد الوجاهة والسلطة معناها حين تصبح مشاعا للجميع؛ عملت أغلب البيوتات على منع مصاهرة غيرها ممن هو أقل شأنًا منها، لذا نجد كثيرا ما يطرح مسألة تكافؤ النسب في الفقه الإسلامي ومشكلة مدى صحة زواج القرشية بغير القرشي، ومن أجل المبدأ المقرر سلفا؛ دعا بعض الوجهاء المستفيدين من ريع السلطة إلى الوقوف في وجه تعليم أبناء العامة الذين يسميهم "السفلة"، يقول أبو حيان التوحيدي: "لا ترفهوا السفلة فيعتادوا على الكسل والراحة، ولا تُجرئوهم فيطلبوا السرف والشغب، ولا تأذنوا لأولادهم في تعليم الأدب فيكونوا لرداءة أصلهم أذهن وأغوص، وعلى التعليم أصير، ولا جرم فإنهم إذا سادوا في آخر الأمر خربوا بيوت العلية أهل الفضل".⁴

رغم أن أصل التوحيدي كان من هؤلاء الذين يسميهم الرعاع فأبوه كان يبيع التمر في أسواق بغداد، إلا أنه تنكر لهم وذهب إلا حد التحريض على أن يحال بينهم وبين التعليم ما أمكن، لأن في ذلك تهديدا لطبقة السادة أهل البيوتات، ما داموا قد استعاضوا عن نخسة الأصل بشرف العلم والحكمة، إذ الطلب على قدر المشقة.

وحتى بعض المعلمين كانوا يستنكفون عن تعليم أبناء العامة تقريبا إلى أهل البيوتات والوجهاء، لذا صنّفهم الجاحظ⁵ إلى ضربين فقال: "رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة.. إن لكل قوم حاشية وسفلة فما هم في ذلك إلا كغيرهم"، ولا شك أن من معلمي أبناء الخاصة ومؤدبو أبناء الملوك ليسوا ناسا عاديين على الأقل في ثقافتهم ومستواهم العلمي وفي نظرة السلطة إليهم.

وقد تستفيد البيوتات من هؤلاء العامة حين يصبحوا من المؤثرين ذوي المكانة؛ بالولاء والاصطناع فيصبحون جزءا من شرف البيت الذي ينتمون إليه، فقد قال النبي ﷺ: (سلمان منا أهل البيت).⁶

¹ الطبري. جامع البيان، 10/137.

² أنظر معاني السؤدد في التراث العربي: الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق إبراهيم زيدان، القاهرة: مكتبة الهلال، 1902، ص63-66.

³ عن العامة وكيف يُنظر إليها راجع، عادل محي الدين الألويسي. الرأي العام في القرن الثالث الهجري، ط 1، بغداد: دائرة الشؤون الثقافية العامة، 1987، (272 ص).

⁴ أبو حيان التوحيدي. الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت: دار ومكتبة الحياة، 1/205، علي أوعليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ط3، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998، ص106.

⁵ الجاحظ. البيان والبيان، 1/250.

⁶ الحاكم. المستدرک على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411-1990، 3/691، حديث رقم 6539، (باب ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه).

وقال أيضا: (جريرو منا أهل البيت ظهرا لبطن)¹.

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: "قدمت أنا وأخي من اليمن فمكننا حينما ما نرى [عبد الله] ابن مسعود وأمه إلا من أهل البيت من كثرة دخولهم ولزومهم له."²

كما أن هذه القناعة تصبح حقيقة متجاوزة لحالة شعور المولى المصطنع؛ وهو ما يعبر عنه أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، حين قال: "كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت [أنا]"³، فهو يعد نفسه من أهل البيت لا من مواليهم وغلمانهم.

والموالي تستفيد من البيوتات التي التحمت في نسبها، وعمور الزمن يتناسى الولاء والاصطناع ويصير المولى سيدا في بيت الشرف ذاك، كما حدث مع عرفجة بن هرثة الأزدي مولى بجيلة يوم ولاة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عليها، فلما تذكروا أنه مولى لهم طلبوا تأخيرها والإعفاء منه، وقالوا: "هو فينا لزيق أي دخيل ولصيق"، فولى عليهم بدله جريرو بن عبد الله البجلي⁴، وعلق ابن خلدون على هذه الواقعة قائلا: "وأنظر منه كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدتهم ودُعي بنسبهم حتى ترشح للرئاسة عليهم، لولا علم بعضهم بوشجائه؛ ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتتوسى بالجملة وعُد منهم بكل وجه ومذهب"⁵.

والنسب مفيد جدا في البيوتات فقد قال رضي الله عنه: (الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إن فقهوا)⁶، أي أن نسب المرء مفيد له إن استكمل شرفه بخلال الفضيلة والمعرفة، كما أن نسب السوء مهلك للمرء إن ورثه وورثه في عقبه، فقد ذكر هذا المعنى قتادة (تـ 117 هـ) وهو أحد أئمة التفسير وأقطاهم في

قوله تعالى حكاية عن مريم: ﴿يَتَأَخَّتْ هَنُورًا مَّا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ ١٣٨ قال: "كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به"⁷، ولهذا نجد أحد أصحاب كتب التراجم⁸ يركز في تراجمه لأعلام بيت ما على توارثهم الصلاح والفضل والتصوف، تأكيداً لتفسير قتادة المشار إليه.

¹ الطبراني. المعجم الكبير، تحقيق حدي عبد المجيد، الموصل: ط2، مكتبة العلوم والحكم، 1404-1983، 2/ 291، حديث رقم 2211.

² البخاري. الجامع المختصر الصحيح، 1593/4، حديث رقم 4123، (باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن).

³ الإمام أحمد. المسند، القاهرة: مؤسسة قرطبة، 9/6، حديث رقم 23915

⁴ ابن الأثير. أسد الغابة في معرفة الصحابة، 1/ 176.

⁵ المقدمة، ص 135.

⁶ البخاري. الجامع الصحيح المختصر 3/ 1238، حديث رقم 3203، باب قول الله تعالى: (لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين)، مسلم. صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، حديث رقم 2526، باب خيار الناس.

⁷ الطبري. جامع البيان، 8/ 335

⁸ المنذري. التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، ط4، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1408-1988. 2/ 100، 2/ 396، 2/ 466، 3/ 388، 3/ 398، لكن من الملاحظ أن البيوتات المتوارثة لتصرف قليلة جدا مقارنة بغيرها سواء في الشرق أو المغرب، أنظر مثال ذلك في: حسين سيد عبد الله مراد. المتصوفة في المغرب الأقصى في عصر المرابطين والموحدين، القاهرة: المطبعة الإسلامية الحديثة، 1421-2001، ص82-83.

فبعض الخصائص السلوكية والأخلاقية تتوارث كما تتوارث المعارف والثقافة، باعتبار أن الثقافة نفسها سلوك حسب تعريف L. G. Carr لها، حيث يقول: الثقافة "هي ذلك النتاج التراكمي القابل للتحويل من سلوك الماضي في جماعة أو تجمع ما".¹

فكما أن النسب والحسب مفيد للعالم ومن في حكمه من الأدباء والحكماء وغيرهما، كذلك العلم والأدب مفيد للحسيب والنسيب.

وقد قيل: "فضيحة حسيب لا أدب له أفضع وأشنع من فضيحة أديب لا حسب له.. لأن هذا عَدَمَ ما يُقَوِّم به نفسه ويكمل ذاته، وذاك فَقَدَ ما يُقَوِّم أصله ويستر قديمه، والنفس أرفع من الأصل، لأن الأصل راجع الولادة والنفس دالة على النقص والزيادة".

فالإنسان قد يحسب بمهانة أصله أو نزوله عن شرف النسب، فيتلاقى ذلك بكسب الخير وخلاله وشدو الأدب وقصد العلم، فيكون ذلك له عوض عما فقدته، كما أن الإنسان يحسب بشرف أرومته ومكانة أبائه فيتكل على ما سبق لأوليته، ويتكاسل عن تحلّيت نفسه ليلحقها بحلى من سبقه منهم،² فيكون حينها حال الإنسان الأول أشرف من حاله.

أما إذا تجاوزت البيوتات ذروة المجد والسؤدد واستغنت عن السلطة بحيث أصبحت هي السلطة ذاتها، نزعت منها صفة البيت وتحولت إلى ملك، فقد ذكر أبو عبيدة أن العرب كانت تعد البيوتات المشهورة بالكبر والشرف بعد بيت هاشم بن عبد مناف ثلاث بيوت ومنهم من يقول أربعة، أولها بيت آل حذيفة الفزاري.. أما كندة فلا يعدون من أهل البيوتات إنما كانوا ملوكا".³

ظهور البيوتات وتلاشيها

الشرف والحسب المكون للبيت عارض من العوارض التي تطرأ على الإنسان والمجتمع، فلم يتصل شرف إنسان على وجه الأرض منذ آدم إلى يومه، إلا الرسول محمد ﷺ⁴ لسر وحكمة، ذلك أن كل شرف وحسب عديم سابق عليه، يكابد بانيه الأول ما يكابد من أجل تحصيله وتوريته في عقبه، إلا أن يأتي الابن الرابع فيهدم هذا المجد بإضاعته الخلال والخصال المورثة له وتساقطه في الطريق، لذا قال ابن خلدون: عن أجيال

¹ محمد السويدي. مفاهيم علم الاجتماع الثقافي، ط1، الجزائر- تونس: المؤسسة الوطنية للكتاب- الدار التونسية للنشر، 1411- 1991، ص 48.

² التوحيدى. المقابسات، ص 168- 169، نفسه. البصائر والدخائر، 22/1.

³ أبو الفرج الأصباني. الأغاني، 19/ 196.

⁴ وهذا مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قسم الخلق قسمين فحملني في خيرهما قسما فذلك قوله: (وأصحاب اليمين)) (وأصحاب الشمال)، فأنا من أصحاب اليمين وأنا من خير أصحاب اليمين، ثم حمل القسمين بيوتا فحملني في خيرهما بيئا فذلك قوله: (فأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) (وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) (والسابقون السابقون) فأنا من خير السابقين، ثم حمل البيوت قبائل فحملني في خيرها قبيلة فذلك قوله (شعوبا وقبائل)، فأنا أتى ولد آدم وأكرمهم على الله عز و جل ولا فخر، ثم حمل القبائل بيوتا فحملني في خيرها بيئا فذلك قوله (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)، أنظر: الطبراني. المعجم الكبير، 3/ 56، حديث رقم 2674.

البيوتات أهما أربعة: بان، ومباشر له، ومقلد، وهادم، وبصورة أكثر دقة ووضوحا يقول: "ذلك أن بابي المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه، وابنه من بعده مباشر لأبيه؛ فقد سمع منه ذلك وأخذ عنه، إلا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعين له، ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة، فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد، ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها، وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وإنما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسائهم وليس بعصاة ولا بخلال.."¹

واعتبار الأربعة هو تخريج للغالب في أحوال تلك البيوتات، كما أنه تخريج للمدح والثناء الذي وصف به الرسول ﷺ يوسف عليه السلام في قوله: (الكريم ابن الكريم ابن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم)²، وإلا فقد يندثر البيت في العقب الثالث، وقد يصل مجده إلى العقب الخامس والسادس وأكثر، لكن أمرهم آيل إلى النقصان ثم الانحطاط والتلاشي.³

وقد يعود البيت من جديد بعد زواله واندثاره بصورة مغايرة تماما للصورة التي ظهر بها من قبل، كما حدث مع البيت البرمكي؛ فقد كانوا من سرات القوم ووجوههم في دولة الفرس وأشرف بيوتاتهم؛ فهم سدنة بيت النار المقدسة في معتقدتهم، ويسقط دولة الفرس اندثر بيتهم، ثم لما دخلوا الإسلام وتقربوا من الدولة العباسية بنوا مجدهم من جديد وأصبحوا أعظم الناس بيتا وشرفا على عهد الخليفة هارون الرشيد (170-193).⁴

فما السر في عودة هذا البيت من جديد؟ وما الذي جعله يظهر بهذه القوة وبهذه المكانة؟

يفسر ابن خلدون ذلك فيقول: "أن الشرف بالأصالة، والحقيقة إنما هو لأهل العصبية؛ فإذا اصطنع أهل العصبية قوما من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي، والتحموا بهم.. ضرب معهم أولئك الموالى والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كأنها عصبيتهم، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها"⁵، وابن خلدون يدلل ويستشهد على تفسيره ذلك بقوله عليه السلام: (مولى القوم منهم)⁶، ف يرى أن نسبهم وشرفهم الأول غير معتبر هنا، لأن ثمرة الشرف والحسب هو العصبية وهي هنا مفقودة، واستعاضوا عنها بعصبية بني العباس عصبية الدولة والرسوخ في ولاءها والأصالة في اصطناعها، فشرف بني برمك مشتق من شرف بني العباس.⁷

¹ ابن خلدون. المقدمة، ص140، فصل 15: في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة أباء.

² البخاري. الجامع الصحيح المختصر، 1237/3، حديث رقم 3202، باب قوله تعالى: "أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت".

³ ابن خلدون. المقدمة، ص140.

⁴ راجع أخبارهم في: عماد دياب الإيتيدي. إعلام الناس بما وقع للرامكة مع بني العباس، ط1، بيروت: دار صادر، 1410-1990، ص237-241، 244-271.

⁵ المقدمة، ص138-139.

⁶ الإمام أحمد. المسند، 448/3، حديث رقم 15746، النسائي. المجتبى من السنن، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط2، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، 1406-1986، 107/5، باب مولى القوم منهم، حديث رقم 2612.

⁷ ابن خلدون. المقدمة، ص139.

إن ابن خلدون محق في جانب من هذا التفسير، إلا أننا لا نوافق في إلغاءه لمجد البيت الأول، فهم لم يصلوا البلاط العباسي إلا به، ولو لم يكونوا من الشهرة والسودد والمكانة التي كانت لهم سلفاً لما سمع بهم الرشيد، ولا اصطنعهم ثم اتكل عليهم في تسيير شؤون الدولة؛ والوصول بهم إلى إرضاء قطاع عريض من ذوي الأصول الفارسية في الدولة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الْفَضِيلَةُ الْأَوَّلُ

الوجود الأندلسي في
المغرب الأوسط: مراحل
وأشكاله

جامعة الأمير
عبد القادر
الإسلامية

إن ظاهرة البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط لم تنطلق من فراغ؛ وإنما كان نتيجة طبيعية لعلاقات متجذرة في أعماق التاريخ، كما أنه لم يكن طفرة في تلك العلاقات ظهرت فجأة، بل الأمر أبعد من ذلك؛ فهي مرحلة من مراحل التطور التاريخي للوجود الأندلسي بالمغرب الأوسط، فقد بدأت العلاقات بميادين الاقتصاد في منظومة البحر الأبيض المتوسط، عن طريق التجارة الدولية بتبادل السلع في موانئ العدوتين الأندلسية والمغربية، وكان الدور البارز فيها والمبادرة من طرف البحارة الأندلسيين الذين كانوا يتمتعون بخصائص ومهارات عالية، في مقابل الخصائص الاقتصادية والطبيعية المغربية في المغرب الأوسط، مما دفعهم إلى الاستقرار بموانئها، ثم عملوا على ترقية تلك المنتجات فأسسوا بها مدن عامرة استمرت آثارها وإيماءاتها وإيجاعاتها الأندلسية ماثلة وشاحصة فيها لمدة قرون من الزمن، وبنهاية القرن الثالث الهجري بدأت مرحلتين جديدتين متوازيتين شهد خلالهما المغرب الأوسط ظاهري الهجرة وتكوين البيوتات الأندلسية، وما تبع ذلك من تغيرات اجتماعية ديموغرافية حتى على مستوى الموروثات الشعبية، بالإضافة إلى المتغيرات العلمية الثقافية الدينية والسياسية بنمطية واسعة.

فقد بدأت صورة الهجرة الأندلسية نحو المغرب الأوسط بشكل فردي في القرون الخمسة الأولى، ثم أخذت في التزايد بسبب الأوضاع السيئة التي عاشتها الأندلس جراء الضغط المسيحي على أطرافها، لتتخذ الهجرة انطلاقاً من القرن السادس الصورة الحقيقية التي سميت بعد ظهور بعض نتائجها وانعكاساتها بـ "الجللاء"، وتولد عن هذه التسمية مصطلحات جديدة كـ "الجالية" و"مشيخة الأندلسيين" و"رأس الجماعة الأندلسية" و"حي الأندلسيين" وما شابه ذلك، ثم سارت نحو الفتور في نهاية القرن السابع، وعادت الدورة من جديد بعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين سنة 897 هـ.

كما أن ظاهرة البيوتات سارت بشكل متوازي مع قوة أو ضعف هذه الهجرة وتلك الجالية. والجدير بالذكر أن حظ مدن المغرب الأوسط في الاستفادة من الهجرة الأندلسية تفاوت بشكل واضح جداً، إذ كان الأندلسيون يختارون الاستقرار في الحواضر الكبرى وتحديداً في العواصم وكراسي الممالك كتلمسان وبجاية، وهذا ما ساعمل على توضيحه في هذا الفصل.

الصلات المتنوعة بين العدوتين المغربية والإسبانية قبل الفتح الإسلامي

تعود الصلات والعلاقات بين العدوتين المغربية والإسبانية إلى ما قبل الفتح الإسلامي، ومن مظاهر هذه الصلات ما يرويهِ المؤرخون الأوائل¹ عن وجود جسر أو قنطرة بنيت بالحجارة والطوب تربط الساحلين المتقابلين، يمر عليها المسافرون والتجار لقرون عديدة قبل أن تُغمر بماء البحر لما زاد ارتفاعه ومستواه عليها فأغرق الجسر، وحسب المصادر ذاتها فإن طول هذا الجسر بلغ نحو 12 ميلاً، وربما بدأ الموضع لأهل المراكب تحت الماء عقب الحادث المشار إليه، وتؤكد من جهة أخرى أن أمر الجسر مشهور ومعروف بين أهل العدوتين، ويقطع النظر عن صحة الرواية -التي تتسم بطابعها الأسطوري البعيد عن الواقع التاريخي- إلا أنها تبين من جهة أخرى قدم الروابط وماتنتها بين المغرب وعموما وإسبانيا نظرا للقرب الجغرافي بينهما.

أما علماء الجيولوجيا فيعتقدون أن البلاد المغربية والإسبانية كانتا وحدة جغرافية متصلة في العصور الجليدية والحجرية القلنمة، بناء على وجود بقايا عظمية إنسانية متشابهة عُثر عليها في المناطق الساحلية للمنطقتين تعود للعصور المذكورة، ويؤكدون أن الشعب الإسباني القديم تكون أساسا من خليط بين العناصر الحامية الليبية التي هاجرت من شمال إفريقيا مع العناصر الكلتية أو السلتية Celts الأوربية، ليعطي في النهاية العنصر الأيبيري Celtiberos وسميت شبه الجزيرة الإسبانية باسم "أيبيريا"².

أما العالم الأثري Paul Pallary الذي اكتشف موقع وادي مويلح قرب مدينة مغنية سنة 1899 فقد اطلق عليه اسم "أيرو- مغربية" - وهو ما يعرف عند غيره بالحضارة الوهرانية- إعتقادا منه أن هناك صلة تربطها بحضارة العصر الحجري القديم الأعلى في شرق إسبانيا، في حين يخالفه البعض ممن يرى أن موقع مغارة "كولومنتا" شمال تيارت هو الذي يمثل حقيقة أوج الحضارة "أيرو- مغربية"³.

وفي العصور التاريخية زادت العلاقات بين الضفتين مع زيادة النشاط التجاري للفينيقيين ثم مع التوسع الذي صحب بناء المراكز التجارية والمرافئ والمراسي التي يرتادونها، وتشير الروايات التاريخية إلى أن هدف الفينيقيين الأول كان شبه الجزيرة الأيبيرية لوجود المواد الخام بكثرة فيها كالفصدير والرصاص. منطقتا تارتسوس Tratesos في الجنوب الغربي منها، وذلك قبل القرن 8 ق.م. وإلى غاية القرن 6 ق.م. بداية ظهور الحضارة القرطاجية كقوة مستقلة عن فينيقيا، وكلاهما ربط بين موانئ الساحل المغربي وموانئ الساحل الأيبيري بإسطول ضخم.⁴

¹ المسعودي. مروج الذهب والمعادن جواهر، تحقيق سعيد اللحام، ط1، بيروت: دار الفكر، 1421-2000، 1/364-365.

² العبادي. في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، 1978، ص22-23.

³ بيومي مهران. المغرب القديم، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1410-1990، ص17-18.

⁴ أنظر تفاصيل ذلك: محمد الصغير غانم. التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، ط2، الجزائر- لبنان: ديوان المطبوعات الجامعية- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1982، ص54-113، الشاذلي بورونية ومحمد الطاهر. قرطاجة البولية: تاريخ حضارة، تونس، مركز النشر الجامعي، 1999، ص67-72 و 195-215 و 233-238، فرانسوا دوكرهيه. قرطاجة: الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، ط1، دمشق: دار طلاس، 1994، ص26 وما بعدها.

وفي القرن 3 ق.م بدأ نجم قرطاجة في الأفول وتزامن ذلك مع ظهور الرومان كقوة عسكرية لها مصالحها في الساحلين، مما جعلهم يصطدمون بالقرطاجيين فدخلوا معهم في حرب طويلة عرفت بالحروب البونية (264-146 ق.م)، إتهارت على إثرها حضارة قرطاجة التجارية نهائياً، وقامت روما بإعادة الربط بين البلاد المغربية والبلاد الأيبيرية من جديد كمستعمرتين، وكان الحال كذلك مع الوندال بشكل مباشر وأكثر عمقا حيث احتلوا البلاد المغربية انطلاقاً من إسبانيا سنة 429 م وإلى غاية 533 م أين أزاحهم البيزنطيون منها زمن الأباطور الشهير جستنيان (527- 565 م).¹

العلاقات بين المغرب الأوسط والأندلس نرمن الفتح الإسلامي: البداية والإرهاصات

أثناء الفتوحات الإسلامية الكبرى خلال القرن الأول الهجري كانت المبادرة في إعادة دمج الضفتين المتقابلتين في التيار العالمي تنطلق من المغرب (الأوسط) الذي اتخذته المسلمون قاعدة أساسية لفتح الأندلس، وترد أقدم إشارة في ذلك عند أحد أوائل مؤرخي الأندلس وهو عبد الملك بن حبيب القرطبي (تـ 238 هـ)² حيث قال: "حدثنا ابن وهب قال: وجه موسى بن نصير مولاه طارقاً إلى تلمسان وأمره أن يتعاهد سواحل البحر ومراسيه ويجعل عليها رسدا لعله أن يصيب من سفن الروم (الإيبان)، فيجد فيها شيخاً عنده علم ففعل، فظفر به فقال له: هل تعرف في علمك من يفتح الأندلس؟ فقال: يفتحها معكم قوم يقال لهم البربر وهم على دينكم".³

ومن المعروف أن البربر المشار إليهم في النص المقتبس كان قد عقد حسان بن النعمان لأحد إبن الكاهنة - ملكتهم التي اتخذت من مدينة باغاية على سفح جبل أوراس مقراً لحكمها وعاصمة لملكها- على من أسلم منهم، وشارك بهم في فتح الأندلس والجيش قوامه يومئذ 12 ألف بربري - على اختلاف الروايات-⁴ ومن هؤلاء البربر من آثر الاستقرار بالأندلس بعد ذلك بأهله وأسرته، في حين استوطنتها بطون بكاملها كسبي

¹ رشيد الناضوري. المغرب الكبير: العصور القديمة أسسه التاريخية الحضارية والسياسية، بيروت: دار النهضة العربية، 1981، ص 169-176، العبادي. في تاريخ المغرب والأندلس، ص 24-31، الباز العربي. الدولة البيزنطية، بيروت: دار النهضة العربية، ص 70-75، ميكال دي ايلازا. حول ثلاث أحداث غير معروفة من العلاقات التاريخية بين غنابة وإسبانيا، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الأصالة، عدد 34-35، 1976، ص 110-111. Jose Luis Mijares. *Civilizacion Espanola*. Madrid. 1968. vol I. p.191- 206.

² أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمى الطليطلي الألبيري الأصل ولد حوالي سنة 181 هـ وسكن قرطبة، فقيه ومؤرخ وأديب وشاعر عروضي كانت له رحلة إلى المشرق قرأ فيها على كبير علماء المالكية ابن الماجشون، وله تأليف كثيرة في فنون شتى، أنظر: ابن الفرضي. تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، تحقيق روحية السويدي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1997، ص 221، بويكا. المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ترجمة نافى أبو كرم، ط1، دمشق: دار علاء الدين، 1999، ص 46.

³ كتاب التاريخ، تحقيق خورخي أغواي، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- معهد التعاون مع العالم العربي، 1991، ص 136.

⁴ ابن عبد الحكم. فتوح مصر وإفريقية، تحقيق محمد الحجري، ط1، بيروت: دار الفكر، 1416-1996، ص 339، 344، الرقيق القيرواني. تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 33-34، 42، عبد الواحد ذنون طه وآخرين. تاريخ المغرب العربي، ط1، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2004، ص 104.

المهلب الكتامين بالبيرة، وساهم عرب الفتح أيضا في تعزيز الروابط بين المغرب الأوسط والأندلس فنجد على سبيل المثال أن صفوان بن صفوان بن أمية له عقب بوهران وعقب أيضا بالأندلس.¹

مراحل الوجود الأندلسي في المغرب الأوسط

بعد أن انتهت عملية الفتح في الأندلس وأخذت الأوضاع تستتب فيها أضحت موازين الجذب والطرده تختلف لصالحها، فأصبحت الأندلس هي المبادرة بشكل واضح لتوثيق الصلات مع المغرب الأوسط وغيره بأشكال متنوعة عبر ثلاث مراحل كبرى، هي: مرحلة التجارة ثم البحارة ثم الجالية.

أولا: التجار الأندلسيين وتفعيل حركية الواجهة البحرية للمغرب الأوسط

قبل الحديث عن نشاط الأندلسيين في سواحل المغرب الأوسط ينبغي أن نعطي صورة عن البحرية الأندلسية لتوضيح الرؤية بالنسبة للفقرات الآتية.

أ- ظهور الأندلس كقوة بحرية

كان لطبيعة الأندلس البحرية والجغرافية دور أساس في ظهور قوة بحرية بها؛ كونها منطقة معزولة عن العالم الإسلامي جغرافيا؛ وكونها شبه جزيرة يحيط بها البحر (البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي) من جهاتها الثلاث، فإن ذلك كان سببا في تعرضها لغارات وغزوات بحرية من الجهة الشرقية الشمالية بالخصوص منذ القدم، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى الاهتمام بالبحر والأسطول.

وأول عامل اعتبره أساسيا في نشوء البحرية الأندلسية هو تركيبة المجتمع نفسه وما يحمله من مورث في هذا الميدان؛ وأعني هنا المولدين أهل البلاد الإسبانية، وعرب اليمن الذي استوطنوا الأندلس حيث كانوا أكثر من غيرهم بعد هولاء المولدين، وهم معروفون من زمن بعيد بمحضرهم وبركوبهم البحر فإليهم ينسب أول أسطول عربي؛ وكانت لهم تجارة رائجة؛ إذ عملوا على الربط بين "المشرق" و"المغرب" أي بين الهند والصين من جهة وبين الجزيرة العربية والشام ومصر من جهة أخرى،² لذا قيل: "أبعد الناس نجمة في الكسب بصري وحميري (أي يمني)؛ ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بد أن يرى بصريا أو حميريا"³، وهذا يعكس حقيقة وصف المقدسي لأهل الأندلس حيث يقول عنهم: أهم "يكثرون التجارات والتغرب".⁴

ولعل هذا يفسر التناقض الحاصل في حيوية النشاط البحري الأندلسي؛ فإن الاهتمام الأول بالبحر لم يكن صناعة رسمية تقوم عليه الدولة في مرحلتها الولائية والإمارة؛ بل كان صناعة جماهير من الطموحين والمغامرين،

¹ ابن حزم. جهرة أسباب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة: دار المعارف، 1948، ص151، 466.

² راجع: حسين بن علي الويسى. اليمن الكبرى، ط2، صناعة: مكتبة الإرشاد، 1422-1991، 247/1-249.

³ ابن الفقيه المنداني. مختصر كتاب البلدان، لندن: مطبعة بريل، 1884، ص191، (مع أن النسخ المخطوطة للكتاب تختلف في صيغة العبارة)، آدم ميتز. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت- القاهرة: دار الكتاب العربي- مكتبة الخانجي، 381/2.

⁴ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد أمين الضناوي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424-2003، ص190.

فقد وُصف أبو فريعة الذي تكفل بنقل عبد الرحمن الداخل من العدو المغربي إلى العدو الأندلسية بأنه "كان له بصر في ركوب البحر لتصرفه فيه".¹

فقد عوض البحارة الأندلسيين السلطة الرسمية فكونوا جماعات وكيانات تشتغل بالتجارة والغزو البحري لحسابها الخاص، متمركزين في الساحل الشمالي الشرقي بين طرطوشة وبلنسية ومركز آخر في الساحل الشرقي الجنوبي وتحديدا في مرية بجانة (أرض اليمن)، ومع مرور الوقت أصبحت هذه الكيانات أشبه ما تكون بالجمهوريات البحرية، تولت إلى جانب الوظائف السالفية الذكر حراسة السواحل الأندلسية من خطر النورمان وغيرهم، وتولت إدارتها بيوتات عريقة كأسرة بني سراج القضائية اليمنية وبني الأسود الغسانيين وبني رماحس وغيرها.²

أما الاهتمام الرسمي بالبحر فقد جاء نتيجة لتبلور الوعي بضرورته من جهة وخطره من جهة أخرى، حيث شن النورمان سنة 229 هـ غارة على الأندلس من جهة البحر وتمكنوا من التوغل إلى داخل الأندلس حتى وصلوا إشبيلية وكانت آثارهم مدمرة في بعض المدن، فعهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بعد التخلص من خطره إلى بناء دار صناعة في إشبيلية في السنة الموالية، وكانت صناعة السفن تسير بوتيرة متسارعة جدا؛ فقد ذكر ابن حيان أن الأمير أرسل سنة 234 هـ لتأديب أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة 300 مركبا لخروجهم عن الطاعة وإضرارهم بالملاحة البحرية حين تعرضوا لسفن التجار والمسافرين،³ وهذا حجم معتبر جدا مقارنة بالسنوات الخمس التي مرت على إنشاء دار الصناعة الأولى.

وفي مطلع القرن الرابع الذي استهل باتفاق بين الفاطميين والثائر الأندلسي عمر بن حفصون؛ كان العمل بموجبه يهدف إلى إسقاط البيت الأموي الحاكم وإزالته نهائيا لصالح أحد الطرفين، فأدرك الأمير - الخليفة عبد الرحمن الناصر قيمة الأسطول البحري فزاد من إنشاء دور الصناعة كما في طرطوشة ومالقة ولقنة ودانية والجزيرة الخضراء وغيرها، مما جعل المؤرخين يصفونه بأنه المؤسس الحقيقي للأسطول الأندلسي،⁴ الذي أضحي في هذه الفترة ندا لأسطول الفاطميين - مفخرة البحرية الإسلامية لقرون - وأدى هذا إلى انحصار الصراع البحري في الحوض الغربي للمتوسط بين هاتين القوتين الإسلاميتين.

¹ ابن القوطية. تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط3، القاهرة- بيروت: دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، 1410-1989، ص47.

² راجع: إحسان عباس. اتحاد البحرين في مجالة بالأندلس، مجلة الأبحاث (مجلة الجامعة الأمريكية في بيروت) السنة 23، كاتون الأول 1970، ص3-14، عبد العزيز سالم و مختار العبادي. تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، 1969، ص194-150 و167-171، حسين مؤنس. تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط2، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1413-1993، ص97-101، عبد العزيز سالم. أسرات من قادة البحر الأندلسيين في العصر الإسلامي ضمن: بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والأثار، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411-1991، 610-587/1.

³ ابن حيان. المقتبس من أنباء الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، بيروت: دار الكتاب العربي، 1393-1973، ص2.

⁴ عبد العزيز سالم والعبادي. تاريخ البحرية الإسلامية، ص173-175.

وتجدر الإشارة هنا أن الصراع الفاطمي الأموي لا ينبغي النظر إليه من زاوية العداء التقليدي والاختلاف العقدي والمذهبي؛ وإنما من زاوية "حرب المواقع" أي السيطرة على المسالك التجارية¹ والتحكم في تجارة البحر المتوسط خصوصا تجارة الذهب والرقيق.

والذي يعيننا هنا أن قوة الأسطول الأموي أوجد قاعدة صلبة لتحركات تجار وبحارة الأندلس خصوصا بعد رحيل الفاطميين إلى مصر سنة 351 هـ، لما وفر لهم من أمن في عرض البحر فكسبوا خبرة فائقة في الملاحة البحرية مكنتهم من الوصول إلى الأقاليم: الهند والصين، ومن نافلة القول أن نذكر أنه على الرغم من الصراع القائم بين الطرفين المشار إليهما سلفا إلا أن التجار كانوا يتحركون ويتنقلون بين موانئ الخصمين بحرية كبيرة، وإن حصل العكس فهو استثناء.²

ب- التجار الأندلسيين في سواحل المغرب الأوسط

ساعدت وضعية المغرب الأوسط المتربع على مسافة 1200 كلم كشرائط ساحلي تكثر فيه الموانئ والمراسي المهمة من رواج الحركة التجارية واستقطاب روادها من الأندلسيين بالخصوص.³

وقبل أن نتطرق إلى الحديث عن النشاط التجاري لهؤلاء الأندلسيين سنستعرض أهم الموانئ والمراسي للمغرب الأوسط كما وردت عند الجغرافيين مراعين التسلسل الكرونولوجي لظهور مؤلفاتهم.

1- أشار ابن خردادبة⁴ الذي أمى كتابه حوالي سنة 232 هـ إلى مرسين فقط هما مرسى تنس الذي كان "عدوة الأندلسيين" شأن مرسى تونس، وكذا مرسى جزيرة بني مزغنا التي وصفها بأنها مدينة عامرة وعلى غاية من الخصب والسعة، وقد نقل عنه الإصطخري⁵ في النصف الأول من القرن 4 هـ نفس المعلومات؛ لذا لن نضطر إلى ذكره.

2- وذكر اليعقوبي (ت 284 هـ): مرسى أسكيدة (سكيكدة)، مرسى جيحل، مرسى قلعة خطاب، مرسى ملر، مرسى دهاجة، مرسى فروخ، تنس.⁶

¹ الحبيب الجحجان. الخلفية الاقتصادية للصراع الفاطمي-الأموي في المغرب، ضمن: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986، ص155-177، فتحي زغروت. العلاقات بين الأمويين والفاطميين في الأندلس والشمال الإفريقي، ط1، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1427-2006، ص169-191 و 216-227، أوليفيا ريمي كونستابل. التجارة والتجار في الأندلس، ترجمة فيصل عبد الله، الرياض: مكتبة العبيكان، 1423-2002، ص37.

² جواتاين. وحدة عالم البحر المتوسط في أواسط العصور الوسطى، ضمن: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق عطية القوسي، ط1، الكويت: وكالة المطبوعات، 1980، ص213.

³ راجع في هذا الموضوع: سحر السيد عبد العزيز سالم. أعضاء على بعض المراكز التجارية في المغربين الأوسط والأقصى في القرن الثالث الهجري، مجلة اتحاد المؤرخين العرب-القاهرة، عدد 7، 2000، ص2-27.

⁴ المسالك والممالك، بغداد: مكتبة المثنى، ص34.

⁵ المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دار القلم، ص34.

⁶ البلدان، ط1، بيروت: دار الکت بالعلمية، 1422-2002، ص190، 192.

- 3- أما ابن حوقل البغدادي¹ (توفي بعد 367 هـ) فهو الأكثر أهمية بالنسبة للمصادر المشرقية فقد ذكر: مرسى الخرز، بونة، جيحل، بجاية، بني جناد، مرسى الدجاج، جزائر بني مزغنة، تامدفوس، أشرشال، برشك، تنس، عطا، قصر الفلوس، وهران، واسلن، أرجحوك (أرشقول).
- 4- وذكر المقدسي (تـ 380 هـ) كل من: مرسى الخرز، بونة، مرسى الزيتونة، جيحل، مرسى الدجاج، جزائر بني مزغنة، تنس، قصر الفلوس، وهران، أفكان.²
- 5- أما البكري (تـ 487 هـ) فهو مهم جدا وكتابه يضم مزايا متعددة³ إذ ذكر مراسي لم يُعد ذكرها في المصادر التي جاءت بعده وهي إجمالا كالآتي: مرسى الخرز، بونة، الخروبة، مرسى ابن الألبيري، رأس الحمراء، تكوش، جزيرة عمر، مرسى الروم، مرسى أستورة، القل، مرسى الشجرة، مرسى الخراطين، مرسى الزيتونة، جيحل، سببية، بجاية، جزيرة جوبة، مرسى الدجاج، مرسى بني جناد، جزائر بني مزغنا، جزيرة جنابية، مرسى الديان، هور، مرسى البطال (جبل شنوة)، شرشال، جزيرة وقور، تنس، قصر الفلوس، مغيلة بني هاشم، عين فروخ، مرسى بني جليداسن، مرسى الغزة (ساحل تيهرت)، مستغام، أرزاو، وهران، مرسى الماء المدفون، مرسى أسلن، أرشقول، هنين، مرسى ماسين (ساحل ندرومة)، مرسى ترنانة، مرسى تاجريت.⁴
- 6- أما الإدريسي (ق 6 هـ)⁵ فهو مهم أيضا ومادته غزيرة؛ فقد ذكر مرسى الخرز، بونة، مرسى رأس الحمراء، تكوش، مرسى الروم، أستورة، القل، مرسى الزيتونة، جيحل، مزغيطن، فجج الزرزور، المنصورية، متوسة، بجاية، جرية (أو جوبة أو جوية)، الدهس الصغير، الدهس الكبير، زفون، بني عبد الله، تدرس، بني جناد، مرسى الدجاج، تامدفوس، جزائر بني مزغنا، هور، البطال، شرشال، برشك، وقور، أمتكو، الحون، تنس، قلع الفراتين، جزائر الحمام، جوج، مستغام، أرزاو، المرسى الكبير، وهران، الحرشا، الدفالي، بني وزار، جزائر الغنم، أسلان، أرشقول، جزيرة القشقار، مرسى الوردانية، هنين، فكان، تاجريت، تافر كنيث.

¹ صورة الأرض، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1992، ص 76-79، وأنظر عن تحليل مواد كتابه بخصوص موضوعنا: صباح إبراهيم الشبخلي. النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن 4 هـ: دراسة من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل، مجلة التاريخ العربي، عدد 6، ص 23 وما بعدها.

² أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 180.

³ من بين مزاياه أنه ينقل عن كتاب مهم جدا بعد الآن في حكم المفقود للوراء من القرن الرابع في مسالك إفريقية، وأنظر عن بقية المزايا: عبد الله يوسف الغنيم. مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، ط3، الكويت: ذات السلاسل، 1996، ص 139-166.

⁴ المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424-2003، 2/ 233، 266-269.

⁵ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، بيروت: عالم الكتب، 1409-1989، 1/ 271-275، 2/ 535-536، وعن الإدريسي ينقل محمود مقديش في: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988، ص 99-103.

إن عدم ورود ذكر بعض المراسي عند الإدريسي والتي ذكرها سلفه البكري؛ يدل على أن السلطة الحمادية ثم الموحدية كانت تسيطر على حركة السفن الأندلسية من وإلى أراضيها، عن طريق "مركزية التجارة في بعض المراسي المعينة"،¹ دون المساس بروح حركتها.

7- أما صاحب الاستبصار² فذكر: مرسى بونة، القل، جيحل، بجاية، مرسى الدجاج، جزائر بني مزغنة، لغانية (جنابية عند البكري)، شرشال، تنس، قصر الفلوس، وهران، مرسى حصن زيان، الوردانية، ندرومة، ترنانة.

فهذه المراسي المتعددة ليست على نسق واحد من حيث الأهمية والمزايا؛ بل تفاوتت في ذلك لظروف متعددة، ونتيجة لذلك اختلف اهتمام التجار الأندلسيين بها، ومن الملاحظ أن ارتباط حيوية الواجهة البحرية للمغرب الأوسط بالنشاط الأندلسي أخذت تزداد منذ النصف الأول للقرن الثالث، وبلغت الذروة في القرن السادس بعد أن أصبحت العدوتين كيانا موحدتا تحت سلطة الموحدين، وقبل أن يظهر منافس آخر من خارج المنظومة البحرية الإسلامية؛ أي تجار الجمهوريات الإيطالية خاصة تجار جنوة التي وقعت أول معاهدة سنة 531 هـ/ 1137 م أو في السنة الموالية لها مع بجاية في العهد الحمادي، ثم شملت المعاهدات مراسي أخرى وبشكل كثيف في العهد الحفصي،³ وهذه الحركة تنفي مزاعم هنري بيرين Henri Pirenne الذي يحمل الفتح الإسلامي مسؤولية انهيار ما يسميه بحضارة البحر المتوسط.⁴

فأول مراسي المغرب الأوسط من ناحية الشرق هو مرسى الخرز الذي اشتهر باستخراج المرجان الأحمر وتصديره إلى مختلف الآفاق، إذ كان له رواج في الهند والصين ومعظم بلدان المحيط الهندي التي لا يوجد بها إلا المرجان الأبيض،⁵ وهو "أنفس مرجان الدنيا"،¹ والمقصود بقول القدامى: "يقال في خصائص البلاد في الجواهر:

¹ أوليفيا ريمي كونستابل. التجارة والتجار في الأندلس، ص 74.

² مجهول. الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ص 127-135.

³ صالح بعزيق. بجاية في العهد الحفصي، ص 318 - 328، برونشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، صفحات متفرقة من الجزء 1، سامي سلطان. الجاليات الإيطالية التجارية في المغرب الإسلامي حتى نهاية ق 14 م، سوترا، عدد 10، أبريل 1988، ص 86-121.

Dominique Valerian. *Bougie port Maghrébin, 1067-1510*. École Française de Rome. 2006. p.503, 555-587.

Laura Balletto. « *Gênes et le Maghreb Au XV^e siècle* ». dans : *L'Occident musulman et L'Occident chrétien au Moyen Age*. Rabat. Publication de la Faculté des Lettres- Université Mohammed V. p. 91- 106, Georges Jehel. « *Les Relation entre Gênes le Maghreb Occidental au Moyen Age, Aspects Politiques et Économiques* ». dans : *L'Occident musulman et L'Occident chrétien* .op. cit. p.107-122.

⁴ أنظر بخصوص هذه المسألة الردود عنها: هنري بيرين. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ترجمة عطية القوسي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص 10-14.

Allaoua Amara. « *L'animation de la façade maritime du Maghreb central (VIII^e -XIX^e siècle)* ».Revue des Lettres et Sciences Humaine Université Emir A.E.K. Constantine. N° 6. Oct. 2005. p. 6-9.

محمد حناوي. جوانب من العلاقات الاقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط قبيل القرن العاشر الميلادي. ضمن: المغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تنسيق محمد حمام، الرباط: منشورات كلية الآداب- جامعة محمد الخامس، 1995، ص 152-156، جوزاف شاخت وكليفورد بوزورت. الإسلام في عالم البحر. ضمن: تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السهموري وآخرين، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب رقم 8، 1985، 85/1 وما بعدها.

⁵ لويس لومبار. الإسلام في مجده الأول، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، ط2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 102.

فيروز نيسابور ويقوت سرنديب ولؤلؤ عمان....ومرجان إفريقية²، والخرز قرية وليست مدينة لكن اكتسبت مكانتها من رواج تجارة المرجان بها ووفود السماسرة التحار من الأندلسيين خصوصا، ولفساد هوائها ما كانوا يستوطنوها.³

أما بونة فبشهادة المؤرخين والجغرافيين الرحالة؛ كان أكثر تجارها من الأندلسيين السدين أغراهم حسن أسواقها وراج تجارتها وخصب أرباضها ونواحيها ورخص أسعارها وتنوع حاصلاتها، من فواكه وقمح وشعير وعسل وغنم وبقر ومختلف أنواع الماشية والدواب، بالإضافة إلى وجود معدن الحديد بها بكثرة حيث يحمل إلى مختلف الأقطار.⁴

ومن الأسماء ذات الدلالة الواضحة كآثر للنشاط البحري الأندلسي في ساحل المغرب الأوسط نجد المرسى المعروف بمرسى ابن الألبيري، الذي ينفرد البكري بذكره وإن لم يُفيدنا إلا باسمه وموقعه في مجال كتامة القبيلة والأرض⁵؛ إلا أن ذلك لا يمنع من تأكيد وجود تجار البيرة الأندلسية بنسبة معتبرة في هذا المرسى ترددوا عليه لفترة طويلة، أو أنهم أول من اكتشف صلاحيته للملاحة والتجارة وشهروا به فسمي باسمهم.

ولما كانت القلعة عاصمة بني حماد تفيض بالخيرات بفضل ما يجلب إليها من مختلف أقاليمها كالزباب وبلاد كتامة وزواوة، فإن واجهتها البحرية المتمثلة في بجاية -قبل تمصيرها- قامت بدور المرسى الرئيس الذي يتم فيه مختلف صفقات التبادل التجاري مع الأندلس، كون مرساها "مأمون شتوي"⁶ يسمح للاضطلاع بهذا الدور، وربما كان الأندلسيون الذين استوطنوا بجاية في القرون الأولى هم في الأصل تجار آثروا البقاء لمزاياها الصحية عكس بونة.

¹ مجهول. الاستحصار، ص 126

² السيوطي. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق خليل منصور، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1418-1997، 287/2.

³ المقدسي. أحسن التقاسيم، ص 183، 192، ابن حوقل. صورة الأرض، ص 76، البكري. المسالك والممالك 234/2.

Charles Féraud. *Histoire des Villes Province de Constantine: La Calle*, Alger. 1877. p.79-85 ,
F. elie de La Primaudaie. « *Le commerce et la navigation de L'Algérie* ». Revue Algérienne et Coloniale. juin 1860. p 3-11.

⁴ المقدسي. أحسن التقاسيم، ص 184، ابن حوقل. صورة الأرض، ص 77، البكري. المسالك والممالك 234/2، أبو الفداء. تقويم البلدان، نشره ريتود والبارون ديسلان، باريس: دار الطباعة السلطانية، 1840، ص 141، الحميري. الروض المعمار، ص 115، فاطمة بلهوارى. النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب خلال القرن 4 هـ، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة وهران، 2004-2005، ص 286، رشيد بورويبة. عناية من الفتح الإسلامي إلى أواخر العهد الموحد، الأصالة، عدد 34-35، يونيو- يوليو 1976، ص 68،

Paul- Luis Combizat. *L'évolution des cités du Tell Ifrîkiya de VII^e au XI^e siècle*. Alger, O.P.U., 1986. Vol II. p. 67-71.

⁵ المسالك والممالك 269/2، موسى لقبال. دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص 141.

⁶ البكري. المسالك والممالك 268/2، الحميري. الروض المعمار، ص 80-81، الطاهر قدوري. المسالك البحرية في المغرب الوسيط خلال القرنين 5 و 6 هـ، مجلة التسامح، عدد 11، صيف 2005، ص 293.

ومرسى الدجاج من المراسي المشهور أيضا وإن كان مرساها غير "مأمون" إلا أن ذلك لم يمنع الأندلسيين من ارتياده لوفرة خيراته من فواكه -خاصة التين- وقمح وألبان ومواشي ما زاد عن الحاجة وأغرق الأسواق المجاورة، كما كانت تسكنه جالية أندلسية¹ منذ القرن الرابع على الأقل.

وجزائر بني مزغنة منها يعبر إلى الأندلس، ومرساها مأمون تقصده سفن الأندلس وإفريقية، وتحمل منه غلات بواديه وأرباضه الواسعة الخصيبة كمتيجة؛ فمن ذلك: السمن والتين والعسل والمواشي السائمة.² أما تنس فقد وصفها كثير من الجغرافيين بأنها "عدوة الأندلسيين" يقصدها الأندلسيون بسفنهم وبتجارهم ويفضلونها على غيرها؛ وهي أكبر المدن التي يتعدى منها أهل المشرق وأهل إفريقية إلى الأندلس،³ ومنها كانت مراكب الأندلس تمتاز القمح وتستورد مختلف أنواع الحبوب.⁴ وبني جلداسن مدينة لطيفة بين تنس والشلف يسكنها الأندلسيون،⁵ ونشاطهم غامض غير معروف، وربما كانوا على علاقة بتجار الأندلس المترددين على تنس.

ووهران مدينة ومرسى منها تطلع المراكب إلى الأندلس، قاطعة مسافة ما بينهما في يوم وليلة، ومرساها في غاية السلامة تقصده سفن الأندلس بكثرة، وتمتاز منه القمح والشعر والفواكه والمواشي؛ لذا يسميها الجغرافيون بـ "قرضة الأندلس".⁶

أما أشهر مراسي الناحية الغربية فيمثلها مرسى هنين الذي ارتبطت مكاتنه أكثر بتلمسان في العهدين الموحدية والزيرية.⁷

وهناك مراسي أخرى يصفها الجغرافيون بقولهم "مقصودة" ونحو ذلك مثل أرشقول وماسين وترنانا-وهي سواحل تلمسان- إلا أنها أقل أهمية من المراسي السابقة الذكر، والذي أوقف عنده كآخر مرسى في المغرب الأوسط هو مرسى تاجمريت بين تلمسان ووجدة، الذي يعد ملتقى قوافل سجلماسة وغيرها⁸ المحملة بالذهب

¹ ابن حوقل. صورة الأرض، ص 77، البكري. المسالك والممالك 2/246، الحموي. معجم البلدان 5/125، الحميري. الروض المعطار، ص 539.

² المقدسي. أحسن التقاسيم، ص 184، ابن حوقل. صورة الأرض، ص 78، البكري. المسالك والممالك 2/247، الحميري. الروض المعطار، ص 163.

³ ابن خرداذبة. المسالك والممالك، ص 34، ابن حوقل. صورة الأرض، ص 78، الإصطخري. المسالك والممالك، ص 33، البكري. المسالك والممالك 2/242، الإدريسي. نزهة المشتاق 1/252، مجهول. الاستبصار، ص 133، ابن سعيد. الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط 2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 142، بلهوارى. النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب، ص 286.

⁴ ابن سعيد. الجغرافيا، ص 142، الحميري. الروض المعطار، ص 138.

Vincent Lagardere. « Le commerce des céréales entre al-Andalus et le Maghrib aux XI^e et XII^e siècles ». dans : *L'Occident musulman et L'Occident chrétien au Moyen Age*. op. cit. p.123-150.

⁵ البكري. المسالك والممالك 2/251.

⁶ المقدسي. أحسن التقاسيم، ص 185، ابن حوقل. صورة الأرض، ص 79، البكري. المسالك والممالك 2/252، بلهوارى. النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب، ص 287.

⁷ Mahmoud -Agha Bouayed. « Le port de Hunayn d'union entre le Maghreb central et l'Espagne au Moyen Age ». dans : *relaciones de la Peninsula Ibérica con El Maghreb siglos XIII-XVI; Actas del coloquio*. (Madrid; 17-18 décembre 1987), Madrid, Instituto Hispano-Arabe de cultura, 1988, p. 325-359.

⁸ البكري. المسالك والممالك 2/264.

والرقيق؛ فمنها تحمل هاتين السلعتين إلى الأندلس، يعود على السلطة المتحكمة فيه بأموال وفوائد جلييلة وكذا التجار الذين يرتادونه.

ثانياً: البحارة الأندلسيين وتأسيس المدن الساحلية

كان لتزايد نشاط البحارة الأندلسيين في حوض البحر المتوسط - ولعوامل أخرى- أثر إيجابي على تطور ونمو حركة العمران في المغرب الأوسط وذلك ببناء وإعادة إحياء مدن قديمة أصبح لها شأن معتبر بالخصوص على الصعيد الاقتصادي، كما الشأن مع تنس ووهران وأسلن من المدن الساحلية، بفضل العلاقات الودية المتميزة لهؤلاء البحارة مع قبائل بربرية صديقة، شجعت على إنشاء هذه المدن وإعطائها صبغة متميزة دائمة الحضور في تاريخ العمران المغربي، والتي كانت قد ظهرت بوادرها منذ القرن الثالث،¹ أما نشاط الأندلسيين من غير البحارة فكان أثرهم الإيجابي واضحاً في المسيلة وتدنس، اللتين سترجع الحديث عنهما إلى الفصل الثالث لعلاقتهما المباشرة بموضوع البيوتات الأندلسية.

لقد كانت تنس مركز ومحطة فنيقية تجارية هامة في الحوض الغربي للمتوسط منذ القرن 2 ق.م، وبقيت كذلك في العهد الروماني - وكمستعمرة أيضاً- حيث أخذت اسم "كارتينا أو كارتناس Cartennas-Cartennae"²، وفي القرنين 2 و 3 هـ كان تردد تجار ألبيرة وتدمير ومختلف مدن الأندلس على تنس بشكل كثيف، وفي فصل الشتاء حيث تتعذر حركة الملاحة البحرية يقيم التجار قرب المرسى إلى غاية انقضاء فصل الشتاء ثم يعودون إلى الأندلس، ومن أشهر هؤلاء البحارة التجار تذكر المصادر: الكركدن وابن عائشة والصقر وصهيب، ممن فاوضهم سكان تنس الأصليين من البربر ورغبوا منهم في الانتقال والسكنى معهم وأن يتخذوا قلعها سوقاً، مقابل ما يبذلون لهم من العون وحسن العشرة ويقطعونهم من أراضيهم لبنياتهم؛ فأجابوهم لذلك وشرعوا في البناء مؤسسين لتنس الحديثة؛ وذلك سنة 262 هـ وهي إذ ذاك إمارة علوية، إلا أنه بحلول فصل الربيع اعتل بعض البحارة واستوثقوا موضع المدينة الحديثة فغادروها نحو بجانة الأندلس، وبقي الآخرون بها وأموالهم وعددهم يزداد كل موسم، فأغرى ذلك بعض الأندلسيين الذين لم يسبق لهم ارتياد المدينة إلى الهجرة نحو تنس، كما أغرى أهل سوق إبراهيم فرحلوا إليها في أربعمائة بيت فلاقوا كل ترحاب وعون من أهل تنس الحديثة،³ وقد استمرت تنس في ريادة المحطات التجارية للمغرب الأوسط في العهدين الحمادي والموحدي على السواء⁴ بفضل جهود هؤلاء الأندلسيين ومهارتهم التجارية التي أخذها عنهم مع مرور الوقت أصلاء تنس.

¹ J.D. Latham. « Towns And cities of Barbary the Andalusian influence ». in: *from Muslim Spain to Barbary*. London. Variorum reprints. 1986. p.189-190.

² محمد الصخر غاتم. التوسع الفنيقي في غرب البحر المتوسط، ص101، محمد البشير شنيق. الاحلال الروماني لبلاد المغرب، ط2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 133.

³ البكري. المسالك والممالك 242/2-243، الحموي. الروض المعطار، ص138، سليمان الباروني. الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإياضية، تحقيق محمد علي الصليبي، ط1، لندن: دار الحكمة، 2005، ص89-90، إحسان عباس. اتحاد البحريني في بجانة الأندلس، ص5-6.

⁴ Allaoua Amara. « L'animation de la façade maritime du Maghreb central » op. cit. p. 22.

وتتشابه ظروف تأسيس وهران بظروف تأسيس تنس الحديثة، فقد كان البحارة الأندلسيون يتجمعون موضع وهران ويترددون عليه للتجارة فيه، وباتفاق مع سكانها من نفزة وبني مسقن من أزادجة سنة 290 هـ قام محمد بن أبي عون ومحمد بن عدون وبقيت البحارة ببناء وهران¹ المدينة وسكنوها لمدة سبع سنين، وفي ذى الحجة من سنة 297 هـ وقعت فتنة خربت فيها وهران وأضرمت النار في أبنيتها، ثم أعيد تشييدها في شعبان من السنة التالية فعادت أحسن مما كانت؛ ووليها محمد بن أبي عون من قادة البحارة الأندلسيين المؤسسين لها، واستمرت عمارتها في الاتساع والرفق إلى غاية سنة 343 هـ حيث أحرقتها وخرها يعلى ابن محمد أحد أمراء بني يفرن بعد أن أخرج أهلها منها، وبقيت على تلك الحال سنين عديدة ثم عمرت من جديد.²

والجدير بالذكر هنا أن روايات مؤرخي الجزائر العثمانية وبعض معاصريهم يتجاوزون هذه المرحلة من تجديد بناء وهران على يد بحارة الأندلس، ويقفون فقط عند السنوات الأولى من حكم بني خزر المغراويين لها، وما تعلق بالصراع بين أنصار الفاطميين وأنصار أموي الأندلس من أجل السيطرة عليها.³ أيا ما كان الأمر فإن وهران بقيت محافظة على حيويتها البحرية واتصال تجارتها بتجارة الأندلس استيرادا وتصديرا مرورا أحيانا بمراسي المغرب الأقصى؛ فقد ذكر عبد الحق البادسي⁴ في نهاية القرن 7 هـ وبداية القرن 8 هـ أن قاربا كبيرا كان محملا بالتين والزيت وصل من إشبيلية إلى مرسى بادس وعازما على التوجه إلى وهران.

ولدينا نموذج آخر لبناء مدن الساحل المغربي لكن دون أن يباشر البحارة الأندلسيين هذا العمل، وإنما من طرف السلطة الرسمية في قرطبة، والمدينة المعنية هنا هي مدينة أسلن الواقعة شرقي أرشقول، وهي مدينة قديمة

عز الدين عمر موسى. النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1424-2003، ص308-311، هشام أبو ريملة. علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط1، عمان: دار الفرقان، 1404-1984، ص388، سامية مصطفى محمد مسعد. الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423-2003، ص161، 166.

¹ أنظر عن أصل تسمية وهران.

Farid Ben Ramdane. « De l'étymologie de Wahran de Ouadahran a Oran ». Insaniyat. N° 23-24. p.249-272.

² البكري. المسالك والممالك 2/252-253، الزاري. طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا، تحقيق يحيى بوعزيز، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، 56/1، الراشدي. السفر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر: منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ص186، سليمان الباروني. الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإياضية، ص97-98، بشير مقيس. مدينة وهران دراسة في جغرافية العمران، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص79-82.

³ أنظر على سبيل المثال: الجامعي. فتح مدينة وهران، تحقيق مختار حسان، منشورات جامعة الجزائر، 2003، ص45-46، ابن زرفة. الرحلة القمرية، تحقيق مختار حسان، منشورات جامعة الجزائر، 2003، ص210-212، أبي راس العسكري. عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، الجزائر: منشورات CRASC، 2003، 108-107/1، الزباني. الترجمة الكبرى في أخبار المغمور بوا وبحرا، تحقيق عبد الكرم الفيلالي، المحمدية- المغرب: مطبعة فضالة، 1387-1967، ص141، محمد بن عبد القادر الجزائري. تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القاسم، تحقيق ممدوح حفي، ط2، بيروت: دار البقعة العربية، 1384-1964، 19-18/1.

⁴ المقصد الشريف والبرق اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، ط2، الرباط: المطبعة الملكية، 1414-1993، ص106.

كانت لمغيلة القبيلة الزناتية، أوفد إليها المنصور بن أبي عامر متولي أمور الخلافة الأموية في الأندلس في القرن الرابع حميد بن يزيد "فبناها وجددها".¹

ونموذج ثاني تكرر مع مدينة فكان وهي مدينة وسوق قديمة من أسواق زناتة، على ساحل البحر متصلة بجبل ونشريس من أحواز تلمسان على مرحلتين من أسلن، كانت قد خربت فجدد بنائها المنصور بن أبي عامر على يد يعلى بن محمد اليفري سنة 338 هـ "فعمرت وتمدنت وعظمت".²

إن الاهتمام بهاتين المدينتين البحريتين كان يهدف إلى تعزيز التجارة المغربية الأندلسية من قبل السلطة الرسمية ولقائدهما؛ خصوصا وأن مدينة فكان تم التركيز عليها باعتبارها سوقا أكثر منها مدينة.

وأشيرا أخيرا إلى أن التركيز على ذكر المراسي والمدن الساحلية وما يقابلها من مثيلاهما في العدو الأخرى والمسافات التي تفصل بينهما،³ له دلالة واضحة على متانة العلاقة بين العدوتين في الفضاء المتوسطي، سواء أتعلق الأمر بتنقلات الأشخاص أو بالبضائع والسلع أو بالأفكار والتأثيرات الحضارية.

ثالثا: المجالية الأندلسية بالمغرب الأوسط والتأثيرات الحضارية

يعد موضوع المجالية الأندلسية من المواضيع المهمة جدا في الدراسات المغربية الحديثة عبر مراحلها المختلفة، وكان الاهتمام أكثر بما أصبح يعرف بالمورسكيين حتى بات تخصصا في حد ذاته، ونشرت حولهم الكثير من الأبحاث والدراسات، وفي نهاية العقد الأخير من القرن العشرين أضحي هذا التخصص يشهد كل خمسة أيام تأليفا أو مساهمة علمية جديدة يشرف عليها أكثر من مائتي باحث من كل أنحاء العالم،⁴ وزاد الاهتمام أكثر بها في المغرب العربي مع عبد الجليل التميمي الذي دعا إلى إنشاء اللجنة العالمية للدراسات الموريسكية (C.I.E.M) وعقد مؤتمرا من أجل ذلك،⁵ وكان لمجلته "المجلة التاريخية المغربية" أثر حسن في هذا المجال، وقد أعد مع فريق عمل بيليوغرافيا عامة حول الدراسات الموريسكية في نفس الفترة المذكورة فحصر فيها أكثر من 2600 دراسة بين مصدر ومرجع، الأمر الذي مكّنه من الوصول إلى النتائج الآتية:

1. أن هذا الموضوع بدأ مع ظهور الدراسات الغربية منذ أواخر القرن 19 م، التي تطورت بشكل ملموس وسيطرت سيطرة كاملة على هذا الحقل المعرفي خلال الأربعين سنة الأخيرة من القرن 20 م.
2. أن المخابر البحثية التي أنشئت في جامعات إسبانيا وفرنسا وبورتوريكو وأوروبا عموما أظهرت من التفاني والحرص والعناية الفائقة بالموضوع، مما سمح لها بنشر مئات الدراسات والنصوص، وتوجت جهودها بإصدار دائرة معارف خاص بالمورسكيين.

¹ البكري. المسالك والممالك 2/262.

² الحموي. الروض المطار، ص 440-441.

³ البكري. المسالك والممالك 2/267-268، الزهري. المعرفاها، ص 128، الحموي. الروض المطار، 104، 340، القلقشندي. صح الأعشى 5/109، 110، 150.

⁴ عبد الجليل التميمي. تأملات جديدة حول مصيرية المورسكيين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، ضمن بحوث لدوة الأندلس: الدرس والتاريخ، دار المعرفة الجامعية، 1994، ص 295-306.

⁵ عبد الجليل التميمي. المائدة المستديرة العالمية حول المورسكيين وزمانهم، مجلة التاريخية المغربية، عدد 23-24، 1981، ص 413-415.

3. أن الجامعات العربية لم تظهر اهتماما متواصلا ومتجددا، ومساهمات جادة في هذا الحقل.
4. أن إنتاج الباحثين العرب والمسلمين على ندرته- إذ لم يتجاوز 50 بحثا وعلها ترجمة لبحوث بلغات أجنبية- ركز في معظمه على الجوانب العاطفية لمأساة مسلمي الأندلس، والأسوء من ذلك أنها بحوث سطحية مكررة بصيغ مختلفة.¹

وإن كان الوضع الآن يسير نحو الأحسن في تونس والمغرب فإنه في الجزائر للأسف مازال يتراوح مكانه، فالاهتمام بالمورسكيين الذين اختاروا هذا البلد مستقرا لهم بدا لحد الآن محتشما، فالدراسات الأكاديمية المنجزة حولهم تعد على الأصابع حسب ما أثبتته البيلوغرافيا الجزائرية، وكان أهمها حسب التسلسل الزمني: رسالة عبد المجيد قدور بعنوان: "هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط ونتائجها الحضارية خلال القرنين 16 و17 م"،² ورسالة هلال جنيبي بعنوان "المورسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 16-17 م، سنة 2000 بجامعة وهران³ (لم أف عليها)، وحتى عدد المقالات فليست بالكثيرة.⁴

أما الأبحاث الجامعية المتعلقة بالجالية الأندلسية بالمغرب الأوسط في العصر الإسلامي- زمن الدراسة- فهي أيضا قليلة، حيث أنجز بلقاسم درارحة رسالة دكتوراه (الدور الثالث) بالإسبانية بعنوان: "الرحالة الأندلسيون إلى المشرق الإسلامي عبر المغرب الأوسط (ق 5-6 هـ)" سنة 1976، وأنجزت ميدان كلثوم مذكرة السنة الأولى ماجستير بجامعة الجزائر سنة 1986 بعنوان: "الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط حتى القرن 10 هـ/16 م"،⁵ وأنجزت الباحثة الجزائرية نصيرة عزرودي مذكرة ماجستير تحت عنوان: " الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب الأوسط من ق 2 هـ وحتى آخر ق 8 هـ ".⁶

وفي دراستهم لمكونات مجتمع المغرب الأوسط كتب أمثال عطاء الله دهبية - في كتابين- وعبد العزيز فيلالتي وخالد بلعربي وصالح بعيزيق صفحات عن الجالية الأندلسية،⁷ في حين كتب البعض دراسات خاصة بالهجرة الأندلسية نحو المغرب الأوسط تحديدا وأخرى شملت عموم المغرب مثل: ناصر الدين السعيدوني ومحمد الطمار

¹ عبد الجليل التميمي. تأملات جديدة حول مصيرية المورسكيين الأندلسيين، ص 279-298.

² رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 1994.

³ رسالة دكتوراه، أنظر: قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه بقسم التاريخ - جامعة وهران، ص 311.

⁴ أنظر: سعيدوني. بيلوغرافيا أولية بالدراسات المورسكية- الأيبيرية التي نشرت بالجزائر أو ساهم بها جزائريون (1962-2000)، ضمن: دراسات أندلسية، ص 325-347.

Mikel de Epalza. *Ecrits relatifs à l'histoire de l'Espagne publiés en Algérie de 1962 à 1973*. Société nationale d'édition et de diffusion. Alger. 1976.

⁵ سعيدوني. دراسات أندلسية، ص 332-341.

⁶ جامعة الإسكندرية، 2007/1428، (من 325 ص)

⁷ أنظر على التوالي: *Les Etats de l'Occident musulman*. p.182-184, *Le Royaume Abdelouadide*. p. 49-50،

تلمسان في العهد الزياني 2 / 173-180، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ص 199-202، بجاية في العهد الحفصي، ص 358-377.

ومحمد رزوق - على ما في مقالته من هانات-، وخليل إبراهيم السامرائي، و Joaquin و Manuela Marin

و Vallvé و José Enrique López De Coca Castañer و Fernand Braudel¹.

وكتب البعض عنها خلال دراستهم لها بالدولة الحفصية؛ حيث كان التركيز على بجاية واضحا للعيان إبتداء مع برونشفيك ثم محمد الطالبي ومحمد حسن وإبراهيم جدلة،² كما كتب البعض نموذجاً مخالفاً لما سبق بدراسة جانب العلاقات الثقافية بين الأندلس ومختلف أقطار المغرب الإسلامي، شأن أبو القاسم درارحة وعبد القادر بوباية وصالح أبو ديك والمنوني وحركات وعاشور بوشامة وأحمد الطوخي ومحمد طالبي،³ وكتب آخرون عن فئة معينة من المهاجرين كالأطباء مثلاً ونذكر من هذا النموذج محمود الحاج قاسم محمد و Margarita Castells⁴.

¹ أنظر على التوالي: صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، المجلة العربية للثقافة، عدد 27، سبتمبر 1994، ص 222-243، هجرة الأندلسيين إلى الجزائر الحفصية، ضمن: الروابط الثقافية بين الجزائر والحاج، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص 175-212، الجالية الأندلسية بالمغرب العربي: تونس والجزائر، ضمن: دراسات في تاريخ المغرب، ط1، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 1991، ص 25-69، دور المغرب في احتضان العرب المهاجرين من الأندلس، ضمن: دراسات في تاريخ المغرب العربي، ط1، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2004، ص 431-434.

-« *Des migrations forcées les 'Ulama 'd' Al-Andalus face à la conquête chrétienne* ». dans: *L'Occident musulman et L'Occident chrétien au Moyen Age*. op. cit. p. 43- 59

-« *La emigración Andalusí Al Magreb en el siglo XIII (despoblacion y repoblacion en Al-Andalus)* », dans: *relaciones de la Peninsula Ibérica con El Maghreb siglos XIII-XVI, Actas del coloquio*. op. cit. p.87-129.

-« *Granada y el Magreb: La emigracion Andalusí (1485-1516)* », dans: *relaciones de la Peninsula Ibérica con El Maghreb siglos XIII-XVI, Actas del coloquio*. op. cit. p.409-451.

-« *Les Espagnols et l'Afrique du nord de 1492- 1577* ». Revue Africaine. N° 69-1928. p 184-233.

² أنظر على التوالي: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي 2 / 157-160، الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين، ضمن: دراسات في تاريخ إفريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، تونس: منشورات كلية الآداب، 1982، ص 165-213، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، تونس: منشورات جامعة تونس الأولى، 1999، 2 / 573-601، السكان الحضري بإفريقية من ق13 إلى ق16 م، ضمن: الديموغرافية التاريخية بتونس، تونس، دار سراس، ص 85-100. وهناك دراسات أخرى لم أقف عليها فتحاشيت ذكرها.

³ أنظر على التوالي: العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط الأندلس، مجلة بحوث، عدد2، 1994، ص 167-188، الروابط الثقافية والعلمية بين وهران والعدوة الأندلسية، مجلة إنسانيات، عدد 23-24، حانفي- جوان 2004، ص 61-73، العلاقات الثقافية بين المغرب والأندلس، المورخ العربي، عدد 33، 1987، ص 108-147، نماذج من التكامل الثقافي بين المغرب والأندلس، ضمن: بحوث الملتقى الإسباني المغربي الثاني للعلوم التاريخية، ص 143-161، علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1991، ص 300-301 و 471-473، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1997، ص 336-341.

« *Las contacts culturels entre l'Ifriqiya Hafside (1230-1569) et la sultanat Nasride d'Espagne (1232-1492)* » dans: *Etudes d'Histoire Ifriqiyenne* ". Tunis, 1982. p.81-104.

⁴ أنظر على التوالي: رحلات الأطباء من الأندلس وإليها- القسم الأول: رحلات الأطباء من الأندلس إلى المغرب، مجلة المورد، المجلد 26، عدد 1، 1418-1998، ص 64-72،

« *Medecins Andalous au Maghreb. siecles VII-IX / XIII-XV* ». dans : *Actas del II Coloquio Hispano-Maarroquí de Ciencias Históricas*. op. cit. p. 115- 127.

أما من تناولوا العلاقات السياسية والاقتصادية بين المغرب الأوسط والأندلس فلم نعرف من خلالهم ولو مجرد أسماء السفراء والتجار في الغالب المطلق، للتعميم الذي فرضته المصادر قسرا، ومن أمثلة هؤلاء: عيسى الحريري وعبد الكريم جودت وبجاز إبراهيم وعبد العزيز فيلاي ومحمد ناصر بسبوني كيجل¹ وغيرهم.

ومن الباحثين من آثر دراسة جانب العلاقات الشاملة جامعا بين النموذجين الأخيرين من أمثال عبد الرحمن الجليلي وسلفادور غومث نوغاليس و Maria J. Viguera Molin².

إن طريقة عرض الدراسات المذكورة لموضوع الجالية تركز بالأساس على جانب التأثيرات الأندلسية المختلفة في المغرب الأوسط، على الصعيد الثقافي والسياسي والعسكري والاقتصادي، وبشكل أقل على الصعيد الاجتماعي، كما ركزت على عرض أسباب الهجرة بدراسة وضعية الأندلس عبر مراحلها الطويلة، ولم تنجز لحد الآن - حسب علمي - أي دراسة إحصائية للجالية الأندلسية، لذا سأبني هذا الطرح ابتداء لتفادي اجترار الدراسات السابقة مطبقا المنهج الكمي التاريخي، ثم أحلل العينات الجزئية المتوصل إليها بعد إحصاء عدد الوافدين الأندلسيين إلى المغرب الأوسط إلى ما بعد سقوط غرناطة الإسلامية سنة 897 هـ / 1492 م، أي إلى غاية دخول العثمانيين الأتراك إلى الجزائر في العقد الثاني من القرن العاشر.

لقد توصلت وفقا للمصادر المتنوعة (طبقات وتراجم - برامج وفهارس - تاريخ عام...) إلى إحصاء 556 وافدا، وهذا بشكل أقرب ما يكون إلى الاستقصاء منه إلى الإحصاء، وما معني من إدراج قائمة شاملة بأسماء هؤلاء الوافدين إلا طولها حيث قاربت الخمسين صفحة أمل أن أنشرها كدراسة مستقلة.

وقبل الشروع في تحليل العينات الجزئية نقف على ظاهرة غريبة تخص الكتابة التاريخية الوسيطة، ففي غياب وندرة المصادر الأصلية التي ألّفها علماء المغرب الأوسط تحديدا؛ تجاوز مؤرخو العالم الإسلامي مشرقا ومغربا تراث هذا القطر المغربي رغم أننا مدينون لهم بالكثير والقليل، لأنهم لم يطلقوا العنان لأقلامهم تدبج تاريخه وترصد أحداثه كما الشأن بالنسبة للأقطار الأخرى، فالرقم 556 وافدا، لا يمثل حقيقة الجالية الأندلسية ووجودها فيه مطلقا، إذ لا يصرح معظمهم بدخول هؤلاء الأندلسيين إليه، ولنا خير مثال عن ذلك ما ورد في ترجمة القاضي الإشبيلي الشهير: أبو بكر بن العربي المالكي يدلل على صحة هذه المزاعم، فقد نزل مدينة بونة وبجاية مع والده الفقيه عبد الله سنة 485 هـ خلال رحلته المشرقية، ودرس بهذه الأخيرة على أحد علمائها

¹ أنظر على التوالي: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ص 214-222، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص 124-180، الدولة الرستمية، ص 191-193 و 385-387، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ط 2، القاهرة: دار الفجر، 2001، ص 96-109، السياسة الخارجية للدولة بني زيان بالمغرب الأوسط (633-962 هـ)، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية، ص 274-286.

² نحة عابرة إلى ما كان من العلاقات التاريخية العامة بين الجزائر وإسبانيا الأندلسية، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر، باتنة- الجزائر، 7-14 سبتمبر 1978، 2/ 161-171، الرستميون قفطرة بين الجزائر والأندلس من خلال الإباضية، الأصالة، عدد 46-47، جويلية 1977، ص 10-24.

« *Relaciones entre et Magreb Y Al-Andalus en et siglo XI* » dans : *Actas Del II coloquio Hispano- Marrqui De ciencias Historicas*. op. cit. p. 357-369.

- أي ابن عمار الكلاعي الميورقي الأندلسي وغيره، لكن المصادر التي ترجمت له تتجاوز ذلك، وهذه قائمة بمضام ترجمته:
- 1- القاضي عياض. الغنية، تحقيق علي عمر، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423-2003، ص 39.
 - 2- ابن بشكوال. الصلة، تحقيق العطار، ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1404-1984، 558/2.
 - 3- الضبي. بغية الملتصم، تحقيق السويفي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1997، ص80.
 - 4- الفتح بن خافان. مطمح الأنفس، تحقيق الشراوي، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1422-2001، ص 144.
 - 5- الرعيبي. برنامج الرعيبي، تحقيق شيوخ، دمشق: مديرية إحياء التراث القديم، 1381-1962، ص 117.
 - 6- النباهي. المراقبة العليا، ط5، بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1983، ص105.
 - 7- ابن سعيد. المغرب في حلي المغرب، تحقيق خليل المنصور، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1997، 183/1.
 - 8- ابن قنفذ. الوفيات، تحقيق نويهض، بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1403-1984، ص 279.
 - 9- المقرئ. أزهار الرياض، تحقيق السقا وآخرين، المغرب- الإمارات العربية: للجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، 1978، 62/3.
 - 10- المقرئ. نفع الطبيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1968، 25/2.
 - 11- ابن القاضي. جذوة الاقتباس، تحقيق بن منصور، الرباط: دار المنصور، 1973، 266/1.
 - 12- ابن إدريس الكتاني. سلوة الأنفاس، تحقيق الكامل الكتاني وآخرين، الدار البيضاء: دار الثقافة، 244/3.
 - 13- العباس المراكشي. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط: دار المنصور، 1976، 94/4.
 - 14- ابن مخلوف. شجرة النور الزكية، بيروت: دار الفكر، ص 136.
 - 15- الأصفهاني. خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق آذرنوش، طبعة مصورة عن طبعة 1971، 296/17.
 - 16- ابن خلكان. وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 296/4.
 - 17- ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق تحقيق العمروي، بيروت: دار الفكر، 1415-1995، 24/54.
 - 18- ابن منظور. مختصر تاريخ دمشق، تحقيق الشهابي، ط1، دمشق: دار الفكر، 1989، 289/13.
 - 19- ابن عبد الهادي. طبقات علماء الحديث، تحقيق أكرم البوشي وإبراهيم الزبيق، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996، 68/4.
 - 20- الذهبي. الإعلام بوفيات الأعيان، تحقيق رياض عبد الحميد مراد وعبد الجبار زكار، ط1، بيروت- دمشق: دار الفكر المعاصر- دار الفكر، 1412-1991، ص 224.
 - 21- الذهبي. تاريخ الإسلام، تحقيق تدمري، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1409-1988، 159/37.
 - 22- الذهبي. تذكرة الحفاظ، بيروت: دار الكتب العلمية، ص1295.

- 23- الذهبي. دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة، ط1، بيروت: دار صادر، 1999، 47/2.
- 24- الذهبي. سير أعلام النبلاء، تحقيق الأرنؤوط، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405 - 1985، 197/20.
- 25- الذهبي. العبر في خير من غير، تحقيق زغلول، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1405 - 1985، 468/2.
- 26- الذهبي. المعين في طبقات المحدثين، تحقيق همام عبد الرحمن سعيد، ط1، عمان: دار الفرقان، 1404 - 1984، ص 161.
- 27- ابن فرحون. الديباج المذهب، تحقيق مأمون الجنان، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417 - 1996، ص 376.
- 28- الصفدي. الوالي بالولايات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000، 256/3.
- 29- ابن كثير. البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف، 228/12.
- 30- اليافعي. مرآة الجنان، ط2، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1993، 279 /3.
- 31- ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق إبراهيم علي طرخان، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 302 /5.
- 32- المقرئزي. المقفى الكبير، تحقيق اليعلاوي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411 - 1991، 110/6.
- 33- الأدرؤوي. طبقات المفسرين، تحقيق الخزي، ط1، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1997، ص 180.
- 34- السيوطي. طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، ط1، القاهرة: مكتبة وهبة، 1396، ص 90.
- 35- السيوطي. طبقات الحفاظ ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403 - 1983، ص 468.
- 36- ابن العماد. شذرات الذهب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 141/4.
- 37- ابن الغزي. ديوان الإسلام، تحقيق كسروي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1411 - 1990، 355/3.
- 38- البغدادي. هدية العارفين، استانبول: وكالة المعارف الجلييلة، 1955، 493/1.
- 39- الزركلي. الأعلام 6 / 230.
- 40- رضا كحالة. معجم المؤلفين، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1414 - 1993، 456/3.
- 41- صديق القزنجي. أئجد العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، بيروت: دار الكتب العلمية، 1978، 149 /3.
- 42- سر كيس. معجم المطبوعات، لبنان، 174/1.
- 43- محمد فريد وجدي. دائرة معارف القرن العشرين، بيروت: دار الفكر، 307/6.
- 44- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشناوي وآخرين، بيروت: دار المعرفة، 237 /1.

45- *The Encyclopaedia of Islam*. Brill, Academic Publishers, 2003. CD .edition. J. Robson. Art: IBN AL- 'ARABI .

46- كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي، ترجمة السيد يعقوب بكر، ط5، القاهرة: دار المعارف. 275/6.
47- كراتسكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة، صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1408-1987، ص 298.

48- عبد الرحمن البرقوقي. أبو بكر بن العربي، مجلة الرسالة، عدد 161، أغسطس 1936، ص 1260-1262، وعدد 162، أغسطس 1936، ص 1303-1305.

49- عمر فروخ. تاريخ الأدب العربي، ط1، بيروت: دار العلم للملايين، 1982. 284/5.

50- بطرس البستاني. دائرة المعارف، بيروت: دار المعرفة، 17/2.

51- الزبير مهرداد. ابن العربي رائد التربية المقارنة، آفاق الثقافة والتراث، السنة 7، العدد 25-26، ص 83-90.

ففي كل هذه المضام لا يصرح بدخوله مدينتي المغرب الأوسط إلا بعد أربعة قرون مع المقرئ¹ في القرن التاسع والمقرئ التلمساني في القرن العاشر في "نفع الطيب" ومع المراجع الثلاث الأخيرة، أي إن الاعتماد على مصدر واحد وإن كان معاصراً أو قريب عهد بالترجم به لا يجدي في مثل هذه الدراسات، وبلغت الأرقام نقول أن 9.80% فقط من مجموع المصادر هي العمدة المعول عليها في مثل هذا النموذج و 90.19% تمثل المصادر السلبية، وهذا يتجاوز بهذه النسبة غير مبرر.



ورغم أن ابن العربي دون رحلته في كتاب سماه "شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان"² إلا أنه هو الآخر أهمل ذكر نزوله ببجاية وبونة وكان هذا الحدث لا قيمة له، ثم استدرك على نفسه في كتاب غير

¹ المقرئ مؤرخ مصري من أشهر تلميذ ابن خلدون، صاحب المؤلفات القيمة، توفي سنة 853 هـ، أنظر: مرغوليوث. دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1422-2001، ص 148، سعيد عاشور. أضواء جديدة على المؤرخ المقرئ وكتابه، عالم الفكر، مجلد 14، عدد2، يوليو 1983، ص.

² تحقيق محمد بعلی، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي.

ذي صلة بالتاريخ أو الرحلة والجغرافيا الوصفية وهو كتاب "قانون التأويل"¹ الجامع بين موضوعي علم الكلام وعلوم القرآن فأثبت المرحلة الأولى من رحلته إلى العدة المغربية، وذكر نزوله بجاية وبونة. ومن الإشكالات التي تقف عائقا أمام المنهج الكمي في مثل هذه الدراسات أن كتب التراجم والطبقات ألقت وفقا لإديولوجية معينة، ففي الغرب الإسلامي كان واضعوها من فقهاء المالكية في أغلبهم، مما يعني ضرورة إهمال المنتسبين للمذهب الظاهري الحزمي وغلاة الصوفية والمتزندقين من أتباع المذهب المسري، وحتى المعارضين للدولة القائمة ومن على شاكلتهم، وقهمل كذلك المنخرطين في سلك العمل السياسي البحت، لتعطي فرصة لكتب التاريخ العام (الحولي والسلالاتي) للاهتمام بهم، وهذه الأخيرة لاتسمح لنا بتتبع المراحل الأولى لهؤلاء وتنقلاتهم، فهي تركز فقط على ما بعد تربعهم على عرش المناصب المتنفذة كالوزارة والكتابة وقيادة الجيش، والإشكال الأكبر أن هذين الصنفين من أصناف الكتابة التاريخية لا يتطرقان إلى شرائح المجتمع العريض المعروف في أديانها بـ "العامة والغوغاء".

والأسوأ في كل هذا وتحديدًا ما تعلق بهجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط أننا نكاد لا نملك تآليف (جزائرية) خالصة تركز على هذا الفضاء الجغرافي، لمعرفة أصحابها به وبخصائصه أكثر من غيرهم، فمن كتب التراجم نملك كتابا للغربيين البجائي يضم 108 تراجم، وكتابا لابن قنفذ القسنطيني يضم 54 ترجمة دون حساب الشخصيات المجهولة، وكتابا لابن مريم التلمساني يضم 199 ترجمة² في حين لم يبق لنا من كتب البرامج والفهارس - على أهميتها- سوى برنامج الغربيين المطبوع مع كتاب "عنوان الدراية" في 17 صفحة فقط.

إننا وأمام هذه الصورة المضطربة لا نملك خيارا في استغلال المصادر الموجودة بشكلها القائم، ويكون التركيز المفروض علينا في هذه الدراسة الإحصائية على النخبة العلمية بالدرجة الأولى ثم النخبة السياسية. لقد قمت بإعادة توزيع الوافدين الأندلسيين إلى المغرب الأوسط حسب مدن الأندلس التي هاجروا منها فتحصلت على الجدول الآتي.

¹ تحقيق محمد السليمان، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ص80-83، وسبق أن استخراج سعيد أعراب جزء الرحلة المسمى "ترتيب الرحلة للفرغبي في الملة" من الكتاب المذكور ونشره محققا ضمن كتاب "مع القاضي أبي بكر بن العربي"، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1407-1987، ص194-196، وأنظر كذلك: إحسان عيسى. رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل، مجلة الأبحاث (الجامعة الأمريكية ببيروت)، المجلد 21- الجزء 2، 1968، ص75.

² أنظر على التوالي: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية، تحقيق رابع بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1971، أنس الفقير وعز الحفيظ، تحقيق نجاح صيام، ط1، القاهرة: دار المقطم، 1422-2002، البستان، تحقيق ابن أبي شنب، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، أما كتب الوفيات فلم نضعها في الحسبان لمنهجها المعتمد على الاختصار المحل بالترجمة، عكس كتب الوفيات المشرقة.

توزيع الوافدين الأندلسيين حسب مواطنهم الأصلية (556 وافدا)

التوزيع حسب القرون									القيمة	النسبة %	الجمع	البلدية
القرن 10	القرن 9	القرن 8	القرن 7	القرن 6	القرن 5	القرن 4	القرن 3	القرن 2				
			1	1	2				نادر	0.71	4	طلبطة
		4	7	13	15	1	2	2	معتبر	7.91	44	قرطبة
	1	3	14	3					معتبر	3.77	21	شاطبة
		1	7	6					معتبر	2.51	14	دانية
1	2	13	5	9	6				معتبر	6.47	36	المرية
				1					نادر	0.17	1	لورقة
		5	22	8	1				معتبر	6.47	36	مرسية
		3	12	11	1				معتبر	4.85	27	بننسية
			1						نادر	0.17	1	برشانة
	2	6	23	20	4	1			معتبر	10.07	56	إشبيلية
	10	27	16	5					معتبر	10.43	58	غرناطة
	2	7	5	8					معتبر	3.95	22	مالقة
		1	5	3					نادر	1.61	9	جزيرة شقر
			1	1					نادر	0.35	2	لهلة
			2	3	1				نادر	1.07	6	ميورقة
	3								نادر	0.53	3	بسطة
	2	4	10	1					قليل	3.05	17	أبذة
			3	4	1				نادر	1.43	8	وشقة
			1			1			نادر	0.35	2	وادي الحجارة
				4					نادر	0.71	4	شريش
		2							نادر	0.35	2	قرونة
		4	5	1					نادر	1.79	10	جيان
				2					نادر	0.35	2	سرقسطة
		2	1						نادر	0.53	3	وادي

												آش
			4	7					قليل	1.97	11	شلوبانية
			4						نادر	0.71	4	آبلة
					1				نادر	0.17	1	إشبونة
		1							نادر	0.17	1	اسطبونة
					1				نادر	0.17	1	بطلوس
				1					نادر	0.17	1	مارتلة
			1	4	1	14	3		معتبر	4.13	23	أليرة
1									نادر	0.17	1	برجة
			1	1					نادر	0.35	2	أوريولة
				1					نادر	0.17	1	أشونة
				1					نادر	0.17	1	المنكب
			1	1					نادر	0.35	2	استيحة
			1			1			نادر	0.35	2	تدمير
		1		1					نادر	0.35	2	طرطوشة
				1					نادر	0.17	1	بلفى
			1	1					نادر	0.36	2	قلنة
			2						نادر	0.35	2	شلب
			1						نادر	0.17	1	طليرة
19	6	2							معتبر	4.85	27	عقبان
				1					نادر	0.17	1	قلعة بني سعيد
							6		نادر	1.07	6	هاجة
		5	4						نادر	1.61	9	رندة
			2	2					نادر	0.71	4	لقنت
				1	1		2		نادر	0.71	4	بجانة
	2	1							نادر	0.53	3	الجزيرة الحضراء
	10	16	16	6	2	1	2	2	معتبر	9.89	55	غير محدد
المصادر												
المصادرة المعتمدة في هذا الدراسة كثيرة لا يسع المقام لذكرها، وإنما أئبها في قائمة المصادر، والبعض تجدها مبنوثة في ثنايا هوامش الدراسة، وتتركز أساسا على كتب التراجم والطبقات والفهارس.												

- أما الأعلام الذين ينسبون إلى المدن التي عاش فيها أسلافهم مع أنهم لا ينتسبون في الحقيقة إلى نفس المدينة ووردت تراجمهم مقتضبة في المصادر؛ فإننا ننسبهم إلى مدينة سلفهم كما فرضته علينا الكتابة التاريخية، لذا نجد شخصيات تنسب إلى مدن سقطت في يد مسيحي إسبانيا قبل قرن أو أكثر من ظهورهم على مسرح الأحداث التاريخية، مثل آبله التي سقطت في نهاية القرن الخامس وينسب إليها بيت الآبلي العبدري في القرنين السابع والثامن كما سألين في الفصل الرابع، ومثل ما ورد في نسبة أبي إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن الحاج علي البناني من أهل القرن 11 هـ، صاحب المختصر الذي شرح فيه العقيدة الوسطى¹ لمحمد بن يوسف السنوسي التلمساني، فهو ينسب إلى سرقسطة التي سقطت في القرن 6 هـ ولا نملك معلومات عن نسبه وحياته إلا من خلال إشارات وردت في كتابه المذكور.

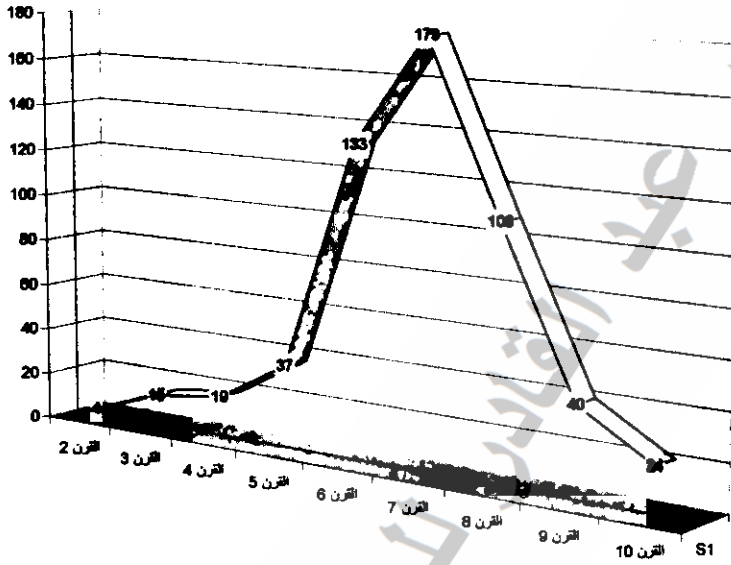
التعليق

من خلال الجدول يتبين لنا أن المدن التي كثر منها التزوج نحو المغرب الأوسط كانت مرتبة تنازلياً على النحو الآتي: غرناطة، إشبيلية، قرطبة، المرية ومرسية، بلنسية، مالقة، شاطبة، دانية. وأستثنى في هذه الترتيبية ذكر كل من مدينة ألبيرة وعقبان وأبذة، كون الرقم المثبت في الجدول الخاص بها يمثل امتداد بيوتات نشأت في المغرب الأوسط، ولا يمثل حركة الهجرة والتزوج إلا بنسبة ضئيلة جداً. إن هذه الترتيبية مرتبطة بعدة أسباب يختلط فيها ما هو تاريخي بما هو سياسية وجغرافي وديموغرافي؛ كون هذه المدن من أكبر مدن الأندلس وأعرقها عمداً وحضارة وأكثرها سكاناً، ورواج العلم فيها سمح بظهور الأعلام البارزين ممن فرضوا وجودهم على صفحات التاريخ الأندلسي والمغربي على حد سواء، بل وحتى العالمي، الوضعية التي جعلت المؤرخين يتتبعون مراحل حياتهم وتنقلاتهم بعناية ملحوظة عكس أعلام المدن المغمورة والأقل أهمية من المذكورة، وجل هؤلاء المؤرخون ينتمون إلى المدن العريقة ونحن مدينون لهم بأغلب هذه الأرقام، كما كان للبعد الجغرافي أثره في ارتفاع نسبة المهاجرين نحو المغرب الأوسط شأن المدن الساحلية الشرقية والجنوبية كالمرية وبلنسية ودانية القريبة من سواحل المغرب الأوسط. وعلى العموم فأندلسي الجنوب يمثلون الأغلبية المطلقة لهؤلاء الوافدين، لأن الشمال لم يدم طويلاً في يد المسلمين، وبعد سقوطه تحت ضربات المسيحيين هاجر جل سكانه إلى المدن الأندلسية الداخلية والقليل فقط هاجر إلى المغرب وإفريقية.

¹ عنوان الكتاب هو: الهبة والعطا في شرح العقيدة الوسطى، تونس: المطبعة التونسية، 1345 - 1926.

توزيع الوافدين الأندلسيين حسب القرون									
القرن 10	القرن 9	القرن 8	القرن 7	القرن 6	القرن 5	القرن 4	القرن 3	القرن 2	
21	40	108	179	133	37	19	15	4	المجموع
3.77	7.19	19.42	32.19	23.92	6.65	3.41	2.69	0.71	النسبة %
قليل	قليل	معتبر	معتبر	معتبر	قليل	نادر	نادر	نادر	التقدير

توزيع الأندلسيين الوافدين حسب القرون



التعليق

لقد بدأت التواجد الأندلسي في المغرب الأوسط بشكل محتشم خلال القرون الخمسة الأولى، إذ كانت القيروان في العهدين الأعلى والزيري وفاس ومراكش في عهد الأدارسة بالنسبة للأولى وبالنسبة لكليهما في العهدين المرابطي والموحدي، المدن الأكثر استقطاباً للأندلسيين من بين مدن المغرب الإسلامي. فكان وفودهم على القيروان لأخذ العلم على يد أعلامها البارزين أمثال الإمام سحنون وغيره، يوم أن كانت عاصمة للعلم والثقافة المغربية الأولى وقاعدة المذهب المالكي الرئيسية.¹

¹ راجع بخصوص دور القيروان كمرکز علمي: حسن حسني عبد الوهاب. بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، تونس: المطبعة التونسية، 1330 هـ، (93 ص)، محمد زيتون. القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، القاهرة: دار المنار، 1408-1988، ص 183-415، يوسف حوالة. الحياة العلمية في إفريقية منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن 5 هـ، مكة المكرمة، منشورات جامعة أم القرى، 1421-2000، 1 / 145-153، عبد الرحمن حجازي. التربية الإسلامية في القيروان في القرون المجرية الثلاثة الأولى، ط1، صيدا-بيروت، المكتبة العصرية، 1417-1997، ص 137 وما بعدها.

أما فاس فعرفت أول هجرة جماعية للأندلسيين في عهد إدريس الثاني (188- 213 هـ) بعد وقعة الربيض المشهورة في قرطبة سنة 202 هـ فأسكنهم العدو الشرقية من المدينة فسميت باسمهم (عدوة الأندلسيين)، وكان لهذا الاستقرار أبعاد سياسية وحضارية كبيرة،¹ كما شهدت المدينة مع مراكش أيضا في عهد المرابطين والموحدين توافدا كبيرا للأندلسيين،² كونهما عاصمتين للسياسة والثقافة المغربية في الفترات المشار إليها، بفضل ما توفره المدينتين من فرص العمل في مناصب التعليم والمناصب العليا في الدولة، كقضاة ووزراء وأطباء في القصر الملكي وما إلى ذلك.

كما كانت عواصم الثقافة في المشرق كبغداد ودمشق وكذلك العاصمتين الروحيتين مكة والمدينة المشرفتين تستقطب نخبة الأندلس العلمية،³ مما كان له أثره في نشوء المدارس الفكرية المختلفة بالأندلس.

أما الهجرة الكثيفة نحو المغرب الأوسط فبدأت في القرن السادس بعدما أخذت الأندلس تسير نحو مصيرها المحتوم، مذ سقطت طليطلة في نهاية القرن الخامس أي سنة 478 هـ في يد الأذقونش السادس، وبدأت أصوات الهزامية تعلوا تنادي بالرحيل والهجرة إلى غير رجعة، يمثلها ابن العسال الشاعر الشهير حيث يقول:

يا أهل الأندلس حثوا مطيكم فما المقام بما إلا من الغلط
الثوب يتسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفظ

ويسانده شاعر مجهول بصوت جهير قائلا:

ياهل أندلس ردوا السُّعار فما في العرف عارية إلا مردّات.⁴

وهي أصوات تعبر عن قلق حقيقي في أوساط النخبة خصوصا، عن مصير الأندلس وما يكتنف مستقبلها من غموض، والنتيجة أنهم استجابوا لهذه الأصوات الهزامية.

¹ راجع: الجزائلي- زهرة الأمل في بناء مدينة فاس، تحقيق مديحة الشراوي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، 1422- 2001، ص 62- 63، 64، 123-127، سعدون عباس نصر الله، دولة الأدارسة في المغرب: العصر الذهبي، ط1، بيروت: دار النهضة العربية، 1408- 1987، ص155-161، ونهرت دوزي. المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، 68/1-69.

² راجع: عبد الأحد الرايس. ملاحظات حول حركة السكان بفاس خلال عصري المرابطين والموحدين: حركة الوافدين نموذجاً، ص 9- 34، محمد رزوق. تطور استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب الأقصى، ص127- 143، يوسف أنكادي. الهجرات القسرية لهلماء قرطبة عند مطلع القرن الخامس الهجري من خلال كتاب الصلة لابن بشكوال، ص 37-48، نشرت هذه الدراسات الثلاثة في: مجلة كنانيش، عدد 4، صيف- خريف 2002. محمد الشريف. القسم الأول من كتاب "الاستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد" لعماد التميمي الفاسي، منشورات كلية الآداب بتطوان، 2002، ص175- 180.

³ مصطفى المروس. المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1418- 1997، ص90-101، خالد الصندي. حركة الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري، المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1415- 1995، ص78- 91، على أحمد. الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دمشق: دار طلاس، 1989، (339 ص)، عمر عبد السلام تدمري الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام، مجلة التاريخ العربي. عدد 12، ص13-32.

⁴ المقرئ. نفع الطب، 4/ 352.

ومن أهم الأسباب التي رشحت الهجرة الأندلسية في هذا القرن هو وجود شخصيات أندلسية وافدة ذات حضور بارز وتأثير علمي قوي جدا، استقطبت النخبة الأندلسية وجذبتهما إلى فضاء المغرب الأوسط؛ كشخصية عبد الحق الإشبيلي¹ حافظ المغرب وفتيحه الذي استوطن بجاية بعد سنة 550 هـ، فكان له الأثر الأول في وفود طلبة العلم من أقطار مختلفة للتلمذ عليه مباشرة، وأغلب من ورد بجاية من الأندلسيين في الفترة الممتدة بين سنتي 550 و 582 هـ هم من تلاميذه، وكشخصية القطب الصوفي أبي مدين شعيب الإشبيلي (تـ 594 هـ)² أيضا الذي كان يقصده زهاد الأندلس ومتصوفتها أيام استقراره بجاية للتلقي عنه.

أما في القرن السابع الذي استهلته أحداثه بالهزيم المسلمية في معركة العقاب سنة 619 هـ، فشهدت فيه الأندلس سقوط متتابع وسريع لمدنها الشرقية والغربية، فسقطت قرطبة سنة 633 هـ وبلنسية سنة 636 هـ وشاطبة سنة 645 هـ وإشبيلية سنة 646 هـ ومرسية سنة 666 هـ، وكان ملوك النصارى الذين استولوا على هذه المدن يشجعون المسلمين على مغادرتها نحو العدو المغربية؛ كما هو الحال مع حاقمو الغازي الذي ضاق ذرعا بثورات مسلمي بلنسية،³ مما أدى إلى نزوحهم جماعات وبأعداد كبيرة جدا، فنجد عبارة: "فد مع جالية شرق الأندلس" و"جالية الأندلس" ونحوها؛ تتكرر كثيرا في كتابات ابن خلدون.⁴

فمثل هذا القرن ذروة الهجرة الأندلسية نحو المغرب عموما، وفي بجاية خاصة التي ظهر فيها لأول مرة مصطلح "رأس الجماعة الأندلسية"⁵ الذي حمله ابن محرز البلنسي تعبيرا عن مجتمع قائم بذاته داخل هذه المدينة.

¹ راجع ترجمته وأثره في: الغريبي. عنوان الدراية، ص 73، النووي. تهذيب الأسماء واللغات، بيروت: دار الكتب العلمية، 292 / 1، السنهي. تاريخ الإسلام، 111 / 41، نفسه. دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة، بيروت: دار صادر، 1999، 87 / 2، رابع بونار. عبد الحق الإشبيلي الجعالي: محدث القرن السادس الهجري، الأصالة، عدد 19، 1974، ص 259-271، عبد الهادي الحسين. عبد الحق الإشبيلي الجعالي الأزدي، دعوة الحق، عدد 7، السنة 24، 1983، ص 47-53، عمار طالبي. الحياة العقلية في بجاية: الفلسفة والكلام والتصوف، الأصالة، عدد 19، 1974، 153-159.

² راجع: التادلي. الشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، ط 2، الرباط: منشورات كلية الآداب- جامعة محمد الخامس، 1997، ص 319، التميمي. المستفاد، ص 41، الغريبي. عنوان الدراية، ص 55، ابن فضل الله العمري. مسالك الأبصار (السفر الثامن: طوائف الفقهاء والصوفية)، تحقيق بسام محمد بارود، أبو ظبي: المجمع الثقافي، 1421-2002، ص 317، ابن قنفذ. أنس الفقير، ص 45 وما بعدها، عبد الوهاب الشعراني. الطبقات الكبرى، القاهرة، دار الفكر العربي، 133 / 1، عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، ط 1، الرباط: دار نشر المعرفة، 2001، 46 / 2، بوبه بجاني. أبو مدين شعيب وشيخه أبي يعزى، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد 8، ماي 2001، ص 172-180، عبد الوهاب فرحات. أبو مدين شعيب ومكانته في التصوف المغربي، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، عدد 13، فبري 2003، ص 84-95، عبد القادر الخلافي. أبو مدين العوث دفين تلمسان (520-594 هـ)، الأصالة، عدد 26، 1975، ص 284-295.

³ محمد الطالبي. الهجرة الأندلسية، ص 173-174.

⁴ العبر، 433 / 6، 453 / 6، 463 / 6، 516 / 6، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1425-2004، ص 49.

⁵ الغريبي. عنوان الدراية، ص 242، محمد حسن. المدينة والبادية والأريمية في العهد الحفصي، 588 / 2.

وقد استمر الضغط القشتالي - كما تشهد به رسائل ابن الخطيب الغرناطي¹ - بشكل أقل حدة مقارنة بالقرن السابع على مملكة بني الأحمر طيلة القرن الثامن، فأخذت حركة الجلاء تتسرب نحو المغرب ببطء، وأغلب من وفد على المغرب الأوسط في هذا القرن كان لغرض الدراسة والتلقي على يد العلماء البارزين؛ أمثال المرازقة وآل المقرئ وبني الإمام والمشدالين وغيرهم.

ثم تجدد الضغط القشتالي بشكل صارم في القرن التاسع إلى أن سقطت غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس، وهاجر الأمير الزغل أبو عبد الله محمد ابن عم آخر ملوك غرناطة مع بعض قواده ووجوه دولته إلى وهران ثم نزح نحو تلمسان وما توفي²، ونزح المسلمون بعد هذه النكبة إلى وهران وتلمسان ومازونة والجزائر وبجاية وبقيّة مدن المغرب وإفريقية³.

واستمر نزوح الأندلسيين في القرن العاشر ممن كان قد آثر البقاء تحت حكم الملك فرناندو وإيزابيلا إلى نهاية العصر الوسيط الذي ينتهي سنة 962 هـ - بسقوط الدولة الزيانية على يد العثمانيين.

¹ دَوْن ابن الخطيب رسائل الاستغاثة والاستنجد التي بعثها ملوك بني الأحمر للمرينيين في كتابه المصنوع بس: كتاب الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق محمد كمال شبانة، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1423-2003، وراجع كذلك: رابع عبد الله المرغوي. التواصل الدبلوماسي بين الأندلس النصرية والمغرب المريني من خلال رسائل ابن الخطيب الأندلسي (750-770 هـ)، مجلة التاريخ، عدد 6، ص 63 وما بعدها.

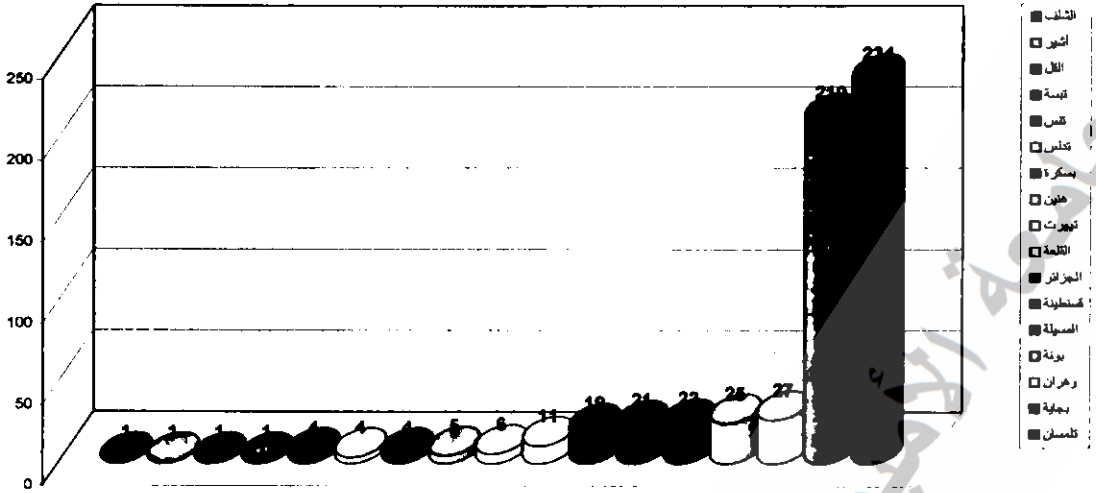
² مجهول. نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق رضوان الداية، ط2، دمشق: دار الفكر، 1423-2002، ص 97، الراشدي. الفجر الجماني في اجسام الفجر الوهراني، ص 14، عبد الحميد بن أشتهو. أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة دفين تلمسان أم فاس؟، الأصالة، عدد 26، 1975، ص 270-283.

³ مجهول. نزوح مسلمي الأندلس إلى المغرب: شرح على قصيدة ابن عبدون، ملحق نشر مع كتاب "نبذة العصر"، ص 119-121.

توزيع الوافدين الأندلسيين في المغرب الأوسط حسب المدن التي استقروا بها

التوزيع حسب القرون									التقدير	النسبة %	المجموع	المدينة
القرن 10	القرن 9	القرن 8	القرن 7	القرن 6	القرن 5	القرن 4	القرن 3	القرن 2				
21	35	62	58	51	6	1			معتبر	39.26	234	تلمسان
	5	46	74	71	11	1	2		معتبر	35.23	210	بجاية
	10	2	1	4	6	1	3		قليل	4.53	27	وهران
		1	3	9	10	2			قليل	4.19	25	بونة
						19	3		قليل	3.69	22	المسيلة
		13	8						قليل	3.52	21	قسنطينة
		4	4	7	4				نادر	3.18	19	الجزائر
				9	2				نادر	1.18	11	القلعة
							2	4	نادر.ج	1	6	تيهت
		3	1	1					نادر.ج	0.83	5	هين
		2	1	1					نادر.ج	0.67	4	بسكرة
					4				نادر.ج	0.67	4	تدلس
							4		نادر.ج	0.67	4	تس
		1							نادر.ج	0.16	1	القل
		1							نادر.ج	0.16	1	الشلف
				1					نادر.ج	0.16	1	أشر
1									نادر.ج	0.16	1	تسة
											596	المجموع

مدن المغرب الأوسط المتقطعة الأندلسيين



التعليق:

لقد كان الأندلسيون يختارون الاستقرار من بين مدن المغرب الأوسط عواصمه العلمية والسياسية أكثر مدن غيرها كتلمسان وبجاية بدراسة أولى، لما توفره هاتين المدينتين من فرص الاحتكاك بالعلماء من جهة وأعيان ووجهاء الدولة والاستفادة من مزايا السلطة المتمثلة في المناصب السامية - كما سنرى عند الحديث عن وظائفهم-، وكذلك الحظوة والهبات والأعطيات، ونرى تناسب واضح بين عدد الأندلسيين الوافدين إلى المغرب الأوسط ابتداء من القرن السادس إلى القرن التاسع وبين عدد الوافدين منهم على المدينتين المذكورتين التين شهدتا أزهى فترات التاريخ في هذه الفترة؛ أي أيام الموحدين وخلفائهم من الزيانيين والحفصيين.

أما تيهرت عاصمة الرستميين فإنها لم تنل حصتها من توافد النخبة العلمية الأندلسية للاختلاف المذهبي بين المجتمعين، بصورة مناقضة تماما لصورة العلاقات السياسية والاقتصادية التي شهدتها تيهرت وقرطبة في القرنين الثاني والثالث،¹ فمن المؤكد أن الأندلسيين من العلماء والطلبة دخلوا تيهرت خاصة من كان يشتغل منهم بالتجارة، لكن الفكر الإقصائي وعقلية تغييب الآخر التي تميزها مؤرخو الإباضية² جنت على الكتابة التاريخية من حيث هم يؤسسون لها.

وبخصوص القلعة عاصمة الحماديين فلم تحظ بتغطية تاريخية لهؤلاء الأندلسيين الوافدون؛ لفقداننا أهم مصادر تاريخها، لكن أقف على ظاهرة أخرى وهي أن المدينة استفادت من سقوط القيروان والمهدية تحت

¹ أنظر عن هذه العلاقات: جودت عبد الكرم. العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص 124-180، نفسه. الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، ص 193 وما بعدها، إبراهيم مجاز. الدولة الرستمية، 191-193، 385-387، الحريري. الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، 214-222، عبد العزيز فيلاي. جوانب من العلاقات بين الرستميين والأمويين في الأندلس، سرتا، عدد 2، 1980.

² لم يكن مؤرخو الإباضية وحدهم يتميزون بهذه العقلية؛ بل حتى المالكية مارسوا هذه العقلية على أوسع نطاق من خلال كتب التراجم القروانية بالخصوص، وختاما مع ابن خلدون الذي لم يؤرخ للدولة الرستمية في موسوعته التاريخية "العبر وديوان المبتدأ والخير".

ضربات العرب الهلالية في النصف الأول من القرن الخامس، بحجرة كثير من أعلامهما إليها وكان الأندلسيون يمثلون طبقة واسعة في القيروان¹ -خصوصاً-، إلى أننا لم نقف على اسم واحد منهم، رغم فحصنا لعدد كبير من كتب التراجم والطبقات.

أما المسيلة فقد ارتبط وجود الأندلسيين بها بإمارة بني حمدون أحد أشهر البيوتات في مغرب القرن الرابع، كما ارتبطت المدينة نفسها بمصير أميرها جعفر بن حمدون كما سيأتي في الفصل الثالث.

ومن الملاحظات الهامة حول التوزيع الجغرافي للأندلسيين في المغرب الأوسط هو أن الغالبية المطلقة من الوافدين يستقرون في المدن، فلا نكاد نجد لهم أثر في القرى والأرياف وذلك لأسباب عديدة منها: أن هؤلاء الوافدون من النخبة لا يتأقلمون مع حياة الريف البدوية، كعائق ذاتي نابع من تكوينهم النفسي والعقلي ولأنهم نزحوا من مدن عريقة في الحضارة، فلم يكن من السهل أن يتنازلوا عن عقلية الحضرة ويندجوا في مجتمع الريف، ولأن الريف لا يوفر الفرص والوظائف التي يطمحون لها من تولى مناصب القضاء والتعليم والخطابة والكتابة وما علا شأنه.

وحتى من نزح من أرياف الأندلس ولم يكن يملك من المؤهلات العلمية ما يجذو به حذو النخبة، فإن تركيبة النظام الريفي لا يسمح له بالعيش فيه، ذلك لأن الأراضي في الريف هي ملكية جماعية ذات طابع قبلي² تنتقل ملكيتها بين أفرادها فقط، إلا إذا انتزعت منهم غلبة من قبل قبيلة أقوى فتبقى دائماً في فلك الجماعة، في حين أن الوافدين يستطيعون في المدينة أن يكتسبوا أرضاً أو محلاً لممارسة حرفة ما، أو أن يسلك طريق الجندية في ظل الدولة³.

الاسماء العرقية والديني للوافدين الأندلسيين

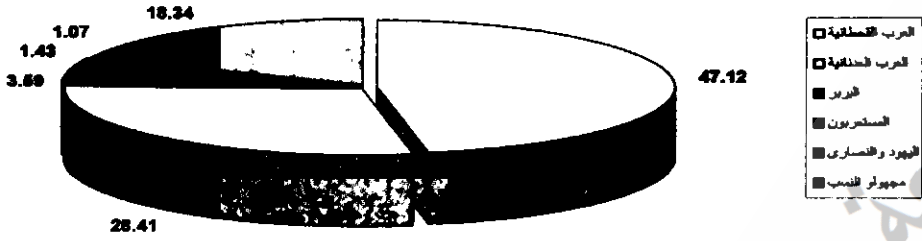
مجهولو النسب	اليهود والنصارى	المستعربون	البربر	العرب العدنانية	العرب القحطانية	المجموع
102	6	8	20	158	262	
18.34	1.07	1.43	3.59	28.41	47.12	النسبة %
معتبر	نادر	نادر	قليل	معتبر	معتبر	التقدير

¹ العروسي المطوي. سيرة القيروان رسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي، طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1981، ص 77-84.

² أنظر: محمد فتحة، التوازل الفقهية والمجتمع، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب - جامعة الحسن الثاني، 1999، ص 348-350.

³ بدأ استقطاب الدولة المغربية للأندلسيين في صفوف جيشها مع المرابطين، أما في العهد الزياني فكان الأندلسيون يشكلون فرقة الرماة وبلغ عددهم ألفي فارس، أنظر: ابن فضل الله العمري. مسالك الأبهار في ممالك الأمصار، ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية - جامعة فرنكفورت، 1408 - 1988. 71 / 4، وفي الدولة الحفصية كذلك. أنظر: القلقشندي. صبح الأعشى، 137 / 5.

الإدتماء العرقي والديني للوافدين الأندلسيين



التعليق

إن المعطيات التي نملكها تبين لنا مدى التنوع العرقي والديني لهؤلاء الوافدين الأندلسيين، مما يعني اختلاف عاداتهم وتقاليدهم وأصناف عيشهم، وما ينتج عن ذلك من تأثير حضاري متباين في شتى الأصعدة، وهناك بعض الدراسات المتفاوتة الأهمية تناولت جانب التأثير الحضاري الأندلسي في إنسان وعمران المغرب الأوسط، وكان التركيز خصوصا على الفنون من موشحات وموسيقى وأجزاء وأمثال، كما ركزت على طرق البناء والتشييد العمراني، وعلى التأثير الصوفي وغير ذلك من الجزئيات، لذا سأكتفي بإحالة القارئ على هذه الدراسات،¹ أما التأثير الحضاري العلمي² والتقني والفكري التنظيمي فيحتاج إلى جهود غير تقليدية.

¹ راجع: نصرمة عزرودي. الأندلسيون وهجرهم إلى المغرب الأوسط، (الفصل الثالث) ص 140-179، الطاهر بونابي. التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين، عين مليلة، دار الهدى، 2004، ص 71-82، 118-130، بوداود عبيد. ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين 7-9 هـ، وهران: دار الغرب، ص 45-52، أمال للرع. الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2005-2006، ص 51-55، جورج مارسي. مدن الفن الشهيرة: تلمسان، ترجمة سعيد دهماني، البليلة: مطبعة أ. موقان، 2004، 29-32، محمد بنشريف. تاريخ الأمال والأزجال في الأندلس والمغرب: بحوث ونصوص، الملكة المغربية: منشورات وزارة الثقافة، 2006، 1/ 222-237 وصفحات أخرى، السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج2، بيروت: دار النهضة العربية، 1982، ص 59-61، نفسه. في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1985، ص 249-250، محمد بلغراد. أعلام أقاموا ببجاية في القرن السابع الهجري، الأصالة، عدد 19، مارس-أفريل 1974، ص 173-180.

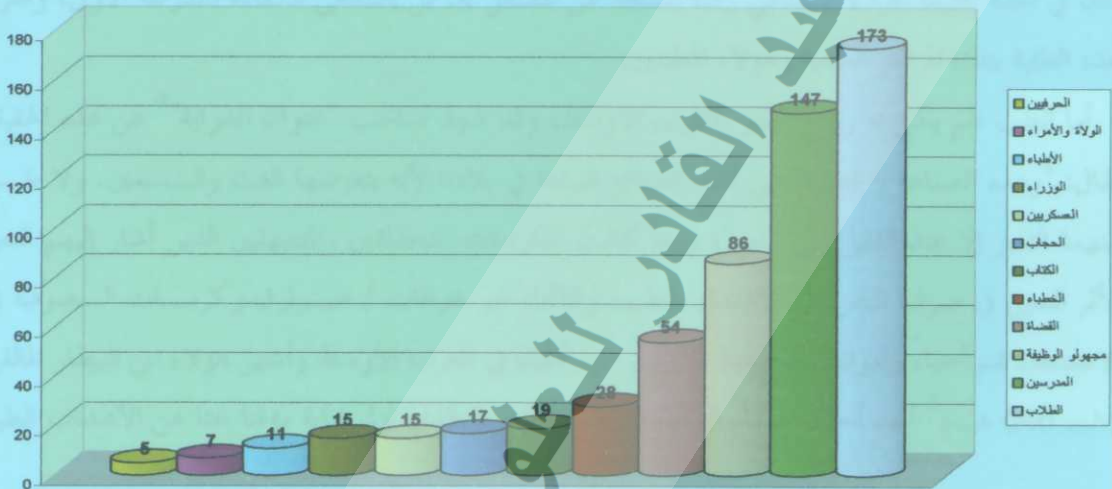
S.M. Stern. « *Andalusian muwadhahs in the musical repertoire of north Africa* », in: *primer congreso de estudios Arabes e Islamico*, Cordoba, 1962. ACTAS, Madrid, 1964. p.319-327.

² يشكل الرافد الأندلسي أهم المؤثرات العلمية في المغرب الأوسط إلى درجة أصبح معها قول فقهاء قرطبة حجة كحجة عمل أهل المدينة بالنسبة للمذهب المالكي، ويتضح ذلك من خلال مقولة أبي عبد الله المقرئ الجدي: "فبينما نحن ننازع الناس في عمل المدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل ما من علماء الأمة كعلمي وابن مسعود ومن كان معهما... سنع لنا بغض الجمود ومعدن التقليد أحر مدني فتأخرت حتى رأيت من الزمان عجاتها يا لله وللمسلمين ذهب قرطبة وأهلها ولم يرح من الناس جهلها..."، أنظر: المقرئ. نفع الطيب 1/ 557، أبو الأحفان. الإمام أبو عبد الله المقرئ التلمساني، تونس: الدار العربية للكتاب، 1988، ص 153-154، ومن الدراسات المنحزة في هذا الجانب أذكر: ناصر الدين سعيون. التجربة الأندلسية بالجزائر: مدرسة بجاية الأندلسية ومكانتها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط، ضمن: القسم الثالث من السجل العلمي لندوة: الأندلس قرون من الثقافات والمطابخ، ط1، الرياض: مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1417-1996، ص 79-104، عمار طالبي. الحياة العقلية في بجاية: الفلسفة والكلام والتصوف، ص 153-172.

وظائف الوافدين الأندلسيين في المغرب الأوسط (577 حالة بالمعكروم)

الولاية والأمرء	الحجاب	الوزراء	الكتاب	المسكرين	القضاة	المدرسين	الخطباء	الأطباء	الطلاب	الحرفيين	مجهولو الوظيفة
7	17	15	19	15	54	147	28	11	173	5	86
النسبة %	2.94	2.59	3.29	2.59	9.35	25.47	4.85	1.90	29.98	0.86	14.90
التقدير	نادر	قليل	قليل	قليل	معتبر	معتبر	قليل	قليل	معتبر	نادر	معتبر

وظائف الأندلسيين في المغرب الأوسط



التعليق

لم يستطع الأندلسيون - عكس المغاربة- أن يصلوا إلى أعلى سلطة في الدولة أو أن يؤسسوا دولة خارج مواطنهم الأصلية، لكن التاريخ سجل إرهابات لم يكتب لها النجاح في النصف الثاني من القرن الثاني، ففي مرضه الذي توفي فيه رشح الإمام عبد الرحمن بن رستم سنة 171 هـ ستة (أو سبعة) شخصيات لتسولي الإمامة الرستمية الإباضية في تيهرت، ومن بين هؤلاء نفر شخصيتين أندلسيتين يمثلهما عمران بن مروان (أو مروان) ومسعود الأندلسي، وكانت كل المؤشرات تتجه نحو صعود هذا الأخير ليل العامة إليه وحبهم فيه،

إلى أنه زهد في المنصب واختفى مفسحا المجال لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم،¹ فكانت هذه الفرصة الأولى والأخيرة للأندلسيين أن يكون أحدهم إماما وخليفة في مجتمع معظمه من البربر.

أما ما دون الخلافة والملك فكل الفرص متاحة، بداية بالولاية ثم الإمارة مع بني حمدون في المسيلة، ثم الوزارة مع الفرع الثاني للبيت الحمدوني في بجاية الحمادية، ليلغوا قمة المجد السياسي في العهدين الحفصي والزياني، حيث فاق عدد الأندلسيين الذين تقلدوا الولاية والحجابه والوزارة في بجاية عدد أصلاء البلد بأضعاف مضاعفة، بل كادت هاته المناصب الثلاث تكون حكرا عليهم، وقد أورد ابن خلدون² نصا تبين منه ارتفاع سبعة شخصيات أندلسية منصب الحجابه في بجاية في ظرف نصف قرن مقابل صنهاجي بجائي واحد. أما الكتاب فبدأ الاعتماد عليهم بشكل كثيف في العهد المرابطي بالنسبة لمراكش، وفي العهد الموحدوي³ بالنسبة للمغرب الأوسط واستمر كذلك في العهدين الحفصي والزياني؛ لما كانوا يتميزون به من فصاحة اللسان وسحر البيان وبراعة القلم.

أما نسبة المشتغلين بالتعليم والتدريس فهي الأكبر لاتساع نطاق المهنة في حد ذاتها، وتعدد المدن والمراكز العلمية التي تستقطب المعلمين، عكس المناصب السياسية التي تختزل في العاصمة كرسى المملكة، ولأن التعليم كان في أغلبه تعليما حرا لا يستدعي رضا السلطة عن المشتغل به، بل يستدعي الكفاءة بالدرجة الأولى، واقترن عدد الطلبة بتلك المراكز العلمية وهؤلاء المعلمين.

أما الطب فلم يكن له رواج معتبر بالمغرب الأوسط، وقد شهد صاحب "عنوان الدراية"⁴ عن هذه الحقيقة فقال: "وهذه الصناعة (الطب) هي أشد الصنائع ضياعا في بلادنا لأنه يتعرضها الغث والسمين، ولا يقع بينهما التميز إلا عند القليل من الناس"، وربما كانت لممارسات المتحذلقين والمتفهيقين الذين أشار إليهم النص الأثر السيئ في صرف الناس عن الاهتمام بالطب، والاتجاه نحو خرافات / خوارق وكرمات الصوفية في الاستشفاء بهم أحياء وأمواتا، لكن هذا لم يمنع وجود أطباء في المغرب الأوسط وأشهر هؤلاء ابن البيطار المالقي (تـ 646 هـ)⁵ أحد أحذق علماء النبات في العصر الوسيط الذي نزل بجاية مؤقتا بحثا عن الأعشاب الطبية

¹ أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر. سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص 85-87، الدرجيني. طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، د. م، 1974، 1/ 46، الباروني. الأزهار الرياضية، ص 151-153.

² العبر، 515/6 - 516.

³ أنظر القائمة التي أعدها عز الدين عمر موسى حول كتاب الدولة الموحدية في: الموحدون في المغرب الإسلامي: تنظيمهم ونظمهم، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411-1991، (الملحق 4) ص 314-319، فقد ذكر 28 كتابا؛ وبعد البحث تبين لي أن ثلثيهما تقريبا (أي 17 كتابا) هم من الأندلسيين أو من أصول أندلسية، وأنظر عن مكاتبتهم: الطاهر محمد توات. أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص 109-111.

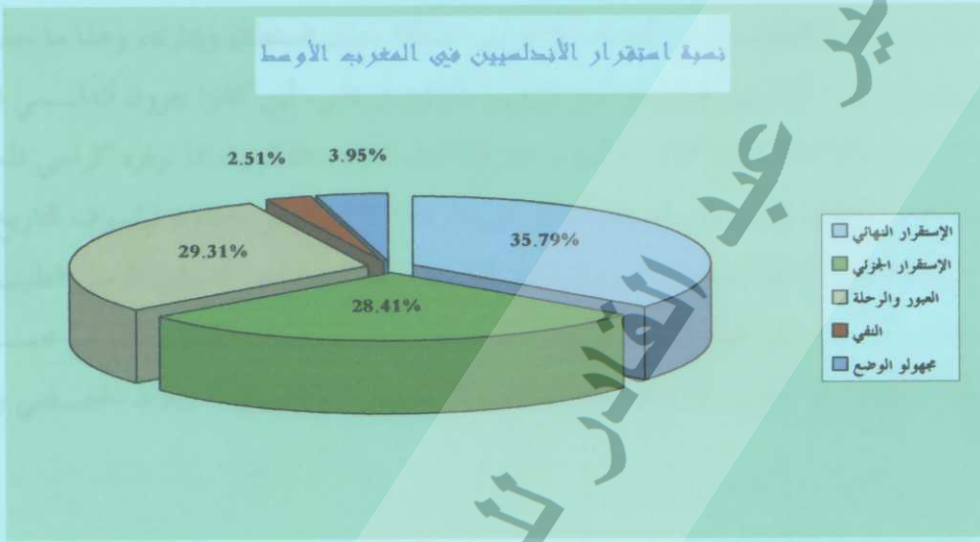
⁴ الفريين، ص 102.

⁵ ترجمته في: ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط 3، بيروت: دار الثقافة، 1401-1981، 220/3، عبد الكبر الفاسي. تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين، تحقيق محمد حجي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1417-1996، (نشر ضمن موسوعة أعلام المغرب) 1/ 412، محمد أمين فرشوخ. موسوعة عابرة الإسلام في الفلك والعلوم البحرية وعلم النبات وعلم الميكانيكا، ط 1،

التي ذكر عدد منها في كتاب له،¹ ويؤكد أن بعض هذه الأعشاب لم يكن معروفا إلا في بجاية، وكان أندراس المرسي وابن خالد المالقي وابن عبد البر الخولاني وابن الرقام المرسي وابن عيشون اللخمي وغيرهم.

نسبة استقرار الأندلسيين في المغرب الأوسط

نوع الاستقرار	الاستقرار النهائي	الاستقرار الجزئي	العبور والرحلة	النفى	مجهولو الوضع
الاجموع	199	158	163	14	22
النسبة %	35.79	28.41	29.31	2.51	3.95
التقدير	معتبر	معتبر	معتبر	نادر	قليل



التعليق

تعددت أشكال استقرار الأندلسيين في المغرب الأوسط وتنوعت صورته، من استقرار نهائي إلى استقرار جزئي إلى الرحلة والعبور إلى النفى والتغريب الذي يندرج في الصورتين الأولين.

فالرحلة والعبور اقترنت بطلب العلم، وارتفاع نسبتها مرتبط بنشاط الحركة العلمية في حاضرتي المغرب الأوسط منذ القرن السادس كما أسلفت، واقترنت كذلك بالتوجه نحو اليقاع المقدسة لأداء فريضة الحج فمن المعروف أن حجاج الأندلس يمرون بمواضع المغرب الأقصى ثم المغرب الأوسط، فبالإضافة إلى تراجع الغيريبي

بيروت: دار الفكر العربي، 1995، 172 / 5، محمود الحاج قاسم. رحلات الأطباء من الأندلس إليها، ص 70، زمامة عبد القادر. النباتان العشابان الأندلسيان: ابن الرومية الإشبيلي-ابن البيطار المالقي، آفاق الثقافة والتراث، السنة 7، العدد 52-26، ص 180-183. ¹ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1991، 18 / 1، 174، 183، وأشهر إلا أننا لا نملك نصا صريحا يؤكد دخوله بجاية إلا حديثه عن الأعشاب الطيبة فيها حديث من عاينها بنفسه، مما ينفي نقله تلك المعلومات المذكورة عن غيره، وقد أفصح في خطبة كتابه على منهجه الذي يعزى ويسند فيه كل مقولة لصاحبها، وما عاينه بثبته لنفسه.

فذلك نصاً صريحاً يوضح لنا خط السير، فيقول أحد المؤرخين:¹ " سمعت الشيخ الصالح الحاج المكتب أبا عبد الله الخياط..قال: عزمت على التوجه إلى الحج ورافقتني من أهل إشبيلية حرسها الله بعض إخواني من شبائهما، وكان رأينا في السير على مدينة فاس..الرباط..تلمسان..بجاية"، وقد نشط هذا الخط خصوصا بعد القرن السادس حيث أصبحت الرحلة عبر البحر محفوفة بكثير من المخاطر، مما حدا بفقهاء الأندلس ابن رشد الجد أن يصدر فتاوى إسقاط فريضة الحج على الأندلسيين، وتفضيل الجهاد عليه "لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطا في الوجوب، لأن الاستطاعة: القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال، وذلك معدوم في"² زمانه، بل من فقهاء الأندلس من حرم الحج في زمانه كأبي بكر الطرطوشي وغيره.³

ومن خلال الجدول كذلك يتبين لنا أن نسبة استقرار الأندلسيين في المغرب الأوسط بشكل نهائي قليلة إذا قارناها بنسبة الاستقرار الجزئي ونسبة الرحلة والعبور مجتمعتين، ذلك أن السلطات المتعاقبة على حكم بلاد المغرب عموماً لم تكن تحمل لمجتمعها مشروع الدولة، وإنما كرس نظام المدينة الدولة، ويتجلى ذلك في استنزاف الموارد البشرية والمادية لأقطار المغرب كله لصالح كرسي المملكة حيث السلطان وإدارته، وهذا ما حصل مع الموحديين في مراكش والحفصيين في تونس ومع المرينيين كذلك في فاس، أين كانوا يغفرون أندلسي المغرب الأوسط (وحتى الكفاءات أصيلة البلد) بالتزوح عنه إلى المدن الثلاث المذكورة، مما توفره كراسي الممالك من امتيازات النفوذ والحظوة والسودد، ولنا عدة نماذج لشهداء هذا الإغراء كابن خلدون فيلسوف التاريخ وابن الأبار المؤرخ الأديب والآبلي شيخ التعاليم وابن سيد الناس الحافظ الفقيه وابن أندراس المرسي الطبيب وابن الصقيل الحافظ المحدث، وابن عبد الجليل التدميري الأديب المؤدب قبلهم... عكس ما يزعم محمد رزوق الذي يرى- مُخطأً- أن المغرب الأوسط كان يستقطب الأندلسيين الفاشلين في البلاط الحفصي ونظيره المريني.⁴

¹ أبو العباس العربي. دعامة اليقين في زعامة المظفين، تحقيق أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب، ص 58-59.

² فتاوى ابن رشد. تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1407-1987، 2/ 1021-1207.

³ راجع تفاصيل المسألة والاعتراض على ذلك الاجتهاد في: البرزلي. جامع مسائل الأحكام لما نزل من الأفضية بالمعنيين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002، 1/ 584-588، النشرسي. المعار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس المغرب، عرجه جماعة من الفقهاء تحت إشراف محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1401-1981، 1/ 432، الزوان. المعار الجليل الجامع المغرب عن فتاوى التآخرين من علماء المغرب، تحقيق عمر بن عباد، للمغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1417-1996، 2/ 229-231.

⁴ دراسات في تاريخ المغرب، ص 48.

الفصل الثاني

بيوتات المغرب الأوسط في

العهد ما قبل الموحي

جامعة الأمير
علاء الدين
العلم الإسلامي

تعاقبت على حكم المغرب الأوسط عدة سلالات بدأ بالرستميين ثم الفاطميين ثم الحماديين، وقد عملت السلالتين الأولين اللتان لم تكونا مملكان العصبية القبلية على إدماج فئات ونخب وافدة عن طريق الاصطناع، وعن طريق الدعاية المذهبية التي أريد لها أن تكون عامل مزيج أو على الأقل مقلد من شأن العصبية القبلية، ليسهل حكم مجتمع المغرب الأوسط عن طريقها.

والذي يعنينا هنا هو السلالة الفاطمية تحديدا فهي التي نجحت إلى حد بعيد في توظيف هذه الدعاية واستعاضت عن عصبية الدم بعصبية الولاء التي اقتنع بها من أصبح مندرجا تحت اسم "الأولياء"، فكان أول بيت أندلسي في المغرب الأوسط في فترة حكمها له، وهو بيت بني حمدون الذي أسندت له مهمة بناء المسيلة ثم ولايتها، إلى أن تعاضم نفوذهم بها وأصبحت إمارة مستقلة معني، وموالية اسماً، مع أداء الوظيفة والغاية الأولى؛ أي كسر عصبية ونفوذ القبائل البربرية في المسيلة والزاب، قبل الخروج عنها ونبذ طاعتها بسبب عدم التفاهم على النفوذ وحجمه يوم أن عزم الخليفة المعز لدين الله على الرحيل نحو القاهرة.

أما الحماديين الذين حكموا المغرب الأوسط بعد الفاطميين، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الاستعانة بأبناء البيوتات الأندلسية وتحديدًا الفرع الثاني لبني حمدون أمراء المسيلة أعدائهم، لإعطاء صبغة محترمة لحكمهم فأسندوا لهم الوزارة، حين أعوزتهم الكفاءات السياسية المحلية بحكم أنها أول تجربة محلية لممارسة الحكم الذاتي، وفي مرحلة ضعف الأمير واستكائه إلى الدعة والراحة استغل هؤلاء نفوذهم وأخذوا زمام القيادة العسكرية السمة البارزة للحماديين الأوائل، مما جعل نظام الدولة يسير نحو الهاوية مع أول حملة عسكرية للموحدين، فسقطت بجاية وذهب ربح البيت الحاكم وبيت بني حمدون معهم.

كما أن فترة القرن الرابع والخامس شهد نفي لبعض بيوتات الأندلس نحو العدوة المغربية بسبب الاضطراب الذي عاشته الأندلس بعد نهاية الحكم العامري، وفي الفترة التي صاحبت تدخل المرابطين للقضاء على أمراء الطوائف، ففي المرحلة الأولى عمل نظام قرطبة على نفي قاضي الجماعة ابن ذكوان وعالمين اثنين من أخويه نحو وهران لكن استقرارهم بها لم يدم طويلا، لذا لم يكن لهم أثر بارز في تاريخ المغرب الأوسط، وفي المرحلة الثانية كان التزوح القسري للبيت الحاكم في إمارة المرية من بني صُمّادح الذي وفد على بجاية فأقطعهم الحماديون تدلس المدينة الساحلية، فازدهرت في عهده ازدهارا عظيما.

والجدير بالذكر أن الفترة السابقة للعهد الموحد لم تتبلور فيها الظاهرة بشكل نهائي، ولم تكن من القوة بمكان كالبيوتات التي عرفتها تلمسان الزيانية وبجاية الحفصية.

بيت بني حمدون: أمراء المسيلة (280 - 392 هـ)

الأصل الأندلسي لبني حمدون

ارتبط أول بيت أندلسي في المغرب الأوسط بالدولة الفاطمية الإسماعيلية،¹ التي انطلقت من أرض المغرب على يد الداعي أبي عبد الله² وبجهود الكتامين سنة 280 هـ.

تفيدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عن هذا البيت مقارنة بغيره، لكنها مضطربة ومتناقضة في بعض تفاصيلها إلى حد يستعصى معه تجلية الحقائق، إذ تتفق على أصلهم الجذامي³ اليمني⁴ كما يصرح الوراق⁵ (تـ 363 هـ) الذي نقل عنه ابن حيان وابن عذارى،⁶ والجد الأكبر للبيت هو عبد الحميد الداخل إلى الأندلس مع جند الشام، استقر أول أمره في إحدى قرى يحصب من كورة ألبيرة حسب الوراق،⁷ أما ابن خلدون⁸ فيرى أن أصلهم من باجة الأندلس، ويبدو لي أنه لا تعرض بين الروايتين؛ إذ يكون استقرارهم أولا

¹ الإسماعيلية فرقة من فرق الشيعة الإمامية القائلة بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو ابنه البكر، المنصوص عليه في بدء الأمر، ولما مات في حياة أبيه وحج انتقال الإمامة إلى أبنائه خاصة، أنظر: ابن حزم. الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، ط1، المملكة العربية السعودية: مكتبة عكاظ 1402-1982، البغدادي. الفرق بين الفرق، تحقيق لجنة إحياء التراث، بيروت: دار الجيل، دار الأفاق الجديدة، 1408-1987، ص 265-299، الشهرستاني. الملل والنحل، تحقيق محمد عبد القادر الفاضل، بيروت: المكتبة العصرية، 1423-2003 ص 155-162، عبد الرزاق عمود إسماعيل. فرق الشيعة بين التفكير السياسي والنفي الديني، ط1، القاهرة: سينا للنشر، 1995، ص 43-58.

² هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الكوفي، كان محتسبا في سوق الغزل بالبصرة، ويعرف أيضا بالمعلم لتعليمه الناس مذهب الباطنية، قتل في المهدي سنة 298 هـ، ترجمته في: ابن الأبار: الحلة السواء 1/194، ابن خلكان. وفيات الأعيان، 2/192، المقرئ. المقفى الكبير 3/483، الميلادي. كتاب المقفى الكبير: تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1407-1987، ص 25، مصطفى غالب. أعلام الإسماعيلية، بيروت: دار اليقظة العربية، 1964، ص 246.

³ نسبة إلى جذام بن أسد بن خزيمه، ابن الكلبي. نسب معد واليمن 1/201، ابن سلام. النسب 312، ابن حزم. الجمهرة 395-396، السمعاني. الأنساب 2/33، البيهقي. تذكرة الألباب، ص 134. ابن الأثير. اللباب 1/265، الحارزمي. عجالة المهدي، ص 69. المقحفى. معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص 303.

⁴ مع العلم أن جيوش الفتح كانت تتكون أساسا من القبائل اليمنية أنظر: بوية بجاني. أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، منشورات جامعة قسنطينة، 2003، ص 11-17.

⁵ هو محمد بن يوسف القيرواني الأندلسي مؤرخ وجغرافي شهير له عدة كتب لم يبق منها إلا نطف نقلتها إلينا المصادر المتأخرة عنه، أنظر عنه وعن عن جهوده في التدوين التاريخي: بلنشا. تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ص 309، البشري. الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1417-1997، ص 274، بوبكا. المصادر التاريخية العربية في الأندلس، تعريب نايف أبو كرم، ط1، دمشق: منشورات علاء الدين، 1999، ص 108-110، طه ذنون. دراسات في تاريخ وحضارة المغرب، ط1، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2004، ص 233-260.

⁶ ابن حيان. المقتبس، ص 33، ابن عذارى. البيان المغرب 2/242.

⁷ ذكر ابن حيان تقلا عن الوراق اسم هذه القرية تحديدا لكن المخطوط الذي حقق على أصله الكتاب به خروم متعددة ضيعت كثيرا من المعلومات النادرة التي منها هاته.

⁸ ابن خلدون. العبر 4/42، وورد فيه « أن محمد بن حمدون من بجاية الأندلس » وهو لاشك تصحيف لباجة إحدى مدن كورة ألبيرة، ويرى رأي ابن خلدون هذا ويرجح: محمد الطالبي. الدولة الأغلبية، تعريب المنجي الصيادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985، ص 643.

في إحدى قرى يحصب، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى باجة وهما من نفس الكورة، خصوصا وأن ابن خلدون كان في سياق الحديث عن ابن حمدون نفسه وليس عبد الحميد الجد الأكبر للأسرة، ونحن نعلم أن جنود دمشق تحديدا هم الذين استوطن كورة البيرة.¹

ويسند الوراق سلسلة نسب ابن حمدون كالآتي: "حمدون بن سملك بن سعيد بن إبراهيم بن ... أحمد بن عبد الحميد الجذامي"² ويسنده ابن خلدون كالآتي "حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي".³

هجرة بني حمدون إلى المغرب الأوسط

تدلنا الكتابات الجنائزية لشواهد القبور أن فرعا من هذه الأسرة قد استقر بالقيروان كأحمد بن حمدون (ت 298 هـ)، وعبد الله بن حمدون (ت 412 هـ)، وأبو علي بن حمدون (ت 419 هـ).⁴

أما بخصوص الفرع محل بحثنا فلدينا بشأنه روايتان مختلفتان عن تحديد أول الداخلين منهم إلى المغرب الأوسط: فهل هو حمدون بن سماك؟ أم أبوه سماك نفسه؟ فالوراق يجيب عن هذا الإشكال إجابتين مختلفتين وفي موضع واحد، فيذكر أن حمدون هو أول من دخل،⁵ ثم يذكر أن سماك كان بالمغرب الأوسط سنة 287 هـ مع حفيده علي بن حمدون، حيث يقول: "وخرج علي وحده إلى المشرق يتنغي الحج...فوقع ببلد كرامة"،⁶ وأرجح أن كلمة "جده" الواردة في هذه العبارة المقتبسة مصحفة عن لفظة "وَحَدَه"، خصوصا وأنا لا نجد أي أثر أو ذكر لسماك مطلقا في المرحلة المغربية للبيت الحمدوني، كما أن سياق الحديث جاء قبل كلمة "وحده" وبعدها بصيغة المفرد لا التثنية، وبناء على ذلك تكون الرواية الأولى هي المقبولة.

وأما عن مكان استقرار الأسرة فهو محل تضارب أيضا بين الروايات التاريخية السنية منها والشيعة. فحسب الرواية الأولى⁷ فإن حمدون مؤسس الأسرة استقر بقرية قسطلنانة (المرجع أنها مدينة لقصر الحالية) من ضواحي بجاية، أما الرواية الشيعية⁸ فتشير إلى وجود محمد بن حمدون الابن بسوجمار¹ من أرض سماته.²

¹ ابن حيان. المقتبس، ص 201، ابن عذاري. البيان المغرب 33/2، ابن خلدون. العبر 153/4، وأنظر عن بني حمدون في كورة البيرة:

الحشني. أخبار الفقهاء والمحدثين، تحقيق مازيا لويبا آيلا، ولوسي مولين، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1992، ص 26، 268، 38.

² ابن حيان. المقتبس، ص 33، وأرى أن اسم سملك هو في أصله سماك وهذا الاسم الأخير يرد كثيرا في تراجم العلماء الأندلسيين كعبد النعم ابن سماك (ت 703 هـ) ومحمد بن أبي العلا بن أبي سماك المالقي (ق 8)

³ ابن خلدون. العبر 107/4.

⁴ B.Roy et P.Poinssot. *Les inscriptions arabes de Kairouan*, Paris, Librairie C.Klincksiek. 1950. p.173-374-375-376-377. نقلا عن Amara Allaoua, *Pouvoir, économie et société dans le Maghreb Hammoude*, vol I.p164.

⁵ ابن حيان. المقتبس، ص 33، ابن عذاري. البيان المغرب 2/ 242.

⁶ المصدر نفسه، ص 34.

⁷ ابن حيان. المقتبس، ص 34، ابن عذاري. البيان المغرب 2/ 242

⁸ القاضي النعمان. رسالة الصحاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، ط1، بيروت: دار الثقافة، 1970، ص 68، الداعي القرشي. عيون الأخبار، تحقيق محمد البعلاوي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2006، ص 86.

إن إعادة بناء المشهد التاريخي ممكن من خلال ذات المعطيات فيكون: نزول حمدون أول الأمر بضواحي بجاية قبل سنة 280 هـ، وبقي هنالك إلى آخر حياته، أما ابنه محمد فقد خرج من بجاية ونزل بسوجمار قبيل ظهور الشيعة في بلاد المغرب الأوسط واستقر هنالك، ثم لحقه أخوه عليّ بمفرده، مع بقاء بعض أفراد الأسرة في مستقرهم الأول.

ويلاحظ أن كلا المنطقتين: قسطنانة وسوجمار قرية من مجال كتامة، وعليه فليس من المستبعد أن يكون بنو حمدون على صلات وعلاقت وطيدة برجال كتامة المهاجرين إلى كورة ألبيرة وما جاورها، والذين استطاعوا أن ينتروا في بعض مواضعها ويستقلوا بها، كما استطاعوا أن يكونوا بدورهم بيوتات نبهة كيني المهلب، حيث نبع منهم محمد بن مهلب الكتامي الكاتب الخاص للوزير مفرج،³ الأمر الذي سهل عليهم التأقلم والعيش في هذه المنطقة.

بواكير نشاط بني حمدون ودورهم في قيام الدولة الفاطمية

فالنشاط المبكر لمحمد بن حمدون المشتهر بـ "ابن الأندلسي" أو "ابن الأندلسية" نجد صداه في عدة مصادر؛ فيذكر ابن خلدون⁴ أنه أدرك الداعي الشيعي القديم المعروف بالحلواني،⁵ لكن هذا مستبعد جدا لأن الحلواني كما هو في المصادر الشيعية⁶ وعند ابن خلدون نفسه⁷ بعث من قبل جعفر الصادق إلى بلاد البربر سنة 145 هـ؛ أي قبل أكثر من قرن وثلاث قرن من نزول بني حمدون أرض المغرب الأوسط وقبل ولادة حمدون الأب نفسه، والأقرب إلى الصحة هو ما أورد القاضي النعمان⁸ عن تشييعه كما سأبين بعد.

¹ سوجمار ترد في المصادر بعدة صيغ: سوق حمار، سوق حمار، سوق حماد، ولا ذكر لكل هذه الصيغ في كتب الجغرافيا الوصفية، وحسب تحقيقات لقبال فهي قرية من مدينة قسنطينة الواقعة على وادي الرمال، أنظر: دور كتامة، ص 221، هامش 111، وحسب تحقيقات: محمد طالي فهي بنواحي قللة، أنظر: الدولة الاغلبية، ص 632، هامش 87

² نسبة إلى سماعة بن بطوف بن نغزا بن لوى إحدى بطون القبيلة البربرية المشهورة نفرة، وترد أحيانا سمامة وسوماتة، أنظر: ابن حزم. الجمهرة، ص، ابن خلدون. العبر 6/ 152.

³ ابن حيان. المقنيس، ج 5، تحقيق شاليتا، مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، 1979، ص 253، ابن حزم. الجمهرة، ص 466، لقبال. دور كتامة، ص 141.

⁴ ابن خلدون. العبر 4/ 42

⁵ هو عبد الله بن علي بن أحمد الحلواني من دعاة الشيعة الإمامية، أنظر: مصطفى غالب. أعلام الإسماعيلية، ص 341، وعن نشاطه أنظر: فرحات الدشراوي. الخلافة الفاطمية بالمغرب. ترجمة حمادي الساحلي، ط 1، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1994، ص 78-80، أيمن فؤاد السيد. تطور الدعوة الإسماعيلية المبكرة حتى قيام الخلافة الفاطمية في المغرب، ص 49-50 ضمن أعمال ملتقى القاضي النعمان للدراسات الفاطمية، تونس 4-7 أوت 1977.

⁶ القاضي النعمان. افصاح الدعوة، ص 54، عبد الله محمد جمال الدين. الدولة الفاطمية: قيامها ببلاد المغرب والنظام إلى مصر، القاهرة: دار الثقافة، 1411-1991، ص 40.

⁷ العبر 4/ 40-41، راجع أيضا تنبيه ابن أبيك الدواداري على ذلك في: المدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، وهو الجزء 6 من: كل الدرر وجامع الفرر، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة: منشورات المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، 1380-1961، ص 113.

⁸ هو أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيون التميمي المغربي قاضي قضاة المغرب في المرحلتين المغربية والمصرية توفي سنة 363 بالقاهرة، وهو من أعظم فقهاء ومشريعي الشيعة الإمامية له مصنفات عديدة، أنظر ترجمة: ابن خلكان. وفيات الأعيان 5/ 415، الذهبي. سير أعلام النبلاء 16/ 150، اليافعي. مرآة الجنان 2/ 379، ابن حجر. لسان الميزان 6/ 219، وقارن ترجمته في: محسن الأمين. أعيان الشيعة 10/ 223، مصطفى

اشتغل محمد بن حمدون بالتعليم في سوجمار ثم استوطنها نتيجة للمغربات التي أحيطت به ولما كان يحظى به من تقدير أهل الموضوع له وتقديره، إلى أن صار أحد أعيان القوم أصحاب الرأي والمشورة، ولما كان يمتاز به من "فهم وحدة معرفة... وصار إلى درجة العلماء"،¹ رغم فقدانه للعصية التي توهم غيره ليصبح من الأعيان، ذلك أن المجتمعات البربرية والمجتمعات البدوية على العموم لها احترام خاص للمشتغل بالتعليم،² كما استطاع في هذا المستقر الجديد أن يتأثر لنفسه مالا وثروة كبيرين.³

وفي سوجمار التقى محمد بن حمدون بأبي عبد الله الداعي الشيعي⁴ والوفد الكتامي العائد من الحج "فكانت طريقهم من طرابلس علي قسطنطينية لأنها الجادة، فلم يدخلوا إفريقية،⁵ حتى إذا صاروا إلى سوجمار من أرض سماتة تلقاهم أهل الموضوع"،⁶ وكان يتزعم الوفد الكتامي حريث الجيملي وموسى بن مكارمة،⁷ فتلقاهم أبو المفتش وأبو القاسم الورفجومي⁸ وأبو عبد الله محمد بن حمدون.

وتشير المصادر إلى أن محمد بن حمدون كان متشيعا وله علم بمذهب الشيعة قبل لقاءه بالداعي وربما عمل على نشر التشيع في الأندلس؛⁹ مما دفع بحكومة قرطبة إلى التضييق عليه وعلى من ينتحل مذهبه، واضطرته إلى

غالب. أعلام الإسماعيلية، ص 589، وعن جهوده في التشريع والفقهاء أنظر: إسماعيل بنونالا. القاضي النعمان والفقهاء الإسماعيلي، ضمن كتاب الإسماعيليين في العصر الوسيط تاريخهم وفكرهم، تحرير فرهاد دقري، ترجمة سيف الدين القصير، ط1، دمشق: دار المدى، 1999، فرحات الدشراوي. كيف صار القاضي النعمان فقيه الدولة الفاطمية بالمغرب ص 209-215، إبراهيم شيوخ. القاضي النعمان بن محمد (363 هـ) مواد جديدة عن حياته، ص 217-227، وهاتين الدراستين ضمن أعمال ملتقى القاضي النعمان للدراسات الفاطمية تونس 4-7 أوت 1977، وتجدر الإشارة أنه أنجزت حوله أطروحة دكتوراه قدمها إسماعيل سامعي بعنوان: القاضي النعمان: حياته وجهوده في نشر الدعوة وتطورها في الدور المغربي 313-363 هـ 925-973م، بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2003.

¹ القاضي النعمان. الفتاح الدعوة، ص 70، الطالبي. الدولة الأغلبية، ص 643.

² في التراث الإسلامي آراء أخرى تنقص من قيمة المعلم وتزري بمكانته انظر: المسعودي محمد مهدي. العلماء والمعلمون بالمجتمع المغربي في القرون الإسلامية الأولى، منشورات جامعة تونس الأولى. 1993، ص 152-156، عبد الأمير شمس الدين. الفكر التربوي عند ابن المقفع، الجاحظ، عبد الحميد الكاتب، ط1، بيروت: دار إقرأ، 1405-1985، ص 270-273، عبد السلام هارون. الجاحظ والمعلمون، ضمن: قطوف أدبية: دراسات نقدية في التراث العربي، القاهرة: مكتبة السنة، 1409-1988، ص 189-200.

³ هذه الثروة هي التي مكنته من إكرام أضيافة وفد الحجيج الكتامي كله، أنظر: القاضي النعمان. الفتاح الدعوة، ص 70.

⁴ يعد أبو عبد الله الداعي المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية، أنظر تفاصيل أخباره في: علي حسني الخربطولي. أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، القاهرة: المطبعة الفنية الحديثة، 1972، (92 ص).

⁵ المقصود بإفريقية هنا القيروان وعند ابن عذارى رواية تؤكد دخولهم القيروان، أنظر: البيان المغرب 1/ 125.

⁶ القاضي النعمان. الفتاح الدعوة، ص 68، الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 86

⁷ ورد باسم مكاد عند ابن الأثير. الكامل 6/ 584، وباسم بن رجاد عند النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، 1412-1992، 28/ 78، وباسم ابن نكاد عند ابن خلدون. العبر 4/ 48

⁸ عند ابن خلدون أمما من جملة الحجيج، أنظر: العبر 4/ 41-42.

⁹ عن دخول المذهب الشيعي الأندلس أنظر محمود علي مكي، التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1424 هـ، 2004 (71 ص)، وتجدر الإشارة إلى أن كورة ألبيرة شهدت عدة قلاقل وفن ضد حكومة قرطبة قد يكون زعماءها ممن تشيعوا، أنظر: محمد إبراهيم أبا الخليل. الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري (275-300 هـ/ 888-912)، ط1، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1416، ص 200-226.

الحجرة فزل أرض كتامة البعيدة عن مراقبة السلطة الأغلبية، وهي نفس الدوافع التي جعلت قيادة الشيعة في سلمية بالشام وفي اليمن¹ تختارها كمهد لانطلاق الدعوة والدولة معا.

لكن لا يمكن أن نتحل نتائج معتبرة لنشاط محمد بن حمدون في أرض سماته انطلاقا من الإشارة الواردة؛ عن تعظيم أهل كتامة للداعي أبي عبد الله واستهام رجال سماته المستقبلين للحجيج والداعي، ليحظى أحدهم بشرف نزول هذا الأخير عنده واستضافته في بيته، ولا ينبغي التأكيد على أن الداعي لم يُظهر تشيعة مباشرة بمجرد وصوله أرض سماته.

لقد خرج الداعي في سهم ابن حمدون فزل ضيفا عليه، وخلال الليلة الأولى اجتماعا مع أبي المفتش وأبي القاسم الورفجومي وحرث وموسى زعماء القبيلتين كتامة وسماته، في سمر مادته الحديث عن "علم الشيعة وفضل أهل البيت"، من خلاله تأكد للداعي أن لهم فيه "أصلا قويا" مما شجعه على الإفصاح أكثر عن غايته الحقيقية.²

ثم استمر السمر لكن بشائية بين الداعي وابن حمدون فقط؛ ليكون مرحلة حاسمة في حياة هذا الأخير، "فما زال يطارحه أبو عبد الله [الداعي] ويجد منه ما يريد، حتى كشف له الأمر وأخذ عليه العهد في ليلته تلك".³ وفي الغد بدأ ابن حمدون "يستعد ما يسير به" إلى أرض كتامة استشرافا للمزيد ولما تدخره له الأيام، فوصلوا حدود مجال كتامة يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة 280 هـ،⁴ ومنها إلى فج الأخيار من إيكجان⁵ موطن بني سكتان.¹

¹ عن بواكير النشاط الشيعي في سلمية أنظر: محمد اليمان. سيرة الحاجب جعفر، تحقيق إيفانوف، نشر بمحلة كلية الآداب-جامعة القاهرة، المجلد 4، الجزء 2، 1936، ص 108-114، عارف تامر. تاريخ الإسماعيلية: الدعوة والعقيدة، ط1، لندن-قرص: رياض الريس للكتاب والنشر، 1991، 1/ 177-187، وعن النشاط الشيعي في اليمن إبان الفترة المتزامنة مع بدايته في المغرب أنظر: علي بن محمد بن علوي. سيرة المهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، تحقيق سهيل زكار، ط2، بيروت: دار الفكر، 1401-1981، ص 67 وما بعدها.

² القاضي النعمان. إفتاح الدعوة، ص 69، النويري. نهاية الأرب 79/28، الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 86، الخربطولي. أبو عبد الله الشيعي، ص 37.

³ القاضي النعمان. إفتاح الدعوة، ص 70، الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 87.

⁴ القاضي النعمان. إفتاح الدعوة، ص 71، النويري. نهاية الأرب 79/28، الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 88، وسنة 280 هـ الوارد توكده المصادر المشرقية، أنظر ابن الأثير. الكامل 6/584، أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1997، 1/ 390، ابن الوردي. تمة المختصر في أخبار البشر، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1997، 1/ 242-243، في حين يؤرخ بسنة 288 هـ عند ابن خلدون. العبر 4/42 والمقريري. تعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيبان، ط2، القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1416-1996، 1/350، وفي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط2، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1987، 1/349، وحسب ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق سيد كسروي حسن، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424-2003، 2/305 أنه تم سنة 279 هـ وفي موضع آخر: 1/231 أنه سنة 280 هـ، وأنظر تحقيقات الطائي: الدولة الأغلبية، ص 645، هامش 128.

⁵ اختيار إيكجان كان موقفا فهو بعيد عن السلطة الأغلبية بالإضافة إلى أنه طريق ومحطة للحجيج القادمين من شمال المغرب الأقصى والأندلس، والاسم القديم هو تراحان. أنظر: حسن إبراهيم. تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، ط5، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1993، ص 49 والهامش 4، عبد المنعم ماجد. ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر. ط4، القاهرة: دار الفكر العربي 1414-1994، ص 79.

وإلى هنا تصمت المصادر وتعرض عن ذكر ابن حمدون، فلا نعلم شيئاً عن دوره ونشاطه في بث الدعوة في إيكجان وما يلحق ذلك من تبعات، ويظهر أنه لم يستطع أن يفتك مكانة مرموقة كما الأمر في أرض سماتة سلفاً، لطغيان ظهور شخصية الداعي التي حجبت معظم الأسماء والشخصيات، وللتنافس الحاد بين رؤساء كتامة على قيادة القبيلة ومحاولة استقطاب الدعوة الشيعية واحتوائها لصالحهم، ومع هذا لا ينبغي أن نفترض إلغاء دوره البتة، فعلى الأقل كان صاحب سر الداعي؛ لتضله في علم الشيعة ولفقدانه عصبية الدم وتشبعه بعصبية الدعوة والولاء الوحيد لها، رغم أن العصبية المذهبية لم تتبلور في شكلها النهائي إلا بعد تأسيس الدولة سنة 297 هـ.

لكن يعود اسم ابن حمدون للمرة الأخير في إحدى معارك الداعي وأنصاره ضد بعض المناوئين من كتامة نفسها، الذين انقلبوا على الشيعي بعد انتقاله إلى تازورت واتخاذها دار هجرة، وتمثل دور ابن حمدون هنا في رفع معنويات الأولياء الأنصار، تعقياً على خطاب ألقاه الداعي؛ تثبيتاً لهم وحضهم على الصبر وجهاد الأعداء، ويبدو أن كلامه كان له وقع حسن في نفس الداعي وأنصاره،² ومن المحتمل أن ابن حمدون توفي مبكراً في المعركة التي قادها أبو عبد الله محمد المعروف بأبي الأحول ابن الأمير الأغلي أبي العباس أحمد بن إبراهيم ضدهم لاسترجاع مدينة ميلة³ بعد سنة 289 هـ، والتي انهزم فيها الداعي "وكثر القتل في أصحابه".⁴ لقد مثل موت محمد بن حمدون فرصة لظهور أخيه علي⁶ على مسرح الأحداث، فحسب السوراق يكون علي بن حمدون خرج من بجاية وفي نيته التوجه إلى المشرق وعمره ثماني عشرة سنة، فلما وصل أرض كتامة استقر بها وتزوج فيها كتامية وصادف ذلك وصول الداعي فصحبه، وكان اسمه في الأصل ثعلبة فسماه الداعي علياً، وسياق الرواية يفيد أنه لم يكمل رحلته إلى الحج،⁵ أما ابن خلدون⁶ فيذكر أنه اتصل بعبيد الله المهدي وأبي القاسم بن حوشب داعي اليمن الملقب بالمنصور⁷ بالمشرق قبل ظهور السلالة الفاطمية ودعوتهم في كتامة، وبعد أن تلقى نصيبه من علم الباطن في مكان وزمان غير محددان بدقة، حيث "بعثوه من طرابلس إلى [أبي] عبد الله الشيعي [الداعي] فأحسن اللقاء والانصراف"، وربما عاد إلى طرابلس مرة ثانية ومنها صاحب عبيد الله

¹ يرد بن سليمان وبن سليمان عند ابن الأثير: الكامل 6 / 584، وهم من جملة إحدى بطون كتامة، أنظر: ابن خلدون. العبر 4 / 42

² القاضي النعمان. إفتاح الدعوة، ص 111، الداعي القرشي. عمون الأخبار، ص 103.

³ عن تاريخ مدينة ميلة في أطوارها المختلفة أنظر: عبد العزيز فيلاي وإبراهيم بحاز. مدينة ميلة في العصر الوسيط. قسنطينة، دار البلاد للاتصال والخدمات، 1998، (98 ص)، وعنها في عهد الفاطميين أنظر: ص 23-27.

⁴ القاضي النعمان. إفتاح الدعوة، ص 137-138، ابن الأثير. الكامل 6 / 586، أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر 1 / 383، ابن خلدون. العبر 4 / 43، 262، الداعي القرشي. عمون الأخبار، ص 111، وتختلف المصادر المذكورة في تحديد اسم الأمير الأغلي الذي سر أباً الأحول لاسترجاع ميلة.

⁶ يرى فرحات الدشراوي أن علي هو ابن محمد بن حمدون لا أخاه له، أنظر: الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 549

⁵ ابن حيان. المقفيس، ص 34.

⁶ العبر 4 / 107.

⁷ هو الحسن بن فرج بن حوشب، ترجمته في: مصطفى غالب. أعلام الإسماعيلية، ص 233، وأنظر عن نشاطه: سيف الدين القصير. ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن، دمشق، دار البنايع، ص 31-104.

المهدي ولازمه في سفره¹ واعتقل معه في سجلماسة،² إلى أن أخرجهما الداعي في حركته إليها سنة 296 هـ،³ وحسب ابن خلدون⁴ دائما فإن علي بن حمدون كان يكنى أبا ظبيعة، لكنه لم يحدد هل أن اسم "علي" أصيل له أم لا؟.

وتأسيس الدولة الفاطمية واستفحال أمرها وملكها حظي علي بن حمدون بمكانة لائقة في بلاطهم، بعد أن انتقل معهم إلى رقادة ثم المهديّة "ونفق عند عبيد الله المهدي بذكاء كان فيه"،⁵ وفي هذه المرحلة أسندت إليه مهمتين من شأنهما أن يرفعا مكانته أكثر؛ هما السفارة والوصاية، فقد "أرسل إلى المشرق في بعض ما ترسل الملوك فيه"،⁶ ربما إلى مراكز الدعوة الرئيسية في سلمية واليمن أو غيرها، فقد كانت للعاطميين علاقات مع القرامطة في البحرين⁷ وعلاقات أحسن منها مع الشيعة في اليمن والعراق والشام،⁸ الأمر الذي يؤكد المزاعم السابقة بشأن النشاط الشيعي لبني حمدون في الأندلس،⁹ وأيا ما كان الأمر؛ فإن النجاح كان حليفه في سفارته "فأحكّم له شأنه وقُدّم"، فكافأه المهدي بأن ضمه إلى ولي عهده أبي القاسم (تـ 334 هـ) "فتصدى لخدمته فإزداد حظوة لديه ولطفت منزلته"،¹⁰ وليست لدينا معلومات من شأنها أن تفصح عن نوع وطبيعة هذه الخدمة الموكولة به، ولا يستبعد أن تكون ذات طابع توجيهي وتعليمي وربما اتخذ له لنصيحته ومشاورته، وولي العهد لم يتجاوز حينها سن التاسعة عشر، وما زال كذلك "حتى رقوه الرتب".¹¹

وفي المهديّة عمل علي بن حمدون على توطيد علائق جيدة من شأنها أن تضمن استمرار الجاه في أسرته وحظوظها لدى الخلفاء ورجال دولتهم، فقد كان على صلة وثيقة بالأستاذ جودر الصقلي الشخصية البارزة

¹ أنظر مسار حركة المهدي في: حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرق. عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1366-1947، ص 124-142.

² يتفرد ابن خلدون بهذه التفاصيل، العبر 4/ 44-47.

³ القاضي النعمان. إصباح الدعوة 231، أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر 1/ 391، ابن الوردي. حكمة المختصر 1/ 43، ابن الخطيب. أعمال الأعلام 1/ 231.

⁴ العبر 4/ 107.

⁵ ابن حيان. المقتبس، ص 34.

⁶ المصدر نفسه.

⁷ أنظر عنها: ميكال يان دي خويه. القرامطة نشأهم، دولتهم، وعلاقتهم بالفاطميين، ترجمة وتحقيق حسني زينة، ط2، بيروت: دار ابن خلدون، 1980، (231 ص)، محمد جمال الدين سرور. سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة: دار الفكر العربي، 1386-1967، ص 41-52، خير الله سعيد. أساسيات الخلافة القرظية الإسماعيلية، دراسات عربية، العدد 2، 1988، ص 87.

⁸ سرور. سياسة الفاطميين الخارجية 67-107، 163-216، سهيل طقوش. تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام، ط1، بيروت: دار النفائس، 1422-2001، ص 92-104.

⁹ آثار البنيون في البيرة مستقر بني حمدون الأول فن متعددة ضد سلطة الأمويين بقرطبة، أنظر: محمد البعلاوي. بلاط بني حمدون بالمسيلة، الأصاله عدد 24، مارس-أفريل 1975، ص 49.

¹⁰ ابن حيان. المقتبس، ص 34.

¹¹ ابن خلدون. العبر 4/ 107.

والنافذة في بلاط الفاطميين، والذي كان شديد العناية بأبيه جعفر خاصة أثناء غيابه الطويل المتكرر إلى المشرق.¹

بناء المسيلة وتولي بني حمدون إمارتها

بعد رجوع ولي العهد أبي القاسم من حركته إلى المغرب لحرب زناتة وأحلافهم في جمادى الآخرة سنة 315 هـ وقف على أرض ذات مياه وفحوص كثيرة، وأمر "فخط برحمه في الأرض صفة مدينة" وأوكل لعلي بن حمدون - الذي كان قد خرج معه "فجرب يومئذ أدبه" - بناء المدينة واتخاذها دارا يترها مع عجيسة وجماعة من العبيد، ولا غرو فقد أتم بناءها تحصينا وتشيدا وشحنها بالأقوات.²

وقد اختير موقع المسيلة لضرورة إستراتيجية هامة، فهو بمثابة قلعة لانطلاق الجيش الفاطمي ضد حركات زناتة المناوئة، لبعده مضارها عن المهديّة العاصمة، وكذا مراقبة تحركات الخوارج والإباضية، والأهم هو التحكم في مسالك التجارة لأهم سلع العصر الوسيط: الذهب والرقيق، فالمسيلة وبلاد الزاب كله حلقة وصل بين بلاد السودان وإفريقية من جهة، وبين المغرب الأقصى وإفريقية من جهة أخرى.³

ودام تشيد المدينة قرابة العامين حيث انتهى من بنائها سنة 317 هـ⁴ بعناية تامة من ابن حمدون، ومن ولي العهد أبي القاسم الحريص على ترك بصماته واضحة على المدينة التي سماها المحمدية⁵ باسمه، وسمى أحد بابيها بباب القاسمية نسبة لكنيته أبي القاسم، أما الباب الثاني فله دلالة أخرى ترقبا للدور الذي ستضطلع به المدينة مستقبلا، إذ سماه "باب الأمور"⁶ وبعد ذلك انتقل إليها الناس من عجيسة والعبيد بالإضافة إلى بني برزال

¹ سورة الأستاذ جودو، ص 131-132.

² كان موقع المسيلة قبل تشيدها خطة لبني كملان من هوارة، نقلهم أبو القاسم ولي العهد إلى القيروان لما كان يتوقع الفتنة منهم، والروايات تختلف في تحديد سنة بناءها بين سنوات: 310، 313، 315، 323، ورجحت سنة 315 هـ لما ورد في: عيون الأخبار، ص 217 الذي ينقل عن مصدر ضائع لابن الأسود بن الميثم المعاصر للأحداث، أنظر بقيت التفاصيل في: البكري. المسالك 1/ 239، الإدريسي. نزهة المشتاق 1/ 254، ابن الأثير. الكامل 6/ 718، ابن حماد. ملوك بني عبيد، ص 23، النويري. نهاية الأرب 28/ 112-113 (وعنده: علي بن حمدون الأويسي)، ابن عذاري. البيان المغرب 1/ 190، 215، ابن خلدون. العبر 4/ 51، المقرئ. اتعاظ الحنفا 1/ 72، القلقشندي. صحح الأعشى 5/ 107 ابن أبي دinar القيرواني. المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، تونس- بيروت: مؤسسة سعيدان- دار المسرة، 1993، ص 72، وحسب روجي إدريس فإن تاريخ 313 هـ يمثل بداية البناء ويمثل تاريخ 315 هـ نهاية الأشغال. أنظر: الدولة الصنهاجية 1/ 47، 2/ 91-92، مرمول. السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص 295-299.

Paul- Louis Combizat. *L'évolution des cités du Tell Ifrîkiya de VII au XI siècle*. op. cit. p.157-164.
Golvin. L. *Le Maghreb central à l'époque des Zirîdes, recherche d'archéologie et d'histoire*. Arts et métiers graphiques. Paris. 1957. p. 53.

³ نجاة باشا. التجارة في المغرب الإسلامي، ص 80 وما بعدها، الشيعلي صباح إبراهيم. النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن 4 هـ دراسة من خلال كتاب صورة الأرض، مجلة التاريخ العربي، عدد6، ص32.

⁴ ابن حيان. المقتبس، ص 34.

⁵ وهم باقوت الحموي حين ظن أن المحمدية مدينتين من مدن المغرب فقال: المحمدية "مدينة من نواحي الزاب بالمغرب، والمحمدية اسم مدينة المسيلة بالمغرب" ويرى أن تمام بناءها وافق سنة 315 هـ، أنظر: المشترك وضعها والمفترق صقعا، بغداد- بيروت: مكتبة المثنى- دار الكتاب اللبناني، ص387.

⁶ ابن حماد. أخبار ملوك بني عبيد 24، مرمول. السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية، ص 296.

وهوارة وصدراته ومزاته فعمروها، وسمي علي بن حمدون واليا³ عليها وأضيف إليه إقليم الزاب كله في مرحلة ثانية، ونقل الفاطميون إدارة الزاب من طبة إليها فأصبحت هي عاصمة الإقليم واضمحلت شأن طبة نهائيا. شهدت المدينة حركة اقتصادية نشطة لما جيبت به من مزارع ممتدة تنتج أكثر مما يحتاج إليها أهلها، مع تربية السوائم من خيل وأغنام وأبقار بالإضافة إلى رواج زراعة القطن، لذا كانت مقصدا للتجار من أكثر الأفاق،⁴ وهي المزايا التي جعلت أبا القاسم ولي العهد يعمل على أن تكون المسيلة سندا اقتصاديا للدولة الفتية، فأمر واليها علي بن حمدون أن يستكثر من تخزين الطعام و"ادخار الأقوات وكل ما تنضم [كذا] إليه الضرورة، ففعل وزاد" وحفظها لسنوات، حتى ما صارت تتأثر بسنون القحط والجفاف التي عرفتها مناطق مجاورة لها، فإذا ما ارتفعت الأسعار يكتب ابن حمدون إلى أبي القاسم يخبره بذلك يستأذنه في بيع ما ادخر، ويعلمه وجه الربح الطائل والمنفعة المرجاة، وأبو القاسم في كل ذلك يأبي وينهاه عن البيع "ويأمره بالاستكثار والادخار، ويعلمه أنه سيحتاج إليه ويضطر نحوه".⁵

أما عن جعفر بن علي بن حمدون فقبل وخلال تشيد المسيلة كان مقيما بالمهدية منذ حوالي عشرين سنة مع أسرته، وفي سنة 317 هـ وجهه المهدي مع أمه ميمونة بنت علاهم الكتامية الجيملية، إلى أبيه بالمسيلة فالتأم شمل الأسرة هنالك.⁶

ونجد أن الفترة الممتدة من سنة 317 هـ إلى 322 هـ فترة غامضة في تاريخ هذه البيت الحمدوني فلا يذكر لهم نشاط بارز، ولا شك أنهم اهتموا بتعمير المدينة الجديدة تفاديا للصراعات المسلحة التي لم يكنوا قادرين على خوضها لفقدانهم الجيش المنظم القوي في بداية الأمر، ففي سنة 317 هـ خرج عبد بن خزر من قبل أخيه محمد بن خزر أحد أمراء زناته في المغرب وقصد المسيلة، ففر أمامه علي بن حمدون إلى قلعة قريية احتماها وبقي ابن خزر في المسيلة مدة ليقطع كل الصلات بين المهديّة وتيهرت،⁷ ومن المرجح أن تكون هذه الحادثة قبل استكمال بناء سورة المدينة، ومن حسن حظ ابن حمدون أن ابن خزر لم يدم طويلا حتى انصرف راجعا إلى موضعه، وفي نفس السنة وعلى يد ابن حمدون دخل "لفل بن خزر في وجوه زناتة وأشرفهم.. إلى باب أمير المؤمنين وأذن لهم في السلام عليه، وأمر لهم بالكسي والصلوات والحملان، فكسوا في القصر"،² رغم استنكار أخيه محمد بن خزر الذي وجه رسالة إلى الناصر الأموي (300-350 هـ) بخصوص ذلك، وأكد هو ولاء زناتة من وراءه لبلاط قرطبة.³

³ المصادر لا تحتفظ لنا بالعهد الذي تولى به ابن حمدون، العهد الذي بدأ العمل به منذ سنة 312 على الأقل كما هو بالنسبة للقضاء، أنظر: بوبه مجاني. دراسات إسماعيلية، ص 23-24.

⁴ الإدريسي. نزهة المشتاق 1/ 254.

⁵ ابن حماد. أخبار ملوك بني عبيد 24-25، ابن خلدون. العبر 4/ 57، المقرئ. إعطاء الحنفا 72/1، ابن أبي دينار. المؤنس، ص 72.

⁶ ابن حيان. المقتبس، ص 34.

⁷ ابن حيان. المقتبس 5/ 259، عبد العزيز فيلالي. العلاقات السياسية، ص 141.

² الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 231.

³ ابن حيان. المقتبس 5/ 300-305، وهو يؤرخ هذه الحادثة بسنة 319 هـ.

وبعد ارتقاء ولي العهد أبي القاسم العرش سنة 322 هـ على إثر وفاة والده المهدي، وتسمى بالقائم بسأمر الله - وهو لقب من ألقاب الخلافة-⁶¹ كان من الواجب على عامل المسيلة وواليتها علي بن حمدون أن يسادر مسرعا للمهدية مقدما التعازي وفي ذات الوقت يقدم فروض الطاعة والولاء والتهنئة للإمام الجديد، مفسحا المجال مؤقتا لابنه جعفر الذي استخلفه على المسيلة في غيابه الذي طال شهورا؛ مما مكن جعفر من الظهور "بمهارة وخصال من الأدب وبراعة طار له بها في الناس حديث صار [كذا] إليه الأفتدة"، خاصة وأن زيارات أبيه تكررت مرات عديدة إلى المهدي للقاء الإمام القائم، دون أن تفصح المصادر عن فحواها،⁶² وهي تندرج لا محالة في ترتيب أمور الدعوة والدولة والاستزادة من مشورة ونصائح علي بن حمدون الذي كان وثيق الصلة بأبيه المهدي والداعي أبي عبد الله، ومتابعة سير المهام التي أوكلت إليه في مدينته المسيلة، وإطلاعه دون وسائط عن تحركات زناتة والخوارج وأحلافهما.

ويفيدنا ابن عذارى³ في حوادث سنة 324 هـ بأمر غريب: إذ نسب إلى علي بن حمدون تخريب المسيلة! دون أن يذكر سبب إقدامه على ذلك، وفي الفقرة نفسها يتحدث عن ولاية ابنه جعفر على المسيلة والزاب حتى سنة 360 هـ-؟، واقترح روجي إدريس⁴ أن سياق النص مبتور ينبغي إتمامه بالاعتماد على مصادر أخرى وتحديدًا على البكري⁵ الذي تحدث عن مدينة أدنه في طريق المسيلة على مرحله منها وهي التي خرها ابن حمدون في السنة المذكورة.

بنو حمدون في مواجهة ثورة مخلد بن كيداد الإباضي

إن مدينة المسيلة ومؤسساتها سياخذان مكانتهما بجدارة أثناء ثورة صاحب الحمار أبي يزيد مخلد بن كيداد⁶ الإباضي النكاري¹ ضد الفاطميين وبمساندة فقهاء المالكية بالقيروان،² وفي الوقت نفسه وبالتوازي ستظهر أسرة بربرية محلية منافسة لأسرة بني حمدون.

¹ يؤكد القلقشندي أن الفاطميين وبني أمية في الأندلس والحفصيين من بعدهم مدعين للخلافة بوجه غير شرعي ولقب "الخليفة" الذي حملوه ما كانوا يستحقونه، انظر: الباب الثاني المعنون بقوله: ذكر المشاهير من ادعى الخلافة في بعض الأقاليم ويطلان شبهة دعاويه، في كتاب: آثار الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت: عالم الكتب، 2/ 245-259.

² ابن حيان. المقتبس، ص 34.

³ البيان المغرب 1/ 315.

⁴ الدولة الصنهاجية 1/ 47.

⁵ المسالك 2/ 328 ويرد اسمها كذلك بفتح بائنة بينها وبين المسيلة 12 ميلا أنظر: ابن حماد. أخبار ملوك بني عبيد، ص 41 هامش 9.

⁶ انظر تفاصيل هذه الثورة في: سليمان بن يوسف. ثورة أبي يزيد جهاد لإعلاء كلمة الله، ط1، قسنطينة، دار البعث، 1402 هـ - 1981 (ص 110)، عبد الرزاق محمود إسماعيل. الخوارج في المغرب حتى القرن 4 هـ، ط2، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985، ص 236-235، مسعود مزهودي. الإباضية في المغرب الأوسط، القرارة- الجزائر، جمعية التراث، 1417-1996، ص 65-103، محمد بن عمرة. دور زناتة في الحركة المنهجية بالمغرب الإسلامي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 197-213، ولفرد مادلونج. ثورة أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار في الأوراس، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر، 1978 / 2 267-274، إحسان عباس. مصادر ثورة أبي يزيد، الأصالة، عدد 60-61، 1978، ص 65-82، إسماعيل العربي. ثورة أبي يزيد في رواية أبي زكريا، الثقافة عدد 39، 1977، ص 25-36. وأولى تفاصيلها نجدتها عند الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 264-461.

فتورة أبي يزيد بدأ الإعداد لها سنة 316 هـ وبلغت أوج قوتها سنة 333 هـ، استطاع أبو يزيد خلالها أن يستولي على أغلب مدن وقرى إفريقية وخرّب أخرى، "حتى لم يبق في إفريقية موضع معمور ولا سقف مرفوع"،⁶⁹ وهدد المهديّة العاصمة مرات عديدة وحاصر بها القائم بأمر الله، فاستنجد بعلي بن حمدون وجيشه وطلب أن يمده بالميرة من الطعام والأقوات التي كان يأمره بادخارها لمثل هذه الأزمات - وقد صدقت نبوءته- وربما تكرر هذا طويلاً "ومن المحمدية كان يمتار [القاسم ثم المنصور] ما يريد [أن] إذ ليس بالموضع مدينة سواها"،⁷⁰ فخرج علي بن حمدون سنة 334 هـ في عساكره أبطال كتامة وزواوة وحشد من مرهم كوزداجة وقبائل سطيف وقسنطينة ولواته وبنو هراش وزعيمهم حسن بن منصور، ومرّ كذلك بالأريص وشقبنارية - مدينة الكاف حالياً- التي ضم جماعة من جندها إليه بقيادة ثوبان بن أبي وسلاس.

وقد اختلفت المصادر بشأن تفاصيل هذه الحملة كما اختلفت في مصير علي بن حمدون ذاته، فالوراق لم يفصل سير الحملة والمركة الأولى وإن أكد أن ابن حمدون ذاق وُصليّ منها الويلات والأمور المهولة، ويضيف قائلاً: "اتفق عليه أن تردى في بعض تجواله فيها في بعض طرقه من حرف هار عال بعيد القعر، وسقط فرسه عليه فاندقت يده ورجلاه وهلك في مترداه، وذلك في ربيع الآخر سنة 334 هـ".⁷¹

أما ابن حماد الصنهاجي (ت 628)⁷² فيعطي رواية تختلف قليلاً عن المصادر الأخرى بشأن سير المركة ويتفق مع البعض منها بخصوص مصير ابن حمدون، فيرى أنه التقى بعسكر أيوب بن أبي يزيد بفحص على وادي مجردة، فاقتلا قتالا أهزم له علي بن حمدون واشتبه عليه أمر الطريق جهلاً به منه، "فأوى إلى موضع وعر ليلاً ومعه ابن أبي وسلاس، فأخل وثاق فرس من خيولهم، فوثب على فرس آخر فتضاربا وتصاهلا، فوثب

⁶⁷ النكارية إحدى فرق الإباضية ظهرت سنة 171 هـ وسميت بذلك لإنكارها إمامة عبد الوهاب بن رستم، أنظر عنها: أبو عمرو السوني المارغني. رسالة في بيان كل فرقة، تحقيق ونيس عامر، نشرت في مجلة الزيتونة، العدد 3، 1994، ص 295-297، الدرجيني. طبقات المشايخ 1/ 49-56، علي يحيى معمر. الإباضية بين الفرق الإسلامية، ط3 سلطة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1421-2000، 2/ 14-20.

⁶⁸ أبو بكر المالكي. رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، ط3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1414-1994، الأرقام 228، 230، 235، الدباع. معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق عبد الحميد خيالي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1426-2005، الأرقام 192، 193، 194، 214، نجم الدين الحنتاني. المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 5 هـ/ 11 م، تونس: نشر الزمان، 2004، ص 168-169، لقبال موسى. الخلف بين أهل السنة والنكارية، الأصلة عدد 60-61، 1978، ص 55-64، محمود إسماعيل. المالكية والشيعية بالفريقية إبان قيام الدولة الفاطمية، المحلة التاريخية المصرية، مجلد 23، 1976، ص 91-98.

⁶⁹ ابن الأثير. الكامل 7/ 138-139.

⁷⁰ المقرئزي. العاظ الحنفا 1/ 72.

⁷¹ ابن حيان. المقبس، ص 35، طه ذنون. دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي 254-255. وعن الوراق نقل ابن عسدي دون تفصيل، أنظر: البيان المغرب 2/ 243.

⁷² هو محمد بن علي بن حماد الصنهاجي أصله من قرية حزة- البويرة الحالية- ونشأ بالقلمة الحمادية اشتغل بالفقه والتاريخ وله مؤلفات عديدة أشهرها في التاريخ: كتاب "النهد المحتاجة في أخبار صنهاجة بإفريقية وبجاية". توفي في حدود 628 هـ وقيل غير ذلك، ترجمته في: الفريين. عنوان المراهبة، ص 192-194 وأخطأ المحقق حين جعل ص 193-194 كترجمة مستقلة لعبد الحق الإشيلي وهي في الأصل جزء من ترجمة ابن حماد، إذ ورد اسم عبد الحق الإشيلي في سياق استكمال الحديث عن شيوخه. أنظر عنه كذلك: الكتاني. فهرس الفهارس 710/2، جلول بدوي: ابن حماد الصنهاجي، الأصلة، العدد 1، 1971.

القوم بعد أن هجعوا وظنوا أن أيوب غشيهم فركبوا الخيل في ظلام الليل، وتبددوا في تلك الأوعار فسقط علي بن حمدون من جرف عال فانكسرت يداه ورجلاه وظهره وأكثر عظامه"،⁷³ وسياق الرواية يشوبه غموض يصعب فككه، وهو لا يفيدنا بموت ابن حمدون ألحينه كان؟ أم بعد أيام؟.

أما صاحب "الكامل في التاريخ" فيحدثنا عن عدة معارك بين ابن حمدون وأيوب بن أبي يزيد؛ الأولى بباجة أو أحوازها أخذ فيها ابن حمدون على بغة فاستبيح عسكره، ووقعت المقتلة فيهم وغنمت أنقاهم وفر هو، ثم سار أيوب ثانية بجيشه لقتاله وقد نزل مدينة بلطة على بعد 12 ميلا من باجة، فقتلتا وكانت الحرب بينهما سجالا، يظفر هذا تارة وتارة ذلك، إلى أن أعمل أيوب الحيلة في اقتحام المدينة والظفر بابن حمدون، فكاتب أحد حراس أبواها على مال يأخذ فأجاب طلبه، ودخل أصحابه المدينة وقتلوا أهلها وهرب علي بن حمدون ثانية في ثلاثمائة فارس وأربعمائة راجل، راجعا إلى قسنطينة أين وافته قبائل كتامة ونفزة ومزاتة بمكاتبتهم لهم سلفا، وانطلاقا من قسنطينة أخذ يوجه ضربات إلى القواعد الخلفية التي يعتمد عليها أبو يزيد في ثورته، فوجه عسكرا إلى هوارة أنصاره فقتلوهم وغنموا أموالهم، فأنجدهم أبو يزيد بعساكر عظيمة جاءت تباعا، ونشبت بينهم وبين ابن حمدون معارك كان الظفر في جميعها له بمساندة عساكر القائم، وانتصاره هذا دفعه إلى استرجاع مدينة تيجيس وباغاية اللتين كانتا بيد أبي يزيد،⁷⁴ وإلى هنا تنتهي رواية ابن الأثير المؤرخة بسنة 334 هـ ولا نعلم حسبها مصير ابن حمدون شيئا.

أما ابن خلدون⁷⁵ فيذكر أن ابن حمدون خرج قاصدا المهديية إلى أن "قارب باجة وكان بها أيوب بن أبي يزيد في عسكر كبير من التكار والبربر، فزحف إليهم وتناور الفريقان ثم بيته أيوب فاستسباح معسكره، وتردى علي بن حمدون من بعض الشواهد فهلك سنة 334 هـ".

أما الرواية الفاطمية التي يمثلها الداعي القرشي (تـ 872 هـ)⁷⁶ فتتفق في بعض جزئياتها مع الروايات السابقة وتختلف عنها في تفاصيل كثيرة ومهمة في نفس الوقت.

فابن حمدون نزل أول الأمر بلطة وعسكر بها ووافته هناك أخبار عن انتصار الحسن بن علي الكلبي عامل تونس على عسكر أبي يزيد، فكتب إليه يعلمه بوصوله إلى بلطة ويدعوه للقدوم عليه رصا للصف وتوجيدا للجهود، وقد عميت عليه أخبار أيوب الذي كان يعسكر بالقرب منه ولم يشعر به إلى أن صبحه من غد وأخذه وعسكره على حين غفلة، وابن حمدون قد همّ بالركوب في جماعة من أصحابه إلى بعض القبائل يستنجد بهم، فلم يكن أخذ أهفته لحرب أو نزال، أغراه بذلك كثرة الغمام وظلمة الجو؛ حال أيام الشتاء الأولى (ربيع الأول 334 هـ = نوفمبر 945 م)، فوصل أيوب إلى معسكره واستباح أخبيته ومضاربه وغنم أمواله

⁷³ أخبار ملوك بني عبيد، ص 31 وورد اسم وادي مجردة بلفظ "وجرة" وهو خطأ.

⁷⁴ ابن الأثير. 144-145 / 7.

⁷⁵ العبر 4 / 107-108، 21 / 7.

⁷⁶ هو إدريس عماد الدين القرشي، من دعاة الفاطميين باليمن بعد سقوط خلافتهم بمصر على يد الأيوبيين وصل إلى رتبة "الداعي المطلق" وتزعم المذهب من سنة 832 إلى وفاته سنة 872 هـ، أنظر: مصطفى غالب. اعلام الإسماعيلية، ص 137.

وأثقاله، وفر ابن حمدون على فرسه ناجيا مئخن بالجراح "إلى ناحية بني ديارة (موضع غير معروف) فتردى به فرسه في بعض الأوعار فسقط وانكسر وركه وقرست عظامه ومات هنالك بعد أيام".⁷⁷

وبقية العمليات الحربية التي جرت في قسنطينة، واسترجاع باغاية وتجيس فينسبها إلى الحسن بن علي الكلبي، ليختمها بقوله "وصار الحسن بن علي إلى بلد كتامة، ومات علي بن حمدون صاحب المسيلة رحمه الله"،⁷⁸ مما يؤكد مرة أخرى أن موت ابن حمدون كان بعد أيام طويلة قدر إنجاز العمليات المشار إليها.

بناء على هذه الروايات المختلفة يمكن أن نخلص إلى شيء واحد على الأقل متفق عليه؛ وهو أن موت علي بن حمدون كان في ربيع الآخر سنة 334 هـ، فبعض المصادر أغنتنا عن محل تاريخ هذه الوفاة إذ صرحت بذلك، أما المصادر التي لم تصرح بها كابن الأثير فإنه لم يذكر أي نشاط لعلني بن حمدون بعد التاريخ المقرر عند غيره، ولا شك أن التاريخ الذي انفرد به ابن عذارى أي سنة 326 هـ لا يتماشى مع سير الأحداث مما يفضي بنا إلى القول أنه سبق قلم.

وتجدر الإشارة إلى أن روجي إدريس⁷⁹ ذكر وقائع لم أقف عليها في المصادر التي اعتمدها وصرح هو بالأخذ عنها، إذ ينسب انهزام علي بن حمدون في معركة بلطة إلى تقاعس قائد جند شقبنارية ابن أبي وسلاس، كما انفرد بذكر استيلاء أيوب بن أبي يزيد بعد هذه المعركة على المسيلة غدرا ففر منها ابن حمدون إلى بلاد كتامة! واعتمد على المستشرق فورنال H. Fournel في كتابه عن البربر (Le Berbères) الذي يزعم أن العمليات التي قام بها ابن حمدون إنما هي في الحقيقة أعمال الحسن بن علي الكلبي قائد حامية تونس، ويؤكد أن التناقض الحاصل سببه اللبس الذي أحدثه تشابه الاسمين الحسن بن علي وأبو الحسن علي بن حمدون، وعليه لا ينبغي أن نرفض الأعمال المنسوبة لابن حمدون لفائدة الحسن بن علي الكلبي، وتبقى الأعمال المنسوبة إلى هذا الأخير بعد ربيع الآخر 334 هـ على أصلها.

الأدوار الحاسمة لجعفر بن علي بن حمدون في حرب أبي يزيد

موت علي بن حمدون في سبيل الفاطميين أنحلى الطريق أمام جعفر أحظى أبنائه كيما يظهر بصفة القائد البارز صاحب النفوذ بصيغة متدرجة، فقد تولى إدارة مدينة أبيه -المسيلة- من غير تفويض أو تعيين إنما استصحبها للأصل باستخلاف أبيه له بها، وقبله بلاط المهديّة كإجراء استعجالي لم تكن الظروف تسمح بغيره، رغم أن قوة أبي يزيد بدأت تتراجع لصالح الخليفة الجديد المنصور، -الذي خلف أباه القائم المتوفى سنة 334 هـ- بدءاً من نهاية هذه السنة وأوائل سنة 335 هـ، إذ انفضت من حوله جموع غفيرة كالمالكية بالقيروان وبعض القبائل البربرية بما في ذلك حليفه محمد بن خزر الزناتي لشناعات وقبائح ظهرت منه ومن عساكره.

⁷⁷ الداعي القرشي. عون الأخبار، ص 334.

⁷⁸ المصدر نفسه، ص 335-337.

⁷⁹ الدولة العنهابية 50/1-52.

أخذ المنصور يلاحق فلول أبي يزيد في أرض المغرب الأوسط كباغاية حتى وصل طنبة أو قسطيلية،⁸⁰ وهناك وصله كتاب جعفر بن علي بن حمدون من المسيلة يعلمه أنه ظفر بثائر يزعم أنه الإمام القائم بالحق ويدعي النبوة⁸¹ وتسمى الناصر لدين الله، ظهر بأوراس واجتمعت عليه قبائل كثيرة من زواوة وصنهاجة وعجيسة، ثم وافاه بنفسه ومعه هذا الثائر الغلام القيرواني الأصل مع أربعة نفر، كانوا على وشك فتح جبهة مواجهة أخرى ضد الفاطميين لتشتيت قواهما، فنفذ المنصور فيهم حكمه، كما قدم عليه مهدية سنية.⁸²

خلال ذلك كان أبو يزيد يعتصم بجبل كيانة بموضع منه يعرف بعين السودان، فزحف إليه المنصور وعلى يمينته جعفر بن علي في جنده وبعض بطون كتامة الذين أظهروا شجاعة وبسالة انهزم لها أبو يزيد يوم 13 جمادى الأولى 335 هـ وفر إلى جبل سالات، فرحل المنصور حينها يوم الخميس 14 جمادى الأولى إلى المسيلة برفقة واليها جعفر، فاستقبلهما أهلها استقبالا يليق بهما وأظهروا للمنصور طاعة ورضاء وثناء، وأقام بها أيام كأنها سنوات بما فرق من الأموال والأرزاق على أجنادها وأهلها وسدد من أحوالها، وفيها صلبت جثث القتلى من جند أبي يزيد، وبالمسيلة وفد عليه يعقوب بن محمد بن خزر يوم 20 جمادى الأولى من قبل أحد زعماء زناتة، فخلع عليه وأكرمه ومن معه وقبيل منهم، كما أتته قبائل تلك الجهات ووفودها إعلانا للطاعة وتجديدا للمواثيق، ومنها أيضا كتب الخليفة إلى أهل مدينة الغدير (برج غدير الحالية من ولاية برج بوعريريج) من هوارة يأمرهم بأخذ أبي عمار الأعمى الرجل الثاني في هذه الثورة بعد أبي يزيد، ليختم ذلك بكتاب الفتح يسيره إلى الآفاق.⁸³

ثم ارتحل المنصور بعد أن قضى أسبوعين في المسيلة يوم 29 جمادى الأولى سنة 335 هـ طلبا لأبي يزيد في جبال سالات، وهي أوعار ومضائق لاقى فيها بلاء وشدة، لا تقل عما لاقاه من أبي يزيد نفسه، فعاد أدراجه إلى بلاد صنهاجة،⁸⁴ فمرض هناك نحو شهرين وعزم بعد شفائه أن يتوجه إلى تيهرت، وقد عميت عليه أخبار أبي يزيد الذي زحف نحو المسيلة مستفيدا من هذه الظروف بعد أن أرسل إلى هوارة بالغدير أن يوافوه، فسار إليها طمعا لقلعة ما بها من الرجال إذ خرج معظمهم مع المنصور.

⁸⁰ افترض ستارن أنها موقع قرية ميزرفلتا *Mesarfeltta* بين طنبة وبسكرة. أنظر:

Stern (S. M) *Thre North- African Topographical Notes (Islamic- Roman)*. ARABICA, Tom I, N°, 2-3-1954, p. 345.

⁸¹ أنظر عن هذه الظاهرة: إسماعيل سامعي. مدعو النبوة في بلاد المغرب الإسلامي، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، عدد 13- فيفري 2003، ص 127-148، محمود إسماعيل. المهمشون في التاريخ الإسلامي، ط1، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2004، ص 91-101، بوتشيش.

الإسلام السري في المغرب العربي، ط1، القاهرة: سينا للنشر، 1985، ص 11-44، ليفي بروفنسال. لخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى، باريس: مطبوعات لاروز، 1948، ص 25-26، ويرى وليد طوغان أن توظيف الدين سياسيا بغرض بالضرورة إلى إدعاء النبوة حين يصبح السلطان وفقهاته مشرعون. أنظر: مدعو النبوة في التاريخ الإسلامي، ط1، القاهرة- لندن: مطبوعات دار الحيتال، 2004، (ص 218)

⁸² ابن حماد. أخبار ملوك بني عبيد، ص 37، الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 391-392.

⁸³ ابن حماد. أخبار ملوك بني عبيد، ص 38، الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 393-403.

⁸⁴ حسب ابن حماد أنه عاد إلى وادي لعل بالقرب من حائط حمزة (البويرة الحالية)، أنظر: أخبار ملوك بني عبيد، ص 40، أو واد لفلغ عند القرشي. عيون الأخبار، ص 405، أو غمرت حسب ابن خلدون. العبر 56/4.

بلغ هذا الخبر المنصور فارتحل يوم الأربعاء 2 رجب 335 هـ ووصل المسيلة يوم 5 رجب وأبو يزيد محاصر لها بمجموع هوارة وبني كملان، فلما رأى طلّاع المنصور فر إلى جبل عقار أو كيانة من أرض عجيصة وكتامة،⁸⁵ فأقام المنصور بالمسيلة بقية شهر رجب والعشر الأولى من شعبان، بعث خلالها ميسور الفتي إلى سطيف وخفيفا الفتي إلى ميلة لاستنفار كتامة، ووافاه هنالك رسول الخير بن محمد بن خزر أمير مغراوة الزناتية في نحو مائة فارس باذلا طاعته له، وسأله أن يعث إليه بالخطبة والسكة ليضربها على اسمه فأجابه إلى طلبه وأكرم رسوله ووفدّه ووصلهم بأعطيات، وأمره أن يمده برجال زناتة ومعهم الميرة إلى المسيلة والقيروان وأمرهم بالإغارة على ضواحي بسكرة: بنطوس وسدراتة اللتان كانتا دعما لأبي يزيد بالأقوات ففعلوا.⁸⁶

ثم سار المنصور يوم السبت 10 شعبان 335 هـ إلى أدنة فالتقى بعسكر أبي يزيد في وقعة عرفت باسم "يوم الرؤوس" قتل فيها من أصحاب أبي يزيد ألف وسبعون!! (أو عشرة آلاف!!) بين راجل وراكب، والرقمين المذكورين لا يمثلان الحقيقة مطلقا فهما من مبالغات المؤرخين، أما عن أبي يزيد فقد طعنه القائد الصنهاجي الشهير زيري بن مناد طعنة أمكنته منه لولا أن بادر أصحابه وفروا به إلى جبل كيانة،⁸⁷ فرجع المنصور إلى المسيلة بعد الوقعة وأقام بها إلى نهاية شهر شعبان ليستقبل الأمداد من الجند، ولما تمّ له الأمر سار بهم يوم الجمعة غرة رمضان إلى موضع أبي يزيد وبعد جولات وصولات⁸⁸ انهزمت لها جموع هذا الأخير، وعثر عليه جريحا؛ قد سقط من الوعر وحمل إلى المنصور فنكّل به، وختم بذلك مشهد أعنف ثورة زعزعت أركان دولة الفاطميين في المغرب.

والجدير بالذكر أن دور جعفر بن حمدون -على أهميته- لم يكن واضحا في هذه الأحداث ذات الطابع العسكري، وهناك احتمالين لذلك.

- الاحتمال الأول: أن جعفر لم يكن يحمل من المؤهلات العسكرية -لصغر سنه ولتعوده على حياة الترف صدر شبابه في المهديّة خصوصا- ما يمكنه من القيام ببلور مشهود يحسب له، أو أنه لم يكن يملك من الجند إلا القليل.

- الاحتمال الثاني: أن جعفر كان له دور ما لكن المصادر خاصة الشيعية تجاوزته لصالح شخصية المنصور الخليفة.

وأرى أن كلا الاحتمالين يحملان جانبا من الصحة؛ فجعفر وإن استطاع أن يصل بجيالة إلى جبل أوراس ويحبط مؤامرة الناصر بها المشار إليه في موضعه، التي ربما كانت ستسير في نفس اتجاه ثورة أبي يزيد لو لم

⁸⁵ ابن حماد. أخبار ملوك بني عبيد، ص 38-40، ابن الأثير. الكامل 149/7، ابن خلدون. العبر 22/7-23، 56/4، الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 403-407.

⁸⁶ ابن حماد. أخبار ملوك بني عبيد، ص 40-41.

⁸⁷ ابن حماد. أخبار ملوك بني عبيد، ص 41-42، ابن خلدون. العبر 56/4-57، 23/7، الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 407-411.

⁸⁸ دامت هذه الجولات من يوم 2 رمضان 335 إلى 24 محرم 336 هـ، أنظر تفاصيلها عند: الداعي القرشي. عيون الأخبار، ص 408-438.

تحمّد في مهدها، خصوصا وأن منطقة أوراس كانت مهذا لأبي يزيد، فابن حمدون لم يستطع أن يواجه -لقلّة جنده- أبا يزيد بمجموعه الكثرة واستسلم للحصار المفروض عليه الذي دام ثلاثة أيام، ولم ينقذه منه إلا تدخل المنصور.

كما أن الرواية الشيعية الأكثر تفصيلا لسير الحوادث تحجب كل ما سوى الخليفة، وهذا وفقا لنظرهم إليه باعتباره إماما⁸⁹ قائما مقام نبوة محمد ﷺ وأفضل من بعض الأنبياء والرسل؟! فلا يصح أن يذكر جنبا إلى جنب مع بقية البشر، الذين إذا ذكروا فلتوجيه وتوضيح الرؤية وليس تأصيلا لها.

كما أن ظهور شخصيتين قويتين -سيكون لهما دور قادم- ممثلتين في زيري بن مناد والحسن بن علي الكلبي، شتتا تركيز المصادر السنية وفتت انتباه المؤرخين بمجدارة في المعارك الأخيرة ضد أبي يزيد.

وأيا ما كان الأمر فإن دور المسيلة استمر إلى نهاية هذه الأحداث فمنها كانت ميرة العساكر التي حاصرت أبا يزيد في جبال كيانة وسالات طوال سنتي 335 و 336 هـ على كثرتها، كما أنها كانت ملاذا وملجأ للمنصور يأوي إليه مع كل أوبة ليعيد ترتيب شؤونه، أي أنه اتخذها قاعدة حربية منها يعث السرايا والبعوث، وعليها يفد الرسل وزعماء القبائل دخولا في طاعته.

لقد انصرف القائم يوم السبت 2 صفر 336 هـ من أرض المعركة الأخيرة متجها إلى المسيلة فدخلها وأقام بها نحو أسبوعين، استعدادا لعودته إلى المهديّة فوصلته أخبار عن خلع حميد بن يصل الكناسي لطاعته وتغلبه على تيهرت فنهض منها يوم 17 صفر يريدها، ففر أمامه ابن يصل وعبر الأندلس،⁹⁰ فرجع المنصور يوم 29 ربيع الآخر ونزل المسيلة من جديد على عادته وبقي بها يومين ثم تحرك إلى المهديّة متصرا، وهذا النزول الأخير للمنصور في المسيلة كان ذا أهمية بالغة، حيث عقد لجعفر بن علي بن حمدون رسميا⁹¹ على المسيلة والسزاب الذي يمتد جنوبا إلى الواحات وغربا إلى حدود صنهاجة بأشير وشرقا إلى أوراس؛ تقديرا لسالف خدمته.

بلاط بني حمدون بالمسيلة كما صورهم ابن هانيء الأندلسي

شهد بلاط بني حمدون بالمسيلة في مرحلة استتباب الأمن والاستقرار بعد القضاء المبرم على ثورة أبي يزيد، تطورا وصل حد البذخ والترف حيث "استجدوا بها سلطانا ودولة، وبنوا القصور والمتزهات واستفحل بها

⁸⁹ أنظر عن نظرية الإمامة في الفكر الشيعي: القاضي النعمان. دعائم الإسلام، تحقيق آصف أصغر فيضي، القاهرة: دار المعارف، 1969، 45/1-55، نفسه. المهمة في آداب أتباع الأئمة، تحقيق مصطفى غالب، بيروت: دار ومكة الهلال، 1985، ص 37-46، المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي. المجالس المؤيدية، ط1 القاهرة: مكتبة مدبولي، 1414-1994، ص 67-70، 105، 162، سهيل زكار. الجامع في إخبار القرامطة، ط1، دمشق: دار حسان، 1987-81/1 وما بعدها، الرزينة لالان. الفكر الشيعي المبكر، ترجمة: سيف الدين القصور، ط1، بيروت- لندن: دار الساقي- معهد الدراسات الإسماعيلية، 2004، ص 89-119، فرهاد دقري. المناهج والأعراف العقلاية في الإسلام، ترجمة ناصح مبرز، ط1، بيروت- لندن: دار الساقي- معهد الدراسات الإسماعيلية، 2004، ص 143-144، عارف تامر. تاريخ الإسماعيلية: الدعوة والعقيدة، 72/1-81، 106-120.

⁹⁰ ابن حماد. أخبار ملوك بني عميد، ص 45، ابن خلدون. العبر 57/4، الداعي القرشي. عميون الأخبار، ص 463-466.

⁹¹ ابن خلدون. العبر 108/4، وأنظر عن سياسة المعز في تعيين عماله: حسن إبراهيم حسن وطله أحمد شرف. المعز لدين الله، ط3، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1963، ص 154-151.

ملكهم، وقصدهم العلماء والشعراء"⁹² لكن المصادر لا تعطينا إلا أربع أسماء فقط هؤلاء القاصدين من العلماء والشعراء وهم أحمد الوهراي كاتب جعفر بن علي بن حمدون وعثمان بن أمين عين الأمويين وجاسوسهم وابن هانيء الأندلسي الشاعر.

والكلام عن تحول المسيلة إلى كعبة للعلم والأدب يقصدها أرباب الثقافة من كل فج و صوب كما يقول البعض⁹³ هو مجرد كلام عاطفي عار من الدليل، لكن لا يلغي هذا القول أن يكون عدد الوافدين أكثر من الأربعة الذين ذكرت؛ فحسب إشارة وردت عند الفتح بن خاقان ونقلها المقرئ عنه وهي قوله: "جعفر بن الأندلسية مأوى تلك الجنسية"⁹⁴ يمكن أن نستشف منها أن الأندلسيين بالخصوص هم أكثر الوافدين على بلاط بني حمدون لاستحكام العصبية اليمنية الأندلسية فيهم، ووفود العلماء والشعراء على المسيلة دليل على استبحار عمراؤها إلى حد ما،⁹⁵ وإن كان بعض الباحثين يرد دعوى ابن سعيد - ومن نقل عنه - في وصفه لبلاط جعفر بن حمدون "أنه معمور بالشعراء"، حيث لم يستطع ابن هانيء الولوج إليه ومنافسة هؤلاء الشعراء إلا بحيلة ساذجة.⁹⁶

والذي يهمنا الآن هنا هو أن نعرف البلاط الحمدوني بالمسيلة من الداخل، ففي غياب المصادر التاريخية المورخة لذلك، يبقى أمامنا خيار وحيد وهو الاعتماد على ديوان ابن هانيء الأندلسي وشعره، باعتبار الشعر ذو صلة وثيقة بالتاريخ وأحداثه السياسية،⁹⁷ فقد مدح بني حمدون وبلاطهم بـ 27 قصيدة و 5 مقطوعات بما فيها هجاء كاتبهم الوهراي، وبعض هذه القصائد غير موجودة في طبعة كرم البستاني للسديوان، لذا أعاد اليعلاوي نشره كاملاً⁹⁸ بعد أن أنجز أطروحته بجامعة السربون حول ابن هانيء وشعره، وطبعته تلك تضم 1789 بيت موزع كالآتي:

⁹² ابن خلدون. العبر 108/4، مرمول. الساسة الداخلية للخلافة الفاطمية، ص 299، عبد الحميد الخالدي. الحياة الفكرية في المغرب الأوسط (الدولة الحمادية 408-547 هـ/1018-1152 م)، رسالة ماجستير، جامعة بغداد 1983، ص 27، والملاحظ أن صاحب الرسالة تكلم عن المسيلة في عهد بني حمدون أي خلال الفترة الفاطمية، ولم يذكر شيئاً ذا بال عنها في العهد الحمادي زمن الدراسة التي تناولها هو.

⁹³ محمد الطمار. الروابط الثقافية بين الجزائر والمغرب، ص 110.

⁹⁴ مطمح الأنفس، ص 170، نفع الطيب 44/4.

⁹⁵ ابن خلدون. المقدمة، ص 416-417 (فصل: في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة).

⁹⁶ ابن سعيد. المغرب في حلي المغرب، 77/2، ابن أبيك الدوادري. الدورة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، ص 246-247، اليعلاوي، ابن هانيء المغربي الأندلسي، ص 15.

⁹⁷ أنظر عن هذا المعنى: عبد الحميد المبادي، الصلة بين الشعر والتاريخ السياسي، مجلة مجمع اللغة العربية - القاهرة - مجلد 11، جزء 11، ص 23-34، أحمد خالد، ابن هانيء، تونس - الجزائر: الشركة التونسية للتوزيع - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976، ص 45-46.

⁹⁸ ابن هانيء. ديوان محمد بن هانيء الأندلسي، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995، وقد اعتمدته في هذا الإحصاء فقط.

797 بيت في مدح جعفر و 387 بيت في مدح يحيى و 92 بيت في مدحهما معا و 227 بيت في مدح إبراهيم بن الأمير جعفر و 147 بيت في رثاء والده جعفر و 97 بيت في رثاء حفيد جعفر و 42 بيت في هجاء الوهراني الكاتب.⁹⁹

ففي الجانب الحضاري العلمي وردت إشارة في إحدى المخطوطات التونسية للديوان تفيد أن جعفر ابن حمدون كانت له مكتبة معتبرة ضمت صنوفا من العلم والفنون والمعارف المختلفة، ولعلاقاته الحميمة بالشاعر سمح له بالاستفادة منها،¹⁰⁰ وهذه أول إشارة لوجود المكتبات في المغرب الأوسط بعد حرق مكتبة المعصومة في تاهرت الإباضية،¹⁰¹ فتكون المسيلة حينها السباقة إلى إنشاء هذه المرافق العلمية بفضل بني حمدون الأندلسيين صعيد مغاير تماما للصورة السالفة يصف ابن هانيء حياة اللهو والمتعة والمجون في البلاط من خلال القصائد التي يستهلها بأبيات خميرية تنبئ عن وضع هو تقيض لما عُرف به بلاط المعز الفاطمي في المهديّة من التقشف، فيدعو يحيى بن حمدون إلى أخذ نصيبه من المتعة المشروعة لإزالة عناء الجد والكد بعد معارك وخطوب، فيقول: [البحر الطويل]

فرغت من الجد الذي أنت شائد وما
زلت تروي السيف في الروع من دم
وتنعم بالبيض الأوانس كالدمى
فجر ذبول العيش في الزمن النضر
فحقك أن تروي الثرى من الخمر
وترفل من دنياك في حلل خضر

أما الجوّاري فكانت عنصر رئيس في البلاط يتبادلها الأخوان فيما بينهما، مما يعني أن تجارة الرقيق كانت رائجة في الزاب، وبالتالي علاقات تجارية مع صقلية والسودان جنوب الصحراء، فيقول ليحيى: [طويل]

حباك بما من أنت شطر فواده
أحوك فلا عين رأت مثله أخوا
وما شطر شيء بالغني عن الشطر
إذا ما احتى في مجلس النهي والأمر¹⁰²

وعلى الطريقة النواسية يدعو إبراهيم بن الأمير جعفر إلى خلع الحياء مع جواريه على موائد الخمر، فهم ملك يمينة، فيقول: [كامل]

فأخ حميدا بينها عذر الصبا
وتخالها صفراء عارضة الدجى
وليد سر ضمائر إعلانا
وسرت فنادم كوكبا
ندما¹⁰³

وعن الحياة المزدهرة في الزاب وعاصمته المسيلة وبلاطها وكثرة حدائقها وطيب هوائها، فقد تجاسر ابن هانيء على تشبيهها ببغداد، فيقول [كامل]

⁹⁹ قارن هذا بما ورد عند: أحمد خالد، ابن هانيء، ص45، فاتح جميل، ابن هانيء في حاضرة الزاب الجزائري، مجلة العلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة، عدد21، جوان 2005، ص139، أحمد ذياب. ابن هانيء الأندلسي، مجلة الأصال، عدد11، 1972، ص135-138. البعلاوي. ابن هانيء المغربي الأندلسي..شاعر الدولة الفاطمية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1405-1985، ص23.
¹⁰¹ أنظر عنها: بنغاز. الدولة الرستمية، ص288-293، الحريري. الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ص237، إسماعيل سامي. حرق المكتبات في بلاد المغرب الإسلامي: نهب للأحر أم جناية التاريخ، مجلة دراسات أدبية وإنسانية، عدد2، نوفمبر 2004، ص17-20.
¹⁰² ابن هانيء. ديوان، ص156-157، البعلاوي. ابن هانيء المغربي الأندلسي، ص183.
¹⁰³ ابن هانيء. ديوان، ص361، البعلاوي. ابن هانيء المغربي الأندلسي، ص183.

ورأيت حوالي وفد كل قبيلة
وأرضا وطئت الدر رضاضا هما
حتى توهمت العراق زابا
والمسك تربا والرياض جنابا
حتى حسبت ملوكها أعرابا¹⁰⁴

وفي أخرى يقول عن رقة حواشي الدهر في الزاب وطيب العيش والرفاه والأناقة؛ التي صار الناس معها
يستخشنون النسيم العليل لفرط حساسيتهم:

تبتدّد الزاب حتى رأيتسه
أرضا وطئت الدر رضاضا
يهب نسيم الروض فيه فيستحفي
بها والمسك تربا والرياض جنان¹⁰⁵

وسوف ننتظر أكثر من أربعة قرون لينقض هذا الوصف كل من محمد بن أحمد المقرئ التلمساني والسلطان
أبي عنان، لما وصل الزاب في الحملة المرينية على المغرب الأوسط سنة 758 هـ، إذ لقيا من حرها ما لقيا،
فقال المقرئ:

دخلت بلاد الله شرقا وغربا
فلم ترَ عيني مثل بسكرة يسا
فزاد السلطان بداهة:

ويا قبح ما أسود القتام بوجهته
فخسرا وسحقا لابن هاني لقد غوى
فمذ غشي الأبصار لم تبصر الشمسا
بمدح بلاد الزاب إذ عدم
الحسا¹⁰⁶

إن قصائد ابن حمدون تشير إلى كثير من الأحداث والوقائع التي لم ترد مطلقا في كتب التاريخ العام،
كحروب الأخوين مع القبائل المجاورة للمسيلة، وكذا ما تعلق بعلاقة الأخوين فيما بينهما، وتفضيل جعفر لابنه
إبراهيم علي أخيه يحيى أحيانا، وهو ما يثير حفيظة يحيى ويجاهر بالعداء لهما، ثم تعود الأمور إلى مجاريها وهكذا
دواليك، كما تصف الحمدونيين وتشيد بأخلاقهم الرفيعة من كرم وجود وشجاعة وإقدام وصدق وحزم و...
إن لشعر ابن هاني حلاوة وطراوة لظهور معانيه وقوة مبانيه، إلا أننا نقول فيه ما قال أحد القدمى¹⁰⁷:
"رجل يستعين على صلاح دنياه، بفساد أخراه، لرداء عقله، ورقة دينه، وضعف يقينه، ولو عقل لم تضق عليه
معاني الشعر، حتى يستعين عليها" بتلك الحماقات الخادشة للحياة.

هذا وقد يكون لقصائد ابن هاني الفضل الأول في وصول شهرة جعفر إلى المشرق، وتحديدًا إلى البلاط
الحمداني المتشيع في حلب الشام، فقد مدحه شاعرهم الصنوبري¹⁰⁸ بقصيدة من عشرة أبيات، مطلعها:
[منسرح]

¹⁰⁴ ابن هاني. ديوان، ص252، العلاوي. ابن هاني المغربي الأندلسي، ص121.

¹⁰⁵ العلاوي. بلاط بني حمدون بالمسيلة، ص53.

¹⁰⁶ ابن الحاج النمري. فيض العباب، ص441.

¹⁰⁷ ابن شرف القيرواني. مسائل الانتقاد، ط1، مصر: مكتبة الخانجي، 1344-1926، ص26.

واسطة التاج أنت والمغفر
رونقها من حسامك الأخضر

يا قمرا في غمامه المغفر
درعك هذي البيضاء أثقب في

إلى أن يقول:

أحمد كل جعفر جعفر
— زاب وما ماؤه سوى
الكوثر¹⁰⁹

جعفر روجي لك الفداء أبا
ما الزاب إلا عدن لأنك في الـ

علاقة بني حمدون ببلاط المهديّة

استمرت علاقة بني حمدون ببلاط الخلفاء الفاطميين بالمهديّة خلال فترة حكم المنصور على أحسن وجه، وبقيت كذلك صدر خلافة المعز لدين الله (341-362)، أبدى فيها جعفر والي المسيلة تعاوناً ملحوظاً، فبعد سنة من توليه الخلافة أي سنة 342 هـ خرج المعز إلى المغرب وصعد جبل أوراس ليفرض طاعته بحد السيف، وربما مر بالمسيلة أين جدد عهد تولية جعفر عليها وعلى أعمالها،¹¹⁰ لثقتة به وحاجته له خصوصاً وقد ربطتهما رابطة قرابة: فهما أخوان من الرضاع.¹¹¹

كما خرج سنة 347 هـ مع قائده جوهر الصقلي¹¹² لقتال يعلى بن محمد اليفري وأهل المغرب الأقصى لنظّم طاعتهم والاستعاضة عنها بطاعة أموي الأندلس، فظفر بهم جوهر، وبان تفوق زيري بن مناد الذي خرج معهما، فأضيفت له تاهرت إلى أعماله،¹¹³ وقد دامت هذه الحركة قرابة السنة.

لكن لم يصف الجوّ طويلاً لجعفر عند المعز وكبير رجال دولته جوذر لكثرة القلاقل عليه والوشيات به من خصومه وحاسديه، الذين لفقوا له تمها لا يستبعد أن تكون بعضها مأخذ مقبولة وحقيقة ثابتة.

فقد رفع الواشون به إلى الأستاذ جوذر ما جعله يشك في أمره - رغم شدة رعايته لوده - بخصوص رجل يدعى عثمان بن أمين، قيل أنه يقدر في الدولة ويكاتب الخليفة في قرطبة يكشف له عورات العبيدين، فلم

¹⁰⁸ هو أحمد بن محمد بن الحسن الضي الأنطاكي الأصل الحلبي النشأة، توفي سنة 334 هـ، شاعر الدولة الحمدانية، أنظر عنه: بروكلمان. تاريخ الأدب العربي، 97/2-98، شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني، ط 2، القاهرة: دار المعارف، 1975، ص 347-368.

¹⁰⁹ الصنوبري. ديوان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، 1970، ص 28-29، وقد وصله الأمر جعفر بألف دينار، أرسلها مع نقاة النجار، أنظر: ابن شرف. مسائل الانتقاد، ص 24-25.

¹¹⁰ ابن أبي دينار. المؤنس، ص 79.

¹¹¹ العزيز الجوذري. سيرة الأستاذ جوذر.

¹¹² عن شخصية جوهر وأعماله أنظر دراسة: حسن علي إبراهيم. تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، ط 2، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1963 (152 ص)

¹¹³ ابن خلدون. العبر 4/ 59-60، مجهول. مفاخر البربر، ص 129-130، ويورخها بسنة 349 هـ، إسماعيل العربي. دولة بني زيري، ص 13، هاشم العلوي القاسمي. مجمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1415-1995، 2/ 359-374، محمد بن تاويت. تاريخ سبتة، ط 1، الدار البيضاء: دار الثقافة، 1402-1982، ص 25-26، عمود إسماعيل: الإدارة (172-375 هـ) حقائق جديدة، ط 1، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1411-1991، ص 168-169.

يحرك جعفر بشأنه ساكنا مع أن القدرح في الدولة يستوجب القتل بحسب المعتقد الإسماعيلي،¹ بل يرضى ذمامه ويلقى منه كل التسهيلات، الأمر الذي حمل جوذر على رفع أمره للمعز ليفاجأ أن الخبر سبق وأن رفع له قبل علمه به هو، وقابله بالصبر والتثبت؛ عله يكون سعاية حاسد يكيده لجعفر، وأمر جوذر أن يكاتبه ليرى منه شخصيا،² مما يوحي بأنه قد خامره الشك ولم يعد يثق تمام الثقة في عامله، خاصة إذا تعلق الأمر بخيانة الدولة لصالح بني أمية الأعداء التقليديين.

وسياسة بني أمية معروفة إزاء العدو المغربي حتى قبل قيام الدولة الفاطمية، والتي تكشف عنها عبارة المؤرخ الأندلسي: عيسى بن أحمد الرازي (ت 379 هـ)³ فقد "كان الأمير محمد بن عبد الرحمن [الداخل] شديد التهمم بخير الساحل والعدوة مراعيًا لما هنالك من أخبار أعدائهم المسودة [العباسيين والأغالبية] متحسسا من عمالهم محتولا عنهم بكثير ممن يتعرف عليهم من ملوك البربر الملقين إليه بالولاية"،⁴ إذن لا يستبعد أن يكون عثمان بن أمين منحرفا في هذا التيار نيابة عن جعفر الذي يريد أن يكسب ثقة الطرفين معا. أما علاقة جعفر بجوذر فقد كانت مميزة جدا في سنواتها الأولى إذ كلف هذا الأخير في عهد القائم بتربية جعفر أثناء غياب والده في المشرق كما كان واسطة بينه وبين المعز، يسمى له عنده في قضاء حوائجه ويستمد مكاتبه في بلاط المعز من مكانة جوذر ذاتها، وكثيرا ما كان المعز يكاتب جعفر على لسان جوذر وعن طريقه؛ إلى درجة أن أقم جوذر وتكلم فيه رجال البلاط وفي سر هذه العلاقة غير العادية بينهما.⁵

الاستقلال الإداري والمالي لبني حمدون

استقلال بني حمدون في المسيلة عن بلاط المهدي الذي يؤكد بعض الباحثين⁶ لا يظهر لنا بوضوح إلا من خلال عبارات لطائفة من المؤرخين توحى بذلك، كوصف جعفر بالأمير أو الملك فقد سماه ابن شرف

¹ كما حدث لإبراهيم الدميني، وأبي عبد الله السدري، أنظر: المالكى. رياض النفوس 2/ 139-171، ابن عذارى. البيان المغرب 1/ 185.

² العزيز الجوزري. سيرة الأستاذ جوذر، ص 123-124، الحاج صالح عمار. المغرب العربي من خلال خلافة المعز لدين الله الفاطمي، القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 2004، 1/ 266-267، سامية مصطفى سعد. العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية، ط 1، مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2000، ص 91-92.

³ ينحدر عيسى الرازي من أسرة شهيرة هاجرت من المشرق إلى الأندلس واهتمت بتدوين تاريخ الأندلس وخدمة بلاط قرطبة الأموي، له تكملة كتاب أخبار ملوك الأندلس الذي ألفه والده أحمد (ت 344 هـ) وآخر في تاريخ الأندلس ألفه للحكم المستنصر، وآخر عن الوزراء والوزارة في الأندلس وآخر عن المحاب ولمله ألف هذين الأخيرين للمصور بن أبي عامر، أنظر: طه ذنون. تدوين التاريخ العربي في الأندلس، ص 49-56، بلنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي، ص 198، بويكا. المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ص 136-139، البشري. الحياة العلمية في عصر الخلافة، ص 267-268.

⁴ ابن حيان. المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، بيروت: دار الكتاب العربي، 1393-1973، ص 265-266، محمود إسماعيل. مغربيات، ص 157.

⁵ العزيز الجوزري. سيرة الأستاذ جوذر، ص 131-133.

⁶ أحمد مختار البادي ومحمد إبراهيم الكاني. أعمال الأعلام، ص 66، هامش 3، الدشراوي. الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 401، حيث يرى أن جعفر كان "يحكم حكما مطلقا"

القيرواني¹ بـ "أمير الزاب" و"ملك الزاب"² وسماه ابن خلكان³ "صاحب المسيلة وأمير الزاب" وسماه ابن الخطيب "أميرا على الزاب"⁴ وفي موضع آخر "ملك الزاب"⁵ وقال النويري:⁶ "كان ملك جليلا"، وأقدم من وصفه بالأمير من معاصريه هو أبو جعفر أحمد بن الجزار الطيب القيرواني (ت 369 هـ)⁷ في قوله: "وكان أميرا عليها"⁸ أي المسيلة.

وكثرة ورود كلمة "مَلِك" و"مُلْك" في أمداح ابن هانيء لجعفر يعضد هذا الاتجاه، خصوصا إذا أضفنا إلى ذلك الاستقلال المالي الذي تمتع به بلاط المسيلة كما سأشير إليه. وابن هانيء يصور علاقة جعفر بالخليفة على أساس أقرب ما تكون إلى الندية منها إلى الخضوع والتبعية. فهي علاقة مأزرة ومساندة كقوله [طويل]⁹

ويا ملك الزاب الرفيع عماده بقيت لجميع المجد وهو فريق
وكنت يد المنصور منصور هاشم لذا البطش إذ أبدى الفوارس سوق
وَقَوْلُهُ: [كامل]¹⁰

سد الإمام بك الثغور وقيله هزم النبي بقومك الأحزاب

فهو يشبه مؤازرة بني حمدون اليمنيين للخلفاء الفاطميين الهاشميين بنصرة الأنصار أهل يثرب اليمني الأصل للنبي ﷺ الهاشمي؛ فأنصار الأُمس أنصار اليوم، وهذه نصرة طوعية تنم عن حسن السجية لا نصرة التبعية الإلزامية.

كما شبه في صورة بلاغية رائعة بني حمدون بالسيوف اليمنية ذات الشهرة المطبقة، يستعين بها الخلفاء في دحض أعدائهم. في قوله: [متقارب]¹¹

¹ هو محمد بن أبي سعد الأحجادي القيرواني أديب ومؤرخ البلاط الزيري، هاجر إلى الأندلس مع صديقه ابن رشيق المسيلي بعد خراب القيروان على يد العرب الحفالية سنة 447 هـ وتوفي سنة 460 هـ، الدباغ. معالم الإيمان 3/ 194، حسن حسني عبد الوهاب. كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي وبشير الكوش، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1425-2005، 198/1-204، وأنظر عن جهوده النقدية: بشر حمدون. الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص 151-165.

² مسائل الانقباد، ص 24، 26، روجي إدريس. تاريخ الدولة الصنهاجية 2/ 392.

³ وفيات الأعيان 1/ 360.

⁴ أعمال الأعلام (القسم المغربي)، ص 66، أعمال الأعلام (أندلسي)، ص 237.

⁵ أعمال الأعلام (أندلسي)، ص 42.

⁶ نهاية الأرب 24/ 165.

⁷ ابن الجزار القيرواني من خاصة أطباء البلاط الفاطمي له عدة مؤلفات في الطب والتاريخ وغيرها، توفي سنة 369 هـ، أنظر: ابن أبي أصيبعة. طبقات الأطباء 3/ 61، حسن حسني عبد الوهاب. كتاب العمر. 2/ 738-757.

⁸ ابن حبان. المقفيس، ص 36.

⁹ هذه الأبيات لا توجد بطبعة كرم البستان، أنظر: البلاوي. ابن هانيء المغربي الأندلسي، ص 181، البلاوي. بلاط بني حمدون بالمسيلة، ص

55.

¹⁰ ابن هانيء. ديوان، ص 52.

¹¹ ابن هانيء. ديوان، ص 333.

رأيتك سيف بني هاشم وخير السيوف اليماني الخدم.

وقد يكون هذا الوضع تطوراً أخيراً لصيغة إمارة الاستكفاء¹ التي منحت لجعفر بداية، فقد "كان مستكفياً بلا عقد"².

أما عن الاستقلال المالي فقد كانت جباية المسيلة وبقية الزاب كبيرة ومعترية؛ لعظم اتساعها وكثرة خيراتها ورواج التجارة المزدهرة بما في فترات الاستقرار، وكذا وفرة القبائل التي يفرض عليها الخراج، وهذا ما استشفه من عبارة المعز حين قال: "لو سألناه عنه (دخل البلد) وحاسبناه عليه فلا جعل الله لنا رزقا غيره"³، أي أن ما تجنيه أعمال ابن حمدون كفييلة بتوفير احتياجات كل أقاليم الخلافة الفاطمية دون الحاجة إلى غيرها.

وعلى كثرة هذه الجباية لم يكن جعفر بن حمدون يرسل منها إلى مركز الخلافة إلا التزر اليسير، بقدر ما يعبر به عن استمرار الولاء لا غير، خاصة وأن جمع الضرائب كان موكولا إليه أو لمن يُعيّنه هو شخصيا دون الرجوع إلى الخليفة، وهو ما يطرح من جديد سياسة الوشاية والسعاية ضده،⁴ إذ تطاول المتقبلون⁵ على جعفر وأهموه عند الخليفة بأنه يحجب عنه أمواله، ويسامونه على انتزاع صلاحية جمع الضرائب⁶ منه لصالحهم، ومقابل ذلك يدفعون للخليفة سبعون ألف دينار سنويا وأكثر.

أما التقارير التي يرفعها جعفر للسلطة المركزية فتكذب هذه المزاعم، وتفيد أن دخل البلد تافه يسير يكاد لا يفي في صرفه بالشؤون المحلية، وكان يزيد عن التزر اليسير نورا أيسر منه دفعا للشبهة ومحاولة تمويه عن الخليفة وإيهامه بأنه يجتهد في رفع سقف الضرائب المحصلة، لكن الحيلة لم تنطل على المعز ومع ذلك لم يتصرف إزاء هذا الوضع بشكل إيجابي لصالحه، لثلاث أسباب عدها بنفسه أذكرها ممزوجة بقرائني الخاصة للنص:

1- لعلاقة جعفر الحميمة بجوذر وهو منسوب إليه، فلم يرد أن يغير قلب جوذر ويحرج مشاعره لأجله ومكانته في دولته.

2- لمكانة أبيه وسلف خدمته وولائه للخلفاء قبله.

¹ انظر عن إمارة الاستكفاء مقارنة بإمارة الإستلاء: الماوردي. الأحكام السلطانية والولايات الذهبية، تحقيق عماد زكي البارودي، القاهرة: المكتبة التوفيقية، ص 60-68.

² العزيز الجوذري. سيرة الأستاذ جوذر، ص 129، الدشراوي. الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 470-471.

³ العزيز الجوذري. سيرة الأستاذ جوذر، ص 130.

⁴ المصدر نفسه، ص 129.

⁵ المتقبلون طائفة تعمل على جمع الضرائب تضمن للسلطة مقدارا معين متفق عليه من المال مسبقا وتستأثر هي بالباقي، وقد نظر إليهم ابن عبدون نظرة مريبة ووصفهم بشرار خلق الله، أنظر: رسالة في الحسبة. نشرها ليفي بروفسال تحت عنوان: *Le Traité d'Ibn 'Abdūn* ضمن: Journal Asiatique. Paris, 1934, ص 28-29، أنظر أيضا: محمد بن سحنون. كتاب الأجوبة، دراسة وتحقيق حامد العلوي، ط 1، تونس: دار سحنون، 2000، ص 168.

⁶ أنظر: بوبه مجاني. أثر الضرائب في ثوابت ومتغيرات سياسة الخلافة الفاطمية في مرحلتها المغربية، ضمن: دراسات إسماعيلية 115-145، الحبيب الجنحاني. السياسة المالية للدولة الفاطمية في المغرب، ضمن: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 57-87.

3- أن المعز سبق أن أشاد بأعمال جعفر وأحسن الثناء عليه في مجالسه، فلم يرد أن يظهر خلاف ذلك كي لا يُتهم بالتناقض أو الغفلة عما يجري في أقاليمه، وحفاظاً على عقيدة عصمة الإمام من أن تنهار أمام هذه الضربات الباردة والقاسية في آن واحد.

ويمكن أن أضيف سببين آخرين هما:

- 1- أنه خشى ردة فعل جعفر إزاء أي تصرف منه، وهو محاط بقبائل بني برزال وهوارة المعروفة بانتحالها المذهب الخارجي، وكذلك محاط بزنانة التي لم يصف ولاؤها إلا للأمويين، ويستطيع أن يعقد معها حلفاً ضده، واضعاً في اعتباره أن بلاط قرطبة يترصد لذلك ويتحين لمثل هذا الفرص.
- 2- أنه لم يستجب لطلبات المقتبلين حتى لا يذكي الصراع بين رجاله وعماله، ولا يُجرِّعَهُم على بعضهم البعض، الأمر المفضي إلى النزعات المذهبية لقوة الدولة، لذا آثر الحفاظ على وحدة صفه على حساب خزينته، وحتى يظهر بمظهر صاحب القرار الوحيد لا دمية تُحركها أصابع الآخرين. يمثل تلك الوشايات.

أما جوذر الذي أمره المعز أن ينبه جعفر ويذكّره بواجباته إزاء الإمام، فلم يلق أي اعتبار للحميمة التي تربطه وجعفر إذ مُسَّ الإمام في شأن من شؤونه، وطالب صراحة على وجه الوجوب أن يحجر على يده مالياً، وأن توكل مهمة جمع الضرائب واستصفائها إلى من يفي بها للإمام، متبرعاً من أي علاقة تُستغل لسبب يلحق بالإمام، وقد كتب جوذر إلى جعفر كما أمر وأردفه المعز بكتاب ثان، فجاء جواب جعفر كأول.¹

علاقة بني حمدون بصنهاجة وقائدها زيري بن مناد

إن التدخّل الأموي في بلاد المغرب عن طريق قبائل زناتة خاصة بني خزرج، جعل المعز الفاطمي يعقد لغريمهم وعدوهم زيري بن مناد أمير صنهاجة على حرهم وسوغ له ما غلب على أعمالهم،² فأعد لحرهم عدته ولاحقهم أينما أمكنته قوته، ولم يكنف بزنانة حتى تعداها إلى غيرها بما في ذلك القبائل المحيطة بالمسيطة، فرأى جعفر أن ذلك تدخلا في نطاق عمله وتعد على سلطته، فاستحكمت العداوة بينهما³ على ما كانت عليه من قبل.

ومحاولة منه لرأب الصدع استدعى المعز إلى حضرته جعفر وبلكين في مجلس صلح مغلق لم يستدع له وجوه الدولة، باستثناء جوذر الذي اعتذر عن وصوله إليه لوجه العلاقة القائمة بينه وبين جعفر؛ تأميناً لزهة مداورات الجلسة والحكم المتمخض عنها، وحسب الرواية الفاطمية فقد تم الصلح بين الخصمين مع توجيه

¹ العزيز الجوزري. صورة الأسماء جوذر 140-141، الدشراوي. الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 354.

² ابن خلدون. العبر 37/7.

³ ابن حيان. المقتبس، ص 37، مجهول. مفاخر البربر، ص 133، النويري. نهاية الأرب 28/165-166، ابن أبي دبنار. المؤنس، ص 94، وراجع أيضاً: رضا بن النية، صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80-362 هـ)، مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2005-2006، ص 100-102.

العتاب واللوم لجعفر، في حين أمر المعز جوذرا بالضغط على جعفر وتنبهه عن أخطائه وتجاوزاته،¹ لكن ميدانيا لم يتغير شيء، سنرى جعفر يتلأأ عن تقدم أي مساعدة لصنهاجة في حرمان زناتة أعداء الدولة التي ينتسبون إليها معا، إلى حين انجملت الحقيقة على عكس ما يتصور: ففي ربيع الثاني سنة 360 هـ حاض زيري² حربا ضد محمد بن الخير بن خزر وزناتة أفضت إلى قتل سبعة عشر أميرا من أمرائها، أما محمد بن الخير فقد قتل نفسه بسيفه أنفة وشهامة من أن يسقط في يد عدوه، وغنم زيري أتقاله وذخائره ومن حملتها فرسا من عتيق الخيل كان المعز قد أهداها لجعفر، فأهداها هذا الأخير بدوره إلى محمد بن الخير مما يثبت تورطه في مساندته، فأرسلها زيري إلى المعز ومعها كتب (رسائل) وجدها في بيت ابن خزر بخط جعفر يطلع فيها زناتة على عورات زيري وصنهاجة ويحذرهم منه ويعلمهم بوقت تحركاته إليهم، وكان هذا مبلغ آمال زيري وابنه بلكين، وهو الأمر الذي كان حاسما في تحول منظومة العلاقات بين بني حمدون وصنهاجة والسلطة الفاطمية المركزية، وتحول حاسم أيضا بشأن سلطة الأسرة الحمدونية بالمسيلة ومكانتها بالمنطقة.

فكرة استخلاف ابن حمدون على إفريقية والمغرب

يبدو من الوهلة الأولى أن الأمر منطقي حين يفكر المعز لدين الله بعد فتح مصر وعزمه الرحيل إليها تولية جعفر بن علي بن حمدون أميرا على إفريقية والمغرب، لسوابق سلفه في خدمة الدعوة الشيعية منذ بواكير أيامها ثم الدولة الفاطمية حين انتصاهما، ولما أظهره جعفر من خلال الملك وأمة السلطة التي كان يفتقر إليها كثير من زعماء البربر، مع فقدانه العصبية القبلية التي تغري بمنافسة الخليفة، وبالتالي لا يمكن الخروج عن سلطانه فهو دائما في حاجة إليه.

لكن كيف تصور الروايات التاريخية هذا الموضوع البالغ الأهمية؟.

سأعرض هذه الروايات كل على حدا وسلاحظ أنهما متضاربة ومتناقضة، فالرواية الأولى يمثلها أصحاب كتاب "النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة"³ وعنهم نقل المقرئزي،⁴ مفادها أن المعز لما عزم على المسير إلى مصر "أجال فكره فيمن يخلفه بالمغرب فوقع اختياره على أبي أحمد جعفر بن علي [بن حمدون] الأمير فاستدعاه وأسر إليه أنه يريد استخلافه بالمغرب" للاعتبارات التي ذكرتها، لكن جعفر لم يتوان عن الاشتراط لنفسه ما يدعم نفوذه واستقلاله:

- من التدبير والتصرف في شؤون الولاية (أفريقية والمغرب) دون الرجوع إلى الخليفة في مصر.

¹ العزيز الجوذري. سيرة الأستاذ جوذر، ص 100-102، بوروية. الدولة الحمادية، ص 11، الدشراوي. الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 353.

² قائد صنهاجة هنا هو زيري حسب: ابن حيان. المقابس، ص 36، مجهول. مفاخر البربر، ص 132، بن عميرة. دور زناتة، ص 236. أو بلكين بن زيري حسب رواية ابن الجزار الواردة عند ابن حيان في موضع آخر: المقابس، ص 38، ابن الأثير. الكامل 7/ 300، ابن خلدون. العبر 7/ 37، الدشراوي. الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 402-403.

³ اشترك في تأليفه عبد الله بن إبراهيم المحجاري وحمسة آخريين من أهل الأندلس، تحقيق حسين نصار، القاهرة: مطبعة دار الكسب 1970، ص 44-45.

⁴ المقرئزي. اعماظ الحنفا 1/ 99-100، والمواعظ والاعتبار 1/ 352-353.

- ومن توليه بنفسه جباية الخراج وتحصيل الضرائب دون صرف شيء منها إلى المعز في مصر.
 - ثم يكون تقليد من يختاره هو للقضاء.¹
 - وأخيراً أن يترك المعز أحد أبنائه أو إخوته في القصر لإعطاء الشرعية والهبة للوالي المرتقب، وإن كان يهدف في حقيقة الأمر أن يكون وضعه وضع رهينة عنده.
 لكن شروط جعفر هذه خيبت آمال المعز فيه، فرد عليه بداهه بقوله: "يا جعفر عزلتني من ملكي وأردت أن تجعل لي شريكاً في أمري واستبددت بالأموال والأعمال دوني، قم فقد أخطأت وما أصبت رشداً".
 ثم استدعى بلكين بن زيري وفوض إليه الأمر، مع إدارته أنه سيصير آخراً إلى ما طلبه جعفر أولاً.
 وقريباً من هذا يذهب ابن خلدون² في إشارة مختصرة وغامضة دون الحديث عن لقاء جعفر بالمعز ولا تفاوضهما في ذلك، كل ما في الأمر أنه استدعاه ليعرض عليه الفكرة، لكن جعفر لم يلب دعوته لاسترايته منه.
 في حين يرى ابن الخطيب³ أن جعفر كان يطمح إلى خلافة المعز على كل بلاد المغرب، لكن طموحه خاب.

وإننا نجد تفاصيل جديدة ينفرد بها النويري⁴ فيورد أن المعز أمر ببناء أو بالأحرى قيأت دار ابن رباح المعروفة في القيروان بدار الإمارة، فشاع لدى العامة أن المعز يهيأها لتزول جعفر حين يستخلفه على إفريقية، ويستخلف خصمه زيري على المغرب، لكن طموح جعفر الزائد عن الحد جعله يرفض هذه القسمة؛ يريد بذلك الإنفراد بالملك، ولما استدعاه المعز لم يأت به ولم يمتنع.

أما ابن أبي دينار⁵ فيرى أنه قد شاع خبر استخلاف المعز لبلكين بن زيري على جميع بلاد إفريقية فعظم ذلك على جعفر.

وفي اتجاه معاكس لتناقض هذه الروايات نجد من يشير إلى استخلاف بلكين بن زيري حين رحل المعز إلى مصر مباشرة متجاوزين تفاصيل وظروف ذلك من أمثال: ابن بسام، وابن ظافر الأزدي،⁶ وابن الأثير،⁷ وابن عذاري،⁸ وابن تغري بردي،⁹ في إشارة مبطننة بعدم قبولهم لصحة ماتداوله غيرهم.

¹ إن القيام على العدالة (القضاء) حق تحتكره السلطة الشرعية (الدولة المستقلة)، واستقلاله له دلالة سياسية واضحة. أنظر عن هذه الفكرة: رضوان السيد. الجماعة والمجتمع والدولة، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1997، ص 31، هشام جمبط. تأسيس الغرب الإسلامي، ط1، بيروت: دار الطليعة، 2004، ص 119.

² ابن خلدون. العبر 6/ 204-207، 37/7.

³ أعمال الأعلام (القسم المغربي)، ص 67.

⁴ نهاية الأرب 24/ 165، وينقل عنه إسماعيل العربي في: عواصم بني زيري، ص 26.

⁵ المؤنس، ص 94.

⁶ أخبار الدول المقطعة، تحقيق عصام هزيمة وآخرين، ط1، الأردن: مؤسسة حماد- دار الكندي، 1999، 34/1، وقد أخطأ في تحديد سنة خروج المعز إلى مصر فعملها سنة 366هـ.

⁷ الكامل 7/ 304 ونحى منحاه أبو الفداء وابن الوردي، أنظر: المختصر 1/ 452، قصة المختصر 1/ 287.

⁸ البيان المغرب 1/ 228.

⁹ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (ج 4) تحقيق إبراهيم علي طرخان، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص 72.

مناقشة روايات فكرة استخلاف جعفر بن حمدون على إفريقية والمغرب

إن الحجاري الأندلسي وأصحابه وكذا المقرئ يوردون قصة الاستخلاف وبعدها مباشرة يتكلمون عن رحيل المعز إلى القاهرة، أي أنه استدعى جعفر إلى المنصورة سنة 361 هـ،¹ وابن خلدون يوردها بعد الحديث عن مداخلة جعفر لمحمد بن الخير المغراوي ووقوف المعز على خيانتة له، مما يعطينا فرصة للشك أكثر في مصداقية هذه الرواية، فمن غير المعقول أن تسند مهمة خلافة إقليم مهم يعتبر منشأ ومهد الدولة لمن ثبت تعاطيه مع زناثة ذات الولاء الأموي المعادي لهم، كما أن جعفر لا يمكن أن يظهر هذه الجرأة والغباء في آن واحد حتى يشترط على المعز ما يقوض سلطته.

وقد لا تعدوا قصة الاستخلاف هذه مجرد إشاعة أثارها العوام لمعرفتهم السابقة. بمكانة جعفر وأسرته لدى الخلفاء المتعاقبين ولدى كبير دولتهم جوذر، لكنهم لم يكونوا على اطلاع بالمسار الجديد لهذه العلاقة التي أخذت منحرجا لصالح القطيعة بين الطرفين.

كما لا يستبعد أن يكون المعز هو الذي أطلق هذه الإشاعات عن طريق رجاله، ليبين رضاه على جعفر، إعمالا للحيلة في الوصول إليه، سيما وأن ابن خلدون يعود مرة أخرى للحديث عن استخلاف المعز لبلكين بعد أن أورد خروج جعفر عن طاعته والدعوة للحكم المستنصر في قرطبة وقتله لزيري، إلى أن قال: "ولما أخذ المعز في الرحلة إلى المشرق وصرف اهتمامه إلى ما يتخلف وراء ظهره من الممالك والعمالات ونظر فيمن يوليه أمر إفريقية والمغرب ممن له الغناء والإضطلاع، وبه الوثوق من صدق التشيع ورسوخ القدم في دراية الدولة، فعثر على بلكين"²، كما أن الروايات التي يوردها النويري وابن الخطيب وابن أبي دينا لا تتفق على تسمية منافس جعفر هل هو زيري بن مناد أم ابنه بلكين، وهذا الاضطراب وقع بسبب عدم وجود تاريخ دقيق لبداية تفكير المعز فيمن ينوب عنه في حكم بلاد المغرب.

إن الدشراوي وانطلاقا من هذا يشكك في الصيغة المريبة للرواية الأولى، ويقترح: أن أحد المؤرخين الرسميين للسلالة الصنهاجية يكون "قد نمت تلك الرواية لإبراز جدارة بلكين (أو والده زيري)، وبالتالي الخط من قيمة خصمه الذي أظهره في مظهر الأمير المتعجرف والطموح"³. فليس أمامنا إذا إلا قبول رواية ابن حيان الأقرب إلى الصواب لقربه النسبي من الفترة الزمنية التي يؤرخ لها، سيما إذا أدركنا أنه نقل ذلك عن الوراق وابن الجزار المعاصرين للأحداث، وللتسلسل المنطقي الذي اتسمت به كتابته تلك كما سأبين في الفقرة الآتية.

¹ عن المقرئ نقل بعض الباحثين أمثال: روجي وبوروية وحسن خصري وطقوش وعبد المجيد ديب هذه الرواية دون مناقشة أنظر على التوالي، الدولة الصنهاجية 1/ 77-78، الدولة الحمادية، ص 13-14، علاقات الفاطميين في مصر بتول المغرب، ص 29-30، تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 214.

L'Ifriqiya a l'époque Ziride, dans: Histoire de la Tunisie, Le Moyen Age, S, T, D, Tunis. p. 256- 258.

² ابن خلدون. العبر 6/ 205.

³ الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 400-401.

القطيعة بين الأسرة الحمدونية والبيت الفاطمي الحاكم

بعد ثورة محمد بن الخير ووصول خير مداخلة جعفر له إلى المعز "بلغ منه أشد مبلغ وتكلم في جعفر أسوأ الكلام وتهدده بالقتل"، فسمى هذا في حينه إلى جعفر عن طريق عيون وجواسيسه داخل بلاط المعز، وكتب المعز كتاب عزل جعفر عن المسيلة والزباب وأمره بالقول إليه بجميع أهله وولده وماله، وفي فصل من هذا الكتاب تعزية له في محمد بن الخير الزناتي حليفه، في إشارة صريحة لوقوف المعز على فضائح جعفر، ومما جاء في الكتاب: "أعظم الله أجرك في خليلك فقد أجاد قتالنا على الفرس الذي كنا حملناك عليه وآثرناك به على أنفسنا".¹

فاستراب جعفر وأيقن أنه إذا ما وصل إليه فالقتل جزاءه، فامتنع عن إجابته، ثم أرسل إليه ثانية فرحا الصقلي فلما بقي بين فرح وجعفر بالمسيلة مقدار مرحلة خرج منها هذا الأخير وأظهر المسير إلى المعز، ثم مال بجميع عسكره وولده وأهله وعبيده وأمواله وذخائره، وجميع ما قوي على الاستقلال به في جمادى سنة 360 هـ، إلا أن وصل مضارب بني خزر أمراء زناتة "فاشتملوا عليه وألقوا بيده زمام أمرهم، وقام فيهم بسدعوة الحكم المستنصر وكانوا أقدم إجابة"² وخلع طاعة المعز، واستطاع الطرفان في أقل من شهرين أن يوحداه صفوفهما ويجمعا جيشا ألقوا بقيادته بجعفر، فخرج بهم في رمضان للقاء زيوي بن مناد، وكان قد بادر إليهم قبل استفحالهم،³ حتى صاروا إلى ملوية⁴ أين جرت بينهم حرب عظيمة انجلى عن مقتل زيوي وخلق من حماة رجاله حين كبا به فرسه فتعاورته سيوف زناتة، وذلك يوم الخميس العاشر من رمضان، واحتزوا رأسه وأرسلوه إلى الحكم المستنصر في قرطبة.⁵

بقي جعفر مقيما مع مغراوة مدة أوفد خلالها كاتبه علي البغدادي إلى الحكم المستنصر "ملقيا بنفسه إليه معتصما بدعوته راغبا في تقبل فيئته، وإنزاله منزلة من اعترف لحقه واهتدى بهدية"، ثم أرفده بأخيه يحيى وسراة بني خزر يوم 7 شوال فأكرمهم الحكم المستنصر وخلع عليهم خلعا جليلا.⁶

ولما علمت زناتة أن بلكين يطالبهم بدم أبيه أضرمت الغدر بجعفر وندمت على فعلها، وقد أحسن جعفر هذا ورأى أنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ولا عن زناتة ضد بلكين لفقدانهم الكثير من أبطالهم فأعمل الخيلة،⁷ أي الفرار من الجميع نحو الأندلس في مركب أعده لنفسه لحمل أهله وعبيده وذخائره فتم له ذلك.¹

¹ ابن حيان. المقتبس، ص 35-36.

² ابن حيان. المقتبس، ص 36، النويري. نهاية الأرب 24/165، ابن خلدون. العبر 6/205.

³ في المقتبس، ص 36: أن جعفر وزناتة هم الذين خرجوا للقاء زيوي. لكن موقع المعركة يرجح ما أثبتته في المن من مبادرة زيوي إليهم.

⁴ أو تيهرت حسب ابن عذارى. البيان المغرب 2/242، أو تلمسان حسب ابن بسام. اللخيرة 1/1/461.

⁵ ابن حيان. المقتبس، ص 36-37، ابن طاهر. أخبار الدول النقطعة 1/33 (وفيه "جعفر بن الأندلسية الزناتي" ويرى أن المعز خرج بنفسه مع زيوي للقتال)، ابن الأثير. الكامل 7/307-308، النويري. نهاية الأرب 24/166، ابن عذارى. البيان المغرب 2/243، مجهول.

مفاخر اليربوع، ص 133-134، ابن خلدون. العبر 4/108، إسماعيل العربي. دولة بني زيوي، ص 14، بن عميرة. دور زناتة، ص 236.

⁶ أنظر تفاصيل ذلك: ابن حيان. المقتبس، ص 38.

⁷ أنظر شكل هذه الخيلة فيما ينفرد بها ابن الأثير. الكامل 7/308.

استقبال بني حمدون في الأندلس

معلومات مستفيضة بمدنا بها عيسى بن أحمد الرازي عن دخول بني حمدون الأندلس والاستقبال الباهر الذي حظو به في بلاط قرطبة.

ففي يوم الأربعاء 7 شوال 360 هـ ورد الخبر على الحكم بوصول يحيى بن حمدون إلى الساحل القبلي بمرسى محملة من عمل بجانة، ورجال بني خزر بمرسى المرية، وكان وصولهم قبل ذلك بيومين أي يوم الاثنين 5 شوال، فمكثوا هناك إلى غاية السبت 16 شوال أين وافاهم علي البغدادي كاتب جعفر يحمل لهم من بلاط قرطبة بشائر الرضى والقبول بقدمهم، وتأخر دخولهم على الحكم المستنصر لأسباب مجهولة إلى يوم السبت 23 شوال، حيث أقبل عليهم صاحب المخزن لتلقيهم بيجانة ومعه 68 فرسا لركوبهم بسروج نفيسة وغيرها من الدواب لحمل أثقالهم التي بلغت 150 وخيم وقباب بجميع فرشها وأثاثها ..

وفي يوم الاثنين 3 ذي القعدة أو ما الحكم المستنصر إلى قواده وعماله ورجاله يستقدمهم إلى حضرته، لمشاهدة دخول يحيى بن علي بن حمدون ورجالات بني خزر القادمين برأس زيري ورؤوس أعيان صنهاجة.² ثم لحق جعفر بهم برفقة أهله ورجاله وأمواله يوم الأربعاء 5 ذي القعدة ونزل بمرسى بزليانة ليصل خبره إلى سمع الخليفة الحكم المستنصر يوم الجمعة 7 ذي القعدة، فأظهر هذا الأخير الاستعداد والتأهب من جديد لاستقباله وتلقيه، فأرسل صاحب السكة والموارث³ وقاضي إشبيلية محمد بن أبي عامر لتلقيه "ومعه أربعة من عتاق الخيل وبغل أشهب منتقاة من دواب الركاب بسروج الخلافة ولجمها هبة لجعفر ومائتا زاملة لاحتمال أنقاله"، وغيرها من القباب والأخبية والفرش والأمتعة كعدد ما أخرج ليحيى ورجالات بني خزر مسن قبل، "إبلاغاً في تكريم أهله وأصحابه، وأردفت يوم الخميس الثالث من خروج أبي عامر بمكانه عدة أخرى من الظهور هوادجها الفاخرة لصيانة عيال جعفر في طريقه إلى قرطبة"، فوصل إليه أبو عامر بمكانه يوم الأحد 14 ذي القعدة فرحب به وأسلمه هدايا الخليفة المذكورة، ووجد عامل كورة رية ابن سبيل قد سبقه إليه مكرماً وفادته، ومكث الجميع ليلة الاثنين والثلاثاء فساروا معرجين على مالقة وغيرها وفي قرية أفوه ماره Aquo Mare وصل غلام من الخليفة إلى أبي عامر وجعفر ومعه ستة أفراس من عراب الخيل بسروج الخلافة هدية لجعفر، وفي مدينة قبرة التقوا بصاحب المخزول الموجه لاستقبال يحيى ورجالات بني خزر، حيث التأم شمل الأخوين بعد غياب دام قرابة الشهرين، وأكملوا سيرهم حتى نزلوا فحص السرادق شرقي قرطبة يوم الاثنين 24 ذي القعدة، فأنزلت عيال جعفر في دار ابن البياتي وعيال يحيى في دار ابن يعيش داخل قرطبة.

¹ النويري. نهاية الأرب 24/166، ابن خلدون. العبر 4/108، ابن عذاري. البيان المغرب 2/243، في حين يرى ابن الخطيب أن جعفر غادر إلى الأندلس بعد جولة أخرى مع بلكين الذي هزم زناتة شر هزيمة، أنظر: أعمال الأعلام (القسم المغربي)، ص 67، وحسب ابن الأبار في: الحلة السراء 1/306 أن فرار جعفر سابق لعبور أخيه يحيى إلى الأندلس.

² ابن حيان. المقتبس، ص 39-41، ابن عذاري. البيان المغرب 2/243، عبد العزيز فيلالي. العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ص 195.

³ عن صاحب السكة والموارث أنظر: ابن خلدون. المقدمة، ص 219-220، ليفي برونسفال. تاريخ اسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية، ترجمة علي عبد الرؤوف اليميني وآخرين، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2002، ص 141.

وأمر الخليفة غداة يوم الثلاثاء 25 ذي القعدة صاحب الشرطة العليا¹ "بالنهوض فيمن استركب معه من طبقات الجنود والوفود والحرس في التعبئة بالعدة الكاملة إلى مكان اضطراب جعفر ويحيى ومن معهما من بني خزر بمحلة فحص السرادق، وإدخالهم قرطبة والتقدم بهم عنها إلى المنية² المنسوبة إلى ابن عبد العزيز، يعرفهم بتبوتهم أيها حتى يتهيأ وصولهم إليها" فأحكم صاحب الشرطة العمل في ذلك، فلما استوى له ترتيبهم اندفع بهم إلى قصر الزهراء، وقد غص بهم الفضاء في استعراض عسكري عدته 17 ألف راجل ناهيك عن الفرسان أسهب في وصفه ووصف ما أعد لهم في قصر الزهراء.³

لما استقر جعفر ويحيى وبنو خزر في البهو الأوسط من مجالس دار الجند بقصر الزهراء، خرج الفتيان والكتاب إليهم "بالإذن في دخولهم فتقدموا وتقدم بهم محمد بن أبي عامر وأصحابه المخرجون أولاً للمحيي بهم، فنهضوا داخلين إلى أن صاروا في السطح العلي ثم استنهضوا إلى المجلس الذي قعد فيه الخليفة، فلما أخطوا إلى بابه فقبلوا البساط مرة بعد أخرى، ثم تقدم إلى السرير وناولهم الخليفة يده فتقدمهم جعفر بالتقدم والتسليم ثم تلاه يحيى أخوه، ثم قدم بنو خزر الأسن فالأسن ففضوا عليهم من ذلك وأمرهم الخليفة بالعودة إكراما لهم". ليتجاذب الخليفة بعد ذلك معهم أطراف الحديث مشافهة، بدأ جعفر سائلا مستفسرا كما فعل مع يحيى ورجالات بني خزر، ليفضي في النهاية إلى قبولهم ومكافئتهم، وفي هذا المجلس أظهر جعفر أدبا جما ولطافة فائقة أهرت الحضور، واسترعت المؤرخين فسجوها، ثم انصرفوا إلى الدور التي أعدت لتروهم وذلك يوم السبت 28 ذي القعدة، وإننا نجد أصداء ذلك في الأعمال الأدبية لشعراء الأندلس... كمحمد بن شخصين⁴ في قصيدة طويلها أولها.

بأمن إقبال وأسعد طائر
تباشر محتوم من الأمر واقع
توانت بملك من مقوض
للملك إلى مهدى مروان راجع
وكذلك يوسف بن هارون الرمادي⁵ إذ يقول:
ولقت عجب لفعله المستنصر
إذا كشف الجيش المهام لجعفر

¹ تعد الشرطة في الأندلس إحدى الدوائر القضائية، حيث تحال على صاحب الشرطة القضايا التي عجز القاضي عن حلها لعدم وجود نص شرعي صريح أو لعدم استكمال أدلة الإثبات، وهي ثلاث مراتب: عليا ووسطى وصغرى تمارس حسب طبقات المجتمع ومستوياته، أنظر: محمد عبد الوهاب خلاف. الشرطة في الأندلس، مجلة أوراق، العدد 3، 1980، ص 72-83، ويرى حسين مؤنس أنها في الأصل خطة أمنية يكلف صاحبها بحماية دواخل المدينة، أنظر: فجر الأندلس، ص 464، وقارن بوظائف صاحب الشرطة وصفاته في المشرق الإسلامي: ابن أبي الربيع. سلوك المالك في تدبير الممالك. تحقيق عارف أحمد عبد الغاني، دمشق: دار كنان، ص 114-116.

² المنية حديقة واسعة بدبعة الجمال رائعة المنظر اهتم بها الأندلسيون كثيرا، أنظر: محمد حمام. المنيات بالأندلس، مجلة المورخ العربي، عدد 17، ص 185، جيمس ديكين. الحديقة الأندلسية: دراسة أولية في مدلولاتها الرمزية. ضمن: الحاضرة العربية الإسلامية في الأندلس، 1411/2-1438.

³ ابن حيان. المقتبس، ص 41-51، ابن عذارى. البيان المغرب 2/ 244، فيلاي. العلاقات السياسية بين الدولة الأموية، ص 195.

⁴ من شعراء قرطبة المشهورين توفي سنة 400 هـ، أنظر ترجمته: الحميدي. جذوة المقتبس 95، الضي. بغية الملتبس 111، الثعالي. بتممة الدهر 2/ 22.

⁵ المتوفى سنة 403 هـ، أنظر: إحسان عباس. الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة. بيروت: دار الثقافة، ص 205-222.

ولو أن من أهواه يُبرز وجهه قامت لواحظه مقام العسكر

وليس غريبا أن تستكثر الشعراء في وصف هذا اليوم وقد قال الرازي: هو يوم "من أحد الأيام العقم بقرطبة في اكتمال حسنه وجلاله وقدره، خلد حديثه في أهلها قاضيا من عجب الجلالة"¹ في حين أنه من أسوأ أيام المعز، نغص فيه فرحة الانتصارات في مصر والشام، وجمعت له فيه نكبتان: نكبة خروج بني حمدون عن طاعته، ومقتل حليفه زيري بن مناد، بالإضافة إلى تشفي المروانية بالأندلس والمالكية في القيروان وعموم إفريقية والمغرب.

كما أنه يوم له ما بعده إذ أضعف الأمويون عدوهم التقليدي وتمكنوا من فرض رقابة إقليمية على بلاد المغرب من خلال هؤلاء الأنصار الجدد بني حمدون² ورجالهم من البربر، لذلك عملت سلطة قرطبة على إرضائهم بالأموال والأعطيات، فحين استقر جعفر ويحيى بداريهما واطمأنا فيها عهد الخليفة بإجراء ألف دينار تعطى دراهم فضة² لكل منهما شهريا و 70 مد من القمح لنفقتهما، ولبي خزر مثل ذلك.³

بيت بني حمدون في الأندلس: أسماء جديدة ونشاط غامض

يحتفظ لنا عيسى الرازي بأسماء عائلة بني حمدون الذين خرجوا من المسيلة إلى الأندلس وهم كالأتي: أما أبناء جعفر فهم عمار وعلي وحسن ومن البنات ميمونة وسكينة وتامة وفاطمة وهند، وأشار إلى ابن آحر لم يذكر اسمه كان شارك في فتح مصر مع القائد جوهر، ويظهر أنه اعتقل هناك خوفا من لحاقه بأبيه، وقد أغفل الرازي الابن الشهير أي إبراهيم الذي مدحه ابن هانيء، أما بنات علي بن حمدون أخوات جعفر فهن عزيزة وابنها حمدون وكانت قد تزوجت أبا القاسم الفسائي وهو رجل سني، مما يدل على أن البيت الحمدوني لم يكن كله متشيعا، أو على الأقل أن تشيعه كان سياسيا لا عقديا، ومنهن أيضا زينب وزوجها محمد بن مهنا (البجائي أو البجاني؟)⁴، والجدير بالذكر أنه أغفل ذكر أبناء يحيى بن علي بن حمدون ربما بسبب الموقف المعادي للبلاد الأموي الذي سيختاره فيما بعد حسب ما أشير إليه في موضعه، وهو موقف لا يرضى عنه بالتأكيد مؤرخ رسمي مثل عيسى الرازي لبلاد قرطبة.

إننا لا نجد أي نشاط أو دور معتبر لبني حمدون في الأندلس خلال الستين الأولين لقدمهما (360-362 هـ)، وأول دور سيكون ليحيى حين كلفه الخليفة الحكم في ذي القعدة سنة 362 هـ بتشكيل قوة من

¹ ابن حيان. المقتبس، ص 74-57، ابن عداري. البيان المغرب 2/244، فيلاي. العلاقات السياسية، ص 196.

² Maria J. Viguera Molins: « Relaciones entre et Magreb Y Al-Andalus en et siglo XI. Actas Del II coloquio Hispano- Marrqui De ciencias Historicas », dans : Historia, ciencia y sociedad, Granada, 6-10 noviembre De 1989. p 359.

² يستخدم هذا النوع في الأندلس لتسديد المبالغ المالية الضخمة؛ إذ كانت الدنانير الذهبية أقل تداولاً في الأندلس من الدراهم الفضية، والدينار الدرهم يساوي 12 درهماً، أنظر: بروفنسال. تاريخ اسبانيا الإسلامية، ص 228، والدرهم الفضي وزن 2,97 غ، والدينار وزن 4,333 غ، أنظر قاتر هنتس. المكامل والموازن الإسلامية وما يعادها في النظام المغربي، ترجمة كامل الصلبي، ط1، منشورات الجامعة الأردنية، ص 10-29، وقارن بما أورده علي جمعة في: المكامل والموازن الشرعية، ط1، القاهرة: دار الرسالة، 1424-2002، ص 14.

³ ابن حيان. المقتبس، ص 51-53، ابن عداري. البيان المغرب 2/244، فيلاي. العلاقات السياسية، ص 196.

⁴ ابن حيان. المقتبس، ص 53.

رجاله خاصة بني برزال،¹ بالإضافة إلى الجند الأندلسي بعد أن أعقد عليه المال والخلع وأمره بالتأهب للخروج إلى وزيره القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن محاربة الحسن بن قنون² الإدريسي بالمغرب الأقصى الذي خلع طاعتهم،³ لكننا لا نعلم بالضبط دور يحيى بن علي بن حمدون في هذه الأحداث نتيجة للتعتيم المفروض من قبل مصادرنا، وهذا راجع إلى محدودية أثر خروج ابن قنون عن طاعة الأمويين وإلى محدودية الحركة العسكرية وسرعتها، لذا لم يهتم المؤرخون بتفاصيلها.

محنة بني حمدون وحياة السجون

لم يدم صفو الود طويلا بين الخليفة الحكم المستنصر والأخوين جعفر ويحيى، ففي 19 شوال 263 هـ تمت صفقة تجارية بينهما، إذ باع جعفر عبده للخليفة لما لم يستطع أن يقوم بشؤونهم ورأى أنهم عالة عليه، وذلك بمحض الفقهاء والعدول ووكيل الخليفة صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح، لكن جعفرًا خالف هذا العقد بشكل لا نعرفه، وأظهر استخفافا بوكيل الخليفة صاحب الخيل والحشم، الأمر الذي فسر أيضا على أنه حين إلى أولياء نعمته الأول بني عميد الفاطميين، فأمر الخليفة رجاله بإهاتهما وسجنهما وسجن معهما بعض أبنائهما ورجلها في المطبق بمدينة الزهراء، وفي اليوم الثاني لسجنهم نزل الوزير الكاتب صاحب المدينة بقرطبة وصاحب المدينة⁴ بالزهراء وصاحب الخيل سجن الزهراء، وأخرجوا يحيى فعددوا عليه ما كان من هفوات أخيه جعفر وزلاته ووجوه مساعدته له، فاعترف لهم بذلك، فأطلقوا ابنه وأعادوه هو إلى السجن دون قيد، وحسب ابن الأبار⁵ فإن يحيى أبدى شهامة وتجلدا في هذه المحنة شهرها، فكان يردُّ على الروانين حين يقولون له هذا جزاء من كفر نعمة الخليفة الحكم، فيرد: "بل جزاء من آثر بني مروان على ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ"، هذه العبارة ستقلها عيون الفاطميين إلى المعز سريعا "فأرضته وعطفته على آل علي ابن الأندلسي"، أي بني حمدون الذين بقوا في إفريقية أو المغرب ولم يخرجوا عن ولائهم للفاطميين.

¹ كان لهذه القبيلة البربرية التي انطلقت من المغرب الأوسط أدوار بارزة في الحياة العسكرية بالأندلس توحدت في النهاية بتأسيس أسرة حاكمة في منطقة قرمونة أنظر: ابن الخطيب. أعمال الأعلام، ص 236-238. سليمان داود بن يوسف. حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، الجزائر: مطبعة أبو داود، 1993، ص 140-148، فراد أرزقي. القوى المغربية في الأندلس، ص 14، بروفنسال. تاريخ اسبانيا الإسلامية، صفحات متفرقة، حمدي عبد النعم محمد حسين. دراسات في التاريخ الأندلسي- دولة بني برزال في قرمونة، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1990، (100 ص).

² ويرد باسم جنون كذلك أنظر: أبو عبد الله محمد بن مزوار الشرفاء. شجرة من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. مخطوط جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، رقم 1/8/219. الورقة 8

³ ابن حيان. المقفص، ص 130، نصر الله سعدون. دولة الأدارسة في المغرب والأندلس (القسم الثاني) بيروت: دار النهضة العربية، 1996، ص 40-42، إسماعيل العربي. دولة الأدارسة، ص 183-185، السنوسي. الدرر السنية، ص 86-87.

⁴ يرجح بروفنسال أن صاحب المدينة كانت له ولاية على الإدارة والشرطة في المدينة معا رغم أنها كانت في عصر الخلافة منصهرتين (صاحب المدينة وصاحب الشرطة)، أنظر: تاريخ اسبانيا الإسلامية، ص 144-145، وقارن بما ورد عند مؤنس. فجر الأندلس، ص 463-464، وراجع شروط صاحب المدينة في: ابن عبدون. رسالة في الحبسة، ص 13.

⁵ المحلة السراء 306/1.

مكث جعفر ويحيى في سجنهما بقية سنة 363 وصدرا من سنة 364 هـ، فلما كان يوم السبت 24 رجب أمرهم الخليفة الحكم المستنصر، فأخرجوا بعد أن زينهما وخلع عليهما الأموال والركب الفارحة، ووصلا إليه بقصره في قرطبة فأوسعهم عفوا وصفح عن زلتها وصرفهما إلى دورهما.

وكان قد سعى في الشفاعة لهما صاحب الرد¹ عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطي النفزي²؛ تلتطف للخليفة بانه هشام وهو إذ ذاك طفل.³

أيا ما كان الأمر فإن مكانة الأخوين الحمدونيين عادت كما كانت عليه بالنسبة للحكم المستنصر إذ نجدهم يشهدون ترتيب الجلوس بمحضرتة في عيد الأضحى لسنة 364 هـ كما جرت العادة به سلفا جبرا لخاطرهم، وحاجة منهم إلى الرجال سدا لعورات بلاد المغرب⁴.

بنو حمدون وولاية المغرب

انزوى الحكم المستنصر عن مباشرة الحكم بنفسه بعد علة أصابته، فقوض أمور السياسة وتسيير شؤون الخلافة وبسط نفوذ بلاطه على العدو المغربية لحاجبه جعفر بن عثمان المصحفي⁵، وفكرا معا فسيمن يتولى شؤون هذه الولاية التابعة لسلطة قرطبة، فوقع اختارهما على جعفر وأخيه يحيى، فعقد لهما الحاجب المصحفي سنة 365 هـ عليها، وخلع عليهما وعلى زعماء القبائل الذين يصلون إليهما في العدو المغربية، فنهضا إليها ووصلا قلعة الحجر - المعروفة أيضا بقلعة النسر - الحصن المنيع للأدارة من قبل.

وهذا الإجراء كان مزدوج الغرض بالنسبة للسلطة المركزية في قرطبة فهو لـ:

- ضبط بلاد المغرب لصالح المروانية بالأندلس ضد نفوذ الزيريين عمال الفاطميين، وضد الحركات المناوئة التي تمثلها القبائل والمذاهب المعارضة.

¹ سمي هكذا لأنه كانت تُرد إليه بعض المسائل والأحكام المشكوك فيها التي يتفادها القضاة، أنظر: النباهي. المرقبة العليسا، ص 5، بروفنسال. تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 136، 139، عبد السلام همال. قضاة الجماعة بقرطبة الإسلامية من قيام الإمارة إلى نهاية الخلافة الأموية (138-422 هـ)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 14-1415 هـ/ -94-1995 م، ص 123-124.

² ليست لدينا معلومات وافية عن عبد الملك هذا أما أبوه منفر (ت 355 هـ) فهو صاحب شهرة عربية إذ كان قاضيا للقضاة منذ زمن الناصر لدين الله (300-355 هـ) وكان قضيها أدبيا وعطيا مفوها، منهم بالتشيع، وربما كان ابنه عبد الملك كذلك، الأمر الذي جعله يسمى في خلاص بني حمدون، ولا تنفي وجود علاقة سابقة بينهم. أنظر: ابن حيان. المقتبس 5/488، عبد الباقي اليماني. إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق عبد الحميد دياب، ط 1، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1406-1986، ص 355، علي مكي. التشيع في الأندلس، ص 22-24، حسين مونس. شوخ العصر في الأندلس، ط 2، القاهرة: دار الرشد، 1417-1997، ص 79-81، محمد الشريف قاهر. منفر بن سعيد البلوطي الأندلسي، مجلة الدراسات الإسلامية، عدد 1، جوان 2002، عدد 2، ديسمبر 2002، ص 128-139.

³ ابن حيان. المقتبس، ص 171-174، ابن خلدون. العبر 4/109.

⁴ ابن حيان. المقتبس، ص 230، ابن خلدون. العبر 4/109.

⁵ أنظر عنه الدراسة التي أعدها: حسين يوسف خربوش: الحاجب المصحفي حياته وآثاره الأدبية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية 1919-1999، ص 7-97.

- وكذلك لإبعاد بني حمدون عن البلاط وسياساته خوفا من منافستهما للحاجب نفسه، سيما وأن لهما أتباع ذوي قوة وشكيمة من البربر.

- وللزج بهم إلى بؤرة مضطربة مجهولة المصير والمسار الذي ستؤول إليه.

والمهم في ذلك أن جعفر استطاع أن يضبط عمله الجديد "أحسن ضبط" ورجعت إليه زناته في ستة آلاف فارس، ودخل في طاعته يدو بن يعلى بن محمد صاحب بني يفرن، والأخوين زيري ومقاتل أبنا عطية المغراويين وغيرهم من بني البوري وبني مرين وبني مرة، كما استطاعت رجاله أن تدفع بيلكين بن زيري الصنهاجي إلى التراجع نحو الجهة الشرقية للمغرب.¹

لقد استمر هذا الوضع إلى وفاة الحكم المستنصر سنة 366 هـ وولي بعده ابنه هشام المؤيد، ومحمد بن أبي عامر من وراءه يدبر أمر المملكة بعد أن حدّ من نفوذ الحاجب المصحفي، واحتاج إلى من يسانده فاستدعى جعفر بن علي بن حمدون من المغرب، لكنه تلكأ في إجابة دعوته خوفا من بطشه، إلى أن فسد ما بينه وبين أخيه يحيى حين اقتطع هذا الأخير لنفسه مدينة البصرة،² وما والاها من الأعمال وذهب بأكثر الجند والرجال، وهو تصرف يسمه بعض المؤرخين بالتهور.

أما جعفر فقد دخل في حرب ودون سابقة مع برغواطة³ بمن بقي معه من الجند فكانت النكبة عليه، قتل فيها أكثر رجاله ونجى بنفسه في شرذمة قليلة، لم يجد بعدها بدا من قبول عرض ابن أبي عامر فكاتبه يستأذنه في الرجوع إلى الأندلس فأذن له،⁴ متخليا بذلك لأخيه يحيى عن ولاية المغرب.

لما زحف بيلكين بن زيري زحفته المشهورة سنة 369 هـ فرت أمامه أمراء زناته ويحيى بن علي بن حمدون صاحب البصرة إلى أن وصلوا سبتة، فاستصبرخوا باين أبي عامر فخرج من قرطبة بنفسه إلى الجزيرة الخضراء بعساكره وحين أشرف بيلكين على موقعهم هنالك هاله عددهم وعدتهم وأيقن أن لا طاقة له بهم فرجع عنهم.⁵

¹ مجهول. مفاخر البربر، ص 143-144، ابن عذارى. البيان المغرب 2/ 249، ابن خلدون. العبر 4/ 109، مجهول. ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس موليانا، مدريد: 1983، ص 170، عبد المجيد نعمي. تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، ص 403.
² البصرة إحدى مدن الإدارة بالمغرب الأقصى بين أصيلا والعرش على ثلاث مراحل من فاس، بيت أواسط القرن 3هـ، أنظر: ابن حوقل. صورة الأرض، ص 81، البكري. المسالك 2/ 293، مجهول. الاستبصار، ص 189، سعلون. دولة الإدارة في المغرب والأندلس (القسمة الثاني)، ص 50-52.

³ برغواطة إحدى قبائل البربر بالمغرب الأقصى أنشأت إمارة بقيادة صالح بن طريف في إقليم تانسنا، لها تعاليم مخالفة لشريعة الإسلام، جذورها التاريخية تعود إلى سنة 127 كحركة صفرية خارجية، قضى عليها المرابطون سنة 451 واحتضت فنانيا بعد فتح الموحدون لمراكش سنة 541هـ. أنظر عنها: رجب محمد عبد الحليم. دولة بني صالح في تانسنا بالمغرب الأقصى، القاهرة: دار الثقافة، (ص 144)، محمود إسماعيل. حقيقة المسألة البرغواطية، ضمن: مغربيات، ص 15-56، هاشم العلوي القاسمي. مجتمع المغرب الأقصى 2/ 166-173 سحر السيد عبد العزيز سالم. من جديد حول برغواطية هراطقة المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1993، (ص 104)،

Mohammed Talbi. « Hérésie, Acculturation et Nationalisme des Berbères Baraghwa », dans: *Etudes d'Histoire Ifriqiyenne*. Tunis, 1982. p. 81-104.

⁴ مجهول. مفاخر البربر، ص 144-145، ابن خلدون. العبر 4/ 109، روجي إدريس. الدولة الصنهاجية 1/ 90.

⁵ مجهول. مفاخر البربر، ص 147-148، ابن عذارى. البيان المغرب 1/ 109، 6/ 206-207، ابن أبي دينار. المؤنس، ص 97، بسن عمرة. دور زناته، ص 250-253، روجي إدريس. الدولة الصنهاجية 1/ 91-92، فيلال. العلاقات السياسية، ص 230، ابن تاويست.

وبرجوع بلكين إلى إفريقية عاد جعفر وجاز البحر نحو قرطبة من جديد، أما يجي فلا نعلم مصيره وقد خربت مدينة (البصرة) ودمرت أثناء حركة بلكين إليها، لكن الأكيد أنه رجع إلى الأندلس بعد هذه الكائنة مباشرة أو بعد مدة.

إن الوظيفة المرتقبة لـ جعفر في قرطبة ستندرج ضمن المؤامرات السياسية والمكائد التي اشتهرت بها بلاطات الأندلس عموماً والمنصور بن أبي عامر خصوصاً، فقد استمال الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ضد الصقالبة الفتيان الذين كان لهم نفوذ كبير في قصر الخلافة، فلما فرغ منهم استمال غالب صاحب الثغر الأعلى أحد أرباب السوف فقتل به الحاجب المصحفي،¹ وكان غالباً هذا صهراً للمنصور ويستطيل عليه بأسباب القروسية ويأينه بمعاني الشجاعة ويعلوه من هذه الجهة التي لم يتقدم للمنصور بها معرفة، فلم يجد من يرميه به أفضل من جعفر بن علي بن حمدون "شدة وبأس ورابطة جأش ونباهة ذكر وجلالة قدر فجد في استجلابه"، وأنزله قصر العقاب واستوزره "فعظم شأنه وأحله محل الأخ في الثقة وقدمه على الكفاءة، فوجد عنده ما أحبه وفوق ما قدره"، خاصة وأن رجاله من بربر بني برزال وزناته ممن تسعر بهم الحروب عبر تاريخهم الطويل، فما زال بعسكره بالإحسان والتوسعة والاستكثار حتى صار البربر أكثر أجناد الأندلس.²

وإدناء جعفر بهذا الشكل جعل القائد غالب يتفطن إلى الغرض من ذلك وعلم أنه سيف المنصور الذي به يحاربه، فنبذ من حينه طاعة صهرة المنصور وفسد ما بينهما، ووقعت بينهما معارك وفتن كان القلب في جلها بلخند البربر باسم المنصور،³ إلى أن كان يوم الخميس 2 محرم 371 هـ وبالقرب من مدينة سالم في موضع يسمى أنتيسة حيث التقى الجمعان والقائد غالب توارزه جند النصارى، وقد عقد المنصور لـ جعفر ومعه البربر على اليمين، فاقتتلوا إلى يوم السبت وكان تركيز جيش القائد غالب في قتاله على جعفر وميمته، لعلمه بأنه مادة الجيش ومفتاح النصر الحقيقي وانهم يهزمون ذاتة في القلب، وبالفعل استطاع أن يربكهم

تاريخ سبتة، ص 26، وأشير هنا إلى أن ابن عناري أورد خبر مفاده أن ابن أبي عامر قتل جعفر سنة 367 هـ وأهدى رأسه إلى بلكين وهو معاصر لسبتة إرضاء له وإغراء برفع الحصار عن المدينة، وهي رواية لا تتفق مع سير الأحداث، فحصار بلكين لسبتة كان سنة 369 هـ حسب صاحب "المقاصح"، أما ابن خلدون فمطينا ثلاث تواريخ مختلفة: سنة 367 هـ (6/206) وسنة 368 (6/279) وسنة 369 (4/109)، وفي الكامل 7/340 أما سنة 365 هـ وهو بعيد. والمرجح أنها سنة 369 هـ، ويذكر ابن عناري التاريخ الصحيح لذلك في موضع آخر.

¹ ابن الخطيب. أعمال الأعلام، ص 60-62، مجهول. ذكر بلاد الأندلس، ص 178-180، رينهرت دوزي. المسلمون في الأندلس 2/ 104-96.

² كانت للمنصور بن أبي عامر سياسة واضحة في استمالة البربر وتجنيدهم للحياة العسكرية: أنظر: فراد أرزقي. القوى المغربية في الأندلس، ص 20-21، العبادي. في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، 1978، ص 234-241.

Mari J. *Relaciones enter el Maghreb y Al-Andalus el siglo XI*. op. cit. p. 358-360.

³ ابن عناري. البيان المغرب 2/278-279، ابن الخطيب. أعمال الأعلام، ص 62-63، عنان. دولة الإسلام في الأندلس 2/490.

لكن أن له أن يكسرهم، لتنجلي المعركة في النهاية بعد جولات حامية الوطيس على مقتل غالب¹ وانكسار جنده والنصارى المآزرين له، وبذلك دى صفو الجو للمنصور.²

لما فرغ المنصور من شأن خصمه العنيد القائد غالب عزم على تصفية جعفر خشية من رفعة شأنه وتطاوله عليه ومناقسته له، فتواطأ على قتله مع أبي الأحوص معن بن عبد العزيز التحيبي أحد الفرسان القلائل في حيلة دنيئة، حيث نادمه ليلة من ليالي شهر شعبان على معاقرة الخمر وأغرى به السقاة فسقوه حتى ثمل، وفي طريق عودته إلى داره وتحت جناح الظلام ترصدته رجال أبا الأحوص فقتلوه³ وحزوا رأسه، لكن المنصور - متظاهرا - تبرا من فعلتهم، بل أبعد من ذلك أظهر حزنا وبكاء عليه، رغم ذلك الحيلة لم تنطل على العامة بقرطبة التي وجهت شكوكها إلى المنصور ذاته، كما لم تنطل على يحيى بن علي بن حمدون الذي استيقن من ظلوع المنصور في قتل أخيه وصرح في وجهه بذلك، الأمر الذي أغضب المنصور فأزعجه عن الأندلس مع سابق رغبة منه في ذلك، فخرج يحيى إلى سجلماسة ومنها سلك طريق الصحراء خوفا من بلكين ولحق بمصر أين استقبله الخليفة الفاطمي العزيز بالله بن المعز (365-386)، فاعترف له بالذنب والزلة واستدر عطفه فقبل منه بسبب الكلمة التي قالها قبل تسعة سنوات من هذا التاريخ أيام سجنه بالأندلس، وقد علم بلكين بعبور يحيى بالقرب من ملكه وما ظفر به فاغتاض لذلك، وكان قد عثر على ولد له ربما يسمى عامر تخلف عنه بالمغرب فقبض عليه وقتله.⁴

الأيام الأخيرة لبني حمدون بمصر

إلى هنا سنتقضى صلة أسرة بني حمدون بأرض الأندلس -أصلهم- وبأرض المغرب -منشأهم- مع بقاء خيط رفيع يمثله يحيى، انطلاقا من القاهرة المعزية عبر صلات مع بني زيري وبني حزر في الجهة الشرقية لإفريقية، بعد غياب عن أعين المؤرخين وأقلامهم دام عشرين سنة.

ففي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله⁵ (396-411) الذي حاول إزالة سلطان بني زيري على طرابلس، منتهزا فرصة تحرك بني حزر هناك بزعامة لفل بن سعيد، فأرسل أحد فتياه الصقالبة المسمى يأنس في نهاية سنة 389 هـ وتسلم أعمالها في العالم الموالي، لكن الأمير الزيري باديس بن بلكين لم يرض بهذا

¹ حسب ابن حزم فإن غالب مات وهو على ظهر دابته دون أن يصاب بشيء، وأن جعفر كان يعرف بالزاني. أنظر: نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ص 81.

² ابن عذاري. البيان المغرب 2/279، ابن الخطيب. أعمال الأعلام، ص 63-65، فراد أرزقي. القوى المغربية في الأندلس، ص 19، دوزي. المسلمون في الأندلس 2/115-116.

³ ابن الأبار. الحلة السواء 1/306-308، ابن الخطيب. أعمال الأعلام، ص 65، ابن خلدون. العبر 4/109، ابن خلكان. وفيات الأعيان 1/360، (وفيه أن مقتل جعفر كان سنة 364 وهو وهم منه، وهذا التاريخ يمثل في الحقيقة سنة خروجه من السجن)، الصفدي. الوالي بالوفيات 11/90، المقرئ. أزهار الرياض 5/115، دوزي. المسلمون في الأندلس 2/117.

⁴ ابن الأبار. الحلة السواء 1/308، روجي إدريس. الدولة الصنهاجية 1/94.

⁵ تنظر شخصية الحاكم بأمر الله من أكبر الشخصيات المثيرة للجدل في التاريخ الإسلامي، أنظر عنه: محمد عبد الله عنان. الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1983. (424 ص)

التصرف الذي يحد من سلطانه ونفوذه في المنطقة فسير جيشا لمحاربة الوالي الجديد الصقلي، والتقت به جيوشه خارج طرابلس فقتلته في المعركة وفر أصحابه إلى مدينة طرابلس متحصنين بها، وأرسلوا إلى الحاكم بأمر الله في القاهرة يستمدونه لفك الحصار الذي طوقهم به الجيش الزيري، فاختر لهم عدوهم التليد يحيى بن علي ابن حمدون، إذ عقد له على أعمال طرابلس وقابس وسيره في جيش بعدته وأطلق يده على مال برقة وذلك سنة 392 هـ، لكنه ما إن وصل إلى برقة وجد خزائنها خاوية الأمر الذي أساءه وأثر في جيشه وأربكه، فسار إلى فلفل بن سعيد وكان قد استولى على طرابلس فأقام معه فيها واستوطنها بقية سنة 392 هـ، ثم سار معاً إلى مدينة فايس في السنة الموالية في عسكر كثيف وحاصرها، ودون معرفة السبب تخلوا عن حصارها وعادا إلى طرابلس، ذلك دون شك يعود إلى قلة ما بأيديهما من المال والجرايات الوضع الذي لا يتماشى ولا يتناسب مع التحركات العسكرية للجماهير التي تخوض معارك الاستزاق أولاً و آخراً، سيما إذا علمنا أن أغلب الجيش كان مكوناً من عرب بني قرة الهلالين، مما حدى يحيى في النهاية إلى التخلي عن منصبه كوالي للمنطقة والعودة إلى القاهرة، كما أنه لم يكن على وفاق تام مع حليفه فلفل بن سعيد وجيشه من المغراويين الذين كثيرا ما كانوا ينهبون معسكره.

عودة يحيى لم ترض الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله فكاد أن يقتله، لولا أنه استطاع أن يدافع عن نفسه ويقنعه باستحاله وعدم جدوى بقائه والحالة تلك، وأن يرى ساحة من كل اتمام له بالتقصير أو سوء التدبير فعفى عنه.¹

هذه الأحداث هي آخر ما سجلته الكتابة التاريخية عن يحيى، إذ لسنا نعلم مصيره ودوره بعد هذا، هل بقي مخلصاً في تشييعه للفاطميين؟ هل بقي في مصر حتى وفاته؟ هل استطاع عقبه - إن وجد - أن يرسم طريقاً للمجد كسلفه في هذه البيئة الجديدة؟ أم أنهم لم يُشربوا المجد مجدداً في نفوسهم ورضوا بحياة الخاملين المغمورين؟ هذه الأسئلة الجوهرية لا يمكن الإجابة عنها في ظل غياب كثير من المصادر الأصلية، ولسكوت الكثير الآخر عن مثل هذه الأحداث والمواضيع الجزئية.

بجمل القول: أن أسرة ابن حمدون استقرت بالمغرب الأوسط قرابة 80 سنة، و 13 سنة في الأندلس، و 12 سنة بين الأندلس والمغرب الأقصى، وبقي يحيى أكثر من 20 سنة في مصر إلى غاية وفاته، حيث يُختم به دور هذه الأسرة بشكل غير نهائي كما سألنا لاحقاً، أما المدينة التي ارتبطت باسمهم - المسيلة - فهي الأخرى لسنا نستمر طويلاً كما صورها ابن هانيء في أشعاره، وكما وصفتها كتب الجغرافيا العائدة إلى فترة القرنين 4 و 5 هـ؛ كوفها مدينة مزدهرة بقصورها ومزدانة بمجالسها و.. ، فقد خربت سنة 405 هـ في الصراع الدائر بين

¹ ابن الأثير. الكامل 7 / 505، ابن خلدون. العبر 6 / 613 - 614، 7 / 55 - 59، روجي إدريس. الدولة الصنهاجية 1 / 137 - 138، حسن خضري. علاقات الفاطميين في مصر بتول المغرب، ص 48 - 49، سعد زغلول عبد الحميد. تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، دار المعارف، 1990، 3 / 318 - 319، عنان. الحاكم بأمر الله، ص 179.

حماد صاحب القلعة ونصر الدولة صاحب المهديّة،¹ ليستمر حلها في التقهقر ويبلغ غايته في نهاية العصر الوسيط.²

وتكون بذلك نموذج واضح لنظرية ابن خلدون القائل: أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها.³

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

¹ ابن عساري. البيان المغرب 1 / 268.

² الوزان. وصف إفريقيا 1 / 52.

³ المقدمة، ص 356-358.

بيت بني ذكوان الأموي (401-403 هـ)

يعد بيت بني ذكوان أول نموذج للبيوتات الأندلسية المشتغلة بالعلم والمتخططة بالقضاء، والتي تمّاجر إلى المغرب الأوسط قصرا في بداية القرن الخامس.

أصل بني ذكوان

اختلف المؤرخون في أصل بني ذكوان؛ فابن حيان¹ يرى أنهم من الربر الذين استوطنوا في تاريخ غير معروف فحص البلوط² من أحواز قرطبة، وكانوا يتولون بني أمية أيام دولتهم بالأندلس، وبانقطاعها انتموا إلى قيس عيلان،³ وإنما نجد بالمشرق في صدر الإسلام أحد موالى بني أمية يسمى ذكوان أو طهمان فعن عبد الرزاق - صاحب "المصنف" في الحديث- عن عمر بن حوشب عن اسماعيل بن أمية عن جده قال: "كان لنا غلام يقال له ذكوان أو طهمان فعتق بعضه.."⁴
أما ابن الفرضي⁵ فيذكر أن أصلهم من جيان ثم نزحوا إلى قرطبة واستقروا بها.

دور بني ذكوان في الأندلس: والتخطط بالقطاع

فأول من برز من هذه الأسرة هو عبد الله وينتسب إلى هرثمة بن ذكوان بن عبد الله بن عبدوس بن ذكوان⁶ اشتغل بالعلم، وبرع في الأدب واللغة والأيام حافظا لها، واتصف بخلال حميدة من مروءة وافرقة وعقل راجح ورأي حصيف، وهي الصفات التي أهلته لتولي خطة الرد في قرطبة بعد عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطي النفزي، بطلب منه زمن المنصور بن أبي عامر الذي عمل على توطيد علاقته به وبرجال دولته، وبقي متوليا

¹ الرواية الأصلية ضائعة احتفظ لنا ببعض شذراتها القاضي عياض في: ترتيب المدارك 662/4

Helena de Felipe. « *Banū Dakwān* » dans : *Identidad y Onomástica de los Beréberses de Al-Andalus*, op. cit. p. 108.

² فحص البلوط *Les pedroches* ويسمى فحص البطروج أو البطروش، يبعد عن قرطبة بـ 40 ميلا وهو فحص كثير العمارة شامخ الحصانة يكثر في سهوله وجباله شجر البلوط، ويعتني أهله به يتخذونه قوتا أوقات الشدة والمجاعة، إليه ينسب قاضي القضاة الذائع الصيت منذر بن سعيد البلوطي، أنظر: الإدريسي. نزهة المشتاق 580/2، الرشاطي. القياس الأنوار، ص 37-44، ابن الخراط. اختصار القياس الأنوار، ص 117،

Helena de Felipe. *Identidad y Onomástica de los Beréberses de Al-Andalus*, op. cit. p. 295-300.

³ ويقال أيضا قيس عيلان، من مضر عرب الحجاز العدنانية، أنظر: ابن سلام. النسب، ص 244-249، ابن حزم. الجمهرة، ص 232، السمعاني. الأنساب، 577/4، ابن الأثير. اللباب، 69/3، الحازمي. عجالة المحدثي، ص 149.

⁴ عبد الرزاق الصنعاني. مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط2، بيروت: المكتب الإسلامي، 1403، 9/148، ابن عبد البر. الاستيعاب في أسماء الأصحاب، بيروت، دار الكتاب العربي، 471/1، ابن حجر. الإصابة، بيروت، دار الكتاب العربي، 471/1.

⁵ تاريخ العلماء والرواة، ص 194 ونقل عنه القاضي عياض، ترتيب المدارك 662/4.

⁶ من بين حصون الأندلس العديدة حصن يعرف بذكوان Coin يقع غرب مالقة أسسه عبد الرحمن الناصر (300-350 هـ). فهل كان موقعه خطة لهذه الأسرة فسمي باسمهم؟ إن صح ذلك فأصل الأسرة إذا من غرب مالقة، أنظر عن هذا الحصن، ابن عذاري. البيان المغرب 189/2، ابن الخطيب. معارج الاختيار، ص 128 والإحالة 227.

لخطته إلى أن استشهد في إحدى الصوائف من شهر رمضان سنة 370 هـ،¹ مخلفا ثلاثة أبناء هم: أبو العباس أحمد، وأبو حاتم محمد، وأبو حفص عمر.

نشأ ابنه أبو العباس أحمد "أكمل رجالات الأندلس وأتمهم عقلا"، وخلف أباه في خطة الرد بعد أن كان من أصحاب الشورى² الذين اختارهم قاضي الجماعة³ محمد بن يقي بن زرب،⁴ كما كان قاضيا لفحص البلوط، وبقي لمدة 22 سنة جامعا بين خطة الرد والشورى إلى أن عزل المنصور بن أبي عامر قاضي الجماعة محمد بن أبي يحيى زكريا بن برطال⁵ سنة 392 هـ، وولى مكانه بعهد الخليفة هشام المؤيد أحمد بن ذكران يوم الأربعاء 20 محرم من نفس السنة وتسمى بـ "قاضي القضاة"، وأضيفت له خطة الصلاة والخطبة⁶ سنتين بعد ذلك في 29 جمادى الأولى 394 هـ — مكان إبراهيم بن الشرقي لفالج أصابه، لكنه لم يستمر طويلا في منصبه فبعد ستة أشهر وأربعة أيام من توليه صرف عن الخطبتين معا وذلك يوم 3 ذي الحجة 394 هـ،⁷ رغم أنه كان وثيق الصلة بالمنصور بن أبي عامر المستبد بالحكم، والذي كثيرا ما كان يشاوره في تدبير الملك وأحله من نفسه فوق رتبة الخواص والوزراء، ولم يكن ليتخلف عن الخروج معه في غزوة من غزواته، كثير الدخول عليه يكاد لا يفارقه، حتى جعل له بيتا خاصا داخل القصر الملكي.⁸

وهو الوضع الذي سمح لمؤنس أن يصفه بالخروج عن سمع الفقهاء ورجال العلم، ويتحول إلى رجل سياسة وعمادا من أعمدة النظام العامري، الأكثر من ذلك أن يتهمه اعتمادا على موقف ابن حيان وابن حزم منه

¹ ابن الفرضي. تاريخ العلماء والرواة، ص 194-195، القاضي عياض. ترتيب المدارك 662/4.

Helena de Felipe. *Banū Dakwān*, op. cit. p.109.

² يرى بروفنسال أن أصحاب الشورى يستعين بهم القاضي، كما كانوا يمارسون الفتيا، وهم من صغار الفقهاء مرشحين للقضاء، ويرى مؤنس عكس ذلك، أي أنهم من كبار الفقهاء يسمى رئيسهم باسم رئيس الفتيا أو رئيس المفتين أو رئيس البلد أو شيخ المسلمين وهم من مشاوري السلطان، أنظر: تاريخ اسبانيا الإسلامية، ص 128، شوخ العصر، ط2، القاهرة: دار الرشد، 1417-1997، ص 29-34. أنظر كذلك: ظافر القاسمي. نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ط3، بيروت: دار الفانوس، 1408-1987، 332/2 وما بعدها.

³ قاضي الجماعة، قاضي الجند، قاضي العسكر، قاضي القضاة: مصطلح لوظيفة واحدة حسب بروفنسال. تاريخ اسبانيا الإسلامية، ص 122-125، وحسب مؤنس فإن قاضي الجند أصبح ومنذ عهد عبد الرحمن الداخل يعرف باسم قاضي الجماعة، فجر الأندلس، ص 645. أنظر كذلك: القاسمي. نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي: 242/2-245، عبد السلام هال. قضاء الجماعة بقرطبة، ص 23-27.

⁴ من مشاهير فقهاء وقضاة قرطبة تولى خطة قاضي الجماعة سنة 367 كان عالما بالفقه والمسائل والعربية والحساب توفي سنة 381 هـ وصلى عليه أحمد بن ذكوان صاحب الرد، ابن الفرضي. تاريخ العلماء والرواة، ص 639، الحميدي. جنوة المقتبس، ص 104، النباهي. المرقبة العليا، ص 77.

⁵ الأصل أنه قدم قاضيا للجماعة بقرطبة بعد ابن زرب وهو خال المنصور بن أبي عامر، النباهي. المرقبة العليا، ص 84.

⁶ أنظر عنها: ابن خلدون. المقدمة، ص 213، القاسمي. نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي 297/2.

⁷ ابن بشكوال. الفصلة 37/1، القاضي عياض. ترتيب المدارك 662/4، هال. قضاء الجماعة بقرطبة الإسلامية، ص 162-163.

Helena de Felipe. *Banū Dakwān*, op. cit. p.110.

⁸ القاضي عياض. ترتيب المدارك 663/4.

بتضييعه للبقية الباقية من جاه العلماء والفقهاء في الأندلس طوال سنوات الحكم العامري، حين جعل من الفقهاء أداة من أدوات السلطان.¹

أيا ما كان الأمر فإننا لا نعرف الدوافع الحقيقية التي سمحت للمنصور بعزله رغم أنه أدار الخطتين بمجدارة، فقد وصفه ابن حيان² ذاته بقوله: "كان صارما في حكمه محمود الطريقة عاملا بمذهب المالكية ذا عناف ونزاهة وبراعة من الرية، وبعدهمة وفرط ذكاء، فلقد كان في هذا الباب في مرتبة الخليفة لم يقدر أحد أن ينقصها منه قلامة ظفر، مع اختلاف الدول وحلول الفتن، إلى أن فارق الحياة وهو أعلى الناس محلا...".
وقريبا من هذا وصفه النباهي³، ورغم أنه ازداد حظوة لدى المظفر بن أبي عامر الذي ولي بعد وفاة هذا الأخير سنة 392 هـ.⁴

لقد ذكر القاضي عياض سببا وجيها لهذا العزل - لكنه ليس الدافع الحقيقي - وهو أن وزير الدولة عيسى بن سعيد⁵ عقد صفقة مع المسمى ابن سليم السفية بشأن شراء ضيعة، وهو ما لم يوافق عليه القاضي أحمد ابن ذكوان لاختلال الشروط الصحيحة لذلك، كما هو معروف عند الفقهاء،⁶ ففسخ عقدهما ورد الضيعة على صاحبها السفية فاستحكمت العداوة بينهما، فأخذ الوزير يتحين الفرصة للإيقاع بالقاضي، وتزامن ذلك مع فساد ما بين المظفر بن أبي عامر وطرفة خادمه الغالب على أمره، والذي كان لأبي ذكوان عنده أطف مزلّة، فسعى الوزير بوجه هذه العلاقة إلى المظفر وأقم الخادم طرفة والقاضي ابن ذكوان بالقدح في الملك، فقتل الخادم وعزل القاضي وتعدى ذلك إلى إخوته فعزلوا.⁷

وتولى المنصبين الشاغرين (قضاء الجماعة، والصلاة والخطبة) عبد الرحمن بن فطيس⁸ لاستقامته واستقلاله، ومع ذلك لم يستطع أن يحاكي ابن ذكوان ولا أن يمثله لتبريز ابن ذكوان في ذلك، "فحن القضاء إليه وأسف الناس على فقده"، وحسن رأي عبد الملك المظفر في بني ذكوان جملة فرد أحمد إلى خطته بعد 9 أشهر من عزله إلزاما له ورغبة فيه، فازداد رفعة وسموا عند المظفر وعند الناس سيما بعدما ظهر خداع الوزير وقده في الملك،

¹ مؤنس. شوخ العصر، ص 86-87، وهو رأي تنقصه الدقة ويحتاج إلى مراجعة بناء على رأي ابن حيان الذي اعتمده مؤنس ووظفه بطريقة ارتجالية.

² نقلها عنه القاضي عياض في: ترتيب المدارك 4/ 662.

³ المراقبة العليا، ص 74-75.

⁴ ذكر الذهبي أن وفاته كانت سنة 393 هـ، أنظر: تاريخ الإسلام 27/ 291، وهو خلاف ما في المصادر الأندلسية والمغربية.

⁵ كان قبل توليه الوزارة أول كاتب كتب للمنصور، ثم ولي الوزارة في عهد ابنه المظفر، ابن بسام. الدهجورة 1/ 1/ 123-131، ابن الخطيب. أعمال الإعلام، ص 95.

⁶ أنظر أحكام السفية وتصرفاته المالية: القاضي عياض وولده محمد. مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1997، ص 137-140، عبد الحق بن دوس اليفرنج. كتاب الأحكام، تحقيق أحمد الماشي العربي الفحصي، ط 1، الدار البيضاء: دار الرشد، 1420-2000، ص 145، 162.

⁷ القاضي عياض. ترتيب المدارك 4/ 663-664، النباهي. المراقبة العليا، ص 86.

⁸ أبو المطرف عبد الرحمن بن عيسى بن فطيس ولي خطة المظالم على عهد المنصور، كان شديدا في أحكامه له سطوة على الظالمين شارك في الوزارة والرأي ثم ولي خطة قاضي القضاة، النباهي. المراقبة العليا، ص 87-88.

فقتل بسعاية أبي حاتم محمد بن ذكوان،¹ وخلا مكانه للقاضي أحمد بن ذكوان "فلم يجر شيء في أمر المملكة إلا عن مشورته".

وبعد أن ولي عبد الرحمن بن المنصور إثر وفاة أخيه في صفر 399 هـ اتخذ القاضي أحمد وزيرا بالإضافة إلى ما كان يتولاه من قبل، ولم تجتمع الوزارة والقضاء في الأندلس لأحد قبله لرفعة منزلته، حتى إذا انقضت دولة العامرية على يد الرواني محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر سنة 399 هـ الذي تسمى -من ألقاب الخلافة- بالمهدي،² وكان أحقد الناس على بني ذكوان لمكانتهم وخدمتهم الدولة العامرية، ولأحكام تقمها على أحمد بن ذكوان أمضاها عليه في قضاؤه، ومع ذلك لم يستطع إذابته بسوء لجلالته في قلوب الخاصة والعامية، فمكث متحينا لفرصة أسنح أو عثرة من القاضي يهتبلها، لكن لما لم يجد سبيلا إلى ذلك أسفر عن وجه العداء فأزال عن أحمد بن ذكوان اسم قاضي القضاة واقتصر على اسم قاضي الجماعة.³

أما أخوه أبو حاتم محمد فقد ولد سنة 344 هـ، كان بصيرا بالفقه كثير الأحاديث مشتغلا بالعلم تلقيا وتلقينا، وولي هو الآخر الشورى ثم قضاء الأحكام زمن الدولة العامرية في عدة مدن، إلى أن رقاها عبد الملك المظفر إلى خطة المظالم⁴ كما كان نائبا لأخيه أحمد يخلفه في قضاء الجماعة بقرطبة مدة مغيبة في المغازي، وصفه ابن حيان قائلا: "كان أبو حاتم أطلق من أخيه لسانا، وله صنع في حسن الإيراد والإقناع"، ووصفه أبو الخيار الشنتريني بعد ذكر أخيه فقال: "وأما أبو حاتم فتلوه في الصنعة ودونه في العلم يختص بأدب وسط وعلم بالخير وطيب بالمجلس، وله أوفر حظ من الدربة بالحكومة"⁵، وهو من ممدوحى الشاعر الأندلسي الشهير المكثي أبو عبد الله البصير⁶ والمعروف بالحناط (ت- 438 هـ).⁷

أما أخوهما الثالث أبو حفص عمر فقد سلك طريقا آخر غير طريق القضاء، إذ ولي الوزارة أيام الدولة العامرية ولما ظهر عليهم ابن عبد الجبار الملقب بالمهدي حطه عن مكائنه وصرفه عن الوزارة، فخرج عن طاعته إلى خصمه سليمان المستعين بالله بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر،⁸ سنة 400 هـ فولاه هذا

¹ ابن بسام. الذخيرة 126/1/1.

² أنظر عن دولته: ابن الخطيب. أعمال الإعلام، ص 109-144.

³ القاضي عياض. توثيق المدارك 664/4، مجهول. ذكر بلاد الأندلس، ص 199.

Helena de Felip. *Banū Dakwān*, op. cit. p.111.

⁴ كان أمراء بني أمية يقومون بدور صاحب المظالم ثم تخلوا عن ذلك بعد تأسيس الخلافة وعهدوا بالخطبة إلى فقهاء من مجلس الشورى بدلا منهم، وكان في سلطة صاحب المظالم إصدار الأحكام طبقا لإجراءات استثنائية تختلف عن إجراءات القضاء العادي، أنظر: ابن خلدون. المقدمة، ص 216، الماوردي. الأحكام السلطانية، 146 وما بعدها، بروفنسال. تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 137-139، القاسمي. نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي 553/2 وما بعدها، وفارن محمود الخالدي. ديوان المظالم في دولة الخلافة الراشدة، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد 23، ماي 2007، ص 11-48.

⁵ ابن بشكوال. الصلة 477/2، القاضي عياض. توثيق المدارك 667/4، ابن مخلوف. شجرة النور، ص 111.

Helena de Felipe. *Banū Dakwān*, op. cit. p.112.

⁶ ترجمته: الحميدي. جذوة المقتبس، ص 64، الضبي. بغية الملتبس، ص 66.

⁷ ابن بسام. الذخيرة 126/1/1.

⁸ أنظر عن دولته وأيامه: ابن الخطيب. أعمال الإعلام، ص 114-115، 119-128، ابن بسام. الذخيرة 126/1/1 - 35 - 48.

الأخير وزارته وقاتل معه خصمه ابن عبد الجبار، حتى إذا استنجد ابن عبد الجبار بملوك النصارى فنزلوا قرطبة وأنزمت سليمان المستعين بالله وفر البربر الذين كانوا معه إلى الساحل ومعهم الوزير أبو حفص عمر بن ذكوان، وقد هجاه الوزير الشاعر أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد القرطبي¹ بسبب هذه المداخلة للمستعين، إذ كان ولاء الشاعر لابن عبد الجبار.²

محنة بني ذكوان ونفيهم إلى وهران

في أيام الفتنة القرطبية التي سماها المؤرخون تجاوزا الفتنة البربرية³ قتل واضح الفتي الحاجب ولي نعمته ابن عبد الجبار المهدي، وأجلس مكانه هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمؤيد⁴ للمرة الثانية على عرش الخلافة بعد خلعه سابقا، والمستعين بالله مع البربر يرومون دخول قرطبة، فهاج الناس بأحوازها وعائوا فسادا بلغ مداه.

وكان القاضي أحمد بن ذكوان مع عقلاء أهل الأندلس يتزعون إلى الصلح مع سليمان المستعين بالله ومن معه من البربر، أما الحاجب واضح الفتي المتغلب على أمر الخليفة فما كان يرى إلا حرهم، فنصح ابن ذكوان المؤيد هشام وحذره من حاجبه واضح ومن آرائه المتهورة، وبلغت هذه النصيحة مسمع واضح فأعمل الحيلة في الإيقاع به، فما كان إلا أن اتهمه بالميل إلى البربر وأميرهم المستعين بالله، وخوف المؤيد منه إذ الناس تبع له، وكلمته مسموعة لذا العامة والخاصة وبإمكانه أن يرجح كفة المستعين بالله ويصرف الجمهور عن المؤيد، وإزاء هذه المحن التي تعيشها قرطبة ونفسية المؤيد المنهارة، قبل هذا الأخير التهم الملقاة عليه فقرر نفي بني ذكوان عن الأندلس وإحازتهم إلى بر العدو.

ففي جمادى الأولى⁵ سنة 401 هـ وكل بهم من يوصلهم إلى المرية في حالة شديدة من التعنيف وسوء الحال وقلة ذات اليد، إذ سلبوا في الطريق ما كان لهم من مال ومتاع وأجيزوا حينهم في البحر فترلوا وهران.⁶

¹ ينحدر أبو عامر من أسرة شهيرة جدا في تاريخ الأندلس تعرف بابني شهيد، ترجمته: ابن خاقان. مطمح الأنفس 81، الثعالي. بتيمة الدهر 1/382، ابن بسام. الذخيرة 191/1/1 وما بعدها، إحسان عباس. تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة 270-302، حدوش العياشي. من هانات الترجمة والتاريخ الأدبيين لآل شهيد القرطبيين، ضمن: التراث المغربي والأندلسي: التوثيق والقراءة، تطوان: منشورات جامعة الملك السعدي، 1991. ص 519-533.

² ابن بسام. الذخيرة 1/1/222.

³ أنظر عنها: فيلاي. العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس، ص 353-363، عبد القادر بوباية. البربر في الأندلس وموقفهم من قصة القرن الخامس الهجري 300-422 هـ/912-1031، رسالة دوكتوراه، جامعة وهران: 1422-2001/1423-2002، صفحات متعددة.

⁴ وصفه ابن حزم بأنه من أحق الخلفاء والأمراء في التاريخ الإسلامي: نقط العروس، ص 71-72.

⁵ إستنادا إلى ما أورده ابن بشكوال في الصلة 38/1 إذ عزل أحمد بن ذكوان عن منصب القضاء يوم الخميس 5 جمادى الأولى ونفيه جاء مباشرة وبسرعة بعد هذا العزل، وقد لاقوا هيجان البحر وأهواله، فحمادى الأولى يوافق ما بين شهري نوفمبر وديسمبر أي شهور بداية فصل الشتاء.

⁶ القاضي عياض. ترتيب المدارك 665/4-666، النباهي. المرقبة العليا، ص 86-87، بلقاسم درارحة. العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس، مجلة بحوث، عدد 02-1994. ص 169.

الدور الغامض لبني ذكوان في وهران

إن فترة وجود بني ذكوان في وهران هي الأهم بالنسبة لموضوع الدراسة، لكنها فترة لم تنلها أقلام المؤرخين ولا سودت بها صفائح كتبهم لعدة أسباب.

1- أول هذه الأسباب أن فترة وجودهم في وهران لم تطل، فقد استمرت من جمادى الأولى سنة 401 هـ إلى ما قبل شوال من سنة 403 هـ، أي سنتين ونصف على الأكثر.

2- نفهم كان إلى منطقة مهمشة نسبيا في ذلك الحين، فهي ليست حاضرة مستبحرة العمران حتى يوليها المؤرخون اهتماما، باستثناء مرساها وتجارها البحرية بشكل أفضل نسبيا.

3- أنها لم تكن كرسي مملكة أو عاصمة حكم مركزي تضمن استقطاب الكفاءات الوافدة على عادة الأمراء والملوك.

4- المدرسة التاريخية للمغرب الأوسط لم تتبلور في هذه الفترة، فنحن مدينون بهذه اللع المحتشمة وهذه الشذرات المتناثرة للمدرسة التاريخية الأندلسية ابتداء.

5- أقدم ما ألف عن وهران كان على يد الوراق القيرواني الأندلسي (تـ 363 هـ) وهو سابق للفترة المدروسة هنا، ليس هذا وحسب بل هو في حكم المفقود، وهو المعنون بـ "أخبار تيهرت ووهران و...¹" فالدارس لتاريخ المغرب الأوسط بشكل خاص وللقرن الأول منه بشكل أخص إن تحت وطأة الإهمال التاريخي لرجالاته وكذا وطأة الزمن الذي أفقد ما أمكن كتابته.

بناءً على هذا الوضع سأحاول تركيب صورة استقرائية إسقاطية تراجعية، لفهم وتوضيح دور هذه الأسرة النبية في هذا الموضوع الجديد.

لقد وُصف أبو العباس أحمد بن ذكوان منهما خصوصا بسعة العلم والفقہ والهمة العالية وسابقة القدم في الجهاد والسعي في حوائج الناس،² فهذه الصفات لا يتصف بها إلا من كان جلدا لا توهنه المحن ولا تخلده إلى الدعة والراحة والخمول، مما يسمح لنا بتصور سهولة اندماجه في وهران سيما وهو نفزي بربري الأصل ومتهم بالميل إليهم، كما أن بوهران جالية أندلسية مهمة وجدت قبل أكثر من قرن من هذه الفترة، أي منذ بناءها على يد بحارهم سنة 290 هـ، ودون شك كانت له علاقات حسنة بالمغاربة الوافدين على الأندلس، فنحن نعلم أنه هو الذي صلى على الفقيه النوازي أحمد بن خلوف المسيلي سنة 393 هـ بقرطبة،³ فيكون قد أحسن الاستفادة من هذا الرصيد في المنطقة.

كما يكون قد اشتغل بالتدريس والتعليم والتوجيه وربما أسند إليه منصب الخطابة والصلاة في جامع وهران، الوظيفة التي تضمن له كسبه وقوته، وهو الأمر الذي يسمح لطلاب العلم من الفئات المعوزة التي لا

¹ المنون. المصادر العربية لتاريخ المغرب، 1/ 25، حسين النعيمي وحمزة النعيمي. استنساكات على تاريخ التراث العربي 346/6.

² الضبي. بغية الملتمس، ص 159، القاضي عياض. ترتيب المدارك 662/4، النباهي. المرقبة العليا، ص 84-85.

³ ابن الفرضي. تاريخ العلماء والرواة بالأندلس، ص 62.

تستطيع تجشم مشاق وتكاليف السفر والرحلة إلى حواضر العلم في القيروان والقلعة وفاس وقرطبة و... إلى أن ينهلوا من علمه وهو قريب منهم.

ثم إن شهرته تقتضي أن يتسامع به الناس ويتوافدوا عليه من القرى وحتى المدن المجاورة، مما يجعله يساهم بشكل غير مباشر في حركة السكان.

كما لا يستبعد أن يكون قد زار الحواضر العلمية القريبة كتلمسان التي أخذت تشق طريقها إلى منافسة كبرى عواصم الثقافة العربية الإسلامية،¹ سيما وقد تزامن ذلك مع وجود الفقيه أحمد بن نصر الداودي (ت 402 هـ) بها.²

وربما كانت له مراسم علمية مع علماء القلعة والمسيلة وبسكرة، وبوثة التي كان متواجدا بها أبو عبد الملك مروان ابن علي البوني القرطبي الأصل (ت 440 هـ) تلميذ الداودي المذكور. والأمر كذلك ينسحب على أخويه أبو حاتم محمد وأبو حفص عمر بصورة أقل وضوحا.

بنو ذكوان في قرطبة من جديد

تطور الأوضاع في الأندلس وتغير كثير من المعطيات السياسية التي كانت سببا في نفي بني ذكوان إلى المغرب الأوسط، سمح لهذا البيت بالعودة إلى قرطبة ووطنه الأصلي، ذلك أن الجند قتلت الحاجب واضح الفتي لفساد رأيه، كما أن العامة سخطت على المؤيد وحاجبه المس بكرامة القاضي أحمد بن ذكوان وأسرته لمحبتهم لهم، وكذا الخاصة من أهل قرطبة وأعيانها الذين استهولوا الحادث وكلموا المؤيد بشأنهم ورجوا منه أن يقبل عشراهم، وما زالوا به حتى "حسن الرأي فيهم"، فوجه إليهم من يعيدهم إلى قرطبة³ فلبوا ذلك لحينهم إلى الوطن، وربما عاد أبو العباس أحمد منهم إلى منصب القضاء - حسب إشارة ابن الخطيب⁴ - والفتنة مازالت قائمة، وقد ضعف أمر المؤيد ولم يقدر على رد غارات المستعين بالله القوي بالبربر المساندين له، فما كان إلا أن فوض القاضي أحمد بن ذكوان باسمه للخروج إلى المستعين لعقد الصلح معه وأخذ الأمان لأهل قرطبة وإنهاء الفتنة، فتم له ذلك ودخل المستعين بالله قصر قرطبة يوم الإثنين 26 شوال 403 هـ وخلع هشام المؤيد وولي مكانه.⁵

¹ بخصوص بداية وتطور الحياة الثقافية في تلمسان في هذه الفترة أنظر: عبد الحميد حاجات: تلمسان مركز إشعاع ثقافي في المغرب الأوسط، مجلة الدراسات التاريخية، عدد 10، 1997، ص 181-219، خالد. الحركة الفكرية في المغرب الأوسط (الدولة الحمادية 408-547 هـ)، ص 98-100، إبراهيم حركات. المدخل إلى تاريخ العلوم 26/1.

² أنظر ترجمته في: ابن خبير. فهرس ابن خبير الإشبيلي، ص 87، القاضي عياض. ترتيب المداوك 4/623، ابن فرحون. الدياج، ص 94، سزكين. تاريخ الفرائد العربي 1/3/175، ناصر الدين محمد الشريف. الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، ط 1، عمان: دار البيارق، 1420-1999، ص 81، عبد العزيز صغور دحان، الإمام العلامة أحمد بن نصر الداودي المسلي المالكي محننا وفقها، ط 1، القاهرة، مكتبة جبل المستقبل، 1427-2006، (ص 354)، وقد أخطأ في تحديد سنة وفاته ابن مخلوف فجعلها سنة 440، وأخطأ الزركلي حيث جعلها سنة 307 هـ، أنظر: شجرة النور، ص 111، الأعلام، ص 146/1.

³ القاضي عياض. ترتيب المداوك 4/666، النباهي. المرقبة العليا، ص 87.

⁴ حيث لا يزال يصفه بالقاضي بعد عودته من منفاه بوهران، أنظر: أعمال الأعلام، ص 118.

⁵ المصدر نفسه، ص 118-119.

ثم عزل أبو العباس أحمد بن ذكوان نفسه عن منصب القضاء بعد انقضاء الفتنة، ورفض المناصب التي دعي إليها،¹ إلا أن المستعين كثيرا ما كان يشاوره ويلقي تعاطيا وتجاولا منه.

أما أخوه أبو حفص عمر فلم يلبث طويلا بعد عودته من وهران، فقد توفي في 29 ذي الحجة من نفس السنة،² وصلى عليه أخاه أحمد الذي عاش بعده عشر سنوات إلى أن توفي يوم الأحد 21 رجب من سنة 413 هـ، ولم يتخلف عن جنازته أحد من العامة والخاصة³ وشهدها أمير قرطبة آنذاك يحيى بن علي ابن حمود الملقب بالمعتلي بالله (412-413) أحد ملوك الطوائف بقرطبة،⁴ وغير بعيد عن هذا التاريخ توفي أبو حاتم محمد منتصف شهر رمضان يوم الأربعاء من سنة 414 هـ⁵ ورثاه الشاعر ابن الحناط.⁶

إن موت الأقطاب الثلاث لبيت بني ذكوان لم يضع حدا لنهايته فالجيل الجديد الذي حظي به من أفراده استطاعوا أن يحافظوا على الإرث الحضاري له ويسيروا به شأوا بعيدا، فقد خلف أبو العباس أحمد ابنه أبا بكر في منصب القضاء ثم ولي الوزارة للمعتلي بالله الحمودي،⁷ وخلف أبو حاتم محمد ابنه أحمد الذي سماه وكناه باسم أخيه أبي العباس أحمد، كان قد تولى الوزارة لبعض ملوك الطوائف،⁸ وابن ثان يُكنى بأبي علي ولي الحسبة بقرطبة على عهد ملوك الطوائف، ثم ولي قضاء الأحكام،⁹ ومن ألح أسمائهم كذلك عبد الرحمن بن إسماعيل بن بدر المعروف بالافليدسي وهو من أشهر علماء الهندسة والمنطق وله فيها تواليف مشهورة، له رحلة إلى المشرق زمن المنصور بن أبي عامر وبها توفي وهو ابن أخت أحمد بن أبي حاتم، ولسنا نعلم هل هو

¹ ذكره صاحب كتاب "ذكر بلاد الأندلس" في قائمة رجال دولة المستعين بصفته قاضيا للقضاء، أنظر: ص 203.

² ابن الأبار. التكملة 3/ 149، ابن عبد الملك المراكشي. الليل والتكملة 2/ 448،

Helena de Felipe. *Banū Dakwān*, op. cit. p.112.

³ ابن بشكوال. الصلة 1/ 38، القاضي عياض. ترتيب المداك 4/ 666.

⁴ قامت دولة الحموديين الإدارة سنة 407 واستمرت زهاء 43 سنة وسقطت سنة 450 هـ على عهد القاسم المستعلي، تولاها تسعة أمراء، اتخذوا قرطبة عاصمة لهم ثم مالقة، أنظر عنها: لويس سيكو دي لوثينا. الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ترجمة عدنان محمد آل طعمة، ط1، دمشق: دار سعد الدين، 1992، (62 ص)، محمد السنوسي. الدور السنوية في أخبار السلالة الإدريسية، ص 91-92، فراد أرزقي. القوى المغربية في الأندلس، ص 35-56، سحنون. دولة الإدارة في المغرب والأندلس (القسم الثاني) 70-107، عبد الكريم غلاب. قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1426-2005 ص 69-84، إسماعيل العربي. دولة الإدارة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، ص 225-310.

Helena de Felipe. *Banū Dakwān*, op. cit. p.112.

⁵ ابن بشكوال. الصلة 2/ 477،

⁶ ابن بسام. الذخيرة 1/ 1/ 263، النباهي. المرقبة العليا، ص 87.

⁷ القاضي عياض. ترتيب المداك 4/ 784، لويس سيكو دي لوثينا. الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ص 25-26.

Helena de Felipe. *Banū Dakwān*, op. cit. p.113.

⁸ ابن بسام. الذخيرة 1/ 1/ 483،

Helena de Felipe. *Banū Dakwān*, op. cit. p.113.

⁹ القاضي عياض. ترتيب المداك 4/ 667،

من نفس الأسرة أم من أصهارها مع العلم أن أباه إسماعيل بن بدر كان من وجوه أهل قرطبة،¹ ولي أحكام السوق بها أيام الخليفة الحكم المستنصر.²

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

¹ ابن صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، ط1، بيروت: دار الطليعة، 1975، ص 167-168.

² تدرج وظيفة السوق ضمن الهيئة القضائية وهي نفسها المهنة التي عرفت منذ القرن الرابع الهجري بأحكام الحسبة، أنظر: بروفنسال. تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 142-144، وعن مهام صاحب السوق أنظر: يحيى بن عمر الأندلسي. أحكام السوق، تحقيق محمود علي مكّي، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1424-2004، ص47 وما بعدها.

البيت الصمّادحي: مجدد مدينة تدلس (484-593 هـ)

أصل بني صمّادح وأوليتهم

ينتسب بنو صمّادح إلى نجيب إحدى بطون كندة الحميرية اليمنية القحطانية،¹ وجدهم عميرة هو الداخيل إلى الأندلس، نزل زمن الفتح إقليم أرغون، وأول من ظهر منهم هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن صمّادح بن عبد الله بن المهاجر بن عميرة، ذلك أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني (233-273 هـ) الذي كان والياً على مدينة دروكة Daroca شبه مستقل فيها، يستعين به الأمير محمد في القضاء على المنتزعين من خصوم الدولة والسلطة المركزية بقرطبة أمثال بني قسي أصحاب الثغر الأعلى، وتقديراً لنجاحه في مهامه كإفاده بولاية جديدة فولاه قلعة أيوب ثم أضاف إليه سرقسطة، فأصبح ابن صمّادح عبد الرحمن سيد الثغر الأعلى كله من قلعة أيوب إلى جبال اليرت، وبعد موته خلفه ابنه محمد على هذه الأعمال واستبد بها هو وبنيه من بعده وداخلوا الممالك النصرانية،² مما دفع بالأمير الأموي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني (275-300) إلى محاربتهم، وغالبهم على أعمالهم بخصومهم بني قسي فانحصر ملكهم ولم يبق لهم إلا مدينة وشقة.³ فلما كانت أيام أبي يحيى محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صمّادح الذي وطد علاقته بالمؤيد هشام ثم خلفه سليمان المستعين بالله، فجاهره والي سرقسطة منذر بن يحيى بالعداء وهو من بني عمومته إذ حاربه وغلبه على وشقة وفر هو منها في محرم سنة 431 هـ،⁴ إلى بلنسية وواليتها يومئذ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر (412-452 هـ) "فأكرمه وأوطنه وصاهر ابنه معنا أبا الأحوص وصمادحا أبا عتبة زوجهما أختيه"، إلى أن ظهرت له الرحلة إلى المشرق، ففرق في البحر⁵ وبقي أبناؤه هنالك. ولما أصبحت المرية في ملك ابن أبي عامر سنة 432 أو 433 هـ⁶ نزلها مع أصهاره بني صمّادح واستقروا بها، وفي هذه الأخيرة استوزر عبد الله بن عبد العزيز بن أبي عامر أبا الأحوص معن بن محمد بن صمّادح.¹

¹ أنظر عن نجيب: ابن الكلبي. نسب معد واليمن الكبير 1/181، ابن سلام. النسب، ص 309، ابن حزم. الجمهرة، ص 403-404، السمعاني. الأنساب 1/448، الحازمي. عجالة المجدي، ص 58، ابن الأثير. اللباب 1/207.

² ابن الأبار. الحلة السواء 2/97، والهامش 1.

³ وشقة إحدى مدن كورة سرقسطة من الثغر الأعلى، ابن الدلائمي. ترصيح الأخبار، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد: منشورات معهد الدراسات الإسلامية، ص 55، الإدريسي. نزهة المشتاق 2/733، الزهري. الجغرافيا، ص 82، ياقوت. معجم البلدان 5/433، الحميري. الروض المعطار، ص 612.

⁴ ابن بسم. الذخيرة 1/729-730، ابن الأبار. الحلة السواء 2/79، وفي الإحالة 1؛ أن الذي غلبه على وشقة هو سليمان بن هود؟!، ابن عذاري. البيان المغرب 3/173، ابن الخطيب. أعمال الأعلام، ص 189.

⁵ ابن الأبار. الحلة السواء 2/81.

⁶ السيد عبد العزيز سالم. تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، ط 1، بيروت: دار النهضة العربية، 1969، ص 73، محمد أحمد أبو الفضل. تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي: دراسات في التاريخ السياسي والحضاري، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1996، ص 98.

بنو صمادح أمراء المرية

شهدت الأندلس في هذه الفترة (فترة ملوك الطوائف) عدة اضطرابات وحروب من أجل التوسع على حساب بعضها البعض، وفي هذا السياق كان أمير "دانية" مجاهد العامري قد عزم على حرب غريمه عبد الله ابن عبد العزيز أمير بلنسية والمرية، فخرج إليه هذا الأخير يبتغي مصالحته وخلف في المرية وزيره وصهره أبا الأحوص معن الصمادحي، فما كان من الوزير إلا أن خان ولي نعمته سنة 433 هـ باستبداده بالبلد وحربه للأمير عبد الله، ونصب نفسه أميراً على المرية وجعلها دار ملك له ولأبنائه من بعده.¹

بقي أبو الأحوص في الحكم لمدة 10 سنوات إلى أن توفي سنة 443 هـ ليخلفه ابنه أبو يحيى محمد بن معن ولما تلقب أمراء الطوائف بالألقاب الخلافية تلقب هو أيضاً بـ "المعتصم بالله" و "الوائق بفضل الله" وـ "الرشيد" وهي من ألقاب العباسيين "مناغاة لصاحب إشبيلية عباد بن محمد لما تلقب بالمعتضد بالله المنصور بفضل الله".

وكان المعتصم بن صمادح يركن إلى الراحة والدعة مع سخاء اليد وجزالة العطاء ومحبة في الأدباء والشعراء وأهل العلم.

ولما جاز المرابطون في عهد يوسف بن تاشفين (465-500 هـ) إلى عدوة الأندلس وعزموا على خلع رؤسائها وملوك الطوائف، أخرج قائده يحيى بن واسنو وأمره بمحاصرة المرية والتضييق على المعتصم ابن صمادح، وفي هذه الأثناء اعتل المعتصم علته التي مات فيها، فأوصى ولي عهده ابنه معز الدولة أن يدافع عن قسبة المرية خاصة ما دافع ابن عباد أقوى ملوك الطوائف عن قصبته إشبيلية، فإن استطاع المرابطون إزاحته عن ملكه فليعتبر هو وأهله إلى المغرب الأوسط، ولم يلبث طويلاً حتى مات في ربيع الآخر 484 هـ والقائد المرابطي محاصر لمدينته، وقد ناهزت مدة إمارته 40 سنة.²

بنو صمادح في كنف الدولة الحمادية

ولي أمر المرية المضطرب أبو يحيى أحمد بن محمد بن معن بن صمادح وتلقب بمعز الدولة³ فبادر إلى مكاتبة الأمير الحمادي المنصور بن الناصر بن علناس (481-498 هـ) بالقلعة وأوفد إليه رسوله أحمد بن العزيز

¹ عبد العزيز سالم. تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، ص 73، محمد أبو الفضل. تاريخ مدينة المرية الأندلسية، ص 100، 104.

¹ ابن بسام. الذخيرة 1/ 2/ 730-734، ابن الأبار. الحلة السواء 2/ 81، ابن الخطيب. أعمال الأعلام، ص 190، عبد العزيز سالم. تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص 74، محمد أبو الفضل. تاريخ مدينة المرية الأندلسية، ص 100، 105.

² ابن بسام. الذخيرة 1/ 2/ 731-734، الأمر عبد الله بن بلكين الصنهاجي. البيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحقيق علي عمر، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1427-2006، ص 202، ابن الأبار. الحلة السواء 2/ 81-84، النويري. نهاية الأرب 23/ 468 (وفيه أن المعتصم توفي يوم 22 ربيع الأول)، ابن أبي زرع. روض القرطاس، ص 197، ابن عذاري. البيان المغرب 3/ 167-168 (وذكر في موضع آخر 3/ 192 أن وفاة المعتصم كانت في 22 ربيع الأول)، مرم قاسم الطويل. مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، ط1، الدار البيضاء- بيروت: مكتبة الوحدة العربية- دار الكتب العلمية، 1414-1994، ص 34-35.

³ ابن حزم. نقط العروس، ص 85.

ابن عيشون من أهل المرية يفأوضه ويستأذنه في الدخول إلى أرض ملكه، فتلقيه المنصور بالرحب والسعة وأسعفه في طلبه " وخيره في أقطار بلاده".

لم يمكث الأمير الجديد معز الدولة في مملكته أكثر من ستة أشهر حتى جاءه الخبز بخلع المرابطين للمعتمد ابن عباد أقوى ملوك الطوائف وسقوط عاصمته إشبيلية في رجب 484 هـ، فعمل على تحقيق وصية أبيه ورغبته في النجاة بنفسه، فأرسل رسوله من جديد إلى الأمير الحمادي المنصور تأكيدا للعهد السابق، فأذن له بالعبور ليحمل أهله وخاصة رجاله في سفينة وماله في سفينتين 1٩ ونزل على بني حماد في رمضان من نفس السنة أي 484 هـ وانقضى ملكهم في الأندلس إلى الأبد.¹

إلى هنا نجد أنفسنا مجبرين على طرح السؤال الآتي: أين نزل بنو صمادح أول الأمر؟ هل في مرسى الجزائر؟ أم مرسى بجاية؟

الروايات التاريخية تختلف في الإجابة عن ذلك¹.

فحسب رواية الأمير عبد الله بن بلكين والنوري وابن الخطيب² فإنهم نزلوا أول الأمر في مرسى الجزائر ومنها ساروا إلى بجاية حيث التقوا بالأمير الحمادي المنصور بن الناصر، أما رواية ابن الأبار والنوري - في موضع آخر - وابن عذاري والصفدي وابن خلدون والمقري³ فتشير إلى نزوله مباشرة إلى بجاية. ولدينا رواية بمجملتها تشير إلى نزولهم بمجال دولة بني حماد دون ما تحديد نجد ذلك عند كل من ابن الكردبوس وابن الأثير وابن أبي زرع وأبي الفداء وابن خلدون⁴ في موضع ثان.

كما نجد رواية أخرى عند الأمير عبد الله بن بلكين وابن خلدون⁵ في موضع ثالث مفادها أنه نزل بالقلعة دون أن يفصلا في خط سير حركة بني صمادح، هل نزلوها مرورا بمرسى بجاية؟ أم مرسى الجزائر؟ يمكننا أن نجتمع بين كل هذه الروايات للخلوص إلى رواية أقرب إلى الصواب، فمن المعروف أن مرسى ومدينة الجزائر أقرب إلى المرية منها إلى بجاية، فيكون نزولهم أولا بالجزائر ومنها توجهوا إلى بجاية كرسى المملكة، حيث التقوا بالأمير الحمادي أين واساهم عن فقدان ملكهم وأحسن إليهم وأمنهم في ذخائرهم وأموالهم وأنفسهم، وربما يكون المنصور قد اصطحب معه في إحدى خرجاته أبا يحيى أحمد الصمادحي إلى القلعة التي لم تفقد دورها بعد لصالح العاصمة الجديدة بجاية، دون أن نعرف الغرض من ذلك ولا مناسبته ثم عادا معا إلى بجاية، وهنالك خيرَه في أي البلاد شاء أن يتزها فاختار مدينة تدلس.

¹ ابن بسام. الذخيرة 1/ 2/ 735، ابن الكردبوس. الاكتفاء في أخبار الخلفاء، طبع باسم: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ووصفه لابن الشباط: نهران جديهان، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، 1971. ص 105، الأمير عبد الله. البيان عن الحادثة الكاتبة، ص 202-203، النوري. نهاية الأرب 24/ 265، ابن عذاري. البيان المغرب 3/ 168، ابن الخطيب. أعمال الأعلام، ص 192، عبد العزيز سالم. تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص 82، محمد أبو الفضل. تاريخ مدينة المرية الأندلسية، ص 132-134.

² البيان عن الحادثة الكاتبة، ص 203، نهاية الأرب 24/ 165، أعمال الأعلام، ص 193.

³ الحملة السراء 2/ 90، نهاية الأرب 23/ 468، البيان المغرب 3/ 168، الوالي بالوحدات 17/ 287، العبر 6/ 249، نفع الطيب 3/ 368.

⁴ الاكتفاء، ص 105، الكامل 8/ 344، روض القرطاس، ص 197، 213، المختصر في أخبار البشر 2/ 14، العبر 6/ 234.

⁵ البيان عن الحادثة الكاتبة، ص 202، العبر 4/ 209.

ويحق لنا الآن أن نتساءل عن الأسباب الحقيقية التي جعلت المنصور يقبل بلجوء خصوم جيرانه المرابطين إلى حضرته؟ ألم يخش ردت فعلهم؟! ولماذا سمح المنصور لنفسه باتخاذ قرار إبعاد ضيوفه المحتمين به عن قاعدة ملكه بحماية وإقطاعهم تدلس؟.

للإجابة عن الشطر الأول من السؤال ينبغي علينا الرجوع إلى فترة سابقة لزم من هذه الحادثة، أي إلى تاريخ بني صمادح في الأندلس وعلاقاتهم بالبربر بشكل عام وبصنهاجة السلالة الحاكمة في غرناطة بشكل أخص، وكذلك إلى تاريخ العلاقات الحمادية المرابطية ومدى وفاق الطرفين فيما بينهما.

أما عن علاقة بني صمادح بصاحب غرناطة الزيري الصنهاجي باديس بن حبوس الملقب بالمظفر فكانت غاية في المتانة والمآزرة، إذ كان المظفر سندا قويا لمعن بن صمادح في حربه لعبد العزيز بن أبي عامر الذي حاول أن يسترجع المرية المغتصبة منه إلى ملكه بعد أن خانته معن، ودافع المظفر باديس عن شرعية ملك هذا الأخير،¹ محاولة منه إضعاف جانب ابن أبي عامر وتوسيع هوة الفرقة بين ملوك الطوائف المنحدرين من السلالات العربية خوفا من اتحادهم لكسر شوكة الإمارات البربرية، وبالفعل استطاع باديس أن يقوض الحلف المبرم بين ابن مجاهد العامري أمير دانية وابن أبي عامر، ويفشل الحرب المعلنة ضد حليفه في المرية.

وقد استثمر المظفر باديس هذه العلاقة فجعل حليفه ابن صمادح يدور في فلكه، فلا يقطع أمرا بالمرية إلا بمشورته وعن رأيه وإذنه إلى أن توفي.

وحين تولى محمد المعتصم أرسل إلى باديس "يرغب إليه أن يكون له في العضد والحماية بالمتزلة التي كان عليها لأبيه، وأنه أحسن طاعة وأشد انقيادا من أبيه، وسأله تجديد العهد معه والاجتماع به فأجاب المظفر إلى كل ما سأل ووعد بالذب عنه على أتم ما كان عليه لأبيه، واجتمع به وجدد معه عقدا وثبتت رياسته وقر حاله قراره، ودما على ذلك دهرا طويلا".²

وقد كان لباديس وزير يهودي³ يعرف بابن نغالة⁴ قد داخل حليفه المعتصم ومن وراءه يهود غرناطة وأطمعوه في ملك باديس وكشفوا عوراته ووعدوه الدعم المطلق، فاغتر المعتصم بذلك فنقض العهد والخلف

¹ ابن بسام. الذخيرة 1/ 2/ 732، الأمير عبد الله. التبيان عن الحادثة الكائنة، ص 61، ابن عذاري. البيان المغرب 3/ 174، مرم قاسم الطويل. مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ط1، الدار البيضاء- بيروت: مكتبة الوحدة العربية - دار الكتب العلمية، 1414- 1994، ص 133- 134.

² الأمير عبد الله. التبيان عن الحادثة الكائنة، ص 201.

³ عن الأدوار المختلفة لليهود في مجتمع الأندلس أنظر: علي أحمد. اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، مجلة أساق الثقافة والتراث، عدد17، 1997، ص 57-75، عمر بن مرة. جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية، ضمن: الأندلس قسرون من القلبيات والعهادات، القسم الأول، ص 205-226، أحمد شحلان، مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه، مجلة التاريخ العربي، عدد1، ص 267، هاشم عبد العزيز. يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، مجلة عصور، مجلد 11- 2001، الجزء 1، ولتر. ج. فيشل. يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى، ترجمة سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 1408-1998، ص 50-55، ونظرا لأعمالهم الدينية وحياتهم المتكررة فقد دعى ابن عبدون إلى معاملتهم معاملة قاسية أنظر: رسالة في الحسبة ص 48، 50، 51، وأنظر موقف بروفنسال محقق الرسالة من هذه الأحكام في: إبراهيم القادري بوتشيش: إشكالية التحقيق الإستشراقي للتراث الأندلسي من خلال نموذج تحقيق لفي بروفنسال: رسالة الحسبة لابن عبدون، مجلة كلية الآداب تطوان، عدد 6، 1993 ص 108 وما بعدها، ودعا مؤلف مجهول من القرن 11

واستولى على القرى والمدن الغربية من غرناطة، وكان أعظمها جرما مدينة وآدي آش،¹ لكن استطاع باديس استرجاعها وقتلت العامة والجند الوزير اليهودي ابن نغزالة وجملة من يهود غرناطة، واعتذر ابن صمادح عن فعلته وقبل باديس ذلك فعادت العلاقة بينهما كما كانت.²

ثم استمرت هذه العلاقة الودية بشكل عام إلى أيام الأمير عبد الله بن بلكين آخر أمراء غرناطة الزيري ونظيره المعتصم، فقد اتفهما بسبب ذلك يوسف بن تاشفين لما جاز إلى الأندلس بالاتفاق معا ضده.³ أما في الضفة المقابلة فقد كانت العلاقات الحمادية المرابطية مضطربة ومتلههله، فالمرابطون سيما في عهد يوسف بن تاشفين كانوا يطمحون إلى تأمين حدودهم الشرقية بالاستيلاء على الدولة الحمادية أو على الأقل الاستيلاء على أطرافها الغربية تطبيقا لسياسة "تداعي الفتوحات"⁴ كسياسة ناجعة في حماية الحدود، فقد استولوا على تلمسان منذ سنة 474 هـ وكانت حينئذ تحت ملك أولاد يعلى الزناتين، وولوا عليها محمد ابن يغمر المسوق واتخذها قاعدة لغزو أرض صنهاجة ونواحيها، وبمداخلة بعض بطون زناتة كيني ومانو وزعيمهم ماحوخ صهر المنصور الحمادي استطاعوا أن يصلوا إلى مدينة الجزائر، وهذه السياسة جوهرت برد عنيف من قبل الحماديين، ففضوا على التحالف الزناتي المرابطي واسترجعوا سيادتهم على مجال المغرب الأوسط إلى غاية مدينة تلمسان.⁵

هـ إلى عدم الاستعانة بهم في الوظائف الحكومية من خلال كتابه المعتون بـ "منهاج الصواب في قبح استنكاب أهل الكتاب"، تحقيق داود علي الفاضل، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1402-1982. (91 ص)

⁴ أنظر عن أسرة ابن نغزالة: الطاهر أحمد مكي. دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط3، القاهرة: دار المعارف 1987، ص54-63.

¹ مدينة وادي آش من مدن كور ألبيرة بين بجاية وغرناطة قريبة منها، على سفح جبل شلير، ابن الخراط. اختصار القبايس الأنوار، ص 195. الحميري. الروض المعطار، ص 604-605، ابن الخطيب. معيار الاختبار، ص 112-113.

² أنظر تفاصيل هذه الأحداث في: الأمر عبد الله. الثبيان في الحادثة الكائنة، ص 69-76، مريم قاسم الطويل. مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ص 135-137، نفسها. مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، ص 37-38، عبد العزيز سالم. تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص 79-80، محمد أبو الفضل. تاريخ مدينة المرية الأندلسية، ص 109-110.

³ الأمر عبد الله. الثبيان عن الحادثة الكائنة، ص 201.

⁴ سياسة تداعي الفتوحات هي إحدى الاستراتيجيات التي عمل بها الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أمية بعدهم لتأمين حدود الدولة الإسلامية بفتح ما وراءها من المراكز المتقدمة: أنظر عنها: علا عبد العزيز أبو زيد. الدولة الأموية دولة الفتوحات، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1471هـ/1996، ص 16 وما بعدها.

⁵ أنظر تفاصيل هذه العلاقة: ابن خلدون. العبر/6-233-234، ابن أبي زرع. روض القرطاس، ص 173-183، أحمد بن عبد الرحمان الراشدي. القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991، ص 52-53، عبد الهادي التازي. التاريخ الدبلوماسي للمغرب، 5/187-200، عصمت دنش. أضواء جليلية على المرابطين، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991، 73-74-78-80، حمدي عبد المنعم محمد حسين. تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين- دولة علي بن يوسف المرابطي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1986، ص 227-232، غنق رابع. السياسة الداخلية للدولة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين، ديولم الدراسات المعمقة، جامعة قسنطينة، 1980-1981، ص 43-50.

هذه الظروف والأوضاع هي التي سمحت للمنصور الحمادي أن يقبل بني صمادح لعلاقتهم المتميزة بني عمومته في الأندلس ونكاية في عدوهما المشترك يوسف بن تاشقين، كحرب نفسية أولاً وعملاً على توسيع جبهة التحالف مع خصومهم وتأليبهم على المرابطين.

أما عن سبب إبعاده لبني صمادح عن بجاية العاصمة، فهو إجراء احتياطي وتدبير وقائي لكل ما يمكن أن يظهر منهم كمنافستهم له على السلطة أو الانقلاب عليه مثلاً، سيما وأن قصة جدهم معن مع صاحب المرية عبد العزيز بن أبي عامر ما زالت عالقة بالأذهان، كما أنه خشي من مداخلتهم لرجال الدولة أمثال بني حمدون الأندلسيين الوزراء أو بقية الجالية الأندلسية المتواجدة ببجاية واستمالتهم إليهم وإفسادهم على المنصور الحمادي، كما يهدف الإجراء إلى تغييبهم عن أسرار القصر وخصوصيات البلاط، وهي نفس السياسة التي اتبعها المرابطون مع ابن عباد والأمير عبد الله بن بلكين الصنهاجي، لما استولوا على الأندلس ونفوها إلى بعض مدن المغرب الأقصى.

والأهم من ذلك أن المنصور لم يكن يطمئن إلى ولاء الأمير المخلوع وخاصة رجاله، سيما إذا علمنا أن أحد أفراد الأسرة الصمادحية وهو عز الدولة أبو مروان عبيد الله بن المعتصم قد دخل في خدمة المرابطين وبقي في المرية لصلة بينه وبين أحد قواد يوسف بن تاشقين.¹

انرداهم تدلس في ظل بني صمادح

سيعترضنا سؤال وجيه بهذا الصدد وهو: أين استقر بنو صمادح؟ بتدلس أم تنس أم الجزائر؟ وما هو شكل الإقطاع الذي منح لهم؟ وما هي أدورهم هناك؟.

رواية أبي عامر السالمي² التي نقاها ابن الأبار،³ ورواية ابن عذاري،⁴ تنفيذ أنهم أقطعوا تنس واستقروا بها. أما رواية الحجاري التي نقلها الصفدي وابن الخطيب⁵ فتفيد أنهم استقروا بالجزائر وبها توفي أبو يحيى أحمد الأمير المخلوع.

وباقى الروايات⁶ على خلاف ما ذكر؛ فهي تنفق على إقطاعهم مدينة تدلس وهو المرجح لتظافر الروايات على ذلك، سيما وقد تبناها ابن خلدون وعزها النويري الذي ينقل أخبار المغرب عن مؤرخي السلالة

¹ ابن الأبار. الحلة السواء 2/ 90.

² هو أبو عامر محمد بن أحمد عامر البلوي الطرطوشي، أصله من مدينة سالم من أهل العلم والأدب والتاريخ وهو أحد المصادر المهمة لابن الأبار في تكملته وفي حلته، توفي نحو 559 هـ، ابن الأبار. العكلمة 2/ 26، ابن عبد الملك المراكشي. الليل 6/ 1/ 7، الصفدي. الوافي بالوفيات 2/ 80، السيوطي. بغية الوعاة 1/ 28.

³ الحلة السواء 2/ 90.

⁴ البيان المغرب 3/ 168.

⁵ الوافي بالوفيات 287/17، أعمال الأعلام، ص 192.

⁶ الأمير عبد الله. البيان عن الحادثة الكاتبة، ص 203، النويري. نهاية الأرب 24/ 265، ابن الخطيب. أعمال الأعلام (القسم المغربي)، ص 97، ابن خلدون. العبر 6/ 234، إسماعيل بن نعمان. مدينة دلس: دراسة معمارية وأثرية، ص 14.

الصنهاجية كابن شداد، وابن الخطيب في موضع ثان أورد الخبر بصيغة الجزم حين قال: "وأسكنه بها (تدلس) حسبما هو معروف"، دون أن ننسى أن الأمير عبد الله بن بلكين مؤرخ معاصر للأحداث.

لم تكن تدلس من المدن أو المراسي المشهورة قبل القرن السادس الهجري، حيث لا نجد لها ذكرا في مصنفات الأدب الجغرافي العائدة إلى الفترة السابقة له، وأول من ذكرها هو الإدريسي، ومن المرجح أنها كانت تابعة لمدينة بني جناد¹ على مقربة من مدينة ومرسى الدجاج² التي تبعد عنها بـ 24 ميلا، وهي إحدى المدن الساحلية التي توجد بها جالية أندلسية من البحارة والتجار ضمن مجالات كتامة.

ونحن نعلم أن مدينة تدلس قد هُجرت منذ الزلزال الذي حل بها أيام كونها مستعمرة رومانية (146 ق م - 415 م) وكان يطلق عليها اسم Rousoukkour، حيث استعملت كممرسى بحري للصيد³ فهي لم تشهد ازدهارا استوقف الجغرافيين والمؤرخين وكذا الباحثين المعاصرين إلا بعد أن حل بها بنو صمادح ومن معهم من أندلسي المرية⁴، وهذا ما حدا بعبد الرحمن الجليلي إلى اعتبار أن ابن صمادح هو مؤسس تدلس⁵ أما الكاتب الفرنسي يفر G. Yver فيرى أن ابن صمادح حل بتدلس سنة 496 هـ واليا عليها من قبل المنصور خلفا لوالي حمادي لا غللك اسمه، كان قد تولى إدارة مدينة تدلس بعد تأسيس بجاية⁶ وهو قول لا يستند إلا دليل، فالقائمة التي أوردها ابن خلدون - وهي الوحيدة - عن ولاية المدن الحمادية لا تضم اسم تدلس البتة.

أيا ما كان الأمر فقد شهدت المدينة أيام بني صمادح أول تمركز للأندلسيين وظهر ازدهارها الاقتصادي والمعماري الذي ترجمه الإدريسي بقوله: "وهي على شرف متحصنة لها سور حصين وديار ومنتزهات وبها من رخص الفواكه والأسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد بغيرها مثله، وبها الغنم والبقر موجودة كثيرا وتباع جملتها بالأثمان اليسيرة، ويخرج من أرضها إلى كثير من الآفاق"⁷.

كما بقي مرسى المدينة قرون بعد ذلك ترسو فيه سفن الأندلسيين النازحين من موطنهم الأصلي حتى بعد سقوط آخر معاقلهم بقرناطة⁸.

لقد اقتران ظهور تدلس كمدينة وازدهارها الاقتصادي والمعماري والفني بتزول بني صمادح بها وهذا له دلالة بينة، فلا شك أن الأمير الحمادي المنصور قد أقطعهم أرض تدلس على أساس التملك باعتبارها أشبه ما

¹ بنو جناد إحدى بطون قبيلة زاوية البربرية، استوطنوا سواحل جرجرة، وأهل ابن خلدون ذكرهم، أسسوا مدينة ومرسى عرف باسمهم، وتسمى الآن جنات تبعد حوالي 20 كلم عن دلس وحوالي 25 كلم عن مقر ولاية بومرداس الحالية، أنظر: ابن حوقل. صورة الأرض، ص 77، البكري.

المسالك 2/ 246، الإدريسي. نزهة المشتاق 1/ 273، ياقوت. معجم البلدان 5/ 125، مقديش. نزهة الأنظار 1/ 102.

² أنظر عنه: الإدريسي. نزهة المشتاق 1/ 259، مجهول. الامتصاص، ص 131، ياقوت. معجم البلدان 5/ 125، صفى السدين البغدادي. مرصد الأطلال 3/ 1258 (وردت عنده باسم مرسى الزجاج)، مقديش. نزهة الأنظار 1/ 91.

³ أنظر مختلف مراحل تطور المدينة في العصر القديم: إسماعيل بن نعمان. مدينة دلس: دراسة معمارية وأثرية، ص 10-11.

⁴ Allaoua Amara : *L'animation de la façade maritime du Maghreb central VIII^e - XII^e siècle*. op. cit. p.15

⁵ تاريخ الجزائر العام 1/ 320.

The Encyclopaedia of Islam. Article: TADALLIS

⁶ دائرة المعارف الإسلامية، يفر، مادة تدلس 9/5.

⁷ نزهة المشتاق 1/ 259، ونقل عنه ذلك مقديش في: نزهة الأنظار 1/ 92، وقارن بوصف الحميري لها في: الروض المطار، ص 123.

⁸ إسماعيل بن نعمان. مدينة دلس: دراسة معمارية وأثرية، ص 71.

تكون بأرض الموت،⁹ فعملوا على تغيير حالها إلى الأحسن بنقل معارفهم وتجاربهم الأندلسية في البناء والعمارة وفلاحة الأرض وتنمية الأموال بالتجارة، بما في ذلك حياة الترف التي تدل عليها المتزهات التي عرفت بها تدلس، كما عملوا على بعث الحركة العلمية والثقافية للمنطقة إذ أصبحوا قبلة للوافدين عليهم من الأدباء والشعراء كابن اللبانة¹ الأندلسي الشاعر المشهور.

كما أن لقاء ابن اللبانة بابن صمادح كشف لنا عن بعض جوانب حياة هذا الأخير، فقد التقى به في بجاية - وكانت له به صلات سابقة في الأندلس - مما يعني أن ابن صمادح كان ينتقل في مملكة بني حماد الواسعة بحرية، وربما كان يستدعى إلى العاصمة بجاية في المناسبات السارة والأعياد لشهودها، أو لسماع انشغالاته والوقوف على حاله وحاجاته وما إلى ذلك.

والصورة التي يرسمها ابن اللبانة لابن صمادح مغايرة لوصف الإدريسي للمدينة تدلس التي اقترنت باسمه حيث قال: "ما علمت حقيقة جور الدهر حتى اجتمعت ببجاية مع معز الدولة بن المعتصم بن صمادح فأبني رأيت منه خير من يجتمع به كأنه لم يخلق الله إلا للملك والرئاسة وإحياء الفضائل، ونظرت إلى همته تتم تحت هموله كما ينم فرئدُ السيف (أي وشيهُ وجوهره المزخرف به) وكرمه من تحت الصدا".² وهو نفسه يشكو حالة الاغتراب والخمول وقلة ذات اليد، الشكوى التي ضمنها في قصيدة منها قوله [طويل]:

لك الحمد بعد الملك أصبح خاملاً بأرض اغتراب لا أمرٌ ولا أحلي
ولا سمعي يصغي لنغمة شاعر وكفي لا تمتد يوماً إلى بذل²

وفي قصيدة أخرى علق عليها الصفدي انطباعه وعدها قولاً فريداً، لم يذكر ما يماثلها في وصف الهم الذي حل به وهي قوله: [بسيط]

ليئأس الناس من هم ومن كمد فأبني جمعت الهمم والكمد
لم أبق منه لغيري ما يحاذره فليس يقصد دوني في الورى أحدا³

وقد حاول ابن اللبانة أن يرتب لقاء لبعض الأدباء والشعراء المادحين مع معز الدولة فرفض لأسباب ذكرها وهي:

⁹ أنظر حكم الإقطاع وإحياء أرض الموت والمسائل الفقهية المتعلقة بذلك: أبو يوسف يعقوب. كتاب الخراج، تحقيق الفضل شلق، ط1، بيروت: دار الحدائق، 1990، ص 175-180، يحيى بن آدم القرشي: كتاب الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط1 بيروت: دار الحدائق 1990، ص 468-473، ابن سلام. الأموال، تحقيق عبد الأمير علي مهنا، ط1 بيروت: دار الحدائق 1988، ص 276-294، أبو نصر الداودي التلمساني. الأموال، تحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة محمد، ط1 القاهرة: دار السلام، 1421-2001، ص 131-136.

¹ أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي المعروف بابن اللبانة من فحول شعراء الأندلس مدح ملوك الطوائف ودخل بجاية وبها التقى ابن صمادح كما دخل تلمسان في حدود سنة 507، أنظر ترجمته، ابن خاقان. فلاند العبيان، ص 256-263، ابن الخطيب. جيش التوشيح، ص 59-72، الأصفهاني. الخريدة 107/17، ابن بسام. الذخيرة 666/2/3-702، عبد السلام المراس. ابن اللبانة، مجلة البحث العلمي، الرباط: عدد 2، 1964، ص 245-253، وعدد 3، 1964، ص 213-240.

² المقرئ. نفع الطيب 368/3.

³ الوافي بالوفيات 288/17، المقرئ. نفع الطيب 368/3.

- أنه لا يجب أن يطلع الناس على حمولة وضيق حاله بعد أن ملأ الدنيا ذكراً.
- أنه لا يجب أن يُزار بمنة التفضل، والنظر إليه بعين الرحمة والشفقة، بعد أن كان ينظر إليه بعين العز والجاء والسلطان.

- أنه لا يجب أن يخوض مع هولاء في ذكريات الماضي فيحددوا عليه آلامه وهمومه.
- والأهم من ذلك أنه لا يملك من الأموال الضخمة ما يسفحها على الشعراء المداحين كما كان وسلفه أيام عزهم، فلا يليق به أن يُمدح ولا يكافأ مادحيه.¹
وليس علينا أن نقبل هذه النصوص الأدبية - التي تفتقد إلى الدقة التاريخية - بظاهريتها، فالحمول الذي يشكو منه ابن صمادح طبيعي بالنسبة لرجل أنزله القدر من كرسي الحكم والسلطنة والعزة، إلى أمر المحكوم الذي لا أمر ولا سلطان له.

أما ضيق الحال وقلة ذات اليد؛ فلا يعني أكثر من حالة كفاية تامة لا تترف معها، فهو معتاد في الأندلس كباقي ملوك الطوائف حياة الملذات والبذخ والبهرجة، فحين فقدتها في أرض المغرب الأوسط عدتها ضيق حال تساوقا مع طبيعته النفسية المحبولة على ذلك، فمورخو المغرب والأندلس يكادو يتفقون على أنه لقي العناية والرعاية الكاملتين المادية والمعنوية في كنف بني حماد.

بنو صمادح في تلمسان بين الولاء المرابطي والإغراء الموحدية

كان لبقية أفراد الأسرة الصمادحية شأن آخر، فقد ذكر ابن خلدون أن لمعز الدولة ابن لم يسميه كان قد مات بالقلعة أيام قلائل بعد عبورهم من المرية،² قد يكون صغيراً لم يحتمل مشاق الرحلة، وهو ليس ذو شأن والحال هذه.

أما معز الدولة ذاته فليست لدينا بشأنه معلومات بعد الذي ذكرت فقد انقطعت أخباره حتى مات بتدلس في وقت غير محدد.

أما رفيع الدولة الأخ الثاني لمعز الدولة فإننا لا نجد له ذكراً بعد سقوط المرية في يد المرابطين إلا بعد 55 سنة من ذلك التاريخ أي سنة 539 هـ حيث ظهر فجأة في تلمسان برفقة ابن أخيه أبي يحيى بن عز الدولة، ذكره أبو عمرو عثمان بن الإمام³ في كتابه الموسوم بـ "سقط الجمان وسقط الأذهان"، وكذا أبو عامر السالمي في تاريخه،⁴ قال عنه الفتح بن خاقان: "من ثنية إمارة والى عليها السعد حجة واعتمارا، انتجعوا انتجاع الأنواء واستطعموا من المحل والأواء وأبو يحيى هذا فجر ذلك الصباح وضوء ذلك المصباح، التحق بالمصون وارتدى

¹ المقرئ. نفع الطيب 368/3.

² العبر 209/4.

³ عثمان بن علي بن عثمان يعرف بابن الإمام ويكنى أبا عمرو من أهل شلب وسكن إشبيلية، وهو من تلاميذ ابن العربي، برع في الأدب نثراً ونظماً توفي سنة 550 هـ، أنظر: ابن الأبار. الفكلمة 369/3.

⁴ ابن الأبار. الحلة السراء 92/2.

وراح على الانقباض واغتدى فما تراه إلا سالكا جددا، ولا يلقي إلا لابسا سوودا، وله أدب كالروض إذا
أزهر، والصبح الذي اشتهر".¹

وذكر ابن الأبار أنه أشهر بني صمادح قاطبة و "لولا الخمول لبانت محاسنه".²

أما ابن أخيه أبي يحيى بن عز الدولة الملقب برشيد الدولة فقد نشأ بعد سقوط المرية بها، لأن أباه عز الدولة
دخل في ذمة المرابطين وخدمهم إلى أن إختارته منيته كما أسلفت، وكان ابنه هذا مولعا بالآداب كلعا بما حتى
برز فيها وأجادها، مع نفس تواقفة إلى الرئاسة والملك مستشرفا ومتفائلا باسترجاع مجد بني صمادح، لعله أظهر
من التصرفات ما ينم عن هذا الطموح مما جعل السلطة المرابطية في المرية تزج به في السجن، وبعد إطلاق
صراحه غادر المرية وجاز البحر إلى تلمسان.

وذكر أبو علي ابن الأشرى³ في تاريخه المسمى "نظم الآليء في فتوح الأمر العالى"،⁴ أن رفيع الدولة
ورشيد الدولة كانا بتلمسان في خدمة المرابطين أنير بن عند واليها حيثنذ أبو بكر بن مزدلي، وإلى رفيع الدولة
أسندت مهمة الإشراف على بناء سور ربض تلمسان، كما كانت لهما علائق وصلات وثيقة بالكاتب أبي
علي بن الأشرى.⁵

في سنة 539 هـ حاصر الموحدون تلمسان فلما رأى رفيع الدولة تفوق الموحدين أدرك أن الأمر سيؤول
إليهم لا محالة، فعزم على الدخول في دعوتهم وإقناع ابن أخيه رشيد الدولة بذلك قائلا وناصحا: "لولا كبر
سني وضعفي لكنت عندهم، حرصا عليهم ونظرا لنفسي"، ليجد تجاوبا واستعدادا كامنا في نفس ابن أخيه
كأنه على ميعاد بذلك، واقترح هو المساهمة إعلاميا في إعلان الولاء للموحدين وإبراز فضائلهم وأحقيتهم في
الملك على حساب المرابطين، فقال رفيع الدولة بداهة:

لعبد المؤمن الملك يدور السعد في الفلك

فأكمل أبو يحيى رشيد الدولة قائلا:

همام نور غرته كضوء البدر في الحللك

وختم ابن الأشرى مقتفيا آثارهما:

فيممه تجد ملكا عليه سكينه الملك

ولا تحزع فليس له عن القضاء من درك

¹ مطمح الأنفس 102، ابن بسام. الذخيرة 337/2/1، المقرئ. نفع الطيب 369/3.

² الحلة السراء 92/2.

³ هو حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب أصله من أشير ونشأ بتلمسان، من أهل العلم بالقراءات واللغة والأدب مشاركا في التاريخ دحل الأندلس
سنة 540، كتب للمرابطين ثم للموحدين وكان حيا سنة 569 هـ، ابن الأبار. الفكملة 4/218، الطمار. تاريخ الأدب الجزائر، ص 71-
72.

⁴ يعد هذا الكتاب من مصادر صاحب "الحلل المشوية" وابن الأبار في "الحلة السراء"، وهو في حكم المفقود.

⁵ ابن الأبار. الحلة السراء 2/192.

وشاعت هذه الأبيات في تلمسان المحاصرة وبلغت إليها ابن مزدي المرابطي، فخاف قائلوها مغبة هذه الخديعة وأعملوا وجه الحيلة في التخفي،¹ فخرج أبو يحيى رشيد الدولة وابن الأشيري مهاجرين² فقبل الموحدون منهما.

بعد انحصار سلطة المرابطين إيدانا بزوالها؛ عمل الموحدون على الاستفادة من الكفاءات التي خدمت الدولة المرابطية وغيرها، سيما في أمور الكتابة والإنشاء، ومن بين هؤلاء الذين استعانوا بهم أبو علي الأشيري إذ لوه أمر الكتابة،³ لكن صديقه الطموح أبا يحيى رشيد الدولة بقي مهمشا في عداد المغمورين فلا نجد له ذكرا في المدونات التاريخية المعروفة لدينا بعد هذا الحدث - أي حصار تلمسان-، إذ لسنا نعلم مصيره على وجه التحديد، فهل تخلى عن طموحه في السلطة والملك؟ أو على الأقل العمل في فلك الدولة القائمة؟ هل بقي وفيًا للموحدين الذين لم يُمكنوه في بلاطهم؟ أم أن الزمن لم يطل به حتى توفي؟!.

هذا الغموض ذاته نجده يلف سيرة عمه رفيع الدولة فلا يعلم مصيره هو الآخر وقد بقي في تلمسان، فهل سقط في أيدي المرابطين ونفذوا فيه حكمهم قبل أن تنتشر أكثر أبياته الداعية إلى التخاذل عنهم؟ أم أنه قتل خطأ في الجو الفوضوي الذي يصاحب عادة الفترات الانتقالية من حكم إلى آخر مع كبر سنه؟!

ونستطيع ختاماً أن نؤكد على أنه لم يعد لبني صمادح أي دور أو اعتبار أو وزن في تدلس على الأقل في بداية القرن الثامن، ففي عهد السلطان المغربي أبي الحسن المريني الذي استولى على المغرب الأوسط والأدنى سنة 748 هـ، أقطع تدلس للأمير الحفصي صاحب بحاية أبي زكريا بن السلطان أبي يحيى أبي بكر،⁴ وهذا لا يتأتى مع وجود بيت له نفوذه في المدينة، تستدعي من أبي الحسن أن يفكر جيداً تحسباً للعواقب قبل أن يقدم على مثل هذه الخطوة.

¹ ابن الأبار. الحلة السواء 2/ 193.

² المهجرة في المفهوم الموحدوي تمنى ترك الأهل والمال والبلد والانضمام إليهم لقتال المرابطين.

³ ابن القطان. نظم الجمان، ص 210، عزالدين عمر موسى. الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991/1411. ص315 للملحق 4.

⁴ ابن مرزوق. المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولاي أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريّا خيسوس بيغرا، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401 - 1981، ص 192.

بيت ابن حمدون الثاني: ونزراء الدولة الحمادية (500-581هـ)

استطاع أبناء زيري بن مناد الذين تولوا حكم بلاد المغرب باسم الفاطميين منذ سنة 362 هـ، أن يؤسسوا ثلاث سلالات حاكمة في كل من: إفريقية والمغرب الأوسط وغرناطة بالأندلس.

قامت دولة بني حماد سنة 395 هـ، بعد أن أظهر مؤسسها حماد بن بلكين "نصرا لا كفاء له" في حروبه على عهد أخيه المنصور، إلى أن افتك بجدارة اعتراف من ابن أخيه باديس بن المنصور على ما سيفتحه من الأقاليم الغربية لإفريقية، واتخذ القلعة عاصمة له ثلاث سنوات بعد ذلك،¹ وكللت جهوده في النهاية بتتويجه سنة 408 هـ أميرا مستقلا ندا لصاحب القيروان المعز بن باديس.²

المرحلة الأولى من أطوار دولة بني حماد كانت العصبية³ فيها مستحكمة لصنهاجة التي قامت على كاهلها الدولة كقوة عسكرية، حسب الدورة الخلدونية المعروفة⁴ لذا فكل الوظائف أسندت إلى رجالها ولم يستعن الحماديون بأطراف من خارج العصبية إلا في المرحلة الثانية المتزامنة مع صعود الناصر بن علناس (454-481 هـ) وتولية العرش.

هذا الأخير حاول كسر العصبية المتجذرة في صنهاجة واستتراف حماسا وطاقتا، وتحقيقا لذلك عمل على استبدالهم بنظام جديد من التحالفات والمواالات الخارجية، وهكذا يلج عالم الملك المستبد عن طريق الإدارة المحترفة، يمثلها المصطنعون من النخب والفئات الخاضعة له، يضمن وفائهم بمقدار ما يصدق عليهم من عطاءات، وفي نفس الوقت يعطي صورة محترمة لحكمة لدى المجتمعات الحضرية والريفية معا، والظهور بمظهر الملك المتفتح على كل أطراف المجتمع المتعايشة في بلاد المغرب الأوسط، ويسهم أيضا في تععيد نظم الحكم باستحداث الوزارة والدواوين وغيرها، والاستعاضة بها عن التنظيمات القبلية البربرية السائدة والمتمثلة في مجلس شيوخ القبيلة، وكأنه يتمثل وصية الخليفة الفاطمي المعز لدين الله لسلفه بلكين بن زيري إذ قال له: "إن

¹ بري باقوت الحموي أما بيت سنة 370 هـ وهي في نظره غير قلعة أبي طوليل، أنظر: معجم البلدان 4/442، 443.

² راجع تفاصيل ذلك في: رشيد بورويعة. الدولة الحمادية، عبد الحليم عويس. دولة بني حماد صفحة رابعة من التاريخ الجزائري، ص 47-73. عبد الرحمن الجيلالي. تاريخ الجزائر العام، الجزائر: المطبعة العربية، 1373-1953، 1/308-344، عثمان الكماك. موجز التاريخ العام للجزائر، تحقيق أبو القاسم سعد الله وآخرون، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003، ص 165-191، مبارك الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تحقيق محمد الميلي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 229/2-278، سعد عبد الحميد زغلول. تاريخ المغرب العربي، 1/285-416، 425-439، السيد عبد العزيز سالم. المغرب الكبير العصر الإسلامي. بيروت: دار النهضة العربية 1981 ص 641-675.

³ العصبية هي إحدى أشهر النظريات التي يقوم عليها الفكر الخلدوني راجع بخصوصها: محمد عابد الجابري. فكر ابن خلدون: العصبية والدولة، ط5، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1992، ص 163-193، عبد الغني مغربي. سوسولوجية الفكر الخلدوني، ترجمة محمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر: دار القصة، 2006 ص 141-163، جمال شعبان. قراءة جديدة في فكر ابن خلدون، مجلة المستقبل العربي، عدد 329، يوليو 2006، ص 95 وما بعدها، عبد الحليم عويس. التأسيس الإسلامي لنظريات ابن خلدون، قطر: سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1416-1996، ص 120-125.

⁴ أنظر عنها: سالم حيش. الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ط1، بيروت: دار الطليعة، 1998 ص 91-98.

نسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء.. لا تولّ أحداً من إخوتك وبني عمك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك".¹

ذات التوجه ونفس السياسة هي التي أفرزت ظهور أسرة بني حمدون التي توارثت منصب الوزارة قرابة قرن من الزمن في ظل الحكم الحمادي.

أصل بني حمدون وعلاقتهم ببني حمدون أسراء المسيلة

إشارة كل من ابن الأبار² وابن خلدون³ توحى من الوهلة الأولى أن بني حمدون أسرة بربرية صنهاجية، فقد قال ابن الأبار: "محمد بن علي بن حمدون وزير ابن الناصر الصنهاجيين"، وخصص ابن خلدون أكثر فنسبهم إلى أنجفة إحدى بطون صنهاجة "أما أنجفة فبطون متفرقة وهم أكثر بطون صنهاجة... وكان من مشاهيرهم في الدولة الإسلامية.. بني حمدون وزراء بني حماد"⁴، وهم ينتسبون إلى حمدون بن سليمان بن محمد بن علي بن علم (أو عليم)، ويؤكد روجي إدريس⁵ أن حمدون هذا أول من دخل في خدمة حماد بن بلكين من سلالة بعض وزراء الدولة الحمادية في تاريخ غير معلوم قد يكون قبل سنة 419 هـ، سنة وفاة الأمير حماد.

ومذهب ابن خلدون ذلك تساوقاً منه مع نظريته في بناء الدولة القائمة على العصبية، لكنه يتناقض مع الدورة الخلدونية التي اشتهر بها في صيرورة الدولة، حيث في المرحلة الثانية يستعيز السلطان عن عصبية القبيلة بولاء الفئات والنخب والجيش المرتزق من غير أفراد القبيلة كما أسلفت.

وظهور أسرة بني حمدون يأتي في هذه المرحلة الثانية تحديداً؛ فإن سلمنا لابن خلدون بالأصل الصنهاجي لبني حمدون لم نسلم له بنظرته وبدورته المشار إليهما والعكس، والجدير بالذكر أن اليعقوبي (ت 284 هـ)⁶ أول من ذكر أنجفة كقبيلة مستقلة عن صنهاجة، استوطنوا مدينة فالوس⁷ إلى جانب مطماطة وجزولة. وبخصوص ابن الأبار فإننا نجد ما يعارضه عند ابن عبد الملك⁸ والعباس المراكشيين⁹ اللذان يوردان نفس عبارته لكن مع تغيير بسيط فبدل كلمة "ابن" استعمالاً كلمة "بني" فقالوا: "ابن حمدون وزير بني الناصر

¹ ابن الخطيب. أعمال الأعمال (القسم المغربي)، ص 65، ابن عذاري. البيان المغرب 3 / 263، ابن ظفر الأزدي. أخبار الدول المنقطعة، 34 / 1، وهي نفس المقولة القديمة: "أهلك والاستعانة بالأقارب قبلي"، أنظر: الراغب الأصبهاني. محاضرات الأديباء، ص 69.

² ابن الأبار. التكملة: 60/1.

³ ابن خلدون. العبر: 202/6.

⁴ وردت العبارة هكذا "بني حمدون وورا بني حماد" وأقترح علينا المحقق في الهامش 5 أن تكون العبارة هكذا: "بنو حمدون ووزار بني حماد"؟ والقرآنان كلاهما خاطئان، المصدر نفسه.

⁵ الدولة الصنهاجية 1 / 144.

⁶ البلدان، ص 196.

⁷ وتسمى أيضاً قصر فالوس وهي مدينة ساحلية بين تنس ووهران، أنظر: ابن حوقل. صورة الأرض، ص 78، البكري. المسالك 2 / 267، مجهول. الاستبصار، ص 133، الحميري. الروض المطيار، ص 476، الباروني. الأزهار الرياضية، ص 103.

⁸ الذيل والتكملة: 1 / 236.

⁹ الإعلام: 2 / 68.

الصنهاجيين" فتصبح القراءة بالتالي "الصنهاجيين" جمع يعود على بني الناصر الحماديين؛ وليست تشية "صنهاجيين" تعود على الوزير والأمير.

وعدم تثبت ابن الأبار هنا يعود إلى كونه كان يترجم لأديب أندلسي؛ وذكر ابن حمدون وصاحب بجاية ورد عنده عرضا، كما يحتمل أن يكون التصحيف من الناسخ.

وبناءً على هذه المقدمة نرى أن ابن خلدون لم يوفق في تحديد أصل بني حمدون وتبعه على ذلك روجي إدريس، فالكتابات الجنائزية بالقيروان ومعلومات مؤرخي الأندلس التي أشرنا إليها سلفا تبين أن بني حمدون من العرب قدمت إلى المغرب والأندلس مع الجيش الفاتح، ووجودها بالمغرب الأوسط وتحديدًا ببجاية يعطي فرصة أكثر لتأكيد انتمائها إلى نفس أصل بني حمدون الجذاميين أمراء المسيلة على عهد الدولة الفاطمية.

فمن المعروف أن بعض أفراد بني حمدون بقوا بالمغرب الأوسط بعد خروج أمير المسيلة جعفر وأخيه يحيى عن طاعة الفاطميين وعبورهم إلى الأندلس، فحسب إشارة ابن الأبار:¹ أن الخليفة المعز لما سمع كلمة يحيى ابن حمدون بالأندلس أثناء محنته بها سنة 363 هـ "أرضته وعطفته على آل علي بن الأندلسي"، كما لا يستبعد أن يكون بعض أفراد الأسرة الأوائل المستقرين بالقرب من بجاية على عهد محمد بن حمدون بن سماك قبل سنة 280 هـ لم يدخلوا كلهم في خدمة الشيعة الفاطميين، وبقوا في نفس المنطقة التي هاجروا إليها من الأندلس، أين كوّنوا عائلة ثرية، استطاعت ربما أن تدفع مقابلا وعضوا لمنصب الوزارة الذي سيحتكره أبنائها، وساعدهم على ذلك ما يحظون به من ثقافة علمية أهلتهم للاضطلاع بمهامها.

أما بخصوص حمدون بن سليمان الذي زعم ابن خلدون أنه جد بني حمدون محل بحثنا، فليس لدينا ما يثبت أو ينفي اتصال نسبه حقيقة بالبيت الحمدوني بفرعيه: أصحاب المسيلة أو وزراء بني حماد.

ففي غياب شجرة نسب كاملة للحمدونيين لا نستطيع ربط العلاقة بين الفرعين المنحدرين من أصل واحد، وأرى أنهم لا ينحدرون من سلالة علي بن حمدون باقي المسيلة، فلا يعقل أن يعتمد الحماديون على من كانوا أعداءً لأسلافهم،² بل ينحدرون من أحد أبناء حمدون غير المعروفين الذي خبر مع أبنائه وأحفاده المنطقة جيدا باستقرارهم بها قرابة القرنين.

دور بني حمدون في جهات الحكم الحمادي

مدة قرنين من الزمن كقيلة باندماج بني حمدون الأندلسيين في مجتمع المغرب الأوسط الذي كانوا يحظون فيه بمكانة محترمة، الأمر الذي جعل أمراء الدولة الحمادية يستعينون بهم في مهام في غاية من الأهمية. وليست لدينا معلومات من شأنها أن تكشف لنا عن وجه العلاقة بين الحماديين والحمدونيين في القلعة وقبل بناء العاصمة الثانية "بجاية".

¹ الخلة السراء 1/ 306.

² وهذا ما يذهب إليه أيضا علاوة عمارة في أطروحته.

فحسب ابن خلدون فإن نظام الوزارة الحمادية تأخر نصف قرن ولم يستحدث إلا في عهد الناصر بن علناس سنة 454 هـ أو بعدها بقليل، وأسندت في حينها لأبي بكر بن أبي الفتوح، ثم خلفه خلف بن أبي حديرة الذي قتل بسعاية رجال صنهاجة، وولى الناصر مكانه أحمد بن جعفر بن أفلح، ليلقى نفس المصير وبنفس الطريقة بعد معركة سببية سنة 455 هـ،¹ والمصادر لا تذكر من ولي بعده، إلا أن ابن خلدون دائما يذكر أن عبد الكريم بن سليمان كان وزيرا للمنصور بن الناصر (481-498) وخلفه باديس بن المنصور (498-500) صدر إمارته إلا أن قتله،² وعوضه بعلي بن حمدون³ مؤسس بيت بني حمدون الثاني الذي يحتمل أن يكون قد بدأ بالاحتكاك بالحماديين، كأحد أعيان مجتمع بجاية وكأحد أفراد النخبة العلمية بها منذ عهد المنصور ابن علناس، فعقد معه صلوات وعلاقات قوية وحسنة ازدادت متانتها بوصول ابنه باديس إلى سدة الحكم.

فقد حظي علي بن حمدون بمدح الشاعر الصقلي الذائع الصيت ابن حمديس،⁴ إذا اعتبارنا الرثاء نوع من المدح، وذلك في قصيدتين ضمنهما من المعاني وقوة البيان ما لا ينقص عن قصائده في مدح الملوك شيئا.

فقد عدد في مرثيته الأولى⁵ خلالته وخلالال بنيه، فوصف علي بن حمدون بـ "أمين الملك" و "سيف" الدولة الحمادية، باعتبار أن الأمانة والقوة قوام الملك وقوام كل قائد مؤثر، استلهاما من قوله ﷺ: ﴿ قَالَتْ

إِحْدَنْهُمَا يَتَأْتِبِ اسْتَعِجْرُهُ ^ط إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعَجَرَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿ [القصص: الآية 26]؛ حين قال:

وكنت أمين الملك وسيفه ومن حسنات البر كان لك الغمد

أي من حسنات القدر أنه حافظ هذه القوة وصمام أمانها حتى لا تستخدم في غير وجهها الصحيح، أو إشارة إلى أنه رغم قوته لم يتجبر ولم يستعل بها على الرعية، ولا شك فهو سليل حمدون الذي ملء حمده كل ناد.

كما وصفه بعلو الهمة وطول اليد ورفعة المكانة حتى كأنه لا يتأثر بتقلبات الدهر ونكساته، لينتقل بعد ذلك إلى مدح ابنه ميمون الذي كان له الحظ في وراثة أبيه، بما يتمتع به من حزم وجد وجود وكفاية وهمة عالية، حيث استطاع هذه الخلال أن يسود ويتقدم صنهاجة، ومن هي صنهاجة؟ صنهاجة هم من:

يسدون خللات الحروب إذا طمت بشوك الردى حتى كأهم السد

¹ العمر: 6/ 226-227.

² المصدر نفسه: 6/ 234.

³³ سماه بوروية: علي بن ميمون وشكك في كونه وزيرا، وقال إنه مجرد قائد له صلاحيات واسعة جعلته يقوم مقام الوزير، أنظر: الدولة الحمادية، ص 122.

⁴ عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلي شاعر مشهور مدح ابن عباد بالأندلس وبنو زيري بالمهدية وبنو حماد ببساية، توفي سنة 527 هـ، أنظر عنه: ابن دحية. المغرب، ص 54، بروكلمان. تاريخ الأدب العربي، 114/5-115، علي مصطفى المصراحي. ابن حمديس الصقلي، سلسلة إقرأ، عدد 250، (112 ص)، إسماعيل العربي. عبد الجبار بن حمديس شاعر بني حماد، الأصالة عدد 19، مارس-أفريل 1974. ص 317-327.

⁵ عبد الجبار بن حمديس الصقلي. ديوان ابن حمديس، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر-دار بيروت، 1379-1960، ص 173-175.

إلى أن قال:

أرى بمن ميمون تعاضم في العلى بسنبل معال لا يجد لها حد
كما وصف الابن الثاني: مطرف بسداد الرأي ورجاحة العقل وسخاء اليد.
أما محمد فلا مدح له بعد أن مدحته الخلائق كلها
ولله في الإجلال ذكر محمد بكل لسان في الثناء له حمد
ليختتم مرثيته بقوله واصفا البيت الحمدوني:

هم السادة والأجداد والقادة الأولى تعد المعالي منهم كلما عدوا
أما المرثية الثانية¹ فقد نظمها سنة 527 هـ ولسنا نعلم مناسبتها، سيما وأنها تندرج في ذات السياق والغرض مع المرثية الأولى.

فقد كرر فيها وصف علي بن حمدون بـ "القائد الأعلى" و "أمين الملك" حافظ أسرارهم، كما صور شجاعته في حروبه، وعد أسرته بمثابة مدرسة بما حوت من: عالم وفقه و متعلم وقائد جيش ومُشرّع... لذا فهم ليسوا سراة القوم فحسب، بل سراة أكابرهم.
وابن حمديس دائما يركز وبوضوح في كلتا القصيدتين على وصف ميمون² من بين كل أفراد البيت الحمدوني؟

كما أنه في كلتا القصيدتين ينسب علي بن حمدون وبنه إلى صنهاجة؟ إما تعبيرا عن ولائهم فيهم، أو تعبيرا عن صورة متقدمة لاندماج البيت الحمدوني في البيت الصنهاجي الحاكم.
وتجدر الإشارة إلى أن ابن حمديس هو الوحيد الذي يعطينا اسم رابع لا نجده في شجرة نسب الأسرة التي رسمها لنا المؤرخون، اعني هنا يحيى بن علي بن حمدون الذي قال فيه:

وهمة يحيى شرفته نخللة بما يسعف الملى ويتهيج العبد
كان نضارا ذائبا عم جسمها وإن رام حسنا في العيون له حمد

فمدح ابن حمديس لعلي بن حمدون تدل قطعا على أهميته التي مكنته من حسم خلافة باديس بن المنصور لصالح الأمير العزيز بن المنصور (498-515)، وسنعرف أهميته وقوته أكثر إذا علمنا أنه استطاع أن يتجاوز آراء رجال وشيوخ صنهاجة التي لم تفقد عصبيتها وقوتها بعد.

فعلى إثر اغتيال الأمير باديس سنة 498 هـ أرسل القائد علي بن حمدون إلى أخيه العزيز بن المنصور في منقاه بجيجل الذي فرضه عليه باديس بعد أن عزله عن ولاية الجزائر، فنصبه على العرش الحمادي،³ والأكيد أن علي بن حمدون كان يتولى إدارة الحكم في الفترة الانتقالية من وقت اغتيال الأمير باديس إلى غاية وصول

¹ ابن حمديس الصقلي. ديوان، ص 482-485.

² المصدر نفسه، ص 175.

³ ابن خلدون. العبر 6/234، بورويبة. الدولة الحمادية، ص 80، عويس. دولة بني حماد، ص 148.

العزیز إلى بحاية، وهو أول من بايعه، فهذا الموقف سيظل سندا لاستمرار حظوة علي بن حمدون وبنيه من بعده في البلاط الحمادي وسندا كذلك لشرعية المناصب التي سيحتكرونها مستقبلا.

لقد أسندت لعلی بن حمدون مهمة عسكرية قادها بالموازاة مع يحيى ولي عهد العزیز عقب هجوم عرب بني هلال¹ على القلعة وتخريبها وقتل حاميتها، فكللت بالنجاح إذ ردت الهلالين وسحقت فلولهم وردت الاعتبار للجيش الحمادي بعد هزيمته في معركة سبيبة.²

ثم خلف مطرف أباه علي بن حمدون على رأس الوزارة، لكننا نجعل ظروف وسنة هذا التعین تحديدا، وهو دون شك في عهد الأمير يحيى بن العزیز (515-547)، ويبدو أنه اشتغل أول أمره بالعلم وبرع في الفقه وهي الصفة التي لازمته دوما فلا يذكر إلا بالفقيه، وكان من المفترض أن نجد له ذكرا في كتب الطبقات والتراجم لكن هذا لم يحصل؟!، على الأقل في الكتب التي بين أيدينا.

ظهر مطرف أيضا كقائد عسكري حاذق، فقد وجه الأمير يحيى إلى المهدي سنة 522 هـ فهض من بحاية إلى إفريقية، وتزامن ذلك مع ضعف الأمير الزيري الحسن بن علي (515-553) وكثرة الخارجين عليه من العرب الهلالية وبني خرسان الصنهاجين،³ وكذا الغارات المتكررة للنورماندين الصقليين على سواحل إفريقية، فاستغل مطرف هذا الضعف ليستولي على أغلب الأمصار الإفريقية وحواضرها، وأهمها طبعاً تونس، حيث أنهى مهام متوليها أحمد بن عبد الحق بن عبد العزیز سليل أسرة بني خرسان التي حكمت تونس باسم الحماديين منذ عهد الأمير الناصر بن علناس، وعاد به إلى بحاية بأهله وولده، وولّى بدلا منه كرامة بن المنصور عم الأمير الحمادي يحيى بن العزیز.⁴

إن تولية مطرف لأحد أفراد الأسرة الحاكمة على تونس دليل على قوة نفوذه وصلاحيته الواسعة، التي يشارك بها في مهام هي من اختصاص الأمير الحاكم، وقيادته للجيش لعدة مرات متوالية في دولة قامت أساسا على القوة العسكرية التي هي إحدى السمات البارزة أيضا للأمرء الأوائل بدءاً بحماد بن بلكين، يدل على ضعف شخصية الأمير يحيى بن العزیز، وليس هذا غريبا فقد وصفه ابن خلدون وابن الخطيب⁵ بأنه كان "مستضعفا مغلبا للنساء مولعا بالصيد كلفا بالملهيين والمضحكين"، وهو يمثل بوضوح المرحلة الثانية من الدورة

¹ أنظر عن الأدوار المختلفة للعرب الهلالية في الغرب الإسلامي: علاوة عمارة. الهجرة الهلالية وإشكالية الخطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، عدد4، أكتوبر 2004، ص 31-75، مصطفى أبو طيف أحمد عمر. القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين والمرينيين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 59-64، بن منصور. قبائل المغرب: 1/ 412-423.

² ابن خلدون. العبر: 6/ 234-235، بوروية. الدولة الحمادية، ص 81، عويس. دولة بني حماد، ص 150-151،

Allaoua Amara. *Pouvoir, économie et société*. op. cit. Vol. I. p. 166.

³ أنظر عن بني خرسان أمراء تونس: ابن خلدون. العبر 6/ 217-219، ابن أبي الضياف. إتخاف أهل الزمان: 1/ 187-191.

⁴ ابن عذاري. البيان المغرب: 1/ 310-315 وسماه مطرف بن علي بن خزر الزناتي، ابن خلدون. العبر: 6/ 217-218، ابن أبي الضياف.

إتخاف أهل الزمان 1/ 187-188، روجي إدريس. الدولة الصنهاجية 1/ 398-399، عويس. دولة بني حماد، ص 158،

Allaoua Amara. *Pouvoir, économie et société*. op. cit. Vol. I. p. 66.

⁵ العبر 6/ 235، أعمال الأعلام 2/ 334.

الخلدونية؛ أين يعفي الأمير نفسه من ممارسة مهامه لصالح الوزراء وقواد الجيش، فيسيروا في عكس اتجاه قوته، باستمدادهم أسباب القوة والهيمنة والبروز من ضعفه هو.

إذ سنجد مطرف سبعة سنوات بعد هذه الأحداث أي سنة 529 هـ يقود من جديد حملة عسكرية عظيمة ضد الحكم الزيري المتهلل، بمداخلة بعض العرب الهلالية وأهالي المهديّة عاصمة الأمير الحسن بن علي، فحاصر الفقيه مطرف المهديّة برا وبحرا بمساندة الأسطول الحمادي لمدة سبعين يوما، أظهر خلالها تورعا عن سفك الدماء، كآثر واضح لثقافته الدينية التي أهلته لأن يكون فقيها ولما يأمل من أن يستلم البلد دون قتال، لكن حسابات السياسة والسلطة جعلته يعدل عن هذا التوجه في ظرفيته لا في مبدئه، فخاض عدة معارك ومناوشات أخفق فيها بسبب إمدادات بعض العرب الهلالية المزوين عنه للأمير الزيري، وكذا وصول أسطول ملك صقلية روجار الثاني الذي استغاث به الزيريون لفك الحصار عنهم، وأمام هذه التطورات الجديدة انسحب الفقيه القائد مطرف، وعاد إلى بجاية دون أي نصر، بل انقراض بأقل التكاليف، الأمر الذي يقلل من الشعور بالخيبة.¹

وخلال سنة 543 هـ نقض ابن مروان صاحب توزر² طاعة بني حماد وتمرد على حكمهم المركزي، فرماه الأمير يحيى بن العزيز بوزيره وقائده الفقيه مطرف، فترل هذا الأخير توزر "وافتحها عنوة وتقبض على ابن مروان" واقتاده أسيرا إلى بجاية، فسجنه الأمير يحيى في الجزائر إلى أن مات على تلك الحال.³

وأحد أبناء الفقيه مطرف سيسلك نفس مسلك أبيه، الذي يكون قد اصطحبه معه في حروبه المتكررة، وأخذ بالرعاية والدربة على الحياة العسكرية وتثبيتته لخلافته في مهامه يوما ما، لذا سنجد بعد سنة 543 هـ يقود حملة جديدة على إفريقية فافتتح تونس التي كانت تحت حكم أبناء عمومة الأمير الحمادي يحيى، وربما خرجت من أيديهم تحت ضربات محرز بن زياد أمير بني علي إحدى بطون رياح صاحب المعلقة قرطاجة،⁴ بمساندة الأمير الزيري الحسن بن علي من المهديّة⁵ فأعادها إلى ملك بني حماد، ومنها سار إلى المهديّة وفرض

¹ ابن الأثير. الكامل 67/9-68، عبد الله بن محمد التنجاني. رحلة الصغاني، قدم لها. ح. عبد الوهاب، تونس: المطبعة الرسمية. 1377-1958، ص 339-340، ابن عذاري. البيان المغرب 1/312 (رسمي مطرف: علي بن حمدون وجعل هذه الحادثة سنة 530 على عهد العزيز بن المنصور، وهو وهم)، ابن خلدون. العبر 6/215، ابن غلبون. التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان لها من أخبار، تحقيق أمين البحري، ط1، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ص53، روجي إدريس. الدولة الصنهاجية 1/401-404، بوروية. الدولة الحمادية، ص 94-98، عويس. دولة بني حماد، ص 158-162.

Allaoua Amara. *Pouvoir, economie et societe*, op. cit. Vol. I. p.66.

² توزر قاعدة بلاد المرديد المشتهرة بكثرة غنيلها جنوب البلاد التونسية الحالية، أنظر عسها: البكري. المسالك 2/225-226، مجهول. الاستبصار، ص 155-156، الإدريسي. نزهة المشتاق 1/177.

³ ابن خلدون. العبر 6/235، عويس. دولة بني حماد، ص156،

Allaoua Amara. *Pouvoir, economie et societe*, op. cit. Vol. I. p.166.

⁴ قرطاجة أو قرطاجنة مدينة فنيقية قديمة على ساحل البحر، تبعد عن مدينة تونس 12 ميلا، اتخذها البطريرك جرجير عاصمة مستقلة له عن القسطنطينية إلى أن قتلها عبد الله بن زبير في ولاية ابن أبي السرح (25-41 هـ) راجع: ابن عبد الحكم. فوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد الحجري، ط1، بيروت: دار الفكر، 1416-1996، ص311-318، البلاذري. البلدان وفوحها وأحكامها، تحقيق سهيل زكار، ط1، بيروت: دار الفكر، 1412-1992، ص 264، ابن حبيش الأندلسي. غزوات ابن حبيش، تحقيق سهيل زكار، ط1، بيروت: دار الفكر، 1412-1992، ص367-370، البكري. المسالك 2/216-221.

⁵ ابن خلدون. العبر 6/218.

حصاراً بأسطوله البحري فضلاً عن جيشه البري، إلا أن مناعتها وحصانتها كانتا حائلين دون تحقيق هذا القائد الصاعد لمجده.¹

والمصادر الحولية والسلالية لا تعطينا اسم هذا الابن كما لا تعطينا أي شيء عن وظيفته بعد هذه الحملة، فهل هو يحيى بن علي بن حمدون الوارد ذكره عند ابن حمديس؟ هل استمر قائداً عسكرياً؟ أم خلف أخاه مطرف في الوزارة؟ إننا لا نملك إجابة عن ذلك في ظل هذه المعطيات، لكن يمكن القول بحذر أنه نفس الشخصية التي مدحها ابن حمديس.

إن كتب التراجم الأندلسية منها خصوصاً ستكشف لنا عن اسم جديد في سلسلة وزراء بني حمدون، والمعني هنا هو محمد بن علي بن حمدون؛ الذي ألف له أحمد بن عبد الجليل التدميري (تـ 555 هـ) (الأديب الأندلسي النازل بجماعة كتابا سماه "نظم القرطين وضم أشعار السقطين"، جمع فيه أشعار الكامل للمبرد والنوادر لأبي علي القالي).²

إلا أننا لا نعلم عن نشاطه ودوره في البلاط الحمادي لا الكثير ولا القليل، برغم أن هذه الإشارة اليتيمة تنبئ بأهمية هذا الوزير في جهاز الحكم الحمادي، كونه يحظى بإطراء أديب مشهور مثل التدميري الذي سوف يتخذه الخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي بعد ذلك مؤدياً لأبنائه، وهو الإطراء الذي لم يحظ به الأمير الحمادي يحيى بن العزيز نفسه.

فمن اليقين أن وجود الوزير محمد بن علي كان خلفاً لأخيه مطرف، على عهد الأمير يحيى بن العزيز، ويبدو أنه لم يستمر طويلاً في منصبه حتى عزل دون معرفة ملابسات ذلك، إلا أن منصب الوزارة لم يخرج من بين أيدي أسرته، فقد خلفه أخوه ميمون بن علي وبقي هو على قيد الحياة مشغولاً بالعلم والفقهاء إلى غاية سقوط بجماعة في يد الموحدين سنة 547 هـ،³ وعلى يد الوزير ميمون ستختتم صفحات هذه الأسرة.

ولا ينبغي علينا أن نقبل تاريخ 524 هـ الوارد عند ابن القطان الكناني، ولا تاريخ 523 هـ الوارد عند ابن عذاري⁴ كتاريخ لتولي ميمون منصب الوزارة، فقد أشرت إلى أن مطرف كان إلى غاية سنة 543 هـ في منصب الوزارة وخلفه في نفس المنصب أخوه محمد في تاريخ غير محدد.

وأرجح أن وصول ميمون إلى منصب الوزارة كان بعد خوضه غمار الحرب وتجربته كقائد عسكري لسنوات عديدة، وأرى أن الشخصية التي ظهرت فجأة باسم ميمون بن المنتصر أو ابن ميمون أيام الصراع

¹ ابن خلدون. العبر 6/235، Allaoua Amara. *Pouvoir, economie et societe*. op. cit. Vol. I. p.166.

² ابن الأبار. التكملة 1/60، ابن عبد الملك المراكشي. الذيل والتكملة 1/1/236 وفيه: "نظم القرطين وضم أشعار السقطين كامل الشمالي ونوادر القالي"، القفطي. إنباه الرواة على أبناء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، بيروت-القاهرة: مؤسسة الكتب الثقافية- دار الفكر العربي، 1406-1986، 1/189، عبد الباقي اليماني. إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، ص32، ابن القاضي. جلوة الإقباس 1/138، ولم يذكر هذا الكتاب في كشف الضنون ولا هدية العارفين ولا إيضاح المكنون ولا معجم المؤلفين.

³ مجهول. رسائل موحدية، مجموعة جديدة. تحقيق ودراسة أحمد عزاوي، ط1، القنيطرة- المملكة المغربية: منشورات كلية الآداب جامعة ابن طيفل، 1416-1995. 80/2.

⁴ نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق عمود علي مكي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ص217، اليبسان المغرب، 1/311.

الدائر بين قوات المرابطين وطلائع جيش عبد المؤمن بن علي الموحد بتلمسان سنة 539 هـ، ما هي إلا شخصية ميمون بن علي بن حمدون.

فقد رأى الأمير الحمادي يحيى بن العزيز أنه من الحكمة مساندة المرابطين الذين يقفون حاجزا دون وصول الموحدين إلى مجالهم من الناحية الغربية، فعزز صفوفهم بجيش أسند قيادته إلى ميمون، وبموضع من تلمسان يعرف بالصخرتين دارت معركة حاسمة انحلت عن الهزام تاشفين بن علي الأمير المرابطي وحليفه ميمون القائد الحمادي الفار إلى متيجة، ومن هذه الأخيرة جرت مراسلات سرية بينه وبين عبد المؤمن بن علي أعلن من خلالها توحيد والدخول في طاعته، ووعده -متأمرا- على تسهيل مهمته إن هو عزم على فتح بجاية.¹

وتصرف القائد ميمون يمكن قراءته من وجهة نظر مغايرة؛ فهو يعبر عن فطنته وبعد نظره وقوة إدراكه وفهمه لصيرورة الدول وبقائها، فهو يرى ضعف الزيريين أمام العرب الهلالية في الدواخل وأمام النورمانيين في السواحل وانشغال يحيى في بجاية بملذاته ونزواته، وليس حال المرابطين بأحسن من ذلك، أما الموحدون فهم من قوة إلى قوة وسيطرتهم بدأت تظهر في الأفق، لذا عمل على حجز موقعه في الإمبراطورية القادمة حين شرط لنفسه أن يوليه عبد المؤمن الجهة الشرقية بعد فتحها.

ولا يستبعد أن يكون القائد ميمون قد غطى هزيمته هذه في البلاط الحمادي بانتصارات سياسية أو عسكرية في جهات ومجالات أخرى طيلة السنوات الثمانية السابقة لسقوط بجاية الحمادية، وربما عن طريق المال استطاع أن يفتك منصب الوزارة لنفسه حوالي سنة 544 هـ محافظا بذلك على مجد أسرته وتألقها في ميدان الحكم والإدارة، وفي ظرف وجيز تمكن من الاستحواذ على مقاليد الدولة وتوسيع صلاحياته على حساب الأمير يحيى الذي ما ازداد إلا تنصلا من مهامه فلا "ينظر في شيء من أمور مملكته" أبدا.²

ولما سقطت العاصمة الزيرية المهديية في يد النورمان سنة 543 هـ فرَّ صاحبها الحسن بن علي إلى المعلقة وبها أحد شيوخ العرب الهلالية، ومكث فيها شهورا، ومنها أرسل كبار أولاده يحيى وثمانيا وعليها صدر سنة 544 هـ إلى صاحب بجاية يحيى بن العزيز يستأذنه في الترول عنده مؤقتا، إلى غاية الاتفاق مع الموحدين الذين بدأت تستحكم دولتهم في الجهة الغربية للمغرب الإسلامي، فاستقبلهم الوزير ميمون وأحسن لقائهم وأكرم وفادتهم، ثم كتب إلى الحسن بن علي لسان الأمير يحيى يحرضه على الوصول إلى بجاية مخافة الوصول إلى غيره فيتقوى به وهو ما سيتم فعلا، لكن الأمير يحيى بدا له ما غيّر رأيه؛ إذ رأى أن دخول الحسن بن علي حضرته

¹ البيدق. أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر: الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، 1394-1974، ص 105-106، (ويسمى القائد الحمادي "ابن ميمون بن المنتصر")، ابن عذارى. البيان المغرب: 103/4-104، البيان المغرب (موحدي)، ص 17-18، (وفيه أيضا "ابن ميمون بن المنتصر")، ابن الخطيب. الحلل الموشية، ص 97، العر 252/6، (ويسمى القائد الحمادي: "طاهر بن كباب")، هوثي مراننا. التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد أكمر، ط 1، الرباط: منشورات الزمن، 2004، ص 122، (وهو ينقل عن ابن خلدون)، بن منصور. قبائل المغرب: 145/1، والمعجب أن عويس يسميه أيضا ميمون بن حمدون ويحيل على أخبار المهدي بن تومرت وأعمال الأعلام، ولا شيء من ذلك فيما، والمذكور في أعمال الأعلام هو: لب بن ميمون الأندلسي قائد الأسطول المرابطي، أنظر: دولة بني حماد، ص 193.

² ابن الأثير. الكامل 9/ 184، ويرى عبد الوهاب بن منصور أن ميمون هو الحاكم الحقيقي لبجاية إذ جمع بين الوزارة وقيادة الأسطول، أنظر: روض القرطاس، ص 251 والإحالة رقم 387.

سيحرجه، فمن غير اللائق أن يقوم له ومن غير اللائق أيضا أن يترك القيام حسب ما تقتضيه الرسوم الملكية،¹ فأمر وزيره ميمون أن يلقاه خارج بجاية ويعدل به إلى الجزائر، وهو الطلب الذي جأه الوزير بالرفض القاطع، فلم يرد تحمل تبعات ومسؤولية حرق الاتفاق المبرم حفاظا على سمعته وسمعته أسرته وكرامتها، فقام بالمهمة بدلا منه قائد بن العزيز الحمادي.

ورغم هذا لم يعف الوزير ميمون هاتيا من تبعات الاتفاق السالف الذي ربما أبرمه دون علم الأمير أو على الأقل دون إحاطته بالتفاصيل الكاملة، لذا أوكلت له مهمة مراعاة حال الحسن بن علي وأسرته في الجزائر عن طريق رجاله ومواليه طبعاً، ومراقبة تحركاته ومنعه من السفر أو مراسلة عبد المؤمن بن علي، الذي يتوقع أن يستعين به في الهجوم على بجاية "فبولغ في التشديد عليه في ذلك".²

إن استحواذ الوزير على مقاليد الأمور وتجاوزه للأمير بهذا الشكل جعل ولي العهد يضيق ذرعاً به فجعل "يستنقص ميموماً ويقده أفعاله ويسميه الشيخ الكذاب"،³ وربما بدأ يشك في ولائه ومدخلته لأعدائهم، فخاف الوزير ميمون على نفسه وأخذ يرأس عبد المؤمن بن علي يستعجله القدوم، ويكشف له عورات البلد حسبما جرى به الاتفاق السابق بعد معركة تلمسان، فلما استكمل عبد المؤمن أسباب القوة عزم على فتح بجاية وإزالة الحكم الحمادي تمهيدا لتوحيد المغرب كله.

ففي صفر من سنة 547 هـ انطلق الجيش الموحد من سبته بقواته البحرية والبرية معا، ففتح في طريقه مدن الساحل الحمادي بما فيها الجزائر، ولما أشرف على بجاية تظاهر الوزير ميمون بتعبئة الجيش في نفي عام وخرج به مع سبع بن العزيز الحمادي، فلما التقى بالموحدين انهزم لهم من غير قتال وعاد متحصنا بأسوار المدينة، فضرب عليها عبد المؤمن حصارا وضيق عليها إلى أن فتح له الوزير أبواب المدينة وسلمه مفاتيحها، وفر أميرها يحيى إلى بونة ومنها إلى قسنطينة.⁴

ومن الغريب أن تحدثنا المصادر عن فرار الوزير نفسه إلى عرب بني سليم، فإن صح هذا الحدث فتفسره واحد، هو أنه خشي على نفسه مغبة الإطالة في تسليمه المدينة لشهور كان بالإمكان أن تستثمر في فتح جهات

¹ يرى أصحاب أدب المراهبا في "باب الملك والسلطان إذا دخل مجلس من يساويه في السلطان والبيت" أن يقوم إليه يعانقه ثم يقعه في مجلسه ويجلس هو دونه، أنظر: الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق عمر الطباع، بيروت: دار الأرقم، 1422-2002، ص 95-96.

² ابن الأثير. الكامل 157/9، التحان. الرحلة، ص 342-443، ابن الخطيب. أعمال الإعلام 2/328، أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر 2/88، ابن خلدون. العبر 6/215، ابن الوردي. تمة المختصر 2/46، ابن السراج. الحلل السندي 2/86، ابن غلبون. التذكار، ص 55-56، روجي إدريس. الدولة الصنهاجية 1/424.

³ ابن القطان. نظم الجمعان، ص 146.

⁴ البيهقي. أخبار المهدي بن تومرت، ص 132-134، ابن الأثير. الكامل 9/124-125، عبد الواحد المراكشي. المعجب، ص 144-145، (وبلورخ فتح بجاية بسنة 540)، ابن عذارى. البيان المغرب (موحدي)، ص 45-46، النويري. نهاية الأرب: 24/302-303، ابن أبي زرع. روض القرطاس، ص 250-151، ابن الخطيب. الحلل الموشية، ص 112-113، أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر 2/93، ابن خلدون. العبر 6/236-235 (ولم يذكر دور الوزير قط)، ابن الوردي. تمة المختصر 2/50، هوني ميراندا. التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ص 152، محمد علي الصلاحي. دولة الموحدين، ط 1، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1424-2003، ص 91.

أخرى ودون أن تستترف قدرات وموارد الدولة الفتية، أيا ما كان الأمر فقد كتب له الأمان ورجع من فوره وعفي عنه.¹

إن تصرف الوزير ميمون اعتبر في نظر أنصار الحماديين خيانة، فكان هذا محل أعمال أديبة، حين خلدها الكاتب أبو عبد الله محمد المعروف بابن دفرير² في رسالة كتبها عن الأمير يحيى بعد فراره يستنجد بها أمراء العرب الهلالية، دون ذكر اسمه احتقارا لعمله المشين في نظره فكذب يقول: " .. وبعد: فإن أراد الله أن يقع ما وقع لقبح آثار من خان من دولتنا وضيع، استنفر أهل مولاتنا الشنآن (أو الشيطان) وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران، فأتوا من حيث لا يحدرون، ورمو من حيث لا ينصرون، فكنا من الاستغناء بهم والتحويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء ويفر من وصل خبيث إلى حية صماء، حتى بغت مكرهم وأعجل عن التلاقي أمرهم ويرد وبال أمرهم إليهم .."³

ونظرة مغايرة لكاتب الدولة الحمادية نجدها عند كتاب الدولة الموحدية، فقد جاء في الرسالة التاسعة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن عطية الأندلسي مؤرخة في 24 جمادى الأولى 547 قوله: "وقد كان الشيخ القائد أبو محمد ميمون بن علي بن حمدون - أكرمه الله - في هذه البلاد المفتوحة على ما عرفتموه وما ألقيتموه، وكان الحديث عنه خيرا يُذكر وجنوحا إلى هذا الأمر المبارك يتكتم به ويتستر، وكان أكثر الواردين على هذه الحضرة والصادرين عنها من صنف الطلبة وغيرهم من التجار المتصرفين في هذه الأقطار يصمونه بهذه الصفات الحميدة، ويروون عنه آثار هذه الطوية الصالحة والعقيدة وتستفيض أخبارهم فيما لديه من الإدارة الحسنة والنصيحة الأكيدة".⁴

مصير البيت الحمدوني بعد سقوط بجاية الحمادية

نستطيع أن نتصور أن ميمون حظي بتقدير خاص لدى الخليفة عبد المؤمن ورجال دولته، فقد صار من "أوليائه وحمله آياديه وآلائه"، وينسحب هذه التصور على أخيه الفقيه أبي عبد الله محمد، بل وكل أبنائهم وقرابتهم؛ حيث "يتفيؤون إلى ظلاله [عبد المؤمن] المهذوة ويتصرفون بأعماله السعيدة ويردون ما يؤملونه من زلاله في حياضه المورودة".⁵

وتفاصيل هذه الخطوة غائبة في الكتابات التاريخية، كما هي بالنسبة إلى الأعمال والمهام الجديدة التي أسندت للبيت الحمدوني، فبخصوص الخطوة المذكورة في الرسالة المدججة فأرى أنها لن تخرج عن مزيد من الاقطاعات والهبات والخلع والذكر الحسن مع الثناء، أما الأعمال⁶ فليس بإمكاننا أن نتكهن لها؛ فإننا لا نعلم بالضبط من

¹ ابن عناري. البيان المغرب (موحدي)، ص 47.

² لم أقف له على ترجمة!؟

³ الأصفهاني. الخريدة 16/ 180، 19/ 211.

⁴ مجهول. رسائل موحدية- مجموعة جديدة 2/ 80-81.

⁵ المصدر نفسه.

⁶ ذكر روجي إدريس أن ميمون وأخاه محمد الفقيه تقلدا منصبين مرموقين في الدولة الموحدية ولم يذكر ماهية هاذين المنصبين. ولا أشار إلى مصدره في ذلك، أنظر: الدولة الصنهاجية: 1/ 429-430، أما هوثي ميراندا فذكر أن الخليفة لم يخلد عمدا بن ميمون؟ بحيث عينه وعددا من

ولي أمر بجاية من ذي القعدة سنة 547 هـ تاريخها الاستيلاء عليها إلى بداية سنة 548 هـ¹ حيث قسم عبد المؤمن الأعمال على بنيه، فاستعمل السيد أبا محمد عبد الله ابنه على بجاية واستوزر له يخلف بن الحسين، فهل كانت بجاية تحت إمرته أو على الأقل بقي قائدا لجيشها أو حاميتها في هذه الفترة الإنتقالية؟.

لقد أورد ابن عذاري² في أحداث سنة 552 هـ اسم ميمون بن حمدون بصفته واليا على شلب،³ وقد استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى إشبيلية لحرب النصارى معه، فهل هو نفسه الوزير الحمادي السابق كوفاً بولاية شلب في الأندلس لسالف خدمته؟ إني استبعد ذلك خصوصا وأن التاريخ المذكور غير دقيق، فمن المعلوم أن متولي الأندلس من أبناء عبد المؤمن في هذه الفترة هو أبو سعيد عثمان، وأبو يعقوب يوسف لم يعبر إلى الأندلس إلا سنة 556 هـ،⁴ فهي شخصية أندلسية أخرى تحمل نفس الاسم.

فمن الراجح إذا أن ميمون بن علي بن حمدون لم يول من أمور الدولة شيئا، وهذه قاعدة تكاد تطرد في تاريخ الدول، فالمتعاون مع السلطة الجديدة ضد أولياء نعمته الأوائل لا تسند له المناصب والمهام الإدارية ذات الشأن، لأن ولاءه لم يعد خالصا، بل يتلون حسب المصالح والظروف، فهو محل شك دائم رغم الاعتراف بجليل خدمته، ويعوض بأكثر قدر من المال والثروة لإرضاءه، وهذا ما جرى مع الوزير ميمون، وإن كان أصيل بلده الأندلسي أبو محمد عبد الله بن خيار الجبائي أحسن حظا منه، فقد كان مشرفا على مدينة فاس للمرابطين إلى أن خاتم سنة 540 هـ ففتح المدينة للموحدين، فأبقاه عبد المؤمن في منصبه لثمان سنوات إلى غاية سنة 548 هـ حيث أخرجه وقدم ولده السيد أبو الحسن علي.⁵

وأمام هذه الوضعية عاد بنو حمدون إلى ما كانوا عليه أول الأمر: أسرة تمتهن التجارة وإدارة المال والاشتغال بالعلم والفقهاء.

أربعة وثلاثون سنة التالية لفتح بجاية ستكون مساحة بور في الكتابة التاريخية بالنسبة لأسرة بني حمدون، فنحن مدينون لابن عذاري⁶ الذي ينفرد بتسليط أضواء كاشفة عن مثل هذه المساحات المهمشة التي يان تحت وطأها تاريخ المغرب الأوسط، ففي سنة 581 هـ أجزت السلطة الموحدية بني حمدون علي بيع أمواهم

المقرين منه في مناصب مهمة، دون ذكر مصدره أيضا، وقد أخطأ في تسمية الوزير ميمون وسماه محمد وهي كنيته في الأصل، أنظر: التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ص 152.

¹ تختلف المصادر في تحديد سنة تولية عبد المؤمن أبناءه الأعمال، ففي البيان المغرب (موحدي)، ص 50 يجعلها سنة 548 هـ، وفي روض القرطاس، ص 254 يورخها بـ 549 هـ، وفي العبر 316/6 يجعلها بين سنتي 547-549 هـ، أما المصادر المشرقية فتورخها بسنة 551 هـ، أنظر: ابن الأثير. الكامل 231/9، أبو الفداء. المختصر 102/2، ابن الوردي. تمة المختصر 55/2، ويرجع هوثي ميراندا سنة 549 هـ، أنظر: التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ص 160.

² البيان المغرب (القسم الموحدي)، ص 24، 50.

³ شلب وتسمى الآن Silves هي مدينة في أقصى الجنوب الغربي للأندلس تتبع الآن البرتغال، أنظر عنها: الإدريسي. نزهة المشتاق 2/543، الحميري. الروض المعطار، ص 342-343، دائرة المعارف الإسلامية: 13/352-354، ليفي بروفنسال، مادة شلب.

⁴ البيان المغرب (موحدي)، ص 73، أما ابن الأثير فيورخ ذلك بسنة 557 هـ، أنظر: الكامل 9/292.

⁵ البيان المغرب (موحدي)، ص 24-50.

⁶ البيان المغرب (موحدي)، ص 181.

وثرواتهم في بجاية وبأجنس الأثمان، تمهيدا لتغريبهم عن موطنهم الذي ترعرعوا فيه مدة ثلاث قرون متوالية، ونفيهم إلى المغرب الأقصى وتحديد إلى سلا،¹ وهذا بعد استرجاع بجاية الموحدية من الفلول المرابطية بنو غانية الذين استولوا عليها في صفر سنة 581 هـ على عهد واليها السيد أبي الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن،² مما يسمح لنا بافتراض وجود خيانة³ ومحاولة انقلاب عن سلطة الموحدين قام بها بعض أفراد الأسرة كعميين لبني غانية، انتقاما لتهميشهم وابعادهم عن دوايب السياسة المؤثرة في صناعة القرار على الأقل داخل بجاية.

فردت الفعل الموحدية التي استهدفت إبعادهم عن المجتمع الذي نبغوا وبرزوا فيه، إلى مجتمع جديد مع محاولة إفقارهم وإزالة كل أسباب الثروة والقوة المالية عنهم المستدرة للجاه، كانت الضربة التي قصمت ظهر البيت الحمدوني خلال نهاية القرن السادس الهجري.

فما هي وضعيتهم الجديدة في سلا؟ هل حاولوا إعادة بناء مجد الأسرة بشكل ما؟ هل بقوا بسلا أم عبروا منها إلى الأندلس موطنهم الأصلي أم إلى غيرها؟.

سكوت المصادر يعيق محاولات الفهم والتركيب والإجابة، ويجعل التخمين مستحيلا؟ وفي نفس الوقت تعطينا هذه المصادر إشارة فريدة عن المسمى علي بن حمدون في سلا، الذي يظهر أنه انخرط في حركة التصوف وجعل منزله محطة لرواد المدينة من المتصوفة، كما هو الشأن مع أبي علي الشريشي الأندلسي، المعروف بالبكاوي دفين سلا، وهو من كبار الأولياء المتصوفة⁴، لكننا لا نملك أن نؤكد إتمامه لبيت الوزراء ببجاية.

ومن لطائف الأقدار أن نهاية كل قرن خصوصا العقد الثامن منه شهدت فيه الأسرة الحمدونية أحداثا كان لها أثرها البعيد.

ف سنة 280 هـ تمثل بداية ظهور الأسرة في المغرب الأوسط باتصالهم بالداعي الشيعي.
وسنة 393 هـ تمثل آخر ظهور لهذا الفرع مجسدا في يحيى بن علي بن حمدون في مصر.

¹ سلا مدينة ساحلية على ضفاف الأطلسي تبعد عن مراكش 8 مراحل وعن فاس 4 مراحل، وهي موازية لوادي أبي الرقاق الذي يفصلها عن مدينة الرباط العاصمة الحالية، أنظر: الزهري. الجغرافيا، ص 115، مجهول. الاستبصار، ص 140-141، الإدريسي. نزهة المشتاق 1/ 238-239، أبو الفدا. تقويم البلدان، ص 130-131، ابن الخطيب. معيار الاختيار، ص 152-156، ليفي برونسفال. نجمة تاريخية، ص 45-46. حمدي عبد المنعم محمد حسن. مدينة سلا في العصر الإسلامي - دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ص 16-40.

² أنظر عن تفاصيل دخول بني غانية ببجاية: ابن الأثير. الكامل 10/ 11-12، ابن عذاري. البيان المغرب (موحدي)، ص 175-182، ابن خلدون. العبر 6/ 254-255، طه ذنون. تاريخ المغرب العربي، ص 358، عبد الرحمن الجيلال. نخبة عن زحف علي بن غانية الميورقي على بجاية، الأصالة، عدد 19، ص 31-37، عبد القادر جاد الرب. حركة المقاومة للدولة الموحدية - حركة بني غانية نموذجًا، مجلة التاريخ العربي، عدد 20، ص 175 وما بعدها.

Slimane- Mostafa Zbiss. « *Considérations sur la tentative de Pouvoir Almoravibe en Maghreb et Oriental* ». dans : *Actas del II Cologula Hispano - Marroqui* .op.cit. p31-40.

وقد جعل ابن الجزري الدمشقي استرجاع بجاية سنة 583 هـ، أنظر: المختار من تاريخ ابن الجزري، تحقيق خطير عباس محمد خليفة المشداوي، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1408-1988، ص 64.

³ هذا ما يؤكد ابن خلدون في موضع آخر: العبر 6/ 326.

⁴ التناذلي. التشوف إلى رجال الصوف، تحقيق أحمد توفيق، ط2، الرباط: منشورات كلية الآداب- جامعة محمد الخامس، 1997، ص 202.

وسنة 480 هـ تمثل ظهور الفرع الثاني للأسرة المحسد في علي بن حمدون واتصاله بالأمير الحمادي المنصور بن الناصر.

وسنة 581 هـ تمثل نهاية التأريخ للأسرة بعد نفيم إلى سلا.

إجمالاً للقول يمكن أن نقول أن أسرة بني حمدون ظهرت على مسرح الأحداث قرابة قرن من الزمن، إثنان من وزراءها كانا من جملة الفقهاء، وإعطاء لقب القائد لوزراء الأسرة يشهد لهم دوماً على الدور المهم في منظومة الحكم الحمادي، في مجال السياسة والإدارة المدنية والعسكرية معاً، ونفوذهم ازداد أكثر في المرحلة الأخيرة للحكم الحمادي على عهد الأمير يحيى بن العزيز، الذي فوضهم في كل شؤون المملكة تسليماً بالأمر الواقع منه، وهذا النموذج من الوزارة يعبر عنه كتاب الأدب السياسي أو السياسة الشرعية بوزارة التفويض،¹ وسياسة الأمر الواقع التي فرضها الوزراء المفوضون، لم يستكن إليها الخلفاء والأمراء فقط، بل لم يسلم منها حتى المفكرون والفقهاء والمشرعون بإعطائهم الشرعية لهذا النموذج.²

¹ أنظر عنها: الماوردي. الأحكام السلطانية، ص 48-53، نفسه. قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق الهادي حسين، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص 10 وما بعدها، الفراء. الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403-1983، ص 29-32، وقسارن بموقف الجويني. الغيالي: غياث الأمم في الغياث الظلم، تحقيق عبد العظيم ديب، ط 2، القاهرة: مطبعة نمضة مصر، 1401، ص 148-158، الذي يرى ذلك من قبيل الجمع بين إمامين وهذا غير سائق في نظره. وراجع كذلك: الفضل شلق. الفقه والدولة الإسلامية ضمن: الوعي بالصالحات ومعايها. ط 1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1420-2000، ص 20-22، 52-54، صلاح الدين بسويدي رسلان. الوزارة في الفكر السياسي دراسة مقارنة، القاهرة: دار قباء، 2000. ص 50-66.

² سعيد بن سعيد العلوي. أبو الحسن الماوردي: المشرع القانوني والمفكر السياسي، مجلة التاريخ العربي، عدد 4، ص 41.

الفصل الثالث

بيوتات تلمسان في العهدين

الموحدي والزياي

جامعة الأمير عبد القادر
عظوم الإسلامية

شهدت تلمسان نهضة علمية وعمرانية وسياسية ملحوظة منذ القرن الخامس لموقعها المتميز، كونه حلقة وصل بين مسالك التجارة الصحراوية والأندلسية من جهة، وحلقة وصل أخرى بين إفريقية والمغرب الأقصى من جهة ثانية، مما انعكس إيجاباً على حياة المجتمع برفاهيته، والمدينة باتساعها، والملك باستحكام الأمانة والطرف فيه. فكل هذه الأوضاع ساعدت على وجود حركية وديناميكية متميزة داخليا وخارجيا، وكان الأندلسيون أكثر المترددين على تلمسان للتجارة وطلب العلم والتعب، ومن ثمة الاستقرار في المدينة وأرباضها، لما لاقوه من تشجيع ولاة الموحدين ومن بعدهم ملوك بني عبد الواد لهم على ذلك، للاستفادة من كفاءات وخبرات هؤلاء الأندلسيين.

وفي المقابل فتحت السلطة للأندلسيين أبواب المناصب الراقية على مصارعها، كالكتابة والقضاء والخطابة والتدريس والجندي، فاضطلعوا بها بمجدارة مكنتهم من توريثها لأعقابهم، فظهرت فيهم بيوتات نبهة منها من استطاع أن يحتكر منصب معين لقرن وأزيد شأن البيت العقباني الذي تولى قضاء الجماعة، وبيت ابن أبي العيش الذي تولى الخطابة في الجامع الأعظم، ومما زاد من كثرة وطول الزمن الذي مضى على ترعب هذه البيوتات على عروش المناصب السامية؛ الاستقرار الذي عاشته تلمسان مقارنة ببجاية، كما يتضح ذلك من طول فترة حكم الأمراء كيفغراسن وأبي حمو الثاني.

فكما كانت أكبر نسبة للمهاجرين الأندلسيين نحو تلمسان، فإن ذلك انعكس إيجاباً على البيوتات التي كانت تستمد جزء من قوتها من قوة النخب والجماهير التي تشاركها الانتماء والولاء، فقد أحصى بجنا عشرة بيوتات في هذه المدينة المملكة، كما أن أشهر بيت أندلسي في المغرب الأوسط بعد بيت ابن حمدون بفرعيه، مثله العقبانين الذين خرجوا نحو خمسة عشر فقيهاً؛ منهم فقيهان وصلوا درجة الاجتهاد في المذهب المالكي، كما أن ميزة بيوتات تلمسان هي تنوعها وتخصصها في معارف وفنون وأعمال شتى، وخلقت لنا مع ذلك تراثاً مكتوباً ساهم بشكل مباشر في إحياء وإثراء الثقافة المغربية الوسيطة، بصورة جليلة.

كما أنها استطاعت أن تغطي فترة واسعة من الزمن، أي منذ سنة 511 هـ تاريخ ظهور أول بيت وحتى 898 هـ تاريخ نهاية آخر بيت.

بيت ابن جبل الهمداني: قضاة وكتاب الدولة الموحدية والنزانية (511-707 هـ)

نسبهم وأصلهم

بيت ابن جبل الهمداني أول بيت ظهر في عهد الدولة الموحدية وأولها في الجهة الغربية للمغرب الأوسط، ووجوده ارتبط مبكراً بمؤسس الدولة وإمامها المهدي بن تومرت.¹

ينتسب هذا البيت في همدان إحدى بطون ربيعة القبلية القحطانية اليمنية الأصل.² أما عن أصلهم فالروايات بشأنه مختلفة، فرواية التاج ابن حمويه الدمشقي³ في الرحلة المغربية التي نقلها عنه سعيد المغربي⁴ تفيد أنهم من المرية، أما باقي الروايات⁵ ففيها أن أصلهم من مدينة شلوبانية،⁶ وهو الذي نرجحه لتوافر المصادر المغربية عليه.

بيت ابن جبل الهمداني بين وهران وتلمسان ومراكش

إن تاريخ وسبب هجرة بنو جبل إلى المغرب الأوسط مجهولين لدينا، فقد استقروا أول الأمر بمدينة وهران مدينة البحارة الأندلسيين، وأول ظهور للأسرة تزامن مع مرور المهدي بن تومرت على تلمسان سنة 511 هـ حسب ابن القطان، أو سنة 512 هـ حسب ابن خلدون،⁷ حيث انظم إليه ابن جبل الهمداني والتزم مع الطلبة،⁸ وإن لم

¹ أنظر عن هذه الشخصية المثيرة للجدل: ألفرد بال. الفرق الإسلامية، ص 250 - 278، رشيد بوروية. ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، عبد الحميد النجار. المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره في المغرب. ط 1، بيروت: دار المغرب الإسلامي، 1983 - 1403.

Goladziher (1). *Mohammed Ibn Toumert : et la theologie de l'Islam dans le nord de l'Afrique au XI^{ème} siècle*, Alger, 1903. (107 p).

² أنظر: الكلي. نسب معد واليمن الكبير 509/2، ابن سلام. النسب، ص 334، الخازمي. عجالة المهدي، ص 172، البني البلنسي. تذكرة الألباب، ص 140.

³ هو أبو المظفر صدر الدين محمد بن عمر بن علي بن حموية الدمشقي الكاملي، ولد سنة 572 هـ وتوفي سنة 652 هـ، له رحلة إلى المغرب. الفصون الياقوتية، ص 29.

⁵ ابن عبد المالك المراكشي. الدبل 339/1/8، ابن الزبير. صلة الصلة (ملحق) 526/2/8، يحيى بن خلدون. بغية السرواد 113/1، العباس المراكشي. الإعلام 250، 294/7.

⁶ إحدى مدن كورة ألبيرة تقع على ساحل البحر المتوسط تعرف في الإسبانية باسم Salobreno. سقطت في يد الإسبان سنة 894 هـ. أنظر: ابن الخطيب. معيار الاختيار، ص 97، الحميري. الروض المعطار، ص 343.

⁷ نظم الجمان، ص 77، المعر 235/6، أنظر كذلك: بوروية. ابن تومرت، ص 40، النجار. المهدي بن تومرت، ص 90، محمد علي الصلابي. دولة الموحدين، ط 1، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1424 - 2003، ص 22 - 24.

⁸ الطلبة في المفهوم الموحد هي مبشري الحركة الموحدية، ثم أصبحوا ممارسون ووظائف دعائية وعسكرية وسياسية، وهم يحتلون المرتبة الثالثة أو الرابعة في نسق التنظيم التومرتي، على خلاف بين من يرى أمر أهل السبعين صحيحاً أو لا يراه، أنظر: النجار. المهدي بن تومرت، ص 116-117، عز الدين عمر موسى. الموحدون في المغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1414-1991، ص 77-78، نفسه. التنظيمات الحزبية عند الموحدين في المغرب (515-668 هـ)، مجلة أبحاث (الجامعة الأمريكية) المجلد 23، الجزء 1، عدد 198، ص 64، لخضر بولطيف. فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في المغرب الإسلامي (510-668 هـ)، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر. 1423-2002، ص 134-142.

يذكر لنا البيهقي الصنهاجي اسم ابن جبل هذا إلا أن أننا نرجح أن يكون هو نفسه أبو عبد الله محمد مؤسس البيت في المغرب الأوسط، ونشاطه يكتنفه الكثير من الغموض فلا يعرف على وجه التحديد، ومن المؤكد أنه كان أحد مروجي الفكر الموحدية التومرتي في وهران وتلمسان، بالإضافة إلى عمله في طلائع الجيش الذي عمل على إسقاط المرابطين وكل خصوم الدولة المرتقبة، فجهادهم واجب بحسب تعاليم ابن تومرت.¹

خلف أبو عبد الله بن جبل بعد وفاته عدة أبناء أشهرهم: أبو محمد عبد الله الذي سيتولى إحدى الوظائف المرموقة في البلاط الموحدية على عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي (524-558).

فقد ذكره ابن القطان وابن صاحب الصلاة وابن عذارى وابن أبي زرع² في كتاب عبد المؤمن، أما عبد الواحد المراكشي فذكره في جملة قضاته أي قاضي الجماعة (قاضي القضاة) بكرسي المملكة مراكش قبل سنة 557 هـ،³ ولا يستبعد أن يكون قد تدرج في المناصب والوظائف بدءاً بالكتابة ثم رُفِيَّ إلى منصب قاضي الجماعة. وترتيباً للأحداث أستطيع القول أن عبد الله بن جبل ولي الكتابة في السنوات الأولى للدعوة الموحدية أي قبل سنة 541 هـ، فقبل هذا الوقت كان كاتب الموحدين هو ميمون الهواري القرطبي وبعده عبد الله بن جبل، ولما فتحت مراكش سنة 541 هـ دخل في خدمة الموحدين الكثير من رجال الدولة المرابطية البائدة أمثال كاتبهم الشهير أبو جعفر أحمد بن عطية الأندلسي الأصل⁴ ليستغنوا عن خدمات ابن جبل، وبعد فتح بجاية سنة 547 هـ التي وفرت للبلاط الموحدية عدة كتاب أشهرهم أبو القاسم القالمي وابن محشرة البجائي⁵ استغنوا عن خدمات ابن عطية نفسه بأن تخلصوا منه قتلاً.

ومن المعلوم أن الكتاب على أربعة أصناف: كتاب الحضرة وهو أهمهم وكتاب الجيش وكتاب الأحكام وكتاب الخراج،⁶ ولما كانت الدولة في مرحلة التأسيس وقد أخذت على عاتقها ضم كل أقطار المغرب والأندلس بقوة السلاح، فلا يستبعد حينها أن يكون كاتب الحضرة نفسه كاتب الجيش تساوفاً مع طبيعة المرحلة التي تجتهد لها كل الطاقات لإنجاح المشروع الموحدية الطموح.

فقد كان للكتاب مكانة مرموقة في بلاطات العصر الوسيط فهم بتعبير الجهشياري "تراجم الملوك"، تقدمهم "وتعرف فضل صناعة الكتابة وتحظى أهلها، لما يجمعونه من فضل الرأي إلى الصناعة، وتقول: هم نظام الأمور وكمال الملك وبهاء السلطان، وهم الألسنة الناطقة عن الملوك وخزان أموالهم وأمنائهم على رعيتهم وبلادهم".⁷

¹ ابن تومرت. أعز ما يطلب، تحقيق عمار طالي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 242-250، عمدة المفراوي. الموحدون وأزمات المجتمع، ط1، الرباط: جذور للنشر، 2006، ص 21-24.

² نظم الجمال، ص 210، المن بالإمامة، ص 156، البيان المغرب (موحدية)، ص 80، روض القرطاس، ص 268.

³ المعجب، ص 142، لخضر بو لطيف. القضاء في عصر الموحدين قراءة تفويجية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الأمير عبد القادر، عدد 7، نوفمبر 2006، ص 67.

⁴ ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة، ص 156.

⁵ المراكشي. المعجب، ص 141، ابن أبي زرع. روض القرطاس، ص 271، إسماعيل سامي. أبو القاسم عبد الرحمن القالمي كاتب الدولة الموحدية: حياته وآثاره، الجزائر: دار الفجر، 2006. (60 ص)

⁶ ابن أبي الربيع. سلوك المالك في تدبير الممالك، ص 111-112.

⁷ الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2004، ص 3-4.

ففي العهد العباسي حرص الخلفاء على أن يتولى الكتابة من ينتمي إلى نسب رفيع مع تمتعه بسعة العلم وعمق الثقافة، فمركز الكاتب أحيانا إذا تميز بقوة الشخصية والدهاء كان يعادل مركز الوزير، ويجلس أحيانا مع الخليفة في منصة القضاء لينظر في الدعاوى والشكاوى ويحتمها بخاتم الخليفة.¹

لكن لم تكن النظرة إليهم واحدة حتى في هذه العصور المشار إليها، فقد كتب الجاحظ رسالة سماها "كتاب ذم أخلاق الكتاب" أبدى فيها امتعاضه من هذه الطائفة؛ إذ يرى أن الكتابة "لا يتقلدها إلا تابع، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم"، وصورة ذلك أنه "لا يحضر كاتب الرسل لثابتة ولا يفزع إليه في حادثة، فإذا أبرم الوزراء التدبير ووقفوا منها على التقدير، طرحت إليه رقعة بمعاني الأمر لينسق فيه القول، فإذا فزع من نظامه واستوى له كلامه، أحضر له محرره فجلس في أقرب المواطن من الخليفة.. وامنع المنازل المختلفة.. فإذا تقضى ذلك فهما والعوام سواء"،² وهذه بالنسبة إليه طبائع لئيمة.

وهي نظرة مغايرة تماما لما يقرره أحد أشهر من مارس هذه الوظيفة في الدولة الإسلامية عموما وهو عبد الحميد الكاتب في "رسالة إلى الكتاب"، فمما جاء فيها: "إن الله عز وجل.. جعلكم معشر الكتاب في أشرفها صناعة أهل الأدب والمروءة والحلم والروية، وذوي الأخطار والهمم وسعة الذرع في الإفضال والصلة، بكم ينتظم الملك وتستقيم للملوك أمورهم، ويتدبركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ويجمع فيهم وتعلم بلادهم، يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه والوالي في القدر السني والدين من ولايته، ولا يستغني عنكم منهم أحد، ولا يوجد كاف إلا منكم...".³

وعبد الحميد الكاتب في رسالته إلى أهل صنعته يعبر نيابة عن كثير من الكتاب الذين صنعوا في العهد الإسلامية المختلفة صورة لأنفسهم، ولعلاقتهم بالسلطة المنضوون تحت لواءها تأكيدا على ولائهم لها، فهم "ليسوا بيروقراطية فنية أو تقنية محايدة تعمل مع كل العهود أو الدول بل هم "جزء" من المشروع السلطوي المسيطر، يرتفعون بارتفاعه وينقضون بانقضائه، فهم جزء من "البنية التنظيمية" للسلطة أو "لسان" لها وليسوا موظفين عاديين... فالصورة ليست اصطناعا في فراغ بل هي غودج لما كانوا يطلبون من أنفسهم، ولما كانوا يريدون أن تراه السلطة التي يعملون لها فيهم".⁴

إن إقناع السلطة بالصورة التي رسمها الكتاب لأنفسهم بممارستهم الميدانية، من شأنها أن تساهم بجد في تكريس مبدأ الوراثة في احتكار منصب الكتابة، وتجاوزته بذلك إلى الظفر بمناصب أخرى لا تقل أهمية عنها لأعقابهم، والسير بخطوات متسارعة في تأسيس البيوتات المتنفذة، فهذا الوضع ينطبق على عبد الله بن جبل وأسرته.

¹ صبحي صالح. النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط 6، بيروت: دار العلم للملايين، 1982، ص 304-305.

² الجاحظ. رسائل الجاحظ، 132-121/2، عبد الأمير شمس الدين. الفكر التربوي عند ابن المقفع، الجاحظ، عبد الحميد الكاتب، ص 268-270، وقارن بـ: أبي حامد الغزالي. الفير المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق سامي خضرة، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ص 93.

³ إحسان عباس. عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقي من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، ط 1، عمان: دار الشروق، 1988، ص 281، عبد الأمير شمس الدين. الفكر التربوي، ص 101.

⁴ رضوان السيد. الجماعة والمجتمع والدولة، ص 127.

وذلك أن هذه الخطة حظيت باهتمام كبير وبعناية فائقة من قبل الموحدين الذين اعتمدوا الرسائل كوسيلة دعائية ناجعة لسياساتهم ومنجزاتهم، فكانوا يثبونها إلى مختلف الأقطار والولايات حاثين ولائهم وعمالهم على إذاعتها والترويج لها بين الناس،¹ فمن أبرز الكتاب الذين أنيطت بهم مهمة صياغة الخطاب الرسمي للبلاد الموحدية عبد الله بن جبل.

ولما كان عبد الله بن جبل أحد الفقهاء الذين درسوا في تلمسان وتخرجوا منها فقد قلد القضاء، أي قاضي الجماعة في عهد عبد المؤمن وصدرًا من خلافة ابنه أبي يعقوب المنصور (558-580).² ومتولي هذه الخطة يعد من كبار موظفي الدولة إلى جانب الوزير، فهما يستمدان سلطتهما من السلطان نفسه، وتعيينه بمثابة إعلان أي سلطان لاستقلاله،³ وفي الحقيقة "منصب القضاء مقدم على منصب الإمامة لمزية الشرع على السياسة"، إذ لم يكن في نظر السلطة ففي نظر المجتمع والنخب العلمية،⁴ ومن مظاهر ذلك أن يقدم في المخاطبات والمكاتبات.

ونستطيع أن نستنتج دون ريب من هذه التولية أن ابن جبل لم يكن مجرد مشغل بالفقه بل متضلعا فيه؛ وهو سمته الأولى في وهران وتلمسان قبل الفتح الموحدية، لأن "خطة القضاء هي الخطة التي لها بفرع في مشكلات النوازل، وبحقها يصدع في مبهات المسائل"،⁵ وهذا لا يتأتى لفقيه متواضع البضاعة. إن صلاحيات قاضي الجماعة متعددة فهو الذي يقترح قضاة الأقاليم ويتابع أفضيتهم، وينظر في الشكاوى المرفوعة ضدهم، كما له مشاركة في توجيه سياسة الدولة بمشاوره السلطان له.⁶

إلى جانب هاتين الوظيفتين اشتغل ابن جبل بالوظيفة التقليدية المعتادة لكل فقيه وهي التدريس والتعليم، وتملك اسم واحد فقط لتلاميذه وهو أبو الخطاب بن خليل القاضي.⁷

كما تصدى للخطابة لما امتلك قوة الفصاحة والبلاغة، وكثيرا ما يقترن اسمه هنا بصاحبه أبي الحسن علي ابن محمد بن خليل المعروف بابن الاشيلي (ت-567 هـ) الفقيه الخطيب، فقد قام خطيبا في حضرة الخليفة عبد المؤمن لما نزل جبل طارق وجاءته وفود الأندلس في ذي القعدة سنة 555 هـ، "في حق البيعة ولزومها وربط الشرع بعهودها ورسومها"، فأفصح بما خطب وجاء من كلامه بالسحر الحلال وأطنب، والوفود تتعجب من بلاغته غاية العجب وهم من هم عراقة في الأدب والبيان والترسل.⁸

¹ - رسائل موحدية: مجموعة جديدة، ج2، صفحات متفرقة، بولطيف. فقهاء المالكية والتجربة الموحدية. ص 131.

² - عبد الواحد المراكشي. المعجب، ص 142.

³ - هو بكر. النظم الإسلامية، ص 121.

⁴ - موسى بن حسن الموصلي. البرد الموضي في صناعة الإنشاء، تحقيق عفاف سيدة مرة، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1410-1990، ص 60-61.

⁵ - رسائل موحدية: مجموعة جديدة، ص 509.

⁶ - عز الدين عمر موسى. الموحدون في الغرب الإسلامي، ص 200. بولطيف، القضاء في عصر الموحدين، ص 52-53.

⁷ - ابن الزبير. صلة الصلة (ملحق) 505/2/8.

⁸ - ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة، ص 95، 163، ابن الزبير. صلة الصلة (ملحق) 505/2/8.

أما عن مكانته في المنظومة التراتبية الموحدية، فهو لم يتراوح مكانة أبيه، فقد عُد هو الآخر من "طلبة" الحضرة.¹

إن خدمة محمد بن جبل وابنه عبد الله للمشروع الموحد أدت على هذا الأخير أموالاً جليلية، أو بتعبير ابن الأبار: "نال بخدمة السلطان دنيا عريضة" بالحضرة مراکش التي أنفق فيها بقية حياته إلى أن توفي بها مستهل ربيع الآخر سنة 557 هـ ودفن منها بروضة الشيوخ.²

الفرع المرواني والأدوار الجديدة

رغم الجاه والسؤدد الذي ناله عبد الله بن جبل والمكانة التي رفعته إليها الدولة الموحدية، إلا أنه لم يعقب من الأبناء من له القدرة على حمل راية الأسرة والسير بها خطوات لها ما بعدها مطلقاً، لكن ذلك لم يمنع استمرار الوجود الحضاري لبيت بني جبل عامة، فقد اضطلع الفرع المرواني بما عجز عنه أبناء القاضي الكاتب.

وينسب هذا الفرع إلى مروان بن محمد بن جبل الأخ الثاني للمذكور آنفاً، وهو شخصية غير معروفة، ويبدو أنه لم يكن ذا همة ونشاط وثقافة تؤهله لسلوك طريق أخيه وأبيه، كما يبدو أيضاً أنه بقي في وهران ولم يغادرها. وبوهران ولد له ابنه علي الذي سلك طريق الخدمة العسكرية والجنندية تساوفاً مع المرحلة، أيام كون الدولة الموحدية تعيش أعز انتصاراتها وفتوحاتها التوسعية، ولكفاءته بما اضطلع به ولمكانته في أوساط المجتمع الوهراني ورضى أعيانها عليه، ولتته السلطة عاملاً على مدينة وهران³ التابعة إدارياً لولاية تلمسان، والتي تشكلت مع ولاية بجاية المغرب الأوسط الموحدية، وكانت كل ولاية تقسم إلى أقسام إدارية صغرى تسمى "الأعمال" أو "العمالة"،⁴ وعادة ما يتولى هذه الأعمال شخص من طبقة الحفاظ وهم صغار "الطلبة"،⁵ أي أن علي ابن مروان كان ذا ثقافة معتبرة تقوم في أغلبها على الفكر الموحدية وتعاليم ومؤلفات المؤسس المهدي بن تومرت.

وبوهران دائماً ولد أحد أبرز أعلام هذا الفرع وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان⁶ الذي أخذ مبادئ العلم عن والده بوهران ثم اختار تلمسان أو اختيرت له ليستكمل طلبه للعلم بها، إذ كانت من المراكز العلمية الرائدة، فنشأ هناك مُحدداً في الفقه والأدب مع ميل واضح إلى علم الظاهر وعمدته في ذلك مؤلفات ابن حزم الأندلسي الظاهري (تـ 456 هـ)، فأكب على مطالعتها ودراستها حتى اشتهر ذلك عنه،⁷ وكان عالي الهمة

¹ - ابن القطان. نظم الجمان، ص 121.

² - ابن الأبار. التكملة 2/304، العباس المراكشي. الإعلام 8/192، بوابة. الروابط الثقافية بين وهران والعدوة الأندلسية، ص 70.

³ - ابن سعيد. العيون الباقية، ص 29، وقد سمي هنا خطأ بـ"عبد الله".

⁴ - عز الدين عمر موسى. الموحدون في الغرب الإسلامي، ص 174، 177.

⁵ - أنظر عنهم: هوبكتر. النظم الإسلامية، ص 187-191.

⁶ - ذكره العباس المراكشي في موضعين وعدّ ذلك ترجمتين لشخصيتين مختلفتين، أنظر: الإعلام 4/121، و4/47.

⁷ - ابن سعيد. العيون الباقية، ص 29-30.

سري النفس مكتسبا للمهارات ذا خط بارع، ولما شب عوده وأزهرت ثماره ولي قضاء تلمسان فترة من الزمن على غير وجه التحديد.¹

ولقد لقيه موسى بن سعيد الأندلسي والد المؤلف الشهير "ابن سعيد" وعده من أهل العلم، "وأظن في الثناء عليه من جهة التعصب والسعي الجميل في حق من اعتمد عليه، مع خلق أندى من النسيم وأدب أنف من الوجه الوسيم، قال: إلا أن حفظه (للحديث) وعلمه بالأدب فوق شعره"، إذ كانت له مشاركة في صناعتي النظم والنثر، وقد أورد بعضا من شعره.²

كانت لمحمد بن علي بن مروان صلوات وثيقة في مراكش - التي زارها لأغراض عديدة وفي مناسبات مختلفة- بكبار رجال الدولة كقاضي القضاة أبي جعفر بن مضاء اللخمي القرطبي (ت 592 هـ) الظاهري،³ الذي كان يستنبيه في القضاء عن نفسه "ويرشحه لما هو أهله" ويسعى له عند الخليفة ويستدنيه منه، رغم تحذير أصحابه الحاسدين لابن مروان خشية أن يسود مكانه، وابن مضاء مدرك لما سيؤول إليه الأمر، فكان يجيب "الرأي ما ظننته، إنه رأيي، هذا رجل لاحت لي فيه بوارق السعادة ولا بد أن يتقدم رضيت أم سخطت، والأولى أن أظهر أن تقدمه بترشيحي وسعيي له، فإن وفى اشتركتنا في حمد الناس، وإن لم يف انفرد باللامعة".

ففي سنة 583 هـ مرض ابن مضاء هذا فاستناب على عادته محمد بن مروان "فاشتغل ابن مروان بالحكم بين الناس، فظهر منه من حسن الخلق والسياسة ما اشتهر به اسمه ونسي معه ابن مضاء"، ويبدو أن مرض ابن مضاء كان لفترة ليست بالقصيرة، فما كاد يشفى ويستقل من علته إلا والخليفة أبو يعقوب المنصور قد حاك في قلبه وعزم على تولية ابن مروان قضاء الجماعة بدلا منه، وذلك ما تم آخر سنة 584 هـ أو بداية 585 هـ،⁴ خصوصا وقد صادف انحراف المنصور عن كتب الفروع وميله إلى مذهب أهل الحديث والظاهر،⁵ وهو ما يتسم به ابن مروان مع الإعجاب الشديد بشخصه، "فكان لا يدخل عليه أوجه عنده ولا أخف على قلبه منه"، وقد أشار المؤرخون إلى صفة من الصفات التي قربته من المنصور حيث "كان يخطب عن المنصور في محافل الوفود ومشاهد الجماهير قياما بالمصالح وإعرابا عن الأغراض والمقاصد"،⁶ وكان إذا رآه ابن مضاء والناس قد أقبلوا عليه أنشد: [طويل].

¹ - ابن الأبار. التكملة 161/2، ابن عبد الملك المراكشي. الذيل 339/1/8، العباس المراكشي. الإعلام 477/4، فنون المهاجر. ومروان تاريخ وقفاة، ص 111-112.

² - ابن سعيد. الغصون البانعة، ص 30-31.

³ - عن ظاهرية ابن مضاء أنظر: بكري عبد الكريم. ابن مضاء الظاهري، مجلة مركز البحث والإعلام الوثائقي.

⁴ - ابن سعيد. الغصون البانعة، ص 31-32. ابن الأبار. التكملة 161/2، ويرى عبد الواحد المراكشي أنه ولي القضاء بعد موت ابن مضاء سنة 592 هـ وهو وهم. أنظر: المعجب، ص 187.

⁵ - أنظر عن موقف المنصور من فقه الفروع: الحموي. الفكر السياسي 196/4-205، كتون. البوغ المغربي، ص 119-120، النجار. المهدي بن تومرت، ص 488 وما بعدها، الحسين. مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحد، المغرب- الإمارات: اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي، 1403-1983، 13/2، وما بعدها، سعيد أعراب. موقف الموحدين من فقه الفروع وحمل الناس على المذهب الحزبي، دعوة الحق، عدد 6، السنة 26، 1985، ص 26-30، وفارن بس: فاروق حمادة. النهضة الفقهية في ظلال الثورة الموحدة، مجلة التاريخ، عدد 4، ص 149 وما بعدها.

⁶ - ابن عبد الملك المراكشي. الذيل 340/1/8، ابن الزبير. صلة الصلة (ملحق) 505/2/8.

ما يستوي الثوبان ثوب به البلى وثوب بأيدي البائعين جديد.¹

لقد تقلد ابن مروان القضاء محمود السيرة، مشهودا له بالعدل والزاهة والتوءدة، شديد الهيبة عارفا بأحكام القضاء سريع الفصل بين الخصوم، "لم يجلد أحدا طوال ولايته بسوط".²

لكن كثرت إشاعات الحاسدين ووشاياتهم في ابن مروان وسعوا شرا به إلى الخليفة، حتى صح عنده يوما أن ابن مروان قد شرب ليلة مع ندمائه بالقرب من داره وخواري الخمر عنده، فكلف المنصور أبا القاسم بن بقي أن يتأكد له من صحة ذلك فطلب هذا الأخير الإعفاء من هذه المهمة، فهَمَّ الخليفة بإقامة الحد على قاضيه ابن مروان، وكان في المجلس أبو عبد الله بن إبراهيم الأصولي؛ ورغم ما كان بينه وبين ابن مروان ما يكون بين الأقران من التنافر والمنافسة، إلا أنه عمل على ثني عزم الخليفة عن تتبع زلات القاضي وإقامة الحد عليه، وطلب إقالة عشرته قائلا: "يا سيدنا لا تفعلوا، والأولى أن تلتمس شبهة يدرأ بها عنه الحد، ثم تشيع هذه الأحداث حتى تبلغ صاحب بغداد، ويقال إن المنتسب إلى أشرف حطط الشريعة شارب حمر، فكف المنصور عنه عند ذلك"، وعد ابن مروان ذلك مزية حفظها وفاءً لغيره.³

ومن الوشايات التي أطلقوها أيضا عند الخليفة يتبعون إزاحة ابن مروان عن منصبه قوهم: "أنه نزل بتلمسان في دار يهودي،⁴ فاحتفل في إكرامه وأحضر له جميع ما قدر عليه، فخلا به وذاكره في دينه، ثم داعبه حتى أحضر له من طاهورهم (أي الكنيف)، فيقال إنه قال له: يا إسرائيلي دياركم نظيفة وطعامكم طيب وشرابكم رائق، ما أظنكم إلا على الحق؟!"

وانتشرت هذه الحكاية وشهرة، فما "تكاد تجد فقيها من طلبة الغرب إلا وهو يحفظها"، كما نسب إليه تقصير في صدقات خرجت على يده.⁵

كل ذلك والمنصور بغض الطرف عنه ويصمُّ آذانه عن الوشاة، إلى أن كان حادثة المسجونين التي أفضت إلى عزله، فقد كان من وظائف القاضي الإشراف على السجون⁶ والنظر في أحوال نازليها، وهذا ما أوكل إلى ابن مروان، فكان كلما سأله المنصور عن المسجونين أجابه بأنه "شديد العناية بهم، كثير التهمم بأحوالهم"، ففي بعض الليالي قامت ضجة عظيمة سمعها الخليفة في قصره فسأل عنها فإذا هي "صياح المسجونين واستغاثتهم"، فأرسل من ثقافته من يقف على أمرهم وسبب ضجتهم، ولما وصل إليهم "أخبروه بأنهم في جهد شديد وقد هلكوا جوعا وبردا"، ورفعوا شكوى إلى الخليفة ويطلبون أن يمن عليهم بالقتل ليستريحوا من عظيم ما هم فيه من سوء الحال والشدّة والنكال، فبلغ عنهم الرجل إلى المنصور، فاستكبر ذلك واستعظمه وبادر إلى إصلاح حالهم، ليلتفت بعد

¹ - ابن سعيد. الفصول الجامعة، ص 32.

² - ابن الأبار. التكملة 161/2، ابن عبد الملك المراكشي. النهل 340/1/8، يحيى بن خلدون. بحمة الرواد 113/1.

³ - ابن عبد الملك المراكشي. النهل 340/1/8.

⁴ وهذا في فترة شهدت تصاعد الأزمة بين الموحدّين وأهل النمة عموما وبين اليهود خصوصا، أنظر: محمد المرأوي. الموحدّون وأزمة المجتمع، ص 109-136.

⁵ - ابن سعيد. الفصول الجامعة، ص 33.

⁶ - أنظر عن تنظيم السجون في العصر الموحدّي: محمد المرأوي. الموحدّون وأزمات المجتمع، ص 86-87.

ذلك إلى قاضيه فسجنه بداره شهرا وعزله عن منصبه لتقصيره هذا، ثم عفى عنه ورده إلى شهود مجلسه دون أن يباشر وظائفه في منصب القضاء، وولى مكانه غريمه السالف الذكر أبا القاسم بن بقي وذلك سنة 592 هـ، وبعد مدة ليست بالطويلة صرف إلى الأندلس لتولي قضاء قاعدتها إشبيلية.¹

إن تقصير محمد بن جبل في هذه المسألة لا ينبغي أن يعد تقصيرا في حق القضاء ككل، فهناك ما يشهد بصلاحيته في الحق وقيامه بالقضاء ومباشرة الحكم بمجدارة لا يخشى في الله لومة لائم، حتى إذا تعلق الأمر بأعلى سلطة في الدولة أي الخليفة نفسه، فقد كان أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص من كبار مشيخة الموحدين تزوج أخت المنصور، وجرت بينهما منافرة فخرجت الزوجة إلى دار أخيها الخليفة، فطلب زوجها رجوعها فامتنعت معتزة بمكانها من المنصور، فشكاها إلى القاضي ابن مروان، الذي لم يتوان بدوره في إلزام الخليفة مرتين بردها وامتنال أوامر الشرع، فلما لم يحتل هدده بالانزاع والتنجي عن منصب القضاء.²

ولما توفي المنصور ترك وصية لابنه الخليفة من بعده الناصر (595-610) يدعوه فيها إلى إقرار ابن بقي في منصبه قاضيا للقضاة ما بقي حيا، فمما جاء فيها: "وهذا الرجل: أبو القاسم بن بقي كنا قدمناه على القضاء لعلمنا بعفافه وطهارته ولضعف مئوته وقلة طمعه، فاتركوه على أمره حتى يقضى الله ما يشاء"،³ فقضى الله أن يلي الناصر العرش فيقر ابن بقي في منصبه لسنة واحدة فقط، ثم عزله مخالفا بذلك وصية أبيه، وولى مكانه ابن مروان من جديد حوالي سنة 596 هـ، رغم المعارضة التي لقيها الخليفة بسبب هذا الإجراء، فاستمر محمد ابن علي بن مروان بن جبل الهمداني ناهضا بأعباء الخطة شديدة الهيبة، إلى أن توفي عصر يوم الاثنين 9 جمادى الأولى سنة 601 هـ وصلى عليه الخليفة نفسه، وكانت جنازته مهيبة من فرط من شهدها،⁴ وقد دامت ولايته في خطة قاضي القضاة في المرتين نحو من أربعة عشر عاما، ونحو ثلاث سنوات في قضاء إشبيلية، وأكثر من ذلك في قضاء تلمسان.

خلف ابن مروان ثلاث أبناء نجباء تولوا كلهم القضاء: موسى ومروان ويحيى.

أما موسى المكنى أبي عمران فقد نشأ في حجر الخلافة بمراكش لاختصاص أبيه بها ومكانته لدى رجالها، وكان قد تفقه على يد والده محمد بتلمسان ثم مراكش وربما كان معه أيام كونه بإشبيلية، كما تفقه بفقهاء وعلماء هذه الحواضر العلمية وغيرها سالكا طريق الفقه والتخصص فيه، فلما شب وظهرت نجابته وعرف قدره ولي القضاء في عدة مدن كمالقة التي وصلها في حياة أبيه أيام كونه قاضيا للقضاة، ولا يستبعد أن يكون هو الذي رشحه لذلك وأكسبه رضى السلطة وثقتها به، وبعد سنوات نقل إلى قضاء غرناطة فلم يطل بها مكثه حتى وافته منيته سبعة

¹ - ابن عبد الملك المراكشي. الليل 340/8-341، ابن الأبار. التكملة 161/2، عبد الواحد المراكشي. المعجب، ص 187-188.

² - ابن خلكان. وفيات الأعيان 10/7-11، ابن رضوان المالقي. الشهب اللامعة في السيادة النافعة، تحقيق محمد حسن محمد إسماعيل وأحمد فريد

المرزوقي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية 1425-2004، ص 216-217، العباس المراكشي. الإعلام 121/4.

³ - ابن عذارى. البيان المغرب (موحدي)، ص 232.

⁴ - ابن عبد الملك المراكشي. الليل 341/8، ابن عبد الواحد المراكشي. المعجب، ص 223.

سنوات بعد وفاة أبيه في شعبان 608 هـ، فدفن هنالك بغرناطة وشهد جنازته واليها أبو إبراهيم إسحاق بن أبي يعقوب المنصور في حفل عظيم.¹

أما مروان أبو علي الأخ الثاني له، فنشأ هو الآخر في أحضان العلم الذي اشتهرت به أسرته، فتنفق بوالده أولاً كما تتلمذ لغيره من علماء عصره، فبرع في الفقه وحفظ المسائل، وكان بصيراً بالفتوى في النوازل، مما يعني أنه من المجتهدين في الفقه، لذا ولاه الموحدون أيام المستنصر بالله (610-620) - وقاضي القضاة حينئذ هو أبو عمران موسى بن عيسى بن مروان - قضاء سبتة سنة 613 هـ، ثم نقل إلى قضاء تلمسان ثم غرناطة ثم مرسية، وبهذه الأخيرة توفي في وقت غير معروف،² والملاحظ أن هذه المدن كانت ذات أهمية وشهرة واسعة في العهد الموحد، وهذا يتعكس إيجاباً على سيرة القاضي مروان بن محمد، أي أنه كان ذا شهرة وأهمية كبيرة في منظومة القضاء الموحد.

بيت ابن جبل في خدمة دويلات ما بعد الموحدين

أما الأخ الثالث لهما أبو زكريا يحيى فقد كان أشبه ما يكون بأبيه في حفظ الأدب وصناعة الشعر وروعة البيان، وهو أحد أصحاب ابن سعيد الشهرير (تـ 685 هـ) كانت له معه رفقة ورحلة إلى مصر، وقد وعد في كتابه "الفصول الياضة" أن يترجم له في باب: "من تحققت وفاقهم سنة 652 هـ"، لكن من سوء الحظ فأكثر أجزاء الكتاب المذكور مفقودة، ورغم ذلك فقد حفظ لنا بعض شذرات أخباره لما ترجم لأبيه،³ وهي الشذرات الوحيدة التي نعرف عنه، فقد حلاه بالكاتب القاضي، وذكر أنه ولي قضاء المرية التي كانت محل صراع ونزاع بعد ضعف الدولة الموحدية، فقد ضمها ابن هود النائر إلى ملكه، ثم غلبه عليها وزيره ابن الرميمي سنة 640 هـ فبعث ببيعته إلى الحفصيين بإفريقية، ثم تغلب عليها ابن الأحمر سنة 643 هـ، فبعث هو الآخر ببيعته إلى الحفصيين وأعلن طاعته وولائه لهم ثم نكث واستبد،⁴ ولسنا نعلم في ظل هذه الظروف سنة تولي يحيى قضاء المرية ولصالح من من هؤلاء الغامرين، وربما كانت هذه الظروف غير المستقرة هي السبب الحقيقي الذي دفعه إلى العودة للندوة المغربية ليتولى الكتابة فيها، وحسب طبعة الكتاب المعتمدة فقد تولاهما للأمير أبي بجر؟! و اقترح إبراهيم الأبياري في الهامش تعليقا على ذلك أن يكون أبو بجر هذا هو صفوان ابن إدريس التحجي المرسى (تـ 598 هـ) الأديب صاحب كتاب "زاد المسافر"،⁵ والمعلوم أن أبا بجر صفوان لم يلي الإمارة البتة، كما لم يلها سلفه مطلقاً لا في الأندلس ولا في المغرب،⁶ فتبين لي أن "أبا بجر" صحف عن "أبي يحيى" والأمير أبي يحيى الحفصي

¹ - ابن عبد الملك المراكشي. اللبل 374/2/8، يحيى بن خلدون. بعية الرواد 105/1، العباس المراكشي. الإعلام 250/7.

² - ابن عبد الملك المراكشي. اللبل 374/2/8، يحيى بن خلدون. بعية الرواد 105/1، العباس المراكشي. الإعلام 250/7.

³ - ابن سعيد. الفصول الياضة، ص 34-35.

⁴ - ابن خلدون. المعر 395/6.

⁵ - ابن سعيد. الفصول الياضة، ص 34، والهامش 1.

⁶ - راجع ترجمته في: ابن الأبار. التكملة 224/2، و تحفة القادم، ص 119، ابن عبد الملك المراكشي. اللبل 140/4، ابن الخطيب. الإحاطة 349/3، الذهبي. سير أعلام النبلاء 386/21، ابن الشعار. فبلاد الجمعان في شعراء هذا الزمان، ألمانيا: منشورات معهد تباريح العلوم العربية والإسلامية- جامعة فرنكفورت، 177/3، الصفدي. الوالي بالوفيات 186/16، ابن عسك. أعلام مالقة، ص 213.

المعروف في فترة الأربعينات من القرن السابع هو صاحب بجاية زكريا ابن السلطان أبي زكريا يحيى صاحب إفريقية، وقد توفي الأمير أبو يحيى زكريا في عهد أبيه سنة 646 هـ،¹ فيكون يحيى بن محمد الهمداني قد ولي الكتابة في بجاية ما بين سنتي 643-646 هـ على الأقل.

أما بخصوص عقب هذا البيت فقد وردت إشارة عند ابن سعيد وحفظها لنا ابن خليل² تخص شخصية أبو محمد بن القاضي مروان المذكور آنفاً، وحلاه بـ "الشيخ الفقيه الأكرم"، وذكر أنه كان ينتقل بين المغرب الأقصى وتلمسان والجزائر والأندلس في القرن السابع، ويدوا أن اسمه عبد الله على عادة من يتكئ أبا محمد، كما يدوا من خلال هذه التحلية أنه من المشتغلين بالفقه ومدرسيه، كرس حياته للتعليم في المدن التي حل بها. وفي العهد الزياني سنجد عقب بيت بني جبل قد حافظ على الخط العام لسيرة الأسرة، علما وجاها وحظوة ورفعة وتولية للمناصب.

فقد تولى أخوه الفقيه أبو عبد الله محمد بن مروان قضاء الجماعة في تلمسان على عهد السلطان أبي يحيى يغمراسن (633-681) أول سلاطين بني زيان.³

ثم خلفه ابنه -بعد عزله- الفقيه أبو الحسن علي في عهد يغمراسن نفسه،⁴ وفي عهد ثاني الملوك الزيانيين أبي سعيد عثمان يغمراسن (681-703) أعيد الفقيه أبو عبد الله محمد بن مروان من جديد لقضاء الجماعة،⁵ وفي عهد ثالث الملوك أبي زيان محمد بن عثمان (703-707) أعيد الفقيه أبو الحسن علي بن محمد للمرة الثانية لقضاء الجماعة،⁶ وهي المرة الأخيرة التي يظهر في علم من أعلام بيت ابن جبل في المغرب الأوسط خاصة والمغرب الإسلامي عامة، وهذه إشارات مبتورة السياق لا تسمح لنا بتحليل الأدوار الجديدة للبيت الهمداني في البلاط الزياني.

وفي القرن التاسع ظهرت شخصية تعرف باسم أبي جعفر بن جبل تولى قضاء المرية،⁷ فهل هو من نسل قاضي المرية السابق الذكر أبو زكريا يحيى بن مروان (ت- 652 هـ)؟.

¹ - أنظر عنه: ابن خلدون. العمر 382/6-383، 398-400.

² - اختصار القدرح المعلى، ص 24.

³ - يحيى بن خلدون. بهمة الرواد 205/1، بوزيان الدراحي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص 242، خالد بلعربي. الدولة الزيانية في عهد يغمراسن: دراسة تاريخية وحضارية 633-681 هـ، ط 1، الجزائر: مطبعة تلمسان RN، 2005، ص 147.

⁴ - يحيى بن خلدون. بهمة الرواد 205/1. بوزيان الدراحي. نظم الحكم، ص 242.

⁵ - يحيى بن خلدون. بهمة الرواد 208/1.

⁶ - المصدر نفسه 210/1.

⁷ - ابن القاضي. درة المجال، ص 445.

بيت ابن أبي العيش الخنزرجي الإشبيلي الفقهاء الخطباء (570-911هـ)

نسبهم ومكائنتهم في الأندلس

ينتسب هذا البيت في الخنزرج الأنصار أهل المدينة المنورة اليميني الأصل، وهم ينحدرون من إحدى بيوتات العلم في إشبيلية، إذ نجد اسم محمد بن أحمد بن أبي العيش بن فريخ في القرن السادس ضمن علماء الحاضرة الموحدية بالأندلس المشتغلين بالتدريس، ثم ولده أبو الحسن علي أحد شيوخ ابن حنبل البليني (ت 614 هـ) صاحب الرحلة الشهيرة،¹ وكذا علي بن محمد بن أبي العيش الأنصاري الطرطوشي من المتضلعين في القراءات والمتصدرين لإقراءتها، رحل عن طرطوشة واستوطن شاطبه،² مما يدل على أنهم من الكثرة. يمكن مما يسمح بانتشارهم في مختلف حواضر الأندلس

هجرة بيتهم إلى العدو المغربية

دخول بيت ابن أبي العيش الأنصاري إلى العدو المغربية كان مبكرا قبل سقوط إشبيلية بنحو قرن، فقد هاجر عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش بن خلف بن عبد الله المكنى أبا بكر إلى مراكش الموحدية واستوطنها قبل سنة 535 هـ، وكان هو الآخر مشتغلا بالتعليم والتدريس وله تلاميذ في الأندلس والمغرب، كان معاصرا للعلامة المازري الذي أجازته كتابته من المهديّة، وبقي في مراكش حتى وافته منيته سنة 570 هـ.³

أما ولده المعروف بأبي العيش فيظهر أنه ولد بمراكش، ثم رحل عنها إلى تلمسان وهو صغير في نهاية النصف الثاني من القرن السادس، ويعد المؤسس الحقيقي لبيت بني أبي العيش، نشأ محمد أبو العيش مكبا على الدرس مجدا فيه، أخذ على كبار علماء تلمسان الوافدين والبلديين من أمثال أبي بكر محمد بن يوسف بن سعادة (ت 600 هـ) أصيل بلده إشبيلية نزيل تلمسان وأحد كبار المقرئين، وأبي محمد عبد الرحمن التجيبي المرسي (ت 610 هـ)، وأبي عبد الله بن حوط الله الحارثي الأنصاري الأبيدي المرسي (ت 612 هـ) قاضي تلمسان كذلك، ومن أصلاء تلمسان أبي عبد الله محمد بن عبد الحق الندرومي القاضي (ت 625 هـ).⁴

ومن الجدير بالإشارة أن أبا العيش محمد لم يتأثر هؤلاء الأعلام في نبوغهم الفقهي والحديثي بحيث ينحى منحاهم، إذ نجد صناعته تقوم على الأدب والشعر والكتابة والترسل والخط بالأساس، مع مشاركة في فنون العلم الشرعي دون التضلع فيها والنبوغ.⁵

¹ ابن عبد الملك المراكشي. اللبل والكملة 586/2/5-587، 645.

² ابن الأبار. الكملة 200/3، ابن الزبير. صلة الصلة 98/4.

³ ابن الأبار. معجم الصلبي 257، ابن الأبار. الكملة 60/3، العباس المراكشي. الأعلام 151/8، ابن مخلوف. شجرة النور 151.

⁴ يحيى بن خلدون. بغية الرواد 103/1، ابن عبد الملك. الذيل 314/1/8، الحفناوي. تعريف الخلف، ص 342.

⁵ يحيى بن خلدون. بغية الرواد 103/1، ابن عبد الملك. الذيل 314/8.

ومن المؤكد أنه كان ذا ذكاء وفطنة ساعدته على التحصيل العلمي، ففي حدود عقده الرابع من عمره تصدر للتدريس وإجازة من لا يكبره سنا بكثير، من أمثال أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي الطبري أثناء رحلته التي مر فيها على تلمسان سنة 624 هـ.¹

احتكار بيت ابن أبي العيش للخطابة بجامع تلمسان

رحل محمد أبو العيش إلى الأندلس بعد أن استكمل التحصيل في تلمسان، وهناك استرعى انتباه أمراء الأندلس فرفعوه وحظي عند بعضهم لما رأوا فيه من سمة المجد والشرف والنبوغ فولوه أمر الكتابة،² والمصادر لا تشير بالضبط أين كان ذلك ومتى، إلا أن عبد الملك المراكشي³ ينقل أخباره عن أبي محمد مولى سعيد ابن حكم القرشي المذكور آنفا صاحب منورقة الذي تولى أمرها ما بين سنتي 630 و 680 هـ، مما يرجح وجوده هنالك في نفس الفترة، وهذا لا ينفي أنه كان يتردد إلى حواضر الأندلس كإشبيلية وغرناطة وغيرهما ويلتقي العلماء بمختلف مشاربهم وثقافتهم متأثراً بشكل أكبر بأصحاب المدرسة الزهدية الصوفية هنالك.⁴

ونستطيع أن نحدد تاريخ هذا التحول الحاصل في الفكر والقناعات والعودة إلى تلمسان بسنة 654 هـ أو بعدها بقليل، فهذه هي سنة إجازته لمولى بن حكم⁵ الذي يكون قد أجازته بعد الدراسة عليه إذانا بعودته إلى تلمسان.

إن هذا التحول سيتجلى بوضوح في مسيرة حياته، فقد تخلى عن الكتابة السلطانية "ولزم الانقباض وآثر الخلوة والعزلة عن الناس ونبذ علاقته بهم"، إلى أن صار من "الخدّام المقربين والأولياء المميزين" في منظومة التصوف المغربي بتلمسان، وكان أحد خواص الفقيه الشهير محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي (ت 681 هـ) جد ابن مرزوق الخطيب.⁶

لكن مسلكه الزهدي الصوفي لم يكن ليعنعه من قبول الوظائف السلطانية، ففي تلمسان تولى الخطابة⁷ بالجامع الأعظم لسلاطين بني عبد الواد، وهي إحدى الوظائف التي تستدعي جرايات ورواتب ومزايا وحظوة وما إلى ذلك من أشكال النفوذ والجاه، وكان ابن رُشيد خلال رحلته الشهيرة يحظر خطبه حين دخل تلمسان ما بين محرم سنة 683 هـ وأواخر ربيع الأول من نفس السنة، ومما أنكر عليه آنئذ أنه كان يقول في خطبته في فاتحتها: "ومن يطع الله ورسوله فقد رشد" بالكسر، كما كان طلبة تلمسان يشاركونه في هذا الإنكار، إذ عدوه خطأ ولحنا في

¹ ابن عبد الملك. الذيل 29/4.

² ابن مرزوق. المجموع، نسخة مصورة عن مخطوط الخزنة العامة بالرباط، رقم 20، ورقة 28، ابن عبد الملك المراكشي. الذيل 314/1/8.

³ الذيل والتكملة 314/1/8.

⁴ أنظر عن هذا المدارس: عبد السلام غرمي. المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس، ط 1، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1420-2000، ص 114 وما بعدها.

⁵ ابن الزبير. صلة الصلة (ملحق) 516/2/8.

⁶ ابن عبد الملك المراكشي. الذيل 314/1/8، ابن مرزوق. المجموع، ورقة 28.

⁷ أنظر عن هذه الخطبة في العهد الزياني: بوزيان الدراجي. نظم الحكم في دولة بني زيان، ص 198.

اللغة، ولم يدرك ابن رشيد ومن معه صحة ما دأب عليه أبو العيش محمد حتى دخل على أستاذه أبي الحسن بن أبي الربيع الأموي الأشبيلي بسبته "فهنا بالقدوم وقال له ... رشدت يا بن رشيد، ورشدت لفتان صحيحتان".¹ إن القسم الأول من رحلة ابن رشيد "هلء العيبة" الذي يصف فيه تلمسان والمغرب الأوسط عوماً، ومن لقيهم فيه من أمثال أبي العيش كان يمكن أن يفيدنا بمعلومات جديدة من شأنها أن تسد الفتق الحاصل في جوانب حياة هذه الشخصية التي نفتقر حتى إلى تاريخ وفاته، وقد أرحها صاحب الدراسة المعنونة بـ "رحلة ابن رشيد السبقي"² بسنة 710 هـ من غير دليل يستند إليه، وهو تاريخ بعيد فإذا افترضنا أن مولد أبي العيش في نفس سنة وفاة والده حوالي 570 هـ على الأقل يكون سنه حينئذ 140 عاماً وهذا نادر الحدوث، فكل ما في الإمكان أن نقول أنه كان حياً سنة 683 هـ؛ سنة لقاء ابن رشيد به، وبذلك يكون قد توفي عن سن عالية تجاوزت 113 عاماً، أما مدفنه ففي تلمسان خارج باب كشوط.³

أما ابنه المكني أبو زيد عبد الرحيم (أو عبد الرحمن) فقد نشأ بتلمسان في جو يكتنفه الغموض فلا نعرف شيوخه ولا تلاميذه، وهو دون شك أخذ عن أبيه أولاً، وسيرته العلمية كانت جادة أهله لأن يكون "عالماً متقناً"، بل من "كبار العلماء والبلغاء الفصحاء وصدور الشعراء"، قائماً على الوثائق بصيراً بما عالماً بشروطها، وعلى شاكلة أبيه كان بارع الخط، وتولى خطة الخطابة في الجامع الأعظم بتلمسان والإمامة به.⁴

استمر مجد البيت لمدة طويلة تزيد عن قرن من الزمن حيث تعاقب على خطابة الجامع الأعظم أيام الزيانيين خمسة أفراد منه، هم محمد بن عبد الرحيم ثم أخوه عبد الرحيم ثم محمد بن عبد الرحيم الثاني ثم عثمان بن محمد ثم يحيى بن محمد⁵ وباستثناء محمد بن عبد الرحيم ويحيى بن محمد لا نجد أي إشارة عن البقية مطلقاً في المصادر التي بين أيدينا الآن.

فبخصوص محمد بن عبد الرحيم فقد تخطط ببعض وظائف القضاء استناداً إلى وصف ابن مرزوق له "بالعدل الحسيب"، كما كانت له مشاركة في الأحداث السياسية؛ فعلى إثر استصراخ صاحب بجاية الأمير أبو زكريا يحيى ابن السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر (720-747) بالسلطان المريني أبي سعيد عثمان (710-731) ضد صاحب تلمسان السلطان أبي تاشفين الأول (718-737) لوقف تحرشاته وتهديده المتكرر لمملكته، فكتب له في شأن الكف عن مملكة بجاية "ووعده على ذلك بالمواعيد الجميلة وتوعده إن لم يجه لمطلوبه بالحركة على بلاده"، ومن جهته أوفد أبو تاشفين أحمد بن محمد بن مرزوق (تـ 741 هـ) والقاضي أبو علي حسن الحسيني والعدل الحسيب أبو عبد الله محمد بن أبي العيش سفراء للسلطان أبي سعيد لغرض الإصلاح، ومنعاً للحرب بينهم "فسكنت الفتنة.. وارتفع الضرر من كل جانب عند ختام" الرسالة بسفارتهم،⁶ وهذه السفارة وقعت حسب ابن

¹ المقرئ. نفع الطيب 274/5، ابن مرزوق. البستان، ص 159.

² أحمد حدادي 228/1.

³ يحيى بن خلدون. بهية الرواد 104/1.

⁴ ابن مرزوق. المجموع، ورقة 28، يحيى بن خلدون. بهية الرواد 104/1.

⁵ ابن مرزوق. المجموع، ورقة 28.

⁶ ابن مرزوق. المستند، ص 120-121.

خلدون سنة 729 هـ ولم تكن بالقوة والمتانة بمكان فقد اتمارت سنة 730 بتجهيز السلطان أبي سعيد جيوشه لحرب السلطان أبي تاشفين والاستيلاء على تلمسان،¹ نقيض ما أثبتته ابن مرزوق الذي كان بمجد دور والده في السفارة على حساب الحقائق، وهذا واضح من تضخيمه لمكانته ومكانة سلفه سواء في بلاط بني زيان أو بسلاط بني مرين، وفي هذه السفارة تحديدا جعل لوالده الدور الأساسي أما القاضي أبو علي والعدل ابن أبي العيش فهم عند مجرد رفقاء طريق.

أما أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحيم فهو ألمع أفراد هذا البيت وأكثرهم مجدا وشهرة، فهو عمادهم وعمدتهم، كان من معاصري ابن مرزوق الخطيب (ت 781 هـ)، له حظ وافر في علوم العقل والنقل معا، ذو معرفة بالفقه والفرائض "وبصر بالحساب والهندسة"، وجمع إلى ذلك الفضل والخير والبركة، اشتغل أول أمره بإحدى الخطط القضائية وهي الشهادة والعدل كما تولى الخطابة بالجامع الأعظم بتلمسان كما كان سلفه، ثم غادرها إلى فاس الجديدة -المدينة البيضاء- فولاه السلطان المريني الخطابة، بجامعها الأعظم نيابة عن ابن مرزوق الخطيب "فاستجيدت خطبته" وشكرت، وله رحله إلى الحجاز حج خلالها،² واستفاد منها كثيرا وأفاد؛ كما هو شأن أمثاله من الفقهاء والعلماء الذين يستغلون فرصة الحج في التعرف على أحوال العالم الإسلامي وأوضاعه، كما يلتقون بنظرائهم فيستجيزونهم ويميزونهم لأنفسهم ولأبنائهم، ويحملون معهم أثناء عودتهم مؤلفات جديدة لا عهد للغرب الإسلامي بها، بعد أن حملوا هم أهم مؤلفاتهم إلى المشرق، ويظهر أن عودته كانت إلى تلمسان بلده الأصيل.

وفي عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791) ولي يحيى بن أبي العيش خطة الأشغال العلية وهي بمثابة وزارة المالية في زماننا³ وذلك قبل سنة 775 هـ، سنة الانتهاء من القسم الأول لكتاب "بغية الرواد" فقد أورد المؤلف هذه التولية بصيغة "الآن"،⁴ والوصول إلى هذا المنصب الحساس في الدولة القروسطية يتطلب مجموعة من الصفات والمؤهلات، وقد أغنانا السلطان أبو حمو موسى نفسه عن البحث فيها، إذ سجلها في شكل وصايا لولي عهده: ابنه، في كتابه الشهير عن سياسة الملك وتدبيره، حيث قال: "يا بني وأما صاحب أشغالك وضابط أعمالك فلتخيره من وجوه بلدك الأخيار، وكفاة الحساب والنظار ويكون ذا ثقة وأمانة، وعفة وصيانة وصلح وديانة وحزم وكفاية وضبط ودراية، عدلا في أحواله صادقا في أقواله، عارفا بأنواع الخواص والجبايات، ضابطا للزمام والحسابات، ويكون ذا مال ويسار وأثاب وعقار، فإذا كان على ما وصفناه من أفعاله كان محافظا على بيته

¹ العبر 333/7، عبد الحميد حاجبات. أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1394-1974، ص 19-21.

² ابن مرزوق. المجموع، ورقة 28، يحيى بن خلدون. بغية الرواد 104/1.

³ أنظر عن هذه الخطة: بوزيان الدراجي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد، ص 179، خالد بلعري. الدولة الزيانية في عهد يغماسن، ص 134، 135، وقارن بما هو موجود عند معاصريهم المرينيين: النون. ورايات عن حضارة المرينين، ص 83-84، عيسى الحريري. تاريخ المغرب

الإسلامي والأندلس في العصر المريني (618-869 هـ)، ط 1، الكويت: دار العلم 1405-1985، ص 270.

⁴ يحيى بن خلدون 104/1.

وديانته وماله، ويكون محبا في سلطانك آخذنا بالنصح في جميع شأنك، لأن مالك ومجايبك تحت نظره وعلى يده التصرف فيها في ورده وصدرة".

وعن ترتيب دخوله على السلطان ومهامه يقول: "يدخل صاحب أشغالك (بعد الوزير والكاتب) الموكل بحفظ جبايات أموالك، يعرفك بما تجمل وتصير من مالك وبمحاسبات عمالك، وبجميع أشغالك المختصة بدارك في إيرادك وإصدارك، مثل أصناف الحلبي وأنواع الثياب وغير ذلك من الأثاث والأسباب ولتلقى أيضا ما تأمره به، جاريا على غرضك في قلبه مما يستأنف في يومه من الأشغال وما يليق به من الأعمال".¹

أي أن صاحب الأشغال يجعل به أن يجمع بين صفات العقل العلمي وصفات النفس الفاضلة، ومهامه تندرج في جمع الجبايات والخراج وحفظها وحسابها، والإشراف على موظفي الدواوين التابعة له، ووضع خطط صرف الأموال بالتدقيق.

ويمكن أن نستنتج شيئا مهما من تولية يحيى بن أبي العيش في هذه الخطوة، فالمدّة الطويلة التي احتكرت فيه الأسرة الخطابية في الجامع الأعظم بتلمسان أكسبتهم جاهها عريضا، أصبحوا من خلالها من وجهاء وأعيان البلد يحظون باحترام سواء من السلطة، أو المجتمع الذي كان يرى في الفقهاء وأصحاب الخطط الدينية كالمخطباء والقضاة القادة الحقيقيين له والمعبرين عن ذاته وبالتالي النظر إليهم بعين التقديس، خاصة في مجتمع تشكل في عمومته من البربر،² وترى فيهم السلطة أداة ووسيلة للتحكم في المجتمع وتوجيهه لمشاريعها السياسية، لما لهم من كلمة مسموعة وتأثير بالغ الأهمية، مستعصي على المنافسة وعلى التحجيم ناهيك عن إقصائه، وبالتالي تعمل على فتح أبواب المناصب العليا أمامهم لإرضائهم وكسب ودهم.

أما الوجه الثاني لهذا الاستنتاج بناء على النص المذكور لأبي حمو، فيقودنا إلى القول بأن هذا البيت أصبح ذا ثروة معتبرة قبل وأثناء تولي يحيى بن أبي العيش لهذا المنصب المالي الحساس، المقصور على الموسرين الأغنياء ليستعفوا بما عندهم عن مال الدولة، فلا تهب ولا طرق ملتوية ولا القبول بالرشى لإعفاء أصحاب الجبايات وكبار التجار من جباية أموالهم كليا أو جزئيا.

لقد كان يحيى بن أبي العيش معاصرا لإسماعيل بن الأحمر الغرناطي (تـ807 هـ) المؤرخ سليل النصرين أمراء غرناطة، وعلى علائق وشائج قوية معه، وعنه نقل خيرا عن السلطان أبي حمو موسى،³ أي أنه من مصادره التاريخية الشفوية، لكن الأهم من ذلك أن في هذه الرواية كما نستشفه: هو أن العلاقة بين صاحب الأشغال والسلطان فسدت، مما اضطر يحيى بن أبي العيش إلى التخلي عن منصبه قصرا أو اختيارا، والخروج من تلمسان نحو فاس أين التقى بابن الأحمر وأفاده برواية تنبئ عن صفة ذميمة في سلطانه أبي حمو، وهي صفة البخل والشح المنقطع النظر، حتى علق ابن الأحمر بقوله: "وأما بخله فلم يسمع لغيره من الملوك وغيرهم"، وبقطع النظر عن صحة الرواية من عدمها، خاصة وأن ابن الأحمر متحامل على الزيانيين ظاهرا وباطنا دون مواربة لصالح خصومهم

¹ واسطة السلوك، ص 61، 82-83، وأنظر أيضا: وداد القاضي. النظرية السياسية للسلطان أبي حمو موسى الزياني الثاني ومكانتها بين النظريات السياسية المعاصرة لها، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي، 1975، المجلد الأول، ص 154.

² أنظر هذه المعاني: علي أولملي. السلطة الثقالية والسلطة السياسية، ص 145-153.

³ روضة السريين في دولة بني مرين، ص 69-71.

المرينيين، فقد نسب إليهم كل رذيلة ونقيصة وعراهم عن كل مكرمة، ويشهد على نفسه بقوله: "كنت لأعدائها (الزريانيين) بالمعنف ولم أك بالمنصف".¹

إن وصف يحيى بن أبي العيش لولي نعمته بهذا الشكل لا يتم إلا عن مدى توتر بل تفهقر العلاقة بينهما، مما كان له أثر سلبي على المستقبل السياسي والوظيفي للحيل الثاني من أبنائه وأحفاده. ممارسة سياسة الإقصاء والتعتيم في حقهم.

فالمساحات المهمشة في تاريخ هذا البيت لا تختلف في بعض جزئياتها عن البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط عموماً، إذ نجد مساحة قرن ونيف من الزمن في حكم أرض البور لا نعلم في ظلها شيئاً عن سيرورته ولا مآلاته على جميع الأصعدة، سوف نتظر كل هذه المدة لتفرز لنا كتب الطبقات والتراجم دون غيرها وللمرة الأخيرة اسم شخصية محمد بن أبي يحيى بن أبي العيش، ويظهر أنه حفيد يحيى السالف الذكر صاحب الأشغال.

ويعتبر محمد بن أبي يحيى أحد كبار علماء تلمسان الفقهاء الأصوليين عاش في القرن التاسع وبدايات القرن العاشر، من معاصري الونشريسي صاحب المعيار ومن خواص أصحابه، لكن هذه الصحبة لم تشفع للمترجم به بذكر معلومات هامة ومستفيضة عن حياته بمراحله المختلفة ووضعيته العلمية والوظيفية، هذا من الونشريسي تساوقاً مع منهجه في تأليفه الذي ارتضاه لنفسه المبني على الاختصار والاهتمام بسنوات وفيات الأعيان والأعلام كما يدل عنوان مؤلفه "الوفيات"، وهذا ما صنعه بالضبط مع محمد بن أبي العيش فقد ذكر أن وفاته كانت في صفر سنة 911 هـ بتلمسان.²

مؤلفات بيت ابن أبي العيش

سمح لأبي العيش مؤسس البيت تضلعه في اللغة ومسلكه الصوفي أن يؤلف "منظومات بديعة" في قضايا الزهد والوعظ وتزويه البارئ عز وجل، وكانت متداولة زمن ابن عبد الملك المراكشي الذي وقف بدوره عليها بخط المؤلف نفسه، إلا أنه لم يذكر لنا منها سوى منظومة واحدة في أسماء الله الحسنى سماها بـ "الحقائق المصونة في الألفاظ الموزونة في ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته اقتباس أنوارها من مخلوقاته الباهرة وموضوعاته"، ويشرح ابن عبد الملك طريقة تأليفها بقوله: "نظم في كل قطعة اسماً من الأسماء الحسنى أجاد فيها وبلغ الغاية منها في ذكر اسم الله سبحانه"، ثم أورد قصيدة من 15 بيتاً تدليلاً وتمثيلاً لذلك مطلعها:

الله قل وذر الوجود و ما حوى	إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حقيقته	عدم على التفضيل و الإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها	لولاة في محو و في اضمحلال

¹ روضة السرين، ص 54.

² الونشريسي. الوفيات، ص 820، وأنظر كذلك: ابن القاضي. لفظ الفرائد، ص 820، محمد الطمار. تلمسان عبر العصور، ص 227.

واستأنف يقول: "وتابع هذه القطعة قطعاً ضمن كل قطعة منها اسماً واسمين من أسماء الله الحسنى إلى تمامها، ناحياً منحى أبي الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر الوادي آشي... في إنشأته التي أودعها "الوسيلة لإصابة المعنى في إحصاء أسماء الله الحسنى".¹

أما صاحب "بغية الرواد"² فقد ذكر إلى جانب ذلك أنه ألف تفسيراً للقرآن الكريم،³ وصنف العقائد وألف كتباً عديدة في أصول الفقه، وكذا نظم حسن في التصوف والوعظ وما جرى مجراه.

وله أشعار تشهد على صدقه وإجادته، وهي الأخرى مسخرة لذات الغرض والتوجه، فقد "كان ينشئ للوعاظ أبي محمد بن أبي حرص أشعاراً يفتح بها مجالسه أو ينشدُها أثناءها".⁴

أما محمد بن أبي يحيى آخر من ظهر من أعلام البيت فقد نسب إليه ابن مريم والتنبكي تأليفاً في أسماء الله الحسنى، وقال إنه في سفرين وتبعهما في ذلك الحضيكي وابن مخلوف،⁵ مع العلم أن أصل الترجمة التي وضعها ابن مريم والتنبكي للمؤلف قد نقلها عن الونشريسي وليس فيه ما ذكره، ومن الراجح أن يكونا قد هما في نسبة الكتاب لمحمد بن أبي العيش الحفيد، وهو بالأساس لمحمد الشهير بأبي العيش من القرن السابع كما سبق وأن أشرت في موضعه.

وإليه نسب نويهض تفسيراً للقرآن الكريم⁶ وهو ما لم تنسبه المصادر له، ونحن نعلم أن محمد بن عبد الرحيم ابن أبي العيش مؤسس البيت هو صاحب التفسير، وهذا وهم أيضاً من نويهض، إلا أن يكون قصد محمد ابن عبد الرحيم بن العيش، الذي يسميه ابن عبد الرحمن وأخطأ في تحديد سنة وفاته بـ 911 هـ بدل تحديدها بـ 683 هـ أو ما بعدها بقليل، وذكر مترجموه أن له عدة فتاوى، البعض منها فقط منقول في "المعيار"، لكن يرجعنا إلى الموسوعة المذكورة لم تقف له إلا على مسألة واحدة فريدة، في شكل تفسير لآية قرآنية كريمة،⁷ فهل يعني هذا أن "المعيار" لم يصلنا كاملاً؟

¹ الذهل 814/1/8، 315، شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات، ط1، القاهرة: دار المعارف، 1995، ص 204-206، وينقل ابن سعد الأندلسي التلمساني من أحد الكتابين الذي يسميه "شرح الأسماء الحسنى" أنظر: روضة النسر في التعريف بالأشباح الأربعة المتأخرين، تحقيق يحيى بوعزيز، ط1، الجزائر: المؤسسة الوطنية للإشهار، 2004، ص75.

² يحيى بن خلدون 103/1.

³ وهو ما يستدرك على محمد المختار اسكندر في كتابه: المفسرون الجزائريون عبر القرون، الجزائر: مطبعة دحلب.

⁴ ابن عبد الملك المراكشي. الذهل 316/1/8.

⁵ البستان، ص 253، الذهل 268/2 والكفاية، ص457، طبقات الحضيكي 244/1، شجرة النور، ص274.

⁶ معجم المفسرين 799/2.

⁷ الونشريسي. المعيار 309/11.

بيت ابن الصقيل التلمساني: الحدثون والمتصوفة (ق 6 - ق 8 هـ)

لم يقتصر ظهور النبغاء والعلماء على الأسر العريقة النبية والمتوارثة لتقاليد المعرفة والثقافة لسنوات وقرون، بل حتى أبناء أصحاب الأعمال الدنيا كصغار التجار والحرفيين كان لهم ظهور ونبوغ وسودد، ومن أمثلة ذلك أسرة ابن الصقيل.

بنو الصقيل في الأندلس

الصقيل في اللغة هو: شحاذ السيوف وجلأؤها¹، ووظيفة الصقيل هذه من الوظائف الرسمية في الدولة الإسلامية،² فقد كان للنبي ﷺ من يصقل له سيفه وهو مرزوق الصقيل مولى الأنصار وله به صحبة.³ اشتهر من أسرة ابن الصقيل في الأندلس أحمد بن سلمة بن أحمد بن يوسف بن سلمة الأنصاري، أصله من لورقة إحدى مدن كورة تدمير⁴ ومنها رحل سلفه إلى بلنسية فنشأ بها وأخذ عن كبار علمائها وعلماء الحواضر الأخرى، من أمثال أبي إسحاق بن خلف بن فرقد، وأبي إسحاق بن يوسف بن قرقول الحمزي الوهراني الأصل، وأبي بكر بن أزهر الشريشي، وابن خير وابن الجند وابن الفخار وابن بشكوال وأبي القاسم السهيلي وابن حبيش، وأبي محمد الحجري، وأبي الوليد بن الدباغ.

برع محمد بن سلمة بن الصقيل في الحديث وكان ذا عناية فائقة في حفظه وضبطه وإتقانه حتى استحق لقب الحافظ المحدث، وفي بلنسية اشتغل بالتدريس وعمل على نشر العلم والمساهمة في حركة الحديث، والحفاظ على سنده متصلاً مخافة الانقطاع، فمن تلاميذه وطلابه بما نذكر: أبي إسحاق علي بن أبي خزن، وأبي عبد الله ابن عبد الله بن الصفار، وأبي عبد الله بن قاسم، وأبي عبد الله النقاش، وأبي جعفر بن محمد بن الطيلسان وهو أشهرهم.⁵

هجرة بني الصقيل إلى تلمسان

قبل حوالي نصف قرن من سقوط بلنسية (636 هـ) رحل عنها أبو العباس أحمد بن سلمة بن الصقيل إلى تلمسان مستوطنًا لها زمن الموحدين، واشتغل كما في الأندلس بالتدريس والرواية أين زادت شهرته، فانظم إلى

¹ - ابن دريد. جهرة اللغة، تحقيق رمزي منور البعلبكي، ط1، بيروت: دار العلم للملايين، 1987. 894/2. ابن منظور. لسان العرب 2473/4-2474، الزبيدي. تاج العروس في جواهر القاموس، ج29، تحقيق عبد الفتاح الحلوة، ط2، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2004، ص317.

² - علي بن سعود الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق إحسان عباس، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985-1405، ص439-440.

³ - البحاري. التاريخ الكبير، تحقيق السيد هاشم الندوي، بيروت: دار الفكر، 382/7، ابن عبد البر الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق عادل مرشد، ط1، عمان: دار الأعلام، 1422-2002، رقم 2544، ص712.

⁴ - أنظر عنها: ابن غالب. فرحة الأنفس، ص285، الرشاطي. القياس الأنوار، ص52-53، ابن الخراط. اختصار القياس الأنوار، ص156، الحميري. الروض المطار، ص512-513.

⁵ - ابن الأبار، التكملة 82/1، ابن عبد الملك المراكشي 126/1/1، وقد أخطأ ابن الزبير في اسم أبيه إذ سماه محمد واختصر بقية نسبه. صلة الصلة 326/5، الحسين. مظاهر النهضة الحديثة 9/2.

حلقات درسه الكثير من طلبة تلمسان وغيرها من مدن المغرب كفاس ومراكش، وتحتفظ لنا كتب التراجم ببعض أسماء طلبته في هذه الفترة ممن أصبح لهم شأن في الحياة الثقافية في عصرهم وأشهرهم:

1- ابنه محمد الذي سنشير إليه في موضعه.

2- وأبو زكرياء يحيى بن عصفور العبدي التلمساني حد الفقيه المحدث الراوية أبي زكريا بن عصفور، وأخته فاطمة هي جدة ابن مرزوق الخطيب،¹ فنشأ الحفيد نشأة علمية جادة ليصبح من كبار محدثي تلمسان وفقهائها، وممن ولي قضاءها، كان حيا سنة 646 هـ.²

3- وأبو عيسى محمد بن أبي السداد، الشيخ المعمر قاضي مرسية من أهل المعرفة والثقة والعدالة مكثر الرواية وإن لم يكن من أهل الحديث، وهو أحد شيوخ ابن الأبار ومجيزه توفي سنة 642 هـ.³

4- والقاسم بن محمد بن أحمد الأنصاري الأوسي القرطبي المعروف بأبي القاسم بن الطيلسان، أخذ عن أكثر من مائتي شيخ، برع في علم القراءات والعربية، كان "متقدما في صناعة الحديث معنيا بروايته وتقييده، معروفا بالضبط والإتقان مشاركا في فنون"، له عدة تواليف في الفقه وعلوم القرآن والحديث وغيرها، درس بقرطبة وأسمع بها إلى سنة 633 هـ حين تغلب عليها النصارى، فخرج منها إلى مالقة وقدم للصلاة والخطبة بجامعها الأعظم، إلى أن توفي سنة 642 هـ وهو أحد مصادر ابن الأبار في "التكملة".⁴

5- وأبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي البلنسي من تلاميذ عبد الحق الاشيلي البجائي بالإجازة، كان كثير العناية بالتقييد والرواية، إماما في صناعة الحديث بصيرا به حافظا عارفا بالجرح والتعديل يتقدم أهل زمانه في ذلك، و"كان حسن الخط لا نظير له، نهاية في الإتقان والضبط والاستبحار والآداب والاشتهار بالبلاغة والفصاحة، فردا في إنشاء الرسائل، مجيدا في نظم القريض، خطيبا فصيحيا مفوها مدركا حسن السرد والمساق لما يحكيه ويحدث به، يود سامعه لو وصل حديثه لم يقطعه... وهو كان المتكلم عن الملوك في مجالسهم والمبين عنهم لما يريدونه على المنبر في المحافل"، ولي خطبة الجامع الأعظم ببلنسة وتصدر للإقراء والتدريس، له عدة مؤلفات أشهرها كتاب "الاكتفاء بما تضمنته مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء" في أربعة مجلدات، وغيره كثير توفي سنة 634 هـ، وهو الذي دعا ابن الأبار إلى تأليف كتاب "التكملة" وندبه إليه وفتح له مكتبته للاستفادة منها.⁵

6- وأبو الحسن علي بن محمد بن القطان الكتامي الفاسي القرطبي الأصل، "كان من أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لأسماء رجاله، وأشدهم عناية بالرواية مع التفتن في المعرفة والدراية"، وهو رأس طلبة العلم بمراكش نال دنيا عريضة بخدمته للسلطان، امتحن بفتنة سنة 621 هـ بمراكش مما اضطره إلى مغادرتها، ثم عاد

¹ - ابن مرزوق. المجموع. ورقة 5، ورقة 16.

² - ابن مرزوق. المجموع، الورقة 16، الرعي. برنامج شيوخ الرعي، ص 171-172.

³ - ابن الأبار. التكملة 147/2.

⁴ - ابن الأبار. التكملة 75/4، الرعي. برنامج، ص 27، ابن الجزري. غاية النهاية 33/2، النعي. تذكرة الحفاظ 1426/4.

⁵ - ابن الأبار. التكملة 100/4، المنذري. التكملة لوفيات النقلة 461/3، الصندي. الوالي بالوفيات 263/15، ابن شاكر الكني. فوات

الوفيات. 80/2، اليافعي. مرآة الجنان 85/4، الحسين. مظاهر النهضة الحديبية 130-123/2.

إليها فعقد له على قضاء سجلماصة وبها توفي سنة 628 هـ¹ وهو الذي رد على محدث بحاية عبد الحق الاشبيلي (تـ 582 هـ) في كتابه المسمى "الأحكام الصغرى" في الحديث²، وبما أن كتب عبد الحق الاشبيلي البيهقي كانت منتشرة في المشرق، فقد تولي الدفاع عنها الحافظ الذهبي محدث الشام في كتابه المسمى "مختصر كتاب الوهم والإيهام"³ فدحض كل انتقاداته وتخططاته لعبد الحق الاشبيلي وبين الأغلاط التي وقع فيها، وحشد كثير من الأدلة يساند بها ما ذهب إليه هذا الأخير، اعتمادا على كتب أساطين علم الحديث وعلم الرجال والجرح والتعليل، منها ما لم يقف عليها عبد الحق الاشبيلي وابن القطان معا. فهؤلاء هم أشهر تلاميذه ممن استطعنا الوقوف عليهم.

ولما كان اهتمام الدولة الموحدية بالحديث أكثر من فقه الفروع عكس الدولة المرابطية، خاصة في عهد الخليفة أبي يوسف بن يعقوب المنصور (554-595) كما أسلفت، فإن مكانة المحدثين والمشتغلين بعلم الحديث عموما قد ازدادت مكانتهم في بلاط مراكش، وأصبح الخليفة يستدنيهم إليه ويشكل منهم مجلسه العلمي الشورى، ويوليهم الوظائف السامية في الدولة.

أما أبو العباس أحمد بن سلمة بن الصقيل موضوع بحثنا، فقد استدعاه المنصور إلى حضرته من تلمسان ليدرس له الحديث، فلم يكن ابن الصقيل ليتخلف عن هذه الدعوة التي لبأها مسرعا، فترل مراكش واشتغل مدة بالوظيفة التي استدعي لأجلها، فأسمع الخليفة ودرّس عامة الطلبة في مساجد مراكش وقتا، ثم ظهر له أن يعود إلى تلمسان لأسباب لا نعرفها، فوصلها في ذي القعدة سنة 585 هـ⁴ ليكمل سيرته التي ستواصل اثني عشرة سنة بعد هذا التاريخ أو أزيد.

لم يكن ابن الصقيل قاصرا على علم الحديث فقط، بل كان بارعا في العربية والنحو والأدب وقد تصدر لتعليم ذلك أيضا.

وقد اختلف في تاريخ وفاته؛ فذكر تلميذه أبو الربيع سليمان الكلاعي أنه توفي يوم 6 محرم 598 هـ وهو ما اعتمده ابن الأبار⁵ أما تلميذه الثاني ابن عصفور التلمساني فيرى أنه توفي في آخر ذي الحجة سنة 597 هـ أو أول محرم من سنة 598 هـ⁶.

وعلى نهج أبيه سلك الابن أبو عبد الله محمد طريق العلم والاشتغال بالحديث، فدرسه على أبيه أيام حياته، وعلى أبي ذر بن أبي الركب الخشبي الجياني دفين فاس (تـ 604 هـ) الذي زار بحاية وتلمسان في حدود سنة 581 هـ بعد عودته من رحلته المشرقة، وهنالك في تلمسان أخذ عنه محمد بن أحمد بن الصقيل.

¹ - ابن الأبار. التكملة 250/3، ابن القاضي. جدوة الاقباس 470/2، العباس المراكشي. الإعلام 75/9.

² - طبع بعنوان: الأحكام الشرعية الصغرى الصحيحة، تحقيق الحسين آيت سعيد، ط1، الرياض: دار طيبة، 1418-1999.

³ - نشر ضمن الجزء الأول من كتاب "الأحكام الوسطى من حليم النبي ﷺ" لعبد الحق الاشبيلي، تحقيق حمدي السلفي وصبحي السامرائي، الرياض: مكتبة الرشيد، 1416-1995.

⁴ - ابن عبد الملك المراكشي. المنهل 126/1/1، العباس المراكشي. الإعلام 91/2، ابن منصور. اعلام المغرب العربي 361/3، الحسين. مظاهر النهضة الحديثية 10/2.

⁵ - التكملة 82/1.

⁶ - ابن عبد الملك المراكشي. المنهل 127/1/1.

ومع الاختصاص في الحديث زاد عنه الفقه والأدب والكتابة، فكان بذلك "فقيها محدثا أديبا كاتباً، بارع الخط"، مما يعني أنه اشتغل بالوظائف السلطانية أي الكتابة في تلمسان، لأن عدم ورود اسمه في قائمة كتاب الدولة الموحدية يدل على أنه لم يكن من كتاب الحضرة المراكشية كرسى المملكة، بل من كتاب الولايات وبالتحديد تلمسان،¹ وعلى الراجح أن ذلك كان أيام الوالي الموحدى لها أبو الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن أو خلفه - بعد إعفائه سنة 605 هـ - أبو زيد بن يوجان الوزير سابقاً.²

كما اشتغل بإسماع الحديث والتدريس في الحلقات التي تعقد بمساجد تلمسان خاصة الجامع الأعظم لها، إلا أننا لا نعرف من طلبته إلا واحداً هو محمد بن حماد العجلاني الفاسي المتوفى سنة 609 هـ، "اختص به وكتب عنه"،³ قال عنه ابن عبد الملك المراكشي: كان "سري الهمة نزيه النفس حسن الخلق والخلق"، وتوفي محمد بن أحمد بن الصقيل يوم الثلاثاء 14 محرم من إحدى سنوات المائة السادسة.⁴

ثم إننا نجد انقطاعاً في مسيرة هذه الأسرة طوال القرن السابع، مما يومية بأن الجيل الثاني لها لم ينهج نفس طريق العُلَمين السابقين في أخذهما بأسباب العلم والنبوغ فيه مما يضمن وجودهم الحضاري، أو أن ذلك كان فعلاً وليس إثارة الحياة الدعة والسكون والخمول، إلا أنهم كانوا ضحية لسكوت المصادر التاريخية وضحية الإقصاء من الذاكرة الجماعية النخبوية التي تمثلها كتب التراجم.

وفي القرن الثامن وتلمسان دائماً ظهر يحيى بن الصقيل المكنى أبا زكريا كشخصية علمية صوفية، فإلى جانب معرفته وتضلعه في الفقه وبراعته في الحديث وحفظه والعناية به، كان زاهدا ورعا متبتلاً في العبادة، "لا يكاد يفارق القبور والمساجد توحشا من الخلق"، وله كرامات كثيرة واطلاعات صوفية،⁵ وهو بذلك يضع نفسه في خانة التصوف السني، وينساق في اتجاه أصحاب الخلوة والانقطاع.

ويعود ظهور هذا الاتجاه في المغرب الأوسط إلى القرن السادس ممثلاً في الجماعات المنقطعة للعبادة المؤثرين للحمول على السعي والكد، مقصين لأنفسهم عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية وحتى الفكرية والثقافية رغم مستوايهم العلمية المميزة، ففي بجاية كان جبل أمسيون خلوتهم، وفي تلمسان مثل التيار أبو الحسن علي بن خلف الكومي (تـ 599 هـ) ثم تزعمه ابن الصقيل، وقبله أبو العيش محمد الاشبيلي الأصل وأبو زكريا ابن أدغيوس.⁶

¹ - المصدر نفسه 261/1/8.

² - أنظر عن ولاية تلمسان في هذه الفترة: ابن عذارى. البيان المغرب (موحدي)، ص 252-253.

³ - ابن عبد الملك المراكشي. اللؤلؤ 298/1/8.

⁴ - ذكر ابن عبد الملك المراكشي سنة وفاته بالتحديد. إلا أن موضع ذكره أندثر في أصل المخطوط الفريد الذي حقق على أصله الكتاب، لذا لم يمكن استكمال النقص لأنه المصدر الوحيد على حد علمي الذي ترجم لمحمد بن الصقيل. أنظر: اللؤلؤ 261/1/8.

⁵ - يحيى بن خلدون. بهجة الرواد 115/1-116، ابن مريم. البستان. ص 305.

⁶ - بوناى. التصوف في الجزائر، ص 114-116.

إن هذا الاتجاه الصوفي كان له أثر سلبي في حياة يحيى بن الصقيل كما كان لمستقبل الأسرة عامة، إذ أننا لا نجد له أتباعاً أو مريدين كما لا نجد له أي مساهمة في نشر التصوف علمياً أو حتى على المستوى التنظيري بالتأليف والكتابة، عكس بعض أصلاء بلده خلال ذات الفترة أي ما بعد القرن السابع.¹

أبعد من ذلك نجد أن أبنائه في القرن الثامن وهم من معاصري المؤرخ يحيى بن خلدون (تـ 780 هـ)، "على غير هديه" قد نبذوا مسلك الزهد والانقطاع عن الدنيا وتقربوا من السلطة في تلمسان المتمثلة في الزيانيين، فولوهم بعض الوظائف السلطانية، فأظهروا كفاءة ونجاعة في أعمالهم هذه،² لكن لا نملك أسماءهم ولا أدوارهم ووظائفهم كذلك على وجه التحديد.

وتجدر الإشارة هنا إلى ورود اسم محمد بن محمد بن حسن بن سلمة الأنصاري بتونس وربما يكون من أبناء عمومة فرع تلمسان، وهو أحد الشخصيات العلمية البارزة في الفقه والحديث وعلم القراءات برواياته السبع المشهورة وبغيرها الأقل شهرة، ومن أخذ عنه وتخرج به شيخ الإسلام بتونس الإمام ابن عرفة، وعلامة المغرب الأوسط محمد المقرئ التلمساني.

وتوفي يحيى بن الصقيل سنة 746 هـ.³

¹ - عن مساهمة الأندلسيين في نشر التصوف باختلاف اتجاهاته في المغرب الأوسط خلال هذه الفترة راجع: بوداود صيد. ظاهرة التصوف في المغرب

الأوسط ما بين القرنين 7 و 9، ص 45-47.

² - يحيى بن خلدون. بهية الرواد 1/116.

³ - المহারي. برنامج، ص 141-142، التبيكتي. النيل 2/55.

البيت الوشقي التلمساني العلماء المبدعون (576-764 هـ)

أصل البيت الوشقي

من مدينة وشقة الأندلسية المحصنة،¹ هاجرت أسرة ابن موسى إلى مدينة تلمسان، وحسب المصادر التاريخية فهم ينحدرون من نسل الأنصار² أي من إحدى بطون القبائل اليمينية القديمة التي استقرت بالمدينة المنورة، ومنها تفرعت في أصقاع العالم الإسلامي الجديد، وبالعودة إلى كتب الجغرافيا الوصفية نعلم أنه "ليس بوشقة من أهلها المتأصلين رجل ينتهي إلى أصل صحيح من العرب"³، فتكون النتيجة بالضرورة لذلك أمر واحد وهو أنهم من الأسيان المستعربين أو من المولدين؛⁴ لا ينتسبون إلى الأنصار إلا بالولاء، وهذا نموذج فريد في تاريخ بيوتات المغرب الأوسط من أصول إسبانية.

هجرة البيت الوشقي إلى تلمسان

هجرة هذا البيت غير محددة في مصادرنا، ومن المرجح أن يكون عبد الله بن موسى مؤسس الأسرة هو الداخل إلى تلمسان على الأقل أوائل القرن السادس، وبها نشأ هو وابنه أبو بكر اللذان لا غمك عنهما شيئاً ولا عن نشاطهما بتلمسان، إلا أن الحقيقة التي نستطيع تأكدها هو أن أبو بكر على الأقل كان يتمتع بثقافة ما، فمن المعروف أن البيوتات ذات المستوى العلمي والثقافي المميز هي الوحيدة في مجتمعات العصر الوسيط التي تورخ بالتدقيق لولادات أبنائها،⁵ كما هو الشأن بالنسبة لأبناء هذا البيت على النحو الذي سأذكر بعد.

فتلمسان ولد لأبي بكر ابنين نجيبين هما محمد الذي شهر فيما بعد بأبي عبد الله البري وهو بكر الأسرة وإبراهيم الذي غلب عليه اسم أبي إسحاق التلمساني.

أما أبو عبد الله البري فقد ولد في ذي الحجة سنة 576 هـ أي في زمن حكم الموحدين لتلمسان، وهي السنة نفسها التي شهدت فيها الدولة الموحدية فنن داخلية واضطرابات؛ كفتنة ابن المنتصر بجاية وأحلافه عرب رياح

¹ - Washka بالقاف ويقال وشكة بالكاف أيضاً: مدينة محصنة بينها وبين سرقسطة 50 ميلاً، مدينة حسنة ذات متاجر وأسواق عامرة ومناعة قائمة، أنظر: ابن الدلائي. ترصيع الأخبار، ص 55، الإدريسي. نزهة المشتاق 733/2، الزهري. الجغرافيا، ص 82، الحموي. الروض المعطار، ص 612.

² - ورد عند ابن الخطيب: أنهم من أصل قرشي، والتمعن في عبارته التي صُدِّرَ بها ترجمة أحد أعلام هذا البيت حيث قال: "تلمساني وقرشي الأصل" يدرك الخطأ من تصحيف وشقي إلى قرشي، ولم يتبه المحقق عبد الله عنان إلى ذلك، لأن العطف لا يكون إلا بين متماثلين في الجنس وهنا عطف النسبة إلى الأصل على النسبة المكانية، وقد يكون الخطأ من ابن الخطيب أو من الناسخ، أنظر: الإحاطة 326/1.

³ - الحموي. الروض المعطار، ص 612.

⁴ - أنظر عن هذين الصنفين: حسين يوسف دويدار. المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، ط1، القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، 1414-1994، ص 34-45، بوتشيش. مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ط1، بيروت: دار الطليعة، 1998، ص 43 - 45.

⁵ - أنظر عن هذه الفكرة: عمر بن حمادي. كتب الطبقات ومشاكل استغلالها في أبحاث الديموغرافيا، ص 11.

بقفصة والقيروان، فكانت تعبئة الجيوش لقمعهم قد انطلقت من تلمسان في صفر بقيادة الخليفة أبي يعقوب المنصور نفسه وكان النصر حليفه،¹ وهو من بشائر سعد هذا البيت وحسن طالعه.

نشأ أبو محمد البري في حلقات العلم ومجالسه بتلمسان فدرس على يد العلامة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن التحجبي المرسي (تـ 610 هـ) الحافظ المحدث إمام القراءات في زمانه، ممن رحل إليه الكثير من طلاب العلم من أقطار الغرب الإسلامي كله للقراءة والتلمذ عليه لسعة علمه وتبحره، وأخذ أيضا على القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الحق اليفرنجى الندرومي (تـ 625 هـ) الحافظ الفقيه صاحب التصانيف الرائعة، وغيرهما ممن لا تملك أسماؤهم.

ظهر نبوغ أبي عبد الله البري سريعا في الحديث ورجاله كأثر واضح من أثر شيخيه المذكورين، وكذا في علم الأنساب والتاريخ والسير والأدب نثره ونظمه.

وفي سنة 631 هـ أو قبلها رحل إلى الأندلس وهو في سني الخمسين من عمره، فلقى بها أعلامها كأبي الربيع سليمان الكلاعي (تـ 634 هـ) وأبي المطرف بن عميرة المخزومي البلنسي وابن الأبار البلنسي وأبي بكر محمد بن محرز الزهري البلنسي قبل هجرته للعدوة المغربية، وأبي الحسن سهل بن مالك الأزدي الغرناطي (تـ 631 هـ)، وكان ينتقل بين حواضر الأندلس وجزرها حتى وقع أسيرا بالقرب من منورقة في يد النصارى الإسبان،² ومن حسن طالعه أن وافق ذلك أيام حكم الرئيس أبو عثمان سعيد بن حكم الأموي (630-680)،³ بعد أن اختلت كلمة الموحدين بما فأحسن تدبيرها، وعلا قدره فيها وأعظمته الملوك، والأهم من هذا أنه "كان بعيد الهمة اجتلابا لأهل العلم واصطناعا لهم، وافتكاكا لمن تحصل منهم بيد عدو" أسيرا. وليس بمستغرب ذلك منه؛ فهو أحد مشاهير علماء الأندلس، وأيا ما كان الأمر فقد عمل الرئيس ابن حكم على فك أسر أبي عبد الله البري ومن معه بالفداء، واجتلبه إلى نفسه وحظي عنده لما رأى منه من علامات النبوغ والرفعة وعلو الكعب في العلم، فجعله كاتباً له⁴ سنة 644 هـ أو في السنة التي قبلها.

وإلى جانب ذلك وبمنورقة اشتغل بنسخ الكتب وتحقيق أصولها إذ أننا نجد نسخة من كتاب "التكملة" لابن الأبار مخطوط بالخزانة الحسينية بالرباط الآن تحمل رقم 1411 وصفت بأنها "نسخة جيدة تامة بخط أندلسي متقن جميل معارضة بأصل المؤلف (ابن الأبار) على يد كل من محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني (البري) وسعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي (الرئيس)"، وصاحب الخط هو محمد بن أحمد الهواري الشهير بابن الجلاب المري، والنسخة مؤرخة بسنة 668 هـ.⁵

¹ - ابن عذاري . البيان المغرب (موحدي)، ص 141.

² - ابن عبد الملك المراكشي، اللبل 280/1/8-281.

³ - أنظر عن أيام حكمه: ابن الخطيب. أعمال الأعمال، ص 275-276، عصام سالم سيسام. جزر الأندلس المنسية، ط1، بيروت: دار العلم للملاين، 1984، ص 446-451، محمد دغيم. أبو عثمان سعيد بن حكم صاحب جزيرة منورقة، مجلة دعوة الحق. عدد 14، ص 417-441.

⁴ - ابن الخطيب. أعمال الأعلام، ص 276.

⁵ - المنوني. ورفات عن حضارة المرينيين، ص 502-503.

عاش محمد البري حياة الرغد في ظل الرئيس أبو عثمان لسنوات طويلة، مدحه فيها بقصائد كالغرر تقديرا لمواقفه وحمائته الثغور الإسلامية، إلى أن توفي الرئيس أبو عثمان سنة 680 هـ ووفاء منه له بعد مماته لم يعادر منورقة؛ بل بقي فيها على عهد ابنه وخلفه أبي عمر حكم، ويبدو أيضا أنه أقر البري في منصب الكتابة، الأمر الذي كان دافعا قويا لتشبهه بالاستقرار في منورقة إلى أن توفي سنة بعد ذلك، أي يوم الخميس 17 ربيع الأول من سنة 681 هـ،¹ وقد ناهز المائة وخمس سنوات.

والجدير بالذكر أن لقب البري الذي اشتهر به يكون قد اكتسبه أيام وجوده في الأندلس، فالبري يعني القمّاح، أي المشتغل بتجارة القمح أو إنتاجه² في محاولة لتغطية نفقات الرحلة وتكاليفها.

أما إبراهيم بن أبي بكر المعروف بأبي إسحاق التلمساني، فقد ولد بعد أخيه البري بنحو ثلاث وثلاثين سنة أي عام 609 هـ، والملاحظ أن فارق السن بينهما كبير جدا (أي 33 سنة)، والمعقول أن بينهما العديد من الإخوة الذين لم يكن لهم شأن ربما، لذا لم يشتهروا ولم يذكرروا.

نشأ أبو إسحاق إبراهيم في تلمسان هو الآخر وعاش طفولته بها، وفي سن التاسعة من عمره حوالي سنة 618 هـ انتقل به والده أبو بكر إلى الأندلس واستوطنا غرناطة لمدة ثلاث سنوات، وفي سنة 621 هـ رحلا عنها إلى مالقة وهو ابن الثانية عشر وسكنها مدة، وهناك قرأ معظم قراءاته على يد أعلامها من أمثال أبي بكر بن دحمان وأبي صالح محمد بن محمد الزاهد وأبي عبد الله بن حفيد وأبي الحسن سهل بن مالك، كما لقي بغيرها من حواضر الأندلس: أبا بكر محمد بن محرز الزهري وأجاز له، وكتب إليه مجيزا أيضا أبو الحسن بن طاهر الدباج، وأبو علي الشلوين شيخ النحويين في زمانه.³

ظهر نبوغ أبي إسحاق التلمساني ولاح أفق استبحاره في سن مبكرة، فقد بدأ التأليف في سن العشرين، وأول كتاب له كان سنة 629 هـ.

بقي أبو إسحاق التلمساني في الأندلس مدة بعد ذلك منشغلا بالدراسة والتدريس معا، ثم عاد إلى العدة المغربية قبل سنة 647 هـ ونزل سبتة، وبها درس على أبي العباس بن عصفور الهواري وأبي المطرف أحمد ابن عميرة المخزومي وأبي يعقوب يوسف موسى المحاسني الغماري، وأبي البركات عمر بن مودود الفاسي الذي درس عليه وقرأ صحيح البخاري.⁴

قال عنه ابن الزبير: " كان أديبا فاضلا لغويا إماما في الفرائض"⁵، وقال ابن عبد الملك المراكشي: " خبرت منه في تكراري عليه تيقضا وحضور ذهن وتواضعا وحسن إقبال وبر وجميل لقاء ومعاشرة وتوسطا، صالحا في هيئته

¹ - ابن عبد الملك المراكشي. الذهب 1/8/281.

² - ابن ماكولا. الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411-1990، 399/1.

³ - ابن الخطيب. الإحاطة 327/1-328، ابن مريم. البستان، ص 56.

⁴ - ابن فرحون. الديهاج، ص 147، الوادي آشي. برنامج، ص 114، ابن مريم. البستان، ص 56.

⁵ - صلة الصلة 355/5.

ولباسه يكاد ينحط عن الاقتصاد حسب المؤلف أو المعروف"¹، وقال عنه يحيى بن خلدون: "مدرك محقق معروف الفضل والدين"².

وفي سبته تزوج أبو إسحاق التلمساني أخت الشيخ الشهير أبي الحكم مالك بن المرحل المالقي الأصل العدل القاضي الأديب (ت 699 هـ)، ولم يكن ابن المرحل مجرد صهر فحسب بل أكثر من ذلك.

فقد كان على علاقت متينة به في الصحبة والرحلة وغيرها، ذكر عنهما أبو زكريا السراج الكاتب بسجلماسة خيرا طريفا، مفاده أنهما "اصطحبا في مسير فأورهما الليل إلى مشجر، فسألا صاحبه فذلاً فاستضافاه فأضافهما، فبسط قטיפه بيضاء ثم عطف عليهما بخبز ولبن وقال لهما: استعملا من هذه اللطافة حتى يحضر عشاؤكما وانصرف، فتحاورا في اسم اللطافة لأي شيء هو منها حتى ناما فلم يرع أبا إسحاق إلا مالك يوقظه ويقول: قد وجدت اللطافة، قال: كيف؟ قال: أبعدت في طلبها حتى وقعت بما لم يمر قط على مسمع هذا البدوي فضلا عن أن يراه ثم رجعت القهقري حتى وقعت على قول النابغة

مُخَضَّبٌ رَخِصٌ كَأَنَّ بِنَانَهُ
عَنَّمْ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ

فسنح لبالي أنه وجد اللطافة وعليها مكتوب بالخط الرقيق اللين، فجعل إحدى النقطين للطاء فصارت اللطافة للظافة، واللين اللين، وإن كان صحف عنم بغنم وظن أن يعقد حين فقد قوى عنده الوهم، فقال أبو إسحاق: ما خرجت عن صوبه، فلما جاء سألاه فأخبر أنها اللين! واستشهد بالبيت كما قال مالك"³ أي ابن المرحل.

وبسبته زاول أبو إسحاق التلمساني إحدى الوظائف العدلية وهي عقد الشروط بالإضافة إلى التدريس، فتخرج على يديه جمع غفير، وكانت وفاته سنة 690 هـ حسب ابن الزبير وابن الخطيب، أو 697 هـ حسب ابن فرحون،⁴ والتاريخ الأول هو الراجح لأن ابن الخطيب ينقل ترجمته عن ابن عبد الملك المراكشي وهو أعرف الناس به للملازمة.

إن حياة محمد البري في منورقة الجزيرة شبه المعزولة عن الغرب الإسلامي كان سببا في تهميش الكتابة التاريخية لها ومجتمعا مقارنة بغيرها، لذا لا نعلم عن عقب البري شيئا، في حين استمر عقب أبي العباس أخيه محافظا على مسيرة البيت الرشيقي، فقد كان له ابن يسمى أحمد إلا أن نشاطه يكتنفه الغموض المطلق لكن من المؤكد أنه كان من أهل العلم المشتغلين بالتدريس فهو أحد مدرسي ابنه محمد.

أما محمد بن أحمد هذا حفيد أبي إسحاق التلمساني المكنى أبا الحسين فولد سنة 676 هـ بسبته ونشأ في بيت تشبع بحب العلم وطلبه، فقرأ على أبيه أحمد وجده أبي إسحاق التلمساني وعلى الشريف أبي علي الحسن وأبيه الشريف أبي التقى طاهر، ودرس على الأمير الصالح أبي حاتم أحمد من بيت العزفي وعلى محمد بن محمد ابن حريث إمام الفريضة وأبي إسحاق الغافقي، وعلى الكاتب الناسك أبي القاسم خلف بن عبد العزيز القبتوري والأستاذ المعمر أبي عبد الله محمد بن الخضار الكتامي التلمساني والخطيب المحدث الرحلة ابن رشيد والأديب أبي

¹ - الرواية الأصلية مفقودة واحتفظ لنا ابن الخطيب في الإحاطة 327/1-328.

² - بهمة الرواد 109/1.

³ - المقرئ. أزهار الرياض 62/5، ونفع الطيب 245/5-246.

⁴ - صلة الصلة 356/5، الإحاطة 329/1، الديباج، ص 148.

عبد الله الطنجالي والصوفي ابن قطرال والخطيب ابن الزيات والقاضي ابن برطال والوزير المعمر ابن ربيع والأستاذ الحسائي أبي إسحاق البرغواطي، وهؤلاء لقيهم وسمع منهم وقرأ عليهم، أما من كتب له بالإجازة فخلق كثير أولهم خال أبيه مالك بن المرحل والخطيب ابن فضيلة وأبي جعفر بن الزبير والعدل ابن مستوقر والوزير أبي أحمد بن سمالك والخطيب أبي محمد مولى الرئيس صاحب منورقة وأبي محمد الحلاسي والقاضي ابن الغماز البلنسي نزيل بجاية وأبي القاسم الحضرمي والراوية ابن هارون والمحدث أبي الحسن القرافي وابن دقيق العيد وضياء الدين أبي مهدي، "إلى عالم كثير من أهل المشرق يشق إحصاؤهم".¹

إن كثرة شيوخه وشهرتهم تدل على مبلغ علمه ومدى استفادته من تحصيله، فقد قال عنه الوزير لسان الدين ابن الخطيب: "طرف في الخير والسلامة، معرّف في بيت الصون والفضيلة، معمّ تحوّل في العدالة، قدم الطلب والاستعمال، معروف الحق، مليح البسط حلو الفكاهة، خفيف إلى هيئة الدعابة على سمت ووقار، غزل لودعي مع استرجاع وامتسك، مترف عريق في الحضارة، مؤثر للراحة قليل التجلد نافر عن الكد، متصل الاستعمال عريض السعادة في باب الولاية، محمول على كتد المبرّة، جار على سنن شيوخ الطلبة والمُقاتين من الأرزاق المقدرّة، أولى الخصوصية والضبط من التظاهر بالجاه على الكفاية".²

لم يستقر أبو الحسين محمد في سبته شأن أبيه وجده؛ بل سلك فحج مؤسس البيت الحقيقي محمد البري عم أبيه، فهاجر إلى الأندلس سنة 718 هـ واستوطن غرناطة كرسي مملكة بني الأحمر، فحظي لديهم ولوه الأعمال واستعملوه في وظائف عدة، فولي الحسبة بغرناطة ثم قلد تنفيذ الأرزاق وعلى حد تعبير ابن الخطيب: "هي الخطة الشرعية والولاية المجدية"، ويعني ذلك أنه كان كاتباً للحيش، في عهد السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج بن نصر (725-733)، ثم ناب عن الوزير ابن الخطيب في العرض والجواب بمجلس السلطان محمد ابن يوسف إسماعيل بن فرج (755-755)، كما قدم إماماً للتراويح بمسجد قصر السلطان إذ كان حافظاً للقرآن الكريم مجوداً له طيب النغمة به، وقد حمدت سيرته في كل ما اضطلع به.³

وإلى جانب الوظائف السلطانية اشتغل بالتدريس والإقراء، فكان يقوم على القرآن الكريم والسيرة النبوية والحديث والرواية والتاريخ، مع ميل إلى الأدب وذلك بالمسجد الجامع في غرناطة، "معرباً عن نفسه منبها على مكانه، فزعموا أن رجلاً فاضت نفسه وجدا لشجو نغمته وحسن إلقاءه" لدروسه، واتسمت مجالسه بالسلامة والخير "فلم تؤثر عنه في أحد وقبعة، ولا بدرت له في الحمل على أحد بنت شفة".⁴

خلال مسيرته في الوظائف السلطانية نالته بسببها محنة مرة ثم أقيمت عشرته وعفيت نكبته، فعاد إلى رتبته ومكانته في بلاط بني الأحمر، ثم أعيدت عليه النكبة فهلك فيها شهر محرم 764 هـ وقد ناهز التسعين من عمره.⁵

1- الإحاطة 201/1-202.

2- المصدر نفسه 200/3.

3- ابن الخطيب. الإحاطة 200/3-201، وأعمال الأعلام، ص 300.

4- ابن الخطيب. الإحاطة 201/3.

5- ابن الخطيب. الإحاطة 201/3.

الميراث العلمي للبيت الوشقي

تعد أسرة بني موسى الوشقي من أشهر البيوتات العلمية ذات التراث اللامع، والتي تخرج على يديها علماء في تخصصات شتى، كما تركت لنا العديد من المؤلفات كان لها أثرها في صياغة منظومة ثقافة الغرب الإسلامي الوسيط، من خلال الكتب التي أصبحت مادة لحلقات الدرس ومجالس العلم والإجازات العلمية، ومرجعاً مهماً لمؤلفات المغاربة والأندلسيين لقرون عديدة تمتد حتى العصر الحديث.

1- تلاميذ البيت الوشقي

أما عن التلاميذ والطلاب الذين تخرجوا على أعلام هذا البيت فنلاحظ تبايناً واضحاً في نصيب كل فرد منهم، فبخصوص محمد البري فقد راح ضحية المقولة الرائجة في مؤلفات العصر الوسيط: "روى عنه غير واحد"، ولم يسم من "غير واحد" هؤلاء إلا أبا محمد مولى سعيد بن حكم الرئيس صاحب منورقة، وأبا الظفر ابن القائد الوزير أبي عمرو الكلبي،¹ وقد حاولت إعادة تركيب قائمة بأسماء تلاميذه إلا أن ذلك لم يكن مجدياً لفقدان المادة التاريخية التي من شأنها أن تحقق ذلك.

وعلى عكس أخيه أبي إسحاق التلمساني الذي لم يذكر في ترجمته من تلاميذه هو الآخر إلا أشهرهم وهو ابن عبد الملك المراكشي صاحب "الفيل والتكملة" بعد أن قيل في شأنه: "روى عنه الكثير من عاصره".² ولم يسمى منهم غير ابن عبد الملك المذكور.

وبطريقة التركيب المشار إليها من خلال فحص أكبر عدد ممكن لترجمات علماء الغرب الإسلامي في القرن السابع والثامن الواردة في الذيل والتكملة وصلة الصلة والإحاطة والديباج والدرر الكامنة ونيل الابتهاج وكفاية المحتاج وتوشيح الديباج ودرة الحجال وجذوة الاقتباس والبستان والإعلام بمن حال مراكش وأغامت من الأعلام وسلوة الأنفاس وغيرها، أمكن الوصول إلى استخلاص القائمة الآتية:

1. أحمد أبو العباس ابنه.
2. أبو الحسين محمد حفيده كما أشرت سابقاً.
3. أحمد بن عبد الله الأنصاري الأندلسي المعروف بالرصافي (حيا سنة 736 هـ).³
4. أحمد بن عتيق الأزدي الغرناطي المعروف بالشاطبي (تـ 743 هـ) قاضي مدينة برجة الأندلسية، "كان موثقاً ومتميزاً في أحكام القضاء وحفظ النوازل، ففيها جليلاً مشاوراً نبيلاً حافظاً للأدب ذا كرا لكثير من التاريخ، شاعراً".⁴

¹ - ابن عبد الملك المراكشي. الفيل 280/1/8، التحيي. برنامج، ص 266.

² - ابن فرحون. الديباج، ص 147، ابن الخطيب. الإحاطة 327/1.

³ - البلوي. تاج الفرق 95/2، ابن القاضي. ذرة الحجال، ص 22، بن منصور. أعلام المغرب العربي 285/4.

⁴ - ابن القاضي. ذرة الحجال، ص 72، بن منصور. أعلام المغرب 295/4.

5. محمد بن يوسف بن إبراهيم الأمي البليقي نزيل المرية المعروف بابن مشون (ت 689 هـ)، أحد أساتذة المرية ومقرئها، له مشاركة في العربية وتحقيق في علم الحساب والفرائض، وصاحب مؤلفات في الجبر والمقابلة.¹
6. أبو عبد الله محمد بن يحيى بن بكر الأشعري المالقي، أحد قضاة غرناطة وشيخ ابن الخطيب، توفي سنة 741 هـ.²
7. محمد بن جابر التونسي الوادي آشي ذي الرحلتين، الراوية الحافظ المحدث المقرئ المهود (ت 749 هـ)³.
8. القاسم بن يوسف التحيي البلسي الأصل السبتي النشأة، الراوية الفقيه صاحب "البرنامج"،⁴ وهو من المكثرين عليه في الرواية.
9. محمد بن علي بن قطرال الأنصاري المراكشي (ت 710 هـ) دفين مكة المكرمة القرطبي الأصل.⁵
10. يحيى بن عبد الله بن محمد بن أبي عزفة اللحمي (ت 710 هـ).⁶
أما من أجازهم كتابة فهم:
11. علي بن عتيق الهاشمي الغرناطي المعروف بالقرشي (ت 719 هـ).⁷
12. سلمون بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناني الغرناطي.⁸
- أما تلاميذ ابنه محمد فلا نملك منهم سوى الحفيد أبو الحسين محمد كما أسلفت.
13. أما تلاميذ الحفيد أبو الحسين محمد فقد حجبهم اسم لامع في تاريخ الغرب الإسلامي، والمتمثل في شخصية الوزير الكاتب الأديب الحكيم لسان الدين ابن الخطيب (ت 776 هـ) الذي لا يذكر شيخه محمد هذا إلا وحلاه بصفات العلم والفضيلة ونباهة المحتد وأصالة المجد،⁹
14. وكذا الوزير الكاتب الغرناطي يوسف بن زمرك.¹⁰

¹ - ابن القاضي. درة المجال، ص 166-167.

² - النباهي. المراقبة العليا، ص 141، المقرئ. نفح الطيب 386/5، التبيكي. النيل 50/2 والكفاية، ص 307.

³ - الوادي آشي. برنامج، ص 114.

⁴ - التحيي، برنامج، ص 137، 172، 173، 266، 276، 289.

⁵ - ابن الخطيب، الإحاطة 203/3، ابن حجر. الدرر الكامنة 53/4.

⁶ - ابن الخطيب، الإحاطة 341/3.

⁷ - المصدر نفسه 199/4.

⁸ - المصدر نفسه 310/4.

⁹ - المصدر نفسه 458/4.

¹⁰ - ابن الخطيب. الإحاطة 303/2.

2- مؤلفات البيت الوشقي

لم يقتصر أثر البيت الوشقي العلمي على تخريج الطلاب الذين كان لهم شأن في زخم الحياة الثقافية في الغرب الإسلامي، وفي الوظائف التي أهلوا إليها وشغلوها، بل تجاوز ذلك إلى تخليد مجدهم العلمي الحضاري عن طريق مؤلفات سوف نعرف قيمتها بعد ذلك.

فقد ترك لنا محمد البري عددا من المؤلفات والكتابات في السيرة والأنساب وغيرها بعضها عبارة عن أراجيز ومنظومات شعرية مطولة.

1- فقد ألف كتابا سماه: "العمدة في نسب النبي ﷺ والخلفاء بعده"¹ احتفظ لنا الفقيه المشارك ابن سعود الخزاعي التلمساني الأندلسي الأصل (ت 789 هـ) بفقرات منه، سنورها لتتعرّف على موضوع الكتاب وماهيته تحديدا.

- ورد في باب حجاب أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؓ قوله: "من موالي عثمان رضي الله تعالى عنه: حمران بن أبان وهو من سبي عين التمر وسكن البصرة، وبقي إلى زمن عبد الملك بن مروان".

- وفي كلامه عن ترجمان النبي ﷺ قال: "زيد بن ثابت الأنصاري النجاري رضي الله عنه كان يكتب للملوك ويحيب بحضرة النبي ﷺ، وكان ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن".

- وورد في الحديث عن قضاة النبي ﷺ وأنسابهم وأخبارهم قوله: "نقل محمد البري عن الكميت بن زيد أبيات يرثي بها عليا ؓ [خفيف]

والوصي الذي أمال التجوس — — — — —
— — — — — به عرش أمة لا تدم

ثم قال: "وقظام بنت علقمة من تيم الرباب، وقيل إنها من عجل".

- وفي ذكر الأمين على حرم الرسول ﷺ قال: "عبد الرحمن بن عوف هو الأمين في أرض الله وسمائه، فكان لذلك أمين رسول الله ﷺ في السفر على نسائه".

- وفي الحديث عن متولي بيت المال زمن الخليفة الراشد أبي بكر الصديق ؓ قال: "بلال بن حمزة رضي الله تعالى عنه، وحمزة أمه، وإليها كان ينسب، وأبوه رباح كان لبعض بني جمح، فاشتره أبو بكر منهم ثم أعتقه وكان له خازنا"².

إن هذه النبد والاقباسات الخمس من شأنها أن تكشف لنا بعض حقيقة هذا الكتاب، فهو ليس مجرد كتاب في النسب كما يدل عليه عنوان؛ بل هو أشبه ما يكون بكتاب في التراتيب الإدارية والنظم الشرعية على زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، ويظهر أن ابن سعود الخزاعي نسج كتابه المسمى "تخريج الدلالات السمعية" على منواله واستفاد منه تبويه وتفريعه، ومن الملاحظ كذلك أن هذه المعلومات الواردة في كتاب العمدة نجدتها في

¹ - التحفي. برنامج، ص 266، ابن عبد الملك المراكشي. الذيل 280/1/8.

² - أنظر: تخريج الدلالات السمعية، ص 67، 218، 279-280، 452، 584.

كتاب "الاستيعاب في أسماء الأصحاب" لحافظ المغرب والأندلس ابن عبر البر القرطبي (ت 463 هـ)، ورغم ذلك عدل الخزاعي عنه إلى كتاب محمد البري، وهذا لقيمه ومكانته التي تقاس بمثل الذي ذكرت. ومن نقل عن "العمدة" كذلك ابن سعد الأندلسي التلمساني¹ (ت 901 هـ) إذ أورد 9 أبيات من قصيدة طويلة له يرثي فيها الحسين بن علي رضي الله عنهما استهلها بقوله:

ياسادني يا أهل بيت المصطفى ذكر يوم ألطف قد أفجعني
قتل السبط حسين بينكم فيه فاشتد علي ذا حزني

إلى أن يقول:

فاشفعوا لي يوم حشري توجروا واجعلوني معكم في المأمن
ليس لي غيركم من شافع أنتم أهل الوفا والمنن.

وهذا يعني أن الكتاب كان معروفا حتى أوائل القرن العاشر وفي تلمسان تحديدا مسقط رأس البري.

2- ومن المؤكد أن كتاب "العمدة" كان موسوعة كبيرة استدعت من المؤلف محمد البري أن يعيد صياغتها في شكل مختصر وهو ما حصل فعلا، فأخرج كتاب آخر سماه "العدة المختصرة من كتاب العمدة"، وقال في حقه:

الحمد لله على عونه في وضع هذا الجامع المختصر
ما أعظم النفع به لأموي على إطلاع ليس فيه قصر

وقال في أصله الذي اختصر منه:

هذا كتاب العمدة للذكر خير عدة
شرف في ملء مؤمن في وحدة.²

3- كما نضم رجز في السير، وهو رجز مختصر ورد اسمه كاملا عند ابن عبد الملك المراكشي لكن الخرم في نسخة المخطوط الأصلي أذهبت بعض عينه فأبقت الكلمة الأولى والأخيرة فقط من العنوان: "فريدة... اللآلي".

4- وله أيضا كتاب بعنوان "وصف مكة والمدينة وبيت المقدس"³، ويحتمل أن يكون هذا الكتاب عبارة عن رحلة قام بها البري إلى المشرق ودون فيها ملاحظاته تلك، رغم أن من ترجموا له لم يذكروا له رحلة إلى المشرق.

ومن سوء الحظ أن هذه المؤلفات لا أثر لها اليوم فهي في حكم المفقود، والإهتمام بها حسب ما ورد في كتب الفهارس والبرامج لم يتجاوز القرنين السابع والثامن، فخلال القرن الثامن وفي منورقة تحديدا كانت تدرس هذه المؤلفات وكذلك في سبتة بتروج من تلاميذ البري نفسه، وبعد هذا القرن لا نجد لها ذكرا حتى في الكتب الجغرافية ككشف الضنون وذيوله، ومعجم المؤلفين وتاريخ التراث العربي لسزكين والمستدرك عليه للنعمي.

5- إن نوابغ الدهر التي أفقدتنا الكتب المذكورة أبت لنا على كتاب واحد فريد للبري، وهو "الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة"، بعد أن عُثر على مخطوطة وحيدة منه إلى حد الآن.

¹ - روضة السرين، ص 118.

² - التحفي. برنامج، ص 266، ابن عبد الملك المراكشي. الذيل 281/1/8.

³ - ابن عبد الملك المراكشي. الذيل 281/1/8 والهامش 383 من نفس الصفحة، وذكر الكتاب الأخير بروكلمان في ذيل تاريخ الأدب العربي 281/1 ولم أطلع عليه.

وقد نشر محمد التونجي طرفاً من هذا الكتاب في طبعين الأولى بدمشق سنة 1982 (مكتبة النوري)، والثانية بالعين الإماراتية سنة 2000 (مركز زايد للتراث والتاريخ) في مجلدين من 607 صفحات، ولم يقف على شيء بخصوص المؤلف باستثناء اسمه، ثم أعاد نشر جزء منه خاص بترجمة الإمام علي بن أبي طالب وسيرته، وسيرة إبنه الحسن والحسين ¹.

وتجدر الإشارة إلى أن كمال الدين عبد الرحمن محمد الأنباري العراقي (ت 577 هـ) قد ألف كتاباً بنفس العنوان كما ذكر حاجي خليفة² فهل هذا التوافق في اسم الكتاب من محض الصدفة أو بالأحرى توارد أفكار؟ أم أن البري اطلع عليه ونسج -متأثراً- على منواله؟ أيا ما كان الأمر فقد ألف هذا الكتاب كما ورد في آخره وانتهى منه صدر يوم الجمعة 25 ذي الحجة 644 هـ بمنورقة، وقد بدأ تأليفه يوم كان في الأسر لدى الإسبان.³

ولما فرغ منه أهدها إلى الرئيس ابن الحكم صاحب منورقة ليحمله تاج خزائنه، فأحالته الرئيس بدوره إلى أحد علماء حضرته ليرى رأيه فيه ويقومه، فكتب إليه هذه الأبيات:

عساك تمشقه لترى منازعه وتختبراً
فإما أن نفهرسه وإما أن ترى ونرى
ولم أفرغ لأنظره ومثلك من كفى النظراً.⁴

اعتمد البري في مؤلفه هذا مصادر عديدة ومختلفة المشارب والفنون والأغراض، أثبتها في خطبة الكتاب فقال: "جمعت هذا التأليف وانتخبته وانتقيته وهذبته من موطأ مالك وصحيح البخاري ومسلم ومسند الترمذي وكتاب الشمائل له، وكتاب سنن النسائي والمنتقى لابن الجارود وتاريخ الطبري وسنن أبي داود وكتاب الاستيعاب لابن عبد البر وكتاب التقصي والأنباه له، والسير لأبي إسحاق وكتاب الأسامي والكنى لمسلم بن الحجاج وكتاب رياضة المعلمين لأبي نعيم الأصبهاني وكتاب الشريعة للأجري وكتاب صفين لأبي منذر هشام بن محمد الكلبي وكتاب الأمثال له وطبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي وكتاب الكامل للميرد وكتاب النوادر لأبي علي البغدادي وكتاب العقد لابن عبد ربه وكتاب منتخب نقائض جرير والفرزدق للنحوي وكتاب أشعار الهذليين".

وعن موضوعه ومنهجه قال: "سميته الجوهرة، ووشحته بتبسيهات على رجال الحديث وتعريف بهم من غير لبس ولا إشكال، ومعري بالبحث عن إغفال، فجلّ جمعه وبورك وضعه، ونظم متفرقا من الأخبار والآثار محررة من التطويل والإكثار".¹

¹ - البري التلمساني. الجوهرة في نسب الإمام علي وآله، تحقيق حمد التونجي، ط2، بيروت: دار الجليل، 1414-1993، (128 ص)، أما الكتاب الأصل فقد وقفت على نسخة إلكترونية (PDF) منه، وهو الآن متداول على صفحات الأنترنت في عدة مواقع كمكتبة المشكاة ومكتبة المصطفى الإلكترونيين.

² - كشف الضنون 621/1/2.

³ - محمد البري. الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة. (طبعة إلكترونية PDF) ص 514.

⁴ - محمد البري. الجوهرة، ص 5، ابن المرباط. زواهر الفكر. مخطوط الأسكوريال، ورقة 43 نقلا عن محمد بن شريفة. الذيل 280/1/8، هامش.

إن الكتاب في الحقيقة كتاب تاريخي يفصح عن مدى إطلاع محمد البري وتضلعه في فن التاريخ، وموضوع كتابه أكبر من أن يعبر عنه عنوانه، فمن خلال تصفح سريع لأبوابه وفصوله يُدرك ذلك، فقد تضمن سيرة النبي ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين الأربعة مع خلافة الحسين بن علي وحروب عبد الله بن الزبير مع الأمويين، وهو جدير بأن يظطلع أحد أبناء الجزائر المهتمين بتراتها بدراسته وتحقيقه.

أما أبو إسحاق التلمساني فقد كان عمدة البيت الوشقي وأكثرهم تأليفا وشهرة.

1. فقد ألف منظومة في "السير وأمداح النبي ﷺ".²
2. قصيدة (أرجوزة) في "المولد الكريم".³
3. مقالة في "علم العروض الديوبيقي".⁴
4. منظومة في "الحكم".⁵
5. كتاب "اللمع في الفقه".⁶
6. "شرح كتاب ابن الجلاب"،⁷ وكتاب ابن الجلاب (تـ 378 هـ) هو المسمى "التفريع"، اشتهر بين الفقهاء بـ "الجلاب" و"مختصر الجلاب"، ويعتبر مثالا رائدا لنوع جديد من المؤلفات الفقهية المالكية، وهي المختصرات الجامعة التي تتناول عددا ضخما من المسائل المندرجة تحت أبواب الفقه كلها بصورة شاملة وبصيغة موجزة، جامع لكل أبواب العبادات والعمالات صيغت في واحد وثلاثين كتابا يضم 18 ألف مسألة.⁸
7. جزء فيه "المعشرات العروضية في مدح محمد خير البرية"، قال عنه التحجي: "نظمها على جميع أوزان الشعر المشهورة وأعاريضه المأثورة وضروبه المعدودة المحصورة، مما روى العرب أو ألحق صدر المتحدثين بنبهه من العرب، ولم يدع عروضها تؤثر ولا ضربا يقدم ويؤثر، ولا نوعا يروى ولا وزنا يسط أو يروى، إلا صرف وجه الاعتناء إليه، ونظم تسعة أبيات في ذلك المقصد الكريم عليه معشرات بالبيت الشاهد لعلماء الصنعة على ذلك الوزن"، ويرد عنوان هذا الكتاب بصيغة مختصرة تحت اسم "المعشرات على أوزان العرب".⁹

¹ - الجوهر في نسب النبي، ص 6.

² - ابن فرحون. الديهاج، ص 148. ابن الخطيب. الإحاطة 327/1، ابن مريم. البستان، ص 56، كحالة. معجم المؤلفين 16/1.

³ - ابن فرحون. الديهاج، ص 148. ابن الخطيب. الإحاطة 327/1، ابن مريم. البستان، ص 56، كحالة. معجم المؤلفين 16/1.

⁴ - ابن الزبير. صلة الصلة 356/5، ابن الخطيب. الإحاطة 327/1، ابن فرحون. الديهاج، ص 148، ابن مريم. البستان، ص 56، كحالة. معجم المؤلفين 16/1.

⁵ - ابن مريم. البستان، ص 56، كحالة. معجم المؤلفين 16/1، التحجي. برنامج، ص 289.

⁶ - ابن فرحون. الديهاج، ص 148.

⁷ - المصدر نفسه، ص 148، وهو مما يستدرك على المحقق في قائمة شراح الكتاب المذكور ومختصروه، أنظر مقدمة: الطريح، تحقيق حسين بن سالم الدمان، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1408-1987، 1/ 152-158.

⁸ - عماد إبراهيم علي. اصطلاح المنهج عند المالكية، ط2، دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، 1422 - 2002، ص 234-235.

⁹ - التحجي. برنامج، ص 289، ابن الخطيب. الإحاطة 327/1، حاجي خليفة. كشف الغنون 513/2، كحالة. معجم المؤلفين 16/1.

8. جزء فيه "الجواب على أي قبيلة من القبائل ينطلق [كذا والأصح ينطبق] الشرف".¹
9. "نتيجة الخبر ومزيلة العبر في وصف مغازي رسول الله ﷺ"، وهي قصيدة في نحو سبعمائة بيت من جنس الأجزاء الحديثية.²
10. وكتاب "البصرة" وهو شرح لكتاب ابن الحاجب في الفقه، ذكره ابن مسعود الخزاعي واعتمده في تأليفه المسمى "تخريج الدلالات السمعية".³
11. وحال هذه الكتب هي الأخرى غير معروفة الآن على حد علمي، فهي لم تلق رواجاً كما هو الشأن بالنسبة لكتابه في الفرائض المسمى "بصرة البادي في الفرائض وتذكرة الشادي الحميد الفارض" المشتهر اختصاراً باسم "التمسانية" نسبة لـ "التمساني" اسم شهرته، ألفها وهو في سن العشرين، وهي عبارة عن منظومة شعرية، أو كما قيل في حقها: "أرجوزة محكمة بعملها ضابطة عجبية الوضع".⁴

كتاب التلمسانية وأثره في منظومة الثقافة المغربية

يُعد كتاب "التمسانية"⁵ أحد أشهر الكتب التي كان لها حضور قوي في الحلقات الدراسية والمجالس العلمية في فن الفرائض والميراث، فمنذ تأليفه في حدود سنة 629 هـ وهو يدرس في أقطار الغرب الإسلامي المختلفة حتى نهاية العصر الوسيط، بل أكثر من ذلك نجد له صدى في البرامج الدراسية لعلماء القرن 12 هـ/18 م. كما تجلّى الاهتمام بـ "التمسانية" أكثر من خلال الشروح العديدة التي أنجزت عنها، مما يعطيها دفعا أقوى في الأهمية والمكانة السامقة، وكذا ضمان تداولها وبقائها في المحافل العلمية إلى غاية القرن 13 هـ /19 م على الأقل في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي لها كما سآين ذلك.

وهذه قائمة بأسماء العلماء الذين كانوا يدرّسونها والطلاب الذين أخذوها عنهم:

1- أبو سعيد فرج المعروف بالشداد الغرناطي (تـ 782 هـ)، قرأها عليه محمد بن محمد المجاري (تـ 862 هـ).⁶

¹ - التحفي. برنامج، ص 266.

² - المصدر نفسه، ص 266.

³ - ابن مسعود. تخريج الدلالات السمعية، ص 610، 792.

⁴ - التحفي. برنامج، ص 276، ابن الخطيب. الإحاطة 327/1، ابن فرحون. الديهاج، ص 147.

⁵ - توجد مخطوطتان للكتاب في مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء المغربية، الأولى تحت رقم 145-1 والثاني تحت رقم 579-6، وطبع طبعه ححرية بالمطبعة المصرية سنة 1324-1906، وأعيد طبعه مع كتاب "دليل الفارض ومفتاح الفرائض: مختصر الشرح الصغير لأرجوزة العلامة الرمهوري" تحقيق الصالح صالحي بن عبد الله السوسي، الدار البيضاء: مطبعة النحاح الجديدة، 1990. راجع: الفهرس المغاربي، (كلمة: التلمسانية)، كما توجد نسخة بمكتبة الحرم المكي تحت رقم 1620. فرائض، أنظر: محمد مطيع وعادل عيد. الفهرس المختصر لمخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1426-2006، ص 913، كما توجد نسخة أخرى بالمكتبة الأزهرية تحت رقم 412/33314. مجموعة حلیم، أنظر: أبو الوفا المرغي. فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية إلى سنة 1364 هـ/ 1945 م، القاهرة: مطبعة الأزهر 1365-1946، 721/2، وقد ورد خطأ في المخطوطة حسب فهرسي المكتبة اسم شهرة المؤلف بابن البنا البري التلمساني؟ وتاريخ النسخة يعود إلى سنة 1103 هـ.

⁶ - المجاري. برنامج ص 126.

- 2- جعفر بن أبي يحيى الأندلسي، أجازها لأبي الحسن على البسطي الشهير بالقلصادي (ت 891 هـ).¹
- 3- محمد بن يحيى أبي السادات، قرأها عليه محمد بن عباد الكبير الراشدي العمراني المعروف بالشريف التلمساني (ت 964 هـ).²
- 4- محمد بن يحيى السلكسي، قرأها عليه أيضا الشريف التلمساني المذكور.³
- 5- محمد بن عزوز الديلمي التلمساني كان يدرسها "بعبارة حسنة وتدقيق"، إلا أننا لا نعرف من أخذها عنه.⁴
- 6- أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الزيدوري التلمساني (ت 845 هـ) قرأها عليه القلصادي المذكور.⁵
- 7- أبو العباس أحمد بن عبد الله الأنصاري الشهير بالرصاصي (حيا 736 هـ)، قرأها عليه خالد البلوي الغرناطي.⁶
- 8- محمد بن أحمد بن غازي العثماني الكتامي المكناسي (ت 919 هـ)، قرأها عليه علي بن موسى بن علي ابن هارون التلمساني الشهير المطفري (ت 951 هـ).⁷
- 9- محمد بن مهدي الدرعي الجراي (ت 979 هـ)، قرأها عليه عبد الواحد الشريف.⁸
- 10- أبو العباس أحمد بن محمد بن القاضي المكناسي صاحب "المجدوة" (ت 1025 هـ)، قرأها عليه عبد الله ابن محمد بن عثمان بن أبي بكر القسائي أكثر من مرة.⁹
- 11- وأشهر من كان يدرسها بعد مؤلفها هو: يعقوب بن عبد الله السيتاني الفرائضي، حيث "يقرر الفرائض في الهواء فإذا أراد عامله أن يصورها في اللوح ضربه بالقضيب على يده".¹⁰
- 12- أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسيني الجزائري (حيا سنة 1094 هـ)، قرأها عليه محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي سنة 1094 هـ بمدينة الجزائر.¹¹
- 13- وخلال القرن الثاني عشر (18 م) كانت "التلمسانية" تدرس في أقدم وأكبر جامعة إسلامية لوقتها أعني بذلك جامع الأزهر بالقاهرة، فقد كان الشيخ صالح الجميلي الذي -ربما يكون من أهل الجزائر تحديد من مدينة جميلة كما تدل عليه نسبه- يدرسها هنالك، ومن أخذها عليه علي بن خليفة المساكني السوسي التونسي.¹²

¹ - القلصادي. رحلة، ص 85، التبيكي. النيل 1/166، ابن مريم. البستان، ص 73.

² - ابن مريم. البستان، ص 276.

³ - المصدر نفسه، ص 276.

⁴ - المصدر نفسه، ص 282.

⁵ - القلصادي. رحلة، ص 101، ابن مريم. البستان، ص 305.

⁶ - البلوي. تاج المفرق 2/95.

⁷ - التبيكي. النيل 1/390 والكتابية، ص 266.

⁸ - التبيكي. النيل 2/291.

⁹ - ابن القاضي. دوة الحجال، ص 320.

¹⁰ - ابن غازي. فهرس، ص 78، القرابي. توشيح الديهاج، ص 253، التبيكي. النيل 2/318 والكتابية، ص 495.

¹¹ - ابن زاكور. نشر أزهار البستان ليمين أجازني بالجزائر وتطوان، الجزائر: مطبعة فونتاتة، 1319-1902، ص 11.

¹² - حسين خوجة. ذيل كتاب بشارت أهل الإيمان في فوحات آل عثمان، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2001، ص 41.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن "التلمسانية" لم يقتصر الطلاب على درسها فقط؛ بل منهم من كان يحفظها عن ظهر قلب، كما هو حال محمد بن محمد بن سعيد المناوي الوريدي التلمساني (ق 10 هـ)، ومحمد بن محمد ابن الشريف الخطيب القاضي التلمساني (ت 964 هـ)، ومحمد بن عزوز الديلمي المذكور.¹

فرواج "التلمسانية" في الأوساط العلمية دفع الكثيرين من الفقهاء والفرضيين إلى شرحها والتعليق عليها، وأحيانا حتى اختصارها.

فمن شرحها:

- 1- أحمد بن سعيد البجائي الزواوي الشهير بالشاط، بعنوان "شرح المنظومة التلمسانية".²
- 2- أحمد بن عبد الرحمن المغراوي التلمساني المعروف بابن زاغوا (ت 845 هـ).³
- 3- محمد بن أحمد بن أبي يحيى التلمساني المعروف بالحباك (ت 867 هـ).⁴
- 4- القلصادي وله عليها شرحان كبير وصغير،⁵ وقد أجازها للسيوطي وأجاز أن يرويهما عنه ضمن باقي مؤلفاته.⁶

5- عبد الرحمن بن يحيى العصنوني المغيلي (حيا سنة 816 هـ)، وسماه "تبصرة البادي وتذكرة الشادي"، توجد منه مخطوطة بمؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء المغربية تحت رقم 90 من 146 ورقة، تعود للقرن 11 هـ، كما توجد بالمكتبة الوطنية (الخزانة العامة سابقا) بالرباط نسخة منه تحت رقم 2/2149، ونسخة أخرى بمكتبة الحرم المكي تحت رقم 1604. فرائض.⁷

6- أبو الحسن علي بن يحيى بن صالح العصنوني المغيلي (ت 927 هـ) قاضي توات، وتوجد نسخة مخطوطة من هذا الشرح؛ ومما جاء في خطبة المؤلف قوله: "... فلاني لما رأيت طلبة الزمان مولعين برجز الفقيه الفاضل النحوي الفرضي أبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر التلمساني الشهير بالبري [كذا] -رحمه الله- معتكفين على درسه ومعتنين بفهمه، انتدبت إلى شرحه وفك أفاضه، قاصدا بذلك ثواب الله العظيم، ومع ذلك فقد ألح علي بعض الطلبة بمن

¹ - ابن مريم. البستان، ص 267، 281، 282.

² - مخطوط مكتبة الحرم المكي، تحت رقم 2/1620 فرائض، أنظر: محمد مطيع وعادل عيد. الفهرس المختصر لمخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف، ص 903.

³ - التنبكي. النيل 1/122، ابن مريم. البستان، ص 42، المحوي. الفكر السامي 4/302، عمار جيدل. أنماط التأليف في الفقه والأصول في الجزائر في الفترة الممتدة ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، عدد 1، 2004، ص 178.

⁴ - التنبكي. النيل 2/226، ابن مريم. البستان، ص 220، ابن القاضي. درة المجال، ص 279. عمار جيدل. أنماط التأليف في الفقه والأصول في الجزائر، ص 178.

⁵ - المقرئ. نفع الطب. 2/693، ابن مريم. البستان، ص 142، المحوي. الفكر السامي 4/309، وعند السعاوي أنه شرح واحد "في مجلدة لطيفة" أنظر: الضوء اللامع 6/15، وتوجد نسخة مخطوطة من الكتاب في المسجد الكبير بمكناس، تحت رقم 430، أنظر: فهرس المسجد الكبير بمكناس، (طبعة إلكترونية).

⁶ - السيوطي. نظم العقيان، ص 131.

⁷ - الفهرس المغربي، محمد مطيع وعادل عيد. الفهرس المختصر لمخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف، ص 902.

اعتنى به راغباً في ذلك، فأسعفته وأجته إلى ذلك"¹، والملاحظة التي أقف عليها هنا بعد التأكيد على المكانة المرموقة للأرجوزة "التملمسانية" في منظومة الثقافة المغربية الوسيطة، هي أن العصنوني وهِمَ لما سُمي صاحبها بالبري خلافاً لما هو معروف.

7- محمد شقرون بن هبة الله الوجديجي التلمساني (تـ 983 هـ)².

8- أبو العباس أحمد بن حسن بن علي المعروف بابن قنفذ القسنطيني (تـ 810 هـ) وسمي شرحه: "معاونة الرائض في مبادئ الفرائض"، وترد الكلمة الأولى من العنوان بعدة صيغ "معوونة" و "معرفة"³، ويرجح محمد ابن أبي شنب الباحث والمؤرخ الجزائري احتمال وجوده بإحدى الخزائن الخاصة في الجزائر⁴، هذا وينسب سليمان الصيد محقق كتاب ابن قنفذ في السيرة النبوية له، كتاب بعنوان "شرح الأرجوزة التلمسانية"، مع ذكره لكتابه المذكور "معاونة الرائض" وظنهما كتابين مختلفين وهو وهَمَ.⁵

9- أبو عبد الله محمد بن جابر الغساني⁶.

10- يعقوب بن عبد الله السيتاني، له شرح جليل في مجلد سماه "منتهى الباني ومرتقى المعاني في شرح فرائض أبي إسحاق التلمساني"، وتوجد منه نسخ عدة مخطوطة أحدها بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 1569.⁷
أما مختصرو "التملمسانية" فهما:

1- محمد بن عبد الله عبد الجليل التنسي التلمساني (تـ 899 هـ).⁸

2- جعفر بن أبي يحيى الخطيب الفرضي شيخ القلصادي، وقد لخصها "غير مرّة".⁹

إن قيمة هذه الشروحات والمختصرات ليست على قدم المساواة، فواجهها بالضرورة ليس كذلك، والأمر الذي يعيننا هنا هو أنه حسب إطلاعي ومعرفتي¹⁰ بقي شرح العصنوني قاضي توات هو الشرح الوحيد الذي كان

1- شرح التلمسانية في الفرائض، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع تحت رقم: 871، كما توجد أربعة نسخ أخرى بالمكتبة الأزهرية تحت الأرقام التالية: 3 / 301، 10 / 692، 449 / 40000، 450 / 40001، أنظر: أبو الوفا المرغي. فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية، 2 / 685.

2- التبيكي. النيل 294/2 والكفاية، ص 476، ابن مريم. البستان، ص 261، ابن القاضي. درة الحجال، ص 239.

3- ابن القاضي. درة الحجال، ص 64.

4- عادل نويهض. مقدمة كتاب الوفيات لابن قنفذ، ص 13، هامش 3.

5- أنظر ابن قنفذ. وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، تحقيق سليمان الصيد، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1404-1984، ص 12.

6- عبد الرحمن بن زيدان. إنحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، ط1، الرباط: المطبعة الوطنية، 1350-1932، 498/4.

7- ابن غازي. فهرس ص 78، القرابي. توشيح الديباج، ص 253، ابن القاضي. جلوة الاقباس 558/2، المنوني. وولات عن حضارة المرينيين، ص 531 والهامش 63.

8- ابن داود البلوي. ثبت البلوي، ص 373.

9- القلصادي. رحلة، ص 85، التبيكي. النيل 166/1.

10- طالعت في ذلك من كتب التراجم والفهارس والبرامج المتأخرة نسبياً، فهرس أبي سالم العياشي من القرن الحادي عشر (17م) المسمى: انقضاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، وطلبات الحضيكي (2 ج)، وسلوة الأنفاس لابن إدريس الكتاني (3 ج) وإنحاف أعلام الناس لابن زيدان (ج 4 فقط)، وفهرس عبد القادر بن أحمد الكوهن الفاسي (ق 13هـ/19م) المسمى إمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإستناد، وفهرس محمد بن عبد القادر الفاسي (ق 12هـ/18م) المسمى المورد الهني بأخبار الإمام مولاي عبد السلام الشريف القادري الحسني، وفهرس العلامة القاضي سيدي

كان يدرس في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي لها، فقد ذكره الشيخ العربي بن حمدان الأندلسي الأصل من أهل الجزائر ضمن مقروءاته في حدود سنة 1837 م، المُسند إلى الشيخ الشامي وهذا الأخير شخصية غير معروفة لدى الباحثين في التاريخ الثقافي لهذه الفترة.¹

أما التراث الشعري للبيت الوشقي فلم نظفر إلا بأبيات ومقطوعات أقرب إلى النادر منها إلى القليل بخصوص أبي إسحاق التلمساني الذي قال فيه ابن الخطيب: "شعره كثير، ميز الطبقة من العالي والوسط، منحازا أكثر إلى الإجادة جملة، وتقع له الأمور العجبية فيه"، وأغلب قصائده تتسم بطولها وكثرة أبياتها، وله أمداح في بعض رؤساء البلد ظاهرة الحسن، وحفظ لنا من ذلك كله قوله:

القدر في الناس شيمة سلفت	قد طال بين السورى تصرفها
ما كل من قدر سرت له نعم	منك يرى قدرها ويعرفها
بل ربما أعقب الجزاء بها أما	مفرة عزّ عنك مصرفها
ترى الشمس كيف يعطف بالنس	ور على البدر وهو يكسفها

ومنها في مدح أمير سبتة قوله:

رأيت من رحلوا وزموا العيسا	ولا نزلوا على الطول حسيسا
أحسبت سوف يعود تسف تراهما	يوما بما يشفى لديك نسيسا
هل من مؤنس نارا بجانب طورها	لأنيسها أم هل تحمس حيسا. ²

أحمد بن محمد بن عبد السلام الثاني (ق 14هـ/ 20م)، وهذه الفهارس الثلاثة الأبحرة طبعت في كتاب واحد بعنوان "ثلاث فهارس مغربية" وطالمت أيضا معجم شوخ عبد الحفيظ الفاسي (ق 14هـ/ 20م)، المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب (2 ج)، وفهرس الفهارس لعبد الحسي الكتاني من القرن العشرين، وكذا تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله (11 ج)، وغير ذلك.

¹ - أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998. 288/7.

² - ابن الخطيب. الإحاطة 328/1.

بيت ابن الخضار الكتامي والمهاجر المتعددة (591 - 697 هـ)

بنو الخضار من المغرب الأوسط إلى الأندلس

كان المغرب الأوسط على صلوات وعلائق متنوعة مع الأندلس منذ الفتوحات الإسلامية الأولى لها، وكانت الهجرات إلى هذه الأخيرة متوالية عبر قرون كما أشرت في فصل الثاني، ومن بين هؤلاء المهاجرين بطون وأسر كتامية استقرت في بواديهما وقرائها وحتى حواضرها الكبرى كإشبيلية، لكن لظروف معينة عادت بعض هذه الأسر إلى العدة المغربية، لما بدأت السلطة السياسية في الأندلس تنهار بعد معركة العقاب سنة 609 هـ، وميل موازين القوى العسكرية لصالح الأعداء النصارى الأسبان.

فمن بين هذه البيوتات التي عادت إلى المغرب الأوسط بيت ابن الخضار الكتامي، الذي لم يعد إلى موطنه الأصلي المعروف بل اختار تلمسان للاستقرار بها في نهاية القرن السادس، وهذا النموذج هو الأول والأخير في تاريخ بيوتات المغرب الأوسط الذي لم يتكرر.

يظهر من خلال لقب هذا البيت المشتهر به "الخضار" أن مؤسسه كان يشتغل بتجارة الخضار أو فلاحتها، الوضع الذي سيؤدي بالضرورة إلى تميشه في مساحات الذاكرة الجماعية النخبوية التي تعبر عنها كتب التراجم، التي أخذت على عاتقها التأريخ لفيئات الخاصة والأعيان من غير هؤلاء، والذي نعرفه عنه أن كان يعيش بإشبيلية الموحدية، والذي نملك أن نوكد به شيء من الحذر أنه كان صاحب ثقافة معينة يشهد بها التأريخ لمواليد أبنائه، كما أسلفت في الحديث عن البيت الوشقي.

بنو الخضار في تلمسان

هاجرت أسرة ابن الخضار من إشبيلية إلى تلمسان في النصف الثاني من القرن السادس، وأول من استقر منهم بها هو محمد بن عبد الله بن عيسى بن مسعود بن الخضار الذي لم يخطئ النبوغ عقبه، فقد ولد له بتلمسان سنة 591 هـ ابنه علي أبو الحسن، فنشأ هنالك ودرس وهزل من زخم ما أنجبته واستقطبته تلمسان من الفقهاء والعلماء في علمي العقول والمنقول على السواء، حيث أبدى منذ صغره اهتماما بعلم القراءات فاخص بأربابها من أمثال أبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد الكريم بن حسان، والمقريئ أبي نصر فتح بن يحيى بن حزب الله ابن الأنصاري التلمساني، وأحمد بن علي بن أحمد بن ثابت الأنصاري الإشبيلي المعروف بأبي العباس الماردي (حيا سنة 666 هـ)،¹ أما من أحازه من أهل المشرق فكثير سنوردهم أثناء الحديث عن أخيه محمد، ويبدو أنه ولد ضريرا فكثيرا ما يوصف بذلك، وقد عوض عن فقدان بصره بقوة الحافظة، فهو يحفظ كتاب "التيسير" لإمام القراء أبي عمرو الداني الأندلسي (ت 444 هـ)، وكتاب "إيجاز البيان" له أيضا في قراءة ورش.²

¹ - ابن الزبير. صلة الصلة 162/4.

² - المصدر نفسه 162-162/4.

ولأبي الحسن علي بن الخضار رحلة إلى الأندلس ربما لم يتجاوز فيها المرية لغرض لم يذكر، لكن وتماشيا مع رحلات رجال المغرب الإسلامي في تلك الفترة يمكن إدراجها ضمن الرحلات العلمية، للاستفادة من أعلام الأندلس خاصة وأن التخصص والرواية عن إمام القراءات في وقته أبي عمرو الداني بأسانيد عالية يتطلب الرحلة إلى المسندين عنه من أهل الأندلس المحكرين لهذا الفن العلمي، وهذا ما حصله بالفعل فقد وصف بأنه كان "معتمدا في تجويد القرآن ذاكرا لخلاف الأئمة متصرفا في ذلك متقدما فيه ناصحا في التعليم"¹، ووصفه الذهبي "بإحكام القراءات وحفظها"، ووصفه ابن الجزري (ت 833 هـ) بـ "الإمام المقرئ"²، ووصفه يحيى ابن خلدون بـ "الأستاذ المحود... من أهل القرآن والدين"³.

بعد التحصيل العلمي والازد الذي أُشْرِبَهُ عاد ابن الخضار من الأندلس لكن ليس إلى تلمسان، فقد أجاز إلى سبتة وأغراه المقام بالاستقرار الدائم النهائي هناك، ليفقد المغرب الأوسط أحد أعلامه ومقرئيه لصالح جيرانه، وفي سبتة اشتغل بالتدريس والإقراء "ونفع الله به" في مستقره الجديد أهلها والوافدين عليها، وتوفي هنالك يوم الجمعة 25 ربيع الأول سنة 676 هـ⁴.

أما أخوه محمد أبو عبد الله فيصغره بثمانية عشر عاما أي أنه ولد سنة 609 هـ، فنشأ هو الآخر بتلمسان صدر حياته وبها تعلم وقرأ، وكان قد تأثر بمسيرة أخيه علي إلى حد بعيد مما دفعه إلى مغادرة تلمسان نحو مدينة سبتة، وفيها جلس إلى صاحبها الرئيس الفقيه أبي القاسم العزفي أميرها⁵ وسمع منه تأليفه فمناها: "سيرة رسول الله ﷺ" و "الدر المنظوم" وأجازه فيها، كما أجاز له أبو العباس أحمد بن محمد الموروري وأبو عمرو عثمان ابن محمد العبدي المعروف بابن الحاج، وسمع من أبي مروان محمد بن أحمد اللخمي الباجي (ت 635 هـ) بسبتة⁶. وبحلول سنة 634 هـ عزم أبو عبد الله محمد بن الخضار على الحج والرحلة إلى المشرق صحبة أبي مروان الباجي المذكور، وعندنا معلومات وافية عن مسار هذه الرحلة بالتفصيل إذ ذكرت في ترجمة الباجي، فقد أقلعا من سبتة في مركب للنصارى يوم الأربعاء 7 محرم إلى مالقة ثم المنكب ثم المرية ثم قرطاجنة ثم لقنت، ومنها إلى جزيرة يابسة ثم جزيرة ميورقة التي وصلها بعد 16 يوما أي ليلة الخميس 23 محرم ومكثا فيها نحو أسبوع، ثم استأنفا السير إلى جزيرة قبريرة فباتا بها ليلة الجمعة وأقلعا منها في الغد إلى مرسى سردانية ووصله يوم الثلاثاء 4 صفر، وبعد يومين عزموا على دخول صقلية لكن سوء الأجواء واضطراب البحر ردهم إلى مرسى سرقوسة إحدى مدن صقلية، فأقاما بها من يوم 12 صفر إلى 18 جمادى الآخرة⁷ إلى حين سنحت الفرصة من جديد.

¹ - ابن الزبير. صلة الصلة 163/4.

² - ابن الجزري. غاية النهاية 549/1.

³ - بهية الرواد 105/1.

⁴ - ابن الزبير. صلة الصلة 163/4، ابن الجزري. غاية النهاية 549/1.

⁵ - بنو العزفي أحد أشهر بيوتات المغرب الأقصى أصحاب علم وفقه ومساسة أسسوا إمارة سبتة على أنقاض الموحد، أنظر: محمد بن تايوت. تاريخ سبتة، ص 101-133، غلة شهاب أحمد. إمارة العزفين في سبتة (647-728 هـ/1239-1327 م)، مجلة التاريخ العربي، عدد 13، ص 67.

⁶ - يحيى بن خلدون. بهية الرواد 105/1، ابن عبد الملك المراكشي. الذيل 357/1/8.

⁷ - ابن عبد الملك المراكشي. الذيل 690-685/2/5.

استغل ابن الخضار هذا القول الاضطرابي في الأخذ عن شيخه ومرافقه أبي مروان الباجي، فقرأ عليه كتاب المختصر الموسوم بـ "رائع الدرر ورائق الزهر في أخبار خير البشر ﷺ وشرف وكرم" لأبي الحسن أحمد ابن فارس (تـ 395 هـ) صاحب "معجم مقاييس اللغة".¹

ثم استأنفا طريقهما عبر جزيرة إقريطش (كريت) ومنها إلى قبرص ثم عكا، ومنها إلى دمشق التي وصلها يوم 7 رمضان ومنها خرجا مع الراكب الشامي للحج.²

ففي دمشق سمع ابن الخضار من محمد بن أبي جعفر القرطبي وأبي العباس أحمد بن يوسف بن زيري التلمساني وأبي نصر محمد بن هبة الله بن ميميل الشيرازي قاضي دمشق، سمع عليه "للايات البخاري" ولم يكمله، وأشهر من أخذ عنهم بدمشق أبي عمرو عثمان بن الصلاح أحد كبار علماء الحديث في زمانه، وأجازته في كتابه "معرفة علوم الحديث" المعروف بـ "مقدمة ابن الصلاح"،³ وأجازته أبو الحسن بن المقير وأبو عبد الله بن يوسف البرزالي وعبد الله عبد العزيز بن أبي طاهر الأرييلي وعثمان بن عمر المالكي وابن الحاجب،⁴ وبدمشق أيضا ناوله⁵ أبو محمد عبد الرحمن بن عبد المنعم الدمشقي، وكل هؤلاء أجازوا لأخيه علي كتابة.⁶

فحصل ابن الخضار في رحلته هذا علما جما: فقها ورواية وتاريخا، فكثيرا ما يوصف بـ "الثبت التاريخي الحافظ".⁷

التراث العلمي لبيت بني الخضار: تلاميذهم

بعد عودته من المشرق استقر ابن الخضار محمد بسبته واشتغل بالتدريس والإقراء، فممن أخذ عليه ابن عبد الملك المراكشي (تـ 703 هـ) مؤلف كتاب "الذليل والتكملة" صاحبه واختص به، قال عنه: "لقينته بسبته وحاضرتة كثيرا وباينته وشاهدت من ذكائه وحضور ذهنه ما يقضي منه العجب، وكان... يخرق أزقة سبته وربضها دون اعتماد على أحد، وسأيرته ببعض شوارعها فرمعا عطف بالترحم أو بالذكر على زقاق أو مقبرة عن

¹ - التحفي. برنامج، ص 135.

² - ابن عبد الملك المراكشي. الذليل 690/2/5.

³ - ابن الزبير. صلة الصلة (ملحق) 521/2/8، ابن عبد الملك المراكشي. الذليل 357/1/8، ابن رشيد. إفاة النصيح بالعرف بسند الجامع الصحيح، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، تونس: دار التونسية للنشر، ص 115.

⁴ - ابن الزبير. صلة الصلة (ملحق) 521/2/8، ابن عبد الملك المراكشي. الذليل 357/1/8.

⁵ - المناولة إحدى طرق السند والرواية وهي ضربان: الأولى: المناولة المقرونة بالإجازة وهي أعلى أنواع الإجازة على الإطلاق، وأعلى صورها أن يناول الشيخ شيئا من سماعه أصلا أو فرعا مقابلا به ويقول لطالبه: هذا من سماعي أو روايتي عن فلان فاروه عني، أما الضرب الثاني فهو أنه إذا ما تجردت المناولة عن الإجازة بأن يناوله الكتاب ويقول: هذا من حديثي أو من سماعي، ولا يقول له أروه عني ولا أجزت لك روايتي، أنظر: القاضي عياض. الإلعا إلى معرفة أصول الرواية وتقيد السماع، تحقيق السيد أحد صقر. ط 1. القاهرة - تونس: دار التراث - المكتبة العتيقة، 1389-1970. ص 79-80، الحافظ العراقي. شرح ألفية العراقي المسماة بالبصرة والتذكرة، بيروت: دار الكتب العلمية، 90/2-97، السنكي الأزهرى. فصح الباقي على ألفية العراقي (طبع على هامش ألفية العراقي) 89/2-97.

⁶ - ابن عبد الملك المراكشي. الذليل 537/1/8.

⁷ - التحفي. البرنامج، ص 135، ابن عبد الملك المراكشي. الذليل 358/1/8.

مخادته إياهما، وأخبرت عنه بعجائب أغرب من هذا النوع"¹، وأغرب هذا النوع الذي لم يفصح هو عنه ذكره ابن الزبير ومفاده أنه "دخل الأندلس تاجرا"².

ولن نعرف سر هذا العجب إلا إذا أدركنا أنه كان ضريرا كفيف البصر شأن أخيه علي، فأن مثل هذا أن يساهم في التجارة الدولية بالاستيراد والتصدير، فإن لم نعرف بالضبط شكل هذه التجارة وتخصصها إلا أن النتيجة واضحة للعيان، وهي حفظ الروابط بين الأندلس والمغرب في إطار منظومة البحر المتوسط،³ وهذا لا يتأتى إلا لمن كان ذا بصر نافذ وعزيمة وقادة.

ومن أخذ عنه أيضا القاسم بن يوسف التحبي صاحب "البرنامج" المشهور، قرأ عليه المختصر الموسوم والمذكور آنفا "رائع الدرر ورائق الزهر" في السيرة النبوية، وكتاب "معرفة علم الحديث" لابن الصلاح الشهرزوري سنة 689 هـ. بمسجد زقاق السلالة بسبتة، وكتاب "الزكاة" لمحمد بن الجيد الفهري الأندلسي سنة 691 هـ، وكتاب "النظر في أحكام النظر"⁴ للقاضي أبي الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي المعروف بابن القطان سنة 693 هـ، وأجازته في رواية جميع مؤلفات وروايات شيخه ابن الصلاح المذكور.⁵

وأخذ عنه أيضا ابن رشيد السبتي الأندلسي الذي وصفه بـ "شيخنا الفقيه العدل الثبت الحاج المحدث الفقيه الفريد"، قرأ عليه القرآن بالقراءات السبع،⁶ ويُعد بالنسبة إليه أحد مصادره في تأليفه المسمى "إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح" في علم الحديث ورجاله، حيث نقل عنه أخبار شيخه أبي مروان الباجي مرافقه في الرحلة المشرقية، وكذا أخبار شيخه بدمشق قاضيها محمد بن هبة الله بن ميميل الشيرازي،⁷ وفي رحلته أيضا المسماة "ملء العيبة" نقل عنه أحد أساتيده أي قراءته لمقدمة ابن الصلاح في الحديث على مؤلفها.⁸

ومنهم كذلك محمد بن أحمد بن أبي إسحاق التلمساني الوشقي.⁹

ومنهم إبراهيم بن محمد بن أبي العاصي التنوخي الخطيب الأندلسي، خطيب غرناطة و كاتب دولة بني الأحمر من علماء القراءات ومن زهاد الأندلس¹⁰ المتوفى سنة 727 هـ.

1- الدليل 358/1/8.

2- صلة الصلة (ملحق) 521/2/8.

3- أوليفيا ريمي كونستيل. التجارة التجار في الأندلس. ص 33.

4- العنوان الكامل للكتاب هو: النظر في أحكام النظر بحاسة البصر، تحقيق ضحى أبو عيسى، ط1، طنطا- مصر: دار الصحابة للتراث بطنطا، 1414-1994، وهو كتاب في الفقه والأدب الشرعية من 212 ص.

5- التحبي. البرنامج، ص 135، 140، 272، 274.

6- حدادي. رحلة ابن رشيد 277/1، محمد بن تاوريت الطنجي. الوالي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ط1، الرباط: دار الثقافة، 1403-1983، 2/386.

7- إفادة النصيح، ص 98، 115، 118.

8- حدادي. رحلة ابن رشيد 278/1.

9- ابن الخطيب. الإحاطة 200/3.

10- ابن الخطيب. الإحاطة 374/1، ابن القاضي. ذرة المجال، ص 93، ابن الجوزي غاية النهاية 24/1، التبركي. النبل 23/1، بن منصور.

أعلام المغرب 11/1.

ومنهم أيضا المحافظ الرواية ذي الرحلتين محمد بن جابر التونسي الوادي آشي (تـ 749 هـ)، ولم يذكر مروياته وسماعاته عنه في برنامجه.¹

أما تلاميذ أخيه علي فلا نملك منهم إلا اسما وحدا، وهو أبو إسحاق الغافقي إبراهيم بن أحمد الاشيلي السبتي، شيخ النحاة بالمغرب له مؤلفات منها: "شرح كتاب الجمل"، وكتابا في "قراءة الإمام نافع"، وتوفي سنة 715 أو 716.²

وكانت وفاة محمد بن الخضار سنة 697 هـ آخر يوم من شوال بستة،³ وأخطأ يحيى بن خلدون وابن القاضي في ذكر تاريخ وفاته؛ فذكر الأول منهما أن ذلك كان سنة 667 هـ فرما الخطأ من الناسخ الذي صحف "تسعين" إلى "ستين"، وقد ذكرنا قراءة التحيي عنه في سنوات التسعين، أما الثاني فذكر أن وفاته كانت سنة 727 هـ،⁴ وهذا بعيد.

والجدير بالذكر أن المغرب الأوسط لم يستفد كثيرا ولا قليلا من الميراث العلمي لهذا البيت أصيل كتامة الأرض والقبيلة، باستثناء مساهمة والد العلمين محمد بن علي في حركة الاقتصاد والتجار الداخلية لمدينة تلمسان، في حين عزز الابنين الصلات والعلاقت بين المغريين الأوسط والأقصى من جهة، وبين الغرب الإسلامي وشرقه من جهة ثانية تأكيدا على وحدة الأطر الثقافية والاجتماعية لهذه الكيانات وتلك الأقطار.

¹ - برنامج الوادي آشي، ص 128.

² - ابن الجزري. غاية النهاية 549/1، ابن حجر. الدرر الكامنة 14/1، السوطي. بهجة الوعاة 405/1، ابن القاضي. درة المجال ص 92.

³ - ابن الزبير. صلة الصلة (ملحق) 521/2/8، ابن عبد الملك المراكشي. الدبل 358/1/8.

⁴ - أنظر: بهجة الرواد 105/1، درة المجال ص 264.

بيت بني الملاح و نمرأء الدولة النربانية (633-718هـ)

لم يشهد المغرب الأوسط حلول البيوتات القرطبية فيها إلا مرتين فقط طوال التاريخ كله، فبعد مرور أكثر من قرنين على هجرة بيت بني ذكوان إلى وهران ظهر في تلمسان بيت بني الملاح.

فقد عرفت قرطبة حاضرة الخلافة الأموية¹ بعد القرن الرابع عدة أحداث ووقائع، فلما انقطعت دعوة بني أمية بها ولم يبق في عقبهم من يصلح للإمارة ولا من تليق به الرئاسة، استولى على تدبيرها علي بن حمود الحسيني زاحفا من سبتة إليها مروراً بمالقة، وهزم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر سنة 406 هـ، وتلقب بالناصر وقتلته الصقالبة سنة 408 هـ، فتولى بعده أخوه القاسم بن حمود إلى سنة 412 هـ، وخلال حكمهم عرفت قرطبة اضطرابات وفتن وحالة متقدمة مع عدم الاستقرار.²

وفي سنة 422 هـ قدم القرطبيون "شيخ الجماعة" الوزير أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور، "فأعطوا منه قوس السياسة باريها وولوا من الجماعة أمينها المأمون عليها، فاخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير وحملهم عليه، فاقترن صلاحهم به... وأجاد السياسة فانسدل به الستر على أهل قرطبة مدقماً"، لدهائه وحصافة عقله وحسن تدبيره، حتى صارت قرطبة "حرماً يأمن فيه كل خائف"، وبعد وفاته سنة 435 هـ تولى ابنه أبو الوليد محمد بن جهور فحرق على سننه غير محل بشيء من ذلك إلى أن توفي سنة 443 هـ، فغلب عليها صاحب طليطلة المأمون بن ذي النون ثم ابن عكاشة البربري، وعليها غلبه الظاهر ابن عباد ثم ابنه المعتمد، ومن هنا أخذت تفقد استقلالها ورونتها التاريخي الذي عرفته طوال القرن الثاني إلى الرابع فأصبحت تبعا لأشبيلية.³

وفي عهد المرابطيين والموحدين مالت موازين القوى السياسية والعلمية عن قرطبة لصالح إشبيلية يشكل ملفت للانتباه، فقلّت الرحلة إلى قرطبة كما قلّت رحلة العلماء القرطبيين إلى المراكز العلمية المشهورة سواء في المشرق أو في المغرب، معلنة بذلك عن تراجع وتقهر دورها العلمي الرائد في عصري الإمارة والخلافة، وهذا واضح بالخصوص لمتبع حركة رجالات الحديث -على سبيل المثال- وإنتاجهم المعرفي فيها، فهم يعدون على الأصابع.⁴ واستمر وضع قرطبة في السوء إلى غاية سنة 633 هـ حيث نزل أذفونش بجيش النصارى "فحاصرها وضيق عليها، وأقبلت نحوه الحشود من البلاد القاصية والدانية إلى أن ملكها وأخرج المسلمين منها، وهذا من أجل مصاب وأعظمه... إذ هي أم المدائن وقرّة عين الوارد والقاطن، فلقد حل بالأندلس من الروم ما يلين له القاسي، وتهد له الجبال الرواسي.. وكان أول ما أخذ العدو -قصمه الله- شرقها، ثم لازمها حتى استولى عليها في الثالث

¹ أنظر عن إحدى جوانب التاريخ ما في هذه الفترة: أحمد الطاهري. قرطبة في عصر الخلافة النموذج الأمثل للنمو الحضري بالمغرب الإسلامي ضمن: أشغال ندوة: المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب ابن مسيك، الدار البيضاء، 1988، ص 126-134، سيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة الأندلسية، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطرد، مجلد 29، 1996، ص 9-22، روبرت هليبراند. زينة الدنيا: قرطبة القروسطية مركزاً ثقافياً عالمياً، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ضمن: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. 183/1-216.

² ابن بسام. الذخيرة 481/1/1-486، عبد الواحد المراكشي. المعجب، ص 37-55.

³ ابن بسام. الذخيرة 602/2/1، عبد الواحد المراكشي. المعجب، ص 411، 45، الحجى. التاريخ الأندلسي، ص 323، 390.

⁴ خالد الصمدي. حركة الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري، ص 78-101.

والعشرين لشوال من السنة¹ المذكورة¹ في خلافة الرشيد أبي محمد عبد الواحد بن المأمون الموحدى (629-640 هـ).

بنو الملاح في قرطبة: وضعيتهم ووظائفهم

غموض تاريخ قرطبة بعد انقطاع الدعوة الأموية بها، ويُعدها عن صناعة التأثير في تاريخ الأندلس وتوجيهه، زاد من تعقيد الصورة الضبابية أصلاً لوضعية البيوتات التي نشأت بها، ومن هذه البيوتات بيت بني الملاح الذي لم تمكننا المصادر التاريخية من معرفة مختلف مراحل تكوينه وأدواره فيها، باستثناء إشارة وحيدة عن مهنتهم التي مارسوها وما فتأوا ينفكون عنها حتى خرجوا من قرطبة، والتي كانت سبباً لشهرتهم وسبباً لالتفات المؤرخين إلى تسجيلها وإن أغفلوا كل تفاصيلها، فوظيفتهم تلك هي: السكة وسبك الدنانير والدراهم، وشغلها ورشحوا لها -بتعبير المؤرخين- ثقة بهم ولأمانتهم² وهذا يعني أنهم لم يكونوا موظفين عاديين في دار الضرب أو السكة وإنما مشرفين عليها.

والسكة كما يقول ابن خلدون: "هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس، بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة... ولفظة السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدية المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش المائلة على الدنانير والدراهم، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة، فصار علماً عليها في عرف الدول...".

وظيفة السكة إحدى شارات الملك وعناوين السلطة ورمز لقوة الدولة واستقلالها بالإضافة إلى وظيفتها الحيوية في اقتصاديات الدول والممالك، فهي: "وظيفة ضرورية للملك إذ يتميز بها الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات، ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة"³. ويصف لنا الوزير الأيوبي⁴ طريقة العمل في دار الضرب أو السكة بقوله: "يسبك ما يحمل إليها من الذهب المختلف حتى يصير ماءً واحداً جارياً ويقلب قضباناً، وتقطع من أطرافها بمباشرة النائب في الحكم ما يحرق عليه الوزير سبيكة واحدة، ثم يؤخذ من جملتها أربعة مثاقيل ويضاف إليها من الذهب الحار المسبوك بدار الضرب أربع مثاقيل، ويعمل كل منها أربع ورقات ويجمع الثمان ورقات في قده فخار بعد تحمر وزنها ويوقد عليها الأتون ليلة، ثم تخرج الأوراق وتمسح ويعبر الفرع عن الأصل، فإن تساوى الوزن وأجازته النائب في الحكم ضرب دنانير،

¹ ابن عذاري. البيان المغرب (موحدى)، ص 331.

² يحيى بن خلدون. بهمة الرواد 213/1، ابن خلدون. العبر 140/7، 141.

³ المقدمة، ص 249-250، وأنظروا أيضاً بحث: كوركيس عواد. أقوال ابن خلدون في السكة والنقود، ضمن: الذخائر الشرقية، جمع جليل المطبوع، ط 1 بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999، 3 / 7-13، وقارن به: علي بن يوسف الحكيم المديوني. الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، نشر ضمن صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد 6، 1958، ص 109.

⁴ الأسعد بن ممان. قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، ط 1، القاهرة: مكتبة مديبولي 1411-1991، ص 231-232. وقارن به: علي بن يوسف الحكيم المديوني. الدوحة المشبكة، ص 128-137،

وإن نقص أعيد إلى أن يتساوى ويصبح بالتعليق...". وقرىبا من هذه الإجراءات والخطوات الفنية تسبك الدراهم الفضية.

هجرة بني الملاح إلى تلمسان

بسقوط قرطبة سنة 633 هـ خرج مسلموها نازحين إلى جهات مختلفة داخل الأندلس كقرنطة وخارجها كمدن وحواضر العدو المغربية في أقطارها الثلاث، وكان حظ بني الملاح قد أوصلهم إلى تلمسان الزيرية التي نشأت سنوات قليلة قبل سقوط قرطبة فاستقروا بها ونقلوا معهم خبرتهم في سبك العملة،¹ ويظهر أنهم كانوا أصحاب الفضل الأول في نشأة العملة الزيرية رغم أن التداول بالدنانير والدراهم الموحدية ظل معمولا به في تلمسان خلال سنوات نشأتها الأولى كما هو الشأن في تونس وفاس، ثم أصدروا عملة خاصة بهم كانت غاية في الجودة والإتقان ودقة الموازين.²

إلى جانب ذلك احترف أفراد بيت بني الملاح بخدمة الأرض وفلاحتها بعد أن أقطع³ لهم السلطان يغمراسن (633-681) ملكيات واسعة في تلمسان وبواديها وضواحيها، وعمم ذلك على كل الجالية الأندلسية المستوطنة في مملكته، كإجراء مسئول وإيجابي يهدف إلى إغرائهم بالبقاء في تلمسان ودمجهم بصورة سريعة في المجتمع بتوفير ضروريات الحياة لهم، كل ذلك ليمنع أو يقلل من استقطاب منافسيه الحفصيين أو المرينيين لهم والاستعانة بخدماتهم والاستفادة بخبراتهم المتعددة في فلاحه الأرض والبستنة وما إلى ذلك من النشاطات، وبالتوازي مع ذلك حشد أصلاء البلد في ساحات المعارك والحروب التوسعية -لغناهم فيها عبر العصور- لما تقتضيه طبيعة الدول الناشئة وبالتالي إحداث توازن بين القوتين المدنية والعسكرية هؤلاء الوافدين.

فقد أصدر يغمراسن ظهيرا سلطانيا⁴ من إنشاء كاتبه أبي بكر بن خطاب المرسي تطرق فيه إلى وضع هؤلاء الأندلسيين، والتماس المكان المناسب لهم للإقامة المريحة ومطالبة جميع الولاة والعمال ورجال الدولة المعنيين وحثهم على تنفيذ الأوامر الصادرة في هذا الشأن، ويتكئ هذا الظهير على ما لحق بالأندلسيين من مصائب في عقيدتهم وفي أموالهم ووظائفهم.

وينص الخطاب الرسمي في هذا الظهير على أن يغمراسن "بوأهم من اهتمامه الكرم وإنعامه العميم جنات ألفافا"، ويصرح ابن الخطاب أن السلطان يغمراسن فضل أن يسكن المهاجرين الأندلسيين مدينة تلمسان من جميع المدن الأخرى، وفي هذا الصدد يقول: "وأطلع (يغمراسن) على أغراضهم (أي الأندلسيين) السديدة في اختيار

¹ ابن خلدون. العمر 141/7.

² عطا الله دهنبة. الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان، ضمن: الجزائر في التاريخ، ج3، الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة- المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 487-488، بوزياتي الدراجي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد، ص 227.

Atallah Dhina. *Les Etats de l'Occident musulman*. p.

³ أنظر عن إقطاع الأراضي وملكياتها في المغرب الإسلامي: نور الدين غرداوي. جواب من الحياة الاقتصادية والفكرية بالمغرب الإسلامي في القرنين 8 و 9 هـ (14-15م) من خلال نوازل المازوني، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص 97-99.

⁴ الظهير مصطلح مغربي ظهر في العهد الموحد، وهو رسالة رسمية من السلطة يقصد به الإنعام والإكرام والتبويه والتحرير من الكلف المخزنية، أنظر: محمد بن شريف. من ألفاظ الحضارة في الأندلس والمغرب كلمة "ظهير" مثلا، الأكاديمية، عدد 14، 1998، ص 100-118.

حضرتة السعيدة للسكنى على سائر البلاد فلحظ منهم النية واعتبرها، وأظهر عليهم مزايا ما لهم من هذه .. وأذن أيده الله لهم ولمن شاء من أهل تلمسان".

وأشار الظهير أيضا إلى أن يغمراسن يجعل من منحة السكن ووسائل أخرى لهؤلاء، تهدئة لنفوسهم المصابة من ظلم خصومهم وأعدائهم، وطمأنتهم على حاضرهم ومستقبلهم، وفي هذا يقول أيضا: "ووطأ لهم جنات احترامه تأنيسا لقلوبهم المنحاشة إلى جانبه العلي واستيلافا، وأشاد بما له فيهم من المقاصد الكرام، وأضفى عليهم من جن حمايته ما يدفع عنهم طواق الاضطهاد".¹

الوظائف المتعددة لبي الملاح في البلاط الزياني

إن الاشتغال بسبك العملة يتطلب قدرا جيدا من المعارف والعلوم ذات الصلة بالمهنة كالحساب والكيمياء وخواص المعادن وغيرها،² وهذه الميزة بالإضافة إلى اكتساب البيت القرطبي لثروة مالية معتبرة خصوصا وأن سبك العملة لم تكن تحتكره الدولة أول الأمر،³ وكذا اكتسابهم لأراضي فلاحية شاسعة، مكثرتهم من التقرب والتودد إلى رجال الدولة ثم السلطان نفسه، فهذه العوامل مجتمعة هي التي حدثت بالسلطان يغمراسن ثم ابنه أبي سعيد عثمان (681-703) أن يستخدموا وأعلام بيت بني الملاح، ولمدة سبعين سنة في بعض الوظائف التي لم تفصح المصادر عن كنهها ولا عن أسماء الأعلام الذين تولوها، وعدم ورودهم في قوائم رجال الدولة يدل على أنهم لم يولواهم الوظائف السيادية في الدولة، إلى غاية تولي السلطان أبي حمو موسى الأول (707-718) العرش فألقى إليهم مقاليد الوزارة والحجابة لثقتهم بهم وأمانتهم التي عرفوا بها منذ كانوا في قرطبة، إذ ولي محمد ابن ميمون بن الملاح ثم ولده محمد الأشقر ثم ولده إبراهيم وعمه علي عبد الله،⁴ وهي المرة الأولى التي يتولى فيها بيت أندلسي أعلى منصب في جهاز الحكم الزياني وأرفعه إذ يأتي بعد منصب السلطان مباشرة من حيث الأهمية والمكانة، بعد أن كانت الوزارة حكرا على البيت الزياني وأبناء القبائل الأصلية في تلمسان كعائلة مكن مثلا،⁵ وصعود بنو الملاح مثل انتصار مبدأ الكفاءة على مبدأ العصبية.

إن شخصية الوزير من بني الملاح يعتبر بمثابة نائب السلطان في تسيير شؤون الدولة حالتي السلم والحرب معا، على الصعيد السياسي والإداري والاقتصادي خلال المرحلة الأولى من تاريخ الحكم الزياني قبل أن يطرأ تغيير على وظائف الوزير أيام السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791).

¹ ورد هذا الظهير في مجموع رسائل أبي بكر بن الخطاب المسمى "فصل الخطاب في نشر أبي بكر بن الخطاب"، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: د. 773، أنظر: العلوي البلغيني. فصل الخطاب في ترميز الفقيه أبي بكر بن خطاب، دعوة الحق، عدد 6، السنة 26، 1985، ص 94، عبد العزيز فيلاي. تلمسان في العهد الزياني 175/1-176، خالد بلعربي. الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ص 201.

² إذ يرى ابن خلدون أن الصنائع لابد لها من العلم، المقدمة. ص 380-381.

³ عطا الله دهبنة. الحياة الاجتماعية للدولة بني زيان، ص 488، بوزياني الدراجي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد، ص 272.

Atallah Dhina. *Les Etats de l'Occident Musulman*. p.

⁴ يحيى بن خلدون. بهية الرواد 212/1، ابن خلدون. العبر 141/7.

⁵ بوزياني الدراجي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد، ص 119.

ويخضع اختيار الوزير في العهد الزياني لشروط صارمة وصفات وخلال ينبغي توفرها فيه يكشف عنها السلطان أبو حمو في نصائحه لولي عهده فيقول: "فأما وزراؤك يا بني فيجب عليك أن تختار وزيرا كبيرا مهذبا خطيرا بالأمور بصيرا، يجمع من محمود الخلال ثمانية من الخصال وهي: أن يكون من خيار قومه وعترته وكبير عشيرته وبيتته، وأن يكون وافر العقل عاريا من الجهل حاضر الذهن سريع الفهم راجح الرأي محمود السعي، مجبا ناصحا ودودا صالحا شجاعا في المهمات وعند نزول الملمات، حسن الصورة فصيح اللسان بديع العبارة، بليغ البيان، كثير المال غير ذي حاجة ولا إقلال ... لأن الوزراء أبواب الملوك منها يتوصل إلى الخير وبها يتقى من الضير".

ثم يستطرد أبو حمو في صفحات طويلة - تجاوزت 28 صفحة - شارحا كل خصلة ومدللا على أهميتها بشواهد تاريخية وحكم مقتبسة من تراث الفرس والعرب معا،¹ فهذا الاستطراد ينبئ عن حقيقة وأهمية منصب الوزارة وشرفها ومن ثمة شرف متوليها كما هو شأن بني الملاح، والتمتعن في الخصال الثمانية المذكورة يدرك المكانة التي تبوأها هذا البيت القرطبي في تلمسان من وجهة وشرف وسؤدد ومال، ومن هنا تأتت مهامه وصلاحياته الواسعة، فالسلطان أبو حمو ينصح ابنه بمكاشفة الوزير بكل أمور الدولة دون أن يخفي عنه منها شيئا، وأن يشركه في أفراحه وأقراحه وأن يقيه بعد انصرافه هو وقت الظهيرة لينوب عنه في قضاء حاجات الرعية، ويكون دخوله وخروجه على صفة معينة وترتيب منضبط، يقول في ذلك: "فأول من يدخل عليك كاتبك ووزيرك إذ هما صلاحك وتدبيرك وذلك أهم ما تتبدئ به من أمرك... فإن الوزير إذا كان على ما وصفنا بالصفة التي ذكرناه، فلا ينبغي لك أن تخفي عنه شيئا من أمرك بل تشاركه في حُلوك ومرك وقلق وكثرك"، وبعد إصغاله للكتب والرسائل الواردة وخروج الكاتب يستأنف قائلا: "تبقى أنت مع وزيرك تتفاوض فيما يصلح الدولة ويعود عليها بالمنفعة على التفصيل والجملة"، وعن وصفه مجلسه معه يقول: "يا بني ينبغي أن يكون مجلسك مع وزيرك مجلس هيبه ووقار وتعظيم وإكبار وتفاوض في الأخبار وأخذ في المصالح وتدبير يعود بالمنافع والمناجح، لا مجلس هتار ومزاح ولا مباسطة وأطراح، فإنه إذا مزحت وزيرك أسقط المزاح عنده هيبتك وتوقيرك، لأنه ربما تكلمت بما تزول به عند الوزير هيبتك، وربما أيضا تكلم الوزير بما تستخف به عقله فتسقط رتبته عندك".²

أما عن منصب الحجابة الذي أسند بالتوازي لبعض أعلام بيت بني الملاح فقد أغنانا ابن خلدون عن البحث في ماهيته، وكأنه يستبق الأذهان إلى ما قد يتبادر إليه من فهومات يلبسها هذه الوظيفة، فهي لا تعني الحجابة عند الحفصيين والمرينيين أو بني نصر في غرناطة من معاصريهم، فكما يقول: "كان مسمى الحجابة عنده (أي أبي حمو الأول) قهرمة الدار والنظر في الدخل والخرج"³، أي أن متولي الحجابة يشرف على خدمة قصر السلطان بما

¹ واسطة السلوك، ص 32-60.

² واسطة السلوك، ص 81، 82، وقارن بما ورد عند الكاتب المشرقي ابن أبي الربيع في: ملوك المالك في تدبير الممالك، ص 110، فقد نجد تطابق في بعض الآراء، أنظر كذلك: بوزيان الدراجي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد، ص 115-117، وداد القاضي. النظرية السياسية للسلطان أبي حمو، ص 152، خالد بلعربي. الدولة الزيانية في عهد يعمراسن، ص 125-129.

³ العبر 140/7.

احتواه من حريم وخدم واحتياجاتهم، ويضاف إليه النظر في السجلات والحسابات المالية، هذا قبل أن يتطور نظام الحجابة بصيغة أكثر أهمية وأوسع صلاحية في المرحلة الثانية من مراحل الحكم الزياني.¹

مقتل الوزراء ونهاية تاريخ بني الملاح

كان السلطان أبو حمو الأول قد سخر مجموعة من الأعلاج² لخدمة ابنه ولي عهده الأمير أبا تاشفين، منهم هلال المعروف بالقطلوئي وهو أكثرهم اختصاصا به، ومسامح الصغير، وفرج بن عبد الله وظافر ومهدي وعلي ابن تاكرت وفرج الملقب بشقوره، وكان أبو تاشفين الأمير بعيدا عن خلال الملك ومفتقرا لصفات القيادة التي توهمه لخلافة أبيه، لذا نجد كثيرا ما كان السلطان يقرعه ويوبخه بعنف وقسوة، يدفعه بذلك إلى الاجتهاد واكتساب تلك الخلال والصفات ويفريه بهجر الكسل والخمول وحياة الترف والدعة والراحة، وعلى النقيض من ذلك سار العلوج به شوطا في إفساده على أبيه ويفرونه بالتخلص منه يستعملون تربعه على العرش ويزينون له فعله ويهونون عليه أمره.

وأقترن هذا الوضع بحجة السلطان وتبجيله وإعجابه بأبي سرحان مسعود بن أبي عامر من قرابته أبناء عمومته، وكان يقدمه في المهمات الجسام ويرشحه لصعابها لما عرف من كفاءته، كما صادف ذلك أن دفع له مالا من ميراث أبيه، فتمي الخبر إلى الأمير أبي تاشفين وبطانته من الأعلاج فحسبوه مال الدولة، "واقموا السلطان بإيثاره بولاية العهد دون ابنه، فأغروا أبا تاشفين بالتوثب على الأمر وحملوه على الفتك بمشتويه مسعود بن أبي عامر واعتقال السلطان أبي حمو ليم الاستبداد، وتحينوا لذلك قائلة الهاجرة عندما انصرف السلطان من مجلسه وقد اجتمع إليه بعض حجر القصر خاصته من البطانة وفيهم مسعود بن أبي عامر المذكور والوزراء من بني الملاح... فلما علم أبو تاشفين باجتماعهم هجم عليهم وغلبوا الحاجب على بابه حتى ولجوه متسايلين بعد أن استمسكوا من إغلاقه، حتى إذا توسطوا الدار اعتوروا السلطان بأسياهم فقتلوه وحام أبو تاشفين عنها فلم يفرجوا عليه... واستلحموا من كان هناك من البطانة فلم يفلت إلا الأقل وهلك الوزراء بنو الملاح واستبيحت منازلهم"، وذلك يوم الأربعاء 22 جمادى الأولى من سنة 718 هـ، وانتصب على إثرها أبو تاشفين سلطانا على مملكة بني زيان.³ وبهذا ينتهي دور الوزراء كضحية لطموح جامع واستعجال أبو تاشفين للسلطة والملك، منصاعا لبطانة السوء من الأعلاج، دون أن يكون للوزراء عقب مذكور سواء في ميادين العلم أو الحكم أو المال، وكان وجودهم في تلمسان لفترة زمنية قصيرة نسبيا لم تتجاوز 85 سنة، لعدم ظهور جيل جديد يستطيع إعادة ميراث البيت الضائع.

¹ بوزياني الدراجي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد، ص 130.

² الأعلاج أو العلوج أو الصقالبة مصطلح يطلق على الرقيق الأبيض المسيحي الذي يجلب من الدول الأوروبية المختلفة، يرى في القصور تربية إسلامية، ويستعمل في خدمة القصر السلطاني وحراسة السلطان والأمراء كما يستعمل كفرقة خاصة في الجيش، أنظر: عبد العزيز فيلاي. تلمسان في العهد الزياني، 1/ 183-184، والهامش رقم 139.

³ ابن خلدون. العبر 140/7، يحيى بن خلدون. بهمة الرواد 1/ 214-215، التنسي. نظم الدرر والعقبات، ص 138-139، الطمار. تلمسان عبر العصور، ص 119-120، فيلاي. تلمسان في العهد الزياني، 1/ 177-178.

بيت الآبلي: من المجندية إلى المشيخة العلمية (633-757هـ)

نسبهم وأوليتهم

ينتسب بيت الآبلي في بني عبد الدار، أي عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة إحدى بطون قريش،¹ وقصي هو الذي استرجع الولاية على البيت الحرام "مكة" انتزاعاً وغلبة من خزاعة، وانتقل إليه السوداء والشرف بسبب ذلك، وكان له من الأبناء عبد مناف وعبد شمس وعبد، قد بلغوا في حياته ما بلغه هو، فأحب أن يلحق بهم أخوهم عبد الدار - وهو أكبرهم - في السوداء، فخصه بالرفادة والسقاية والحجابه واللواء والندوة، فلما هلكوا تشاجر أبناؤهم على ذلك واختلفوا اختلافاً كبيراً، ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف وأن تستقر الحجابه واللواء والندوة في بني عبد الدار فانبرم الأمر على ذلك واستمر،² إلى أن استوت بنو عبد مناف على كمال الشرف وتمام السوداء بظهور خاتم الأنبياء محمد ﷺ منهم.

ومن الصحابة المنتسبين إلى بني عبد الدار: عثمان بن طلحة وشيبة بن عثمان أبي السنابل بن بعكك ابن الحارث رضوان الله عليهم وغيرهم من التابعين.³

أما موطنهم في الأندلس فكان بآبلة، وهي عبارة عن تجمع لقرى عديدة في الشمال الغربي لمجريط (مدريد)، وصف الإدريسي في القرن السادس أهلها بالفروسية وركوب الخيل والنجدة في الحروب شجاعة وإقداماً،⁴ وموقع هذه القرى المشكلة لمدينة آبلة على سطح رابية منقطعة من الجهات الثلاث، وأمامها الجبال التي يقال لها شارات مالاغون من جهة الشرق وشارات آبلة من جهة الشمال الغربي، وهوائها في غاية القسوة.

وآبلة من المدن التي أخلاها المسلمون من أوائل الفتح مع شقوبية سمينكاس واستورقة وليون وزمورة وغيرها من مدن "الثغر الأعلى" في الشمال، ثم استرجعت في عهد المنصور بن أبي عامر (ت 392 هـ)، ولم يمضي وقت طويل حتى قوضت ملوك الطوائف ما استرجعه المنصور وسقطت آبلة من جديد في يد النصارى سنة 483 هـ/ 1090 م⁵ زمن الأذفونش السادس، ومن بقي من المسلمين فيها دجن، وفي القرن 11 هـ/ 17 م أصبحت آبلة

¹ أنظر: ابن سلام. كتاب النسب، ص 204، ابن حزم. الجمهرة، ص 116، الحازمي. عيالة المبدئي، ص 129، المحفصي. معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص 195.

² ابن هشام. السيرة النبوية بشرح الوزير المغربي، تحقيق سهيل زكار، ط 1، بيروت: دار الفكر، 1412-1992، 1/91-93، ابن كثير. السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، بيروت: دار المعرفة، 1402-1982، 1/100-101، تقي الدين الفاسي. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط 1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1405-1985، 2/121-123، نبيه عاقل. تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ط 3، بيروت: دار الفكر، 1403-1983، ص 293-243.

³ ابن عياض. كتاب الطبقات، تحقيق سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 1414-1993، ص 44-45.

⁴ نزهة المشعاق 732/2-733.

⁵ بعد ستة سنوات من هذا التاريخ كانت أول حملة صليبية على القدس الشريف، أنظر: جوناثان ريلي-سميث. الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، ط 2، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999 (ص 295)، المطوي. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982، ص 47 وما بعدها، أرنتست باركر. الحروب الصليبية، ترجمة الباز العربي، بيروت، دار النهضة العربية، ص 25 وما بعدها، أمين معلوف. الحروب الصليبية كما رآها العرب، ط 2، الجزائر - بيروت، المؤسسة الوطنية للإشهار - دار

من أحفل مدن إسبانيا الكنسية، وكان بها جمع غفير من المورسكيين عامرة بهم، فلما طردوا في سنة 1019 هـ/1610 م - وهو الجلاء الأخير - سقطت المدينة سقوطاً تاماً ولم يعد يربطها شيئاً بالعالم الإسلامي.¹

هجرة بيت الأبلي إلى تلمسان

إن سقوط المدينة في القرن الخامس وخروجها عن فلك الحضارة الإسلامية، كان سبباً رئيساً في فقداننا لكثير من أخبارها في المصادر التاريخية منها وحتى الجغرافية، مما انعكس سلباً كذلك عن مجتمع المدينة وأعلامها وبيوتاتها.

فليست لدينا أي معلومات عن البيت الأبلي تخص وضعه بها ووقت نزوحه منها، فهل نزح أعلامه بعد سقوط المدينة مباشرة إلى تلمسان؟ أم أنهم نزحوا إلى إحدى المدن الحصينة في الجنوب من الأندلس واستقروا بها مدة ومنها إلى تلمسان؟ أم أنهم من المدجنين² الذين بقوا في آبله إلى غاية القرن السابع؟.

الإجابة عن هذه الإشكالات غير ممكنة بصورة دقيقة في ظل غياب كثير من المعلومات الرئيسة، والاستثناء هنا هو عبارة صاحب "بغية الرواد" الذي وصف بيت الأبلي بقوله: "بيت نباهة في الجند".³

ونحن نعلم أن الجند الأندلسي كان إحدى الفرق الرئيسة في النظام العسكري للمرابطين ثم الموحديين، وورث الزيانيون ذلك عنهم، فرمما كان بيت الأبلي منخرط بقوة في هذه الفرقة وخدم الدول الثلاث المتعاقبة.

الجندية وقيادة مرسى ومدينة هنين

اشتغل أعلام البيت الأبلي لمدة طويلة بالجندية كما دلت عبارة يحيى بن خلدون السالفة، لكن تأخر ظهورهم إلى بداية القرن السابع، ولا نعلم تحديداً أي الرتب التي حازوه في الجيش الموحدية أو الزيانية، هل الجندية البسيطة؟ أم قيادة الفياق والفرق؟، فأول ظهور لهم كان مع الأخوين إبراهيم وأحمد ابني علي (أو أحمد) في زمن السلطان الزياني يغمراسن (633-681)، فاستعملها في جنده لما اشتهر به أهل آبله من الفروسية والشجاعة كما مر، وأظهرها كفاءة رشحت إبراهيم منها لتولي قيادة هنين، وهي من المراسي والمدن الرئيسة في الدولة الزيانية على عهد يغمراسن وخلفه السلطان عثمان بن يغمراسن (681-703)،⁴ وللقائد سلطات واسعة في عمالته أو ولايته ونفوذ كبير، وصلاحياته عموماً تتسم بطابع عسكري.⁵

مكانة إبراهيم الأبلي كقائد لهنين مكنته من أن يكتسب حظوة لدى أعيان تلمسان وكبرائها مثل قاضي الجماعة بها محمد بن غلبون المرسى وتوجت هذه الحظوة بمصاهرة، إذ زوجه القاضي ابنته فأنجب منها سنة 681 هـ أحد

الفارابي، 2001، ص 17 وما بعدها، وهذا يدل على أن القوم كانوا وما زالوا يخطون بمد لتقويض سلطة المسلمين بعمل منهجي لا مجال للصدفة فيه.

¹ أرسلان. الحلل السنلمية 235/1 والهامش 1 من نفس الصفحة.

² أنظر عنهم: ليونارد باتريك هارفي. المدجنون، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ضمن: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس 285/1-300.

³ يحيى بن خلدون 120/1.

⁴ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 49، ابن حجر. الدرر الكامنة 176/3، ابن القاضي. جلوة الاقباس 304/1، نوبهض،

معجم أعلام الجزائر، ص 12، بوعزيز. أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة 26/2،

⁵ بوزياني. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد، ص 196-197.

أشهر علماء الغرب الإسلامي في عصوره المختلفة؛ وهو المسمى محمد بن إبراهيم الذي غلب اسم الأبلي عليه فلا يعرف إلا به.¹

لقد شغل محمد الأبلي في صباه وشبابه منصب القهرمان، أي خدمة قصر السلطان وداره والإشراف على احتياجاته.²

وأثناء محاولة السلطان المريني يوسف بن يعقوب الناصر لدين الله (685-706) الاستيلاء على مملكة بني زيان، حاصر خلالها تلمسان واستولى على هنين فاعتقل قائدها إبراهيم الأبلي وشيعة بني زيان هما، وشاع الخبر في تلمسان أن السلطان المريني يسترهن أبناء المعتقلين لديه ويطلقهم هم، فتشوف محمد الأبلي إلى اللحاق بوالده يفديه بنفسه، وأهله من ورائه يدفعونه إلى ذلك ويحضونه على استنقاذ والده، فتمكن من تسور أسوار تلمسان المحاصرة وخرج إلى أبيه في هنين، فلما وصلها لم يجد خيرا لاسترهان صحيحا.³

وفي هذه الظروف يغيب اسم القائد إبراهيم وأخيه أحمد ثانيا ويجهل مصيرهما، فهل قاوما التدخل المريني وانتهت حياتهما بالاعتقال أو القتل؟ أم اضطررا إلى الدخول في طاعة المرينيين ولحقوا بهم إلى فاس بعد انجلاء الحصار عن تلمسان بمقتل السلطان يوسف بن يعقوب المريني سنة 706 هـ؟

إننا نرجح الاحتمال الأخير بسبب تصرف السلطان المريني الذي قرب الابن محمد الأبلي إليه بعد أن قبض عليه في هنين كما سنيين في موضعه، فليس من المعقول أن يغتال والده وعمه ثم يوليه أمر حامية عسكرية بكامل عدتها في مثل هذه الظروف المضطربة.

الأبلي بين التقلبات السياسية والمسيرة المضطربة

لما وصل الأبلي إلى هنين تعرف عليه السلطان المريني وقربه إليه، وفي وقت وجيز جدا ودون سابقة ضمه لخدمة مشاريعه التوسعية فعينه قائدا على الجند الأندلسي⁴ بمنطقة تاوريرت.⁵

لكن شخصية الأبلي وتكوينه لم يكن يسمح له بخوض غمار الجندية والقيادة شأن أسلافه، رغم حض الشرع على التجند واتخاذ الجند،⁶ لكنه ومن منطلق شرعي كما فهمه هو ظن أن المسألة ليست كذلك، بل إن اقتتال أميرين مسلمين ضرب من ضروب الفتنة، ينبغي فيها الكف والتوقف واعتزال كلا الفريقين كما بين ذلك الفقهاء.⁷

¹ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 49، ابن حجر. اللؤلؤ الكامنة 176/3، ابن مريم. البستان، ص 214، محمد طه الحاجري.

الأبلي صفحة مطوية من تاريخ الحياة العلمية في المغرب، مجلة الثقافة (مصر) عدد 79، أبريل 1980، ص 8.

² ابن خلدون. العبر 127/7

³ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 50، الحاجري. الأبلي صفحة مطوية، ص 9، بوعزيز. أعلام الفكر، 27/2.

⁴ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 50، الحاجري. الأبلي صفحة مطوية، ص 9.

⁵ تاوريرت مدينة ثغرية كحد فاصل بين دولة بني زيان ودولة بني مرين، من مواطن ذوي عبيد الله عرب المقل، وهي اليوم على بعد 136 كلم غرب وجدة، ابن خلدون. العبر 77/6، 82.

⁶ أنظر: محمد بن العنابي. السعي المحمود في نظام الجنود، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983. ص 65-74.

⁷ ابن المناصف. الإنجاد في أبواب الجهاد، دراسة وتحقيق قاسم عزيز الوزاني، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003، ص 406-409.

ففي غياب الأب إبراهيم القائد هينين، نشأ الآبلي بتلمسان في كفالة جده القاضي الأندلسي ابن غليون، فنشأ له بذلك ميل إلى انتقال العلم دون غيره، "فلما يفع وأدرك سبق إلى ذهنه محبة التعاليم" بشكل أساس، و"التعاليم" هي الصنف الرابع في العلوم العقلية بتقسيم ابن خلدون، ويضم علم الهندسة وعلم الأرقام أي الأعداد وخواصها والموسيقى وعلم الأصوات وعلم الهيئة (الفلك)،¹ فرع فيها واشتهر عنه ذلك، فاجتمع الناس عليه وتحلقوا حوله وعكفوا على تعلمها عليه وهو لم يتجاوز سن المراهقة بعد.²

فانتقال الآبلي للعلم مكنه من أن يعفي نفسه ويتزع عن خدمة السلطان، فتحين وقت بدأ موسم الحج فرأى فيه الفرصة الوحيدة للتسلل من مكانه والتنصل من مهامه، فاتخذ زي الفقراء من الصوفية ولبس مسوحهم وأدرج نفسه في جملةهم وسار مختفياً بينهم حتى انتهى إلى رباط العباد خارج مدينة تلمسان، وهناك لقي رجلاً عراقياً من أهل كربلاء من نسل الحسين بن علي رضي الله عنهما، جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوة الشيعة فيه، فلما رأى عساكر السلطان وشدة هيئته، وأن الجو السائد في البلاد لا يأذن لمثل هذه الدعوة أن تأخذ سبيلها فيها، غلب عليه اليأس من مرامه وعزم على الرجوع إلى العراق، فوجد الآبلي في مرافقته بين أتباعه وأشياعه ما يحقق له أن يمضي في رحلته متتكراً، فخرج معه إلى أن وصل تونس ومنها إلى الإسكندرية، وبذلك استطاع أن يتخلص من قبضة السلطان الرابض حول تلمسان الجاثم على أسوارها ويتخلص من خدمته أيضاً، وهذا قبل سنة 702 هـ.

وفي خضم هذه الرحلة أصيب الآبلي وهو على عتبة باب الشباب بالعلمة (كثرة الاحتلام) واستحي من كثرة الاغتسال للصلاة لمكان الرجل الرئيس الكربلائي ومقامه من ذرية النبي ﷺ، فأشار عليه بعض المرافقين بشرب الكافور مما أدى إلى اختلاط عقله، ووصل مصر وبها يومئذ فطاحل العلم وفرسان المعقول والمنقول الذين أنجبتهم حواضر العلم الإسلامي واستفادت منهم مصر مجاناً، أمثال ابن دقيق العيد (ت 702 هـ) وابن الرفعة (ت 710 هـ) وصفي الدين الهندي (ت 750 هـ) والتبريزي (ت 749 هـ)،³ ففاته الأخذ عنهم لحالته تلك، ومن مصر سار إلى مكة والمدينة فأدى فريضة الحج، ثم انصرف إلى العراق ودخل كربلاء وأقام بها مدة إلى أن صرفه الرئيس الكربلائي وبعث معه من أوصله إلى بلاد زواوة⁴ من المغرب الأوسط فصادف ذلك مقتل السلطان المريني سنة 706 هـ، وخلّص أهل تلمسان من حصاره فدخّل المدينة وقد أفاق من اختلاطه، واستغرقت رحلته هذه أكثر من أربع سنوات.⁵

¹ المقدمة، ص 476.

² ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 49، ابن حجر. الدرر الكامنة 176/3، ابن مريم. البستان، ص 214، الحاجري. الآبلي صفحة مطوية، ص 8-9.

³ أنظر تراجمهم على التوالي: ابن جابر الوادي آشي. استفاد الرحلة والاغراب، ص 16-37، الذهبي. ذيل الصور، ص 6، السبكي. طبقات الشافعية، 240/5، 176/5، 2/6، السيوطي. حسن المحاضرة 146/1، 274/1، 276/1، 446/1.

⁴ زواوة اسم قبيلة واسم مكان، وهي الآن منطقة القبائل الصغرى والكبرى، أنظر عنها: بوزيان الدراجي. القبائل الأمازيغية أدوارها ومواطنها وأعمالها، ص 208 وما بعدها، أبو يعلى الزواوي. تاريخ زواوة، دمشق: مطبعة الفيحاء، 1910، ص 12-26.

⁵ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 50-51، ابن حجر. الدرر الكامنة 176/3، التبيكي. النيل 66/2، ابن مريم. البستان، ص 214-215، الحاجري. الآبلي صفحة مطوية، ص 9-10.

انبعثت همة الآبلي من جديد إلى تعلم التعاليم مع ميله إلى العلوم العقلية، فقرأ المنطق على أبي موسى ابن الإمام التلمساني وأخيه أبي زيد وجملة من الأصليين: أصول الفقه وأصول العقائد، كما أخذ عن أبي الحسن التنسي. وكان السلطان الزياني أبو حمو الأول صاحب تلمسان يومئذ قد استفحل ملكه وضيظ أمور مملكته أيما ضيظ، وبلغه عن الآبلي تقدمه في علم الحساب فاستدعاه إلى بلاطه و"دفعه إلى ضيظ أمواله ومشاركة أعماله"، أي جعله صاحب الأشغال (وزيرا للمالية) على كره منه وامتعاض، وضاقت نفسه كما ضاقت من قبل باستعمال السلطان المريني له، فهو لم يخلق ليكون عاملا يسخره السلطان لأغراضه ويضعه حيث يرى له، وكما احتال بالأمس للخلاص مما أريد له، أعمل الخيلة اليوم في الفرار من السلطان أبي حمو وهو لم يتجاوز سن السابعة والعشرين، فلحق بفاس أيام السلطان أبي الربيع سليمان المريني (708-710 هـ) فأرسل أبو حمو يتعقبه فاخفى عند شيخ التعاليم وكبير علماء فاس في الرياضيات خلوف المغيلي اليهودي ولازمه بداره إلى أن استوفى عليه فنون المعقول تعلمًا وحذقًا.¹

فوجهة الآبلي هذه إلى فاس كانت بداية لعهد جديد في حياته، فقد امتدت نحوًا من أربعين سنة أمضاها في مواطن مختلفة من المغرب الأقصى، خالصا لحياة العلم يطلبه حيث يجد ما يستزيده منه، ويؤدي حقه بالجلوس إلى طلابه.

وتقع هذه الفترة في عهد ثلاث سلاطين من بني مرين: أبي الربيع المذكور وخلفه أبي سعيد عثمان (710-731 هـ) ثم أبي الحسن إلى أن مضى معه سنة 748 هـ إلى أفريقية كما سأشير.

خرج الآبلي من فاس بعد برهة متعتها إلى مراكش يقصد بذلك أمرين مازالا يسيطران عليه ويوجهان خطاه: أن يكون فيها أكثر أمانًا وأوفر طمأنينة وأن يتجنب ما كانت تضطرب به فاس من فتن أواخر عهد السلطان أبي ربيع سنة 710 هـ، والأمر الآخر أنه يستطيع في هذا الجو أن يتعمق في دراسة فنون التعاليم المختلفة على شيخها أبي العباس ابن البناء، الذي يجمل ابن خلدون صفته في قوله عنه: "شيخ المعقول والمنقول والمبرز في التصوف علما وحالا"، فبالإضافة إلى براعته في التعاليم وسمي لأجلها بالعددي، برع كذلك في الأصول والتفسير والعربية، وفترة ملازمة الآبلي له كانت طويلة نسيبا (حوالي 11 سنة)، "ولزم العالم الشهير (ابن البناء)... فحصل عنه سائر العلوم العقلية وورث مقامه فيها وأرفع".²

شهدت مراكش هي الأخرى اضطرابات عديدة في سنوات حكم أبي سعيد عثمان بسبب الحركات المناهضة له بزعامة عدي بن هنو المسكوري، فكان لها أثر سيء على نفسية الآبلي الوادعة وعكرت صفو الأجواء التي كان يناشدها لتحقيق ما يطمح إليه، وتوافق ذلك أيضا مع وفاة شيخه ابن البناء سنة 721 هـ، وفي هذه الأثناء وجه إليه علي بن محمد بن تروميت³ شيخ قبيلة هسكورة ومواطنهم بين جبال درن وتادلا،¹ ولا شك أن غبطته

¹ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون، ص 51، التكني. التل 66/2، ابن مرين. البستان، ص 215، كون. النبوغ المغربي، ص 198، الحاجري. الآبلي صفحة مطوية، ص 10.

² ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 41.

³ ابن تروميت (أو ابن تروميت) كلمة بربرية تعني ابن الرومية، وهذا يعني أن أم شيخ القبيلة أم ولد إسبانية أو صقلية أو إفريقية الأصل.

كانت بالغة، فصعد الجبل إليه وأقام به مدة "قرأ عليه فيها وحصل... وعلي بن محمد في ذلك على تعظيمه ومحبته وامتثال إشارته، فغلب على هواه، وعظمت رياسته بين تلك القبائل" بسبه، ثم إن السلطان أبو سعيد استرل ابن تروميت من جبله فترل معه الآبلي وأسكنهما بفاس حضرته.²

ولما سقطت تلمسان في يد السلطان أبي الحسن سنة 747 هـ، ولقي بها علامتها أبي موسى بن الإمام فذكر له الآبلي بأطيب الذكر وأجمل في الثناء عليه، "ووصفه بالتقدم في العلوم، وكان السلطان أبو الحسن معنياً بجمع العلماء لمجلسه... فاستدعاه من مكانه بفاس ونظمه في طبقة العلماء"، وهكذا نشأت العلاقة بين الآبلي والعالم وأبي الحسن السلطان، على غير ذلك الوجه الذي أريد له سلفاً، أما اليوم فهي صلة العلم والعلاقة التي مهدت له ملازمة أصحاب السلطان ورجال الدولة لتتحول مع مرور الأيام إلى علاقة سياسية، وإن ظهرت بصورة خافتة، فقد حضر الآبلي معه واقعة طريف ضد النصاري في الأندلس وسار معه لما عزم على غزو إفريقية سنة 748 هـ وشهد معه واقعة القيروان بانتفاض العرب عليه.

وفي تونس وطد الآبلي علاقته مع محمد بن خلدون والد المؤرخ صاحب المقدمة، ولما عاد السلطان إلى المغرب عمل ابن خلدون الأب على تشييط الآبلي عن الرحيل وأغراه بالتخلف عن السلطان معتذراً له عنده، وكان مهلك كثير من علماء مجلس السلطان غرقاً في البحر أثناء هذه العودة، ونجا الآبلي لما قدرت له النجاة بتخلفه، ولما ملك أبو عنان زمام الأمور انطلقاً من تلمسان كتب إلى السلطان الحفصي أبي إسحاق الثاني (751-770) يطلب حضور الآبلي، فأسعفه في طلبه لما بينهما من العهود، فخرج الآبلي من تونس ومر ببجاية وأقام بها شهوراً رغبة من طلابها وعلمائها، ثم ارتحل إلى هنين ومنها إلى تلمسان موطنه الأصلي حيث السلطان أبو عنان، "وأحله محل التكرمة ونظمه في طبقة أشياخه من العلماء"، ورحل بارتحال إلى فاس وبها كان مهلكه سنة 757 هـ،³ وهو في سن السادسة والسبعين.

الآثار العلمية للآبلي والأدوار الرائدة

عرف الآبلي بقوة الحافظة وسرعة البديهة وحل العضلات العلمية، فمن ذلك ما حدثت به المقرئ الجند، أنه لما قدم ابن المسفر الباهلي قاضي بجاية رسولا عن صاحبها إلى فاس، "زاره الطلبة فحدثهم أنهم كانوا في زمن ناصر الدين (المشذالي) يستشكلون ما وقع في تفسير الفخر (أي الرازي) في سورة الفاتحة ويستشكله الشيخ معهم، وهذا نصه: ثبت في بعض العلوم العقلية أن المركب مثل البسيط في الجنس، والبسيط مثل المركب في الفصل، وأن الجنس أقوى من الفصل، فلما رجعوا إلى الشيخ الآبلي أخبروه بذلك فاستشكله ثم تأمله فقال: فهمته، وهو كلام

¹ أنظر عنها: البيهقي الصنهاجي. المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط: دار المنصور، 1971، ص 52-53، ابن خلدون. العبر 270/6-272، بن منصور. قبائل المغرب 335/1.

² ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 51-52، ابن حجر. الدرر الكامنة 176/3، التنبكي. النيل 66/2، ابن مريم. البستان، ص 215-216 الحاجري. الآبلي صفحة مطوية (القسم الثاني)، ص 4-6.

³ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون، ص 52-53، ابن حجر. الدرر الكامنة 176/3، التنبكي. النيل 66/2-67، ابن مريم. البستان، 215-216، الحاجري. الآبلي صفحة مطوية، ص 6-8.

مصحف وأصله: أن المركب قبل البسيط في الجنس والبسيط قبل المركب في العقل، وأن الحس أقوى من العقل¹ فرجعوا إلى ابن المسفر فأخبروه؛ فَلَجَّ، فقال لهم الشيخ (أي الآبلي) أطلبوا النسخ فوجدوا في بعضها كما قال"².
ومن حيله اللطيفة الدالة على ذكائه ما رواه عن نفسه من أنه سافر إلى مدينة تازا بالمغرب الأقصى، وبات مع أبي الحسن البري (ت 713 هـ) أحد علمائها، ومعهما أبو عبد الله الترجماني فكثرت الكلام والنقاش بينهما، والآبلي قد أثر فيه السفر وأدركه التعب والنعاس واحتاج إلى النوم، وكره أن يقطع كلامهما أو ينام في حضرتهما تأدبا، فألقى إليهما بيتا للمعري واستكشفتها في معناه وهو:

أقول لعبد الله بما سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس وهاشم.

قال: "فجعلنا يفكران فيه فتمت حتى أصبحا ولم يجدها فسألاني عنه فقلت معناه..."³.

ولما دخل بجاية وجد من أعلامها قاضيها ابن المسفر المذكور، فباحته واستفاد منه، وسأله يوما عن اسم كتاب الجوهري، فقال: "من الناس من يقول الصحاح بالكسر ومنهم من يفتح"، فاستدرك القاضي عليه بقوله: "إنما هو بالفتح. بمعنى الصحيح كما ذكره في باب صح"، فرد الآبلي بداهة: "ويحتمل أن يكون مصدر صح كحسان"، فتوقف القاضي معترفا بذكائه وكتب رسالة لأصحابه صدرها هذين البيتين:

وصلت صحيفتكم فهزت معظي فكأنما أهدت كؤوس القرقف

وكأنها نيل الأمانى لخائف أو وصل محبوب لصب مدنق⁴

ومن الجدير بالذكر أن الآبلي وهو سليل أسرة عربية عريقة في العروبة، كان يجيد اللغة البربرية لغة زناتة،⁵ وهذا لا يتأتى - وفي منشاء ذلك - إلا لمن كان سريع البديهة قوي الحافظة.

وبخصوص الفن الذي نبغ فيه الآبلي وحذقه، فإن ابن خلدون ما فتئ يصفه كلما عرض له ذكره بـ: "شيخ التعاليم" و "إمام المعقولات" و "شيخ أهل المغرب في العلوم العقلية"، أما ابن مرزوق معاصره فقد وصفه بـ: "الفقيه الأستاذ العالمي المحقق المشارك... شيخ المغرب في العلوم العقلية وإمام وقته"،⁶ أما يحيى بن خلدون فوصفه بـ: "شيخنا العالم الأعلى.. المعلم الأصغر.. فاق أهل زمانه في العلوم العقلية كلها"،⁷ وقال عنه المقري الجدي: "لقيت فيمن لقيت بفاس رجلين أحدهما عالم الدنيا والآخر نادرتهما، أما العالم فهو شيخنا أبو عبد الله محمد بن

¹ أنظر تفاصيل هذه المسألة المنطقية الفلسفية في: فخر الدين الرازي. المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعات، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1410-1990، 142/1-162.

² ابن الخطيب. الإحاطة 202/2، المقرئ. أزهار الرياض 63/5، ونفح الطيب 246/5، محمد المختار اسكندر. المفسرون الجزائريون عبر القرون، ص133-134، ومن الملاحظ أن هذا الكلام بصيغته المختلف فيها غير موجود في أصل تفسير الرازي المعروف، أنظر: الفخر الرازي. التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، تحقيق خليل محي الدين المسيس، بيروت: دار الفكر، 1414-1993، 13/1-18، وقد يكون موجودا في تفسير سورة الفاتحة المسمى "مفاتيح العلوم" وهو غير "التفسير الكبير".

³ المقرئ. أزهار الرياض 63/5-64، ونفح الطيب 246/5-247.

⁴ المقرئ. أزهار الرياض 69/5، ونفح الطيب 250/5.

⁵ يحيى بن خلدون. بهية الرواد 85/1.

⁶ المسند، ص 266.

⁷ بهية الرواد 120/1.

إبراهيم بن أحمد العبدي الآبلي، وأما نادرهما فأبو عبد الله بن شاطر¹، ووصفه ابن مريم والتبكي بـ: "الإمام العلامة المجمع على إمامته، أعلم خلق الله في الفنون المعقولة"، هذا بعد أن أوردنا وصف تلميذه المقرئ له بقوله: "هو الإمام نسيح وحده ورحلة وقته في القيام على الفنون المعقولة وإدراكه وصحة نظره"².
 هذه الصفات هي التي جعلت الطلاب يقبلون على درسه وحلقاته أينما حل، فقد درّس في تلمسان وهو لم يشب بعد في المرة الأولى ثم في سن الشباب بعد عودته من الرحلة المشرقية، وللمرة الثالثة أيام استيلاء السلطان أبي عنان عليها، ودرّس في فاس ومراكش وتونس وبجاية، طوال مسيرته التي عرضنا لها سلفاً، لذا قال عنه صاحب كتاب "بغية الرواد"³: "إني لا أعرف بالمغرب وبإفريقية فقيهاً كبيراً إلا وله عليه مشيخة".
 فمن أشهر تلاميذه:

- 1- عبد الرحمن بن خلدون العلامة، قال عنه: "لما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن لزمته وأخذت عنه الأصليين والمنطق وسائر الفنون الحكيمة والتعليمية"⁴.
- 2- أخوه يحيى بن خلدون، أخذ عنه بتونس في نفس الفترة حيث وصفه بـ: "شيخنا" كما مر.⁵
- 3- محمد بن محمد المقرئ (ت 759 هـ).⁶
- 4- محمد بن مرزوق المعروف بالخطيب.⁷
- 5- أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي (ت 749 هـ)، أخذ عنه العلوم العقلية ولازمه، "فاستنفذ بقية طلبه عليه فبرز آخراً"⁸.
- 6- إبراهيم بن محمد التلمساني المصمودي (ت 804 هـ) من الأولياء الزهاد وكبارهم.⁹
- 7- شعيب بن جعفر بن شعيب أبو مدين التلمساني، دفين حماة الشام (ت 775 هـ) "أحد أذكى العالم"¹⁰.
- 8- محمد بن يحيى بن علي النجار التلمساني أشهر تلاميذه وأنبغهم بعد ابن خلدون، قال عنه شيخه نفسه: "ما قرأ علي أحد حتى قلت لم يبق عندي ما أقوله لك غير ابن النجار" هذا.¹¹

¹ ابن إدريس الكاتبي. سلوة الأنفاس 345/3.

² البستان، ص 214، النبل 66/2، والكفاية، ص 319.

³ يحيى بن خلدون 120/1.

⁴ التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 41، ابن إدريس الكاتبي. سلوة الأنفاس 345/3.

⁵ بغية الرواد 120/1، حاجيات، تلمسان مركز إشعاع علمي، ص 187.

⁶ التبكي. النبل 76/2، ابن مريم، البستان، ص 156، ابن إدريس الكاتبي. سلوة الأنفاس 345/3، أبو الأحفان. الإمام أبو عبد الله محمد المقرئ التلمساني، ص 64.

⁷ المسند، ص 138، ابن إدريس الكاتبي. سلوة الأنفاس 345/3.

⁸ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 58، ابن القاضي. درة المجال، ص 202، ابن إدريس الكاتبي. سلوة الأنفاس 345/3، ابن مخلوف. شجرة النور الزكية، ص 221.

⁹ ابن مريم. البستان، ص 65، ابن مخلوف. شجرة النور الزكية، ص 249.

¹⁰ ابن مريم. البستان، ص 115، ابن القاضي. درة المجال، ص 439.

¹¹ التبكي. النبل 57/2، ابن مريم، البستان. ص 153-154، ابن القاضي. درة المجال، ص 265، وجنوة الانقباس 302/1.

إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي، وأما نادرهما فأبو عبد الله بن شاطر¹، ووصفه ابن مريم والتبكي بـ: "الإمام العلامة المجمع على إمامته، أعلم خلق الله في الفنون المعقولة"، هذا بعد أن أوردا وصف تلميذه المقرئ له بقوله: "هو الإمام نسيح وحده ورحلة وقته في القيام على الفنون المعقولة وإدراكه وصحة نظره"².
 هذه الصفات هي التي جعلت الطلاب يقبلون على درسه وحلقاته أينما حل، فقد درّس في تلمسان وهو لم يشب بعد في المرة الأولى ثم في سن الشباب بعد عودته من الرحلة المشرقية، وللمرة الثالثة أيام استيلاء السلطان أبي عنان عليها، ودرّس في فاس ومراكش وتونس وبجاية، طوال مسيرته التي عرضنا لها سلفاً، لذا قال عنه صاحب كتاب "بغية الرواد"³: "إني لا أعرف بالمغرب وبإفريقية فقيهاً كبيراً إلا وله عليه مشيخة".
 فمن أشهر تلاميذه:

- 1- عبد الرحمن بن خلدون العلامة، قال عنه: "لما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن لزمته وأخذت عنه الأصليين والمنطق وسائر الفنون الحكيمة والتعليمية"⁴.
- 2- أخوه يحيى بن خلدون، أخذ عنه بتونس في نفس الفترة حيث وصفه بـ: "شيخنا" كما مر.⁵
- 3- محمد بن محمد المقرئ (ت 759 هـ).⁶
- 4- محمد بن مرزوق المعروف بالخطيب.⁷
- 5- أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي (ت 749 هـ)، أخذ عنه العلوم العقلية ولازمه، "فاستنفذ بقية طلبه عليه فبرز آخراً"⁸.
- 6- إبراهيم بن محمد التلمساني المصمودي (ت 804 هـ) من الأولياء الزهاد وكبارهم.⁹
- 7- شعيب بن جعفر بن شعيب أبو مدين التلمساني، دفين حماة الشام (ت 775 هـ) "أحد أذكى العالم"¹⁰.
- 8- محمد بن يحيى بن علي النجار التلمساني أشهر تلاميذه وأنبغهم بعد ابن خلدون، قال عنه شيخه نفسه: "ما قرأ علي أحد حتى قلت لم يبق عندي ما أقوله لك غير ابن النجار" هذا.¹¹

¹ ابن إدريس الكاتبي. سلوة الأنفاس 345/3.

² البستان، ص 214، النبل 66/2، والكفاية، ص 319.

³ يحيى بن خلدون 120/1.

⁴ التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 41، ابن إدريس الكاتبي. سلوة الأنفاس 345/3.

⁵ بغية الرواد 120/1، حاجيات، تلمسان مركز إشعاع علمي، ص 187.

⁶ التبكي. النبل 76/2، ابن مريم، البستان، ص 156، ابن إدريس الكاتبي. سلوة الأنفاس 345/3، أبو الأحفان. الإمام أبو عبد الله محمد المقرئ التلمساني، ص 64.

⁷ المسند، ص 138، ابن إدريس الكاتبي. سلوة الأنفاس 345/3.

⁸ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 58، ابن القاضي. درة المجال، ص 202، ابن إدريس الكاتبي. سلوة الأنفاس 345/3، ابن مخلوف. شجرة النور الزكية، ص 221.

⁹ ابن مريم. البستان، ص 65، ابن مخلوف. شجرة النور الزكية، ص 249.

¹⁰ ابن مريم. البستان، ص 115، ابن القاضي. درة المجال، ص 439.

¹¹ التبكي. النبل 57/2، ابن مريم، البستان. ص 153-154، ابن القاضي. درة المجال، ص 265، وجنوة الانقباس 302/1.

لقد كان الآبلي من الطراز الذي يُعنى في بث علمه بتربية العقل وتوجيهه والإشادة بالملكة، لما يملك هو من قدرة فائقة على النفاذ إلى أعماق طلابه في مجالسه العلمية، "أكثر مما يعنى بتأليف الرسائل وتدريج الفصول وتصنيف الكتب، يجعلها مادة درسه وقوام مجالسه فيعنى بها الوراقون ويتبادها الطلاب والمريدون".¹

إن من بين آراء الآبلي المستغربة ما تعلق بالتأليف وبناء المدارس وتشبيدها، وهي الآراء التي عمل تلميذه المقرئ الجدد على الدفاع عنها، وشرح مقصود شيخه منها، فقد قال: "سمعت شيخنا الآبلي يقول: إنما أفسد العلم كثرة التأليف، وإنما أذهب ببيان المدارس وكان ينتصف له من المؤلفين والبنائين وإنه لكما قال، غير أن في شرح ذلك طولاً، وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جميع العلم، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير وقد لا يحصل له من العلم إلا التزر اليسير لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه، ثم صار يشتري أكبر ديوان بأجنس ثمن، فلا يقع منه أكبر من موقع ما عوض عنه، فلم يزل الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر".²

أما بخصوص بناء المدارس فيرى أن الدولة تستغل ذلك فتختار من العلماء والمدرسين بما من يوافق على سياستها ويسير في ركابها،³ فاستأنف يقول: "أما البناء فلأنه يجذب الطلبة إلى ما يرتب فيه من الجرايات فيقبل بها على من يعينه أهل الرئاسة بالإجراء والإقراء منهم أو من يرضى لنفسه الدخول في حكمهم، ويصرفونها عن أهل العلم حقيقة الذين لا يدعون إلى ذلك، وإن دعوا لم يجيبوا، وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم".⁴

ثم يعقب التنبكيتي بعد أكثر من قرنين ونصف على هذا الكلام بقوله: "ولعمري لقد صدق في ذلك وبر، فلقد أدى ذلك لذهاب العلم بهذه المدن المغربية التي هي من بلاد العلم من قديم الزمان كفاس وغيرها، حتى صار يتعاطى الإقراء على كراسيها من لا يعرف الرسالة (رسالة ابن أبي زيد القيرواني) أصلاً فضلاً عن غيرها، بل من لم يفتح كتاباً للقراءة قط، فصار ذلك ضحكة، وسبب ذلك أنها صارت بالتوارث والرئاسات، أعادنا الله، حتى حلت هذه الساعة عمن يعتمد عليه في عمله مصداق قوله ما ورد في ذلك".⁵

فإن كان التنبكيتي هو الآخر يتساق مع أطروحات الآبلي بخصوص بناء المدارس والطريقة التي تدار بها، فإنه يخالفه ضمناً بسكوته وعدم تعليقه على المسألة الثانية: مسألة التأليف، وهو أحد أشهر المؤلفين في نهاية العصر الوسيط.

أما المقرئ فما زال يحشد الأدلة لنقض مذهب التأليف انطلاقاً من واقع حركة التأليف في زمانه وزمان الآبلي، ككثرة النقل من المختصرات ونسبة ما جاء فيها إلى أمهات المصادر، فهذا في نظره تدليس، كما أن كثرة التأليف

¹ الحاجري. الآبلي صفحة مطوية، (القسم الأول)، ص 6.

² المقرئ. نفع الطيب 275/2.

³ كان أمراء الأندلس هم السابقون إلى التدخل في شؤون التعليم في الغرب الإسلامي بعد فشل الفاطميين في ذلك، أنظر: محمد عبد الحميد عيسى، تدخل الدولة في التعليم في الأندلس، مجلة أوراق، عدد 3، 1980، ص 64-71.

⁴ المقرئ. نفع الطيب 275/2-276، التنبكيتي. النيل 68/2-69، ابن مريم. البستان، ص 216-217.

⁵ نيل الانبهاج 69/2، وأنظر مناقشة هذا الرأي: عبد الجليل قرياني. السياسة التعليمية للدولة الزيانية، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1424-2004/2003، ص 110-116، صابرة خطيب. فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2004-2003/1425-1424، ص 276.

تؤدي إلى كثرة التصحيح فيها وبالتالي تشويه العلم فيها، وأصبحت الفتيا تدار على هذه المختصرات المشوهة دون التثبت من تصحيحها أو ما زيد فيه مما نقص، والأخطر أن ذلك يفضي إلى ترك الرواية ويقطع سلسلة السند.¹

لقد كان الأولى والأجدر بالآبلي وتلميذه المقرئ أن يرفض التصحيح واشتغال الجهلة بالوراقة والنسخ، ويرفض الاختصارات المخلة التي هي في حقيقتها طلاسم تشغل قارئها بفك رموزها ومعماها وغوامضها أكثر ما تشغله مسائلها، بدل أن يرفض التأليف في حد ذاته.

كما أفهمنا غفلا عن حقيقة الإسناد وجوهر السند، فالوظيفة الأولى للإسناد هو حفظ العلم من الضياع، فلما حفظ العلم في الكتب انتفت الحاجة إلى التشديد فيه؛ وهذه آراء نجدتها عند المحدثين أنفسهم، وهم أكثر المتشددين في مسألة الإسناد منذ أن أقرروا "الوجادة"² كإحدى طرق الرواية.

ورغم تشدد الآبلي في رفض التأليف إلا أنه ساهم بشكل غير مباشر فيه وذلك من خلال الروايات الشفوية التي احتفظ لنا بها الأخوين عبد الرحمن ويحيى ابني خلدون وغيرهما،³ وهي روايات ذات أهمية باعتباره مصدرا تاريخيا معاصر لتلك الوقائع والأحداث.

من آراءه كذلك ما تعلق بتعدد الدول والإمارات، وعلاقات العداء التي تحكمها، وتفرق الأمة إلى طوائف وشيع في العقيدة والفقه والفكر، فيقول عن ذلك كله: "لولا انقطاع الوحي لزل فينا أكثر مما نزل في بني إسرائيل، واشتهار بأسهم بينهم إلى يوم القيامة حتى ضعفوا بذلك عن عدوهم، وتعدد ملوكهم لاتساع أقطارهم واختلاف أنسابهم وعوائدهم، حتى غلبوا بذلك على الخلافة فانتزعت من أيديهم، وساروا في الملك بسير من قبلهم من غلبة الهوى واندراس معالم التقوى، لكننا آخر الأمم أطلعنا الله من غيرنا على أقل مما ستر منا، وهو المرجو أن يتم نعمته علينا ولا يرفع جميل ستره عنا".⁴

¹ المقرئ. نفع الطيب 275/5، التبيكي. النيل 69/2-70، ابن مريم. البستان، ص 217.

² وتسمى الخط أيضا، وهي الوقوف على كتاب محدث مشهور يعرف بخطه لم يلقه الراوي ولم يسمع منه أو لم يجره فله أن يقول: وجدت بخطه كذا، أنظر: القاضي عياض. الإلحاح، ص 116-121، ابن تيمية. علم الحديث، تحقيق موسى محمد علي، ط 3، الجزائر- دمشق، دار الفكر، 1413-1993، ص 94، الخطيب البغدادي. الكفاية في علم الرواية، بيروت: دار الكتب العلمية، 1409-1988، ص 353-355، ابن الصلاح. مقدمة في علوم الحديث، تحقيق مصطفى ديب البغا، عين مليلة- الجزائر: دار الهدى، ص 101.

³ العبر 7/ 123، 127، 129، 300، بهية الرواد 128/1، التبيكي. النيل 80/2، المقرئ. أزهار الرياض 61/5-69، ونفع الطيب 244/5-250.

⁴ المقرئ. نفع الطيب 277/5-278، التبيكي. النيل 70/2، ابن مريم. البستان ص 218.

الآبلي وإحياء مدرسة الرشدية¹

يعد الآبلي في نظر بعض الباحثين المعاصرين صاحب مدرسة مجددة في الثقافة الإسلامية العربية مغربا ومشرقاً، من خلالها أحيا أفكار الرشدية ووجد آراء ابن رشد المؤسس لها، "وتميزت هذه المدرسة بنشاط تعليمي مكثف، دام جيلين كاملين في العقود الأولى من القرن الثامن الهجري وانتشرت بواسطتها العلوم العقلية بين الأكابر والأصاغر كما يقول المؤرخون"².

ومن خصوصياتها كذلك الاجتهاد في التنسيق بين العلوم الشرعية والعلوم الطبيعية والتجريبية، المسألة التي ألفت بشأنها ابن رشد كتابه "فصل المقال"³، وألف فيها شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه المعنون بـ: "درء تعارض العقل والنقل"⁴، لما بدا الانفصام واضحا والشرح مبينا في منظومة الثقافة الإسلامية، الذي بدأ برد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وانتهى في عصرنا الحاضر بتقسيم التعليم إلى تعليم ديني وتعليم مدني، وساهم أصحاب "التدين المغشوش" بشكل كبير في إبقاء هذا الورم دون علاج.

لقد تجلت خصوصيات هذه المدرسة في تلاميذ الآبلي الذين أخذوا عنه مباشرة فهم جميعهم متعددي الاختصاصات كابن خلدون، وقد أخذ عنه الرياضيات والمنطق وعلوم الحكمة أي الطبيعيات وما وراء الطبيعيات وأصول الدين وأصول الفقه، وكالشريف التلمساني صاحب كتاب "مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول"⁵ وهو آخر المجتهدين في أصول الفقه بتعبير معاصريه، مع وصفه بالقدرة الفائقة على تدريس الحكمة من مؤلفات ابن سينا وتلخيصات ابن رشد للنصوص الأرسطية، وكابن عرفة صاحب المؤلفات الفقهية والأصولية الرائعة والمشهور بتعريفاته التي هي ملتقى الفقه والمنطق والدقة المنهجية وإتقان المصطلحات، وهو أكثر الناس تبحرا في المعقول بشهادة تلميذه الحافظ ابن حجر، وكسعيد العقباني صاحب الشروح والتلخيصات المشهورة في المنطق والأصول والهيئة والحجر والمقابلة⁶، كما سأشير إليها في الحديث عن أسرته وميراثها العلمي.

¹ أنظر عن مدرسة الرشدية: الجابري. ابن رشد سيرة وفكر، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998 ص89 وما بعدها، حمادي العبيدي. ابن رشد وعلوم الشريعة، ط1، بيروت: دار الفكر العربي، 1991، ص64 وما بعدها، نفسه. ابن رشد الحفيد: حياته - علمه - فقهه، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1984، ص97 وما بعدها، هنري كوربان وآخرين. تاريخ الفلسفة الإسلامية منذ النبايح حتى وفاة ابن رشد، ترجمة نصير مروة وحسن قبيسي، ط2، بيروت: عويدات للنشر والطباعة، 1998، ص358-367، أرست رينان. ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1957، (486 ص)، أنظر كذلك الأبحاث المنشورة ضمن: العطاء الفكري لأبي الوليد بن رشد، تحرير فتحي ملكاوي وعزمي طه، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- مكتب الأردن، 1420-1999.

² عبد المجيد مزبان. مدرسة الآبلي وانتشار الرشدية المجلدة بالمغرب العربي، ضمن: أعمال ملتقى التراث الحضاري المشترك، ص94.

³ العنوان الكامل هو فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، تحقيق محمد عابد الجابري، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997.

⁴ درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم، ط2، الرياض: منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1411-1991، (11 ج).

⁵ طبع عدة طبعات منها طبعة بتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مصر، مكتبة الرشد، 1381-1961، (161 ص).

⁶ عبد المجيد مزبان. مدرسة الآبلي، ص95-96.

إن الميزة الأساسية التي نلاحظها بوضوح في سالكي نهج الأبلي ومدرسته هي تفوقهم في علوم النقل، أي العلوم الشرعية كشرط ضروري لطالب الحكمة مع المحافظة على النصوص الرشدية المؤكدة على اتصال "الشرعية بالحكمة"، وإلى جانب ذلك كانوا على خط التماس المباشر مع التصوف، التقاء أو ممارسة أو تأليفاً وتفقوا كنموذج ابن عباد الرندي.

إن عصر التعليم الرسمي في المدارس المغربية هو الذي حافظ على مدرسة الأبلي حتى بعد وفاة تلاميذه المذكورين، بتثبيت العقيدة الأشعرية السنية وفقه الإمام مالك أصولاً وفروعاً وتصوف الجنيدي، مع دعائم من المنطق والتعاليم، وعلوم المعقول كما الشأن مع السنوسي وابن زكري وعبد الكريم المغيلي التلمسانيين وعبد الرحمن الأبخصري البسكري الذين ظلوا يتوارثون تعاليم مدرسة الأبلي إلى نهاية القرن العاشر الهجري،¹ مما يؤكد أن الأبلي لم يكن محققاً في امتعاضه من بناء المدارس.

¹ المرجع نفسه، ص 99-100.

بيت بني سعود الخنزايعيين العلماء والوزراء أصحاب الأشغال (690-789 هـ)

نسب بني سعود

ينتهي نسب أسرة ابن سعود في المشرق إلى خزاعة بن عمرو بن ربيعة لحي بن حارث.. بن زيد بن كهلان بن سبأ.¹

نشأة قبيلة خزاعة باليمن قبل "السييل العرم" فخرجوا يريدون الشام ولما مروا بالحجاز استوطنوا مر الظهران منها، ذلك أن عمرو بن عامر كما ذكر ابن إسحاق في روايته "أنه رأى جرذا يحفر في سد مأرب الذي كان يجس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاعوا من أرضهم، فعلم أن لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم النقلة عن اليمن"، وفي رواية أخرى أنه كان كاهناً تنبأ بذلك، وقال غيره: "كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة فأخبرت بقرب هلاك بلادهم، وكأنهم رأوا شاهد ذلك في الفأر الذي سلط على سدهم ففعلوا"²، وبعد سنوات طويلة استطاعت خزاعة أن تتولى إدارة حكم البيت الحرام مكة، وذلك أن جرهم أصحاب البيت لوقتهم أصهار النبي إسماعيل عليه السلام بغوا فيه وأساءوا، فسلط الله عليهم خزاعة، وكان شيخ خزاعة ربيعة بن حارثة تزوج فهيرة بنت الحارث بن مضاف شيخ جرهم فولدت لهم عمرو، فلما شب هذا الأخير ساد وشرف وطالب بحجاجة البيت الحرام،³ الطلب الذي جأه بالرفض وعلى إثره نشب القتال بين الحيين،⁴ فمنذ ذلك الحين وهم يتولون البيت الحرام ويتوارثون خدمته كابرا عن كابر لمدة ثلاثمائة سنة أو خمسمائة باختلاف الروايات التاريخية.

وفي عهد خزاعة سار بعض ملوك التبايعة إلى مكة يرمون هدمه فقامت القبيلة دون ذلك وقاتلتهم أشد قتال حتى رجعوا، ولم يخرّب من الكعبة خراب، ولم يضيفوا شيئاً إليه بعد جرهم، وكانوا إلى ذلك على دين إبراهيم عليه السلام، إلا أن كان عهد عمرو بن لحي بن ربيعة بن حارث أول ملوك خزاعة بمكة، ذكر أنه عاش ثلاثمائة وخمسة وأربعين سنة، وبلغ ولده في حياته ألف مقاتل وهو أول من غير دين إبراهيم الخليل عليه السلام حين سافر إلى الشام ونزل البلقاء، فوجد أهلها من العماليق يعبدون الأوثان فتعلقت نفسه بها ووهبه الصنم المعروف بهبل، فحمله حتى نصبه للناس بمكة فتابعه العرب على ذلك، لأنه بلغ فيهم من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده في الجاهلية، وهو الذي قسم بين العرب عشرة آلاف ناقة، وكان أول من أطعم الحاج بمكة سدائف الإبل ولحمانها

¹ أنظر: ابن سلام. النسب، ص 287، ابن حزم. الجمهرة 222، 224-231، البني البلسي. تذكرة الألباب، ص 125، الحازمي. عجاللة

المجدي، ص 87، ابن الأثير. لباب الألباب 439/1، المنحفي. معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص 567.

² أنظر تفاصيل هذه الوقائع: المسعودي. مروج الذهب 189/2-194، ابن كثير. السيرة النبوية، 12/1-13، تقي الدين الفاسي. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، 90/2-95.

³ حجاجة البيت الحرام إحدى هياكل التنظيم السياسي لمكة متوليها يمتلك مفاتيح الكعبة ولا تقام الشعائر الدينية فيها إلا بإذنه، أنظر: نبيه عاقل. تاريخ العرب القديم، ص 240

⁴ هناك روايات متعددة حول هذا الموضوع أنظر: ابن هشام. السيرة النبوية، شرح الوزير العربي، 82/1-84، تقي الدين الفاسي. شفاء الغرام العرب القديم، ص 240، 594/1-607، 77/2-78.

على التريد، وعمم جميع حاج العرب بثلاث أنواب من برود اليمن، وشرفه قد ذهب في العرب كل مذهب، وهو الذي بحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحمى وسبب السوائب ونصب الأصنام حول الكعبة.³⁴⁴

قال النبي ﷺ في حقه: "رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا، ورأيت عمرا (أبي عمرو بن لحي) يجر قصبه (أي أمعاءه) وهو أول من سب السوائب"³⁴⁵ أي أنه استحق العذاب لتغييره دين الخليل إبراهيم عليه السلام.

ومن آخر ملوك خزاعة جليل بن حبيشة بن سلول بن كعب بن عمرو، تزوج قصي بن كلاب القرشي ابنته حتى فولدت له عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد، ثم غلب خزاعة على البيت الحرام وتوارثت قريش منذئذ أمر الكعبة إلى أن بعث النبي ﷺ من بني عبد مناف.³⁴⁶

فانتهاه ولاية خزاعة على البيت الحرام لا ينفي نهاية الشرف أو الحضور الحقيقي في جميع مناحي الحياة بالنسبة للأجيال اللاحقة فقد ظهر منهم من الصحابة المشهورون كعمران بن حصين وسليمان بن صرد وأبو قبيصة بن ذؤيب رضوان الله عليهم، وغيرهم.³⁴⁷

وظهر فيهم عبد الله بن بديل بن ورقاء واحدا من دهاة العرب إلى جانب معاوية وزياد بن أبيه وعمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة، وظهر أسد بن عبد الله الخزاعي صاحب الحرس في خلافة أبي العباس السفاح، وظهر منهم النقباء في الدولة العباسية كسليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وعيسى وعمرو ابني أعين،³⁴⁸ وظهر فيهم الشاعر الشهير دعبل الخزاعي (تـ 246 هـ) الكوفي من بيت الشعراء كأبيه وأعمامه وبني عمومته.³⁴⁹ لكن ما هي مكانتهم في الأندلس؟ هل كانوا من الكثرة بمكان؟ هل كانت لهم أدوار بارزة في مستقرهم الجديد؟

مكانة بني سعود في دولة بني الأحمر بالأندلس

ذكر ابن الخطيب³⁵⁰ عن أنساب أهل الأندلس أنهم "حسب ما يظهر من الاشتراعات [كذا] و البياعات السلطانية والإجازات عريية؛ يكثر فيها القرشي والفهري والأموي والأنصاري والأوسي والخزرجي و.."، وعد في هذه القائمة أكثر من خمسة وسبعين قبيلة ليس فيها أي وجود لخزاعة أو بطونها، وقلما نصادف خزاعيا في

³⁴⁴ المسعودي. مروج الذهب 2/240، ابن هشام. السيرة 1/56-63، ابن كثير. السيرة 1/60-66، تقي الدين الفاسي. شفاء الغرام 80-78/2، نبيه عاقل. تاريخ العرب القديم ص 273-274.

³⁴⁵ البخاري. الجامع الصحيح المختصر 4/1661، مسلم. صحيح مسلم 2/928، المازري. المعلم بفوائد مسلم، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، تونس- الجزائر: الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، 3/359.

³⁴⁶ ابن كثير. السيرة 1/101-103، تقي الدين الفاسي. شفاء الغرام 2/106-116، نبيه عاقل. تاريخ العرب القديم، ص 233.

³⁴⁷ خليفة بن خياط. كتاب الطبقات، ص 179-190، 231، 230، 293، 317، 318.

³⁴⁸ ابن بابيه. رأس مال الندم في تواريخ أعيان أهل الإسلام، تحقيق سهيل زكار، ط1، بيروت: دار الفكر 1418-1997، ص 19، 51،

³⁴⁹ ابن العماد. شذرات الذهب 2/111، شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص 318-324.

³⁵⁰ الإحاطة 1/135، شكيب أرسلان. الحلل السندي 1/192-200.

الأندلس له حضور وشهود بارز في مجتمعه على الصعيد العلمي أو غيره،³⁵¹ مما يوحي بأن هجرتهم من الحجاز إلى الأندلس كانت قليلة وبشكل فردي؛ وفي هذه الحلقة الأخيرة كانت أسرة ابن سعود، فليست لدينا بشأنها معلومات عن دخولهم إلى الأندلس زمانا ومكانا.

إن تاريخ بيت بني سعود يشوبه الغموض في المراحل الأولى بشكل تام إذ لم يظهر حسب الكتابة التاريخية إلا في عهد بني الأحمر آخر أمراء غرناطة الإسلامية.

فقد اشتغل أعلام هذا البيت بالفقه والعلم وتولوا مناصب القضاء، فنشأ موسى بن سعود في أحضان حلقات الدرس ومجالس العلم، فتعلم على يد علماء القرنين السادس والسابع الذين كانت ما تزال الأندلس تنافس بهم عواصم الثقافة العالمية، ويبدو أنه كان يميل إلى الفقه حتى طبع به، وهو ما سمح له بتولي منصب القضاء في "أدلة" إحدى البلدات المغمورة، أوائل عهد الدولة النصرية وكان محمود السيرة مشكورا في قضائه، استطاع أن يضمن بهذه السيرة وراثته المنصب في عقبه، فقد خلفه بعد وفاته في منصبه ابنه أحمد الذي يكون هو الآخر من أهل العلم والفقه، إلا أن طموحه وعدم رضاه عن وضعه داخل بلدة مغمورة جعله يغادر "أدلة" إلى عاصمة المملكة غرناطة، فولاه سلطانها الثاني محمد بن يوسف بن الأحمر الشهير بالفقيه (671-701)³⁵² منصبا؛ ربما لم يكن يطمح إليه خارج دائرة القضاء؛ أي ديوان العساكر ويسمى كذلك الأشغال السلطانية،³⁵³ وهذا يدل على أنه لم يكن شخصية فقهية تقليدية بل شخصية علمية له اضطلاع بين في الحساب والأعمال الرياضية، وإلى جانب ذلك له دراية بالفروسية والحياة العسكرية لما تقتضيه هذه الخطوة.

ومن الغريب أن لا نجد له ذكرا عند ابن الخطيب في قائمة رجال الدولة التي يرفقها بعد ذكر كل سلطان من سلاطين بني الأحمر في كتابه الذي خصهم به، فهل ذلك تساوفا مع منهجه وفق عبارته المشهورة: "استوزر غيرهم ممن لم تنهض به الشهرة ولم تنفسح له المدة"،³⁵⁴ وبالتالي ليس من دافع إلى ذكره إلا أنه عمداً يغفاله لسبب شخصي ما له علاقة بأسرته، فمن المعروف أن المؤرخ - كابن الخطيب بشكل دقيق - يستعمل الكتابة التاريخية سلاحاً يشهره في وجه خصومه، كما فعل في ترجمة تلميذه مولى نعمته الوزير ابن زمرك.³⁵⁵

³⁵¹ والاستثناء هنا ممثلة أسرة ابن سيد بونة الخزاعي أحد البيوتات العلمية الشهيرة هاجر من بونة بالمغرب الأوسط إلى وادي آش ومنها إلى غرناطة من أعلامها الفقيه القاضي غالب بن حسن بن أحمد (تـ 651 هـ) وحفيده القاضي أبو ممام غالب بن حسن بن غالب (تـ 733 هـ) وغيرهم أنظر: ابن الأبار. التكملة 4/180، النباهي. المرقبة العليا، ص 126، 136-137،

Francisco Frranco Sanches. *Andalusies Y Maghrebies en Torno A los Sid Bono / A de Guadalest Y Granada*. dans: *Actas del II coloquio Hispánico - Marroquí*. op. cit. p. 217-232

³⁵² ذكر إحسان عباس أن ذلك كان في عهد السلطان الثالث محمد بن محمد بن يوسف (701-708) لكن سير الأحداث وترتيبها كما سيأتي يتناقض مع ذلك، لذا رأيت أن ما ذكر في المتن هو الأصوب، أنظر: مقدمة تحقيق: *تخریج الدلالات السمعية*، ص 7.

³⁵³ إحسان عباس. *مقدمة تخریج الدلالات السمعية*، ص 7.

³⁵⁴ اللوحة البيرية في الدولة النصرية، ص 46.

³⁵⁵ أنظر: الإحاطة 2/300، نثر فرائد الجمال، ص 227، حمدان حجاجي. حياة وآثار ابن زمرك، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية - المؤسسة الوطنية للكتاب 1989، ص 27، 45، 54.

هجرة بني سعود إلى تلمسان

عاشت مملكة بني الأحمر أيام حكم السلطان الفقيه التي بلغت نحو ثلاثين سنة اضطرابات عديدة داخلية وخارجية، فعلى المستوى الداخلي كان بيت بني الأحمر يشهد تنافسا حادا بين ولي العهد وأمراء المدن والأقاليم التابعة للملكة، كمالقة ووادي آش التي أعلنتا التمرد على الحكم المركزي بغرناطة، فلم تعد السكة بها تضرب باسمها ولا القاضي يعين منها أو توافق عنه، والأخطر من ذلك أن أميرها لم يبايع السلطان وانفردا عنه، وهما من بني أشقيلولة أصحاب البيت الحاكم.

وفي خضم هذا الصراع استعان السلطان النصري بالنصارى لحرب بني أشقيلولة "فعمت الفتنة واشتدت الحنة، وكثر الخلاف"، وهو ما فتح الباب على مصرعيه للثوار بقمارش ولوشة وأنتقيرة وغيرها، ثم انتزى أحد خدامه المسمى عمر بن محلي البطوعي بمدينة المنكب وسلوبانية سنة 677 هـ، وزاد من الأمر تعقيدا استفزاز السلطان للنصارى ونزولهم بالجزيرة الخضراء ودخول بني مرين على خط المعركة ضده وضد النصارى، فقد نازل السلطان المريني أبو سعيد مريلة ومالقة ورمالما بالمنجنيق بعد حصار طويل دام نحو خمسين يوما.³⁵⁶

هذه الظروف دفعت بالوزير صاحب ديوان العساكر أحمد بن موسى بن سعود إلى مغادرة الأندلس انطلاقا من مرسى مدينة المنكب المقابلة لشواطئ العدو المغربية إلى مدينة تلمسان.³⁵⁷

إن اختيار أحمد بن سعود التزول في عاصمة الدولة الزيانية ليقضي بها ما تبقى من حياته له عدة أسباب، فقد اتسمت العلاقات بين الدولة الزيانية والدولة النصرية بالتعاون المتين والصداقة الدائمة طوال القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن، تمثل في إرسال مؤن ومعونات وعدد حربية إلى الجيش النصري في صراعه مع مملكة قشتالة وأرغون بالإضافة إلى الهدايا والتهاني في مناسبات مختلفة، ووصلت في بعض الأحيان إلى تهديد المرينيين كما حدث سنة 677 هـ، حين طلب السلطان الغرناطي محمد الثاني المذكور من السلطان يغمراسن أن يشن غارات على ثغور المغرب الأقصى حتى يمنع جيشها من العبور إلى الأندلس والاستيلاء على ملك بني الأحمر، وتطورت هذه العلاقات حتى بعد هذه الفترة، فعلى شاكلة هذه الأحداث وفي سنة 709 هـ أعيد تشكيل حلف بين غرناطة وتلمسان في مواجهة الحلف الثلاثي بين أرغون وقشتالة وفاس.³⁵⁸

إن المصادر لا تذكر لنا سنة تاريخ هجرة بني سعود إلى تلمسان، وأرى أن ذلك كان في العقد الأخير من القرن السابع، كما أنها لا تذكر له أي نشاط في تلمسان الموطن الجديد له، فهل شغل منصب أو خطة ما لدى السلطان يغمراسن؟ أم أنه اشتغل بالتدريس الحر في المساجد أو في بيته؟ الوظيفة التي لا تتطلب علاقة كبيرة بالبلاط والسلطة باعتباره فقيها قبل كونه قاضيا ووزيرا، فمبلغ علمنا عنه أنه توفي بتلمسان وبها دفن.

³⁵⁶ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 287-291 .

³⁵⁷ إحسان علس. مقدمة تحرير الدلالات السمعية، ص 7.

³⁵⁸ ناصر محمد بسويو كجيل. السياسة الخارجية لدولة بني زيان بالمغرب الأوسط (633-962 هـ)، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية، ص 275-280، أحمد الطوحي. مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، ص 340-341، وأنظر فضل الزيانيين على الأندلس: ابن الخطيب. رحانة الكتاب 265/1-269.

أما ابنه محمد فلقى حظوة واهتماما كبيرين من قبل ملوك بني زيان، فعمل أول الأمر كاتباً لديهم³⁵⁹ ثم ولي وزارة الأشغال في عهد السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن (681-703)،³⁶⁰ وفي عهد خلفه السلطان أبي زيان (703-707 هـ) نقل إلى وظيفة الحجابة، وهي رتبة حسب ابن خلدون قاصرة على دار السلطان وقصره "وقد يجمعون له الحساب والسجل" تقليداً للحفصيين في أول دولتهم،³⁶¹ والمستقرى لواقع الأحداث وطبيعتها في عهد يغمراسن إلى عهد أبي حمو الأول أي الفترة الواقعة ما بين سنتي 633 و 718 هـ، يدرك أن سلاطين هذه المرحلة أعطوا أهمية كبيرة لرتبة الحجابة إذ أسندوها إلى شخصيات تتمتع بقدر كبير من المؤهلات العلمية والفنية والنفسية كذلك دون تمهيش أو عدم اعتبار الكفاءات الميدانية، وتنحصر مهامه إلى جانب ما ذكر ابن خلدون في المفاوضات والسفارات وتنظيم المقابلات والواسطة بين الرعية والسلطان.³⁶²

أما في عهد السلطان أبي حمو الأول (707-718) فقد أعيد محمد بن سعود إلى خطته السابقة أي إلى رتبة صاحب الأشغال، وأقره في نفس تلك الخطة السلطان الجديد أبو تاشفين الأول الذي خلف أباه (قتيله) سنة 718 هـ.³⁶³

استمرار الفقيه محمد بن سعود في منصبه كصاحب أشغال لثلاثة سلاطين ينبني عن النجاح في الاضطلاع بمهامه المسندة إليه كما يومي ويفصح عن اكتسابه مهارات بارعة في الحساب وضبط مالية الدولة في مداخيلها ومصارفها، وإلى جانب هذا كان صاحب فروسية يشهد له بالصدق فيها، فقد وصف "بذي الوزارتين"؛ إذ جمع "بين الخطتين: السيف والقلم وكان رسوخ قدمه في الفروسية والعلم أثبت من علم".³⁶⁴

إن صفة الفروسية التي عرف بها ابن سعود هي التي مكنته من العمل في قيادة الجيش حسب عبارة ابن الأحمر الذي يذكر تقلدها في تلمسان "الوزارة والقيادة"، ولا نعلم بالضبط شكل هذه القيادة هل هي تولي مباشر لها وإشراف على بعض فرق الجيش؟ أو تولي لديوان العسكر المختص بتعداد أفراد الجيش وتصنيف تخصصاتهم وضبط راتبهم ومستحقاتهم وما إلى ذلك؟³⁶⁵ كما أننا لا نعرف متى كان ذلك، هل قبل توليه الأشغال والحجابة؟ أم بعد ذلك؟، والذي يزيد الأمر تعقيداً هو النهاية الغامضة لهذه الشخصية حيث لا إشارة عن مصيره بعد ذكر توليه الأشغال للمرة الأخير في عهد السلطان أبي تاشفين (718-737 هـ).

359 إحسان عباس. مقدمة تجميع الدلالات السمعية، ص 7.

360 يحيى بن خلدون. بهمة الرواد 208/1، بوزيان الدراجي. نظم الحكم في دولة بن عبد الواد، ص 167.

361 المقدمة، ص 234. Atallah Dhina. *Le Royaume Abdelouadide*. p.112.

362 بوزيان الدراجي. نظم الحكم، ص 134-131، خالد بلربي. الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ص 133-134، وقارن بوظيفة الحاجب في المغرب الإسلامي ما قبل الموحدين هو بكر. النظم الإسلامية في المغرب، ص 53-58، وقارن بوظيفته في المشرق، ابن أبي الربيع. سلوك المالك، ص 113، الجاحظ. وسائل الجاحظ، 60-17/2، صبحي صالح. النظم الإسلامية، ص 306.

363 يحيى بن خلدون. بهمة الرواد 215/1، بوزيان. نظم الحكم، ص 167.

364 ابن الأحمر. مسعود العلامة، ص 62-63، عبد الحفي الكتان. نظام الحكومة النبوية المسمى الترتيب الإدارية، بيروت، دار الكتاب العربي، 34/1.

365 أنظر عند ديوان العسكر الزياني: بوزيان. نظم الحكم، ص 177-179.

علي بن محمد بن سعود وذروة مجد البيت الخنزاقي

باختفاء شخصية محمد بن سعود على صفحات الكتابة التاريخية ظهر ابنه علي³⁶⁶ خلفاً له وحاملاً لراية مجد أسرته، فقد ولد أبو الحسن علي بتلمسان سنة 710 هـ أي في عهد تولي والده لخطة الأشغال على عهد أبي حمو الأول، وبها نشأ وترعرع وتعلم، وعن مسيرته التعليمية لم يذكر لنا من شيوخه اللذين أخذ عنهم - كما في فهرس السراج تلميذه³⁶⁷ - إلا الحافظ العلامة محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني (ت 781 هـ) وله منه إجازة، والقاضي أبي البركات محمد البلفيقي الغرناطي المعروف بابن الحاج (ت 771 هـ) قاضي الجماعة بغرناطة، وقد تنبه الكتاني إلى أن أخذ علي بن سعود عن مثل هذين العلمين - وهما تقريبا من أقرانه في السن - يدل على أنه لم يكن معتنيا بالرواية في صغره إنما استدرك ذلك في كبره، وأرى أنه يدل من زاوية أخرى على ملازمته لأبيه وأخذه عنه العلم الشرعي في صورته التقليدية من فقه ولغة وحساب، إلى جانب أخذه العلم التجريبي الميداني في أمور السياسة ومناصبها ومناهجها والسبل الموصلة إليها، مع أخذه بالدربة على الخط والإنشاء والترسيل لما كان يشغل منصب الكاتب في بلاط يغمراسن، وما يؤكد ذلك مصر علي بن سعود المستقبلي كما سأبين، وهو نتاج بيئة أسرته والمحيطين بها من أصحاب والده المنضوين في فلك السلطة الزيانية زملاء البلاط.

فمن أقوال العلماء فيه وأوصافهم له؛ ما وصفه شيخه ابن مرزوق التلمساني بـ "الفقيه الكاتب الثقة" و "الصدوق الفاضل" و "الفقيه الحسيب الفاضل الكاتب المشارك"، ثم وصفه بشيء أكثر إطراءً بـ "الفقيه الحسيب الفاضل الأوحى، من أنبل الفقهاء وأحدق النبلاء وأشد الناس جدا واجتهادا في تحصيل الفوائد والمعارف، محدث راوية، شاعر مجيد، عفيف طاهر، منقبض نزيه النفس، متحفظ على نفسه وصون حرمة"،³⁶⁸ ووصفه تلميذ الإمام الصوفي محدث فاس وراويها أبو زكريا يحيى السراج الحميري (ت 805 هـ) بـ "الشيخ الجليل الحافظ للغوي التاريخي المصنف الناظم والنائر"، ثم قال: "كان شيخنا جليلا حافظا لغويا شاعرا مجيدا مقديما في التاريخ، كثير الصدقة والإيثارة؛ لم يكن في زمانه من يضاويه فيها، فذا في طريقته"،³⁶⁹ ووصفه ابن الأحمر بقوله: "واسطة عقد المفاخر الثمين من أعلام كتاب العدوتين، ومعرفة بالحساب تستغرق العقول إذ أربت عن حد الحصر والمنقول، وأما اللغة فمسلكه في سبلها أسكت ابن السكيت وبكته فهمه المدرك في حفظها أي تبيكت، والعربية هو علم رئاستها العلمية وقد برز في إفادتها الإدراكية العلمية، ولم يكن في المعرفة بالفقه بالمقصر كما نظر عن إنسان عين الحديث المبصر، وكفه بإرسال المواهب لم تكن جانية إلى التقصير ولا قيل لطول جودها جدعت أنف الفضائل عن بخل يا قصير"،³⁷⁰ ووصفه مرة أخرى³⁷¹ بقوله: "أدركته ورأيت وهو فارس ميدان الحساب

³⁶⁶ ترجم له العباس المراكشي مرتين باسم علي بن محمد بن سعود نقلا عن مسند ابن مرزوق ثم باسم علي بن ذي الوزارتين محمد بن أحمد ابن موسى بن أبي غفرة الخنزاقي نقلا عن ابن الأحمر وابن القاضي؛ وضمنهما شخصيتين مختلفتين ولم يتبه عبد الوهاب بن منصور محقق الكتاب إلى ذلك، انظر: الإعلام 176/9، 182/9.

³⁶⁷ فهرسة السراج، نقلا عن الكتاني. الترتيب الإدارية 35/1.

³⁶⁸ المسند، ص 377، 363، 251، 415.

³⁶⁹ نقلا عن الكتاني. الترتيب الإدارية، 35/1.

³⁷⁰ مستودع العلامة، ص 63-64.

الآداب والأنساب، ورئيس النحويين وعلم اللغويين وله من الأحوال حظ وافر، كما وجه الفروع له سافر وخطه ينسي ابن مقلة في تميقة، وشعره يسكت المرقش في تزويقه"، وعن كرمه وسخاء يده يقول: ³⁷² "قدمه في الكرماء أرحس من أبي قبيس وفضله ينسي فضل الأمير ديبس".

إن هذه التحليات التي أطري بها علي بن سعود تبين مدى ما تمتع به من صفات وخلال حميدة وملكات الفضيلة والكرم التي جبل عليها، وتضلعه في علوم المعقول والمنقول معا من حساب ولغة وفقه وحديث وتاريخ وعلم بالأنساب، رغم قلة شيوخه وتأخر أخذه عنهم، وهو ما يسمح لنا بالقول أن شخصيته شخصية عسامة في تكوينه الدراسي العلمي، إذ كان يعتمد على مدركاته وقدراته العقلية ومواهبه أكثر ما اعتمد على تلقين الشيوخ والجلوس إليهم في حلقاتهم المنعقدة.

عاش علي بن سعود شبابه في تلمسان دون أن نجد له نشاطا فيها علميا أو سياسيا في المصادر المعروفة، وهذا لا يعني خلوده إلى الدعة والسكون والحمول، فمن المؤكد أنه ولي خطة ما؛ لكن اهتمام المصادر بالأحداث التي عاشتها تلمسان من نزاعات متكررة مع المنافسين الأعداء في تونس وفاس حجب الحديث عن مثل هذه الشخصيات الناشئة، وفجأة تذكر المصادر بشكل غامض انتقاله على فاس أيام السلطان أي الحسن المريني (731-749 هـ) دون تحديد سنة هذا التحول.

إن أيام دراسته بفاس على ابن مرزوق والبليقي هي المرحلة التي كان لها أثر بارز في صقل شخصيته واستدراك ما فاته في صغره من ملاقات المشائخ، يمكننا من كشف بعض هذا الغموض، ويرجع انتقاله إلى فاس بعد استيلاء أبي الحسن على تلمسان سنة 737 هـ، وهي نفس السنة التي كان فيها ابن مرزوق بفاس بعد عودته من رحلته الحجازية أي وهو في سن السابعة عشر من عمره سن الطموح الجامح، وعدم توليه لمناصب عليا كالأشغال مثلا خلفا لأبيه كما هو الشأن في البيوتات العريقة التي تتوارث المناصب، جعله يفكر ويتطلع إلى خدمة السلطان أبي الحسن حيث قوة الدولة أكثر وعوائد الحضارة في البلاط أحكم، وبالتالي فرصة الظهور والشهرة هناك أقرب إلى الواقع والحقيقة، بالإضافة إلى تحلق المشائخ حول السلطان في مجالسه العلمية التي عرف بها يوفر فرصة مخالطتهم والاستفادة من علمهم وخبرتهم، وفي هذا الجو عقد صلات وثيقة مع لسان الدين بن الخطيب الذي يحتفظ لنا بإحدى رسائله إليه بعد أن هاداه ابن سعود، فكتب له رسالة إخوانية منمقة بما تنمق. ³⁷³

لم يمر طويل وقت على ابن سعود حتى ضمه أبو الحسن إلى حضرة مجلسه كونه أصبح من فقهاء حضرته ومن خواص رجاله يشارك في المحاورات والمناظرات والنقاشات المختلفة فيها، ثم ولي منصب كاتب الخراج والسيديان وعد من أهل الحساب والمساحة في نفس الفترة. ³⁷⁴

إقامة ابن سعود في فاس تلتها كثير من الأسفار والرحلات في أرجاء المملكة الواسعة، وصاحب خلالها الجيش المريني في تحركاته المختلفة كمشاركته في حملة السلطان أبي الحسن على إفريقية والاستيلاء عليها سنة 748 هـ.

³⁷¹ نثر الجمعان، ص 249، نقلا عن نوبهض. معجم أعلام الجزائر، ص 133.

³⁷² نقلا عن إحسان عباس. مقدمة تجميع الدلالات السمعية، ص 9.

³⁷³ أنظرها في: ابن الخطيب. وبجانب الكتاب 181/2-182.

³⁷⁴ ابن مرزوق. المسند، ص 173، 251، 377.

ففي سنة 750 هـ جرت واقعة بين السلطان الزياني أبي ثابت (749-753) من جهة وبين الناصر ابن السلطان أبي الحسن الذي كان صحبة السلطان أبيه بتونس وأحلافه قبائل الدواودة والعطاف والديالم وسويد من جهة أخرى، حيث كانوا يرمون إعادة الطاعة والدعوة في المغرب الأوسط للسلطان المريني ضد الدولة الزيانية، فالتقى الطرفان في وادي ورك من بلاد العطاف³⁷⁵ ودارت رحى المعركة بينهما انجملت عن استئصال الناصر المريني وأحلافه، وكان ابن سعود من جملتهم فألقي عليه القبض وسيق إلى تلمسان كخصم للدولة التي احتضنته واحتضنت سلفه من قبل؛ مع أننا نجهد دوره في هذه المواجهة، فهل كان وسيطا بين القبائل المذكورة والناصر المريني؟ أم أنه كان يمارس مهمة إدارية في هذه الحملة ككاتب للجيش؟ أم مهمة عسكرية قتالية؟

أيا ما كان الأمر فإنه لما سيق إلى السلطان أبي ثابت عفا عنه لسلف خدمة أبيه وموضعه من الدولة وأكثر من ذلك ولاءه كتابة الإنشاء³⁷⁶ في حضرته فكان "صدرا في تلك المحافل والنوادي".

والمتولي لهذه الخطة باعتباره صاحب سر السلطان يحرر مراسلاته وعهوده ومعاهداته، كما يقرأ بين يديه ما يرد عليه من رسائل وخطابات الولاة والعمال وسلاطين البلاطات الأخرى، وكذا التوقيع بين يديه وإصدار أوامره المكتوبة بأبلغ عبارة وأجزها.³⁷⁷

أما عن اختياره ف يتم وفقا لمقاييس صارمة يحددها السلطان أبو حمو لخلفائه في وصاياه المشهورة بقوله: "أما كتابك فلتتخير منهم لسرك كاتباً من وجوه بلادك موفياً لغرضك وقصدك، فصيح اللسان جريء الجنان بليغ البيان عارفاً بالآداب، سالكا طرق الصواب بارع الخط حسن الضبط عالماً بالحل والربط، كاتباً للأسرار متحلياً بحلي الوفاق، ذا عقل وافر وفهم حاضر وذهن ثاقب وفكر صائب، حلو الشمائل موسوماً بالفضائل جميل الهيئة واللباس والموالة للناس، لأن الكاتب عنوان المملكة وبه تتبين الأمور المشتبكة، ومن كتابك يستدل على عقلك ويعترف بمعرفتك وفضلك، فهذا أقل ما يشترط في الكاتب، ويكون في حقه من الواجب؛ فإنه إذا كان الكاتب بهذه المثابة صلح أن يكون أهلاً للكتابة، وإذا أحل هذه الشروط كان جديراً بالتأخير والسقوط لإخلاله بالكتابة وعدم إصابته، وكان ذلك وصفاً في حق مخدومه ودليلاً على جهله في تقديمه".³⁷⁸

وهذه الرتبة هي أسمى وأشرف وأعلى مكانة يصلها أحد أعلام بيت بني سعود سواء في الأندلس أو المغرب فهي تأتي ثانية بعد مرتبة الوزير.

هذا وقد ذكر إحسان عباس وعادل نويهض³⁷⁹ أن علي بن سعود ولي خطة الأشغال السلطانية خلفاً لأبيه في عهد السلطان المتوكل على الله أبي سعيد عثمان الذي حكم مع أخيه أبي ثابت (749-753)، وربما اعتمدا في ذلك على قول ابن الأحمر في كتابة "نثير الجمهان"، وأشار أنه لم يذكر ذلك في كتابه الآخر "مستودع العلامة"،

³⁷⁵ وهي العطاف الحالية دائرة من ولاية عين الدفلى.

³⁷⁶ يحيى بن خلدون. بغية الرواد 241/1، ابن الأحمر. مستودع العلامة، ص 63.

³⁷⁷ بوزياني. نظم الحكم، ص 141، خالد بلعربي. الدولة الزيانية في عهد يغماسن، ص 129، 133.

³⁷⁸ واسطة السلوك، ص 109، 110، وداد القاضي. النظرية السياسية للسلطان أبي حمو، ص 154، قارن بـ: الطاهر محمد توات. أدب

الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص 92 - 95.

³⁷⁹ مقدمة تخريج الدلالات السمعية، ص 7، معجم أعلام الجزائر، ص 133.

وهذا بعيد لأنه في نفس الفترة المذكورة كان يشغل منصب كاتب الإنشاء والسر كما أسلفت، إلا أن يكون قد جمع له بين الخطتين معا، فصاحب "بغية الرواد" لم يذكر متولي الأشغال في عهد السلطانين المذكورين في قائمة رجال الدولة على غير عادته مع غيرهما.

وأيا ما كان الأمر فإن ابن سعود لم تطل إقامته من جديد في تلمسان التي شهدت فترة عدم الاستقرار، بسبب ضربات الحفصيين من الشرق والمرينيين من الغرب وطمعهم في الاستيلاء عليها والقضاء على البيت الحاكم، مما حفز علي بن سعود على مغادرتها إلى فاس فولاه السلطان أبي عنان في آخر سنوات حكمه أي سنة 757 هـ — ديوان العساكر أي خطة الأشغال، وبقي في منصبه ذلك حتى أيام حكم السلطان أي بكر السعيد بالله (759-760)،³⁸⁰ وبوصول السلطان أبي سالم إبراهيم إلى العرش سنة 760 هـ أقره في منصبه وأضاف إليه خطة العلامة أي خطة القلم الأعلى،³⁸¹ ووظيفته أن يكتب بخطه البديع أو بحسب النياحة عن السلطان علامته (الطغرة) على المراسيم والرسائل السلطانية،³⁸² ولما قتل السلطان المذكور سنة 762 هـ استبد وزيره عمر ابن عبد الله الياباني على الصبي أبي تاشفين الذي نصبه على العرش سلطانا (762-763)، فعزل ابن سعود عن خطة العلامة وردّها إلى ابن رضوان المالقي، وأبقى له خطة الأشغال³⁸³ التي استمر فيها على الأقل إلى غاية سنة 772 هـ؛ سنة نهاية ابن مرزوق من تأليفه للكتاب "المسند"، فحين ذكره قال: "لم يزل على عمله إلى الآن"،³⁸⁴ أما إحسان عباس فيؤكد أنه استمر في منصبه بقية عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز المستنصر بالله (768-774) وطوال عهد خلفه أبي زيان السعيد بالله (774-776)³⁸⁵ دون أن يفصل في هذه المسألة، هل جمع بين خطة الأشغال والعلامة؟ أم الأشغال فقط؟.

ومن المؤكد أنه ولي الكتابة في ديوان الإنشاء على عهد السلطان موسى بن أبي عنان (786-788) الذي قال في حقه لما كبا به فرسه بعد انصرافه من صلاة الجمعة بجامع القرويين وأدركه الحياء والخجل من الناس، بدهاة وسرعة :

مولاي لا ذنب للشقراء إن عثرت
وهاها ما اعترها من مهايتكم
و لم تزل عادة الفرسان منذ ركبوا
وفي النبي رسول الله إسوتنا
ومن يلما لعمرى فهو ظالمها
من أجل ذلك لم تثبت قوائمها
تكبوا الجياد و لم تنبوا عزائها
أعلى النبيين مقدارا و خاتمها

³⁸⁰ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 56، إحسان عباس. مقدمة تخريج الدلالات السمعية، ص 8.

³⁸¹ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 56، ابن الأحرر. مسعود العلامة ص 64، وروضة النسرين في دولة بين مرين، ص 42، والنفحة النسرنية، ص 67.

³⁸² الحريري. تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ص 269.

³⁸³ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 56-57.

³⁸⁴ المسند، ص 377.

³⁸⁵ مقدمة تخريج الدلالات السمعية ص 6.

³⁸⁶ ابن القاضي. جنوة الإقباس 489/2، الحفناوي. تعريف الخلف، ص 270، الكتاني. الترتيب الإدارية 36/1.

كبا به فرس أبقى بسقطته
 حتى لصلى الصلاة جالسا ثبتت
 في جنبه خدشة تبدو مراسمها
 لنا بها سنة لاحت معالمها
 أزكى صلاة تحييها
 نواسمها³⁸⁶

لقد عاش ابن سعود بعد سلطانه هذا نحو سنة وقد قارب الثمانين من عمره، إذ توفي بفاس يوم الأحد 5 ذي القعدة 789 هـ بعد صلاة العصر وبها دفن.³⁸⁷

التراث العلمي للبيت الخنزاقي وكتاب "تخريج الدلالات السمعية"

باستثناء علي بن سعود لم يترك أعلام البيت تراثا علميا شفويا كان أو مكتوبا، أما التراث الشفوي لعلي بن سعود فاحتفظ لنا به ابن مرزوق الذي اعتمده كمصدر تاريخي مرة واحدة في تأليفه لكتاب "المسند".³⁸⁸ أما تراثه المكتوب فيتمثل في تأليفه المسمى "تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله عليه وسلم من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية"، ألفه أيام عزلته من المناصب السلطانية، يقول في ذلك: "وكنت أشتغل باقتناص شوارده من مكائنها والتقاط فوائده من أماكنها أيام عزلتي عن العمل وعطلتي عن الشغل فما زلت أؤلف وأصنف وأبوب وأرتب وأصحح وأنقح، حتى طلع في رياض الإفادة زهره وسطع في أفق الإجابة بدره، وذلك في أوائل ست وثمان وسبعمئة فجمعت على فريده يد الضنين، ومنعت خريدته من لمع العيون".³⁸⁹

وحسب إحسان عباس محقق الكتاب أن سنوات العزلة تلك تمتد من سنة 776 هـ إلى سنة 786 هـ،³⁹⁰ والتاريخ الأول يحتاج إلى إعادة نظر، فابن مرزوق الذي أنهى كتابه المسند سنة 772 هـ ذكر في تلك السنة أو قبلها بقليل على الأقل شروع ابن سعود في تأليفه "وكان هذا الفاضل (ابن سعود) قد شرع في تصنيف كتاب لا نظير له فيما علمت، ذكر فيه أصول الأعمال الكتابية والولايات الاصطلاحية في الشرع، وجاء من ذلك بالعجب العجاب، ولعل الله يسر في إكماله، وبالجملة فهو غريب حسن"،³⁹¹ أي أنه استغرق أكثر من أربعة عشر سنة من عمره في تأليفه، وهذا ليس بالأمر الهين، وأهدى ابن سعود تأليفه للسلطان موسى بن أبي عنان "جريا على العادة في إتحاف المملوك الخادم لمولاه القادم، وعملا على ما جاء عن النبي ﷺ من الحض على الهدية والأمر بها، وأملا فيما أخبر به -وخبره الحق ووعدته الصدق- من اقتناء المحبة بسببها"،³⁹² وهذا النص يشير إلى محاولة استعادة مكائنه في ظل هذا السلطان مما يؤكد أنه أقصي من المناصب منذ سنة 776 هـ أي العشر سنوات

³⁸⁷ الوشيري. الوفيات، ص 702، ابن القاضي. لفظ الفراء، ص 703، ودرة الحجال، ص 405.

³⁸⁸ ص 363.

³⁸⁹ تخريج الدلالات السمعية، ص 22.

³⁹⁰ مقدمة تخريج الدلالات السمعية، ص 9.

³⁹¹ المسند، ص 415.

³⁹² علي بن سعود. تخريج الدلالات السمعية، ص 23.

ذاك، وليس عزلة اختيارية كما يزعم هو دفاعا عن نفسه وحفظا لكرامته، خصوصا إذا علمنا أن الدولة المرينية منذ ولاية أبي عنان (749-759) إلى ولاية الواثق بالله أبي زيان (788-789) شهدت استبداد الوزراء وقواد الجيش، وسلاطين هذه الفترة قضي عليهم إما بالخلع أو القتل والاعتقال، وبالتالي إبعاد المقربين والموالين لهم من الكتاب والحجاب وغيرهم.¹

أما سبب تأليفه للكتاب فهو ما رآه من تجاسر أنصاف المتعلمين على تبديع الفقهاء والعلماء المشتغلين بالوظائف السلطانية، فكتب ينفي عنهم البدعة مدلا بذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وشواهد تاريخية يحشدونها، وذاكر لنماذج الصحابة والتابعين الذين تولوا الوظائف السلطانية بعد أن أصل لها تأصيلا شرعيا لا يدع مجالاً للرئيسة أو الشك، فهو يقول: "فإني لما رأيت كثيرا ممن لم ترسخ في المعارف قدمه وليس لديه من أدوات الطالب إلا مسداده وقلمه، يحسبون من دفع إلى النظر في كثير من تلك الأعمال في هذه الأوان مبتدعا لا متبعا ومتوغلا في خطة دنية ليس عاملا في عمالة سنية، استخرت الله ﷻ أن أجمع ما تأدى إلي علمه من تلك العمالات في كتاب يضم نثرها ويبين لجاهليها أمرها، فيعترف الجاهل وينصف المتحامل؛ فألفت هذا الكتاب...".

وعن منهجه في ذلك يقول: "ذكرت في كل عمالة منها من ولاة رسول الله ﷺ عليها من الصحابة ليعلم ذلك من يليها الآن فيشكر الله ﷻ على أن استعمله في عمل شرعي، كان يتولاه صاحب من أصحاب النبي ﷺ وأقامه في ذلك مقامه، ويجتهد في إقامة الحق فيه بما يوجبه الشرع ويقتضيه، فيكون قد أحيا سنة وأحرز حسنة".²

وقد قسم علي بن سعود كتابه إلى عشرة أجزاء ثمانية منها في العمالات وجزء واحد في الحرب والصناعات وباب ختامي، وانطوت هذه الأجزاء على 178 بابا مستفيدا بشكل كبير من خبرته في توليه ديوان العساكر (الأشغال) مدة طويلة، لذلك جاء الجزء الخامس وهو في العمالات الجهادية من أكبر الأجزاء إذ احتوى على 45 بابا جمع فيها كل الجوانب المتصلة بمهمات الحرب، وكان للوضع الذي تعيشه الأندلس بالخصوص تحت ضربات النصارى ومحاولات بني مرين المتكررة لاستنقاذ ما أمكن إنقاذه أثر بالغ في ذلك؛ كأنه يستهض هم الجهاد في النفوس الحية، لو وجود نفوسا حية، لكن... "هل يصلح العطار ما أفسده الدهر"؟

أما المؤلفات والمصادر التي اعتمد عليها فقد صرح بها في متن الكتاب ثم أفردها بقائمة خاصة كخاتمة بلغت 166 مصدرا في تخصصات شتى وفنون متنوعة، مما يؤكد سعة إطلاعه واستبحار معارفه في التفسير وأحكام القرآن والحديث وشروحه وعلم الأنساب والكنى والفقهاء وأصوله والتصوف والسير والتراجم واللغة والأدب.

وبذلك جاء الكتاب حلقة في سلسلة من كتب معاصرة كـ مقدمة ابن خلدون ورسائل ابن الخطيب والشهب اللامعة لابن رضوان وواسطة السلوك لأبي حمو الزياني التلمساني وبيدائع السلك لابن الأزرق وغيرها، "وكل تلك الكتب صورة لتفتح العقيرة المغربية تحت أضواء التاريخ لتمثل تنظيرا وتطبيقا لفكر سياسي أصيل، وظهور هذه الكتب في عصر واحد يومية إلى جيشان فكري خاص فإذا كان ابن خلدون يستمد من مفهومه للتطور آرائه في الدولة وفي السياسة، وإذا كان ابن رضوان يستعيد النهج الأخلاقي التطبيقي في سياسة الدول،

¹ أنظر: ابن الأحمر. الفحة النصرية، ص 51 وما بعدها.

² تحرير الدلالات السبعة، ص 22.

وإذا كان أبو حمو يعتمد التجربة الواقعية "الوصولية" مسلكا لتسويغ طموحه، فإن الخزاعي يوحى لأول وهلة بالعودة إلى الأصول، إن إيمانه الضمني بالتطور هو الذي يدفعه للبحث عن الحقائق في بدايات نشأتها في ظل الإسلام وإن إتكائه على الحديث الصحيح - بعد القرآن- يدل على أنه كان يؤمن بأن نواة كل نظام موجودة في أقوال الرسول وأفعاله ﷺ¹.

أهم كتاب الخزاعي "تفريغ الدلالات السمعية" بعض الكتاب والمفكرين في العصر الحديث، فقد لفت انتباه رفاة الطهطاوي -صلته بتفكيره في نظام الدولة- ملخصة في كتابه المعنون بـ "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز".

أما العالم المغربي الشيخ عبد الحي الكتاني الذي أعجب به فيما إعجاب فقد كان كثير الطلب والبحث والتقيب عنه إلى أن عثر على نسخة مخطوطة منه في جامع الزيتونة بتونس أثناء رحلة إليها سنة 1920/1339، وكان إعجابه أكثر بعزوف أهل العلم ورواده عن إحيائه بانتساخه أو التعريف به فضلا عن نشره وطبعه.²

كما يؤكد ومن خلال مطالعته الواسعة أنه لم يقف على من نقل عنه أو ذكره³ من المتقدمين إلى غاية عصر الطهطاوي، ثم محمد بن خوجة الجزائري في مقدمته التي ديج بها للقانون الجزائري وفي عصر الكتاني حيث كثر الكلام عن الخلافة وسلطتها بدأ من يسميهم هو بـ "العصريين" ينقلون عنه لكن بواسطة الطهطاوي.⁴ ومن التناقض أن لا ينقل عنه الأقدمون رغم توافر نسخه فقد ذكر الكتاني أنه كانت منه نسخة بجزارة الأحباس بمكناسة الزيتون وأخرى بالمكتبة المخزنية بفاس الجديدة ونسخة في باريس ونسخة بجامع الزيتونة بتونس، والنسخة التي اطلع عليها الطهطاوي، وكذلك النسخ الثلاث التي اعتمدها إحسان عباس في التحقيق، ونسخة في مكتبة شهيد علي باشا باستانبول ذكرها عادل نويهض في ترجمة ابن سعود المؤلف.⁵

إن هذه الوقائع مجتمعة هي التي دفعت بالكتاني إلى نسج كتاب على منوال "تفريغ الدلالات السمعية" سماه: "نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية" قال عنه: "عملت على الكتابة في هذا الموضوع (النظم) بلسان يناسب روح العصر وقلم يرمي إلى ترجيح مهيع الاختصار، والاختصار على الأرحح والأقيد من غير خروج عن الموضوع"، ثم أخذ يشرح معاناته في البحث عن نسخة كاملة لكتاب ابن سعود لأهميته المنقطعة النظر بالنسبة إليه، ثم معاناته في مطالعته بعد أن ظفر بهذه النسخة في تونس وعكوفه على دراسته ليال وأيام طوال، وبأسف على واقع الأمة التي أهملت تراث مثل هؤلاء الأفاضل لأكثر من خمسة قرون، كادت أن تجعله أثرا بعد عين.

¹ إحسان عباس. مقدمة تفريغ الدلالات السمعية، ص 12.

² عبد الحي الكتاني. التراتيب الإدارية 33/1.

³ سبق أن أشرت إلى كلام ابن مرزوق عن شروع ابن سعود في تأليف هذا الكتاب، ويظهر أن الكتاني لم يطلع على كتابه المستند الذي بدأ الاهتمام به سنة 1925 على يد المستشرق ليفي بروفنسال اعتمادا على مخطوط الأسكوريال، ثم اكتشف مخطوط ثان في الرباط سنوات بعد ذلك، أنظر: ماريبا عيسوس ييفوا، مقدمة الدراسة للرفقة بكتاب المستند، ص 13، 60.

⁴ الكتاني. التراتيب الإدارية 42/1.

⁵ التراتيب الإدارية 41-42، مقدمة تفريغ الدلالات السمعية، ص 13-15، معجم أعلام الجزائر، ص 133.

ثم يستأنف يقول: "وقد كنت طالما طالعتَه وسامرتَه وصاحبتَه معي في أسفاري وفي كل موطن منها أحضرته، أجد أنه لو نسج على منواله واعتنى بالزيادة عليه والاستدراك طبق أماله، لكان الموضوع قابلاً للزيادة عند من يعتنى بالإفادة والإحادة... فانتهزت فرصة من فرص الزمان الذي كان بما قبلُ بخل وُضن، وجمعت هذه الرسالة التي استغرقت فيها أربعة أشهر أو أزيد وطالعت عليها حل مكتبي التي فيها والحمد لله ما هو أجمع وأفيد"¹، وأخرج الكتاني هذا الكتاب في جزئين وطبع عدة طبعات، أما الكتاب "الملهم" فقد طبع لأول مرة سنة 1981 بمصر حققه أحمد محمد أبو السلامة من مشائخ الأزهر، ثم حققه إحسان عباس ونشره سنة 1985 وكان قد بدأ العمل في تحقيقه قبل ظهور طبعة مصر.²

إن الكتاب "تخريج الدلالات" وإن ألقه ابن سعود في فاس إلا أن الأثر التلمساني فيه لا يفارقه ولا ينزع فيه أحد، فقد تنبه الكتاني إلى أن عنوان الكتاب "ينم عن بلده ومسقط رأسه ومحل تربيته، فإن استعمال جملة "الدلالات" مع وصفها "السمعية" وجعلها عنوان الكتاب لا يصدر غالباً إلا ممن قصر نفسه على علم الكلام أو زاوله مزاولة طويلة، وهذا الشأن كان في التلمسانيين" قد تربعوا على عرشه لا ينافسون فيه.³

¹ الترتيب الإداري 33-34.

² إحسان عباس. مقدمة تخريج الدلالات السمعية، ص 16.

³ الترتيب الإداري 40/1.

البيت العقباني: بيت العلم والاجتهاد والقضاء (716-1080هـ)

نسب العقبانيين وأوليتهم

نسب البيت العقباني وموطنهم الأصلي محل اضطراب بين الروايات التاريخية، فحسب السخاوي والقرافي¹ أنهم من بني عقبة أحفاد الفاتح الشهير عقبة بن نافع² وهما ينفردان بهذا الرأي، وكوئهما من مؤرخي المشرق فذلك يعطي فرصة الشك أكثر في صحة ما ذهبوا إليه، فأحفاد عقبة انتشروا في كل الغرب الإسلامي بما فيه الأندلس فلا وجود لمرجع يرجح أصالتهم في تلمسان، كما أن بقية الروايات تكاد تجمع على انتسابهم في تيجيب وعقبة ينتسب في فهر.³

والرواية الثانية حديثة نسبياً، فقد ذكر العباس المراكشي⁴ نقلاً عن فهرسة المرغيني؟ - وهو يتبنى رأيه - أن العقبانيين نسبة لعقبان إحدى أحياء الخلط، وبالرجوع إلى تاريخ ابن خلدون وهو الأكثر تفصيلاً لأحياء العرب وبطونها من بني هلال وبني سليم وعرب الفتح لا نجد ذكراً لما نسبته عباس المرغيني. في حين يرى الونشريسي والتنبكتي وابن مريم وابن القاضي وبعض المعاصرين⁵ أن أصل البيت من قرية العقبان إحدى قرى الأندلس.

وبالرجوع كذلك إلى المدونات الجغرافية لا نجد ذكراً لهذه القرية مطلقاً سواء في الأندلس أو حتى في المغرب والمشرق،⁶ فالمدكور مدينة العقبان على مسافة 30 ميلاً من تلمسان وقد فتحت في ولاية عقبة بن نافع الثانية، وهي كما يشاع "مدينة لها خمسة وثلاثون باباً وعشرة أسوار عريضة... وبداخلها قصور مشيدة نحو الخمسين مختلفة الأشكال، وفيها من الأشجار والثمار ما يفوق الوصف، وفي كل قصر مائة جارية من البنات الأبيكار، وكانت لؤلؤة الطرف (الملكة) تداول المبيت فيها فتقضي ليلة في كل قصر، وكانت هذه الأرض يسكنها العقبان (نوع من الطيور)... ويذكر أن أبا لؤلؤة هو الذي بناها.. وتم بناؤها بعد 15 سنة".⁷

وهذه الفقرة الوحيدة التي تتكلم عن وجود مدينة العقبان بالمغرب الأوسط، وقد وردت في كتاب "فتوح إفريقية" لأبي عمر الواقدي (تـ 207 هـ)، ونسبة الكتاب للواقدي غير ثابتة، فلم ينسبه له من أفرده بترجمة⁸ مع

¹ - الضوء اللامع 181/6، توشيح الدهاج، ص 152.

² - أنظر عن عقبة بن نافع وبنه وقبيلته: موسى لقبال. عقبة بن نافع أساس نظام الفهريين وتأسيس مجتمع إسلامي جديد في المغرب العربي. الجزائر: دار هومة، 2002. (126 ص).

³ - نسبة إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة المضري القرشي. أنظر: الحازمي. عجالة المبتدى، ص 144.

⁴ - الإعلام 138/10.

⁵ - الوفيات، ص 726، النبل 204/1 والكفاية، ص 138، البستان، ص 107. درة الحجال، ص 431 ولقط الفرائد، ص 726، رابع بونار. القاضي سعيد العقباني التلمساني. مجلة الأصالة عدد 6 جانفي 1972، ص 66.

⁶ - ورد عند الزبيدي قوله: "وعقبان قرية بالأندلس نسب إليها جماعة من أعيان المالكية بتلمسان"، فهو يدل على وجود هذا الموضع بناء على ما ورد في تراجم العقبانيين موضع الدراسة لا أكثر. أنظر: تاج العروس 423/3.

⁷ - الواقدي. فتوح إفريقية، تونس. مكتبة المنار، 57/2-58.

⁸ - ابن النديم. الفهرسة، ص 142، ياقوت الحموي. إرشاد الأريب 2598/5، الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد 5/4-31.

ذكرهم لفتوح الشام وفتوح العراق من مؤلفاته، كما أننا لا نجد له ذكراً في كتب الجيولوجيا المختلفة،¹ باستثناء بروكلمان وفؤاد سزكين وحسين وحمة النعيمي، وعدّد هذان الأخيران خمسة نسخ مخطوطة للكتاب بتونس² ووجود هذا العدد في تونس دون غيرها يثير الشكوك، كما أن الكتاب يختلف في أسلوبه عن كتاب فتوح الشام ويمتاز بطابع أسطوري واضح، بالإضافة إلى ورود أحداث مؤرخة بسنوات بعد وفاة الواقدي، مما ينفي يقيناً نسبة الكتاب له، وهو في حقيقة تأليف مغربي متأخر، وعليه فلا يمكن أن نبي أحكاماً على معلومات لا سند لها من الصحة.

في حين يرد ذكر لقرية العقبانية بالأندلس عند المقرئ الذي ينقل عن ذي الوزارتين ابن شهيد القرطبي في إحدى رسائله للخليفة الأموي الناصر لدين الله، مؤرخة في 8 جمادى 327 جاء فيها: "... ولما علمت تطلع - أيده الله تعالى - إلى قرية كذا بالعقبانية المنقطعة الغرس في شرقها وترداده أيده الله تعالى لذكرها..."³.

أما ابن الأبار⁴ لما ترجم للمقرئ إبراهيم بن محمد النفري (تـ564هـ) ذكر أنه من قرية "بني عقبة" من "بيران" عمل "دانية" شرق الأندلس على ساحل البحر المتوسط، فلا يستبعد أن تكون هي نفسها قرية العقبان التي ينتسب إليها البيت العقباني، خصوصاً وأن هجرة جالية شرق الأندلس كانت ذات حجم كبير في القرنين السابع والثامن نحو تلمسان ومجاية.

وبخصوص نسب البيت العقباني فإن من نسبه إلى الأندلس ينسبه في قبيلة تميم، القبيلة الكندية الحميرية القحطانية اليمنية الأصل شأن البيت الصمادحي المستقرين بتلمس.

الحضور الوظيفي للبيت العقباني في تلمسان واحتكار منصب قضاء الجماعة

نشأة البيت العقباني في مراحل الأولى تنعدم معه أي إشارة من شأنها أن ترسم معالم تأسيسه، سواء في الأندلس أو بعد هجرته إلى تلمسان، إذ سوف نرى فجأة شخصية سعيد بن محمد بن محمد العقباني كأحد أبرز علماء تلمسان في القرن الثامن، فقد ولد بتلمسان سنة 716 هـ،⁵ وهذا يؤكد أن والده محمد على الأقل هو الداخل إلى تلمسان مستوطناً لها قبل التاريخ المذكور، ويبدو أنه لم يكن ذا شأن أو حضور علمي أو سياسي بارز، حيث يؤكد صاحب "بغية الرواد"⁶ أن سعيد العقباني هو مؤسس البيت الأول.

¹ - حاجي خليفة. كشف الضنون 2/ 127-1240، إسماعيل باشا البغدادي. لهضاح المكنون 2/ 177-179، وهديسة العارفين 2/ 10، كحالة. معجم المؤلفين 3/ 568.

² - تاريخ الأدب العربي 3/ 19، تاريخ التراث العربي، 104/2/1. المستدرجات على تاريخ التراث العربي 6/ 125.

³ - أزهار الرياض 2/ 261.

⁴ - التكملة 1/ 125، بن منصور. أعلام المغرب العربي 1/ 66.

⁵ - ذكر المجلدي أنه لقبه سنة 798 وكان عمره آنذاك 82 سنة وهذا يعني أنه ولد سنة 716 هـ، وصرح ابنه قاسم أنه ولد إما سنة 716 أو 717 هـ، أنظر: برنامج المجلدي، ص 132، السحاي. الضوء اللامع 6/ 181، في حين يرى ابن مريم والتبكي وابن مخلوف والحفناوي أنه ولد سنة 720 أنظر. البستان، ص 107، النبل 1/ 204 والكفاية، ص 139. شجرة النور، ص 250 تعريف الخلف، ص 162.

⁶ - يحيى بن مخلد 1/ 123.

نشأ سعيد العقباني نشأة علمية ستمتد في كل أعقابه وتصبح منهجا لا يجيد عنه الأحفاد، فقد أخذ عن علماء تلمسان الزاخرة بأرباب المعارف العقلية والنقلية وعن غير علماء تلمسان، من أمثال الفقيهان الميرزان ابني الإمام أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى البرشكيان التلمسانيان، ومحمد بن إبراهيم الأبلبي الأصل التلمساني الشهير بالمعلم الأصغر شيخ المغرب في المعقول والتعاليم (الرياضيات)، والشيخ الفرضي الفقيه الحافظ محمد بن سليمان السطبي الفاسي والعلامة الفقيه أبي عبد الله محمد الشريف التلمساني والعالم الرياضي أحمد ابن البناء المراكشي والفقيه محمد بن عبد السلام الهواري قاضي الجماعة وشيخ الإسلام بتونس، وقرأ على السلطان المريني العالم أبي عنان وروى عنه المدونة وصحيح البخاري، وأخذ كذلك عن عالم بجاية أبي عمران المشدالي.¹

فتنوع ثقافة شيوخه وشموليتها وانسحابها على مختلف فنون المعرفة كان له أثر إيجابي في تكوين أبي عثمان سعيد العقباني، وانطبعت بقوة في شخصيته وأهلته لأن يكون أحد أعلام الثقافة المرزانية في الغرب الإسلامي بأقطاره المتعددة، فقد وصفه ابن فرحون بـ "العالم الفاضل وفقه مذهب مالك المتفنن في العلوم"، ووصفه يحيى بن خلدون بالفقيه "ذو نبيل ونباهة، دراية وتقنن في العلوم ومعرفة بالحساب والهندسة"، ووصفه الونشريسي بـ "الإمام العالم الأصولي الفاضل"، ووصفه المجاري بـ "الإمام المحقق وحيد أهل زمانه في المعقول وقدوتهم في المنقول"، وقال عنه بعض علماء تلمسان: "إمام فاضل فقيه متفنن في علوم شتى... ويقال رئيس العلماء والعقلاء"، ووصفه أحد أقرانه بـ "الفقيه الأجل المدرس المفتي العالم العلامة الأستاذ الأعرف المشاور خطيب الحضرة العلمية المتوكلية الزيانية"²، وستأكد هذه الأوصاف أكثر حين نذكر المجالات التي ألف فيها.

كانت لسعيد العقباني مخالطة - لم تُب عنها المصادر - بالسلطان المريني أبي عنان (749-759) منذ استيلاءه على تلمسان في سنوات حكمه الأولى، وهي العلاقة التي أسفرت عن اختياره قاضيا لبجاية في حدود سنة 754 هـ، بعد أن دخلت تحت نفوذه "والعلماء يومئذ متوافرون" سواء في بجاية أو في تلمسان أو في فاس حيث جلس السلطان يغص بكبار العلماء، مما يضيف صفة الرفعة والمكانة المرموقة على القاضي الجديد، وبعد مدة نقل إلى قضاء عدة مدن بالمغرب الأوسط والأقصى كقضاء هنين ووهران وسلا ومراكش في ظروف وفترات غير معلومة،³ والأكيد أن مدة إقامته بهذه المدن لم تكن بالقصيرة بل فترات معتبرة فسحت له المجال للتأليف كما سآيين في موضعه.

ويظهر حسب وصف المازوني له أنه تخطط بإحدى الوظائف العدلية القضائية بتلمسان وهي خطة الشورى قبل أن يتولى القضاء للسلطان أبي عنان.

لقد انتهى المطاف بسعيد العقباني في مسيرته القضائية إلى تولي أعلى رتبها بتلمسان الزيانية، وهي رتبة قاضي

¹ - يحيى بن خلدون. بغية الرواد 1/130، ابن فرحون. الدهاج، ص 205، المجاري. البرنامج، ص 130-132، ابن مريم. البستان، ص 107.

² - أنظر على التوالي: الدهاج، ص 205، بغية الرواد 1/123، الوفيات، ص 726، برنامج المجاري، ص 129، البستان، ص 107، المازوني. الدرر المكتوبة 228/3.

³ - يحيى بن خلدون. بغية الرواد 1/123، الونشريسي. الوفيات، ص 726، عبد الحميد حاجيات. الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بن زيان. مجلة الأصالة عدد 26، 1975. ص 145.

الجماعة، يوم 11 شعبان سنة 767 هـ في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791)، على إثر وفاة القاضي أبي العباس أحمد بن الحسن.¹

فقد كان الزياتيون يختارون لمنصب قاضي الجماعة أكفأ الفقهاء علما وأخلاقا ونزاهة، وهو ما تعبر عنه وصية السلطان العالم أبي حمو لولي عهده في قوله: "يا بني وأما قضاتك فيجب عليك أن تتخذ قاضيا من فقهاءك أفضلهم في متانة الدين وأرغيبهم في مصالح المسلمين، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يسمح لظلامه ظالم، ولا يعثر برشا، ولا يعلق دلوه منه برشا، يساوي بين الشريف والمشروف، والقوي والضعيف، عالما بتنفيذ الأحكام، مفرقا بين الحلال والحرام قاضيا بالعدل، آخذا بالفضل موجزا منجزا في الفصل"²، ليس هذا فحسب بل ينصح أبو حمو ولي عهده أن يختار قاضيه بالاعتماد على الفراسة، فإن أدرك ميله إلى المنصب رغبة وحبا فذلك دليل ضعفه فليعدل عنه إلى غيره، كما يستحسن له أن يمتحنه فيعرض عليه مسألة يدعي له فيها أنها تؤرقه ويبغي أن يرخص له فيها، فإذا سارع المرشح للقضاء بالفتوى والرخصة وعلى غير مذهب الإمام مالك إرضاء للسلطان، فلا يتأني ولا يتأخر في إبعاده وإقصائه³، ولا غرو من هذه الشروط وذلك التشديد، فالقاضي "ميزان الملك من رعيته"⁴.

رغم هذا التشديد في الاختيار والتأكيد على الكفاءة والنزاهة التي وجدت حقيقة في سعيد العقباني كما يشهد المؤرخون، إذ عده ابن سعد التلمساني الأندلسي (تـ 901 هـ) "خاتمة قضاة العدل بتلمسان"، وقال يحيى بن خلدون عنه بعد أن عدّد المدن التي تولى قضاءها: "فحمدت في جميعها سيره، عدلا وجزالة"⁵، إلا أن ذلك لم يكن ليحد من اكتسابه الوجاهة والامتيازات له ولبنيه بشكل عرضي غير مقصود.

لقد جمع سعيد العقباني مع القضاء الخطابة في الجامع الأعظم بتلمسان على الأقل منذ سنة 770 هـ، فقد ورد في نص شهادة مؤرخه في أوائل ربيع الثاني من السنة المذكورة العبارة الآتية: "أشهد الفقيه من خطيب الحضرة العلمية [كذا، والصحيح العلية]... قاضي الجماعة بتلمسان أبو عثمان سعيد العقباني"⁶.

وإلى جانب ذلك اشتغل بالتدريس بالمسجد الجامع والمدرسة⁷ التاشفينية، وهي مدرسة من طراز المدارس النظامية التي لم تظهر في المغرب الأوسط إلا في مطلع القرن 8 هـ بتلمسان.⁸ واشتغل كذلك بالفتوى التي كان أحد أعمدتها والمتضلعين فيها وعليها تقوم شهرته فلا يشق له غبار فيها.

¹ - يحيى بن خلدون. بهية الرواد 166/2.

² - واسطة السلوك، ص 61-62.

³ - واسطة السلوك، ص 147-148، بوزيان الدراجي. نظم الحكم، ص 241 وبشكل عام أنظر منظومة القضاء الزياتية:

Atalla Dhina. *Le royaume Abdelouadide*. op. cit. p.116.
Same author. *Les Etats de l'occident musulman*. op. cit.

⁴ - ابن أبي الربيع. سلوك المالك في تدبير الممالك، ص 113.

⁵ - ابن مريم. المسغان، ص 107، بهية الرواد 123/1.

⁶ - المازوني. الدرر المكنونة. 228/3.

⁷ - البخاري. برنامج، ص 129.

⁸ - أنظر عنها: فيلاي. تلمسان في العهد الزياتي، 1/ 141-145، صابرة خليف. فقهاء تلمسان والسلطة الزياتية، ص 277-287، عبد الحليل قرياني. السياسة التعليمية للدولة الزياتية، 70-79، 99-102.

وتوفي أبو عثمان سعيد هذا سنة 811 هـ؛¹ عن سن عالية فهاجر 95 عاماً، وكانت مدة ولايته للقضاء أكثر من خمسين سنة كما صرح هو بذلك أيام حياته.²

خلف أبو عثمان سعيد ابنه قاسم أبو الفضل والمكثي أيضاً بأبي القاسم، ولد بتلمسان سنة 768 هـ ونشأ نشأة علمية شأن أبيه، ومن الغريب ألا يذكر من شيوخه إلى ثلاث فقط، وهم: والده سعيد الذي تفقه عليه منذ البداية وكان جل أعضده عليه لملازمته الطويلة له، والحافظ ابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) الذي حضر مجلس إملائه وأجازه أثناء رحلته إلى مصر في طريقه إلى الحج سنة 830 هـ، وكذا حضر درس العلامة شمس الدين محمد البساطي قاضي القضاة بمصر (ت 842 هـ)،³ وشهرته تقتضي أن يكونوا أكثر من ذلك بكثير يقيناً.

نسخ قاسم بن سعيد العقباني في الفقه والفتوى والحساب والحديث والأصول والتفسير والبيان واللغة، وظهر ذلك عليه منذ صغره، وامتلاكه لأدوات العلم هذه مكنته من الوصول إلى رتبة الاجتهاد، الرتبة التي ادعاها لنفسه كما ادعاها الإمام الشاطبي⁴ وأقرها له غيره.⁵

وصفه المازوني النوازي بـ "شيخ الإسلام"، ووصفه القلصادي تلميذه بوصف مطول يبين حقيقة ما وصل إليه من العلم، فقال: "الإمام الفقيه المعمر ملحق الأصاغر بالأكابر العلم النظراء والأقران المرتقي درجة الاجتهاد بالدليل والبرهان، سيدي أبو الفضل قاسم العقباني رضي الله عنه، ذو أمة وهما وحبوة مملوءة من علم، خالية من إزدهاء، وخلقة سمت في مطالع الحسن إلى أسمى كمال وأكمل انتهاء، إنفرد بفني المعقول والمنقول، واتحد في علمي اللسان والبيان، وهو فيما عدا ذلك يفوق الصدور، ويقبض على مزاحمة البحور"،⁶ ووصفه التنبكّي والحجوي بـ "شيخ الإسلام ومفتي الأنام الفرد العلامة الحافظ القدوة العارف المجتهد المعمر ملحق الأحفاد بالأجداد القدوة الرحلة الحاج".⁷

ولي قاسم بن سعيد القضاء في صغره وفي حياة أبيه بإحدى مدن مملكة بني زيان، ثم خلف أباه بعد وفاته سنة 811 هـ في قضاء الجماعة لمكانة أبيه من الدولة وربما ترشيح منه، واشتغل أيضاً بالتدريس وعكف على التعليم والتأليف والإفتاء، قال القلصادي: "ولي القضاء بتلمسان في صغره ورأى أمله في ذريته في كبره، وأحرز في العلوم قصب السبق وحازره وقطع فيه صدر العمر، وأمتع جهابذة النقاد وأسمع كل الأسماع ما انتهى وأراد".⁸

¹ - الونشريسي. الوفيات، ص 726، ابن القاضي. لفظ الفوائد، ص 726، وخالف في ذلك السحاري. فذكر أن وفاته كانت سنة 804 وهو وغم. أنظر: الضوء اللامع 255/3.

² - الونشريسي. المعيار 44/6.

³ - السحاري. الضوء اللامع 181/6، القراني. توضح الديهاج، ص 152.

⁴ - التنبكّي. النيل 398/1.

⁵ - القلصادي. رحلة، ص 106، التنبكّي. النيل 12/1، الحفناوي. تعريف الخلف، ص 90.

⁶ - رحلة القلصادي، ص 106.

⁷ - النيل 12/2، الفكر السامي 305/4.

⁸ - الرحلة، ص 107، ونقل عنه ذلك التنبكّي في النيل 14/2.

وكان محمود السيرة في قضائه وتدرسه، وأخلاقه حسنة مرضية دمتة "قل أن يرى الراؤون مثلها"، واستمر حاله كذلك إلا أن وافته منيته سنة 854 هـ من شهر ذي القعدة، وصلى عليه الجنائز بالجامع الأعظم، وكانت جنازته تلك مشهودة حضرها السلطان المعتمد بالله أبو العباس أحمد (834-866) ناهيك عن دونه، ودفن بغربي الروضة قرب ضريح ابن مرزوق الخطيب،¹ وعمره إذ ذاك 86 عاما وله في قضاء الجماعة نصف عمره أي 43 عاما، وأكثر منها في التدريس والفتوى.

خلف أبو الفضل قاسم العقباني ثلاث أبناء نبيهاء نجباء هم: أحمد وإبراهيم أبو سالم ومحمد.

أما أحمد فليست لدينا معلومات وافية عنه، غير ما تعلق بتوليه قضاء تلمسان وموته في حياة أبيه سنة 840 هـ،² مما يؤكد أنه توفي صغيرا، لذا لم يشتهر كثيرا ولم يكن له حضور بارز.

والأمر نفسه تقريبا يتكرر مع أخيه محمد، فلا نملك معلومات مفصلة عنه، فقد أقحم السخاوي³ اسمه فقط دون أن يترجم له، مما يوحي أنه لم يكن معروفا أو ميرزا لعدم امتلاكه لبضاعة العلماء والأعيان، التي تسمح له بإدراج اسمه بصفة واقعية في كتب الطبقات والتراجم.

وقد أخطأ عبد الباسط الملطي⁴ وتبعه في ذلك عبد السلام تدمري في حديثهما عن القاضي السفير محمد العقباني وهما يظنان أنه ابن قاسم العقباني وأخ إبراهيم أبو سالم،⁵ وهو غير هذه الشخصية كما سألين في موضعه. أما أبو سالم إبراهيم فقد ولد سنة 808 هـ في أحضان أسرة اتضحت معالمها العلمية وذاع صيتها وسمق فضلها وبانت عراقتها، فقد أدرك الجد سعيد العقباني والأب قاسم والأخ أحمد فأخذ عن هذين الأخيرين خاصة وعن غيرها ممن تجاوزته المصادر التاريخية ولم تذكره، فـ "حصل وبرع" في الفقه خاصة، واشتغل بالتدريس والفتوى وولي الخطابة بالجامع الأعظم بتلمسان قبل سنة 866 هـ، ثم ولي قضاء الجماعة بعد عزل ابن أخيه محمد بن أحمد في حدود سنة 870 هـ.

قال عنه الشيخ زروق الفاسي: "كان أبو سالم هذا فقيها تولى القضاء بتلمسان وكان شكورا"، ووصفه ابن مريم بـ "العالم العلامة الحافظ".⁶

وتوفي القاضي أبو سالم إبراهيم سنة 880 هـ.⁷

¹ - القلصادي، رحلة، ص 107، التبيكتي. النبل 13/2-14.

² - التبيكتي. النبل 121/1. والكفاية 60، الخفناوي. تعريف الخلف. ص 77، وذكر ابن القاضي تاريخين مختلفين في وفاته فسذكر 840 هـ و 845 هـ، أنظر: لفظ الفرائد ص 746 و درة المجال، ص 36.

³ - الضوء اللامع 281/9.

⁴ - هو عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري، ولد بملطية من مدن تركيا الحالية واستقر بمصر، كانت له رحلة إلى المغرب والأندلس دخل بجاية وتلمسان ووهران وذلك سنة 867 هـ، توفي عام 920 هـ، أنظر: محمد كمال الدين عز الدين. عبد الباسط الحنفي مؤرخا، ط 1، بيروت: عالم الكتب، 1410-1990، (ص 247)، كراتسكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 482، الدفاع. رواد علم الجغرافيا، ص 237، زكي محمد حسن. الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص 172-177. بسري عبد الغني. معجم المؤرخين المسلمين، ص 116-118.

⁵ - الروض الباسم، ص 44، 56، مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في المغرب والأندلس، عدد 17، ص 111.

⁶ - عبد الباسط الملطي. الروض الباسم، ص 44، التبيكتي. النبل 56/1، ابن مريم. البستان، ص 57، بن منصور. أعلام المغرب العربي 141/1.

⁷ - وأخطأ السخاوي حين أرخ وفاته بسنة 871 هـ في حادثة الطاعون. أنظر: الضوء اللامع 117/1، وأخطأ ابن القاضي أيضا حين أرخ وفاته بسنة ميلاده أي 808 هـ، أنظر: درة المجال، ص 101، وذكر الصواب في: لفظ الفرائد، ص 784.

خلف أحمد بن قاسم العقباني - المذكور قبل - عدة أبناء منهم الناهين ومنهم الخاملين وهم: محمد وعبد الواحد ويحيى.

فأشهرهم محمد، ويظهر أنه أسن من عمه أبي سالم إبراهيم، أخذ العلم عن أبيه وجده قاسم وأكثر عنهما وبرع هو الآخر في الفقه، فولي قضاء الجماعة بتلمسان بعد وفاة جده قاسم قبل سنة 766 هـ، ثم عزل من منصبه بعد خمس سنوات من ذلك وولي مكانه عمه أبو سالم إبراهيم.

قال عنه أحمد زروق: "كان فقيها عارفا بالتوازل وملكة في التصوف"، ووصفه الونشريسي بقوله: "شيخنا الحاج الإمام القاضي العلامة"، ووصفه ابن مريم بـ "الفقيه العالم العلامة الحاج الرحلة المتقن البارغ"، إذ كانت له رحلة حج فيها وزار، وتوفي يوم 23 ذي الحجة سنة 871 هـ.¹

ولي بعد وفاته: أخوه أبو يحيى قضاء الجماعة من سنة 871 هـ إلى غاية 876 هـ سنة وفاته، وكان إلى ذلك من المشتغلين بالتدريس والتعليم، وهو الذي ذكره القرافي باسم يحيى ولم يترجم له.² أما الأخ الثالث لهما وهو عبد الواحد فقد ولي قضاء الجماعة هو الآخر بتلمسان ربما بعد أخيه أبي يحيى مباشرة سنة 876 هـ إلى غاية وفاته سنة 896 هـ،³ وهو مما يستدرك على بوزياني الدراجي في القائمة التي أعدها لقضاة الدولة الزيانية.⁴

وهذا يكون البيت العقباني قد احتكر أعلى منصب قضائي في الدولة الزيانية لأكثر من قرن وربع قرن (من سنة 767 حتى سنة 896 هـ، أي 129 عاما).

وبعد هولاء الأعلام قضاة الجماعة سيظهر آخر اسم في البيت العقباني من خلال المصادر التاريخية المكتوبة، والمعنى هنا هو أبو العباس أحمد بن قاسم الفقيه، نقيه ابن عسكر الشفشاوني عدة مرات إحداها لما قدم فاس مع صاحبيه أبي العباس أحمد بن أحمد العبادي (تـ 985 هـ) ومحمد شقرون بن هبة الله الوجديجي (تـ 983 هـ) التلمسانيين في نهاية العصر الوسيط، وبفاس تصدر للتدريس والإقراء بجامع القرويين نحو 20 سنة، وصفه ابن عسكر الشفشاوني بأنه كان دون صاحبيه المذكورين "في إدراك العلوم".

إلا أن ذلك لا يعني مطلقا نزوله عن رتبة "الفقيه"، "المدرّس"، فقد وصفه ابن عسكر نفسه بامتلاك "حصّة مباركة من الفقه"، كما أن التصدي للتدريس في جامع القرويين لا يتأتى إلا لمن كان راسخا في العلم ممن حصل على إجازة أو إجازات تسمح له بمباشرة الوظيفة، وبمر قبل ذلك بامتحان يجيب فيه عن أسئلة الشيوخ ويوفى في إلقاء درس في التوحيد والنحو والفقه والموارث وغيرها، وبعدها يحضر قاضي المدينة الذي هو بمثابة

¹ - عبد الباسط الملقى. الروض الباسم، ص 44، الونشريسي. الوفيات، ص 778، التنبكي. النبل 2/232، ابن مريم. البستان، ص 224، ابن القاضي. لفظ الفرائد، ص 778.

² - الونشريسي. الوفيات، ص 782، القرائ. توضيح الديهاج، ص 253.

³ - التنبكي. النبل 2/322 والكفاية، ص 213.

⁴ - نظم الحكم لى دولة بني عبد الواحد، ص 242-243.

مدير الجامعة في نفس الوقت ليقره في منصبه إذا نجح،¹ ويظهر أنه توفي بفاس حوالي سنة 989 هـ² وهو مما يستدرك على صاحب كتاب "العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية".

متأخر البيت العقباني في مصادر جديدة: (الكتابة الجنازيرة)

لم تنقطع أخبار البيت العقباني بسكوت المصادر التاريخية المكتوبة ولم يتوقف الأعتاب النجباء عن الاستمرار في إذكاء شعلة "العلم والفضل" والحفاظ عليها متوقدة، رغم جور الكتابة التاريخية أحيانا، فمن حسن طالع هذا البيت - وهو الوحيد في ذلك - أن يذكروا لكن بعد موته، وهذا من خلال شواهد قبورهم المحفوظة في متحف تلمسان بعد نقلها من مقبرة سلاطين بني زيان المعروفة باسم "مقبرة سيدي إبراهيم".

فمن خلال التحليات والألقاب وتواريخ الوفاة يمكن أن نستخلص بعض المعلومات القيمة عن نشاط هؤلاء الأعلام، وعن مستواياهم العلمية الفكرية وكذلك عن المناصب التي شغلوها، وسأدرج هنا هذه الكتابات الجنازيرة مع التعليق عليها ما أمكن، وهي على النحو التالي:

- 1) "الحرّة الجليلية زينب بنت السيد الفقيه العالم أبي العباس أحمد بن أبي يحيى العقباني"، توفيت في سنة 991 هـ.
- 2) "الحرّة المصونة الدرّة المكنونة أمة الحق بنت السيد الفقيه العالم أبي العباس أحمد العقباني"، توفيت أوائل جمادى الآخرة سنة 964 هـ.
- 3) "الحرّة الجليلية فتوحة أم ولد السيد الفقيه العالم (كلمة غير مقروءة) أبو العباس أحمد العقاباني"، توفيت أواسط جمادى الأولى سنة 964 هـ.
- 4) "الشاب المكرم الأفضل الأجود أبو عبد الله محمد الخروبي ابن السيد الفقيه أحمد العقباني"، توفي أوائل رجب سنة 964 هـ.
- 5) "الحرّة المصونة الماجدة الجليلية رحمونة بنت السيد الفقيه أبي عبد الله محمد بن القاضي أبي يحيى العقباني"، توفيت سنة 941 هـ.
- 6) "الحرّة الجليلية الماجدة الأصيلة عوالي بنت السيد الفقيه العالم العلم القاضي أبي العباس أحمد العقباني"، توفيت أواخر صفر سنة 979 هـ.
- 7) "الحرّة الجليلية المغفور لها أمة الحق بنت السيد الفقيه العالم المدرس القاضي أبي يحيى العقباني"، توفيت يوم الجمعة 17 شوال 987 هـ.
- 8) "الحرّة الجليلية بنت الفقيه الإمام أبي العباس أحمد الخطيب أبا عبد الله محمد بن إبراهيم العقباني"، توفيت أوائل جمادى الآخرة سنة 990 هـ.
- 9) "التاجر الجليل أبي زيد عبد الرحمن بن الفقيه العالم أبي العباس أحمد العقباني"، توفي أوائل محرم سنة 1017 هـ.
- 10) "الصبية شاشة بنت الفقيه العالم السيد محمد العقباني"، توفيت أواخر رمضان 1020 هـ.

1- محمد حرماش. نظام التعليم باللغتين بين القديم والحديث "قراءة في الاصطلاحات العربية"، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد خاص، ص 120.

2- الشفشاوني. دوحه الناشر، ص 123، ابن إدريس الكاوي. سلوة الأنفاس 3/313.

- 11) "السيد الأفضل الفقيه الأجل التالي لكتاب الله عز وجل سعيد بن السيد الفقيه المحدث الفصيح البليغ أحمد بن محمد العقباتي"، توفي يوم الثلاثاء 28 ذي الحجة 1085 هـ.
- 12) "الفقيه الإمام العالم المفتي المدرس المحقق قاضي الجماعة بتلمسان أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن محمد العقباتي"، توفي يوم 23 ذي الحجة 871 هـ.
- 13) "الشاب الأسعد التالي كتاب الله تعالى: السيد محمد العقباتي ابن الفقيه الأجل الأديب الأزيد الكاتب السيد محمد خوجة ابن التقي النقي السيد محمد السقال" المتوفى سنة 1002¹.
- أشير هنا قبل التعليق إلى نقطتين، الأولى: تتعلق بالكتابة الثالث عشر المتضمنة اسم القاضي محمد بن أحمد ابن قاسم العقباتي المتوفى سنة 871 هـ، فهو معروف في كتب الطبقات وقد ذكرته قبل، أما النقطة الثانية: فتتعلق بخطأ ورد في الكتابة الأولى بخصوص وفاة المسماة زينب بنت أحمد بن أبي يحيى العقباتي، حينما ورد في الأصل أنها توفيت سنة 791 هـ وهو خطأ إما مطبعي أو قراءة واهمة لشاهد القبر في الأصل، صحفت فيها تسعمائة إلى سبعمائة، فمن المعروف أن الجد أبو يحيى توفي سنة 876 هـ كما أشرت في موضعه ومن غير المعقول أن تورخ وفاة الحفيدة بخمسة وثمانين سنة قبل تاريخ وفاة الجد، فالصحيح ما أثبتته في البداية أي 991 هـ.
- لقد تضمنت الكتابة الجنائزية إشارة إلى ثمانية نسوة من البيت العقباتي، وخلوهم من التحلية العلمية وعدم ذكر أسماء بعضهن والاكتفاء بلقب "أمة الحق" يدل على أنه لم يكن لهن حضور في الحياة العلمية - صناعة الأسرة- ووظائفهن هي على غرار وظيفة المرأة القروسطية التقليدية أي خدمة البيت بجميع مستوياته.²
- وإحدى هاته النسوة هي زوجة الفقيه أبي العباس أحمد، فانتسابها إلى زوجها دون أبيها كما هو الأصل شرعا وعرفا يدل على أن متأخري البيت العقباتي لم يكونوا يصهرون في البيوتات النبوية المشهورة، بل إلى من هم دونهم شأنًا وأقلهم مكانة، فالمرء حريص على الانتساب دائما إلى من هو أفضل وأعرق نسبا.
- إن شواهد هذه القبور تضيف لنا أسماء ووظائف جديدة في سلسلة البيت العقباتي فثلاثة منها تحمل نفس الكنية ونفس الاسم.
- فلدينا أبو العباس أحمد "الفقيه العالم"، وهو ابن قاضي الجماعة أبي يحيى المتوفى سنة 876 هـ يكون قد اشتغل بالتدريس والفتوى لبراعته في الفقه شأن أغلب علماء الأسرة السابقين، وعاش في النصف الأول من القرن العاشر.

¹ - عبد الحق معزوز والحضر دريس. جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر (مجموعة متحف تلمسان)، أنظر أرقام الكتابات على التوالي: رقم 9، 37، 38، 41، 42، 46، 48، 56، 57، 75، 139، 179.

² - لدينا استثناءات قليلة بالنسبة للحضور العلمي والسياسي للمرأة المغربية في العصر الوسيط على الأقل كما تصوره الكتابة التاريخية، ولعل أعمال ندوة القنيطرة المنعقدة أيام 4، 5، 6 دجنر 1997 تحت عنوان: تاريخ النساء المغاربات: الإقصاء وردات الفعل، يؤكد ما ذهب إليه، وأنظر على سبيل المثال الاستثناءات في: بوبه مجاني. دور المرأة في الحركة العلمية بجبل نفوسة، مجلة الحياة، عدد 2، جانفي 1999، ص 155-163، (ونشر أيضا ضمن أعمال الندوة المذكورة)، نفسها. النساء والسلطة في بلاد المغرب خلال القرنين الثالث والرابع (9-10م) مقارنة أولية. مجلة سيرتا. عدد خاص، أكتوبر 2000، ص 13-17، بوتشيش. المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، اللغويات، الأولياء، ص 48-50، دنش. أضواء جديدة على المرابطين، ص 163-185.

ولدينا الفقيه الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن قاسم الذي عاش هو الآخر في النصف الأول من القرن العاشر برع في الفقه وتولى الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم بتلمسان شأن والده محمد. ولدينا أيضا أبو العباس أحمد "الفقيه العالم العلم"، عاش في النصف الأول من القرن العاشر كذلك، وتولى قضاء تلمسان، ولا نستطيع أن نكمل سلسلة نسبه لفقداننا حلقاها.

أما أبو عبد الله محمد بن إبراهيم أبو سالم فقد عاش في الفترة ما بين النصف الثاني من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر، وتولى الخطابة بجامع تلمسان وشهر بوظيفته "الخطيب". في حين ظهر محدث البيت العقابي للمرة الأولى وهو أحمد بن محمد العقابي الذي جمع إلى جانب تضلعه في الحديث والرواية البراعة في الفقه والتبوع في اللغة والبيان، وقد عاش في النصف الثاني من القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر، وخلف من الأبناء المسمى سعيد: فقيه تالي لكتاب الله عز وجل مشتهر العبادة، وتوفي بعد سنة 1080 هـ.

وظهر لأول مرة كذلك من يحمل لقب السقال والمعني هنا هو محمد السقال الموصوف بالتقي والورع، والسقال حربي وظيفته شحذ السيوف وصقلها ويسمى السقال كما يسمى بالصقيل¹، وله ابن يمثل حالة فريدة أيضا في تاريخ الأسرة حيث ظهر بصفته أديبا كاتبا وهو المسمى محمد خوجة، وخلف هذا الأخير ابن يحمل نفس الاسم أي محمد وهو من فقهاء تلمسان، توفي شابا ولا نعلم تحديدا الفترة التي عاش فيها هذا الفرع (الأب، السقال والابن محمد خوجة والحفيد محمد)؛ لفقداننا تاريخ وفاة هذا الخير الذي كانت سنة وفاته تتشكل من أربعة أرقام لم يبق منها إلى الرقم الأخير (2)، وهذا يعني أنه توفي في الألفية الثانية على الأقل في القرن الحادي عشر.

ولدينا مهني ثاني وهو أبو زيد عبد الرحمن بن العباس أحمد الفقيه توفي سنة 1017 هـ، اشتغل بالتجارة طوال حياته ولم يحظ بثقافة معتبرة فقد جاء اسمه خاليا من أي لقب علمي، وله أخ يسمى محمد الخروبي توفي صغيرا سنة 964 هـ ولا نعلم ما مدلول كلمة "الخروبي" التي أضيفت إليه.

وتجدر الإشارة إلى أن أضرحة وقبور العقابانيين كانت محل اهتمام من قبل سكان تلمسان والوافدين إليها، فكثيرا ما كانوا يزورونها للبركة والدعاء والاستشفاء، رغم أن ذلك بجانب مما للتعقيد الإسلامية؛ ومن الرحالة المشهورين الذين زاروها: الحسن بن محمد الورتلاني (ت 1193 هـ)² في القرن 12 هـ/18 م، وكان الغرض من زيارته تلك طموحه "إلى العلم والولاية معا"³ ببركة هؤلاء.

¹ - ابن دريد. جهرة اللغة، (مادة صقيل)، 850/2، ابن منظور. لسان العرب، (مادة صقيل)، 2041/3. القوروز آهادي. القاموس المحيط، (مادة ص ق ل)، ص 914.

² - الحسن بن محمد الورتلاني. نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية- جامعة فرانكفورت، 1414-1994، ص 21.

³ - مختار فيلابي. رحلة الورتلاني. عرض ودراسة. باتنة- الجزائر: دار الشهاب 1988 ص 37.

والجدير بالذكر أيضا تكملة لسلسلة أعلام البيت العقباني أن أبا القاسم سعد الله قد اطلع على إحدى مؤلفات المسمى سعيد بن محمد العقباني خطيب وقاضي تلمسان من القرن الحادي عشر.¹

المحضور العلمي الثقاني للبيت العقباني

استطاع سعيد العقباني الفقيه أن يؤسس لأشهر بيت علمي في المغرب الأوسط على الإطلاق من أصلاته والوافدين إليه من الأندلس أو غيرها، فقد استمرت أسرته لأكثر من ثلاث قرون ونصف، أنجبت طوال هذه المدة 15 فقيها وعالما، وكانت الفتوى والنوازل صناعتهم التي لا ينافسون فيها، خاصة أبناء الجيل الأول (من ق 7 إلى ق 9 هـ) منهم، فالتفحص لكتاب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" مثلا، يدرك أن حضور هذا الجيل العقباني يمثل تقريبا نصف الكتاب من خلال النوازل التي أفنوا فيها وهي 356 مسألة، جديرة بأن تفرد وحدها للتحقيق والدراسة بمنهج فقهي متخصص يبين على ضوءه أصول الاستدلال ومدى موافقتها أو مخالفتها لمشهور مذهب الإمام مالك، وما إلى ذلك من الإشكالات، وسنورد في الجدول الآتي شكل هذا الحضور النوازلي مفصلا حسب أعلام البيت العقباني ومؤلفات النوازل المهمة بفتاويهم.

فتاوى البيت العقباني في مؤلفات المغاربة

نوازل الوزاني	نوازل الغرناطي (مخطوط)	نوازل ابن مرزوق (مخطوط)	تحفة الناظر للعقباني	المعيار العرب للونشريسي	نوازل مازونة	فتاوى ابن سراج	فتاوى الشاطبي	نوازل البرزلي	
6	0	7	1	27	37	0	0	0	سعيد العقباني
71	7	2	7	119	246	0	0	0	قاسم بن سعيد
11	0	0	0	10	18	0	0	0	إبراهيم بن قاسم
11	4	0	0	08	52	0	0	0	محمد بن أحمد بن قاسم
11	0	1	0	1	3	0	0	0	العقباني (غير محدد)
110	11	10	8	165	356	0	0	0	المجموع

التعليق:

أشير أولا: إلى أن بعض هذه النوازل والفتاوى مكررة في أغلب هذه الموسوعات فمؤلفوها يتناقلونها عن بعضهم.

¹ - تاريخ الجزائر الطائي 86/2.

ومن الملاحظ أن قاسم العقباني هو أكثر أفراد البيت إفتاءً وحضوراً، وهذا يعكس حقيقة رتبة الاجتهاد التي وصل إليها صاحب الاختيارات الفقيه الخارجة عن مذهب الإمام مالك والمخالفة لأصوله، نازعه فيها وتصدى للرد عنه معاصره ابن مرزوق التلمساني الحفيد،¹ كما زاحم والده من قبله رتبة الاجتهاد مع الشريف التلمساني (تـ 771 هـ) قاضي غرناطة دون منازع لهما في المغرب كله ونظيرهما في الأندلس: أبو إسحاق الشاطبي (790 هـ).²

لكن في دراسات المعاصرين نجد إقصاء لسعيد وقاسم العقباني في منظومة الاجتهاد الفقهي للعالم الإسلامي ككل.³

ويتبين من خلال الجدول أن المؤلفين من أهل المغرب الأوسط (المازوني والونشريسي) هم الأكثر اهتماماً بفتاوى العقبانيين، وكان من المتوقع أن تكون فتاويهم في "المعيار المغرب" أكثر لكونه موسوعة أضخم من جهة، ومن جهة أخرى فالونشريسي جاء بعد المازوني مما يعطيه فرصة أكثر للاطلاع عليها، لكن العكس هو الذي حدث.

وبخصوص "المعيار" أشير أنه لا يمكن الاعتماد على فهرسه المتضمن للأعلام البشرية، لأن من شأن ذلك أن يوقع الباحث في اللبس مثل ما حدث لمحمود بوعباد - رحمه الله - فقد قال: "ورد في المعيار من خلال فهرس الأعلام عشرة علماء يحملون لقب العقابي خمسة منهم سموا باسم سعيد وأربعة باسم القاسم"⁴، وهذا في نظره يوهم الباحث ويربكه، والمخرج -والحال تلك- هو تصفح الكتاب في حد ذاته لنكتشف أن أسماء العقبانيين أكثر من ذلك، وفي هذا المقام أذكر أن كتاب "الدرر المكنونة" المطبوع لا يمكن بحال أن يقوم مقام المخطوط، ذلك أن محققه أسقط صفحات كثيرة بل أبواب بكاملها كما حصل في الجزء الثالث وهو الذي تابعته فيه مقارنة بمخطوط المكتبة الوطنية،⁵ ففاته نحو 127 مسألة من فتاوى العقبانيين لوحدهم وأكثر من ذلك من فتاوى غيرهم، مع العلم أن مسائل كتاب الجامع وهو القسم الأخير من المخطوط في 73 ورقة لم يطبع بعد.

أما فقداننا لفتاوى العقبانيين عند البرزلي⁶ والشاطبي⁷ ذلك لكونهما معاصرين لسعيد العقباني فقط، وربما كانت المعاصرة سبباً وجيهاً في تجاوز الأقران لبعضهما البعض، أما الغياب الكلي لها في فتاوى السراج⁸ قاضي الجماعة

¹ - التنبكي. النيل 13/2، ابن مريم. البستان، ص 147، الخجوي. الفكر السياسي 305/4، فيلاي. تلمسان في العهد الزياني 382/2.

² - المقرئ. أزهار الرياض 25/3.

³ - أنظر نموذج ذلك في: صبحي الصالح. محاولات الاجتهاد من القرن 4 إلى القرن 13 هـ - وتلويحها، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر، الجزائر، مؤسسة العصر للمنشورات الإسلامية. الجزء 2، ص 233-257، المهدي بوعبدلي. لقطات من تاريخ دور بعض علماء الجزائر في الاجتهاد، الموضع نفسه، الجزء 2، ص 259-273.

⁴ - محمود بوعباد. دليل الأعلام المغاربة والأندلسيين في العصر الإسلامي، ص 259-267، ضمن: التراث المغربي والأندلسي: التوثيق والقراءة.

⁵ - المجلد الثاني، رقم 1336.

⁶ - جامع مسائل الأحكام لما نزل من الأفضية بالمفتين والحكام.

⁷ - فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق محمد أبو الأحناف، ط2، تونس: مطبعة الكواكب، 1985-1406.

⁸ - تحقيق محمد أبو الأحناف، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 1420-2000.

بالأندلس (تـ 848 هـ)، فلأن ذلك يتماشى مع منهج "الفتاوى" في مقابل "النوازل" التي يدرج فيها مؤلفها فتاويه فقط دون أن يشرك فيها غيره.

إلى جانب الفتوى والنوازل كان العقبايون يديرون حلقات المناظرة وجلسات الجدل والمحاورات في مختلف المسائل، وأشهر تلك المناظرات تلك التي جرت بين سعيد العقباي -وهو يومئذ قاضي بسلا- وأحمد بن قاسم مفتي فاس المعروف بالقباي (تـ 778 هـ) حول ما يسمى مسألة "درهم الإعانة"، أي الضريبة التي طرحها تجار البز (القماش)¹، وقد جمع العقباي هذه المناظرات في كتاب سماه "لباب اللباب في مناظرة القباي"²، وله مع القباي أيضا مناظرة أخرى حول مسألة في فقه الأحوال الشخصية تتعلق بالإيلاء.³

ولم تتوقف مناظرات سعيد العقباي ومحاوراته مع العلماء المسلمين فقط، بل تعدت ذلك إلى أحبار اليهود، في مسألة عالمية الإسلام وشمولية رسالته، فقد حكى تلميذه أبو الفضل محمد بن الإمام التلمساني (تـ 845 هـ) قال: "أخبرنا شيخنا سعيد العقباي قال: اجتمعت بمدينة مراکش يهودي يشتغل بالعلوم فقال: ما دليلكم على عموم رسالة نبيكم؟ قال: قلت: قوله ﷺ: "بعثت للأحمر والأسود" فقال لي: هذا خير آحاد لا يفيد إلا الظن، المطلوب في المسألة القطع، فقلت له قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: الآية 28] فقال: هذا لا يكون حجة إلا على من يقول بصحة تقدم الحال على صاحبها المجرور، وأنا لا أقول بصحته"⁴. أما القاضي المجتهد قاسم بن سعيد فقد كان يُتحاكم إليه في المسائل المختلف فيها بين علماء زمانه حتى من خارج تلمسان، فقد اختلف فقيها العلامة العالم الأشهر أبو عبد الله محمد بن بلقاسم المشدالي والفقير العالم المدرس أبو العباس أحمد بن سعيد بن الشاط في مسألة من مسائل الوصايا، ولما أعياها الجواب بعثنا إليه فأفتاها وأنهى جدالهما.⁵

وكذلك كان صاحب "المعيار" يستفتي إبراهيم بن قاسم أبو سالم العقباي من فاس إذ اختلف مع علمائها، كما حدث لما قدم مدرسا على إحدى مدارس فاس وأخر عبد الله الورياكلي (تـ 894 هـ)، وتنازعا في الراتب من يستحقه منهما.⁶

¹ - ابن مرزوق التلمساني. نوازل. مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 1342، الورقة 20 أ- 24 أ، الونشريسي. المعيار 297/5-326، العقباي. تحفة الناظر، ص 96-97، لقبال. الحسبة الملهمية، ط 1، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1971، ص 14، المنوي. ورفقات عن حضارة المرينيين، ص 390.

² - التبيكتي. النيل 102/1، والكفاية، ص 50، محمد المنتصر الكتان. فاس عاصمة الإدارة، تحقيق حمزة الكتان، الرباط: 1423-2002، ص 85، عمار جبدل. انماط التأليف في الفقه والأصول في الجزائر، ص 179، وينسب المنوي وعبد العزيز فيلاي لابن قنفذ القسنطيني. أنظر على التوالي: ورفقات عن حضارة المرينيين، ص 90، تلمسان في العهد الزياني 412/2، أما ابن قنفذ فلم يذكر هذا التأليف في قائمة كتبه التي أعدها بنفسه كذيل لكتابه "الوليات".

³ - ابن مرزوق التلمساني. نوازل، الورقة 124-125، الونشريسي. المعيار 326/5-331، المنوي. ورفقات عن حضارة المرينيين، ص 390.

⁴ - التبيكتي. النيل 200/2، المنوي. ورفقات، ص 391، فيلاي. تلمسان 412/2.

⁵ - ابن مرزوق التلمساني. نوازل، الورقة 37 أ- 50 ب، المازوني. الدرر المكنونة في نوازل مازونة (مخطوط)، المجلد 2 الورقة 87 ب- 93 ب، الونشريسي. المعيار 5/6-21.

⁶ - ابن القاضي. جلوة الإلهاس 439/2.

إن هذا الزخم الثقافي العلمي في مسيرة سعيد العقباني وابنه قاسم بالخصوص هو المرآة العاكسة لما يعبر عنه ابن خلدون والمقري "بملكة صناعة التعليم والتلقي" التي لم يبلغها إلا القلائل وتكاد تصد أبواهما بعد جيلهما، إن "صناعة التعليم والتلقي استقرت.. في الشيخ ابن الإمام التلمساني ونجب من طلبة ابن الإمام تلميذه أبو عبد الله الشريف.. وانتهت طريقته لولده أبي يحيى المفسر العالم، واستقرت أيضا طريقة الإمام في تلميذه سعيد ابن محمد العقباني وانتهى ذلك إلى ولده شيخنا أبي الفضل قاسم العقباني رحمهم الله جميعا".¹

وقد نقل المقري في ذات السياق عن ابن خلدون قوله "ولمن ذكرنا من أهل المائة الثامنة انتهت طريقة التعليم ومملكه التلقي يعني ذلك الشريف والعقباني رحمهما الله، لكونهما ألفا التصانيف البعيدة وزاحما رتبة الاجتهاد من غير منازع، قلت وكذلك بلغ رتبة التبريز في تحصيل العلم كل واحد من ولديهما: الفقيه السيد أبو القاسم بن سعيد (العقباني) والفقيه الأوحى السيد أبو يحيى الشريف".²

فقد اكتسب سعيد العقباني هذه الصناعة وتلك الملكة بالدربة والاجتهاد والصبر في طلب العلم والمنافسة فيه، فيذكر عن نفسه أنه قرأ على شيخه السطحي الفاسي "جميع كتاب الحوفي (في الفرائض) قراءة تفقه وتحقيق لأحكامه الفقهية وتصوير لأعماله الجزئية، وذلك في شهر، وقال: وكان رفيقي السيد أبا عبد الله الشريف التلمساني، وكان شيخنا السطحي لم يشتغل بالهندسة إلا قليلا، فكان يسألنا عن براهين بعض المسائل ومن أي شكل تخرج من أوقليدس، فكان رفيقي أبو عبد الله الشريف يسبقني تارة وأسبقه أخرى، وفي بعض السؤالات أنطق أنا وهو بالجواب في وقت واحد"، ثم يعلق الجاري تلميذه على ذلك فيقول: "وهذا الكلام منه يشعر بتبحره في علم الهندسة؛ ولقد كان بحرا فيه".³

مؤلفات أعلام البيت العقباني

إن من آثار صناعة التعليم هذه المؤلفات المعتمدة التي خلفها البيت العقباني في فنون مختلفة، فقد ألف سعيد العقباني في الفقه وأصوله والفرائض والحساب والجبر والمقابلة والمنطق والتفسير؛ فمنها:

1- شرح الحوفي في الفرائض،⁴ لم يؤلف عليه مثله رغم كثرة شروحه، وبين على منواله واقتبس منه وتعقبه بالرد - وهو في سن الثامنة عشر- عالم تلمسان وفقهها أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي في كتابه المسمى "المقرب المستوفي في شرح فرائض الحوفي" في 226 ورقة من الحجم الكبير،⁵ وذكر في نهاية تأليفه أنه لم يقف إلا على نسخة واحدة من شرح العقباني في زمانه.

¹ - المقري. أزهار الرياض 24/2.

² - المقري. أزهار الرياض 25/3، وأشير إلى أن بعض كلام ابن خلدون الذي أورده أعلاه لم أقف عليه في المقدمة.

³ - المحاري. برنامج، ص 130.

⁴ - توجد منه مخطوطة في دار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 4786 من 300 ورقة، أنظر: علي رضا قره بلوط وأحمد طوران قره بلوط. معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكبات العالم، قيصري- تركيا، دار العقبة، 2/ 1205، كما يوجد مخطوط في جامع القرويين بفاس من جزئين تحت رقم 2490 و 2491، أنظر: فهرس مخطوطات القرويين. (نسخة إلكترونية PDF)

⁵ - مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع رقم 1450، أنظر على سبيل المثال الإقباس في الورقات: 11، 14، 15، 17، 18، 19، 20، 21، 22، وغيرها، وأخطأ مصنّفو المكتبة في اسم المؤلف فورد عندهم: قاسم أحمد بن مخالف كلاي؟.

- 2- شرح على مختصر فرائض ابن عرفة الورغمي التونسي.¹
- 3- شرح جمل الخونجي في المنطق.²
- 4- كتاب في "العقيدة" لا يعرف عنوانه.³
- 5- تفسير سورة الأنعام والفتح،⁴ وفيها فوائد جلية كذلك.
- 6- تفسير سورة الفاتحة، أتى فيها بفوائد جلية عجيبة.
- 7- شرح التلخيص في أعمال الحساب لابن البنا المراكشي (ت 721 هـ).
- 8- شرح قصيدة ابن الياصمين في الجبر والمقابلة.
- 9- شرح العقيدة البرهانية في أصول الدين للسلانكي.
- 10- شرح البردة في الأمداح النبوية للبوصيري.
- 12- لباب اللباب في مناظرة القباب.
- 11- شرح منتهى السؤل والأصل في علمي الأصول والجدل لابن الحاجب في أصول الفقه.⁵
- 13- تاريخ في دولة بني زيان، وذكر أبو القاسم سعد الله أن المستشرقين دون غيرهم أطلعوا على أعمال في أنساب الأمراء والعائلات في العصور الوسطى ومنها "تاريخ العقباي" المذكور، ولم يطلعنا بدوره عن المصدر الذي استقى منه معلوماته.⁶
- أما قاسم بن سعيد العقباي فألف:
- 14- شرح منتهى السؤل والأصل في علمي الأصول والجدل، لابن الحاجب في أصول الفقه.⁷
- 15- أجوبة أو أرجوزة تتعلق بالصوفية في اجتماعهم على الذكر وغيره.⁸

¹ - مخطوط مكتبة جامع الأزهر تحت رقم 3002 / 52، من 351 ورقة، أنظر عنه: أبو الوفا المرغي. فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية، 2 / 698.

² - منه نسخة مخطوطة بالمكتبة الوطنية بروسة - تركيا، مجموعة حسين جلي، تحت رقم 725 من 164 ورقة، أنظر: قره بلوط. معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم، 2 / 1205.

³ - يوجد مخطوط له بالخزانة التيدسية في المغرب، تحت رقم 283، أنظر: أبو الميثم الشهبائي. فهرس ما لم يفهرس من المخطوطات المغربية في الخزانات الخاصة. منشورات مركز بحبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ص 247.

⁴ - وليد الزبيري وآخرين. الموسوعة المسيرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، ط1، بريطانيا: سلسلة إصدارات الحكمة، 1424 - 2003، 1 / 962.

⁵ - ابن فرحون. الديهاج، ص 205، البخاري. برنامج، ص 129، القراني، التوشيح، 152-153، التنكي. النبل 1 / 102، 204، ابن مريم. البستان، 106-107، الحوي. الفكر السامي 4 / 292، الروداني. صلة الخلف بموصول السلف، تحقيق محمد الحجي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1408-1988، ص 278، كحالة. معجم المؤلفين 1 / 769، بوعرفة. أعلام الفكر والتصوف بالجزائر، ص 70، بونار. القاضي سعيد العقباي، ص، حاجيات. الحياة الفكرية بتلمسان، ص 145، نويهض. معجم المفسرين 1 / 210، وسعيد العقباي باعتباره مفسرا يستدرك على محمد المختار إسكندر صاحب كتاب "المفسرون الجزائريون عبر القرون" في جزء الأول.

⁶ - أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي 319 / 7.

⁷ - محمد مظهر بقا. أعلام أصول الفقه الإسلامي ومصنفاتهم، منشورات جامعة أم القرى، 1420، 3 / 335.

⁸ - السحاوي. الضوء اللامع 6 / 181، القراني. توشيح الديهاج، ص 152، التنكي. النبل 2 / 14، ابن مريم. البستان، ص 148.

- وقد نسب إليه الأدنروي ورضا كحالة وجماعة أخرى -خطأ- بعض تصانيف والده سعيد في أصول الدين والتفسير¹.
- 16- وذكر البغدادي² في ترجمة أحد تلاميذه أن له كتاب في "القواعد" ولم يفصح عن اسمه الكامل ولا عن فنه، ومن المرجح أن يكون في القواعد الفقهية أو الأصولية.
- 17- وينسب إليه كذلك رسالة في "الحدود النحوية"³.
- 18- أما من ترجموا لإبراهيم بن قاسم ووصفوه بأنه "حصّل وبرع وألف" فلم يذكروا له إلا تصنيفا واحدا وهو: "تعليق على ابن الحاجب الفرعي" في الفقه⁴.
- 19- وألف محمد بن أحمد بن قاسم في موضوع قلّ من كتب فيه من أهل الغرب الإسلامي عامة؛ وهو موضوع الحسبة، ومن العجيب ألا يذكره أو يشير إليه من ترجموا له⁵ والكتاب هو: "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر"، أول كتاب ينشر من تراث آل العقباني⁶.
- 20- كما ألف مختصرا في الفقه المالكي⁷.
- 21- أما سعيد بن محمد العقباني (من القرن 11) فقد وضع شرحا لإحدى كتب الفرائض والفقه، وقسم كتابه إلى أبواب تناول فيها الولاء والإقرار والوصايا والمناسخة... وهي أبواب فقه الأحوال الشخصية، ومنهجه فيه يعتمد على شرح الألفاظ لغة واصطلاحا وذكر الأحكام وطرق التوصل إلى حل التركات، ويرى أبو القاسم سعد الله الذي اطلع على إحدى مخطوطات الكتاب⁸ أنه يحتمل أن يكون شرح لإحدى أعمال القلصادي الأندلسي.
- إذن فمن الملاحظ أن سعيد العقباني هو الأكثر تأليفا وتصنيفا مقارنة ببقية أعلام البيت وأغلب تواليفه عبارة عن شروحات، فرغم ملكة الاجتهاد وصناعة التعليم التي أشرهما؛ إلا أنه لم يستطع أن ينفك من ثقافة عصره وتقاليد العلمية، فقد جرّته إلى التعامل مع هذه المختصرات التي لم يكن النقاد كابن خلدون وأمثاله ليرضوا عنها، إذ "ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم .. وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في
-
- ¹ - طبقات المفسرين 320/1، معجم المؤلفين 642/2، وليد الزيري وآخرين. الموسوعة المسيرة في تراجم أئمة الفسور، 2/ 1837.
- ² - هدية العارفين 555/1.
- ³ - تحقيق إبراهيم بن سليمان البعسي، نشرت ضمن: عالم المخطوطات والنوادر (الرياض)، مجلد 7، ع2، 2002-2003، ص351-406.
- ⁴ - التنبكي. النبل 56/1، بن منصور. أعلام المغرب العربي 141/1.
- ⁵ - باستثناء البغدادي الذي أعطى في اسم أبيه فسماه محمد بن محمد، انظر: هدية العارفين 201/2.
- ⁶ - حققه ونشره: علي الشنوني في مجلة *Bulletin d'études orientales* العدد 19، سنة 1965-66، وهو مما يستدرك على كوركيس عواد في مقاله: الحسبة في خزنة الكتب العربية، ضمن: الذخائر الشرقية، 1/ 172-186.
- ⁷ - توجد منه نسخة مخطوطة بجامع القرويين تحت رقم 2877، من 131 ورقة، انظر: فهرس مخطوطات القرويين.
- ⁸ - اطلع على نسخة باريس مخطوطة رقم 5312 في 141 ورقة. وقال أنها متاكلة الأطراف وعليها حواشي لبعضهم، انظر: تاريخ الجزائر الثقافي 86/2.

الفنون والتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم، وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل".¹

وفي نفس الوقت يعتبر ابن خلدون طريقة سعيد العقباني ومن نحى منحاه في شرح هذه المختصرات عملا إيجابيا، من صميم مقاصد التأليف وجماعها السبع؛ كأن "يقف على كلام الأولين وتأليفهم فيجدها مستغلة على الأفهام، ويفتح الله له في فهمها فيحرص على إبانة ذلك لغيره مما عساه يستغلق عليه، لتصل الفائدة لمستحقها، وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول وهو فصل شريف".²

شرح آثار البيت العقباني

سوف تُستكمل هذه الدورة العلمية في التأليف على يد من جاء بعد العقبانيين من تلاميذهم وغير تلاميذهم، فيشرحون ما اختصروه ويجمعون ما شرحوه مع شروحات غيرهم في تأليف واحد.

1- فقد شرح القلصادي مختصر لسعيد العقباني لم يتمه،³ ولا نعلم تحديدا المقصود من ذلك، إذ لا نعرف مختصرا للعقباني سوى "شرح التلخيص" لابن البناء في أعمال الحساب، وكتاب القلصادي مطبوع متداول.⁴

2- وقام أحمد بن محمد المناوي الورنيدي المعروف بابن الحاج التلمساني (ت 930 هـ) بجمع شرح البردة لسعيد العقباني مع شرح ابن مرزوق التلمساني ولم يكمله.⁵

3- وألف محمد بن أحمد التريكي التونسي (ت 894 هـ) "إكمال الأمل بشرح الجمل" أي جمل الخونجي في المنطق، جمع فيه شرح سعيد العقباني مع شرح الشريف التلمساني وشرح ابن واصل وشرح ابن مرزوق.⁶

4- وألف يعقوب بن عبد الله السيتاني شرح "التلمسانية" في الفرائض يبحث فيه مع العقباني وغيره.⁷

5- وألف محمد الراعي الغرناطي شرحا على كتاب "القواعد" لشيخه قاسم العقباني.⁸

6- وفي مجال الردود ألف محمد بن مرزوق الحفيد (ت 842 هـ) كتابه "النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكمال الناقص" في سبعة كراريس بتعبير العصر آنئذ، ألفه في الرد على قاسم العقباني بشأن فتواه في مسألة فقراء الصوفية لما صدق صنيعهم وخالفه ابن مرزوق فيها.⁹

1- ابن خلدون. المقدمة، ص 551.

2- ابن خلدون. المقدمة، ص 550.

3- التبيكي. النيل 383/1، ابن مريم. البستان، ص 143.

4- طبع بعنوان: شرح تلخيص أعمال الحساب، حققه وترجمه إلى الفرنسية فارس بنطالب، ط1، بيروت: دار المغرب الإسلامي، 1999.

5- ابن مريم. البستان، ص 23.

6- القرائي. توشيح الميهاج، ص 172، التبيكي. النيل 246/2.

7- ابن القاضي. جلوة الاقباس 558/2.

8- البغدادي. هدية العارفين 555/1.

9- المقرئ. نفع الطيب 429/5، التبيكي. النيل 181/2، ابن مريم. البستان، ص 211.

مرويات البيت العقباني ومسموعاتهم

إن شهرة سعيد العقباني وابنه قاسم بالخصوص لا يتناسب مطلقاً مع حجم مروياتهما الفقهية وغيرها، ولا يتناسب أيضاً مع عدد الطلبة الذين تعلموا عليهما، فهل ذلك بسبب استغراق وقتهما في القضاء على حساب التدريس؟

فالمصادر لا تفيدنا إلا بعدد محدود جداً للكتب التي كان يُدرّسها العقبانيون وهي كالآتي:
"كتاب ابن الحجاب" في أصول الفقه، و "فرائض الحوفي"، وكتاب "الوصايا" فجعل صاحبه، و "مختصر البراذعي" في الفقه، وكتاب "جمل الخولجي" في المنطق، و "الإيضاح والتكملة" لأبي الفارسي في اللغة، و "الموطأ" للإمام مالك، و "صحيح البخاري"، مع إجازة في الكتب الحديثة الستة الباقية.¹
وقد لاحظ هذه الثروة في المرويات منذ القدم البخاري الأندلسي الذي زار تلمسان سنة 798 هـ، وأبدى إعجاباً بغزارة علم شيخه سعيد العقباني، إلا أن ذلك لم يمنعه من الحكم عليه بقلة الرواية، حيث قال: "والذي ظهر لي أنه لم يكن له عناية بالرواية"،² وإن كان أصل "الرواية" يطلق على الحديث وعلومه، إلا أن ذلك لا يمنع كونه أراد القصد والمعنى الذي أشرت إليه.

تلاميذ البيت العقباني

وكذلك الحال بالنسبة لتلاميذ البيت العقباني فهم يعدون على الأصابع، سواء الذين درسوا عليهم مباشرة أو أجازوا لهم، وبطريقة البناء التركيبي أمكن الوصول إلى هذه القائمة.

فلنبداً بتلاميذ المؤسس سعيد العقباني وهم:

- 1- أحمد بن عبد الرحمن بن زاغو التلمساني (ت 845 هـ).
- 2- إبراهيم بن محمد المصمودي التلمساني المكناسي الأصل، درس عليه بالمدرسة التاشفينية.
- 3- قاسم العقباني ابنه.
- 4- أبو الفضل محمد بن الإمام التلمساني.
- 5- ابن مرزوق الحفيد (ت 892 هـ).
- 6- ابن مرزوق الكفيف.
- 7- أبو يحيى الشريف التلمساني (ت 826 هـ).
- 8- محمد بن عقاب الجذامي التونسي.
- 9- أبو الحسن علي البسطي القرشي المعروف القلصادي.
- 10- محمد بن أحمد السلمي المعروف بالجمدالة الأندلسي (ت 897 هـ).
- 11- عبد الله بن أحمد بن يوسف الغساني الأندلسي المعروف بالعشاب، أجازته

¹ - البخاري، برنامج، ص 129، ابن داود البلوي، ثبت البلوي، ص 129، 425، 313، ابن مريم، البستان، ص 128.

² - البخاري، برنامج، ص 132.

- 12- عبد الحق بن سعيد المكناسي، أجازته وأجاز بنيه ممن سيولد في عقبه مستقبلاً!¹
أما تلاميذ قاسم بن سعيد العقباني فهم:
- 13- أحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914 هـ) صاحب "المعيار".
- 14- نصر الزواوي البجائي نزيل تلمسان.
- 15- داود بن سليمان بن حسن البني المصري، قرأ عليه بمصر أثناء رحلة الحج.
- 16- أبو الحسن علي القلصادي.
- 17- محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني المورخ (ت 899 هـ).
- 18- إبراهيم بن محمد الخذري مفتي تونس (ت 879 هـ) قرأ عليه بتونس.
- 19- أحمد بن محمد بن زكري التلمساني الحافظ المفسر (ت 899 هـ).
- 20- محمد بن محمد أبو الفضل المشدالي البجائي (ت 865 هـ).
- 21- محمد بن العباس العبادي التلمساني الفقيه المفتي (ت 871 هـ).
- 22- يحيى بن أبي عمران المغيلي المازوني (ت 883 هـ) الفقيه النوازي. صاحب "الدور المكنونة".
- 23- محمد بن أحمد الحسيني التلمساني.
- 24- محمد بن مرزوق الكفيف.
- 25- محمد الرصاع التلمساني التونسي صاحب "الفهرسة".
- 26- محمد بن يوسف السنوسي صاحب التأليف الباهرة في العقائد.
- 27- محمد بن أبي البركات التالي التلمساني.
- 28- أحمد قاسم ولده.
- 29- محمد أحمد بن قاسم حفيده.²
- 30- محمد بن محمد الفرناطي المعروف بالراعي، نزيل مصر (ت 853 هـ)³
وتلاميذ أبو سالم إبراهيم بن قاسم هم:
- 31- أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب "المعيار".
- 32- إبراهيم بن عبد الجبار الوردغيري الفجيجي (ت 900 هـ).

¹ - البخاري. برنامج، ص 129، ابن داود البلوي. ثبت البلوي ص 129، 201، 265، 311، التنكي. النبل 1/122، 248، 200/2، 206، 262، ابن مريم. البستان، ص 41، 65، 106، 107، 209، ابن القاضي. جلوة الإقباس 2/390، الحضيكي. طبقات، ص 2/532، Souïssi Mohammed. « Un Mathématicien Tunisien- Andalou Al- Qalāsādī ». dans : *Estudios históricos : actas del II coloquio hispano-tunecino [celebrado] en Madrid y en Barcelona en mayo de 1972*. Instituto hispano-arabe de cultura. Madrid. p.149.

² - ابن غازي. ذيل فهرس ابن غازي، ص 170، الرصاع. فهرس، ص 177، ابن داود البلوي. ثبت البلوي، ص 130، 189، 425، الشفاون. دوحه الناشر، ص 122، القراني. توضيح الدياج، ص 81. 204، التنكي. النبل 1/58، 136، 191، 382، 13/2، 14، 261، 248، 224، 232، 340، ابن مريم. البستان، ص 53، 82، 101، 147، 148، 149، 248، ابن القاضي. جلوة الإقباس 157/1، الحضيكي. طبقات 1/23، 242، 243.

³ - المقرئ. نفع الطيب 2/695، البغدادي. هدية العارفين 1/555.

33- محمد بن سعد الأنصاري الأندلسي التلمساني (تـ 901 هـ).

34- عبد الله العصوني قاضي توات (تـ 927 هـ)¹.

وتلاميذ محمد بن أحمد بن قاسم هم:

35- أحمد بن يحيى الونشريسي المذكور.

36- أحمد بن قاسم السطحي المغربي نزيل القاهرة.

37- عبد الله العصوني قاضي توات المذكور.

38- يحيى بن بدير التلمساني الأندلسي (تـ 877 هـ)².

ومن الملاحظ أن أحمد بن يحيى الونشريسي الفقيه النوازلي درس على قاسم بن سعيد العقباني وابنه أبي سالم إبراهيم وحفيده محمد بن أحمد، وهذا نادر الحدوث فلم أقف على مثله في كتب التراجم العديدة المشرقية والمغربية، الأمر الذي يوجب إلى اتصال سند بيت العقباني ونبوغ أعلامه في حياة آبائهم وأجدادهم، واستفادهم مما جباهم الله به من طول الأعمار.

39- وقد ذكر في ترجمة سالم بن محمد بن أبي العصوني قاضي تيمنطيت بتوات³ أنه تتلمذ على جماعة من العقبانيين، ووفاته المتأخرة أي سنة 968 هـ⁴ تؤكد أنه تتلمذ على أعلام الجيل الثاني ممن وردت أسماءهم في الكتابات الجنائزية المذكورة سلفاً، كالفقيه أبي العباس أحمد وأخيه محمد ابني أبي يحيى بن أحمد بن قاسم، والفقيه أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو سالم الذين عاشوا في النصف الأول من القرن العاشر.

الحضور الصوفي للبيت العقباني

إن الحضور الصوفي للعقبانيين يظهر بصورة محتشمة، لكثافة الحجب العلمية والفقهية والقضائية التي اشتهروا بها، فلا يشار إلى هذا الجانب في حياتهم إلا نادراً وعرضاً، وهو يبدأ مع قاسم بن سعيد إذ يظهر تصوفه من خلال بعض المسائل التي أفتى في شأنها، مثل تلك الواردة في "المعيار المغرب"⁵ كمسألة التوسل بالأولياء والصلحاء عند قبورهم وهو يميز ذلك، وكمسألة تحقيق القول في كرامات الأولياء، ومسألة إقامة بعض الصالحين في الأماكن

¹ - ابن داود البلوي. ثبت البلوي، ص 415، التنبكي. النبل 56/1، ابن مريم. البستان، ص 53، ابن القاضي. جلدوة الاقباس 157.99/1، درة المجال، ص 317.

² - التنبكي. النبل 142/1، 144، ابن مريم. البستان، ص 53. 55، ابن القاضي. جلدوة الاقباس 156/1، درة المجال، ص 478.

³ - توات إحدى أقاليم جنوب الصحراء الكبرى، يضم مدن وقصور ووحدات تزيد عن 350 وحدة، يقع حالياً ضمن امتداد أدرار وعين صالح، وسكانه من أصول زناتية، أنظر: محمد بن عمر بن المروك الجعفري التواني. نقل الروايات عن من أهدع قصور توات، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي بكوسام، ص 1-10، فرج محمود فرج. إقليم توات خلال القرنين 18 و19 الميلاديين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية- المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 1-3، وعن مخطوط تحديداً أنظر: البكري بكري. مخطوط رمز تاريخ وعنوان حضارة، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد خاص، ص 60-68.

⁴ - ابن القاضي. درة المجال، ص 438.

⁵ - الونشريسي 322/1، 387 و 403/2 و 48/11، كمال السيد أبو مصطفى. جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المغرب للونشريسي، الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب، 1996، ص 107-108.

المخوفة لتأمين السبل، ومسألة اجتماع الفقراء الصوفية في كثير من الليالي عند واحد من المريدين للذكر والرقص وما شابه.

والمسألة الأخيرة¹ هي التي أبان فيها عن موقفه المتعاطي مع الصوفية بشكل إيجابي، فقبل برفض ابن مرزوق التلمساني الذي كتب في الرد على فتواه ونقض أدلته كتابه "النصح الخالص" كما أشرت سلفا، ورد تلميذ العقباني محمد بن يوسف السنوسي مؤيدا لفتوى شيخه قاسم ومناصرًا لشيئته المتصوفة في كتابه "نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير" أحد تلاميذ ابن مرزوق صاحب كتاب "الرد على الفقراء وأهل البدع المحدثات في الإسلام"²، وأيده في ذلك أيضا كبار متصوفة المغرب الأوسط من أمثال عبد الرحمن الثعالبي³ والحسن أركان الراشدي (ت-857 هـ)،⁴ لذا عده أحد الباحثين المعاصرين⁵ بكونه قاد المتصوفة في وقته وليس متصوفا فحسب. أما محمد بن أحمد حفيده فقد وصفه الشيخ زروق الفاسي بامتلاكه "ملكة في التصوف"⁶ دون أن نرى مظاهر هذه الملكة أو ممارسات فعلية أو نظيرية لذلك في المصادر التاريخية، لكن وجدت له فتوى في نوازل الوزاني المعروفة بـ "المعيار الجديد"⁷ تتعلق بكرامات الأولياء وخوارق العادات التي تجري على أيديهم، أين أقر بها وناقش مذهب المعتزلة المنكرين لحدوثها وانتصر للأولياء الصوفية.

وترسم الكتابات الجنائزية -السالفة الذكر- أيضا صورة باهتة لهذا الحضور، من خلال وصف البعض بكثرة تلاوة القرآن كسعيد بن أحمد بن محمد (ت-1080 هـ) ومحمد بن محمد الأديب، ووصف الحد محمد السقال العقباني بـ "التقى النقي".

الحضور السياسي للبيت العقباني مع المرينيين والزيانيين

يأخذ هذا الحضور الحيوي في صناعة جاه الأسرة هو الآخر في أغلب مراحل صورة باهتة، لتغيب كتب التاريخ السياسي العام الحديث عن مثل هؤلاء الفقهاء، وهي الوحيدة التي تؤرخ بشمولية وتفصيل لهذا الموضوع، أما الآن فلا نملك منها إلا إشارات متناثرة.

¹ - لم يضع نقاش العقباني ومخالفه حدا للمسألة، فبعد أكثر من قرنين أعيد طرح المسألة من جديد على الفقيه المورخ أحمد بابا التبيكي- وفق ما جاء في إحدى مؤلفات القرن الحادي عشر-، أنظر: اللعنة في أجوبة المسائل الأربعة، مخطوط ضمن مجموع، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 532. الورقة 151.

² - توجد مخطوطة السنوسي تحت رقم 108-10، ومخطوطة أبي الحسن الصغير تحت رقم 4/105 بمؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء المغربية، راجع: الفهرس المغربي.

³ - الثعالبي من كبار علماء المغرب الأوسط في نهاية العصر الوسيط أشتهر بالفقه والتفسير والتصوف وله مؤلفات جليلة بعضها مطبوع، توفي سنة 875 هـ ودفن بمدينة الجزائر. أنظر عنه: عبد الرزاق قسوم. عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978. (165ص).

⁴ - المهدي البوعبدلي. أهم الأحداث الفكرية بلمسان والمغرب عبر التاريخ، مجلة الأصالة، عدد 26، أوت 1975، ص 126-127، فيلالي. تلمسان في العهد الزياني 411/2، وأنظر عن شخصية الشيخ أركان: ابن سعد التلمساني. روضة النسرين، ص 125-142.

⁵ - عبد العزيز فيلالي. تلمسان في العهد الزياني 411/2.

⁶ - التبيكي. النيل 232/2، ابن مرجم. البستان، ص 224.

⁷ - الوزاني 340-339/10.

فالحضور السياسي ظهر مع بدايات تأسيس البيت مع سعيد العقباتي أيام السلطان المريني أبي عنان، عدو تلمسان اللدود، وهو الذي ولاه قضاء بجاية بعد سنة 753 هـ، وأجمع من ذكروا ذلك أن "العلماء يومئذ متوافرون" كثر، فلم يكن ليحظى بمثل هذا المنصب دون أمثال ابن خلدون والآبلي والبرجي وابن مرزوق وغيرهم لولا دوافع وعلاقات غير معلنة، ولم يكن من الصدفة لمز هذا الإجراء من طرف حفي بالقفز عن مثل الأعلام المذكورة حسب العبارة المثبتة، وقد أقمه السخاوي¹ بأنه أول من أدخل عادة تقبيل يد ملوك المغرب الأقصى، التي لا تزال عادة جارئة إلى يومنا هذا.

ثم ما الذي جعل ملوك بني زيان المتعاقبين يقبلون أوبة سعيد العقباتي، وفيأته إليهم فيولونه أعلى منصب قضائي في دولتهم - منصب قاضي الجماعة- بعد تنقله بين قضاء بجاية وسلا لخصومهم بني مرين، وأكثر من ذلك أعطوه فرصة لاحتكار هذا المنصب أكثر من قرن وربع قرن في أبنائه وأحفاده، دون شك كان لذلك دافع سياسي يتمثل في تخفيف منابع الخصم باستيعاب الكفاءات المعول عليها وتعزيز شرعية المستقبل لهم وتقوية صفه بهم، حتى في المجالات التي يبدو أنها شرعية خالصة لا تمت إلى السياسة بصلة غير صلة التدبير على القواعد الدينية كالقضاء، والأمر من بدايته يعبر عن طبيعة العصر إذ كان الرجل يعمل في كل البلاطات ومع كل الدول المتعاقبة والمتخاصمة سواء في المشرق أو المغرب، باعتبارها ممثلة للشرعية والمجتمع الإسلامي أحيانا وباعتبار المصلحة الشخصية أحيان كثيرة، وخير نموذج لهذا النزوع السياسي هو ابن خلدون الذي تنقل بين بلاط الحفصيين في تونس وبجاية وبلاط تلمسان الزياني، وبلاط فاس المريني، وبلاط غرناطة النصري، وينتهي به المطاف في بلاط الماليك بالقاهرة، ولو استدعاه هولاءكو لبلاطه ربما كان سيلبي دعوته.

لقد برز بعد ذلك القاضي محمد الحفيد بن أحمد بن قاسم العقباتي كرجل سياسي في عهد السلطان محمد ابن محمد بن أبي ثابت المتوكل (866-873)، فعلى إثر مبايعته سلطانا على المملكة الزيانية خرج السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (839-893) يروم تلمسان، ولما نزل بأرض بني راشد وبقي بينه وبين تلمسان مسافة يومين، وقد عليه عرب المنطقة ودخلوا في طاعته متتكرين للمتوكل، فأرسل هذا الأخير للسلطان الحفصي قاضيه محمد العقباتي ونحاله أبي الحسن والشيخ أحمد بن الحسن يفاوضونه على الكف عن البلد وفك الحصار المزمع مقابل أن يلتزم له المتوكل بالطاعة، فأسعفهم في غرضهم وكتبوا عقدا بذلك ورجع الجيش الحفصي إلى تونس يوم الأربعاء 17 صفر 867 هـ.²

ثم كلف القاضي محمد العقباتي في السنة الموالية بالسفارة إلى تونس حاملا هدية من سلطانه إلى أبي عمرو عثمان الحفصي وصادف إفاقة السلطان من مرضه فبالغ في الاحتفال من أجل ذلك، وفي ذي القعدة عاد القاضي من سفارته حاملا أيضا هدية لسلطانه من سلطان تونس مكافأة وردا للجميل.³

¹ - الضوء اللامع 1/117.

² - الزركشي. تاريخ الدولتين، ص 152-153، نللي سلامة العامري، المجتمع والولاية، تونس: جامعة منوبة، 2001، ص 281-282، بوغزيز. أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، 2/76-77.

³ - الزركشي. تاريخ الدولتين، ص 155، برنشفيك. تاريخ الهريمية في العهد الحفصي 1/290، بوغزيز. أعلام الفكر والثقافة، 2/77-78.

لقد تكررت هذه السفارة مرة أخرى في ذي القعدة سنة 869 هـ بعد مقتل السلطان المريني حليف المتوكل الزياني إذ كان يتوقع منه أن يعينه وينجده ضد السلطان الحفصي، فلما زال موجب قوته أرسل القاضي محمد العقباي لإصلاح الوضع ورأب الصدع مع الحفصيين، إلا أنه فشل في ذلك وحمل تهديدهم للسلطان الزياني بغزو تلمسان.¹

وفي سنة 870 هـ وفد على السلطان الحفصي أعراب تلمسان يشكون له سوء سيرة صاحبها، ونكته للبيعة وإخراجه قائد ليانة من قبل السلطان الحفصي، ومدخلته لشيخ الدواودة محمد بن سباع ومحمد بن سعيد المسكيني واتحفاهما بالهدايا لاستمالتهم إلى صفه في حربه السلطان الحفصي، وطلبوا منه في النهاية تخليصهم منه بدخوله تلمسان بجيوشه، فجهز جيشا لهذه المهمة ووصل نواحي تلمسان في ربيع الآخر سنة 871 هـ، وخاض معارك عدة إلى أن انتهى إلى المنصورة ومنها إلى أسوار تلمسان، فقاتل أهلها قتالا عنيفا وهدم بعض الأسوار وكاد أن يبيدوهم لولا أن حال بينهم الظلام والأمطار الغزيرة.

وفي الأيام الموالية خرج القاضي محمد العقباي ووجه أهل البلد وأعيانه للسلطان أبي عمرو عثمان الحفصي يستجدون العفو ويرومون الصلح فأسعفهم في طلبهم وبلغهم مقصدهم فيه، وكتبوا بيعة أهل تلمسان له من جديد، فكتب القاضي محمد العقباي "شهد على نفسه عبد الله المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حول ولا قوة إلا بالله".²

المخضرم السياسي للبيت العقباي في العهد العثماني

ظهر الأتراك العثمانيين في المغرب الأوسط بقيادة عروج وإخوته الثلاث خير الدين وإسحاق وإلياس، انطلاقا من جيحل والاستولوا على تلمسان سنة 923 هـ/1517 م، وترنح وجودهم بينهما بين القوة والضعف والحسم والتردد لأسباب عديدة، كالتراعات بين الأهالي والجنود التركي والاحتلال الإسباني لوهراة وبجاية وتهديدهم لمدينة الجزائر وغيرها.³

وبخصوص تلمسان فقد دخلت نهائيا في ظل الحكم التركي بعد القضاء على الأسرة الزيانية الحاكمة سنة 962 هـ/1554 م، لكن أطماع السعديين سلاطين المغرب الأقصى شكلت أزمة مع الأتراك إذ استولوا على تلمسان عدة مرات، إلى أن عاد حسن باشا إلى الجزائر سنة 965 هـ/1557 م فسارع إلى طرد المغاربة الذين تحالفوا مع الإسبان وحاصروا الحامية بتلمسان في المشور ونجح في إعادة المدينة إلى الحكم التركي المركزي.⁴

لكن لم يصف الجو للأتراك فقد عمل السلطان السعدي عبد الله الغالب على زعزعة النفوذ التركي في تلمسان بالتركيز على التحالف مع فقهاءها وعلمائها، وأسفر ذلك عن قيام فتنة سنة 968 هـ/1559 م، ففر العلماء

¹ - عبد الباسط الملقى. الروض الباسم، ص 56-57، برنشفيك. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي 291/1.

² - الزركشي. تاريخ الدولتين، ص 158.

³ - أنظر تفاصيل ذلك في: محمد خير فارس. تاريخ الجزائر الحديث، ط2، بيروت: مكتبة دار الشروق، 1979، ص 22-43.

⁴ - محمد خير فارس. تاريخ الجزائر الحديث، ص 43-44، مولاي بلحميسي. نهاية دولة بني زيان، الأصالة، عدد 26، أوت 1975، ص 30-36.

توفيق المدني. تلمسان بين الزيانيين والعمانيين (1530-1554م)، الأصالة، العدد نفسه، ص 37-45.

والمناهضون للوجود التركي منها، مثل الفقيه أبي العباس أحمد بن محمد العقباتي (تـ 989 هـ) والعلامة أحمد بن أحمد العبادي وغيرهما،¹ فقد عمل أبي العباس العقباتي بما يملك من وجهة وسؤدد في المجتمع لمكانة بيت العقباتيين ذاته على تأليب أهالي تلمسان على السلطة الجديدة دون معرفة لصالح من، هل للبيت الزياني البائد؟ أم لسلاطين المغرب الأقصى؟ لكن اتسع الخرق على الرقع.

أما الجيل الثاني للبيت العقباتي كان قد رضي عكس أبي العباس المذكور بالأمر الواقع وتعامل بشكل إيجابي مع الأتراك، مما سمح له بالحفاظ على خطة القضاء التي كان يتلوها آبائهم وأجدادهم في العهد الزياني، والانفتاح على وظائف جديدة كالكتابة التي رشح لها الأديب محمد بن محمد السقال، وتلقبه باللقب التركي "خوجة"² يؤكد الاندماج التام له في منظومة الحكم التركي، كما أن اللقب "خوجة" له دلالة سياسية واضحة.

ثم إن قبور وأضرحة العقباتيين في مقبرة سيدي إبراهيم وهي مقبرة سلاطين بني زيان يفصح عن كونهم كانوا مقرين جدا منهم، طوال مسيرتهم العلمية والقضائية حسب ما دلت عليه الكتابة الجنائزية السالفة الذكر.

والأهم الآن هو التنقيب عن مؤلفات العقباتيين وإزاحة الغبار عنها وإخراجها للنور دراسة وتحقيقا، والمساهمة في إحياء تراث هذه البيوتات خاصة والأمة عامة.

¹ - الشفاوي. دوحة الناشر، ص 118.

² - خوجة كلمة فارسية في الأصل وتكتب غالباً "خواجه" وتحمل عدة دلالات كالكتاب والناسخ والتعلم والعالم والخاص والسيد والساحر الفني والحاكم والشيخ والعالم ذو الأملاك والرئيس وغير ذلك، أنظر: فنية الشهابي. معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1995، ص 39، مصطفى بركات. الألقاب والوظائف العثمانية، القاهرة: دار غريب، 2000، ص 250.

بيت ابن داود البلوي: والأدوار الغامضة (890 - 898 هـ)

نسبهم وأوليتهم في الأندلس

ينتسب بيت ابن داود في قبيلة بلي¹ القضاعية الحميرية اليمنية الأصل، وكانت مواطنهم الأولى مدينة وادي آش إحدى مدن كورة ألبيرة،² وهي كما وصفها لسان الدين ابن الخطيب: "مدينة الوطن ومناخ من عبر وأقطن، للناس ما بدا والله ما بطن... بلد لا يعتل فيه إلا النسيم، ومرأى يخجل منه الصباح الوسيم، كثيرة الجداول والمذائب، محضرة الجوانب... مقلها أهل للتاج والسرير، وهي دار أحساب، وإرث واكتساب، وأدب وحساب، وماؤها بحاج الخليلد وهوؤها يذكي طبع البليد...".³

أما أوليتهم، فلم يكونوا من المغمورين ولا الخاملين، فقد كان لهم سلف نبيه شهير، منه أبو جعفر بن داود، كان صاحب الأشغال (وزير المالية) في بلاط بني الأحمر بغرناطة، ذا مكانة رفيعة في الدولة وتأثير بين، صاحب أدب وخلق، قال عنه لسان الدين ابن الخطيب: "شيخ العمال المؤمن على الجباية والمال، المستوفي شروط الفضل على الكمال تواضع - رحمه الله - مع العلو وليس شعار السكون والهدوء، وبذل المجاملة للصدوق والمسالمة للعدو، ولازم مجالس الملوك بحيث يضر وينفع ويحط ويرفع!؟ فما شاب بالإساءة إحساناً ولا أعمل في غير المشاركة لسان، إلى غير ذلك من الأدب العطر النسيم السافر عن الحيا الوسيم، واشتهر بالوفاء اشتها دارين بطيها، وأياد بخطيها، فكان حامل رايته ومحرز غايته... وله أدب يصيب شاكلة الرسي بنباله، ونظم تضحى المعاني قنائص حباله".⁴

بيت ابن داود البلوي بوادي آش

بوادي آش وُلد علي بن أحمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن داود حوالي سنة 836 هـ، وبها نشأ وتعلم⁵ على علمائها وعلماء الأندلس قاطبة وأجازه كذلك علماء المغرب الأوسط، وروى عنهم في سنوات مختلفة، فممن قرأ عليه بالأندلس: أبو القاسم محمد بن أحمد الفهري وإبراهيم بن فتوح الغرناطي قرأ عليه العقلات، وعلي محمد السرقتي الفقه، وأجازه محمد بن أبي القاسم المشدالي (ت 866 هـ) من بجاية، والقاضي محمد بن أحمد التلمساني تلميذ قاسم العقباني.⁶

¹ نسبة إلى بلي بن عمرو بن الحارث بن قضاة، أنظر: ابن الكلبي، نسب معد واليمن الكبير 705/2، ابن سلام. كتاب النسب، ص 371، الحازمي. عجلة المتدعي، ص 55، المقضي. معجم البلدان والقبائل اليمنية 195/1.

² تقع شمال شرقي غرناطة، وتبعد عنها بنحو 55 كلم، وهي على نهر فردس، أنظر: ابن غالب. فرحة الأنفس، ص 283، الرشاطي. القياس الأنوار، ص 90، ابن الخراط. اختصار القياس الأنوار، ص 195، الحميري. الروض المعطار، ص 604، ابن الخطيب. معيار الاختيار، ص 112.

³ معيار الاختيار. ص 112.

⁴ أوصاف الناس. ص 43-74، وجماعة الكتاب 387/2.

⁵ ابن داود البلوي. بيت البلوي، ص 193.

⁶ ابن داود البلوي. بيت البلوي، ص 104، 156، 186، 189، السحاري. الضوء اللامع، 167/5، القرابي. توشيح السدياج، ص 113، التنيكي. النيل 384/1.

استفاد علي بن داود البلوي من مسيرته العلمية تلك كثيرا، فقد برع في الفقه والقراءات والعربية، وصفه ابن غازي بـ: "الفقيه العالم العلامة الأكمل" صاحب إنشاء بديع وتوقيع رفيع،¹ أي أنه برع في الخط أيضا. اشتغل أبو الحسن علي بن داود في موطنه الأصلي وادي آش بالإمامة والخطابة في الجامع الأعظم بها، وفيه كان يعقد حلقات درسه لطلابه، يُدرس الفقه واللغة ويقراء القرآن بوجوه القراءات المختلفة، ثم ارتحل بأسرته إلى غرناطة عاصمة مملكة بني الأحمر، فولي فيها خطابة جامعها الأعظم، وأضيف إليه قضاء الجماعة بها، فلم يمكث في هذا المنصب الأخير أكثر من شهر حتى اعتزله تورعا² 19²

نروح بيت ابن داود البلوي إلى تلمسان

شهدت غرناطة حالة من الاضطرابات والفتن والأحداث الجلييلة إذانا بسقوطها منذ سنة 749 هـ، حيث عم الوباء كل الأندلس وكان له أثر كارثي على ديموغرافية مملكة بني الأحمر وأضعف طاقاتها البشرية وجندتها الحامي لبيضتها، بالإضافة إلى الصراعات الداخلية بين أبناء البيت الحاكم، وبينهم وبين قوادهم ورجال دولتهم، وكثرة الثوار ومشعلي الفتن فيها.

وعلى مستوى الصعيد الخارجي استغل ملوك قشتالة النصارى هذه الأوضاع فأخذوا في الاستيلاء على القواعد والثغور والحصون بالحرب تارة وبتنازل النصرين لهم تارة أخرى، فسقط جبل طارق في أيديهم سنة 867 هـ — إذانا بمنع الإمدادات من العدو المغربية، ثم اتحدت مملكة قشتالة وأرغون سنة 884 هـ بزعامة إيزابيل وفرناندو، فاستولت جيوشهم على مدينة الحمة سنة 887 هـ ونازلوا مدينة لوشة في نفس السنة، ومدينة بلش شرقي مالقة سنة 888 هـ — إلا أنهم انهزموا في هاتين الأخيرتين ثم استولوا على حصن قرطمة وذكوان ورندة وحصن قبيسل وما جاوره سنة 890 هـ، وفي هذه الظروف الحالكة قامت ثورة أهل ريبض البيازين من المسلمين على أهل غرناطة سنة 891 هـ، والنصارى مازالوا يستولون على المدن والقلاع، فسقطت لوشة وألبيرة وحصن الملكين وقلنبيرة في أيديهم سنة 891 هـ، وتجدد القتال بين أهل الريبض المذكور وأهل غرناطة في شوال من نفس السنة إلى غاية محرم سنة 892 هـ، واحتلت بلش دون قتال سنة 892 هـ، وحصرت مالقة لمدة طويلة إلى أن سقطت في نفس السنة وحاصر النصارى كذلك بسطة في نهاية سنة 894 هـ، واستولوا عليها بتواطؤ مع قواد البلد سنة 895 هـ.³

في هذه الظروف أدرك خطيب غرناطة أبو الحسن علي بن داود البلوي أن المقام في غرناطة ضرب من الانتحار، فكل الدلائل بالنسبة إليه ستؤدي حتما إلى زوال مملكة بني الأحمر وتقضي على الوجود الإسلامي بها، وبدا له أن يهاجر إلى موطن آمن ما دام يملك فسحة وقت، فخرج منها فعلا بعد سنة 890 هـ مع أسرته وأبناء

¹ فهرس ابن غازي ص 27.

² ابن داود البلوي، لبث البلوي، ص 179 - 180، السخاوي. الضوء اللامع 167/5، القراني. توشيح الديباج، ص 113، التنجيني. النيسل 384/1.

³ أنظر تفاصيل هذه الوقائع: مؤلف مجهول. لبذة العصر، ص 52 وما بعدها، الحجي. التاريخ الأندلسي، ص 548 وما بعدها، أسعد حومد. محنة العرب في الأندلس، ط 1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1400-1980، ص 82 وما بعدها.

بعض قرابته واختاروا تلمسان مستقرا لهم، وقد صدقت توقعاته فلم يمض طويل وقت على هجرته حتى سقطت غرناطة وانتهى الوجود الرسمي للمسلمين في الأندلس قاطبة سنة 897 هـ.¹

فمن الأعلام المشهورة في بيت ابن داود البلوي: أبو الحسن علي المذكور وابنه الفقيه صاحب "الثبت" أبو جعفر أحمد وأخيه محمد وأخيها أبو القاسم، لكن من المؤسف ألا تمتلك تفاصيل وافية عن هذا البيت.

أما أبو الحسن علي فالذي نعرفه عنه أنه عاش بتلمسان نحوًا من سبع سنوات، وهو دون شك قد اشتغل فيها بالتدريس والتعليم والإقراء، وكان على صلوات وثيقة بعلماء تلمسان ونظرانهم في أقطار المغرب الإسلامي، فقد كتب رسالة إلى علماء فاس يطلب منهم إجازته هو وبنيه الثلاثة المذكورين وقرابته، ومن هؤلاء العلماء ابن غازي العثماني الكتامي الأصل المكناسي (ت 919 هـ)، وهذه الإجازة مؤرخة بيوم 8 جمادى الثاني سنة 896 هـ.²

أما ابنه أحمد المكني بأبي جعفر، فقد ولد بوادي آش موطن والده وانتقل معه إلى غرناطة ومنها إلى تلمسان، قرأ على والده القرآن العظيم برواية ورش وقالون ونافع وابن كثير، وقرأ عليه كتاب أبي عمرو الداني في القراءات، وقرأ على أبي القاسم محمد الفهري شيخ والده المذكور، ودرس على أبي الحسن علي القلصادي الشهير، ومحمد بن أحمد السلمي المعروف بالجدالة، وأخذ كذلك عن عبد الله بن إبراهيم الجابري الغرناطي وعن الإمام المواق.³

وفي تلمسان قرأ على محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف في شوال سنة 896 هـ، ومحمد بن عبد الله ابن عبد الجليل التنسي التلمساني وأجازته في شعبان سنة 895 هـ، وقرأ على محمد بن سعد الأندلسي التلمساني، وأحمد بن محمد زكري التلمساني.⁴

وصفه ابن غازي بـ: "الفقيه المتفتن المشارك الحجة الجامع المصنف، الناثر الناظم الأمضى الأدرى الأكمل"،⁵ مما يعني أنه متمكن في الفقه ومتضلع في الأدب، ينظم الشعر ويجيده، مع مشاركة في بعض الفنون العلمية الأخرى، إلى جانب دماثة الخلق وزكاة النفس وطيب السريرة.

أما الشيخ مخلوف فقد وصفه بـ: "الإمام الفقيه العالم الماهر الألمي".⁶ كتب أبو جعفر أحمد بن داود البلوي رسالة إلى علماء فاس أبان فيها عن أدبه وبلاغته وفصاحته، افتتحها بقوله: "الحمد لله الذي نزل أحسن الحديث، ورفع درجات حماة السنة من رواة الحديث، وجعل في اجتماعهم في القلم للذب عن حوزة الدين القوم رحمة في الحديث، فلولا ذلك لأحمت منه الرسوم والتحق الموجود بالمفقود والمعلوم بالمعلوم، ولما امتاز الطيب من الخبيث، والعروة الوثقى من النسب الواهي الرثيث، وثبت لأهلها هذه

¹ المقرئ. أزهار الرياض 71/1.

² ابن غازي. فهرس ص 27-28.

³ ابن داود البلوي. ثبت البلوي، ص 156، 180، التكني. النبل 149/1، ابن مخلوف. شجرة النور الزكية، ص 272.

⁴ ابن داود البلوي. ثبت البلوي، ص 217، 318، 414، 418، التكني. النبل 149/1، ابن مخلوف. شجرة النور الزكية، ص 272.

⁵ فهرس ابن غازي، ص 24.

⁶ شجرة النور الزكية، ص 272.

الرفعة الشاححة بما أورثهم من علومه الجممة الراسخة، وناهيك شرفا بهذه الرفعة وذلك التورث صلاة تفحم الجو أرجا، وتسليم يتوالى حججا، ما تحمل من أمل لثم ترابه في جنب اللجا إلى جنبه السفر الشاق والسير الحثيث".
وبعد هذه المقدمة أفصح عن مقصده وغرضه من الرسالة، وهو طلب الإجازة منهم، له ولأخويه محمد وأبي القاسم كما طلبها من قبل أبوه، والإجازة أيضا لأهله وبني عمومته ممن توفرت فيه أهلية الإستحارة، ويظهر أن قرابته ممن هاجر معه كذلك إلى تلمسان في نفس الفترة، ومما جاء في هذه الإستحارة: " .. نرغب ممن يقف على هذا المكتوب من السادة الأعلام القادة أئمة الإسلام، من أهل مدينة فاس أمنها الله تعالى وأبقى بركاتهم ونفع بهم ونفع بصالح عدواتهم، أن يمنوا بإسعاف رغبة من تسمى آخره في الإجازة العامة المطلقة التامة، لهم في جميع مروياتهم ومروياتهم، ومرتبلاهم ومنقولاتهم ومقولاتهم، وجملة ما يحملونه عن شيوخهم الجللة الأعلام من العلوم وتصانيفها، على اختلاف صنوفها من منثور ومنظوم، وسائر ما يصح إسناده إليهم أو يتوقف الرواية فيه عليهم، من كل ما ينطلق [كذا، والصحيح ينطبق] عليه اسم مروى من مقروء ومسموع ومتناول ومجاز بأي أنواع الإجازة كان، ممنعين مع ذلك بالإفادة لتحصيل الفائدة المطلوبة، وتتم المنة والمنحة المرغوبة ومتبعين ذلك بذكر موالدهم والرفع في أنسابهم، ومستوفين لأسماء تأليفهم نظما ونثرا ومصنفاتهم في أي فن كانت، لتقع الإجازة في جميع ذلك على التعيين ويشمل عمومها ما شذ عنها على طريقة الأعلام المتقدمين أمثالهم، وعلى طريقتهم المثلى من التلطف بالإجازة حالة الكتب والتفضل بكتب خطوطهم بأيديهم لتحصل البركة وتتم الفائدة"، ثم ختم استجارته بالدعاء لهم ببركة العمر ورفعة المقام والذكر، وإني أقول ما قاله ابن غازي ذاته: "ونقلته بطوله لسهولة مسافة وعذوبة مذاقه"، الإستحارة مؤرخة بيوم الأحد 14 ذي الحجة 894 هـ.¹

كتب أبو جعفر أحمد هذا كتابا ثانيا إلى ابن غازي على وجه التخصيص وطلب منه أن يميزه ويحيزه ويحيز أخويه المذكورين، واشترط عليه أن يكتب له الإجازة، ويبدأها بالحديث المسلسل بالأولية أي أول حديث سمعه من شيخه إلى أن ينتهي السند إلى الصحابي الذي يقول: "وأول حديث سمعته من رسول الله ﷺ كذا"، وذلك سنة 896 هـ شهر ربيع الأول، مما دفع ابن غازي بقوة لهذا السبب أن يولف فهرس شيوخه المسمى "كتاب التعليل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد"،² ليقدم خدمة جليلة للكتابة التاريخية التي بدأت تعيش مرحلة الاضمحلال، ويساهم في المحافظة على اتصال سند الثقافة الإسلامية في الغرب الإسلامي، ويعطي للأجيال القادمة فرصة الإطلاع على هذه الحياة، ويعطي للباحثين فرصة دراستها.

الأثر العلمي لبيت ابن داود البلوي في تلمسان

لم يتطرق من ترجم لأبي جعفر أحمد بن علي بن داود البلوي إلى نشاطه في تلمسان مطلقا، لكن ذلك لا ينفي أنه كان يشتغل بالتدريس شأن والده، يدرس الفقه واللغة والأدب والعروض، وهذا الفن الأخير ألف فيه كتابا تحف به المكتبة الإسلامية في العصر الوسيط وهو "شرح الخرزجية"،³ كما ألف "أرجوزة في الفرائض"، شرح

¹ ابن غازي. فهرس، ص 24 - 27.

² ابن غازي. فهرس، ص 27.

³ التنبكي. النيل 1/149، ابن مخلوف. شجرة النور الزكية، ص 272.

أصها ابن القاضي المكاسي وسماه "الرائض لطالبي فهم الناهض بأعباء علم الفرائض" وتوجد منه محاضرة
ياخزانة الحسينية بالرباط تحت رقم 8840.¹

والتأليف الثالث هو فهرسة شيوخه المطبوع بعنوان "ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي" وهو
تأليف قيم، خدم به تاريخ المغرب الأوسط خدمة جليلة من خلال تراجم شيوخه التلمسانيين، بالإضافة إلى
الجزئيات التي ترد في تراجم غير التلمسانيين حين يبحث في شيوخهم ومؤلفاتهم ومروياتهم وأسانيدهم، وينفرد
بمعلومات لا تجدها عند غيره تخص علماء المغرب الأوسط، والمذكورون عنده منهم هم:

- 1- محمد بن أبي القاسم المشدالي البجائي (ت 866 هـ).
- 2- القاضي محمد بن أحمد الحسني التلمساني.
- 3- جمال الدين بن مسعود بن صالح الزواوي (في المشرق).
- 4- أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب.
- 5- أبو عثمان سعيد العقباني قاضي الجماعة بتلمسان.
- 6- ابنه قاسم العقباني.
- 7- وحفيده إبراهيم بن قاسم العقباني.
- 8- محمد بن محمد مرزوق الكفيف وترجمته هنا أوفى وأطول ترجمة جاءت في مائة صفحة.
- 9- أبو موسى عيسى بن الإمام التلمساني.
- 10- أبو الفضل زيد بن الإمام التلمساني أخوه.
- 11- عبد الله بن مسعود بن علي القرشي المعروف بابن القرشية الجزائري (حيا سنة 854 هـ).
- 12- محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي صاحب "نظم الدرر والعقبان".
- 13- أبو عبد الله محمد بن سعد الأنصاري التلمساني الأندلسي الأصل.
- 14- أحمد بن محمد بن زكري التلمساني.²

هذا وقد ساهم أيضا بشكل مباشر في الكتابة التاريخية من خلال الروايات التاريخية الشفوية أو المكتوبة التي
نقلها ابن مريم، وجعلها مصدر مهم في كتابه كما في ترجمة شيخه القلصادي وابن عبد الجليل التنسي وابن
مرزوق الكفيف.³

أما أخواه محمد وأبو القاسم اللذان هاجرا هما الآخران من غرناطة إلى تلمسان فإن لم أقف لهما على ترجمة
مطلقا، ولم يذكر إلا عرضا مع ذكر أخيهما أبي جعفر أحمد بالخصوص، فقد كانا شريكان له في استجازة علماء
فاس، وشريكاه أيضا في استجازة ابن غازي وكتب هو نيابة عنهما، وهذا يدل على أنهما كان مؤهلين للإجازة
أي كونهما من المشتغلين بالعلم والفقهاء، وإن لم يبلغا درجة أخيهما أحمد أو أبيهما علي.

¹ المنوي. نماذج من التكامل الثقافي بين المغرب والأندلس عبر عصر غرناطة. ص 154.

² ابن داود البلوي. ثبت البلوي، صفحات متفرقة.

³ أنظر: البستان، ص 149، 143، 248، 250.

والكلام ذاته ينطبق على قرابتهما من بني عمومتهم الذين استوطنوا معهم تلمسان، وإن كنا لا نملك حتى مجرد أسمائهم.

هجرة البيت البلوي ونهايته في القسطنطينية

بدأ نجم العثمانيين وقومهم تلوح في الأفق وظهروا في صورة المنقذ والمخلص للأندلسيين وللديوليات الإسلامية المستضعفة مشرقا ومغربا، وبدأ البعض يترج إليهم ويستظل بظلهم منذ أن فتحوا القسطنطينية سنة 857 هـ/1453 م على عهد السلطان محمد الفاتح (1451 - 1481).¹

ومن بين هؤلاء النازحين إليهم، بيت ابن داود البلوي ففي نهاية سنة 897 هـ حسب محقق "تبت البلوي" أنهم نزحوا إلى وهران وبقوا فيها أكثر من شهر ابتداء من 12 ذي القعدة سنة 897 هـ، ومنها نزحوا إلى تونس بجرا في أواخر صفر 898 هـ، ومنها رحلوا إلى القسطنطينية (إستانبول حاليا)، أما علي بن داود فلم يمكث طويلا حتى توفي بمدينة ششمة في رجب سنة 898 هـ، في حين طال الحياة بابنه أبي جعفر أحمد أربعين سنة من ذلك إلى أن توفي هو الآخر سنة 938 هـ.²

فهل هذا التروح كان عاما شمل كل أفراد الأسرة؟ أم أن محمد وأبا القاسم المذكورين وبني عمومتهم بقوا في تلمسان، أو وهران أو تونس؟ وما هي وضعيتهم في كل الحالات في المغرب أو في تركيا؟.

الذي نستطيع أن نقوله هنا أن بيت ابن داود البلوي هو آخر بيت أندلسي يظهر في المغرب الأوسط في نهاية العصر الوسيط، فاسحا المجال لجيل جديد تحت اسم جديد وهو جيل المورسكيين في تاريخ الجزائر الحديث.

¹ راجع شكيب أرسلان. تاريخ الدولة العثمانية، ط1، دمشق- بيروت: دار ابن كثير- دار التربية، 1422-2001، ص 94-114.

² تبت البلوي. ص 47، 195.

الفصل الرابع

بيوتات بجاية في العهدين

الموحدي والحفصي

عرفت بجاية تطورا ملحوظا منذ العهد الحمادي، واستمر هذا التطور في العهدين الموحدوي والحفصي، وكان إقبال الأندلسيين عليها يزداد من قرن لآخر، فظهرت بها لأول مرة نظام " رأس الجماعة الأندلسية".

أما على صعيد البيوتات فقد كان ظهورها بها سابقا على ظهورها في تلمسان عاصمة بني زيان، وذلك في بداية القرن السادس مع بني حمدون الثانية التي تولت مقاليد الوزارة وقيادة الجيش الحمادي، صابغة حياة ما تلاها من البيوتات بصبغة سياسية، قل أن نجد في خضمها بيوتات علمية كما في تلمسان، وتلك البيوتات وصلت إلى أعلى مناصب السلطة في ظل الحكم الحفصي، نظرا للسياسية التي اتبعتها البيت الحاكم في بجاية وتونس من اصطناع الأندلسيين خاصة الإشبيليين، منهم كاستمرار للولاء والمضاهاة والعلاقات التي ربطت بينهم وبين سلف بني حفص يوم أن كانوا ولاة للموحدين على إشبيلية، فأسندوا إليهم الكتابة والوزارة والولاية والحجابة، دون القضاء الذي كان يسند للعلماء من أبناء المملكة الأصليين في الغالب.

فقد كانت المناصب التي شغلها الأندلسيون مدعاة للطموح والتنافس بينهم لكسب أكبر قدر ممكن من النفوذ والجاه الذي يضمن لهم البقاء والاستمرار، فأحيانا يدخلون في تكتلات بينية للحد من نفوذ مشيخة الموحدون وزعماء القبائل البربرية والعربية، وأحيانا يلجئون إلى الدسائس والوشايات لقطع الطريق أمام بعضهم إذا بدأ نفوذ أحدهم يتجاوزهم، لذا فقد شهدت هذه البيوتات في نهاية حياتها نكبات عدة ختمت مسيرتهم بالقتل والتتكيل.

إن لبيوتات بجاية على قلتها مقارنة ببيوتات تلمسان، أدوار سياسية بارزة، وصل نفوذ بعضها إلى درجة أن يخاطب على قدم المساواة مع السلطان الحفصي، كما تشهد بذلك بعض المعاهدات المبرمة بين الجمهوريات الإيطالية والدولة الحفصية، وليس ذلك بالغريب فقد تحولت الولاة والحجابة أبناء هذه البيوتات إلى مستبدين بالسلطة في بجاية كما فعل ابن سيد الناس وابن الغمر، ووصل حد الاستبداد بإعلان الانفصال عن تونس وتكوين إمارة مستقلة يحكمها أمير حفصي لا يملك من السلطة إلا الأهمية وتترف القصر والدعاء في خطبة الجمعة. لكن بدأت تضعف تلك البيوتات مع نهاية القرن الثامن بضعف السلطة الحفصية نفسها التي كانوا يستمدون قوتهم من قوتها الرمزية كدولة، وزاد سرها نحو الانحدار بظهور بيوتات محلية منافسة استطاعت في النهاية أن تحسم الصراع والتنافس لصالحها.

اقتصاديات البلد، خاصة إذا كانوا متمسكين بولائهم للسلطة السابقة كما هو الشأن في أسرة ابن عمر هاته، التي استمر تميمها أيام الميوقيين إلى غاية استرجاع بحاية من قبل الموحديين سنة 581 هـ.

الجيل الثاني المؤسس الحقيقي لبيت ابن عمر الأنصاري

في بحاية ولد للأسرة طفلها الذي سموه ربيعا وكنوه أبا زهر، فنشأ بها ودرس وتعلم علي يد ثلة من علمائها التي كانت تزخر بهم المدينة من أصلاءها والوافدين إليها خصوصا من الأندلس، فتطلع في الفقه وهو صناعة العصر آنذ، ونبغ في علم العربية والأدب والخط مما سمح له بأن ينظم في شبابه إلى بلاط والي بحاية الموحدية فولاه أمر الكتابة واستمر في وظيفته مدة طويلة اكتسب منها مالا جليلا وشهرة عريضة، إلى أن جرى له موقف غير مجرى حياته، فطلب من والي بحاية أن يعفيه من مهامه في الكتابة وذلك قبل سنة 594 هـ فأسغفه في طلبه. تزامن هذا التحول مع وجود الصوفي الشهير القطب أبي مدين الغوث في بحاية، وأما هذا الموقف فيرويه عنه الغريبي وينقله ابن قنفذ كذلك¹ حيث أن أبا زهر ربيع " رأى رؤيا مهولة، وهي أن القيامة قامت وأنه يساق ليقذف في النار وأنه سأل عن السبب، فقيل له: بسبب ما اكتسب من المال! واستغاث فخلّى عنه"، ومن ذلك الحين نزع نفسه من خدمة الولاة وسلك طريق الزهد وملازمة العبادة ومجاهدة النفس، مظهرا التوبة من مسلكه القديم ولزم القراءة والتفقه وجنح إلى كسب رزقه وضمأن معاشه بامتھان حرفة الخياطة، إلا أن حاله بعد ذلك ضاقت وأصبحت في غاية من السوء لعدم كفاءته في عمله ولقلة ما تدره عليه حرفته، الأمر الذي دفعه إلى أن ييئ شكواه إلى أقرب الناس إليه: والدته، رغبة منه وأملا في أن يجد عندها فرجا لما حل به، فقالت: "يا بني والله ما عندي شيء ولا أعلم لك نفعا سوى هذا الرسم - وهو رسم دار كانت لها واغتصبها الموارقة حين دخولهم بحاية واستمر الغصب عليها - فخذها واطلب الدار فهي لك"².

ولمعرفة موافقة هذا الاقتراح للشرع استفتى أبو الزهر ربيع فقهاء بحاية في جواز طلبه لحقه، فأفتوه " بجواز الطلب، وأن الحق لمستحقه واجب"، وبما أن أبا الزهر ربيع قد غلب على طبيعه مسلك الزهد والسورع فإنه لم يرض ولم يقنع بفتوى الفقهاء الذين يسميهم "فقهاء الدنيا"، لذا سيتجه إلى "فقهاء الآخرة" للحسم في المسألة³ وتحديدًا إلى قطب الصوفية أبي مدين شعيب، وهو حينئذ بالمسجد المعروف لوقته بمسجد الفقيه أبي زكريا

¹ عنوان الدراية، ص 58 - 59، أنس الفقير، ص 146.

² الغريبي. عنوان الدراية، ص 59، ابن قنفذ. أنس الفقير، ص 146.

³ يفرق بعض الصوفية بين نوعين من الأحكام التعبدية فمنها ما يوافق عين الشريعة وهي رتبة لصيقة بالعوام و الفقهاء منهم، وأحكام توافقت عين الحقيقة وهي رتبة مخصوصة بالأولياء المتصوفة، وهو في نظر الفقهاء تخصيص لا يقوم على دليل من النقل والعقل معا فالشريعة موافقة دائما للحقيقة والمكس، وعلى أساسه حكموا على غلو وضلال بعض المتصوفة، أنظر: أبو إسحاق الشاطبي. الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز وآخرين، بيروت: دار الكتب العلمية، 2/ 189، و2/ 197-212، محمود الألويسي. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 6/ 192، وفي هذه المسألة ألف إبراهيم بن أبي الفوارس الفارسي كتابه "بستان المعرفة ومنهاج الحقيقة والشريعة"، وألف شمس الدين السنحري كتابه "مجمع البحرين في علم الحقيقة والشريعة"، وألف العالم الجزائري الصوفي عبد الرحمن الثعالبي كتاب بعنوان "الأنوار المنيرة الجامعة بين الحقيقة والشريعة"، أنظر على التوالي: حاجي خليفة. كشف الضنون 1/ 244، 4/ 1599، سركيس. معجم المطبوعات 1/ 661. وكتاب الثعالبي المذكور منه نسخة مخطوطة بالجزارة الملكية بالرباط رقم 7125. وأنظر ماتلق بهذه المسألة أي جدلية الفقيه والصوفي: نللي العامري. المجتمع والولاية، (الباب الخامس: مجتمع ذو جناحين: الأولياء والفقهاء)، ص 431-505.

الزواوي بحومة اللؤلؤة، فقص عليه قصته وسأله الفتوى فيها فأحاله بدوره إلى العظيم جل شأنه قائلاً: "استفت ربك يفتيك! وقلت ياسيدي هل بلغت أن يفتني ربي؟ فقال لي استفت ربك يفتيك! قال: وكان هذا وهو ينتظر صلاة الصبح"، ثم ساق تنمة القصة فقال أبو الزهر ربيع: "فأقام المؤذن الصلاة وتعلقت نفسي بالفتيا فلما كنت في الركعة الثانية من الصلاة عرض علي شبه سنة فرأيت مرجاً مريعاً مخضراً رائق الجلباب، وفي وسطه بركة ماء كأنها اللجين وفي ذلك المرج طاووس لا يرى في طاووس الدنيا مثله، وإذا به يخاطبني بلسان فصيح ونطق بين صريح يقول لي: أطلب حقاً واجباً، فأتممت الصلاة وجلست بمجلسه المبارك لاستماع الذكر وبعد فراغه وانصراف الناس عنه أقبل علي (أي أبا مدين) وقال لي: أفنك ربك؟ فقلت له أفناني يا سيدي"،¹ وعد هذا من كرامات أبي مدين وهو ما يسميه أصحاب التصوف بكرامات منزل المشاهدة والمكاشفة.²

وقد استمر أبو الزهر ربيع في مسلك الزهد الذي ارتضاه لنفسه وأخذ يواظب على مجالس أبي مدين حتى أصبح من أصحابه وخواصه ومريديه، ليعرض بصحبته آياه وجاهة المنصب الذي تحلى عنه طواعية، فقد "كان ببركة الشيخ أبي مدين وظهور عنانيته، من إنتسب إليه تكرمه العلماء والصلحاء والسلاطين".³

خلف أبو الزهر ربيعاً ولداً اشتهر فيما بعد، وعليه قامت شهرة البيت وهو عبد الحق المكنى بأبي محمد، ولد ببجاية ونشأ بها تنشئة أبناء الفقهاء الكتاب ثم المشايخ الزهاد، وبها قرأ على شيوخها وعلمائها التي تعج بهم منذ قرنين على الأقل من زمن عبد الحق هذا، وهو نفسه يشهد بزخم هذه الحركة حيث يقول: "أدركت ببجاية ما ينيف عن تسعين مفتياً" فيعقب الغريبي على ذلك بقوله: "إذا كان من المفتين تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم لمن لم يدركه، كان الناس على اجتهاد، وكان الأمراء لأهل العلم على ما يليق ويراد"،⁴ وهو الحال الذي أغراه بعدم مغادرة بجاية والاكتفاء والقنوع بعلمائها دون سواهم.

وفي الترجمة الوحيدة التي كتبها الغريبي عن عبد الحق بن ربيع أهل فيها ذكر شيوخه السنين أخذ عنهم ودرس، كما أهل ذكر المؤلفات والروايات التي كانت عمدة حلقاتهم ومجالسهم العلمية، وكان من الممكن أن نعرف ذلك حين ترجم لأحد أصحابه ممن درس معه وشاركه في شيوخه؛ وهو عبد المنعم بن محمد بن يوسف ابن عتيق الغساني الجزائري (توفي بعد 680 هـ)،⁵ لكن في هذه الترجمة أهل الغريبي ذاته ما أهمله مع عبد الحق بن ربيع على غير عادته في بقية تراجم كتابه.

وكان من الممكن أيضاً أن نعرف ذلك من خلال دراسة أسانيد الغريبي أحد أشهر تلاميذه من خلال "بونابجه"، خصوصاً وأن عبد الحق بن ربيع ممن لازمهم طويلاً وأخذ عنه باستفاضة، إذ لا تتاح له فرصة إلا

¹ الغريبي. عنوان الدرابة، ص 59-60، ابن قنفذ. أنس الفقير، ص 146.

² الساحلي المالقي. بهمة السالك في أشرف المسالك 503/2-506، ابن الخطيب. روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424-2003، ص 344.

³ ابن قنفذ. أنس الفقير، ص 85.

⁴ عنوان الدرابة، ص 69، 85 وأنظر عن هذه الحركة العلمية أيضاً: صالح الحضوري. النشاط الثقافي لعلماء بجاية الألفية من خلال كتاب "عنوان الدرابة" لأبي العباس الغريبي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، عدد 38، 2002، ص 39-45.

⁵ عنوان الدرابة، ص 123.

إهتبلها مشيا عليه في ذلك ومطريا "أما شيخنا أبو محمد عبد الحق بن ربيع فكثر الاستفادة عنه والبحث والمباشرة والتكرار في أكثر الأزمنة، وإلقاء الصعاب وحلها بالكتب والمحاولة حتى جرى ذلك مجرى الدرس"¹، وأكثر من ذلك فهو يعد بالنسبة إليه من الأساطين الذين كانت عمدته عليهم في تحصيل علوم الرواية، يقول في ذلك: "أما علوم الرواية فحصلت لي عن جملة من شيوخ المتقدم ذكرهم وهم: شيخنا أبو محمد عبد الحق ابن ربيع الأنصاري، وشيخنا أبو محمد القيسي وشيخنا أبو محمد بن عبادة وشيخنا أبو عبد الله الكناي وشيخنا أبو العباس الصديقي، هؤلاء عمدة من تقع الرواية عنهم"²، إلا أن الخية ستلقي بظلالها على متصفح "البرنامج" إذ أننا لا نعثر على ذكر لعبد الحق بن ربيع في أي سند من الأسانيد التي يوردها بعد ذلك ولو لمرة واحدة! عكس شيوخه الآخرين الذين اقترنت أسموهم باسم عبد الحق بن ربيع في عبارته التي أثبتناها.

إن هذا الواقع سيدفعنا لإعادة قراءة الكتاب (عنوان الدراية وبرنامج مشيخة الغريبي) من جديد، لأن من خلال ذات مواده المختلفة والمبثوثة في ثنايا التراجم الأخرى نستطيع إعادة تركيب تقريبي لقائمة شيوخ ابن ربيع ومروياته عنهم.

فأشهر شيوخه كان من أقطاب التصوف المغربي وهو أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي الشهير بالخرالي (تـ 637 هـ) الأندلسي الأصل المراكشي المنشأ، "الشيخ الفقيه العالم المطلق الزاهد الورع بقية السلف وقُدوة الخلف نسيج وحده"، له مؤلفات عديدة في العلمين: النقلي والعقلي كأصول الفقه وأصول الدين والتفسير والتعاليم (الرياضيات) والمنطق، وعلم الطبيعيات والإلهيات هو أعلم الناس بها.

أخير تلميذه عبد الحق بن ربيع أنه قرأ عليه كتاب "النجاة" لابن سينا، "فكان ينقض عراه وذلك بعد أن يوضح منه ما يليق، ويقرره بأحسن طريق ثم ينقضه ويوهنه"³.

ومنهم أيضا الشيخ المجتهد أبو العباس أحمد بن عثمان المتوسي (تـ 644 هـ)، كانت له رحلة إلى المشرق لقي فيها الجملة والأفاضل أقرأ ببجاية وأسمع، كان عالما بالعربية إماما في الفقه وأصول الدين مع حظ من التصوف⁴، عمدته في حلقات الفقه كتاب القاضي عبد الوهاب البغدادي⁵ المسمى "العلقين" وهو أشهر كتبه وأجلها وأكثرها ذكرا في مؤلفات المالكية⁶ أو كما قال عنه محمد الحجوي الثعالبي الفاسي: "وهو على صغره من خيار الكتب وأكثرها فائدة"⁷.

¹ برنامج مشيخة الغريبي، ص 307 - 308.

² المصدر نفسه، ص 309.

³ الغريبي. عنوان الدراية، ص 146 - 147.

⁴ المصدر نفسه، ص 171.

⁵ عبد الوهاب بن نصر بغدادي الأصل وبها نشأ ثم رحل إلى مصر في أعوام حياته وبها توفي سنة 422 هـ وهو من أشهر علماء المالكية وكبار فقهاها، أنظر: الخطيب البغدادي. تاريخ مدينة السلام (لتاريخ بغداد)، تحقيق بشار حواد معروف، ط 1، بيروت: دار العرب الإسلامي، 1422 - 2001/12/292.

⁶ محمد إبراهيم علي. اصطلاح الملعب عند المالكية، ص 272.

⁷ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي 236/4.

ومن شيوخه كذلك الفقيه العالم الناسك الوجيه أبو الحسن علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله البجلي (تـ 652 هـ) كانت له رحلة إلى الأندلس ثم إلى المشرق، ممن له علو السند في الحديث "روى عنه الأندلسيون بحياة لقصور سندهم" عن سنده في "صحيح الإمام البخاري"، فعنه أخذ ابن ربيع الحديث وعلومه.¹

بالإضافة إلى الأستاذ الفقيه النحوي اللغوي التاريخي المنطقي، أبو محمد عبد الله بن محمد الأغماتي نزيل بجاية وقاضي بعض جهاتها، له تحصيل بين في كتاب سيبويه، قال عنه عصريه ابن ميمون القعلي الجزائري (تـ 673 هـ) الشهير بأبي عبد الله الأديب: "كان أعلم الناس بكتاب سيبويه، وما رأيت أعرف منه بمقاصد كتاب سيبويه ولا أشد منه تنظيرا وفهما لمسائله، وأما كراس أبي موسى الجزولي ومفصل الزمخشري فكانا عنده من المبادئ".²

ولا ينبغي هنا أن نغفل دور والده الكاتب الزاهد الفقيه أبو الزهر ربيع، فبواكير حياته العلمية من تعلم مبادئ العربية والكتابة والحساب والقرآن والفقه كانت على يديه وهذا ما سنرى أثره فيما بعد، وكذا التربية العلمية السلوكية خاصة التصوف فهما معا يشكلان إحدى طرق السند المنبثق عن أبي مدين شعيب³

والجدير بالذكر أن جل مشائخه كانوا من المتصوفة ومن الزهاد وهو ما سينعكس أيضا على شخصيته وطبعه ويكون له أثر كبير في توجهاته.

اكتسب ابن ربيع في مسيرته العلمية مهارات ومعارف عديدة فقد نبغ في الفقه والأصولين: أصول الدين وأصول الفقه والمنطق والحساب والفرائض والتصوف، وإلى جانب ذلك كان يجيد الكتابات: الشرعية والأدبية، قال عنه معاصره الفقيه الذائع الصيت أبو المطرف ابن عميرة المخزومي: "أما الكتابة الأدبية فنحن فيها وإياه على نسق، وأما الشرعية فقد انفرد بها عن الناس"، وما منع الغريبي أن يورد للأجيال التالية بعض نماذج من كتابته إلا مخافة الإطالة على حد تعبيره، وهو ما ضيع هذا التراث إلى الأبد كأنه لم يكن، في حين سلم تراث الكتابة الأدبية لابن عميرة.

إن هذا النبوغ في الكتابتين هو دعوة أبيه فيه قد أحييت أيام تأديته لمناسك الحج بمكة؛ إذ دعا له أن يرزقه الله "لفظا وخطا"، فكان كذلك لأنه يدرك قيمة العلم والأدب والكتابة وما تكسبه لصاحبها من جاه وشرف وحياء الرغد، فقد كان حسن الخط جميله حتى وصف بأنه "ابن مقلة زمانه"،⁴ يكتب بعدة خطوط الشرقي منها والغربي كالخط الریحاني والتحساني والديواني وغيرها يجيدها كلها كأنه لا يعرف غيرها، هذا والخطوط لا تختلط عليه كما هو شأن بعض خطاطي زمانه إذ كانت له مشاركة بين خطين فقط إختلطا عليه.

¹ الغريبي. عنوان الدراية، ص 228.

² المصدر نفسه، ص 197.

³ المصدر نفسه، ص 309.

⁴ هو أبو علي محمد بن حسن بن مقلة الكاتب مضرب المثل في حسن الخط وإبداعه، وزر لثلاث خلفاء من بني العباس المقتدر والقاهر والراضي، إمتحن في آخر عمره، فقطع يده ولسانه وسحن حتى مات سنة 328 هـ، ابن طباطبا. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، ط1، حلب بسورية: دار القلم العربي، 1418-1997، ص 264-267، النهي. العبر 29/2، ابن الصمد. شذرات الذهب 310/2، يحيى وهيب الجبوري. الخط والكتابة في الحضارة العربية، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994، ص 201-214.

وإلى جانب ذلك كان يجيد الشعر ويبدو أنه بدأه في سن مبكرة، فقد نظم قصيدته الصوفية الشهيرة أيام قراءته على الشيخ أبي الحسن الحرالي في نحو خمسمائة بيت، ولشدة إنبهار الشيخ وإعجابه بما قام بتلخيصها له وانتقى منها درر أبياتها ومطلعها:

سفرت على وجه الجميل فأسفرا وبدا هلال الحسن منها قمرا
ودت فكاشفت القلوب بسرها وسقت شراب الأنس كوثرها

ووصفها الغريبي بقوله: "وهذه القصيدة حسنة المعنى قدسية المبني ولقد وقع الحديث معه في مقتضياتها ونظم مفرداتها بمزدوجاتها"¹ أما عن أخلاقه فقد كان له من الخلال الحسان ما لم يكن لغيره مع دعابة مستحسنة مستطرفة "وكان من أملح الناس نادرة على طريقة أمثاله من فضلاء أهل العلم والتخلق وكان إذا أثنى عليه بحسن الخلق يقول: قال النبي ﷺ: (أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن)²، ومن لم يكن عنده أول ما يوضع في الميزان لم يكن عنده غيره، لأن هذا إنما يجري مجرى الأساس"، ومن صفاته التي أثنى عليه بسببها معاصروه: فسلامة الباطن والسمت الحسن ورقة عبارته، وملح إشارته، وهاتان الصفتان الأخيرتان لا تأتيان إلا لمن ملك ناصية الأدب واللغة، وكان مفوها خطيباً.³

عبد الحق بن مريع والوظائف العدلية

تقلد عبد الحق بن مريع عدة وظائف، فقد تخطط بداية بالعدالة التي أصبحت صفة لصيقة بشخصه واستتابه قضاة بجماعة المتعاقبين في جميع الأحكام واتخذوه لمشورهم، وعولوا على ما عنده من علم وفقه وقدرة على فهم الأحكام وتزليلها على الوقائع، حتى غدا بحق قاضي القضاة دولهم، "لأن مرجع أمرهم إنما كان إليه"⁴.

¹ الغريبي. عنوان الدراية، ص 86 - 88 .

² الطبراني. المعجم الكبير 24 / 253، حديث رقم 647، ابن أبي شيبة. المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط1، الرياض: مكتبة الرشد، 1409، 5 / 212، حديث رقم 25337.

³ الغريبي. عنوان الدراية، ص 86.

⁴ الغريبي. عنوان الدراية، ص 86، التنكي. العيل 310/1 والكتابة ص 206، القرائ. العرش، ص 138.

كما اشتغل بكتابة الوثائق¹ محكما لصناعتها، لم يكن أحد من أهل بجاية له نظيرا ومنافسا يجاريه في صنعتها،² ربما جمع بين النياحة في القضاء وصناعة الوثائق في نفس الوقت، ومما يدل على ورع عبد الحق ابن ربيع ونزاهته في أحكامه أن قاضي بجاية الخفصية أبو العباسي أحمد بن الغماز البلنسي (ت 693 هـ) أقرض شخصا مالا ببلد الجزائر ثم إنه حلف له عليه كاذبا وادعى أنه سدد دينه، ومرت الأيام على ذلك إلى أن كان القاضي بمجلس الأحكام يوما فدخل عليه رجلان أحدهما هو غريمه الذي أقرضه، فتحايل القاضي من إعفاء نفسه عن مباشرة الحكم لما بينه وبين أحد الخصمين، فقال لأحد شهود العدل والمشاورين وهو عبد الحق ابن ربيع: "أحكم بينهما حتى أقتضي حاجة"، فلما عاد بعد برهة وجد المجلس على حاله لم يتعقد ونائبه لم يقض فيه بين المتنازعين، ليبادر عبد الحق بن ربيع قائلا: "إنما امتنعت عن الحكم بينهما لأن هذا في نفسي منه شيء، فخشيت أن أحكم عليه فيميل طبعي"³، وهذا من حسنات الرجلين القاضي ابن الغماز ونائبه ابن ربيع، ودليل سلامة باطنهما والتزامهما بالشرع والعدل وإن خالف هوى نفسيهما.⁴

فقيه عبد الحق بن ربيع وعلمه وورعه ونزاهته وقرسه هي الصفات التي حدت بقاضي القضاة والسultan الخفصية أن يرشحاه لمنصب القضاء، فقد عرض عليه قضاء بجاية أول الأمر فأبى وامتنع منه، دون معرفة الأسباب الحقيقية لذلك إذا ما استثنينا مسلك الزهد والتصوف الذي ارتضاه لنفسه، لكن إصرار السلطة الخفصية على تولية أولي الكفاءة قضاء مدفا وحواضرها لتأييد شرعيتها وكسب ولاءات المجتمع من وراء ذلك، دفع بالسultan المستنصر (647-675) إلى أن يكتب عهد تولية من تونس لابن ربيع على قسنطينة بمشاوره قاضي القضاة وفقهاء الحضرة ودون المعنى بالأمر، إلا أن عبد الحق واجه بذلك بإصرار ورفض قاطع رغبة منه واقتناعا بعدم قبول الوظائف الرسمية في الدولة، واعتذر للسultan "وتلطف في الاستعفاء منه"، ولما لم تستطع السلطة أن تلسين من موقف ابن ربيع وأيقنت استحالة ذلك، رضخت لإصراره هو فأعفته.⁵

¹ كتابة الوثائق إحدى المهن المتصلة بالشهادات والأحكام القضائية وهي كما قال ابن عاصم: علم "من أجل العلوم قدرا وأعلاما أنافة وخطرا بها تبت الحقوق وتميز الحرم من الرقيق ويتوثق بها"، وعن متحلها يقول أبو إسحاق الغرناطي: "لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارف بما عدل في نفسه مأمون على ذلك"، ثم أورد له ثمانية شروط، أنظر: أحمد الزجلي. الكتاب اللائق لمعلم الوثائق، فاس، طبعة حجرية، ص 3، أبو إسحاق الغرناطي. الوثائق المختصرة، تحقيق مصطفى ناجي، ط 1، الرباط: مركز إحياء التراث المغربي، 1408-1988، ص 13.

وفي هذه المهنة ألف الوزير الغرناطي كتابا ذمها فيه وانتقص من قيمة ممتنيتها كثيرا، وشكك في حلية الإستزاق منها، أنظر: منطى الطريقة في ذم الوثيقة، تحقيق عبد الحميد التركي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، (الباب الرابع إلى السابع بالخصوص)، وقد رد عليه الفقيه العلامة أحمد الونشريسي وخطأه فيما ذهب إليه، أنظر: المقرئ. أزهار الرياض 297/2.

² الغريبي. عنوان الدراية، ص 123.

³ ابن الطواج. سبك المقال، ص 210.

⁴ في منظومة الأحكام القضائية الشرعية لا يجوز للقاضي أن يحكم على من لا يجوز شهادته عليه كمن كانت بينهما عداوة في أمر الدنيا أو تجارة ونحوها كالحالة المذكورة أعلاه، فإن حكم عليه فالحكم غير نافذ ويفسخ. أنظر: الخشن. أصول الفقه في الفقه على مذهب الإمام مالك، تحقيق محمد المنذوب وآخرين، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب - المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 325، ابن ديبوس، الأحكام، ص 117، ابن فرحون، تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد، ط 1، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1406-1986، 96/1.

⁵ الغريبي. عنوان الدراية، ص 88.

إن موقف عبد الحق بن ربيع ومسلكه هذا هو في الحقيقة عودة بذاكرته إلى سنوات خلعت أيام حلقات
الدرس، لاسترجاع وتأكيد الإيمان بالكرامات، كرامات أقطاب التصوف المغربي من مشائخه كأبي الحسن
الحرالي (ت 638 هـ)، فقد تنبأ لتلاميذته بالصفات والسمات والخطط والتحصيل، وما ستنتهي إليه أحوالهم
كل على حدا، فخص عبد الحق منهم بالتدريس والفتيا والفقہ فظهر عليه ذلك، أما القضاء فقد خص به غيره،¹
كان تنبؤه قضاء وقدر لا يملك الفكاك منه فهو أسره 1؟.

إن هذا مسلك غريب أيما غرابة، إذ يقبل أن يشار في الأحكام وينوب في القضاء ثم يمتنع عن القضاء نفسه،
وهو يمارس حقيقته، والأغرب من ذلك أنه كان يسعى في حوائج الناس ويسدي لهم المعروف وكان مما يسعى
لهم فيه: توليتهم مناصب القضاء وما تعلق بخطتها مما يتزه هو نفسه عنها، فمن ذلك أن أبا إسحاق بن عباس أيام
وجوده في بجاية كان يجتهد ويسعى في نيل خطة القضاء وتحصيل حظونها، فسعى هو في شأنه عند القاضي أبي
محمد بن الطيران "يرسمه يرسم العدالة ويقدمه للشهادة، فطلبه أن يكتب فيه رسماً بتأهله لذلك تحوطاً منه، فكتب
رسماً وشهد فيه وشهد معه شاهد آخر إستكتمه الفقيه (ابن ربيع) في ذلك وأعطى الرسم للقاضي، فأذن له في
الشهادة وبقي القاضي مدة بقائه بها"،² كخطوة أولى في سلم الوصول إلى منصب القاضي نفسه.

تلاميذ ابن ربيع وأصحابه:

أما أصحاب عبد الحق بن ربيع ومقربيه فإننا ندين للغبريني الذي احتفظ لنا بذكر ثلاث أعلام كان وثيق
الصلة بهم، أحدهما أشرت إليه في موضعه وهو عبد النعم الغساني الجزائري الفقيه القاضي الكاتب والخطيب،
كان له أدب وعلم بالفرائض، من أولى التزاهة والوجاهة والديانة، معظما عند أهل بلده بجاية وعند ولاة الأمر،
مؤثرا لطريقة إمام المغرب سحنون في أحكامه وقضائه.³

وثانيهما الشيخ الفقيه الأصولي الحكيم: أبو الحسن علي بن عمران بن موسى الملياني المعروف بابن أساطير
(ت 670 هـ) أحد نحواص الشيخ الصوفي الحرالي، كان له علم بالفقه وأصول الدين والتصوف وعلوم
الحكمة، من عدول بجاية ومن المشتغلين بالوثائق بها، وكان ابن ربيع يقول فيه: "العلم المطلق" وكان يعظمه كما
كان يعظم مشيخته، حتى قال الغبريني: "ما رأيته يعظم أحدا من أصحابه مثل تعظيمه له".⁴

وثالثهما الفقيه المجتهد العالم الجليل الفاضل المتقن المتقن المتقن أعلم العلماء وتاج الأدباء أبو المطرف ابن عميرة
المخزومي البلسي (ت 658 هـ) قل أن يجود الزمان بكاتب مثله، فقد عده الغبريني من أفضل كتاب عصره،
كانت بينه وبين ابن ربيع مراسلات في غاية الإبداع والتفرد في الجودة وسبك البيان.⁵

¹ الغبريني. عنوان الدراية، ص 153.

² المصدر نفسه، ص 89.

³ المصدر نفسه، ص 123 - 124.

⁴ المصدر نفسه، ص 199.

⁵ المصدر نفسه، ص 250-253.

إن شهرت عبد الحق بن ربيع التي لم تحجبها حتى زحمة علماء تونس حاضرة السلطنة الحفصية من أصلاتها والوافدين إليها يوم رشح للقضاء، رغم ذلك فإننا لا نجد من الطلاب من يهتم بعلمه في بجاية التي لم يغادرها عكس معاصره وصاحبه أبي المطرف بن عميرة الذي "فاق تلامذته الحد وتجاوزوا العد" من كثرتهم، بما فيهم أهل بجاية وحواضر المغرب الأوسط الكبرى تلمسان وقسنطينة رغم أن شهرته تقوم على الكتابة والأدب، وقد اعترف بتفوق ابن ربيع عليه في بعضها، الأمر الذي يفسر عزوف أهل المغرب الأوسط أخذهم عن الأعلام الذين نشأوا بينهم وانصهروا فيهم، وانهارهم بالوافدين الوقيين من الأندلسيين على وجه التحديد، إلى درجة تجعلنا نتهم عبد الحق بن ربيع ذاته بالخمول وإثارته للدعة والسكون والأمر بخلاف ذلك يقينا، وما حفظ ماء الوجه إلا أبو العباس أحمد الغريبي فهو أنبغ من درس عليه وأخذ عنه، وهو بالنسبة إليه أحد المصادر التاريخية التي استقى منه مادة تراجمه في كتابه "عنوان الدراية"، فنقل عنه كثيرا من الروايات الشفوية المهمة،¹ مساهما بذلك في حفظ الذاكرة الجماعية - التي كان هو وأسرته أحد ضحاياها - لمجتمع بجاية ومجتمع الغرب الإسلامي بعد ذلك، من التلاشي والنضوب والضمور.

وفاة ابن ربيع وتحقيق سنة ذلك

أصيب عبد الحق بن ربيع بعد حياة حافلة بمرض كان سبب حثفه، وكان ممن زاره حينئذ تلميذه الغريبي ليحفظ لنا مشهدا أخيرا في مسيرته، فلما دخل عليه بادره قائلا: "يا فلان والله ما بي موتي وإنما بي ما قاله أفلاطون لأصحابه لما حضرته الوفاة وحضروا عنده، قال والله ما بي أن أموت وإنما بي أموت ولم أرق بأصحابي إلى مراقبهم التي اقتضتها صفاقم واستحققتها ذواقم".

وسنة وفاته أرخها الغريبي بـ 28 ربيع الأول من سنة 675 هـ.² وتبعه في ذلك من نقل عنه كابن قنفذ والتبكي والقراي وابن مخلوف ونويهض،³ ورغم أن الغريبي وصف ذلك بدقة فذكر أنه دفن بخارج باب المرسى وله مشهد لا يكون إلا للمثله، واستقى تاريخ وفاته من رخامة وضعت على قبره، وأسفلها كتب بيتان من نظم الأديب أبي نصر الجيني وهما:

بكيك عبد الحق حقا لأنني بكيك بك الدنيا وما في جميعها
من الدين والإفضال والعلم والحجا وإن كنت زين الدين يابن ربيها

¹ أنظر: ص 58، 67، 70، 71، 152، 151، 83، 186، 220، 228.

² الغريبي. عنوان الدراية، ص 88.

³ أنظر على التوالي: الوفيات، ص 333، النبل 311/1 والكتابة، ص 206، الوضوح، ص 139، هجرة النور، ص 201، معجم أعلام الجزائر، ص 36.

كل هذه الدقة والضبط إلا أننا نشك في صحة هذا التاريخ وسلامة النقل أو النسخ، والسبب في ذلك وجيه من وجهة نظري، فقد زار الرحالة المحدث الشهير ابن رشيد السبتي بجاية في طريقه إلى المشرق¹ إنطلاقاً من مرسى المرية بالأندلس ما بين محرم 683 هـ. وآخر ربيع الأول من نفس السنة، وهناك إلتقى بعبد الحق ابن ربيع في الفترة المذكورة، وحسب ما ورد عند الغريبي فإن ابن ربيع حينها قد توفي منذ ثماني سنوات!، وهذا غير معقول لتناقضه.

ومن المؤسف أن القسم الأول من الجزء الأول الذي يدون الرحلة في مرحلة الخروج من المرية إلى تونس مروراً بمدن المغرب الأوسط مفقود،² إلا أن ابن قنفذ حفظ لنا ما تعلق بقاء ابن رشيد بابن ربيع بجاية في فقرة إقتبسها من الرحلة التي كانت كاملة في زمانه فقال: "ذكر الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن رشيد السبتي عبد الحق هذا في رحلته وأثنى عليه وقال: كانت وفاته عام خمسة وسبعين وسبعمئة"³، ونلاحظ أن حتى هذا التاريخ هو خاطئ يقينا فقد ذكر "سبعمئة" بدل "ستمئة" ولم ينتبه إلى ذلك محقق الكتاب كما لم ينتبه قبله محمد الفاسي وأدولف فور اللذان نشرنا الكتاب وصححاه أول مرة،⁴ والأغرب أن لا ينتبه أحمد حدادي الذي أعد دراسته عن رحلة ابن رشيد وحاول إعادة بناء الجزء المفقود من خلال الشذرات المبتوثة في المصادر المختلفة التي منها فقرة ابن قنفذ المثبتة هنا، فقد أشار إليها⁵ ولم يعقب على هذا الخطأ، مع علمه يقينا بسنة دخول ابن رشيد بجاية تاريخ اللقية وسنة وفاته (721 هـ) بحكم تعمقه في دراسة هذه الشخصية، فهو لا يحتاج إلى كبير تفكير لإدراك الخطأ.

وبما أن التصحيح في ذكر السنوات والأرقام المكتوبة بالحروف لم يكن من السهل تعديبه في المؤلفات القديمة لدى النساخ، بدليل ما وقع في نسخة "أنس الفقير" المشار إليها، فإن ذلك يدعم مزاعمنا المشككة في التسايرج الوارد عند الغريبي رغم افتقارنا لأصل رحلة ابن رشيد الخاص بالمرحلة الأولى، وبناءً على ذلك نقول أن كلمة "سبعين" صحفت عن "تسعين" فيكون التاريخ الصحيح لوفاته هو 695 هـ.

¹ أنظر عن هذه الرحلة محمد الفاسي. ابن رشيد الفهري ورحلته إلى المشرق، مجلة معهد المعطوطات العربية، مج 5، ج 1، ص 31-42، بحاح صلاح الدين القاسبي. رحلة ابن رشيد، مجلة التاريخ العربي، عدد 3، ص 301 وما بعدها، عبد الكريم غلاب. رحلة ابن رشيد حافل للثقافة والفكر في القرن السابع، الأكاديمية، عدد 1، فبراير 1984، ص 153-171.

² أحمد حدادي. رحلة ابن رشيد السبتي أبي عبد الله محمد عمر دراسة وتحليل، للملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 2003-1424، 208/1.

³ أنس الفقير، ص 146.

⁴ منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب بالرباط، 1965، ص 101.

⁵ رحلة ابن رشيد، 227/1.

البيت اليعمري: بنو سيد الناس فقهاء وحجابه بجاية (645-915هـ)

نسب البيت اليعمري

ينتسب بيت ابن سيد الناس إلى "يعمر بن مالك بن هثمة بن حرب بن وهب بن حلي بن أحمد بن ضبيعة ابن ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان"¹، وكان موطن اليعمريين في المشرق يتركز في منبج² بالشام، ومع جيوش الفتح الإسلامي وطلوعه في المغرب والأندلس نزحوا إلى كورة جيان واستقروا بأبذة إحدى مدنها. وقدم اليعمريون تحديدا إلى الأندلس مع طالعة بلج بن بشر القشيري، واختاروا أبذة لشبه طبيعتها بموطنهم الأصلي منبج، وبقيت موطننا لهم إلى نهاية الوجود الإسلامي بها "فترتها يعمر إلى غلبة الروم عليها، ومن لم يكن يعمريا فهو طارئ عليهم"³.

وأول من دخل منهم الأندلس هو عبد العزيز بن حرب بن محمد بن حسان بن سعد بن عبد الرحيم ابن خلف بن يعمر بن مالك، وفي الأندلس تأثرت هذا البيت الشامي اليعمري لقب ابن سيد الناس الذي حمله عبد العزيز بن أبي الوليد بن المنذر بن عبد الجبار بن سليمان بن عبد العزيز بن حرب الداخل إلى الأندلس،⁴ أي بعد نحو قرن من دخولهم الأندلس، واستمر هذا اللقب في عقبهم إلى غاية القرن العاشر.

الدور السياسي والعلمي لبني سيد الناس في الأندلس ومصيرهم بها

التأريخ الفعلي للبيت اليعمري يبدأ من القرن السادس، إذ أن حياتهم يكتنفها الكثير من الغموض في القرون الأولى من نزولهم إلى الأندلس، ففي النصف الثاني من القرن السادس ومع غلبة النصارى الإسبان على بعض مدن كورة جيان، وقيام الثائر الأندلسي ابن هشتك بقصبة جيان ضد الموحدين،⁵ عزم على تغريب بني سيد الناس فقتل من أبذة الفقيه أبا عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن سيد الناس وبنه الفقهاء الأربع: أبا علي الحسين وأبا الحجاج يوسف وأبا محمد عبد الله وأبا بكر يحيى إلى جيان مقر حكمه، وفرض على الفقيه ولدهم الإقامة في منزله "محجورا عليه التصرف"، أما أبنائه فلما خافوا أن ينكل بهم فقد فروا إلى إشبيلية، فرفعهم وإليها ابن الجبر إلى العدو المغربي وأجازهم إلى الحضرة الموحدية بمراكش في حدود سنة 558 هـ، فبقوا هنالك لمدة عامين تقريبا.

¹ ابن حزم. الجمهرة، ص 293، ابن عبد الملك المراكشي. الذيل والفكلمة 1/ 183، أبو الفتح اليعمري. أجوبة ابن سيد الناس اليعمري، تحقيق محمد الرواندي، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. 1410-1990، ص 262.

² منبج. مدينة قديمة من مدن الشام بينها وبين حلب عشرة فراسخ، قيل أن كسرى هو الذي ابتناها لما غلب على الشام، وجعلها الخليفة الرشيد على عهده عاصمة إقليم، انظر: باقوت. معجم البلدان 5/ 237، صفى الدين البغدادي. مرصد الإطلاع 3/ 1316.

³ ابن حزم. الجمهرة، ص 293، ابن الأبار. الفكلمة، ابن عبد الملك المراكشي. الذيل والفكلمة 5/ 2/ 659.

⁴ أبو الفتح اليعمري. الأجوبة، ص 262، محمد الرواندي. أبو الفتح اليعمري حياته وآثاره وتحقيق أجوبته، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. 1410-1990، ص 18-20.

⁵ انظر تفاصيل ثورة ابن هشتك: ابن عذارى. البيان المغرب (موحدي)، ص 73 وما بعدها.

وبعد وقعة فحوص الجلاب جنوبي مرسية سنة 560 هـ بين الجيش الموحدى وابن همشك من جهة، وبين ابن مردنيش الثائر بمرسية وشرق الأندلس من جهة أخرى، أفضت إلى انهزام هذا الأخير ودخول ابن همشك في طاعة الموحدين، ففرضوا عليه القبول بعودة بني سيد الناس إلى الأندلس المغربين في مراكش، لكنه اشترط أن تكون عودتهم إلى إشبيلية لا إلى أبدة أو جيان وهذا ما تم فعلا.¹

عاد بنو سيد الناس إلى إشبيلية وقد أطلق ابن همشك الفقيه محمد والدهم الذي كان محجوزا عنده، "فتأهلوا بما وُلد لهم الأولاد"، واتخذوا أملاكا بعمالات إشبيلية بداخلها وخارجها كغابات الزيتون التي كانت لهم بحصن القصر المسمى الحجرية، لكن هذه الشهادة التي أدلى بها أبو بكر بن سيد الناس وحفظها لنا ابن عبد الملك المراكشي يدفعها "أهل المعرفة من أهل بلده إشبيلية" عن منشأهم وحالهم، ويزعمون انتحالمهم وحمولهم بها وإقلاهم².

أيا ما كان الأمر ففي إشبيلية توفي الفقيه أبو محمد عبد الله والد الفقهاء الأربعة عام الأرك 591 هـ، وبها ولد أبو العباس أحمد ابنه سنة 561 هـ، الذي كان من أهل العلم بالقراءات والحديث، روى عن كبار علماء إشبيلية حاضرة الأندلس الأولى أيام الموحدين من أمثال جده لإمه أبي الحسن بن سليمان اللخمي، وابن خير الإشبيلي وابن ملكون وابن الجدي وابن زرقون وابن طفيل وابن بشكوال وابن حبش والسهيلي صاحب "الروض الآنف" في السيرة وابن بونة وابن الفخار وابن الشيخ وغيرهم، وأجازه جماعة من أهل المشرق، "وكان معتنيا بالحديث دؤبا على تقيده ولقاء رواته، مشاركا في القراءات وغيرها"، الأمر الذي حدا ببعض أمراء الأندلس أن يصطفيه ويزيده حظوة بأن جعله مؤدبا لأولاده إلى أن توفي سنة 618 هـ.³

وبإشبيلية أيضا ولد عبيد بن عبد الله أخ أبي العباس المذكور آنفا، والذي أخذ هو الآخر علم القراءات عن أبيه وأخيه أبي العباس، وكان يشتغل كثيرا بنسخ الكتب، وكانت وفاته سنة 637 هـ.⁴

أما أشهر من ولد للبيت اليعمري بإشبيلية فهو أبو بكر محمد بن أبي العباس أحمد، المؤسس الحقيقي للبيت اليعمري، وأول النازحين إلى العدة المغربية، والداخل إلى بجاية.

ذكر أبو بكر محمد- الذي لازمه لقب ابن سيد الناس ولا يعرف إلا به- عن نفسه قائلا: "مولدي بقرية من قرى إشبيلية عمل حصن القصر بالشرق تسمى الحجرية، خرج أبواي لها في غلة الزيتون لضم فائد أملاكهم، وكانا متحابان لا يصبر أحدهما عن الآخر فخرجا جميعا إليها، فكانت ولادتي بها لعشر ليال بقيت من شهر أكتوبر الأعجمي، ولا أدري ما وافق ذلك من الأشهر العربية، لتلف تقييداتي وتقييدات سلفي في ضيعة كتي... صدر سنة 97 [5 هـ] قبل السيل الكبير بإشبيلية بأشهر"، ومن المعلوم أن هذا السيل وقع يوم 19 جمادى الآخر

¹ ابن عبد الملك المراكشي. اللؤلؤ والكلمة 5 / 2 / 659 - 660 ، الراوندي. أبو الفتح اليعمري، ص 23 - 27.

² ابن عبد الملك المراكشي. اللؤلؤ والكلمة 5 / 2 / 660 - 661.

³ ابن عبد الملك المراكشي. اللؤلؤ والكلمة 1 / 1 / 138 ابن الأبار. الكلمة 1 / 98 ، الغريرين. عنوان اللوابة، ص 249 ، هذا ولم يتبه إحسان

عيسى عميق السفر الخامس من "اللؤلؤ والكلمة" حيث ورد خطأ مولد أبي العباس أحمد سنة 591 هـ. أنظر: ص 660 .

⁴ ابن الأبار. الكلمة 2 / 316.

الموافق لشهر مارس، فيكون مولده حينئذ في شهر محرم وهو الموافق لشهر أكتوبر 1200 م حسب جدول السنين المقارنة.¹

نشأ أبو بكر بن سيد الناس في كفالة أسرته العلمية، فقرأ على أبيه وجدته أم العفاف نزهة بنت أبي الحسين سليمان اللخمي سليبة إحدى أشهر البيوتات الأندلسية، قرأ عليها القراءات التسع، واستكمل قراءة اثني وعشرين قراءة من القراءات الشاذة وغير المشتهرة على والده أبي العباس أحمد، وكان يحمل سني الملازمة لمجده نحو ستة أعوام ونصف وسني ملازمته لوالده نحو خمسة عشر سنة ونصف، كما قرأ على كبار المقرئين من أمثال علي بن محمد بن عياش بن عزيمة ولازمه نحو سبعة سنين، وقرأ على أبي بكر عتيق بن علي المرابطي، وعلى ابن جابر الدباج ولازمه نحو سبعة وعشرين سنة، وعلى محمد بن عبيد الله الباجي، قرأ عليه روايات الحرمين وأبي عمرو، وعلى أبي زكريا بن أحمد بن مرزوق كذلك، وعلى أحمد بن الصميل رواية ورش، وغيرهم.

وروى الحديث عن صهره أبي بكر بن حميم بن هشام ولازمه نحو ثلاثين سنة وعن غيره كثير، وأجازه من أهل المغرب الأوسط عبد الله بن أحمد بن الخطيب البجائي وأبو بكر محمد بن محرز الزهري نزيل بجاية وأبو ذر مصعب الخشني نزيلها أيضا، وقد ألف برنامجا ضمنه رواياته ومشائخه - يظهر أنه لم يكن متداولاً - وحسب ابن الزبير فقد بلغ من أجازه فقط أربعمائة شيخ، لم يذكر أغلبهم لسبب وجيه عند ابن عبد الملك المراكشي حين قال: "يتعذر إحصاؤهم ويدعو إلى السأمة استقصاؤهم".²

لقد تأثر أبو بكر بن سيد الناس بوالده وشيوخه فسلك مسلكهم وسار على درهم، حافظا للقرآن العظيم مجودا له ومتقنا في آدائه، له حظ من التفسير، صاحب قريحة أدبية من علم العربية والعروض وقرض الشعر "حافظا للحديث عارفا برجاله وبأسمائهم وبتاريخ وفاقم ومبلغ أعمارهم".

اشتغل أول أمره في إشبيلية بالصلاة والخطابة بعد وفاة متوليها شيخه عبد الله بن قسوم (تـ 655 هـ)، ثم أكتب بحصن القصر بإشبيلية مدة طويلة أذهب معظم عمره فيها، لينتقل إلى شريش بقرية بونبة منها وهي قرية خاملة ليدرس في كتابتها القرآن، ومن هذه القرية وبعد مدة انفصل بحتازا البحر إلى سبتة.³

هجرة بني سيد الناس إلى بجاية

يفيدنا ابن خلدون دون غيره بسبب نزوح ابن سيد الناس عن الأندلس إلى المغرب، وهو النزوح الرابع في تاريخ البيت اليعمري الطويل، ذلك أن "أبا بكر بن سيد الناس كان من بيوت إشبيلية حافظا للحديث راوية له ظاهريا في فقهه على مذهب داود وأصحابه، وكانت لأهل إشبيلية خصوصا من بين الأندلس وصلة بالأمر أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنه منذ ولادته غرب الأندلس، فلما تكالب الطاغية على العدو، والتهم ثغورها واكتسح بسائطها وأشرف على قواعدها وأمصارها أجاز الأعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربيين

¹ ابن عبد الملك المراكشي. الليل والعكمة 5/ 661، ف. ويستفدل. جدول السنين المحجرة بليلها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة عبد النعم ماجد وعبد المحسن رمضان، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية. ص 56.

² صلة الصلة 5/ 386، الليل والعكمة 5/ 2/ 654-658، المغربيين. عنوان الدراية، ص 246، النعي. تذكرة الحفاظ 4/ 1451.

³ المغربيين. عنوان الدراية ص 246-247، ابن عبد الملك المراكشي. الليل 5/ 2/ 655، 658.

وأفريقية... فلما رأى الحافظ أبو بكر اختلال أحوال الأندلس وقبح مصائرها وخفة ساكنها أجمع الرحلة عنها¹، وابن خلدون يتغاضى هنا ويتجاوز ذكر مراحل مسيرة ابن سيد الناس تلك؛ فهو يذكر أنه قصد تونس مباشرة، إلا أن ابن الزبير وابن عبد الملك المراكشي ومن نقل عنهما قد حددوا خط هذه المسيرة، فقد خرج من إشبيلية إلى شريش ومنها إلى طنجة التي أقرأ بها وأمَّ بجامعها وخطب فيه، ثم انتقل إلى سبتة وصولاً إلى بجاية²، دون تحديد تاريخ ذلك.

ومن المعلوم أن أبا عمر محمد بن أبي بكر بن سيد الناس ولد بطنجة في جمادى سنة 645 هـ³، وبما أن قصده كان نحو الأمراء الحفصيين فهذا يعني أنه اتخذ سبتة وطنجة محطتين للعبور فقط ولم يطل المقام بهما، فيكون حينئذ وصوله إلى بجاية بعد هذا التاريخ بقليل.

لما وصل ابن سيد الناس مع أسرته إلى بجاية عمل أصلاء بلده من الإشبيليين وغيرهم على التنويه بفضله ودينه وجودة علمه، وروجوا ذلك بشكل مميز أفضى إلى إقناع أصحاب القرار في بجاية الحفصية إلى تقريره ورفع مكاتته، وضمه إلى صف السلطة بتوليته صلاة الفريضة والخطابة بالجامع الأعظم بها، فاشتغل ابن سيد الناس في وظيفته تلك دون التنازل عن وظيفته الأولى أي الإقراء، ففي منزله وفي الجامع الأعظم كان يعقد حلقات الدرس والعلم معظم أوقاته وكانت طريقته في الشرح والتلقين تبهر طلابه، والغريبي نفسه يصفها بشيء من الإعجاب البالغ "كان يقوم على البخاري قياماً حسناً، وكان إذ أقرأ الحديث يسنده إلى أن ينتهي إلى النبي ﷺ، ثم إذا انتهى الإسناد رجع إلى ذكر رجاله فيبدأ من الصحابي ﷺ، فيذكر اسمه ونسبه وصفته وتاريخ ولادته ووفاته، ولا يزال يتبعهم واحداً فواحداً إلى أن ينتهي إلى شيخه، يقول: أما فلان شيخنا ويذكر ما ذكر فيمن تقدم ويزيد على ذلك بأنه لقيه وقرأ عليه كذا وسمع منه كذا، وبعد الفراغ من ذلك يذكر لغة الحديث وعريته ويتعرض لما فيه من الفقه والخلاف العالي... كل ذلك بفصاحة لسان وجودة بيان"⁴.

فقد تخرج على ابن سيد الناس تلاميذ كثر، أقتصر على ذكر من لقيه ببجاية فقط وأخذ عنه وهم:

- 1- محمد بن صالح الكناني الشاطبي دفين ببجاية المتوفى سنة 699 هـ، روى عنه مؤلفات أبي عمرو السداني في القراءات، ورواها عنه بدوره القاسم بن يوسف السبتي الأندلسي الأصل الشهير بالتحجبي (تـ 730 هـ)⁵
- 2- أبو العباس أحمد بن خضر الصدي الشاطبي المتوفى ببجاية سنة 674 هـ.
- 3- أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن أبي دلال⁶.

¹ العبر 6/437-438.

² صلة الصلة. 5/386، اللؤلؤ والكاملة 5/2/658، الذهبي. تذكرة الحفاظ 4/1451، ابن عبد الهادي الدمشقي الصالح. طبقات علماء الحديث، 4/236.

³ أبو الفتح اليمري. الأجوبة، ص255، الراوندي. أبو الفتح اليمري، ص33.

⁴ الغريبي. عنوان الدراية، ص247، ابن عبد الملك المراكشي. اللؤلؤ والكاملة 5/2/658.

⁵ التحجبي. برنامج. ص35، 38، 43، 44، 54، وصفحات أخرى.

⁶ الغريبي. عنوان الدراية، ص108، 109، 205.

4- أبناؤه الأربعة وبناته الثلاث: أبو عمرو محمد وأبو الحسين محمد وأبو سعيد محمد وأبو عبد الله أحمد، وأم الفتح فاطمة وأم الأملاك مهجة وأم الحكم عائشة، فقد كان يقرؤهم بنفسه ويشرف على تدريسهم ويستجيز لهم العلماء والمشائخ الشاميين خصوصاً.¹

5- كما أجاز لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي (تـ 708 هـ) صاحب "صلة الصلة"، من بجماعة ولم يلقه² وأجاز أبناء الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب مدينة سبتة.³

ومن المفارقات العجيبة أن الغبريني الذي أعجب بطريقته في التدريس لم يرو عنه شيئاً في برنامج مشيخته ولم يذكره في قائمة شيوخه.⁴

هذا ويمكن من خلال كتب التراجم والفهارس وتراجم تلاميذه أن نعرف الكتب والمؤلفات التي كان يدرسها ابن سيد الناس ويروجها في بجماعة فمنها:

- 1- كتاب الكافي في القراءات السبع لأبي عبد الله محمد بن شريح الرعيبي الإشبيلي.
 - 2- كتاب التيسير لحفظ مذاهب القراء السبعة لأبي عمرو الداني الأندلسي.
 - 3- كتاب المفردات في القراءات الثماني: في السبع المشهورة وقراءة يعقوب الحضرمي للحافظ أبي عمرو الداني أيضاً.
 - 4- جامع البيان في القراءات السبع المشهورة لأبي عمرو الداني كذلك.
 - 5- كتاب المنقح في رسم المصاحف لأبي عمرو الداني.
 - 6- كتاب نهاية الإتيان في تجويد ألفاظ القرآن لأبي الحسن شريح بن محمد الرعيبي (تـ 537 هـ)⁴
 - 7- كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر القرطبي⁵
- ومن الملاحظ أن ابن سيد الناس كان يركز على مؤلفات الأندلسيين دون غيرهم! أما مؤلفاته هو فتمثل في:

1- برنامج شيوخه. ورد ذكره عند ابن عبد الملك المراكشي بعد أن سمي شيوخه فقال: "ولخصت ذكر مشايخه هؤلاء من إجازة وقفت عليها كتبها إلى بني الفقيه الرئيس الأوحى أبي القاسم العزفي وذكر فيها أن له برنامجاً يتضمن رواياته ولم أقف عليه".⁶

2- كتاب بيع أمهات الأولاد أو جواز بيع أمهات الأولاد، قال عنه ابن عبد الهادي الدمشقي الصالحى بعد أن ذكر الكتاب: "دل على إمامته وحفظه وذكائه"، وقال عنه الذهبي: هو "في مجلد يدل على سيلان ذهنه وسعة حفظه وسعة إمامته"، وقال الصفدي عنه: "دلني على سعة علمه وسيلان ذهنه".¹

¹ أبو الفتح العمري. الأجمية، ص 259، الراوندي. أبو الفتح العمري حياته وآثاره، ص 55.

² ابن عبد الملك المراكشي. الذيل والكلمة 1/ 1/ 41.

³ المصدر نفسه 5/ 2/ 657.

⁴ التحصي. برنامج، ص 35، 38، 43، 44، 44، 44.

⁵ الراوي آشي. برنامج ص 215.

⁶ الذيل والكلمة 5/ 2/ 657-658.

3- نصوص أدبية أندلسية، وهو مخطوط في نسخة فريدة بالأسكوريال رقم 188، والكتاب يحتوي على نصوص مختلفة لعدة أدياء من القرن الخامس في عمومها، كما يتضمن رسائل تاريخية وقصائد شعرية، جاء في نهايته: "كتبه عبيد الله الفقير إليه محمد بن أحمد بن عبد الله... بن سيد الناس اليعمري وفقه الله حامدا ربه ومستغفرا ذنبه ومصليا على نبيه محمد الكرم وعلى آله، وذلك كله في عقب شهر ذي القعدة سنة ثلاث وأربعين وستمائة"²، أي أنه ألفه أيام وجوده بمدينة شريش.

4- وإليه نسب بروكلمان كتاب باسم "أعمال منظومة ومنثورة"، وهو عبارة عن رسائل في الزهد والإخوانيات والمخاطبات، جمعها لشيخه عبد الرحمن بن مخلتبن الفازاري المغربي الأصل التلمساني القرطبي (ت 627 هـ)³ وتوجد منه نسخة مخطوط بليدن تحت رقم 479.

ومن المفارقات العجيبة أيضا في مؤلفات ابن سيد الناس ومروياته أن لا نجد كتابا واحدا في الحديث ألفه أو درسه، وهو الذي كان يستظهر عشرة آلاف حديث بأسانيدھا ويقول عن نفسه أنه: "رأى النبي ﷺ في المنام ومسح بيده المباركة على صدره، قال فما حفظت شيئا فنسيته"⁴، وعُدت تلك من كراماته وعلامات فضله، كما أن شهرته كانت لكونه حافظا أكثر منه مقرئ أو أديبا أو فقيها! فهل هذا تأييدا لشكوك معاصريه واقامهم له بالتظاهر "بسعة العلم والرواية والإكثار عن الشيوخ.. [فقد] أنكر كثير من الناس عليه ذلك، ونسبوه إلى إدعاء ما لم يروه، ولقاء من لم يلقيه على الوجه الذي زعمه"، ليتبها إلى حقيقة حسب زعمهم هي أنه "كان قاصرا عن ما تعاطاه من ذلك شديد التجاسر عليه" رواية ودراية،⁵ ورغم ذلك بقي حسن حسني عبد الوهاب على قناعته الأولى فأورد ترجمته ضمن المحدثين والمؤلفين فيه وفي علومه.⁶

وتجدر الإشارة في سياق الجهود العلمية لابن سيد الناس في بحاية أنه كان يمتلك خزانة كتب "عامرة بأصول نفيسة"، آلت إلى ملك حفيده أبي الفتح اليعمري صاحب السيرة المشهورة "عيون الأثر"⁷ فمن جملة ما احتوته: مصنف ابن أبي شيبة ومسنده، ومسند البزار، والمخلى لابن حزم الظاهري، وتاريخ ابن أبي خيثمة، وجامع عبد الرزاق، والتمهيد والاستيعاب والاستذكار والدرر في اختصار المغازي والسير كلها لابن عبد البر، والشفا للفاضي عياض، والروض الأنف للسهيلي، والأنساب للرشاطي الأندلسي، وطبقات ابن سعد، والمعاجم الثلاث للطبراني، وتاريخ ابن الخطيب المسمى الإحاطة، والتاريخ المظفر، والسيرة النبوية لابن إسحاق بتهديب ابن

¹ طبقات علماء الحديث 4/ 236، تذكرة الحفاظ 4/ 1451، الوالي بالوفيات 2/ 86.

² الراوندي. أبو الفتح اليعمري حياته وآثاره، ص 52-53.

³ تاريخ الأدب العربي 5/ 131-132. هذا ويشكك بعض الباحثين في صحة ذلك ويرجحون أنه لأبي عمرو سالم بن صالح الممداني الملقب من تلاميذ الفازاري المشهورين، أنظر: عبد الحميد عبد الله الهرامة. نصوص مخطوطة من التراث الأندلسي، ضمن: التراث المغربي والأندلسي: التوثيق والقراءة، ص 225-233.

⁴ العريبي. عنوان الدراية، ص 248.

⁵ ابن عبد الملك المراكشي. النبل والعكمة 5/ 658.

⁶ كتاب العمر في المصنفين والمؤلفين التونسيين، ج 1، ص 304-309.

⁷ عنوانه الكامل: عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحمد الدين متو، المدينة المنورة- دمشق، مكتبة دار التراث- دار ابن كثير. (2ج).

هشام وغيرها،¹ وهو دون شك قد فتحها لعلماء بجاية وطلابها للاستفادة منها، ويظهر أن عناية البيت اليعمري باقتناء الكتب وامتلاكها عادة قديمة تجذرت فيهم يتناقلها الأحفاد عن الأجداد، ففي إحدى نسخ كتاب "التكملة" لابن الأبار المخطوطة بالخزانة الحسينية بالرباط تحت رقم 1411 نجد ثلاث "تمليكات" في هأياته، هي كالآتي: "سعيد بن سيد الناس الربعي ثم اليعمري هذاه الله بالهدى ووقفه للتقوى، ثم لابنه حكيم بن سعيد أسعده الله حكيم له برضاه"، أما التعليل الثالث فغير مكتمل.²

أيا ما كان الأمر فإن مكانة ابن سيد الناس في بجاية لمعت وسمت بقوة الميراث العلمي الذي اكتسبه بيته اليعمري في أبدة وإشبيلية لأكثر من قرن، وفي إطار الفضاء الثقافي والاجتماعي لإقطار المغرب الإسلامي المنفتح على بعضه البعض، فإن أبناء بجاية والمترددين عليها المعجبين بعلم ابن سيد الناس وفضله وذكاءه قد نقلوا ذلك إلى تونس ونشروا خبره، حتى بلغ الأمر مسمع السلطان المستنصر بالله الحفصي (647-675) الذي كان يعمل على تجميع الكفاءات العلمية والنخب السياسية وذوي البيوتات والأحساب في حضرته كعاصمة ثقافية؛ على غرار العاصمة السياسية الإدارية، على حساب الحواضر والمدن الأخرى المسماة في أدبيات القرون الوسطى بـ "الأطراف".

لقد استدعى السلطان الحفصي أبا بكر بن سيد الناس ومعه عائلته إلى تونس، فلبى دون تردد تفضيلاً لهذه الأخيرة على بجاية كمشروع طموح للتقرب من بلاط السلطان بدل بلاط الأمير، وهو ما يعني فرص أفضل في المناصب العلمية، واستكمال أسرع لبناء مجد البيت اليعمري وجاهه التليد، فلما دخل عليه أمره المستنصر أن يقرأ بين يديه آية من آيات القرآن الكريم، فقرأ بعد الاستعاذة قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: الآية 159] فاستحسن

السلطان قراءته وفهم قصده، وكان ذلك مدخلا إلى قلب المستنصر وسببا في حظوته لديه،³ ويورخ ابن عبد الملك المراكشي هذا التحول إلى تونس بحدود سنة 654 هـ،⁴ أي بعد ثلاث عشرة سنة قضاها في بجاية.

في تونس وتحت ظل السلطان الحفصي الذي "قرب منزلته وأجزل عطيته وجائزته ووقسى جرائته" وخصه بحضور مجالسه مع طلبة الحضرة، وولّى ابن سيد الناس خطابة الجامع الأعظم الجديد والصلاة به، مع تدريس الحديث والقراءات في المدرسة التوفيقية من إنشاء أم الخلائف أم المستنصر، وإذا كان منصب الخطابة أسند إليه "بما ناله من الجاه والحظوة عند الأمير"⁵، فإن وظيفة التدريس بمدرسة رسمية لم يكن إلا ماشيا وتساوقا مع سياسة

¹ ابن حجر. الدرر الكامنة. 4/ 130، الصفدي. الوافي بالوفيات 1/ 221.

² المنوني. ورفقات عن حضارة المرينيين. ص 503.

³ المرينيين. عنوان الدراية، ص 247.

⁴ الذليل والتكملة 5/ 2 / 658.

⁵ المرينيين. عنوان الدراية، ص 247، ابن عبد الملك المراكشي. الذليل والتكملة 5/ 2 / 658 - 659، ابن خلدون، العبر 6/ 438، حركات.

المدخل إلى تاريخ العلوم 27/1.

الدولة الوريثة للمذهب الموحد بعد إغاثته على يد الخليفة أبي العلاء إدريس المأمون، فالخفصيون في بداية أمرهم كانوا يختارون لهاته الوظيفة المشتغلين بالقرآن والحديث، على حساب الفقهاء المالكية المهتمين بفقهاء الفروع.¹ لكن لم تطل حياة أبي بكر بن سيد الناس في تونس كثيرا حتى اخترته منيته بعد خمس سنوات من نزولها، يوم 24 رجب سنة 657 هـ حسب المصادر المشرقية أو يوم 23 أو 13 من شهر جمادى الآخرة حسب المصادر المغربية.²

الميراث السياسي للبيت اليعمري

على عكس تشكيلك ابن عبد الملك المراكشي في المكانة السياسية للبيت اليعمري بأبذة وإشبيلية تثبت الوقائع التاريخية مدى ما تمتع به بنو سيد الناس من جاه سياسي له تأثيره في مهاجرهم المختلفة، فلم يكن ابن همشك المتغلب على كورة جيان ليقدم على تغريبهم إلى إشبيلية لو لم يخش من نفوذهم العلمي والسياسي معا في تأليب المجتمع ضده لصالح الخلافة الموحدية، كما لم يكن لهذه الآخرة أن تفاوض ابن همشك من أجل رص الصف ضد الاسبان النصراري والدخول في طاعتهم، مع الاشرط المسبق عليه أن يسمح لبني سيد الناس بالعودة إلى الأندلس بعد أن جازوا إلى العدو المغربية، حيث مازالت مخاوفه تراوده، وانتهى التفاوض إلى قبول عودتهم إلى إشبيلية بدل أبذة.

وفي إشبيلية ومحاولة من ابن الأحمر النصراري الناصر بغرب الأندلس من حصن أرجونة استمالة أهل البيوتات ذات التأثير الواسع وأهل الشورى من أمثال بني سيد الناس وبني خلدون وبني الجند وبني الوزير وبني الباسجي، فقد داخلهم ليكسرهم شوكة غريمه ومنافسه ابن هود محمد بن يوسف الجذامي الناصر على سلطة الموحدين، إلا أنهم لم يسايروا طموحه ومنعوه من دخول إشبيلية غلبة.³ كما أن تسميتهم ببني سيد الناس له مدلوله لما تأثلوه في أبذة من سؤدد وجاه وتقدم على ذوي الأحساب فيها ناهيك عن العامة.

وفي تونس وعلى غرار الخطوة والمترلة التي حظي بها أبو بكر بن سيد الناس لدى المستنصر، كانت هناك بينهما علاقات حميمة بعيدا عن المراسيم والطقوس السياسية، صورها المقرئ التلمساني في قوله: "ولما خاطب المستنصر ملك إفريقية ابن سيد الناس بقوله في علة رمد بعينه:

ما حال عينيك يا عين الزمان فقد أورثني حزنا من أجل عينيك

وليس لسي حيلة غير الدعاء فيسا رب براوي الصحيح حنانيك

فأجاب الحافظ أبو المطرف بن عميرة المخزومي خدمة عن الحافظ أبي بكر بن سيد الناس:

¹ بوبة بجان. المدارس الخفصية نظامها ومواردها. مجلة العلوم الإنسانية. جامعة قسنطينة. عدد 12. 1999. ص 157-160، محمد الباجي ابن مامي. التعليم بجامع الزيتونة ومدارس العلم في العهد الخفصي، مجلة التاريخ، عدد 17، ص 253 وما بعدها.

² عز الدين الحسيني. التكملة لوفيات النقلة، ص 346، اليافعي. مرآة الجنان 4/ 150، الصفدي. الوالي بالوفيات 2/ 86، الغريبي. عنوان الدراية، ص 249، التبيكتي. ليل الابتهاج 2/ 30 وكتابة المحتاج، ص 259، القراني. توضيح الدياج، ص 228، السراج. الحلسل السننسية 678/1، ابن الصناد شذرات الذهب 5/ 299.

³ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص 33.

مولاي حالها والله صاحبة لما سألت. فأعلى الله حالها
ما كان من سفر أو كان من حضر حتى تكون الثريا دون نعلها¹

دور بني سيد الناس في انفصال بجاية عن تونس

آل عرش الدولة الحفصية في تونس بعد موت المستنصر إلى ابنه الواثق (675-678) لكن أبو إسحاق ابن أبي زكريا الذي كان فارا من أخيه المستنصر إلى الأندلس في ظل بني الأحمر لم يسلم له بالأمر، فعاد إلى العدة المغربية ودخل بجاية أين بايعه عسكرها ومنها شن الحرب على الواثق وأعانته في صراعه بيدرو ملك أرجونة، مما اضطر الواثق إلى الفرار والتخلي له عن كرسي المملكة، تم ظفر به أبو إسحاق وقتله سنة 679 هـ.²

وما إن استتب الأمر لأبي إسحاق منذ سنة 678 هـ حتى بدأ هو وأبناؤه في اصطناع الرجال من أهل البيوتات خاصة الإشبيلية منها، لعلاقتهم الوطيدة بالأمر أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص منذ أن ولي غرب الأندلس، وكان أكبر أولاده أبو فارس عبد العزيز والمرشح لولاية عهده أكثر اصطناعا لهم، فممن ألقى عليهم رداء محبته ورعايته ابني أبي بكر بن سيد الناس: أحمد المكني بأبي العباس وبأبي عبدالله وأخيه أبي الحسين محمد، فنوه بهم وخلع عليهم "ملبوس كرامته" واختص أحمد منهما "بلقب حجابته".

وعلاقة الأخوين بالأمير أبي فارس تعود جذورها إلى ما قبل تولي أبي إسحاق السلطنة، أي إلى أيام المستنصر الذي كان قد سجنه هو وإخوته الأربع أبي محمد عبد الواحد وأبي زكرياء يحيى وخالد وعمر في حجر القصر بتونس، حين اختص المستنصر ابني ابن سيد الناس لمكانة أبيهما منه وتقلبهم في جو الدولة فاستعملهم في خدمة أبناء أخيه هؤلاء فخالطوهم وتشوفوا إلى مراتب السلطان منذئذ "وعدلوا عن طلب العلم إلى طلب الدنيا".

لكن لم تكن حياة القصور والبلاط مأمونة العواقب دائما ففي البلاط الحفصي الذي يعج بالأندلسيين استمرت هندسة الوشايات الظاهرة والخفية في عهد السلطان أبي إسحاق (678-683) تفتك برجالته وبخواصهم عند ولي عهده أبي فارس، ومدبروا هذه الوشايات هم في النهاية أنفسهم ضحاياها، ذلك أن كاتب العلامة عبد الوهاب الكلاعي الأندلسي قد سعى بأحمد بن سيد الناس وخوفاً السلطان بمداخلته لابنه أبي فارس في الانقلاب عليه والتوثب على الدولة حسداً من مكانته وحظوته، فاستتراب السلطان من ذلك وأزمع التخلص منه، فدبر له مكيدة استدعاه فيها إلى قصره لتعمل فيه سيوف القوم ما جيلت عليه، ورمي شلوه في حفرة حفرت له، وذلك يوم الأحد 20 ربيع الثاني 679 هـ، فلما بلغ الخبر إلى مسمع أبي فارس حزن عليه وأسف، وإرضاء له ولاء أبوه أميرا على بجاية، أما أبو الحسين بن سيد الناس فقد أعمل الحيلة في التخفي إلا أن قبض عليه ثم أطلق من سجنه بعد مدة.³

¹ نفع الطب 4/ 110.

² ابن خلدون. العبر 6/ 434-437، برنشفيك. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي 1/ 108-110، المطوى. السلطنة الحفصية، ص 234-237.

³ ابن خلدون. العبر 6/ 437-438، الزركشي. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط2، تونس، المكتبة العتيقة، 1996، ص 44، ابن القنفذ القسنطيني. الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر و عبد الحميد التركي، تونس، الدار التونسية للنشر 1968. ص 138، المطوى. السلطنة الحفصية، ص 240-241، برنشفيك. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي 1/ 112.

لقد ظل أبو الحسين بن سيد الناس طوال السنوات الثلاث التي أعقبت مقتل أخيه أحمد حامل الذكر مبعدا عن أحداث السياسة وتأثيراتها إلى غاية سنة 682 هـ، حيث ظهر اسمه من جديد على صعيد الوقائع الخطيرة التي ألمت بالدولة الحفصية، ففي حدود سنة 681 هـ قام أحمد بن مرزوق - من بيوتات بجاية المسييلي الأصل - بثورة ضد الحفصيين سمي على إثرها بالدعي أبي عمار، تمكن خلالها من السيطرة على عدة مدن مهمة، أكملها بالاستيلاء على العاصمة تونس التي منها توجه في صفر 682 هـ إلى مرماجنة لملاقات عساكر السلطان الجديد أبي فارس بعد تنازل أبيه له عن الملك، والذي خاض معركة انجملت عن مقتله ومقتل إخوته عبد الواحد وعمر وخالد وابن أخيه أبي محمد بن عبد الواحد، ثم استكمل انهيار السلطة الحفصية بمقتل السلطان السابق أبي إسحاق في بجاية غدرا.¹

ولم ينج في معركة مرماجنة من البيت الحفصي إلا الأمير أبا زكريا بن أبي إسحاق فارا إلى تلمسان في ذمة صهره السلطان عثمان بن يغمراسن، ونجا كذلك الأمير أبو حفص عمر الأول بن أبي زكريا، نجا ثلاثة من صنائع دولتهم وهم أبو الحسين بن سيد الناس والوزير محمد الفازازي الإشبيلي ومحمد جد ابن خلدون المؤرخ، حيث لاذوا به ثلاثتهم إلى قلعة سنان معقل هواره القريب من أرض المعركة، وكانوا يحملونه على ظهورهم إذا بدا التعب والضعف عليه، فاستنقذوه بذلك وحفظوا للبيت الحفصي وجوده ومصيره، ومن قلعة سنان يبيع الأمير أبو حفص سنة 683 هـ سلطانا منقادا للدولة الحفصية من الدعي أبي عمار.²

لما قضى السلطان أبو حفص على ثورة الدعي وقتله في ربيع الآخر سنة 683 هـ كافأ أهل قلعة سنان بالأموال والإقطاعات، وكافأ محمد بن خلدون الجد بإقطاعات كذلك ونظمه في جملة القواد ومراتب أهل الحروب، في حين كافأ الوزير الإشبيلي محمد الفازازي وولاه حجابته دون أبي الحسين بن سيد الناس، الأمر الذي أثار حفيظته "لما كان أعلى رتبة منه (أي الفازازي) ببلده إشبيلية"، فنكب عنه ولحق بأي زكريا في تلمسان نكاية بالسلطان أبي حفص، وعمل على إقناعه بطلب ملك أبيه ويغريه بعمه المستحوذ على المملكة، فلاقى هوى قديما في نفس الأمير أبي زكريا وحبا وتطلعا للملك والرياسة والسلطة، وبعد نجاحه في ذلك عاد أبو الحسين إلى بجاية واستقرض مالا من أثريائها وتجارها، أنفقه في اصطناع الرجال والأولياء وإقامة أهمة الملك تمهيدا لوصول الأمير المرتقب.

أعمل الأمير أبو زكريا الحيلة في التملص من رقابة صهره السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن المرتبط بالسلطان أبي حفص بمعاهدة ومواثيق الطاعة، فخرج من تلمسان دون أن يشعر، ولحق بأمر بني يعقوب وبني عامر عرب زغبة داود بن هلال بن عطاق واستطاع أن يضمه إلى صفه مع جموعه وانجهوا شرقا إلى آخر مضارب زغبة ونزلوا على عطية بن سليمان بن سباغ من رؤساء الدواودة فأسلم طاعته للأمير وارتمل الكل إلى قسنطينة التي وصلوها في نفس السنة أي 683 هـ مرورا بسدويكش الذين أطاعوه في حين تنازل لهم أبو نوفيان

¹ انظر تفاصيل هذه الأحداث: ابن خلدون. العبر 6/ 441-445.

Mouloud Gaid. *Histoire de bégala*, 2^{ème} Edition Mimouni. Alger. p. 89- 90.

M'hamed Ali M'rabet. *L'Ifriqiya a l'époque Hafside*, dans : *Histoire de la Tunisie*, op. cit, p344- 345.

² ابن خلدون. العبر 6/ 445-447، الزركشي. تاريخ الدولتين. ص 48، المطوى. السلطنة الحفصية، ص 244-264.

M'hamed Ali M'rabet. *L'Ifriqiya a l'époque Hafside*. op. cit. p. 345-346.

(أو ابن يوقيان) عامل قسنطينة عليها من مشيخة الموحدين، واشترط لنفسه وصهره عامل بجاية أبي الحسن بن طفيل، التي دخلها الأمير قبل ذلك - وربما كان أبو الحسين بن سيد الناس هو المتولي لأمرها بعدئذ، ضابطا لها-، إلى أن عاد إليها الأمير أبو زكريا سنة 684 هـ على إثر الاضطراب الذي وقع بين أهلها فسدد خللها ووطد ملكه بها، وفي بجاية جاءت بيعة أهل مدينة الجزائر وإعلان الولاء له والدخول في طاعته، مما أغراه أكثر وحفزته على الاستيلاء على الثغور الواقعة غرب بجاية وتوسيع رقعة الدولة الناشئة، وفي نفس الوقت لم يعلن استقلال بجاية عن تونس حاضرة السلطان أبي حفص عمه تأديبا معه ومثلما لمشيخة الموحدين بقسنطينة وبجاية التي جعلهما عاصمتين يتردد بينهما، وقد تلقب بالمنتخب لإحياء دين الله، أما صاحب الفضل الأوفى في وصول الأمير إلى مبتغاه - أبو الحسين بن سيد الناس - فقد كوفأ بما كان يأمله حين نصب حاجبا للأمير أبي زكريا ويستخلفه على بجاية كلما غادرها إلى قسنطينة.¹

كمرحلة ثانية وتعزيزا لاستقلال بجاية عن سلطة الحفصيين في تونس عمل الحاجب ابن سيد الناس على إغراء الأمير أبي زكريا بحرب السلطان أبو حفص، فجهز له جيشا سنة 685 هـ زحف به على تونس وقابس ونواحي برقة كاد أن ينهي فيها أمر غريمه لولا زحف صهره عثمان بن يغمراسن من تلمسان على بجاية بمداخلة مغراوة وبني توجين القبيلتين البربريتين، مما اضطره إلى العودة والدفاع عن بجاية عاصمته.²

وعلى غرار ذلك وتحديدا في الشأن الداخلي لإمارة بجاية استطاع أبو الحسين بن سيد الناس بحنكته وفطنته أن ينتزع من الأمير أبي زكريا تفويضا يطلق يده في التصرف وضبط أمور المملكة يفضي انتهاء إلى الاستيلاء على الدولة استبدادا، مع بقاء جوهر الإخلاص للأمير، وفي محل المقارنة يقول ابن خلدون عن ابن سيد الناس بعد توليه الحجابة "فوض إليه [الأمير] فيما وراء بابه، وأجراه في الرياسة على سنن أبي الحسين الرئيس قبله في حجابته أبلغ من رياسة ابن أبي الحسين"؛ ذلك أن محمد بن سعيد بن أبي الحسين الغرناطي (تـ 671 هـ) الرئيس كان منافسا من قبل مشيخه الموحدين يقتسمون معه السلطة ويواجهونه على نفوذها ووجاهتها، أما أبو الحسين بن سيد الناس فقد أفضت منافستهم له إلى إقصائهم فخلى له جو الدولة ببجاية، وقام بأمرها أحسن قيام، جمع لنفسه الحل والعقد، كل ذلك وهو يزداد عند الأمير مكانة ورفعة وإعجابا، الوضع الذي دفع برجال الدولة ووجهاؤها وأعيانها والنخب العلمية فيها إلى التقرب إليه واستدرا عطفه، ومن هؤلاء أبو القاسم بن أبي حي الأندلسي الذي كان متصرفا في بعض الأعمال ببجاية، ثم اتصل بالحاجب ابن سيد الناس فاستخلصه لنفسه وولاه الكتابة ورقاه وأحسن ظن الأمير فيه ودخله على نفسه، وكان القدر يهيؤه ليحل محل ولي نعمته ابن سيد الناس وهو ما تم فعلا بعد وفاة هذا الأخير سنة 690 هـ.³

¹ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته. ص 35، ابن خلدون. العبر 6/ 448-449، المطوي. السلطنة الحفصية، ص 267-269، عبد العزيز فيلاي. مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، قسنطينة، دار البحث، 2002/ 1423. ص 62-63،

Mouloud Gaid. *Histoire de béjaïa*, op. cit. p90- 91.

M'hamed Ali M'rabet. *L'Ifrîqiya a l'époque Hafside*. op. cit. p 346.

² ابن خلدون. العبر 6/ 450،

³ ابن خلدون. العبر 6/ 452-453، برنشميك. تاريخ الريفية في العهد الحفصي 1/ 140،

Mouloud Gaid. *Histoire de béjaïa*, op. cit. p 91-92.

توفي ابن سيد الناس بعد أن أحدث شرحاً في جسم الدولة الحفصية وقطعية بين بجاية وتونس، ممهداً بذلك لحرركات الاستقلال والانفصال التي سيشهدها البلاطان في المرحلة القادمة، ومعطياً بذلك فرصة لبجاية لتظهر في شكل عاصمة تستقطب النخب الطموحة الأندلسية منها بالخصوص، ومنافسة في نفس الوقت لتونس حتى لا تستأثر بكل الامتيازات.

وعلى النقيض من ذلك كان أبو عمر محمد بن أبي بكر بن سيد الناس الأخ الثالث للحاجب أبي الحسين يسلك طريقاً آخر، ويؤسس بعيداً عن أضواء السياسة وحياة القصور لأسرة علمية نابغة، فقد عاش هو كما أشرت سابقاً في بجاية ما بين سنتي 645-654 هـ في كنف العلم وطلبه على يد والده ومشايخ بجاية وعلمائها كابن الأبار وابن السراج وغيرهما، ثم رحل إلى تونس ومنها إلى مصر فالحجاز، واستقر في نهاية المطاف في مصر وتولي مشيخة المدرسة الكاملية خلفاً لابن دقيق العيد، وبها توفي بعد خمسة عشر سنة من وفاة أخيه الحاجب أبي سنة 705 هـ،¹ وكان له بها أولاد على هديه بجاية كأبي سعيد محمد (ت 728 هـ)² وأبي محمد سعيد، وأبي القاسم محمد (ت 749 هـ)³ وأبي الفتح محمد (ت 734 هـ) الذي بلغ بالبيت اليعمري ذروة المجد العلمي لفقهه وعلمه وحفظه وفضله،⁴ وهو صاحب أحد أشهر كتب السيرة النبوية المذكور سلفاً.

أما أبو عبد الله محمد ابن الحاجب أبو الحسين محمد فقد نشأ في بجاية وترعرع في ظل الأمانة والجاه والدلال والشهرة يوم كان أبوه حياً، ويظهر أنه فقدوه وهو في مرحلة الصبي لم يشب بعد، وقد تربي في حجر الإمارة وقصورها وانتسب إلى البيت الحفصي إذ أرضعته زوجة الأمير أبي زكريا مع ابنها أبي البقاء الذي سيخلف أباه في الإمارة، وفي ظل حاجي بجاية ابن أبي حي وابن عمر ورجال الدولة كالرخامي، وكلهم من صنائع أبيه، فنشأ تنشئة التجلّة والتبجيل والإيثارة، وأخذوه بالدربة على حوض أمور السياسة والقيادة، صقلاً لنفسه ومواهبه وتأهيلاً له، ليسلك مسلك أبيه في المجد والتباهة.⁵

مرت بجاية بعدة مراحل بعد وفاة الحاجب ابن سيد الناس أبي الحسين فقد توفي الأمير أبو زكريا سنة 700 هـ، فخلفه ابنه أبو البقاء خالد الذي عمل طوال سنوات حكمه التسع على تقوية الدولة في شتى الأصعدة لتصبح بجاية بذلك الموهلة دون غيرها على إعادة توحيد البيت والمملكة الحفصية، إذا استولى على تونس وضمها إليها سنة 709 هـ، ثم استرجاعها منه سنة 711 هـ أبو يحيى زكريا بن أبي العباس بن اللحياني، كما ثار عليه أخوه والي قسنطينة أبو يحيى أبو بكر بن أبي زكريا منذ سنة 710 هـ وقتله، واستولى على مدينة بجاية سنة 712

¹ ابن حجر. الدرر الكامنة 4/ 100-101.

² ابن حجر. الدرر الكامنة 4/ 133، الصفدي. أعيان العصر، 5/ 201.

³ ابن حجر. الدرر الكامنة 4/ 133.

⁴ الذهبي. ذيل العبر، ص99، الصفدي. الوالي بالوفيات 1/ 219، وأعيان العصر 5/ 201، المقرئ. المقفى الكبير 7/ 127، ابن حجر.

الدرر الكامنة 4/ 130، السيوطي. حسن المحاضرة 1/ 306، الهافمي. مرآة الجنان 4/ 291، الدمشقي. ذيل تذكرة الحفاظ، ص16.

⁵ ابن خلدون. العبر 6/ 499-500.

هـ ليعيد توحيد المملكة الحفصية للمرة الثالثة انطلاقا من بجاية، في حين تعاقب على حجابة هذه الأخيرة كل من ابن أبي حي الأندلسي ويعقوب بن غمر الشاطبي.¹

في هذه الظروف كان محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس قد دخل في خدمة السلطان أبي بكر (718-747) كقائد عسكري، وسنحده على مسرح الأحداث سنة 716 هـ على إثر عودة السلطان من تونس إلى قسنطينة استعدادا لمعركة جديدة ضد اللحياني وابنه أبي ضربة الذي بويغ لحينه أميرا على تونس، فقد شارك محمد بن سيد الناس في الحملة الأولى، ثم بعثه السلطان أبو بكر من قسنطينة إلى الحاجب بن غمر المستيد ببجاية في السنة الموالية ليهيئ له قصوره بها للترول فيها بعد أن غادرها منذ ثلاث سنوات أي سنة 715 هـ، فرده الحاجب على عقبه متنكرا له، ثم صرفه له ثانية سنة 718 هـ طلبا هذه المرة للمدد فأمده بسبعة عساكر وعقد لابن سيد الناس على إحداها، وتوافوا جميعهم عند السلطان أبي بكر بقسنطينة مع من انضاف إليهم من حشود زناتة وسديوكش وغيرهم وعزموا على الزحف إلى تونس في صفر 718 هـ، لتتجلى الأحداث عن انتصار السلطان أبي بكر واستيلائه على تونس وضواحيها.

وخلال شهر شوال من سنة 719 هـ كان الحاجب ابن غمر قد فارق الحياة فبعث السلطان محمد بن سيد الناس من تونس إلى بجاية لتحصيل ثروته وأمواله ودخائرها فاستوفى له ذلك وعاد إلى تونس، ولما كان بنو عبد الواد قد عزموا أخذ بجاية سارع السلطان أبو بكر فعقد أمرها لابنه الأمير أبي زكريا وجعل حجابته لأبي عبد الله محمد بن القالون وذلك صدر سنة 720 هـ.²

لم يمض على ولاية ابن القالون حجابة بجاية حتى كثرت فيه السعايات وبثت فيه الوشايات ونصبت له الغوائل، وتولى كبير ذلك المزوار ابن عبد العزيز الكردي وصاحب الأشغال بتونس أبو القاسم بن عبد العزيز الغساني التونسي الأندلسي الأصل، فاستراب السلطان من الحاجب وساء ظنه به فاستدعاه إليه وعزله، ثم عقد لمحمد بن سيد الناس على بجاية حاجبا ووصيا على أميرها الصغير أبي زكريا، وفي نفس الوقت قائدا عسكريا يتولى الدفاع عن المدينة وحماتها من هجمات بني عبد الواد ملوك تلمسان المتكررة، وذلك سنة 721 هـ، وقرىبا من ذلك العهد كان السلطان يفكر في إسناد أمر الحجابة في قسنطينة والوصاية على أميرها أبي عبد الله لابن سيد الناس، إلا أنه عدل عن فكرته مخافة منافسة ابن الأمين أحد أعيانها ووجهائها له.³

لقد تكررت هجمات بني عبد الواد وأحلافهم على بجاية لكنهم لم يحسموا الصراع لصالحهم، فبعد سنة 725 هـ أمر السلطان أبو ناشقين عبد الرحمن الأول (718-737) عساكره أن يضيّقوا الخناق على بجاية، فاخطوا على واديها حصنا ومدينة في ظرف أربعين يوما سميت تيمزدكت نسبة إلى حصنهم القديم في ضواحي وجدة، وشحنوا المدينة بالأقوات والأسلحة، وهو الأمر الذي أقض مضاجع السلطان الحفصي أبا بكر لما لم يستطع

¹ أنظر تفاصيل هذه الوقائع. ابن خلدون. العبر 6 / 453. ابن الشماخ. الأدلة البهية النورانية. ص 84-91، المطوى. السلطنة الحفصية، ص 319-292.

Mouloud Gaid. *Histoire de bégala*. op. cit. p. 92-99.

M'hamed Ali M'rabat. *L'Ifriqiya a l'époque Hafside*. op. cit. p. 347-349.

² ابن خلدون. العبر 6 / 482-485.

³ المصدر نفسه 6 / 486.

الحاجب ابن سيد الناس أن يجمي المدينة وحده؛ لقلّة عساكره إذ أن بعض قواته كانت في تونس، لذا أوعز إلى قواده أن يعينوه بعساكرهم كظافر الكبير حاجب قسنطينة وعبد الله العاقل من هوارة وظافر السنان من بونة فوصلوا إلى بجاية سنة 727 هـ وخرجوا تحت لواء ابن سيد الناس إلى تيمرزدكت، فكانت الهزيمة عليهم قتل فيها ظافر الكبير، فأضيف لابن سيد الناس مع ما كان يتولاه حجابة قسنطينة بعد أربعين يوما من مقتل حاجبها المذكور.¹

ورغم هذه الظروف التي عاشتها بجاية إلا أن الحاجب محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس قد استغل غياب السلطان أبي بكر بين قسنطينة وتونس، وصغر سن الأمير أبي زكريا ليعزز نفوذه أكثر ويطلق يده في تسير شؤونها دونما قيد، يصطنع الرجال ويكثر الأتباع والحاشية، وهو ما حدى بابن خلدون أن يسميه "صاحب الثغر"،² في حين يسميه ابن بطوطة³ الرحالة الذي زار بجاية سنة 725 هـ بـ "الأمير" ولم يتوان في تدوين موقفه ورأيه فيه، فيذكر أن أحد التجار الذي صحبه في رحلته من مليانة وهو محمد بن الحجر التونسي قد توفي ببجاية وترك ثلاثة آلاف دينار ذهب أوصى بها لمن يوصلها إلى ورثته بتونس وتنامى الخبر إلى الحاجب ابن سيد الناس فاستصفاها لنفسه، وعقّب ابن بطوطة بقوله على هذا الحدث: "وهذا أول ما شاهدته من ظلم الموحدّين (أي الحفصيين) وولاّهم".⁴

لم يكن نفوذ الحاجب وصاحب الأمر الحقيقي في بجاية داخليا فقط، فعلى الصعيد الخارجي لا تزال إلى يومنا هذا تحمل وثائق المعاهدات والاتفاقيات الدولية المبرمة بين الدولة الحفصية وملوك أوروبا تحتفظ لنا باسمه، وتتعرف به كمفاوض ذو صلاحيات واسعة، ففي الظروف المشار إليها من حصار بني عبد الواد لبجاية قام ابن سيد الناس - وبإيعاز من السلطان أبي بكر بتونس سنة 723 هـ / 1323 م- بالتفاوض مع خاتم الثاني ملك أرجونة لإعادة بعث العلاقات بينهما والتي توقفت منذ سنة 715 هـ / 1315 م وإقامة حلف كفيل بردع أسطول تلمسان، فأوفد ابن سيد الناس إلى أرجونة أبا مروان عبد الملك سفيرا صحبة زيد بن محمد الأنصاري، وأبرمت معاهدة صلح سارية المفعول لمدة أربع سنوات تنظم حقوق رعايا الملك خاتم الثاني في بجاية وكل سواحل إفريقية، بالإضافة إلى شروط التعاون العسكري والاستعانة بالسفن الحربية التابعة لأرجونة والمبالغ التي تدفع من أجل

¹ ابن خلدون. العبر 6 / 492 ، 505 ، بعزيق. بجاية في العهد الحفصي، ص 73-75.

Mouloud Gaid. *Histoire de bejaia* .op . cit. p100- 101.

² يستعمل ابن خلدون أثناء الحديث عن بجاية وناحيتها مصطلح "الثغر" بدل مصطلح "الإقليم" أو "المقاطعة" وهذا للدلالة على تميزها في الفضاء الجغرافي والوعي السلطوي للدولة الحفصية؛ واستقلالها المعنوي -المادي أحيانا- بتربكيتها العرقية البشرية وحتى الطبيعية؛ كاستمرار تاريخي إيجابي لتتميزها بعد أن أصبحت عاصمة للحماديين في القرن 5 هـ، ومن هنا كانت قوة حجاب بجاية في العهد الحفصي. أنظر :

Dominique Valerian. *Frontières et territoire dans Maghreb de la fin du Moyen Age les marches occidentales du sultanat Hafside*. Correspondances, N° 73, Nov 2002- Fév 2003. p. 3-8.

³ هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ولد سنة 703. من أشهر الرحالين في العالم الإسلامي بدأ رحلته من المغرب الأقصى سنة 725 حتى وصل إلى الصين توفي سنة 779 هـ انظر عنه: إبراهيم العدوي. ابن بطوطة في العالم الإسلامي، ط3، القاهرة: دار المعارف، 1983، (151 ص)، أحمد الكبيسي. ابن بطوطة 29 عاما في الرحلة، مجلة الفصل، عدد 86- 1404 هـ / 1994. ص 81، وما بعدها.

⁴ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد السعيد محمد الزيني، القاهرة، المكتبة التوفيقية. ص 13.

ذلك، وهذه الرسالة مؤرخة بـ 2 صفر 723 هـ / 6 مارس 1323 م،¹ وفي الرسالة الثانية المؤرخة بـ 16 رجب 726 هـ / 18 جوان 1326 م يوصي حكام برشلونة فواصلهم بتونس بالتفاوض مع السلطان أبي بكر ومع الحاجب محمد بن سيد الناس، وتضعهما بذلك في درجة واحدة من الأهلية والصلاحية.²

لما توفي حاجب السلطان أبي بكر: محمد بن عبد العزيز المزوار الكردي بتونس في شعبان سنة 727 هـ، عين محمد بن خلدون الإشبيلي الجدد لتولي الخطة مكانه فاستنكف عنها ولم يقبلها، وأشار على السلطان بصاحب الثغر بجاية ابن سيد الناس لقوة شكيمة وكفاءته، فعمل السلطان برأيه ومشورته فاستدعى ابن سيد الناس من بجاية إلى تونس لذلك الغرض فوصلها محرم 728 هـ وولاه حجابه، وفي نفس الوقت جدد له العقد على بجاية وحجابه أميرها أبي زكريا، لكن ابن سيد الناس ولتفرغ بشكل جدي لمنصبه الجديد في تونس، قد أناب عن نفسه محمد بن فرحون الجياني الأندلسي مشرفا على بجاية وحاجبا وهو أحد صنائعه،³ وهذا الشكل كان الأندلسيون يتعصبون لأنفسهم ويحتكرون المناصب العليا في الدولة الحفصية.

وأول عمل لابن سيد الناس في تونس للاستفراد بالسلطان هو الإيعاز إلى موالي السلطان من العلوج: بشر وفارح بقتل محمد بن القالون حاجب بجاية السابق ووالى قفصه الذي تزامن توليه أمرها مع تولي ابن سيد الناس حجابه تونس، وكان بين الرجلين إحن وضاغن، وابن القالون عاد إلى طاعة السلطان أبي بكر بعد الخروج عليه وفي نفسه أن يوليه حجابه، إلا أنه لم يدم طويلا في قفصه حتى قتل بسعاية ابن سيد الناس.⁴

لقد شهدت مملكة بني حفص اضطرابات ذات أثر بليغ انتهت باحتلال عساكر بني عبد الواد وحلفائهم من الأعراب وأعياص بني مرين الثائرين على ملوكهم بجاية في صفر سنة 730 هـ بعد انهزام المعسكر الحفصي في معركة الرياس من مضارب هوارة آخر سنة 729 هـ، مما دفع بالسلطان أبي بكر الذي نجا إلى بونة ومنها عسر إلى بجاية للاستعانة بفرم بني عبد الواد السلطان أبي سعيد المريني (710-731) ثم خلفه أبي الحسن المريني (731-752) الذي قام بمحاصرة تلمسان، فتراجعت العساكر المحاصرة لبجاية لاستنقاذ تلمسان،⁵ وهذا استطاع السلطان أبو بكر وضع حدا لتحركات بني عبد الواد وتكاليهم على مملكته.

وباستقرار أوضاع الدولة الخارجية بدأت الاضطرابات الداخلية من جديد بالسعيات الوشايات برجالها، فقد داخل الحسد الكثيرين بشأن الحاجب محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس بسبب استبداده بأمور الدولة في بجاية وتونس ومكانته لدى السلطان أبي بكر، فأغروا به هذا الأخير وكان السلطان نفسه قد ادخر له زلاته وسقاطاته منذ كان حاجبا ومتوليا لبجاية سنة 721 هـ لاستبداده المشار إليه، والأخطر من ذلك اتهامه بمداخلته قائد زناتة المحاصر لبجاية موسى بن علي بن زبون وفطنته للأمر، إلا أنه أبقى عليه وأغضى الطرف عنه لكفاءته في مدافعة

¹ برنشفيك. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي 1/ 184-185، بعزيق. بجاية في العهد الحفصي، ص 407.

² بعزيق. بجاية في العهد الحفصي، ص 407.

³ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 35-36، ابن خلدون. العبر 6/ 493-494، الزركشي. تاريخ الدولتين، ص 67،

برنشفيك. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي 1/ 182.

⁴ ابن خلدون. العبر 6/ 494، برنشفيك. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي 1/ 182.

⁵ ابن خلدون. العبر 6/ 495-499.

العدو دون غيره، إلى حين استتب الأمن وانتفت الحاجة إليه، فأمر حينه أن يقبض عليه في ربيع سنة 733 هـ فسجنه، ثم استخرجه وعذبه ليُدله على أمواله وثرواته التي ورث بعضها عن أبيه واكتسب بعضها الآخر طوال سنوات خدمته في البلاطين: بلاط بجاية وبلاط تونس، وإصراره على الكتمان عنها زاد السلطان من عذابه، وتحت وطأة الألم شتمه ونال من عرضه بكلمة فقتل بسببها بعد ذلك شدخا بالعصي وطيف بجثته ثم أحرقت، ومن الكرامات التي روجت عنه أن يده اليمى بقيت سليمة ولم تحترق رغم التركيز عليها، وفُسر ذلك بكثرة صلقاته وكرمه وبذله وعطاءه، وقد تولى الحجابة بعده أندلسيا آخر هو أبو القاسم ابن عبد العزيز الغساني كاتبه السابق.¹

نهاية البيت اليعمرى في المغرب الإسلامي

مثل مقتل الحاجب محمد بن سيد الناس نهاية المجد السياسي للبيت اليعمرى وأقول وجاهتهم، وحدا فاصلا بينهم وبين مناصب الدولة وإزاحة لهم عن مسرح التأثير وصناعة الأحداث، إلا أن ذلك لم يكن لينهي وجودهم للأبد، فبعد عشرين سنة من ذلك ظهر ابنه محمد ومولاه وصنيعته هلال العليج، فبعد إضعاف سلطة البيت الحفصي على يد السلطان أبي الحسن المريني بداية من سنة 748 هـ أكمل ابنه الناصر عليه أبو عنان (749-759) مشروعه الطامح إلى إعادة توحيد المغرب وإفريقية، فأغرى الأمير أبا عبد الله محمد ابن أبي زكريا (749-753) صاحب بجاية أن يتنازل له عن ملكه، على أن يعوضه بولاية مكناسة وتحت قلة ذات اليد والحيلة استجاب مكرها، وعقد أبو عنان لعمر بن علي الوزير الوطاسي على بجاية سنة 753 هـ لكن أعيان المدينة وموالي البيت الحفصي أنصارهم لم يرضوا بذلك، وتصدى منصور بن إبراهيم بن الحجاج أحد أشياخ صنهاجة ومولى الأمير: فارح العليج فقتلا ابن الوزير الوطاسي وقاضيه ابن فركان وأعلنوا طاعتهم لأمير قسنطينة أبي زيد، إلا أن الخوف مملك أهل بجاية من مغبة ذلك وخشوا سطوة أبي عنان بهم فعادوا إلى طاعته وتمسكوا بدعوتيه، وللتقرب منه قام محمد بن محمد بن سيد الناس ومولى أبيه هلال العليج بقتل فارح وبعثوا برأسه إلى أبي عنان بموضعه من تلمسان ونصبوا يحيى بن عمر الونكاسي المريني عاملا على بجاية، إلى حين وصول محمد بن أبي عمرو التميمي حاجب أبي عنان إلى بجاية صدر سنة 754 هـ، إلا أن عملهم لم يكن ليرضي السلطان ففر الكثير من المشاركين في تلك الأحداث إلى تونس وغيرها قبل وصول الوالي الجديد، أما هلال مولى ابن سيد الناس فقد قبض عليه وسجن في بجاية،² أما محمد بن سيد الناس فقد عمل الحاجب المريني ابن أبي عمرو على تقييده مع حاجب بجاية السابق ابن المنت الحضرمي الأندلسي والاستظهار بهما على أعيان بجاية ومشائخها، في محاولة لإصلاح الأوضاع وضبط أمور المدينة وإعادةها إلى فلك بني مرين الرابضين في تلمسان، وذلك في جمادى من

¹ ابن خلدون. المعر 6 / 500-501، الزركشي. تاريخ الدولتين، ص 70، ابن القنفذ. الفارسية، ص 165، المطري. السلطنة الحفصية، ص 351-352، برنشفك. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي 1 / 182.

² ابن خلدون. المعر 6 / 533-534، بحريزق. بجاية في العهد الحفصي، ص 408.

Laurent- Charles Féraud. *Histoire de Bougie*. Présentation de : Nedjma Abdelfettah Lalmi. Editions Bouchene. p.77-78.

نفس السنة،¹ لكننا لانملك أي إشارة بعد ذلك عن ابن سيد الناس، فهل وصل تلمسان مع وفود إفريقية؟ هل عاد إلى بجاية؟ أم فضل الانضمام إلى الصف المريني ومن ثمة التروح إلى فاس؟
الذي يمكن أن نؤكدته إجابة عن هذه الإشكالات هو أن البيت اليعمري بقي ببجاية ولفترة طويلة يعيد صياغة مجده المنهار بشكل ما مغاير لما كان عليه؛ فبعد قرن واثني وثمانون سنة ظهر جيل جديد لبني سيد الناس يمثله أبو يوسف بن الحسين بن علي بن سيد الناس كشخصية علمية فقهية، من أهم علماء بجاية لوقته بل أحد أربعة من مجموع "علماء المدينة" -أي بجاية- إلى جانب أحمد بن إسماعيل الكناشي وإبراهيم الهنتاني وأبو محمد علي، وذلك سنة 915 هـ/ 1509 م، أين نخرج مع الأمرين أبي فارس وأبي عبد الله ابني السلطان عبد العزيز في قبائل سدويكش وزواورة وبني عبد الواد وتجنين وبعض القبائل العربية ضد الغزاة الأسبان في حملتهم على بجاية،² وهذا مؤشر على عودة البيت اليعمري تدريجيا إلى رحاب المجد العلمي الذي بدؤوه أولا في أبدة وإشبيلية، استعدادا لدخول عصر جديد تحت ظل العثمانيين.

عبد العزيز
عبد القادر
للعلوم الإسلامية

¹ ابن خلدون. العر 385/7.

² Feraou (ch.L). *Conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit arabe*, Revue Africaine, N° = 67-1968. p. 253.

بعيزيق. بجاية في العهد الحفصي، ص 408.

بيت ابن خلدون الإشبيلي والطموح الجامع (647-780 هـ)

الأصول اليمنية للبت الخلدوني

ينتسب بنو خلدون إلى الصحابي الجليل وائل بن حجر الكندي الحضرمي¹ اليمني، الذي تزعم قومه يوم وفد على النبي ﷺ سنة 10 هـ المعروفة بعام الوفود، فبسط له ﷺ رداءه الشريف وأجلسه عليه: وقال: (اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد وولده إلى يوم القيامة)²، وسر بمقدمه.

والروايات التاريخية الأولى صنعت هالة عظيمة من شخصية وائل بن حجر، فتذكر أن النبي ﷺ كان شديد العناية به والرعاية له أثناء وفوده عليه؛ لمكاته من قومه باعتباره من أقيال (أي ملوك) اليمن وأبناء ملوكها، وحسب ذات الروايات فقد أصعده النبي ﷺ معه إلى منبره الشريف، وكتب له عهداً وأقطعته أرضاً، ثم أرسل معه معاوية بن أبي سفيان إلى قومه يعلمهم القرآن والإسلام، وفي طريقهما إلى اليمن أبي وائل بن حجر أن يركبه على فرسه؛ وحسب ابن خلدون الذي يظهر اعتزازه بنسبه أن ذلك كان ازدرأً له واحتقاراً؛ لتزول مكاته ونسبه وشرفه عن ابن الملوك ذاك.³

وفي خلافة معاوية وفد عليه وائل بن حجر فوصله بهدية سنوية فردها عليه ولم يقبلها،⁴ ولما كانت واقعة حجر بن عددي الكندي بالكوفة سنة 51 هـ اجتمع وائل بن حجر وأعيان أهل اليمن فكانوا مع زياد بن أبيه عليه، إذ تقبضوا عليه وأشخصوه إلى معاوية بدمشق فقتله.⁵

بنو خلدون في الأندلس

دخل الحفيد السابع لوائل بنو حجر إلى الأندلس وهو خالد بن عثمان بن هاني بن الخطاب بن كريب ابن معدن بن يكر بن الحارث بن وائل بن حجر،⁶ وسمي خالد هذا على الطريقة الأندلسية بخلدون.⁷

¹ نسبة إلى حضرموت بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس... بن حمير بن سبأ، أنظر: الحازمي. عجالة المعدي، ص 82، المقحفني. معجم البلدان والقبائل اليمنية، 1/ 476

² ابن عبد البر. الاستيعاب، ص 756، ابن عساکر. تاريخ دمشق، 62/ 388، 391، ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 28.
³ ابن عساکر. تاريخ دمشق، 62/ 383-387، الحافظ المزني. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق بشار عواد، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1413-1992، 30/ 419-420، ابن خلدون. العبر، 2/ 477، وعن مرويات وائل الحديبية أنظر: ابن قانع. معجم الصحابة، تحقيق صلاح المصراي، مكتبة الغرباء الأثرية، 3/ 181.

⁴ خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 28.
⁵ أنظر تفاصيل هذه الأحداث: الطبري. تاريخ الرسل والملوك، 5/ 253-270، ابن الخياط. تاريخ خليفة ابن الخياط، تحقيق سهيل زكار، بيروت- دار الفكر، 1414-1993، ص 160، نبيه عاقل. تاريخ خلافة بني أمية، ط3، بيروت، دار الفكر، 1394-1975، ص 73-74، بوليس فلهاوزن. تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد المهدي أبو ريده، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005، ص 118.

⁶ ابن حزم. الجمهرة، ص 430، ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 28.
⁷ دوزي. تاريخ مسلمي الأندلس، 2/، وأنظر كذلك: عبد الله كون. هل اسم خلدون ونحوه مكر على الطريقة الإسبانية؟، مجلة البحث العلمي (الرباط)، عدد 3، ديسمبر- جانفي 1964، ص 127-136.

وابن خلدون المؤرخ لا يحدد تاريخاً لدخول الجد الأعلى له، ولكنه وهو يعدد أباته وأجداده يذكر أن بين خلدون ووالث بن حجر ستة أبناء، وهذا ينفي وصولهم مع الجيش الفاتح أو طاعة بلج بن بشر القشيري، ويدل على أن وصولهم كان في بدايات القرن الثالث؛¹ إذ كل قرن يشمل ثلاثة أجيال حسب النظرية الخلدونية.

لما وصل بنو خلدون الأندلس نزلوا ابتداءً في مدينة قرمونة² مع بطون حضرموت، وبها نشأ أبناؤهم وأحفادهم، ومنها نزحوا إلى إشبيلية في النصف الأول من القرن الثالث، وكان لكريب ومحمد ابني خلدون ظهورهما وشأن رفيع، ويبدو أنهما اكتسبا نباهتهما ومجدهما في مستقرهم الجديد كقادة للجيش الأندلسي أصحاب ثروة ومال ونفوذ، فقد عد المؤرخون البيت الخلدوني أحد البيوت الثلاث التي انتهت إليها النباهة والسود والرياسة مع بني حجاج³ وبني عبدة،⁴ مشكلين بذلك طبقة "أرستقراطية" عربية شديدة القوة، فرضوا سيطرتهم على بقية "البرجوازية" العربية، ناهيك عن البربر والمولدين الإسبان.⁵

ولما اضطرت الأندلس أيام الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني (275-300) وكثرت الفتن والقتال بها، وجد بنو خلدون وبعض رؤساء إشبيلية فرصة سانحة للتغلب على المدينة والاستيلاء بمقاليدها ثم خلع طاعة بني أمية، وكان الأمير الأموي قد ولّى على إشبيلية أمية بن عبد الغفار من بيت بني عبدة وبعث معه ابنه محمداً، فاجتمع سنة 280 هـ رؤساء البيتين: كريب بن خلدون وعبد الله بن حجاج، وثاروا بابن الأمير الأموي وواليه العبدى وحاصروهما في القصر إلى أن استسلم ابن الأمير ولحق بقرطبة، أما الوالي العبدى فقد دسّ من رجاله من قتل عبد الله بن حجاج ومكّن أخاه إبراهيم من رئاسة البيت خلفاً له، فانفك بذلك الحصار وضبط إشبيلية وجعل من أبناء البيت الخلدوني وبني حجاج رهائن عنده، فانقادوا له مدة ثم نبذوه وثاروا عليه، لكنه استعمل أبناءهم كورقة ضغط ضدهم فتراجعوا عمّ أبرموا وأعطوه العهود والمواثيق فأطلق أبناءهم، ثم انتفضوا عليه ثانية وقتلوه وكتبوا إلى الأمير بقرطبة يتهمون الوالي بالذي من أجله قتله، فقبل منهم مداراة وضعفاً، إذ لم يكن يملك من وسائل الرد إلا مقداراً محدوداً لذا رضخ لهم، وبعث إليهم بهشام بن عبد الرحمن من البيت الأموي الحاكم والياً على إشبيلية، فثاروا عليه هو الآخر وقتلوا ابنه، وتولى كبر ذلك كله كريب بن خلدون واستطاع أن

¹ ساطع المصري. دراسات عن مقدمة ابن خلدون، القاهرة: دار المعارف، 1953، ص 47.

² قرمونة إحدى كور الأندلس من مدنها مرشانة وبرفيس وطنبورة، وهي قصبة الكورة مدينة كبيرة على رأس جبل منيع، على مرحلة من إشبيلية، وفيها أقام بنو يرزال (قبيلة من المغرب الأوسط) دولتهم. راجع: ابن غالب. فرحة الأندلس، ص 292، ابن الشاطر. قطعة من صلة السمط، ص 138.

Helena De Felhpe. *Identid y Onomástica*, op. cit. p. 321.

³ أنظر عن بني حجاج:

Julia M^a Carobaza *Le Familia de la Banū yaḡyāy siglos II-VII / VIII-XIII*, dans : *Estudios Omamástico – Andalus*, op. cit. p 39- 55.

حمدي عبد المنعم حسين. التاريخ السياسي لمدينة إشبيلية في العصر الأموي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1408-1987، ص 59-118.

⁴ أنظر عن بني عبدة: سحر السيد عبد العزيز سالم. بنو أبي عبدة وزراء الدولة الأموية في الأندلس، ضمن: بحوث مشرقية مغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1997، ص 1-54.

⁵ بير غيشار. التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين، ضمن: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ص 966-

يستقل بإشبيلية كإمارة خاصة في جوهرها لا يربطها بقرطبة دار الإمارة إلا خيط رفيع، لا يتجاوز ذكر الأمير في الخطب والمحافل.¹

فلم يستخ عميد بيت بني الحجاج إبراهيم تقدم غريمه كريب بن خلدون عليه وأنف الانقياد له، فشكل حلقا مع ابن حفصون أعظم ثوار الأندلس يومئذ بمالقة وأعمالها² ضده وضد الأمير بقرطبة، ثم بدا له أن يتزع يده من ابن حفصون ويراجع طاعة كريب الذي قبل أوبته وقربه إليه وأشركه في الإمارة والحكم، وكان كريب ينتقل بين إشبيلية وقرمونة موطنه الأول، وهذه الأخيرة كان يستكثر من الخيل والجياد الذين اتخذهم لنفسه ورتبهم طبقات بمد بهم أمر قرطبة خلال الصوائف المتعقدة لحرب النصارى الإسبان في الشمال، كما كان يهاديه ويصانعه بالأموال والتحف كسبا لوده ورضاه، وكانت الشعراء والمداح يقصدونه فيسني جوائزهم، وتأتيه أهل البيوتات والأعيان فيصلهم بالأعطيات والمكرومات؛ وكان أحظى هؤلاء عنده ابن عبد ربه القرطبي (تـ 328 هـ) صاحب كتاب "العقد الفريد"، إلا أن سيرته مع العامة كانت مغايرة لذلك تماما تحاملا وتعصبا عليهم، في حين كان شريكه إبراهيم بن حجاج يحسن إليهم ويتلطف بهم ويشفع لهم عنده، مما زاد من حب الرعية له وتجايفهم عن كريب، فلما أحس ابن حجاج بحيل الرعية إليه كتب إلى الأمير عبد الله يطلب منه أن يعقد له على ولاية إشبيلية، فوجد الأمير في ذلك فرصة لضرب هذه البيوتات المتنفذة بعضها ببعض وتقويض سلطتها بنفسها، إذ كتب له عهدا بذلك وأطلعه لعرفاء إشبيلية وأعيانها فأجمعوا على خلع ابن خلدون والثورة عليه وأوعزوا إلى العامة بقتله ففعلت، وبعثوا برأسه إلى بلاط قرطبة، واستفرد ابن حجاج بملك إشبيلية.³

في المقابل كان الفرع الثاني للبيت الخلدوني الذي يمثله محمد الأخ الثاني لكريب يؤسس للمجد العلمي دون الخوض في السياسة وتقلبها ولا حياة البلاط والإمارة وديانتها، إذ نبغ فيه أبو مسلم عمر بن محمد (أو أحمد) بن بقي بن عبد الله بن بكر بن محمد بن خلدون، أحد أشرف إشبيلية، كان ضليعا في الفلسفة والحكمة والنجوم والطب والهندسة وقد توفي سنة 449 هـ.⁴

رغم أن البيت الخلدوني فقد الإمارة إلى الأبد إلا أنه لم يتزحزح عن مكانه ضمن قائمة بيوتات إشبيلية المتنفذة بجاهها وثروتها وعراقتها، فقد ظهوروا من جديد في عهد دولة بني عباد -إحدى أكبر إمارات الطوائف- كوزراء، وعبد الرحمن بن خلدون المؤرخ يذكر ذلك بصيغة الجمع حين يقول: "لما علا كعب ابن عباد بإشبيلية واستبد على أهلها استوزر من بني خلدون هؤلاء الوزراء واستعملهم في رتب دولته"⁵، لكنه لم يسعفنا بأي اسم من هؤلاء الوزراء أصحاب الرتب؟.

¹ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته. ص 29-30، دعينة عطاء الله. ابن خلدون 732-808 هـ/1332-1406 م، مجلة التاريخ. عدد خاص، 125-126.

² أنظر عن تفاصيل ثورته: عبد الحميد نعمي. تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، ص 273-280.

³ ابن حزم. الجمهرة، ص 430، ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 30، المصري. دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ص 47.

⁴ ابن صاعد. طبقات الأمم، ص 172، ابن أبي أصيمة. طبقات الأطباء 65/3، البشري. الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، ص 369.

⁵ التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 31-32.

كل ما في الأمر أننا نجد شخصية أبا محمد بن خلدون قد اقترنت بلقب ذي الوزارتين¹ كمؤشر عن المكانة السامقة لهذا الوزير في البلاط، وكمؤشر كذلك عن أثره في تسيير شؤون الإمارة والصلاحيات الواسعة المخولة له في الميدانين السياسي والعسكري معا، وهذا اللقب يدل على أنه جمع بين خططي السيف والقلم، وإن كان ابن بسام الشنتريي ينفرد بتلك التحلية دون غيره.²

أيا ما كان الأمر فقد انتهت حياة ذي الوزارتين محمد بن خلدون -وربما مع أشرف بيته- في معركة الزلاقة الشهيرة في رجب سنة 489 هـ، ورثه الشاعر ابن عبدون،³ ومما جاء في مرثيته قوله: [طويل]

رثته فقلنا إنما لتماضر	وإن ابن خلدون لمفقودها صخر
مضى لم يَرثْ عنه الرئاسة وارث	ولولا المساعي الزهر لانتقطع الذكر
وما كان إلا الغيث أقبلع جملة	فلم يك مندلا غدير ولا زهر ⁴

ويظهر من هذه المرثية أن معركة الزلاقة وإن كانت بشرى لكافة المسلمين، إلا أنها لم تكن كذلك بالنسبة لمستقبل البيت الخلدوني، فقد قتل فيها الكثير من أشرفه وأعيانه لدرجة أن كاد يتمحي رسمه ويطمس ذكره، بل هو أمر واقع إذ أننا لا نجد طوال القرن السادس ذكر للبيت الخلدوني مطلقا.

بنو خلدون في المغرب وإفريقية وأدوارهم السياسية

خرج بنو خلدون من ساحة الظل التي عاشوها مع بداية القرن السابع بصورة محتشمة، فعلى إثر قيام الدولة الحفصية بإفريقية وإعلانها خلع دعوة بني عبد المؤمن سنة 625 هـ وقيام دول الطوائف الثانية في الأندلس أعلن محمد بن يوسف بن هود الجذامي الثورة والاستقلال بمروية،⁵ وقام غريمه ابن الأحمر الثائر بغرب الأندلس بمفاوضة أهل البيوتات الأشبيلية رجاء أن يعينه على حرب ابن هود، وفي نفس الوقت يتنازلوا لابن الأذفونش ملك الجلالة عن بعض الحصون ومهادنته باعتبارهم أهل الشورى وأصحاب الرأي، وهذه البيوتات هي بنو الباجي وبنو الوزير وبنو سيد الناس وفي آخر القائمة بنو خلدون، وانتهى الأمر بإحكام سيطرة بني الباجي على إشبيلية إلى أن تغلب عليهم بنو الأحمر سنة 632 هـ، وبقيت المدينة تترنح بين ضربات الثوار وملوك النصارى،

¹ أول من تلقب بذي الوزارتين هو صاعد بن غلند (تـ 276 هـ) أيام المعتمد على الله الخليفة العباسي (256-279)، أنظر: محمد مسفر الزهران. نظام الوزارة في الدولة العباسية، ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1406-1986، ص 92.

² الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 668/2/2، ويرد عند غيره خاليا من التحلية، راجع: ابن ظافر الأزدي. بدائع الهدى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا- بيروت: المكتبة العصرية، 1413-1992، ص 225-226، ابن شاعر الكشي. فوات الوفيات، 1/ 519، المقرئ. نفع الطيب، 3/ 242.

³ هو أبو محمد أبو بكر بن عبد الحميد بن عبدون الفهري، كاتب ووزير في دولة بني الأفلح ثم في دولة المرابطون، وشاعر وأديب مفتق المواهب، أنظر عنه: ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 668/2/2.

⁴ ابن بسام. الذخيرة 720/2/2، ابن خلدون. التعريف بابن خلدون، ص 32.

⁵ أنظر تفاصيل ذلك: ابن الخطيب. أعمال الأعلام، ص 170-176، ابن خلدون. العبر 209/4-210، 215-218، مصطفى بساج. ثورة ابن هود على الموحدون، مجلة كلية الآداب بتطوان، عدد6، 1993، ص 145-160.

حتى سقطت في يد الإسبان سنة 648 هـ، وإزاء هذه الأوضاع التي عاشتها إشبيلية قرر البيت الخلدوني مغادرة الأندلس كلها والجواز نحو العدو المغربية خوفا من ابن الأذفونش،¹ وهذا قبل سقوط إشبيلية في يده بسنوات قليلة قبل التاريخ المذكور.

وأول منازل البيت الخلدوني في العدو كان مدينة سبتة إمارة العزفيين، وأول هؤلاء الداخلين هو الحسن بن محمد الجد الثالث للمؤرخ عبد الرحمن بن خلدون الذي صاهر في البيت العزفي الأمراء لعلاقاته المتميزة بهم، كما كانت له علاقات وطيدة كذلك مع رؤساء بني حفص أمراء إفريقية، كما امتداد طبيعي للعلاقات التي جمعت بين البيتين لما كان الشيخ أبو حفص يتولى ولاية إشبيلية للموحدين، كما هي امتداد للعلاقات التي نشأت مع خلفائه كعبد الواحد وأبي زكريا الحفصي (625-647)، الذي أهدى له جد الحسن بن خلدون لأمه المعروف بابن المحتسب جارية من سبي الجلائقة اتخذها أم ولد له، فأنجب منها أبا يحيى زكريا المرشح لولاية العهد لولا أن وافته منيته قبل أن يتحقق فيه حلم أبيه، كما أنجب منها غيره لذا سميت بأم الخلائف، فهذا الماضي المميز دفع الحسن بن خلدون إلى الخروج من سبتة والتوجه نحو تونس فأكرم الأمير أبو زكريا وفادته وأجزل عطائه، ثم عزم على الرحلة نحو الحجاز لأداء مناسك الحج فلما عاد إلى تونس وجد الأمير قد خرج إلى مدينة بونة² فلاحق به هنالك فأداناه وقربه إليه وإلى رجال دولته، وفرض له رزقه وأقطعته إقطاعات جليلة في أرباض بونة التي استقر بها بقيت حياته حتى أدركته منيته سنة 647 هـ وبها دفن.

وبموت الحسن بن خلدون أنفسح المجال لظهور ابنه محمد أبي بكر الذي وجد الجوهري مهيبا والطريق ممهدا إلى البلاط الحفصي، فقد أحاطه الأمير أبو زكريا بظل رعايته وفاء منه لأبيه، إلا أن الأمير لم تطل به الحياة حتى لحق بالحسن بن خلدون يوم 22 جمادى الآخرة من نفس السنة.³

ظل أبو بكر محمد بن الحسن بن خلدون على ما كان عليه مقربا من أمراء وسلاطين بني حفص المتعاقبين، دون أن نجد له وظيفة محددة أيام المستنصر (647-675) ثم يحيى الواثق (675-678)، إلى غاية وصول الأمير أبو إسحاق العائد من منفاه بالأندلس إلى سدة الحكم، فأزاح مشيخة الموحدية تدريجيا عن المناصب الرفيعة في الدولة واستعاض عنهم بالأندلسيين، فكان منهم أبو بكر محمد بن خلدون الذي جعله صاحب الأشغال وذلك في ذي الحجة من سنة 678 هـ.⁴

¹ ابن خلدون. العبر، 4/ 218-219، نفسه. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص33.

² عن بونة في هذه الفترة أنظر: عبد الحميد حاجيات. عنابة في العهد الحفصي، الأصالة، عدد 34-35، 1976، ص 74-85.

³ ابن خلدون. العبر، 6/ 400، نفسه. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 34، دهنية. ابن خلدون، ص 126.

⁴ ابن خلدون. العبر، 6/ 436، نفسه. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص34، برنشتك. تاريخ الرقبة في العهد الحفصي، 1/ 111، هذا وترى سفيثانا بتاسيفا أنه ولي الأشغال منذ عهد المستنصر ؟ أنظر: العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمة رضوان إبراهيم، ليبيا- تونس: دار العربية للكتاب، 1398-1978، ص 57.

أما صاحب الأشغال في الدولة الحفصية فهو بمثابة وزير المالية بتعبير العصر الحاضر، ومن مهامه الإشراف على ديوان المالية وضبط حساباته؛ الوارد منها والصادر، وحماية الأموال واستخلاصها ومحاسبة العمال ومعاقبتهم على التفريط، ونظرة في ذلك كله نظر مطلق لا يرجع فيه إلى الأمير أو السلطان في شيء.¹

وإذا علمنا أن مشيخة الموحدية التي كانت تحتكر منصب الأشغال لم يزل نفوذها تماما في البلاط الحفصي؛ أدركنا حينها منزلة أبي بكر بن خلدون وقوته.

ولما فوض السلطان أبو إسحاق ابنه ولي عهده أبا فارس عبد العزيز سنة 679 هـ إدارة شؤون بجاية، اختار له لحاجته ابن صاحب أشغاله وهو محمد بن أبي بكر بن خلدون فانتقلا معا إلى بجاية، ولم تمض سنة على تولي أبي فارس الإمارة حتى أعلن صاحب قسنطينة أبو بكر بن موسى الشهير بابن الوزير الثورة على الحفصيين وخلع طاعتهم، لما وجد سندا وعونا من ملك أرغون بيدرو سنة 680 هـ، فعهد السلطان لأبى بكر بن خلدون بإخماد الثورة المعلنة، واحتشد له الفرسان والقبائل والأعراب والآلات وسار إلى قسنطينة وضرب عليها حصارا في أول ربيع 681 هـ، ولم يستطع اختراق الأسوار والتحصينات الدفاعية التي اشتهرت بها المدينة، واستمر على ذلك الحال مكتفيا بمناوشات هنا وهناك برهة من الزمن، حتى تمكن الحاجب محمد بن أبي بكر ابن خلدون من تسور البلد مع فرسانه واخترق دفاعات ابن الوزير وأشياعه وقتله وقتل أخاه معه، ليدخل الأمير أبو فارس بعدها مزهوا بالنصر الذي صنعه حاجبه الخلدوني، ومكث في قسنطينة ثلاث أيام أصلح ما ائتمل من أسوارها وضبط أمورها وبعث بكتاب النصر إلى السلطان بتونس، ثم كر راجعا إلى بجاية صحبة الحاجب محمد بن خلدون.²

ومن غير أن تمدنا المصادر التاريخية بملاحظات وظروف؛ ولا حتى التوقيت؛ نجد الحاجب محمد بن خلدون يطلب من الأمير أبي فارس أن يعفيه من منصبه،³ كما لا تمدنا ذات المصادر بالدوافع الحقيقية التي جعلت الأمير يركن إلى طلبه ويقبل موقفه ويتفهمه ويسعفه فيه فيعفيه.

ويظهر أن السبب الحقيقي لاستقالة ابن خلدون من منصب الحجابة تم تحت وطأة الوشائيات وكثرة السعايات به وحسد رجال البلاط له، لمكانته ومكانة بيته في الدولة، وخوفه من انصياح الأمير لما يشيعه المغرضون عنه، إذ لا تزال تتراعى له نماذج من هذا النوع كما حصل مع ابن الأبار وغيره، لذا أثر السلامة والنجاحة بنفسه عائدا إلى الحضرة تونس.

وبعد ثورة الدعي ابن عمارة المسيلي -المشار إليها سابقا- واستيلاءه على تونس سنة 681 هـ ألقى القبض على صاحب الأشغال أبي بكر بن خلدون وأذقه الدعي ألوانا من العذاب وصنوبا من النكال؛ علّه يفصح له عن مكان أمواله الشخصية وأموال الدولة التي كان يشرف عليها، وأمام إصراره على التكتم عليها ويأس الدعي ابن عمارة منه لم يجد بدا من قتله خنقا، أما ابنه محمد حاجب بجاية السابق فقد فر بأسرته مع السلطان أبي إسحاق

¹ ابن خلدون. المقدمة، ص 233، ابن فضل الله العمري. مسالك الأبهصار، ص 58، القلقشندي. صحح الأعشي، 139 / 5.

M'hamed Ali M'arabet. *l'Ifrigiya a l'Epoque Hafside*. dans : *Histoire de la Tunisie*. op. cit. p.367.

² ابن خلدون. العمري، 6 / 438-440، الزركشي. تاريخ الدوليين، ص 44، برنشتيغ. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، 1 / 112-114، Mouloud Ghaid. *Histoire de béja*.p.88-89, Laurent- Charles Féraud. *Histoire de Bogie* .p.65.

³ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 34.

إلى بجاية، ومنها خرج مع السلطان الجديد أبي فارس لقتال الدعي بمراجعة حيث قتل السلطان وإخوته، ونجا أبو حفص ابن الأمير أبي زكريا إذ حمله محمد ابن أبي بكر بن خلدون وأبو الحسين بن سيد الناس ومحمد الفازازي إلى قلعة سنان معقل هوارة، فاتخذها أبو حفص قاعدة للتمسك بالدولة وترتيب أوضاعها وتقوية جموعه للقضاء أولا على ثورة الدعي، فتم له ذلك فعلا في ربيع 683 هـ، واعترفا منه بالجميل أقطع أبو حفص محمد ابن خلدون إقطاعات في تونس و"نظمه في جملة القواد ومراتب أهل الحرب واستكفى في الكثير من أهل ملكه ورشحه لحجابه من بعد الفازازي".¹

لكن الموت كان أسرع من السلطان أبي حفص، فقد خلفه السلطان أبو عبيدة (694-709) وخالف رغبته في تولية محمد بن أبي بكر بن خلدون الحجابة، التي صرفها عنه إلى كاتب الفازازي محمد بن إبراهيم ابن الدباغ؛ واكتفى فقط بإشراكه معه في الخطة مع إجلاله وإكرامه، وبقي الوضع على ذلك أيام السلطان أبي بكر يحيى (709-709) والسلطان أبي البقاء خالد (709-711)، فلم يستعمله في شيء ولا عقدا له ولاية ما، إلى حين وصول أبي يحيى المعروف باللحياني أو ابن اللحياني (711-717) إلى العرش؛ فاصطنعه من جديد ودفعه إلى حماية جزيرة جربة من تحرشات دلاج إحدى بطون بني يحيى بن علاق من عرب بني سليم، فكانت له في ذلك آثار مذكورة، لكننا لا نعرف بالضبط الوظيفة المسندة إليه، هل هي ولاية مدنية وعسكرية معا؟ أم عسكرية فقط؟

ومن المعلوم أنه كان كثيرا ما يستنبيه السلطان اللحياني عن نفسه إذا خرج من تونس لأمر ما، ورشحه مرات عديدة لحجابه فلم يوافق، ولما تخلى اللحياني عن العرش سنة 717 هـ خرج إلى طرابلس ومنها إلى الحجاز للحج وصاحبه محمد بن أبي بكر بن خلدون وحج معه سنة 718 هـ، ثم حج بمفرده ثانية سنة 723 هـ، فكان ذلك نقطة تحول في قناعات ابن خلدون وأفكاره ومسيرة حياته كلها؛ فأظهر التوبة والإقلاع عن خدمة السلطان، فقد رشحه السلطان أبو بكر بن أبي زكريا (718-747) لتولي الحجابة بتونس خلفا لابن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزور المتوفى سنة 727 هـ فامتنع عن قبول المنصب، ومع ذلك بقيت الهبات والهدايا والأرزاق والإقطاعات تغدق عليه وعلى بنيه، وهو راض بما قرير النفس، إلى أن احترمه منيته سنة 737 هـ.² وفي اتجاه معاكس تماما لمسيرة البيت الخلدوني في أطوار المختلفة (من قرمونة إلى إفريقية) سلك أبو بكر محمد ابن محمد بن أبي بكر بن الحسن والد المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون مسلكا آخر: مسلك العلم والرباط والزهد مع الجنوح إلى التصوف، متأثرا في ذلك بشيخه وشيخه أبيه -أيام اعتزاله- أبي عبد الله محمد بن الحسين القرشي الزبيدي (تـ 740 هـ)،³ الذي لازمه وأخذ عنه طريقته في الولاية والتصوف، كما تفقه به وقرأ عليه وعلى

¹ ابن خلدون. العمر، 6 / 444-445، نفسه. الصريف باين خلدون ورحلته، ص 34-35، الزركشي. تاريخ الدولتين، ص 44.
M'hamed Ali M'arabet. *l'Ifrqiya a l'Epoque Hafside*. dans : *Histoire de la Tunisie*. op. cit. p.345-346, Laurent-Charles Féraud. *Histoire de Bogie*. p. 65-67.

² ابن خلدون. الصريف باين خلدون ورحلته، ص 35-36.

³ فقيه صوفي سليل أسرة مشهورة أسست زاوية بتونس، أرسله السلطان الحفصي مع القاضي أبي عبد الله النزراوي سفيرا إلى السلطان أبي تاشفين صاحب تلمسان سنة 725 هـ، أنظر: ابن بطوطة. تحفة النظار، ص 12، ابن قنفذ القسنطيني. الفارسية، ص 140.

غيره من جهابذة العلم والمعرفة التي كانت تزخر بهم الدولة الحفصية آنئذ، ونبغ في العربية وتطلع في فنون الأدب والشعر، وكما قال عنه ابنه عبد الرحمن بن خلدون: "عهدي بأهل الأدب يتحاكمون إليه فيه (أي الشعر) ويعرضون حوكهم عليه".¹

الجبل الجديد للبيت الخلدوني في المغرب الأوسط

في تونس ولد الإخوة: عبد الرحمن سنة 732 هـ - ويحيى سنة 734 هـ - وعبد أصغرهما، ونشأوا في ظل رعاية الأب أبي بكر محمد، والجد محمد بن أبي بكر -لفترة قصيرة- وفي كنف هذه الأسرة العريقة أشرب الأبناء الثلاث منذ صغرهم مناقب أجدادهم وأسلافهم، يحضرون مجالس الأب والجد ويعون أحاديث ضيوفهما وزوارهما، وكان من شأن تلكم البيئة أن تولد في نفوسهم نزعتين قويتين: حب الرئاسة والمناصب والجاه، وحب العلم والنبوغ فيه من ناحية أخرى.²

ولدينا معلومات مهمة جدا عن نشأة عبد الرحمن بن خلدون تحديدا من بين سائر أعلام البيت، فقد تكفل بتدوين سيرته الذاتية بنفسه ونقل عنه من ترجم له،³ ويرى العديد من الباحثين أن نشأة الأخوين الآخرين لا تختلف عن النشأة التي دوّنها أخوهما عبد الرحمن،⁴ خصوصا وأنه يورد من حين لآخر إشارات تؤكد ذلك على الأقل في المرحلة الأولى، فقد درسوا على نفس الشيوخ تقريبا وأخذوا عنهم نفس الكتب والمؤلفات وكانت لهم إجازات فيها.

لقد تعلم الإخوة الثلاث صناعة العربية على والدهم، وفي المكتب قرأوا على محمد بن برال الأنصاري البلنسي إمام القراءات لوقته، وعلى يده حفظوا القرآن الكريم واستظهروه عليه، وعرضوا عليه قصيدتي الشاطبي: "اللامية في القراءات" و "الرواية في الرسم القرآني"، وكذا كتاب التلخيص لأحاديث الموطأ لابن عبد البر القرطبي، وكتاب التسهيل لابن مالك (ت 672 هـ) في النحو، ومختصر ابن الحاجب الفقهي، كما درسوا العربية على محمد الحصائري إمام النحو في زمانه وشارح كتاب التسهيل المذكور، وعلى محمد ابن الشواش الزرزالي وأحمد بن القصار النحوي شارح البردة، وعلى محمد بحر الأدب وهو الذي أشار على عبد الرحمن بن خلدون بحفظ الشعر، وفي الحديث رواه عن ابن جابر الوادي آشي صحيح مسلم والموطأ وبعض الصحاح والمسانيد، وتفقهوا على يد محمد بن عبد الله الجبائي والقاضي ابن عبد السلام الهواري (ت 748 هـ) وابن هارون الطائي وعبد القصور فقرأوا عليه كتاب التهذيب للبرادعي ومختصر المدونة.⁵

¹ التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 36.

² الحصري. دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ص 49-50.

³ أمثال: المقرئ. دور الطود، 2/ 383-410، ابن حجر. إنباء الفهر، 2/ 239، السخاوي. الضوء اللامع، 4/ 154.

⁴ مزاحم علاوي الشاعري. يحيى بن خلدون حياته وكتابه، مجلة التاريخ العربي، عدد 17، ص 331، عبد الحميد حاجات. مقدمة كتاب "بغية الرواد"، 12/1.

⁵ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 36-39، المقرئ. دور الطود، 2/ 383.

كما استفاد الأخواة الثلاث جزئياً من الحملة المرينية على تونس في عهد السلطان أبي الحسن سنة 748 هـ، إذ قدم عليها ومعه جملة من جهابذة العلم وأرباب المعرفة، ممن كانوا يداومون شهود مجلسه كما يداومون على حلقات الدرس في المساجد والمدارس الرسمية مساهمين بذلك بقسط وافر في تنشيط الحركة الثقافية بتونس، ومن هؤلاء: إمام المالكية الفقيه محمد السطّي الفاسي وصاحب العلامة إمام النحاة والمحدثين عبد المهيمن الحضرمي وإمام القراءات أبي العباس الزواوي البجائي وشيخ العلوم العقلية محمد الآبلي التلمساني، أخذ عنه عبد الرحمن بن خلدون الأصلين والمنطق وفنون الطب والرياضيات، ومنهم ابن رضوان المالقي الكاتب وابني الإمام أبو زيد وأبو موسى التلمسانيان ومحمد بن الصباغ المكناسي ومحمد بن عبد النور الندرومي التلمساني ومحمد بن النجار التلمساني الرياضي وأحمد بن شعيب الفاسي، وخاتمتهم العلامة الخطيب الذائع الصيت ابن مرزوق التلمساني.¹

ففي خضم هذه الحملة المرينية وقع حدثين كان لهما أسوأ الأثر على المستقبل العلمي للمغرب الإسلامي عموماً والبيت الخلدوني خصوصاً، ففي القيروان ثار العرب بالسلطان المريني صدر سنة 749 هـ وحاربوه، فاشتغل العلماء أهل مجلسه بهذه الواقعة وتعطلت حلقات الدرس، كما لم يتوان زعماء البيت الحفصي ومشيخة الموحدين في محاربهه أيضاً، ووافق ذلك خلع ابنه أبي عنان لطاعته وتنصيب نفسه سلطاناً في تلمسان، مما دفع بالسلطان المخلوع أبي الحسن إلى العودة نحو المغرب الأقصى سنة 750 هـ، وفي عرض البحر قبالة ساحل بجاية غرق الأسطول المريني وذهب أغلب جنده وخيار علمائه،² والأسوأ من ذلك هو ظهور الطاعون الجارف³ الذي هلك بسببه الكثير من العلماء والفقهاء وطلبة العلم ومختلف أصناف المجتمع؛ ومن هلك فيه أبوي عبد الرحمن بن خلدون، ورغم هذه المساوي فإن البيت الخلدوني لم يفقد حيويته العلمية والسياسية.

البيت الخلدوني بين تناقضات السياسة وعقدة المناصب

لقد تولى أمر السلطنة الحفصية بعد الغزو المريني لها؛ أبو العباس الفضل (750-751) أمير بونة السابق، ثم انقلب عليه شيخ الموحدين الحاجب السابق أبو محمد بن تافركين⁴ وباع أخاه أبا إسحاق إبراهيم الثاني في جمادى الأولى سنة 751 هـ مستبداً عليه وعلى مملكته لصغر سنه، واستدعى له عبد الرحمن بن خلدون وهو لم يتجاوز سن الحادية والعشرين إذ ذاك لتولي خطة العلامة،⁵ وهي وضع عبارة: "الحمد لله والشكر لله" وذلك في

¹ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 57-61، القريري. درر المفقود، 2/ 388-389، باتسيغا. العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ص 57-61، الشاهري. يحيى بن خلدون حياته وكتابه، ص 331.

² أنظر تفاصيل هذه الوقائع: ابن خلدون. العبر، 6/ 523 وما بعدها، و 7/ 354 وما بعدها.

³ عرف هذه الطاعون باسم الطاعون الأسود وكانت له نتائج وخيمة جدا عن وضع المغرب الإسلامي، أنظر: مصطفى نشاط. إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني، وحدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003، ص 116-143، محمد الأمين البراز. الطاعون الأسود بالمغرب في ق 8 هـ / 14 م، مجلة كلية الآداب بالرباط، عدد 16، ص 109-122.

⁴ ابن تافركين أو تافرجين: سليل إحدى أشهر البيوتات الموحدية ذات التأثير في العهد الموحد ثم بشكل أكبر تفصيلاً في العهد الحفصي، أنظر عنه: كمال السيد أبو مصطفى. بنو تافرجين ودورهم في تاريخ الدولة الحفصية، ضمن: دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب، 1997، ص 3-54.

⁵ كتابة العلامة إحدى المخطوطات السلطانية كان يتولاها الملوك والخلفاء بأنفسهم ثم عهدوا بها إلى غيرهم من ذوي الخط البديع، وهي شارة في الكتب والرسائل وما شابه تكتب بعد السملة بخط غليظ بمثابة الشهادة الشرعية في العقود، أنظر: ابن الأحمر. مستودع العلامة، ص 20-21.

حدود سنة 753 هـ، ولما عزم صاحب قسنطينة الأمير أبو زيد الزحف على تونس لتخليص ملك أبائه من استبداد ابن تافركين خرج السلطان أبو إسحاق مع أولاد أبي الليل لزاله ومعه كاتب العلامة ابن خلدون، فتوافوا بفحص مرماحنة وخاضوا معركة كانت الدائرة فيها على صف السلطان ففر عبد الرحمن بن خلدون إلى أبة¹، ومنها دخل مدينة تبسة ونزل على محمد بن عبدون صاحبها وبقي بها ليال عدة، ثم رجع إلى قفصة ومنها عزم على الالتحاق بالمرينيين لإعجابهم الشديد بمجلس السلطان العلمي - رغم ما حل به- والمشايخ الذين يحضرونه كالأبلي، وشعوره بالعطالة عن العلم لما فارقوا إفريقية، فلما تمهي له الطريق خرج من قفصة ووافق أن مر بها الفقيه محمد من بني مزني أمراء الزاب، فرافقه إلى بسكرة ومكث بها برهة من الزمن، حتى ملك السلطان أبو عنان بجاية فخرج عبد الرحمن بن خلدون يريد تلمسان حيث السلطان، فالتقى في ناحية الشلف بمحمد ابن أبي عمرو التميمي الحاجب المريني فأكرمه وأحسن بره ثم اصطحبه معه إلى بجاية، فلما ضبط أمرها لبني مرين عاد إلى تلمسان ومعه وجوه المدينة وأعيانها يقدمون قرابين الطاعة والولاء لأبي عنان وفي جملتهم عبد الرحمن ابن خلدون فبالغ السلطان في إكرامه ثم صرفهم جميعهم إلى بجاية من جديد، فمكث فيها ابن خلدون بقية سنة 754 هـ.²

عبد الرحمن بن خلدون في البلاط المريني

ولما عاد السلطان المريني من تلمسان إلى فاس وشرع في إعادة ترتيب مجلسه العلمي كما كان في عهد أبي الحسن والده، اختار الأعلام وطلبة العلم ونبغائهم وجرى ذكر ابن خلدون عنده ومُدح في حضرته، فكتب إلى والي بجاية فيه أن يرسله، فقدم فاس صدر سنة 755 هـ فنظمه في أهل مجلسه وألزمه شهود الصلوات معه وولاه الكتابة والتوقيع³، وهي الوظيفة التي قبلها ابن خلدون على مضض، ممتعضا منها لعدم اشتغال سلفه بها كما يبرر هو نفسه، ورغم ذلك استطاع أن يجد لنفسه الفرصة والوقت اللازمين للفرص الذي هاجر من أجله؛ وهو الدرس والعلم ولقاء المشايخ والإفادة منهم، كقاضي الجماعة المقرئ التلمساني والفقيه العلامة الشريف التلمساني المعروف بالعلوي وأبي القاسم البرجي الكاتب الأندلسي وغيرهم.⁴

محنة عبد الرحمن بن خلدون الأولى

في فاس كانت لعبد الرحمن صلوات وعلائق وثيقة بالأمير الحفصي المخلوع صاحب بجاية بشكل كان باديا للعيان ودون تحفظ، وعلى إثر مرض السلطان أبي عنان أشاع رجال الدولة أنهما عازمان على الفرار من فاس

¹ أبة بلدة غرب مدينة الأربس تبعد عنها نحو 12 ميلا وعن ونس مسرة ثلاث أيام، ياقوت. معجم البلدان، 1/ الزبيدي. تاج العروس 2/ 8.
² ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 65-67، ابن الأحمر. مستودع العلامة، ص 64، المقرئ. درر العقود 2/ 389، الحصري. دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ص 73-74.
³ للمرينيين ديوان الإنشاء والعلامة ووظيفة متوليه كتابة الرسائل والمراسيم السلطانية إلى الولاة والعمال، وصاحب العلامة هو الذي يكتب بخط يده العلامة ويلحق بهذا الديوان كاتب الإنشاء والصكوك والتوقيع على القصص المرفوعة للسلطان، أنظر: الحريري. تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ص 269.
⁴ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 67-72، المقرئ. درر العقود 2/ 389، الحصري. دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ص 74-75.

لاسترجاع بحماية مستغلين مرض السلطان وبترقبان هلاكه لتنفيذ ذلك، فأمر أبو عنان باعتقالهما يوم 18 صفر 758 هـ، وامتحن ابن خلدون في ذلك وأطلق الأمير الحفصي دونه، وبعد مضي نحو سنة وتسعة أشهر كتب ابن خلدون من سجنه قصيدة من مائتي بيت يستعطف بها السلطان مطلعها:

على أي حال لليالي أعاتب وأي صروف الزمان أغالب
كفى حزنا أي على القرب نازح وأي على دعوى شهودي غائب

فكان لها في نفس أبي عنان وقع حسن وهو إذ ذاك بتلمسان محاصرا لها، ووعد بالإفراج عنه إذا حلّ بفاس، إلا أن الموت لم يمهل طويلا فعاجله يوم 24 ذي الحجة 759 هـ، فبادر الوزير الحسن بن عمر الفودودي¹ المستبد على الدولة بعد أن أخذ البيعة للصبي السعيد بن أبي عنان، بإطلاق سراح ابن خلدون وخلع عليه وأجرل له المنح وأعاد له اعتباره وكرامته كما كانت سلفا، وقد طلب ابن خلدون منه أن يأذن له بالانصراف إلى إفريقية فأبى، وقد ولاه المنصور بن سليمان المريني الوزير المستبد بعد الفودودي كتابة السر.²

وفي ظل استبداد الوزراء بالدولة عزم أبو سالم أخ السلطان أبي عنان المنفي في الأندلس الجواز إلى العدة والمطالبة بملك أبيه وأخيه، فزل أول الأمر بجبال غمارة ناحية طنجة فاستولى عليها وعلى سبة وداخل قاضي الجماعة ابن مرزوق التلمساني واستماله إلى صفه لبث دعوته سرا، فاستعان هذا الأخير بكتاب السر عبد الرحمن بن خلدون لعلاقاته الوطيدة بأشياخ بني مرين الذين استطاع أن يقنعهم ويقنع الكثير من رجال الدولة بأحقية أبي سالم في الملك وكفاءته فيه، ثم نزع إليه معهم ووصلوا إليه بجبال غمارة ومنها أجمعوا أمرهم على دخول فاس كرسي المملكة، فتم لهم ذلك في منتصف شهر شعبان 760 هـ وبويع أبو سالم سلطانا، وكان من حظوة ابن خلدون تقديرا لخدمته أن استعمله كاتباً للسر يقول ابن خلدون مزهوا بنفسه: "استعملني لـ"كتابة سره والترسل عنه والإنشاء لمخاطبته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل دون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها وخفاء العالِي منها على أكثر الناس بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ وكان مستغربا بين أهل الصناعة".

إن اشتغال ابن خلدون بالكتابة والترسل أدى به إلى أن يلبس لبوس الأدب فتفتقت قريحته وموهبته في صناعة الشعر أو كما قال هو: "أخذت نفسي بالشعر فانتال عليّ منه بحور توسطت بين الإجادة والقصور"³ وقد أورد لنفسه عدة قصائد في المولديات والمدائح وغيرها من الأغراض الشعرية.⁴

¹ يرى ابن الأحرر أن الوزير الفودودي هو الذي اغتال السلطان حنقا يوم 28 ذي الحجة، وفضل الوزير على ابن خلدون لم يرد هذا الأخير تسويد صفحاته بهذا الفعل حفاظا على سمته وردا للحميل، أنظر: النسخة السريانية، ص 51-52، المعر 7/ 396-397.

² ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 73، المقرزي. درر العقود 2/ 390، دهبنة. ابن خلدون، ص 127-128.

³ أنظر عن شاعرية ابن خلدون وأديته: سالم علوي. ابن خلدون وعلوم اللسان العربي، حوليات جامعة الجزائر، عدد 8، أبريل 1994، ص 187-201، أحمد الحوي. أدب ابن خلدون، حوليات دار العلوم بالقاهرة، 1970-1971، ص 25، محمد بحر الشيخ موسى. ابن خلدون الكاتب الشاعر الأديب وجه لا يعرفه كثيرون، مجلة الفيصل، عدد 250، 1998، ص 60-68.

⁴ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 74، الحصري. دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ص 76.

إن جنوح ابن خلدون في هذا الاتجاه يفسر من جهة أخرى الأزمة النفسية التي مر بها نتيجة اقتسام الربيع السياسي، وذلك لاختصاص السلطان أبي سالم بالحاجب الخطيب القاضي ابن مرزوق التلمساني وتقريره وإدانته لدرجة "أن غلب على هواه وانفرد بمخالطته وكبح الشكاكم عن قربه"، على حساب كاتب سره ابن خلدون الذي انقبض وقصر الخطوط.

وبشكل غير مسبوق وفي هذه الظروف جاءت المنحة الجديدة لابن خلدون فعين قاضيا للمظالم، فتولى منصبه هذا وقام به أحسن قيام، ولم يستمر به الوضع طويلا في خدمة السلطان أبي سالم؛ فقد ثار عليه وزيره عمر بن عبد الله الياباني ووجوه الدولة فخلعوا طاعته لنقمتهم عليه وعلى ابن مرزوق وذلك في ذي القعدة من سنة 762 هـ، وانتهى الأمر بقتله وحز رأسه، ومبايعة أبا عمر عمرو بن تاشفين (762-763) سلطانا، فأقر الياباني الوزير المستبد ابن خلدون على ما كان يتولاه وأوفر له الإقطاعات وزاد في رزقه لعلاقات سابقة تعود إلى عهد أبي عنان، وابن خلدون في كل ذلك كان يطمح إلى أعلى المناصب؛ والمناصب المنتفذة تحديدا بحكم طغيان الشباب ونزوة السلطة وحب الرياسة، واكتفاء الوزير بإقراره في منصبه دون ترقية اعتبره ابن خلدون من جهته تقصيرا في حقه وعدم مبالاة بكفاءته وجدارته، فظهر تحافيه وغيظه من الوزير الذي قابله بإعراض وتحاف شديدين، لم يجد ابن خلدون معهما إلا طلب الإعفاء من منصبه والخروج من فاس نحو تونس، وهو يضمير في نفسه للحاق ببني عبد الواد تلمسان خصوم البلاط المريني التقليديين، ففطن الوزير لغرضه ومنعه من مغادرة فاس، وأمام إصرار ابن خلدون على التنحي والانصراف وتوسط الوزير مسعود بن رحو شريكه في الثورة على السلطان أبي سالم قبل انصرافه، بشرط أن يتعهد له بعدم التوجه إلى تلمسان مخافة أن يستقوى به أبا حمو موسى الثاني (760-791)، فاختار الأندلس.¹

بداية ظهور يحيى بن خلدون وتولية حجابة بجاية

طوال المرحلة التي عرفناها عن عبد الرحمن بن خلدون لم نجد فيها أي ذكر لأخيه يحيى، فلا نعلم بالضبط مسيرة حياته في مناحيها المتعددة، فهل بقي في تونس بعد وفاة أبيه سنة 749 هـ ؟ أم أنه كان مرافقا لأخيه عبد الرحمن في تنقلاته بين تيسة ويسكرة وبجاية وتلمسان وفاس ؟.

ففي غياب ترجمة مستقلة له وعدم تدوينه لسيرته الذاتية تبقى الإجابة عن هذا الإشكال غير متأتية، إذ لا نملك إلا إشارتين ليستا بالكافية لتوضيح معالم نشاطه وتحركاته، الأولى تفيد أنه كان بفاس على عهد السلطان أبي عنان قبل سنة 757 هـ، حيث وفد عليه بعض علماء الأندلس، وقد عدَّ منهم يحيى بن خلدون أبا البركات البلفيقي شيخا له،² ومن المرجح أنه شارك أخاه عبد الرحمن في شيوخ هذه المرحلة، أما الثانية فقد ذكر عن نفسه أنه كان في حدود سنة 761 هـ بفاس متوليا إحدى الوظائف أي الكتابة في ديوان الإنشاء³ المريني.

¹ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 80-82.

² يحيى بن خلدون. بهمة الرواد، 167/2.

³ يحيى بن خلدون. بهمة الرواد، 76/2، مزاحم علاوي الشاهري. يحيى بن خلدون: حياته وكتابه، ص 335.

وباستعادة السلطان أبي زيان عرش تلمسان، عمل البلاط المريني بمحاصرته من الجهة الشرقية بأن يعيدوا الأمراء الحفصيين الذين كانوا عندهم بفاس إلى نفورهم بعد أن ضمنوا ولاعهم، فصرف السلطان أبو سالم المريني الأمير أبي عبد الله الحفصي إلى عرش بجاية بسعي ووساطة عبد الرحمن بن خلدون له، وكان قد اتفق معه على أن يوليه حجابه وكتب له بخطه شخصيا عهد بذلك، وذلك قبل سنة 762 هـ، إلا أن عبد الرحمن لم يستطع الفكك من خدمة السلطان أبي سالم والتصل من منصبه كقاضي المظالم؛ فأشار عليه بأخيه يحيى لرسم الحجابة نيابة عنه فخرج معه يريدان بجاية، لكن الأمير أبو عبد الله الحفصي لم يتمكن من دخولها فقد وقف له عمه السلطان أبو إسحاق صاحب تونس بعد أن استولى عليها، وأعينه الحيلة في دخولها مما دفع به إلى طلب المساعدة من صاحب تلمسان أبي حمو موسى الثاني في صفر من سنة 764 هـ، فبعث يحيى بن خلدون سفيرا¹ عنه ونجح هذا الأخير في سفارته التي لم يبين لنا فحواها، إلا أن السياق التاريخي يقرب لنا الصورة ويؤكد أن غرض السفارة كان الهدف منه إقناع الزيانيين بضرورة التدخل، أو على الأقل الإعانة بالمال والرجال والسلاح لإسقاط حكم السلطان أبي إسحاق، وبعد جولات وصولات طويلة دامت خمس سنوات، استطاع أخيرا الأمير عبد الله أن يستعيد عرش بجاية في رمضان من سنة 765 هـ، ولما استقام له الأمر أقر يحيى بن خلدون في منصب الحجابة، لأن كتب التاريخ لا تذكر لنا حاجبا غيره لمدة سنة تقريبا، إلى غاية استدعاء أخيه عبد الرحمن الذي كان مقيما بالأندلس في خدمة بني الأحمر ليوليه حجابه كما وعده، فوصل إليه في منتصف سنة 766 هـ، واحتفل بمقدمه وبالغ وفوض إليه أمر الدولة، إذ الحجابة كما يذكر ابن خلدون في عهده هي "الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته"² دون أن يشاركه في ذلك أحد.

لكن بعد هذه الإشارات المقتضية، تبدأ حياة يحيى بن خلدون في الأقاليم من جديد، فلا نعلم عن مسيرته ووظيفته شيئا بعد أن أزاحه أخاه بقوة شخصيته عن منصب الحجابة، فقد يكون شارك عبد الرحمن في بعض أمور السياسة كالخروج للجباية أو أعمال الحرب التي دارت رحاها بين صاحبي بجاية وقسنطينة، أو أنه غادر بجاية نحو بونة للإشراف على أملاك أبائه واقطاعاتهم بها.

أما أخاه عبد الرحمن فقد أضيف له منصب الخطابة بالجامع الأعظم لبجاية، فاستفرغ وسعه وبذل جهده في سياسة أمور الدولة وتدبير السلطة، كما عاوده في هذا المقام الحنين إلى العلم وحلقات الدرس؛ لكن ملقنا لا متلقيا، فباشر التدريس في الجامع الأعظم، عاكفا على ذلك كل مساء بعد الفراغ من أعمال الحجابة، كما عمل على جباية الخراج بنفسه قوة وغلبة من قبائل زواوة وصنهاجة في جبال بجاية المتمنعين على الإيفاء بها.³

¹ مجهول. زهر البستان، نسخة مصورة عن مخطوط مكتبة جون رابانسن بجامعة مانشستر البريطانية، رقم 283 (القسم العربي). الورقة 85 ط، ابن خلدون. التعريف بابن خلدون، ص 94-95، يحيى بن خلدون. بغية الرواد، 123/2-131، الشاهري. يحيى بن خلدون، ص 336.

² ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 95.

³ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 95-96، المقرئ. درر العقود 2/ 390-392.

بنو خلدون بين الولاء الزباني والولاء المريني

لقد انتهى صراع النفوذ على الثغور والعملات والحدود بين الأمير عبد الله وابن عمه الأمير أبي العباس صاحب قسنطينة بمقتل الأول واستيلاء هذا الأخير على بجاية، فخرج إليه عبد الرحمن بن خلدون وأسلم إليه البلد سلماً يوم 19 شعبان سنة 767 هـ، وبقي في خدمته شهوراً، وقد كثرت السعاية عنده فيه والتحذير منه، فطلب ابن خلدون الإذن في الانصراف ومغادرة بجاية بعد أن أحس بالفدر، فلحق بإحدى أحياء العرب ثم خرج إلى بسكرة ونزل على أميرها المريني أحمد بن يوسف لسالف خدمة وعهود، وفي هذه الفترة أمر صاحب بجاية بالقبض على بني خلدون فتمكن من يحيى الذي اعتقله ببونة وأعياه أمر عبد الرحمن، لكن تعرض لأهله وصادر ممتلكاتهم.¹

وقد استغل سلطان تلمسان أبو حمو مقتل صهره الأمير أبي عبد الله ليعلم الحرب على أبي العباس، وبعد أن خسر الجولة الأولى عمل على استمالة عرب رياح عن طريق عبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحيى لمعرفة علاقتها السابقة بهم، كما استدعى عبد الرحمن إلى تلمسان ليوليه حجابته وعلامته وهي أعظم منصب في الدولة الزيانية وأرفع خططها، فبادر عبد الرحمن إلى تأليب قبائل رياح والدواودة على الأمير أبي إسحاق الحفصي والانصراف عنه إلى السلطان أبي حمو، لكنه تقاعس عن قبول العمل في بلاطهم؛ لصراع نفسي كان يعيشه في داخله؛ بين طموحه العلمي ونزوته في السلطة، وتوافق ذلك مع فرار أخيه يحيى من معتقله ببونة ولحاقه به في بسكرة² قبل تاريخ 15 ربيع الثاني 768 هـ، فصرفه نيابة عنه لخدمة البلاط الزياني، بعد أن نجح يحيى في إحكام أمر قبائل رياح فخرج مع أربعة من أبناء شيخ رياح وأربعمئة فارس من أعيان القبيلة، فوصلوا تلمسان من رجب السنة المذكورة فأكرمهم السلطان أبو حمو وقلد يحيى بن خلدون كتابة الإنشاء، وأوسع له في البر والإكرام واستقدم أبنيه من بسكرة وجمعه بهما.³

بقي عبد الرحمن في بسكرة يعمل على استمالة القبائل لصالح السلطان أبي حمو، كما عمل وسيطا له بينه وبين صاحب تونس أبي إسحاق ضد صاحب قسنطينة وبجاية إلى غاية سنة 769 هـ، حين هَمَّ بالجواز إلى الأندلس بعد أن اضطرت بلاد المغرب الأوسط بشطريها (الحفصي والزياني) فتنة، فاستأذن من السلطان أبي حمو الذي حمّله بدوره رسالة إلى سلطان غرناطة ابن الأحمر، وفي ذلك الظرف بدأ سلطان المغرب الأقصى عبد العزيز (768-774) الزحف على تلمسان، وأرسل من قبض على عبد الرحمن بن خلدون وهو بمرسی هنين وأتاه به ليكشف له عن الرسالة، ثم انصرف ابن خلدون إلى رباط القطب الصوفي أبي مدين الغوث بالعباد من أحواز تلمسان مشتغلا بالتدريس ومنقطعا للعبادة.

وبعد أن تم للسلطان عبد العزيز الاستيلاء على تلمسان في محرم 772 هـ أخذ يتتبع حركات خصمه أبي حمو الذي استجار بقبائل رياح وداخلها في استرجاع عرشه، فاستدعى السلطان عبد العزيز عبد الرحمن بن خلدون

¹ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 96، نفسه. العبر 6/ 550.

² ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 97-98، المريني. درر العقود، 2/ 392.

³ يحيى بن خلدون. بغية الرواد، 2/ 200-202، الشاهري. يحيى بن خلدون، ص 336-337.

وبعثه إلى القبائل ليخذلها عن أبي حمو، فأجاب ابن خلدون داعيه مؤثرا مصلحته الشخصية على ولي نعمته، ونجح في فض جموعه وتفريق شمله، ثم استقر مدة في بسكرة أين كان أهله يقيمون منذ أن خرج من بجاية إلى سنة 774 هـ.¹

وفي هذه الفترة من ممزق ملك أبي حمو الزياني أنفض عنه كاتب الإنشاء يحيى بن خلدون وفارقه نحو عدوه السلطان المريني عبد العزيز، ويبرر موقفه ذلك بقوله: "فارقته- أيده الله- لخيبالات سوداوية اعتورتني ونزعات شيطانية تجاذبتني، وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي، وشقاء مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي". وانصرف إلى فاس لخدمة السلطان عبد العزيز وخليفته من بعده: ابنه محمد السعيد (774-776)، وبعد استيلاء السلطان أبي العباس على العرش المريني، استأذن يحيى بن خلدون في اللحاق بتلمسان التي عادت إلى يد السلطان أبي حمو سنة 774 هـ، فأذن له وقدم عليه في غرة ربيع الأول سنة 776 هـ "معترفا بالذنب متبرئا من الإصرار مستقيلا العثار"، فأقال السلطان عشرته وتجاوز عن خطيئته وأكرمه وأعادته إلى كتابة سره كما كان أول مرة،² لحاجته الماسة إليه ولثقتة في كفاءته قبل ولاءه.

مقتل يحيى بن خلدون

شهد البلاط الزياني عدة اضطرابات داخلية وصراعات شبت بين السلطان أبي حمو وأبناءه، بسبب اقتسام النفوذ والسلطة ابتداء من سنة 779 هـ، وعلى إثر عزم السلطان تعيين ابنه أبي زيان على وهران وهي أهم مدن المملكة، قامت نائرة ابنه وولي عهده أبي تاشفين الذي رأى في ذلك تقويضا لنفوذه، وطلب أن يوليه وهران بدلا منه، وأمام هذا المأزق أمر أبو حمو كاتبه يحيى بن خلدون أن يعالج هذه المسألة بمحاظلة أبي تاشفين في كتابة عقد التولية له على وهران، حتى يأخذ الوقت الكافي لدراسة المسألة بكل احتمالاتها وتداعياتها، وهو ما قام به يحيى بن خلدون فعلا، لكن حساده عملوا على تشويه صورة فعله لدى ولي العهد أبي تاشفين وأوهموه أنه بمحاظله من أجل إبرام الأمر لأخيه أبي زيان لتفضيله عليه وحبه فيه، دون أن نعرف نحن صحة هذه الادعاءات من عدمها، فإن نفاها عبد الرحمن بن خلدون فنحن نميل إلى تصديقها، خصوصا وأنا ندرك جيدا أن الطموح السياسي هو المحرك الأساس لمسيرة الأخوين، مع رجحان كفة الأمير أبي زيان لمساندة أبيه السلطان له وتقديمه على أبي تاشفين بعد أن ظهر تفرداه وازداد الخوف من نفوذه.

أيا ما كان الأمر فإن أبا تاشفين لم يمتلك نفسه من الحنق والغضب، فعزم على التخلص من يحيى بن خلدون كاتب أبيه، فأوعز إلى بطانته أن تترصده وتغتاله أثناء خروجه من القصر إلى بيته بعد صلاة التراويح، فتمكنوا منه في إحدى ليالي رمضان سنة 786 هـ وأردوه قتيلا، فبلغ الخبر للسلطان وعلم أن ابنه وراء هذا الحادث فأغض

¹ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 121-135، نفسه. العمر 7/ 436-440، المقرئ. دور العهود، 2/ 390-393.

² بهمة الرواد 2/ 238، 307-308، ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 186، الشامري. يحيى بن خلدون، ص 337.

الطرف عنه ورضخ لمطلبه فولاه وهران بعد تلك الماطلة،¹ وذهب يحيى ضحية طموحه السياسي الذي لم يعرف الاستقرار والولاء لأي كان.

عبد الرحمن بن خلدون في قلعة بني سلامة

ذكرنا أن عبد الرحمن بن خلدون كان بفاس أيام كل من السلطان عبد العزيز ثم ابنه محمد السعيد ثم السلطان أبي العباس، وفي عهد هذا الأخير فسدت العلاقة بين ابن خلدون وبعض رجال الدولة، فعزم على الخروج من فاس والجواز إلى الأندلس خوفا من سوء العاقبة، وذلك في ربيع سنة 776 هـ، لكنه لم يسلم من تبعات المرحلة السابقة حيث أتهمه البلاط المريني بمحاولة زعزعة استقرار البلاد بمداخلة بعض أعيان البيت الحاكم المنفيين في الأندلس، وطلبوا من سلطان غرناطة ابن الأحمر أن يعيده إلى العدة المغربية فأسعفهم في طلبهم، فترل ابن خلدون بمصرى هنين مع سوء علاقته بسلطان تلمسان أبي حمو بعد أن خذله لصالح المرينيين، لكن توسط له أحد زعماء القبائل فقبل السلطان نزوله بمملكته، فاختار ابن خلدون العباد ولحق به أهله في مقامه ذاك من شوال السنة المذكورة، وتفرغ للتدريس وبث العلم، ثم عرض عليه السلطان السفارة له لمداخلة عرب الداوودة وإصلاح ما بينه وبينهم، فقبل العرض ظاهرا على مضض منه، وخرج من تلمسان لينحرف إلى أحياء أولاد عريف الهلالية، فأكرموه وأنزلوه قلعة بني سلامة بالقرب من فرندة الحالية إحدى مدن تيهرت، وبعثوا لتلمسان يستقدمون أهله ويعتذرون للسلطان في عجزه عن إتمام سفارته، ومكث نحو أربعة أعوام منقطعاً إلى التأليف والمطالعة والدراسة، وبعد ذلك خرج إلى تونس ومنها إلى مصر والمشرق، وبقي هنالك إلى أن وافته منيته سنة 808 هـ.²

تراث بني خلدون العلمي

لقد كانت استفادة المغرب الأوسط من البيت الخلدوني في مجال العلم والثقافة أكثر من استفادته من مسيرتهم السياسية، ففي الجانب العلمي التلقيحي استفاد من الدروس وحلقات العلم التي كان يديرها عبد الرحمن ابن خلدون بفكره المتميز وعقله النير الذي تنبئ عنه مؤلفاته، فقد أشرت إلى تدريسه في بجاية والعباد وبسكرة، وتخرج على يده عدد من التلاميذ النبغاء الذين كان لهم شأن بارز في الحياة الثقافية الإسلامية بمفهومها الواسع، لكن القائمة التي نعرف لا تظم أبناء المغرب الأوسط، وإنما تظم أعلام من المشرق كالمقريري وابن حجر العسقلاني.

أما أخوه يحيى فلم يعرف عنه أنه درس أو اشتغل بالتعليم، لذا لم نجد في مصنفات التراجم والطبقات أي ذكر لمن تتلمذ على يده، وكل ما وصلنا من تراثه ومساهمته في الحياة الثقافية والأدبية، تمثل بعد تأليفه تاريخ بني زيان في القصائد المولديات التي ازدهرت في المغربين الأوسط والأقصى³ في هاته الفترة، وقصائد أخرى أنشدها في

¹ ابن خلدون. العبر 7/ 187-188، الشاهري. يحيى بن خلدون، ص 337.

² ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 186 وما بعدها، المقريري. درر العقود، 2/ 393-394.

³ صابرة عطيف. فقهاء تلمسان والسلطة الزبانية، ص 175-195، عبد الهادي التازي. لماذا عبد المولد في الغرب الإسلامي؟، دعوة الحق، عدد 277، ص 48-55.

مناسبات عدة يبلاط تلمسان،¹ وهي تصب دون شك في تنشيط الحركة الأدبية بالمغرب الأوسط، وتظهر صورا أخرى مشرقة لحياة القصور بعيدا عن السياسة ومكائدها.

دور البيت الخلدوني في كتابة تاريخ المغرب الأوسط

ألف أعلام البيت الخلدوني عددا من الكتب ضمت صنوفا من العلوم والمعارف، فقد ألف أبو بكر محمد ابن الحسن جد المؤرخ عبد الرحمن كتابا بعنوان: "أدب الكاتب"، إلا أن الكتاب ظل مغمورا طوال القرون الستة التي تلت تأليفه، فلم يرد ذكره عند الأخوين عبد الرحمن ويحيى اللذان حرصا على إبراز مآثر البيت الخلدوني، كما لم يرد في بقية المصنفات التي تعنى بالتراث العربي الإسلامي، مما يدل على أنه لم يكن معروفا ولا متداولاً في الأوساط الثقافية، وقد اكتشف مخطوطه المستشرق ليفي بروفنسال في منتصف القرن العشرين، ونوه به وبمكائنه بين كتب الأدب السياسي، لكن من المؤسف أن الكتاب بقي مغمورا إلى الآن.²

في حين كان عبد الرحمن أكثر أعلام البيت تأليفا، فمن مؤلفاته المعروفة:

- 1- لباب المحصل في أصول الدين، وهو تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي. وقد طبع.
- 2- شرح الرجز لابن الخطيب في أصول الفقه أيضا.
- 3- شرح قصيدة ابن عبدون الإشبيلي.
- 4- أقوال ابن خلدون في السكة والنقود.
- 5- رحلة. وهي غير السيرة الذاتية المعروفة.
- 6- طبيعة العمران.
- 7- تقييد في علم المنطق.
- 8- تلاخيص لكثير من كتب ابن رشد، لا تملك أسماءها.
- 9- مختصر في وصف المغرب.³
- 10- شرح قصيدة البردة، في المديح النبوي.⁴
- 11- شفاء السائل وتمذيب المسائل، في التصوف.⁵
- 12- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، وهو من مصادر بحثنا.

¹ أنظر: مجهول. زهر البستان، ورقة 85 ط-86 ط، يحيى بن خلدون. بهمة الرواد 2/ 215-218 / 2، 222-230، 234، 2/ 297-299، 320-325.

² E. Lévi-Provençal. «Le traité d'Adab al-Kâtib d'Abû Bakr b. Haldûn», Arabica, vol II, 19955. p. 280-288.

³ يظهر أنه الكتاب نفسه الذي ألفه ليمور لتكليف منه يصف فيها الأماكن والقبائل التي بين مصر وبلاد المغرب، فألفه له في وقت وجيز وبصورة بديعة، أنظر: المقرئ. درر العقود 2/ 397.

⁴ ابن الخطيب. الإحاطة 3/ 507، البغدادي. هدية العارفين 1/ 529، كحالة. معجم المؤلفين 2/ 119-120، الزركلي. الأعلام 3/ 330.

⁵ طبع أكثر من مرة إحداها بتحقيق محمد مطيع حافظ، ط1، بيروت-دمشق: دار الفكر المعاصر-دار الفكر، 1417-1996، (133ص دون مقدمة التحقيق والملاحق)

13- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ (أو أيام) العرب (والمعجم) والبربر ومن عاصروهم من ذوي الشأن (أو السلطان) الأكبر، والمعروف اختصاراً بتاريخ ابن خلدون، وهو من المصادر الأساسية لبحثنا هذا.

14- المقدمة. وهي أشهر كتبه على الإطلاق.

والذي يهمنا هنا هو الكتب الثلاثة الأخيرة.

أما المقدمة فبدأ تأليفها ابن خلدون في العقد الخامس من عمره؛ أيام خلوته بقلعة ابن سلام ما بين سنتي 777 و 780 هـ، وهي المرحلة التي اتسمت بالهدوء والسكينة النفسية بعد الانقطاع عن خدمة السلاطين والأمراء، مستفيداً من تجاربه في ممارسة السلطة واحتكاكه بأربابها، كما استفاد من احتكاكه بالقبائل التي بلورت فكرة العصبية لديه، فوظف كل تلك التجارب بمنهج علمي أعجب نفسه به حيث يقول: "وأكملت المقدمة منه (أي من التاريخ الكبير) على ذلك النحو الغريب الذي اهتمت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شأيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتحضت زبدتها، وتألقت نتائجها"،¹ وكان الفراغ منها في خمسة أشهر أي منتصف عام 779 هـ كما ورد في نهاية الكتاب،² فمن بركات المغرب الأوسط أن قرأ لابن خلدون هذه الفرصة التي كانت أخصب سني حياته العلمية وإنتاجه الفكري، فضمنت له المقدمة الخلود بين أعظم رجالات الفكر في العالم³ إلى يومنا هذا، بعد أن شهرت به في عصره وعصر تلاميذه، فقد قال عنها المقرئ: "لم يعمل مثالها وأنه لعزيب أن ينال مجتهد منالها، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهم، تُوفِّقك على كنه الأشياء وتعرفك حقيقة الحوادث والأنباء، كأنما تعبر عن حال الوجود وتنبئ عن أصل كل موجود، بلفظ أهي من الدر النظيم وألطف من الماء مر به النسيم"،⁴ وفي النهاية تعتبر المقدمة من المصادر الأساسية لدارس النظم في الغرب الإسلامي لأنها محصلة تاريخه وخلاصة تجاربه، وهي كذلك حوصلة متأينة من ابن خلدون في قراءته لتاريخ الدول المتعاقبة على حكمه وما أفرزته من نظم ومؤسسات وتنظيمات.

أما تاريخه "العبر" فهو شامة المصادر ودرة المصنفات التي حفظت تاريخ المغرب الأوسط من الضياع، إذ كتب عن القبائل البربرية والعربية التي عاشت في المغرب الأوسط باستفاضة، كما كتب عن فترة الفتح الإسلامي، وتبع تاريخ السلالات التي حكمت البلاد - باستثناء السلالة الرستمية - وحتى تلك التي أهملها التاريخ كبنو مزني أمراء بسكرة، معتمداً في كل ذلك على مصادر هي في حكم المفقود الآن، وبلغ ذروة التأريخ للمغرب الأوسط تحت حكم الحفصيين وبدرجة أقل الزيانيين، خصوصاً في فترة القرن الثامن التي كان شاهداً عليها ومشاركاً في كثير من أحداثها بالسلب والإيجاب، فقدم مادة تاريخية ثرية جداً تمتاز بالدقة والوضوح والتفصيل، من خلاله استطاع أن يعوضنا عن بعض مصادرنا المفقودة، وفي نفس الوقت يرفع بعض اللوم على العلماء أصلاء

¹ ابن خلدون. التعريف بابن خلدون ورحلته، ص 188.

² ابن خلدون. المقدمة، ص 630.

³ ساطع المصري. دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ص 45.

⁴ المقرئ. دور العقود 2 / 403، وإن كان بعض معاصري المقرئ يرونها زعفراناً من القول واللفظ لا قيمة لها، انظر: السعادي. الضوء اللامع،

البلد ممن تقاعسوا عن كتابة تاريخ وطنهم، لذا لا يمكن لأي باحث في تاريخ المغرب الأوسط الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال، وهذا الكتاب من لطائف القدر على تاريخنا.

أما كتاب السيرة الذاتية "التعريف بابن خلدون" فهو الآخر يدخل في هذا السياق، إذ يورخ للفترة التي عاشها ابن خلدون في بجاية وبسكرة وتلمسان، فقد صور من خلاله حقيقة الصراع والمنافسة بين البلاطات الثلاث، وعلاقتهم بقبائل المنطقة ووسائل استمالتهم لتدعيم مواقفهم وتعزيز صفوفهم، وما إلى ذلك، كما صور بعض الجوانب الثقافية من خلال تأريخه لمسيرته التعليمية الشخصية وترجمته لشيخه وأساتذته.

أما أخوه يحيى فقد ساهم هو الآخر في التأريخ للمغرب الأوسط من خلاله كتابه "بهية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"¹، فقدم لنا به خدمة جليلة جداً؛ لتاريخ أزهى فترة عاشها المغرب الأوسط بظهور حاضرة تلمسان منافسة لفاس وغرناطة، بعلمائها وفقهاءها وزهادها، وعلوكها أيضاً، وعضنا هو الآخر عن "تاريخ تلمسان" لابن هدية القرشي التلمساني المفقود، كما عوضنا عن الأجزاء المفقودة من كتاب "زهر البستان"² في تاريخ تلمسان، لمؤلف مجهول، ووفر قاعدة تاريخية صلبة للمؤلفين من بعده كالتنسي وابن مريم.

¹ راجع بمخصوصه: عمود بوعباد. من آثارنا المغمورة: بهية الرواد في أخبار بني عبد الواد لأي زكريا يحيى بن خلدون، الأصل: عدد 13، ص

213-222، الشامي. يحيى بن خلدون: حياته وكتابه، ص 339-346.

² لم يبق من هذا الكتاب غير السفر الثاني الذي يورخ لخمس سنوات من حكم السلطان أبو حمز أي من سنة 760-764 هـ، وتوجد منه

نسخة مخطوطة فريدة تحت رقم 283 (القسم العربي) بمكتبة جون رابانوس - جامعة مانشيستر البريطانية، وقراءته عسيرة نوعاً ما.

بيت ابن عمر السلمي: الحجاب والولاية (700-722 هـ)

بنو عمر: نسبهم وأوليتهم

ينتسب بنو عمر في سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان¹ من عرب الشمال، وموطنهم الأصلي مدينة شاطبة² التي لم يكن لها طوال الخلافة الأموية كبير ذكر، وفي عهد الدولة العامرية تولاهها المبارك والمظفر الصقلبيين، ثم تولاهها عبد العزيز حفيد المنصور بن أبي عامر، وقد حاول القادر بن ذي النون من ملوك الطوائف أن يستولي عليها بالتحالف مع ملك قشتالة النصرانية إلا أنهما لم يفلحا في ذلك، ثم دخلت في حكم المنذر بن هود مدة من الزمن إلى أغلب عليها المرابطون زمن ابن تاشفين بعد وقعة الزلاقة سنة 479 هـ، وفي سنة 637 هـ استولى عليها ملك أرغون جاك الأول، وكان مصيرها مرتبطا ببلنسية، فأخرج أهلها من المسلمين نهائيا منها سنة 645 هـ.³

أما الحركة العلمية فكانت سوقها رائجة بها، يدل على ذلك كثرة العلماء المنتسبين إليها، فكسب التراجم والطبقات لا تخلو من ذكر لـ"الشاطبي".

ومن الشخصيات المعروفة في بيت ابن عمر بالأندلس: أبو بكر محمد بن سليمان بن عبد العزيز بن عمر السلمي الشاطبي، كان عالما فقيها أديبا بارعا في علم الحساب والمساحة والفرائض، "حسن النظر في فك المعنى"، درس وأقرأ، وتولى القضاء في مدينة ألس⁴ وتوفي بشاطبة في شهر رجب من سنة 612 هـ.⁵

هجرة بيت ابن عمر إلى إفريقية الحفصية

يبدو أن أهل شاطبة وبلنسية بعد سقوطهما في يد الإسبان النصارى نزحوا إلى إحدى مدن الأندلس المستقرة نسبيا، وبعد اضطراب الأمور أكثر نزحوا إلى العدة المغربية، وبشكل أكبر نحو إفريقية الحفصية، فمن هؤلاء بيت ابن عمر السلمي، وأول الداخلين إلى تونس منهم هو محمد بن عمر - قاضي شاطبة السابق -، أيام السلطان أبي عبيدة (694-709).

أما ابنه: أبو بكر ومحمد فقد انتقلا إلى قسنطينة، وهي يومئذ تابعة لبحاية، ونزلا على ابن أوقيان عاملها من مشيخة الموحدين، ولكونهما من النخبة فقد أوسعهما الوالي تكريما وعناية تليق بمقامهما، واستعملهما في خدمة

¹ ابن سلام. كتاب النسب، ص 253، البيهقي البلنسي. تذكرة الألباب، ص 95، الخازمي. عجالة المجلدي، ص 109.

² Jativa على مسافة 56 كلم من بلنسية في الجنوب الشرقي للأندلس أشتهرت بمصانع الورق المعروفة بالشاطبي طوال العصر الوسيط، أهلها أهل فهم ودراية أنظر: الإدريسي. نزهة المشاق 556/2، الزهري. الجغرافيا ص 103، الحميري. الروض المعطار، ص 336 Helena De Felipe. *Identidad y Onomástica de los Beréberses de Al-Andalus*, op. cit. p338.

³ أرسلان. الحلل السندسية 191/3، دائرة المعارف الإسلامية، ليفي بروفنسال، مادة شاطبة، مجلد 13، ص 65-66.

⁴ Elche إحدى مدن كورة تدمير تقع في الجنوب الشرقي للأندلس، بالقرب من لقتن المظلة على البحر الأبيض المتوسط على بعد 15 ميلا منها، أنظر: الإدريسي. نزهة المشاق 557/2، الحميري. الروض المعطار، ص 30، أرسلان. الحلل السندسية 260/3.

⁵ ابن الأبار. التكملة 107/2، ابن عبد الملك المراكشي. الذيل 219/6، أرسلان. الحلل السندسية 206/3.

البلاط، فولى منهما أبا بكر بن محمد بن غمر ديوان البحر في القل،¹ وديوان البحر هذا مؤسسة شاملة تشرف على الميناء إداريا وماليا، ومتوليه يسمى صاحب الديوان أو ناظر الديوان، ومهمته جباية الضرائب ومراقبة حركة البيع الشراء والشحن والتفريغ، ويشرف كذلك على موظفي الديوان وأعوانه.²

لقد قبل أبو بكر بن غمر بمنصب صاحب الديوان كمرحلة أولى لطموحه، فقد بدا أن هذا المنصب لا يلي ولا يشبع طموحاته، فأخذ يتردد كثيرا على كرسي المملكة بحماية ليتصل مباشرة بالسلطان أبي البقاء خالد (700-709)، ورجاله ومقربيه ليكونوا عضدا له في تقريره من السلطان أكثر، فاتصل بمرحان الخفصي من موالى الأمير ونحواصه المشرف على قصوره ودوره، فكان له أن دخل في خدمة السلطان "وأُمّه على يديه وحظي عندهم".³ أما ابنه أبو عبد الرحمن يعقوب بن غمر، فقد تربي في قصر الإمارة و"نشأ في جو تلك العناية وأعلقوا بصحبته الحاج فضل قهرمان دار السلطان وخاصته"، وتزوج من بنات القصر، وشارك ابن الحاج فضل في منصب "القهرمان"، وعن هذه الخطة يقول ابن خلدون: "أحتاج السلطان (الخفصي) لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين بداره إلى قهرمان خاص بداره في أحواله يجربها على قدرها وترتيبها، من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والإسطبلات وغيرهما، وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية".⁴

كان ابن الحاج فضل يتردد إلى الأندلس وتونس باستمرار لاتقاء ثياب الحرير وجلبها إلى قصر السلطان، وفي آخر رحلاته صحب معه يعقوب بن غمر إلى الأندلس فهلك هو قبل عودته، فكتب السلطان أبو البقاء خالد ليعقوب بن غمر خطابا يحثه على إتمام العمل وإبرامه، فلما رجع إلى بجاية سأل عن رحلته وعن عمله وكان أوعى له مضطلعا فيه، "فحلي بعينه وخف عليه واعتلق بذمة من خدمته أحظته عند السلطان ورقته"، فرقى يعقوب بن غمر على إثر نجاحه في صفقة السلطان هذه واستعمل على الجباية، وبعد مدة من الزمن قلده وزارة الأشغال (المالية)، ونافس بمنصبه هذا كبار رجال الدولة كابن أبي حيي الحاجب وكتابه عبد الله الرخامي الأندلسيان، فرأوا في ذلك خطرا يهدد مستقبلهما ومنصبهما، فأغروا به السلطان فنكب به ونفاه إلى الأندلس.⁵

مكث يعقوب بن غمر في الأندلس إلى غاية وفاة والده أبي بكر فأرسل يستعطف السلطان في الرجوع إلى بجاية، ويستشفع له بوجوه خدمته وخدمة أبيه له وللأمير قبله، فرق له وأذن بوصوله إلى بجاية في غياب الحاجب ابن أبي حيي سنة 705 هـ، أثناء سفارته إلى تونس لدى صاحبها الأمير فيها ابن اللحياني وسلطانه أبي عصيدة، فاستغل هذه الفرصة وعمل بوجوه السعاية والوشاية مع مرجان الخفصي والكتاب عبد الله الرخامي واقموا الحاجب بمداخلة أصحاب تونس في الاستيلاء على قسنطينة، فزادت شكوك السلطان أبي البقاء فيه، خاصة وأنه صهر عامل قسنطينة ابن أوقيان وصاحبه، فلما عاد ابن أبي حيي من سفارته نكب به وعزل من منصبه، وولي

¹ ابن خلدون. العبر 463/6-464، بعزيق. بجاية في العهد الخفصي، ص 411-412.

Laurent- Charles Féraud. *Histoire de Bogie*. p70.

² برشفيك. تاريخ إفريقية في العهد الخفصي، بعزيق. بجاية في العهد الخفصي ص 217-221.

³ ابن خلدون. العبر 463/6-464، بعزيق. بجاية في العهد الخفصي، ص 412.

⁴ المقدمة، ص 233.

⁵ ابن خلدون. العبر 464/6، بعزيق. بجاية في العهد الخفصي، ص 412.

الحجابه مكانه يعقوب بن غمر، وقلد الكاتب الرخامي الأشغال والحجابه وأصبح رديفا لابن غمر، فلم يمر طويل وقت حتى سعى به هو الآخر لدى السلطان ودله على ثروته وأبان له عثراته، فنكب به السلطان وغرّبه إلى جزيرة ميورقة.¹

يعقوب ابن غمر في بحاية حاجبا وواليا

بعد التخلص من صاحب الأشغال الرخامي، استقل ابن غمر بنحطة الحجابه وأعبائها وبانت كفاءته فيما وسّد إليه، ففوض إليه السلطان "الإبرام والنقض فحول المراتب بنظره وأجرى الأمور على غرضه"، وأول عمل يبادر إليه بعد إطلاق يده بهذا التفويض هو إزاحة مصطنعيه ومن كانوا سبب حظوته وحظوة أبيه كالخصي مرجان، الذي ملء صدر السلطان غيضا عليه بالدسائس والفتن، فتقبض عليه السلطان ورماه في البحر، فخلا الجو ووجه الدولة لابن غمر "وتفرد بالعقد والحل".²

ولما استولى صاحب بحاية السلطان أبو البقاء خالد على تونس سنة 709 هـ وضمها مع بحاية، صحب معه ابن غمر إليها لوليه الحجابه، في حين عقد على بحاية لكبير صنهاجة وشيخها عبد الرحمن بن يعقوب ابن خلوف المعروف بالمزوار، وبدأ السلطان أبو البقاء في تونس يركن إلى لذاته مع البطش بمن يتوجس منه خيفة، فقتل بعض قادة بني هلال وسليم وقادة القبائل البربرية، وكان في جملة من استصحب أبو البقاء معه راشد ابن محمد أمير مغراوة ومقاتلة زناتة في جيشه، فأعمل الحاجب ابن غمر الحيلة في التخلص من السلطان بضرب ركائزه المعتمدة لديه، وكان قد وطد علاقته مع منصور بن فضل بن مزني أمير الزاب فخططوا لقتل بعض رجالات راشد المغراوي، مما رآه هذا الأخير تأمرا عليه بموافقة السلطان -ظنا منه- ففر إلى بحاية لحسن علاقته مع ابن خلوف الصنهاجي واليهما، فأخذ السلطان بعد هذه الحادثة التي لا يعلم خيوطها يتهم بشأن بحاية ويخشى تحالف ابن خلوف وراشد وقيامهم بثورة ضده، فلم يجد بدا من وضع حد لهما عن طريق حاجبه ابن غمر، فدفع إليه ولاية الثغر الغربي كله: بحاية وقسنطينة، وأشار عليه أن يعقد لأخيه الأمير أبي بكر على قسنطينة ويولي ابن عمه علي بن غمر الحجابه في تونس نيابة عنه وهو ما تم فعلا، لينصرف مع الأمير أبي بكر إلى قسنطينة وقام بخدمته وتولى حجابه مدة، ليفصح في النهاية عن غرضه وهو الدعوة للأمير أبي بكر والانتفاض على أخيه السلطان أبي البقاء ويعلن استقلال قسنطينة عن تونس، وكللت هذه الخطة بالنجاح سنة 711 هـ، فأخذ له البيعة على الناس ونصبه سلطانا وتلقب بالمتوكل، وانظم إليهما حاجب تونس علي ابن غمر.³

حاول السلطان أبو بكر بعد أن أعلن استقلال قسنطينة ضم بحاية إليه، فكتب إلى ابن خلوف واليهما في هذا الغرض، فأبى وتمسك بدعوة السلطان أبي البقاء بتونس لما كان بينه وبين حاجبه ابن غمر من الإحن والأحقاد، وكان من الجرأة بمكان حيث زحف بجيوشه نحو قسنطينة مروراً بميلة التي دخلها عنوة ومنها إلى حضرة السلطان أبي بكر فقاتل أهلها وحاصرها أياماً ثم عاد إلى بحاية بعد أن أربكهم، وتوقع السلطان زحف جيش أخيه أبي

Mouloud Ghaid. *Histoire de béjaïa*. p. 93-94.

¹ ابن خلدون. العبر 463/6-464،

² ابن خلدون. العبر 456/6، ميزيق. بحاية في العهد الحفصي ص 412.

³ ابن خلدون. العبر 471/6-47.

Laurent- Charles Féraud. *Histoire de Bogie*. p. 70, Mouloud Ghaid. *Histoire de béjaïa*. p.96.

البقاء إنطلاقاً من باجة بقيادة ظافر الكبير وصادف ذلك قيام دعوة أبي يحيى زكريا بن اللحياني لنفسه سلطاناً في طرابلس، ومبايعة الناس له، فرأى أنه من الحزم أن يشد عضده ويلفت إنتباه أبي البقاء إليه، فبعث حاجبه ابن غمر وأظهر أن ابن غمر قد خانته وأنه هرب ولحق بابن اللحياني، وأمر رجاله أن يشيعوا ذلك، وخرج في عساكره سنة 712 هـ إلى بجاية، التي وصلتها هذه الإشاعات فطمع صاحبها ابن خلوف في حجابة السلطان أبي بكر بعد أن ظن أن المانع (ابن غمر) قد انتفى، فالتقى بناحية فرجوة من ميلة وأبرموا عقداً بذلك، ثم استدعاه السلطان مرة أخرى في خوف الليل إليه، وعاقره الخمر حتى ثمل ثم قتله وتقبض على كبار رجاله، وأغد السير إلى بجاية فدخلها وملكها وكل الناحية الغربية، ولما استوثق له فيها أمره قام ينتظر عودة حاجبه ابن غمر.¹

دخل ابن اللحياني تونس في رجب سنة 712 هـ بعد أن ائتمن له أبو البقاء خالد وبايعه الناس، وجرت بينه وبين ابن غمر عهود وموآثيق، فلما استمكن له الملك بتونس أعاد ابن غمر إلى سلطانه أبي بكر، وبقي عنده ابن عمه علي بن غمر محظياً مكرماً.²

استبداد ابن غمر في بجاية

استبد ابن غمر بحجابة بجاية أكثر من ذي قبل وبدأ عمله كالمعتاد بتصفية رجال الدولة والمقربين إلى السلطان، فلأول وصوله فرّ ابن هلال كاتب بجاية على عهد ابن خلوف خوفاً من بطشه، ثم تفرغ لحسن ابن إبراهيم بن ثابت حاجب سلطانه أبي بكر في غيابه، فاستغل خروجه لجباية الأموال في نواحي بجاية وقسنطينة وأغرى به السلطان فتقبض عليه سنة 713 هـ مع أخيه وقتلها، كما أغرى السلطان بظافر الكبير قائد جيش تونس الذي دخل في خدمته بعد استيلاء ابن اللحياني على تونس، فولي قسنطينة ثم استدعي منها إلى بجاية فنكب به ونفي إلى الأندلس.³

واصل ابن غمر استبداده بالأمر في بجاية رغم الحصار المفروض عليها من قبل سلطان تلمسان الزيانية أبي حمو موسى الأول، يرى في ذلك أن زمام السلطان أبي بكر بيده "وأمره متوقف على إنقاذه"، وأخذ يفرسه بحاشيته حسداً لهم، فيقتلهم أحياناً ويغرمهم أحياناً أخرى، وأحياناً يستنكف من استبداد ابن غمر عليه، فتواطأ يوماً في قسنطينة مع بعض أهلها سنة 713 هـ على إغتيال الحاجب، إلا أن ابن غمر فطن للمكيذة وانقلب على مدبريها بالنكال والعذاب، ولما عاد السلطان والحاجب إلى بجاية أدرك هذا الأخير تغير مواقف السلطان منه وخشي بوادره من جديد، وللتخلص منه وإبعاده عن بجاية حثه على الإستيلاء على تونس وسهل له الأمر وزينه له، ناقضا عهوده وموآثيقه مع ابن اللحياني، فجهز لسلطانه العساكر والخدم والفساطيط وآلات الحرب والمؤن وكل ما تحتاج إليه الجيوش، فعزم السلطان وقر رأيه به، وخرج بعساكره إلى قسنطينة سنة 716 هـ، ليتخذها قاعدة لعملياته الحربية وبجاية قاعدة للدعم والإسناد "اللوجستيكي"، ونال ابن غمر مبتغاه بهذا الخروج ووصفى له

Mouloud Ghaid *Histoire de Béjaïa* .p. 97 .

¹ ابن خلدون. العبر 471/6 ،

² ابن خلدون. العبر 475/6 - 476 .

³ المصدر نفسه 476/6 - 477 .

الجو واستمكن إستبداده في بجاية، مع قيامه بالدفاع عن المدينة من غارات زناتة وجيش بني عبد الواد الرسمي خير قيام.¹

كانت أمور تونس تعيش حالة اضطراب زادها سوءاً إحساس ابن اللحائي في نفسه بالضعف وعدم الكفاية في مقارعة أبناء السلطان السابق أبي زكريا الأكبر الذين نافسوه في سلطانه، فتخلى طواعية عن ملكه وغادر إلى المشرق فاتح سنة 717 هـ، فاستغل السلطان أبو بكر هذه الحالة وأخذ في الاستعداد واستبلغ فيه لدخول تونس، وبعث إلى الحاجب ابن غمر ببجاية في المدد والمال لنفقات الحرب وأعطيات الجند، فأرسل إليه منصور ابن فضل بن مزني أمير الزاب الذي أضاف إليه عمل الأوراس والحضنة ومنطقة سدويكش وعياض وسائر أعمال الضاحية، وأعطاه جبايتها ليقوم بنفقات السلطان أبي بكر الذي استخلفه بدوره على حجابته في تحركاته، وبدأت حركته إلى تونس في جمادى من السنة المذكورة، إلا أن حركته هذه باءت بالفشل بعد أن بايع العرب ومشيجة الموحدين أبو ضربة ابن السلطان المنخلع ونصبوه سلطاناً على تونس.²

رجع السلطان أبو بكر إلى قاعدته قسنطينة لإعادة تعبئة جيوشه وترتيب أوضاعه لجولة قادمة، فبعث للمرة الثانية قائده محمد بن سيد الناس إلى بجاية يطلب المدد من ابن غمر "فاحتفل في الحشد والآلة والأبنية، وبعث إليه سبعة من رجال الدولة بسبعة عساكر" عقد على إحداها لابن سيد الناس المذكور، وأردفه بفحول زناتة من بني عبد الواد وبني مرين ممن دخل في خدمة بني حفص، وتوافق الكل عند السلطان بقسنطينة وعاود بهم الزحف على تونس في صفر 718 هـ، واستخلف على قسنطينة ابن القالون الأندلسي وعلي بن غمر المذكور سلفاً، واستطاع في هذه الجولة أن يستولي على تونس ويدخلها منتصراً يوم 18 ربيع الثاني من نفس السنة، ووجد بذلك إفريقية الحفصية للمرة الثالثة.³

لقد استغل الحاجب ابن غمر السنوات الأخيرة لغياب السلطان أبي بكر في قسنطينة ثم تونس منذ سنة 716 هـ، فاستبد بأمر بجاية وضواحيها وتصرف في أمورها مالياً وإدارياً وسياسياً كما وأنها إمارة خاصة به، فلم يبقى للسلطان فيها إلا اسمه في الخطبة وفي السكة، واستمر في ذلك حتى وصل به الأمر أن يرد أوامر السلطان ويعترض على قراراته ويطرده رجاله، كما فعل مع القائد محمد بن سيد الناس الذي بعثه السلطان ليهيئ قصوره في بجاية تحسباً لعودته، فتنكر له وردّه إلى سلطانه بقسنطينة، والسلطان في ذلك لا يستطيع أن يزيحه عن منصبه لقوة نفوذه وملكانته من مدافعه بني عبد الوادي المحاصرين لبجاية، كما أشرت في الحديث عن بني سيد الناس.⁴

وصدق فيه قول الحاجب بن يوسف حين قال: إذا كان كاتب السلطان نصفه فـ "حاجبه كله"،⁵ أي أنه حجب بظله السلطان نفسه.

¹ ابن خلدون. العبر 478/6 - 479، المطوي. السلطنة الحفصية، ص 323-324، p.98. Mouloud Ghaid. *Histoire de béjaïa*.

² ابن خلدون. العبر 480/6 - 481، ابن الشماخ. الأدلة البنية النورانية، ص 85-86،

Moulud Ghaid. *Histoire de béjaïa*. p.98-99.

³ ابن خلدون. العبر 482/6 - 484، ابن الشماخ. الأدلة البنية النورانية، ص 86-88، المطوي. السلطنة الحفصية، ص

M'ohamed Ali M'rabet. *L'Ifrîqiya a l'Epoque Hafside*. p. 347-348, Mouloud Ghaid. *Histoire de béjaïa*. p. 99-100.

⁴ ابن خلدون. العبر 484/6،

⁵ المرعشي. غرور السيرة، تحقيق سهيل زكار، ط 1، بيروت: دار الفكر، 1417-1996، ص 50.

وفي سنة 719 هـ مرض الحاجب يعقوب بن غمر واستيقن وفاته، فبعث إلى ابن عمه علي بن محمد ابن غمر وكان قد عقد له على قسنطينة وولاه أمرها نيابة عنه، فستدعاه منها ليتولى إدارة شؤون بجاية والثغر الغربي عموماً، إلى أن يصل أمر السلطان في شأنه ولم يمض طويل وقت حتى توفي في شوال من سنته.

اضطلع علي بن غمر بولاية الثغر الغربي وهو لا يزال يترنح تحت ضربات أبي تاشفين سلطان تلمسان، فلما اتصل الخير بالسلطان أبي بكر في تونس بعث القائد محمد بن سيد الناس لتحصيل ثروات وأموال الحاجب ابن غمر فوجده قد خلف ذخائر تراحم الكثرة وتموق المعقول، فاستصفاها للسلطان ورجع إليه ومعه علي ابن غمر فأكرمه وأحسن إليه، إلى أن خالف عليه مع ابن أبي عمران أحد أحفاد الشيخ أبي حفص مؤسس الدولة، ثم عاد إلى حضرته ودخل في طاعته، إلا أن ذلك لم يشفع له، فقد أوعز إلى مواليه بقتله فاغتالوه سنة 722 هـ،¹ لتزاح هذه الأسرة ثمائياً عن الحياة السياسية سواء في بجاية أو قسنطينة أو حتى في تونس.

والجدير بالذكر أن صاحب كتاب: "بجاية في العهد الحفصي"² ذكر علي بن غمر كشخصيتين مستقلتين: أحدهما أخ للحاجب يعقوب والثاني ابن عمه، وزعم أن الذي ولي حجابة السلطان أبي البقاء خالد بتونس نيابة عن يعقوب بن غمر ثم فر إلى قسنطينة لما أحس بسطوة السلطان كما أشرت، هو أخوه، ولم يعتمد في حديثه عن أسرة ابن غمر إلا على تاريخ ابن خلدون فقط، ولا وجود له حقيقة في هذا المصدر وفي غيره أيضاً، فعلى ابن غمر شخصية واحدة يمثلها ابن عم الحاجب.

علاقة الحاجب ابن غمر بمتصوفة قسنطينة

ظهرت الحركة الصوفية بشكل نشط في قسنطينة خصوصاً في القرن السابع وما بعده، وتنتضح معالم هذه الحركة خصوصاً مع ابن قنفذ في كتابه "أنس الفقير"، وفي مرحلة متأخرة مع الفكون القسنطيني في كتابه "منشور الهداية"³ والذي يهمننا هنا هو علاقة الحاجب ابن غمر برواد هذه الحركة.

لقد عمل ابن غمر بعد مبايعة السلطان أبي بكر في قسنطينة سنة 711 هـ على كسب ولايات النخب المؤثرة في المجتمع كالمتصوفة، بالمال وبغيره مما يؤثر فيهم، لكن النتيجة لا تكون دائماً في صالحه كما خطط لها، كما أنه كان مضطرب في علاقته تلك، إذ يرى أحياناً أن التعامل معهم غير مجد دائماً.

فقد دفع ألف دينار يوم بويج السلطان لأبي مسعود بن عريف الشلبي (ت 713 هـ) وهو صاحب زاوية خارج أسوار مدينة قسنطينة من ضواحيها، عن طريق تلاميذه لإدراكه بعدم قبولها لو دفعها له مباشرة، وأمرهم ألا يعطوها له إلا بعد خروجه من قسنطينة ووصوله إلى زاويته، فخرج ابن عريف ولحق به تلميذه حاملاً المال، وإذا به يدير وجهه ويوشحه عنه ويقول: "ما هذا الشوك؟" ويكرر ذلك حتى أعلم بشأن المال، ففي الحين طلب

¹ ابن خلدون، العر 484/6-485، 489، بعزيق. بجاية في العهد الحفصي، ص 412-413.

Mouloud Ghaid. *Histoire de béjala*. p100.

² بعزيق. ص 412.

³ الإسم الكامل للكتاب هو: منشور الهدايا في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، ط 1، بيروت: دار الضرب الإسلامي، 1408-1987. (277ص). أنظر كذلك: محمد حمدي. ملامح النوح العلمي والروح الصوفي عند أهل قسنطينة وبلاد التكرور، مجلة التاريخ العربي، عدد 17، ص 221.

من تلميذه أن يرد على الحاجب ابن غمر ماله، وعزم على ألا يكمل طريقه إلا بعد رد المال للحاجب، فلما رجع تلميذه وقد أبحر ما طلب منه قال الشيخ: "الطريق الآن نقي"، وأكمل سفره.¹

أما الشيخ الصوفي أبو عبد الله الصفار (تـ 750 هـ) أحد شيوخ ابن قنفذ، فكان يسعى إلى باب ابن غمسر في قضاء حوائج الناس، فدخل عليه يوماً في حاجة فقال له الحاجب: "أكثرت من هذا فلا تعد"، ولم يقض له حاجته، فخرج من عنده دون أي حرج وإذ بإمرأة تستغيث به وتستشفعه عند الحاجب ليقضي لها حاجتها، فلم يسعه إلا أن دخل عليه من جديد وأعلمه بحاجة المرأة فقضاها لها، وقال له الحاجب: "يا سيدي لا تتأخر عني في حاجة"².¹⁹ ولك أن تعجب من هذا التحول في لحظة واحدة.

¹ ابن قنفذ. أسس القادر، ص 79.

² المصدر نفسه، ص 86.

بيت ابن المنت الحضرمي بين العلم والسياسة (700 - 754 هـ)

نسب ابن المنت

ينتسب بيت ابن المنت في حضرموت اليمنية، القبيلة التي ينتسب إليها ابن خلدون نفسه، وكانوا قد استوطنوا إحدى مدن الشرق الأندلسي، على غير وجه التحديد التي استولى عليها النصارى في القرن السابع.

هجرة بني المنت إلى بجاية ودورهم السياسي

والمعلومات بشأن هذه الأسرة يسيرة جدا لا تسمح لنا بوضع صورة واضحة المعالم لوجودهم سواء في الأندلس أو في المغرب الأوسط وكذا لتحركاتهم ونشاطاتهم، فمبلغ علمنا عنها أن محمد بن المنت وأخاه أبا الحسن علي قداما مع جالية الأندلس في بداية القرن الثامن إلى بجاية واستوطناها.

أما محمد فكان من العلماء المشتغلين بعلم القراءات وكان يدرسها لطلاب بجاية. وبخصوص أبو الحسن علي فهو أشهر من أخيه وأعلم منه بهذا الفن أي علم القراءات، فقد درس بجاية، وعنه أخذ طلابها وطلاب المدن المجاورة لها، وشهرته هذه مكنته من تولي إحدى الخطط السلطانية الرسمية في بلاط بجاية الحفصية وهي منصب الخطابة بالجامع الأعظم المسمى أيضا بجامع السلطان.¹

وظهر في نفس الفترة علي بن محمد بن المنت، الذي اشتغل أول أمره في ديوان البحر² كأحد أعوان المشرف الرئيس صاحب الديوان، ووظيفته تتمثل في استخلاص الأداة الجمركية ومراقبة السلع وشحنها ومراقبة حركة التجارة والتجار في الميناء دخولهم وخروجهم، وكان هؤلاء الأعوان نفوذ واسع وقوة وسطوة في هذه الوظيفة.³ كما كان علي بن محمد بن المنت طموحا جدا للرياسة مستفيدا في ذلك من تفهد الأندلسيين في بجاية التي كاد منصب الحجابة فيها -وهي أعلى سلطة بعد سلطة الأمير أو السلطان- يحتكر فيما بينهم منذ عهد الحاجب ابن أبي حي، فقد خلفه يعقوب بن غمر كما ذكرت سلفا، ثم ابن القالون المريني ثم ابن سيد الناس الجياني، ثم محمد بن فرحون الأبدلي ثم ابن علاق؟ ثم أحمد بن أبي زكريا الرندي، وبعد ابن تافراكين من مشيخة الموحدية أعيد ابن فرحون ثم ابن القشاش الذي يحتل أن يكون هو الآخر أندلسيا، ثم أدبيل به بالكاتب أبو القاسم بن عنناس الصنهاجي البجائي، ففي مدة نصف قرن لم يرتق إلى منصب الحجاب إلا شخص واحد فقط من أصلاء البلد، مقابل سبع شخصيات أندلسية وافدة،⁴ وأكبر استفادة لعلي بن محمد ابن المنت كان انطلاقا من قصر الأمير أبي زكريا (720-747) ابن السلطان أبي يحيى أبي بكر، عن طريق إحدى جواريه ومحظياته وهي أم الحكم التي "غلبت على هواه" وغلب على هواها، فداخلها في موضوع الرئاسة والمنصب، فتوسطت له لدى الأمير وألححت عليه في الطلب، واستطاعت أن تقنعه بضرورة رسمه في خطة الحجابة فكان له ذلك، ويظهر أن ابن المنت كان

¹ - ابن خلدون. العبر 516/6.

² - المصدر نفسه، 516/6.

³ - بحريزق. بجاية في العهد الحفصي، ص 226.

⁴ - أنظر: ابن خلدون. العبر 515/6 - 516.

يملك من الكفاءة والدراية والاضطلاع بعمله، ما غطى عنه وساطة الجارية أم الحكم له، فقد قال عنه ابن خلدون: "أستعمل فيها (الحجاجة) فقام بما وأصلح معونات السلطان وأحوال مقاماته في سفره، وجهز له العساكر ورجال في نواحي أعماله".¹

وقد ارتبط مصير الحاجب ابن المنت ارتباطا وثيقا بالأمر أبي زكريا نفسه، فلما توفي الأمير في إحدى سفراته خارج بجاية في ربيع الأول سنة 747 هـ، قام العليج فارح من صنائع ابن سيد الناس بتنصيب محمد أبي عبد الله ابن الأمير المتوفي على عرش بجاية، ضاربا عرض الحائط مراسيم الخليفة في تونس أبي بكر أبي يحيى، الذي عقد لابنه الأمير أبي حفص على بجاية وبعث إليها فلم يمكّنه من ذلك، واستمال العليج العامة إلى صف محمد ابن أميرهم أبي زكريا، وارتسم هو حاجبا له، مزيجا بذلك الحاجب علي بن محمد بن المنت.²

ولما استولى السلطان المريني أبو عنان على تلمسان سنة 753 هـ عمل على ضم بجاية إليها، فأرغم أميرها أبا عبد الله محمد بن أبي زكريا على التنازل له عنها، واستدعاه على كره منه إلى فاس كرسي مملكة بني مرين، ثم بعث حاجبه فارحا العليج ليأتيه بأهله وأمواله، وبعث معه عمر بن علي بن الوزير الوطاسي واليا جديدا على بجاية، فلما وصلها اجتمعت أعيان ووجهاء المدينة وأعياص صنهاجة والعلج فارح على الوالي الوطاسي الجديد وقتلوه، وأعلنوا خلع طاعة المرينيين وبعثوا ببيعتهم وولاءهم للأمير الحفصي أبي زيد صاحب قسنطينة، وكتبوا إليه يطلبون قدومه عليهم، فتناقل عن إجابتهم مع قبوله للبيعة كما أسلفت في غير هذا الموضوع، وأقاموا أياما وهم على تلك الحال، وأدركوا أنهم محل نقمة السلطان أبي عنان لا محالة، وخشوا بوادر سوء عاقبة فعلهم، فاتفق الحاجب السابق محمد بن علي بن المنت والقائد هلال من صنائع ابن سيد الناس ومحمد بن الحاجب ابن سيد الناس وبعض الأعيان على تصحيح ما اعتبروه خطأ إستراتيجيا، فناروا بالعلج فارح وقتلوه آخر سنة 753 هـ، وبعثوا برأسه إلى تلمسان محل السلطان أبي عنان آثذ، وأردفوا ببيعتهم وطاعتهم ودعوتهم له ولدولته.³

وبوصول البيعة إلى السلطان أبي عنان من جديد، أمر حاجبه محمد بن أبي عمرو التميمي المهدي الأصل التلمساني المنشأ بالنهوض إلى بجاية في خمسة آلاف فارس، فدخلها في محرم سنة 754 هـ، وأصلح حال أهلها وضبط أمورها وألقى القبض على القائد هلال مولى ابن سيد الناس رغم تعاونه معه وأشخصه إلى السلطان بتلمسان، أما علي بن محمد بن المنت الحضري ومحمد بن سيد الناس فقد اختص بهما وضمهما إلى نفسه واستعان بهما على أمره لتجربتهما السابقة ولعرفتهما بطبيعة المدينة وطبائع أهلها، دون أن تعرف بالضبط شكل وماهية هذه الخدمة وهذا الاستعمال طوال ستة أشهر.

¹ - ابن خلدون. العبر 516/6.

Laurent- Charles Féraud. *Histoire de Bogie*. p. 73-74.

² - ابن خلدون. العبر 517-516/6.

³ - ابن خلدون. العبر 384 /7، 533-532/6.

Mouloud Ghaid. *Histoire de Béjaia*. p. 104, Laurent- Charles Féraud. *Histoire de Bogie*. p. 77-78

فقد عاد الحاجب المريسي ابن أبي عمرو في جمادى الثانية معه وفود عرب المنطقة وأعيان بجاية، وابن خلدون في جملتهم، ووصل بهم إلى تلمسان عند السلطان أبي عنان فأكرم وفادتهم وأجزل أعطياتهم وأسنى جوائزهم، ثم عقد رسميا للحاجب ابن أبي عمرو على ولاية بجاية، وعاد الوفد معه في شعبان من سنة 754 هـ.¹

وإلى هنا تنتهي مسيرة أسرة ابن المنت بشكل غامض مع أعلامها الثلاث وهذا يطرح عدة تساؤلات بخصوص الأخير منهم: أي علي بن محمد بن المنت، فهل خرج مع الوفد إلى تلمسان؟ فإذا إحتملنا وفوده، فهل عاد ثانية إلى بجاية أم بقي في تلمسان وضمه السلطان أبي عنان إلى مجلسه وانتقل معه إلى فاس؟ وما هي أدواره بعد ذلك؟ إن ابن خلدون هو المصدر الوحيد الذي أرخ لهذه الأحداث وكان معاصرا لابن المنت، لم يعطينا أي إشارة بخصوصه؛ من شأنها أن تفسح لنا طريق الوصول إلى إجابة ولو جزئية عن هذه الإشكالات، والجدير بالذكر أن ابن خلدون وهو يورخ لهذه الأسرة وهو ممن عايشها وعرفها عن كتب في بجاية بدا كأنه يورخ لأعلام خاملين، لا يملك من تراثهم شيئا وهذا أمر يستدعي طرح إشكالات وتسولات جديدة عن علاقته بهم وموقفه منهم.

¹ - ابن خلدون. العبر 385/7.

بيت ابن فرحون الأبدى الجباني: الحجابة والقيادة (728-740 هـ)

في مرحلة تفوق البيوتات المحلية في بجاية وسيرها نحو صناعة التوازن مع نظيراتها الأندلسية منذ الربع الثاني من القرن الثامن، ذكر بعيزيق بيت ابن فرحون كرهان محلي في هذا المضمار،¹ لكنه لم يدلل على مذهبه هذا ولم يعط أي إشارة تثبت أصالة هذا البيت في بجاية، ولا في باقي مدن وقرى المغرب الأوسط، في حين أجد بعض القرائن التي تنفي هذا الزعم وتقترب من تأكيد أندلسيتها، وهذا ما سأبته من خلال دراسة الفرع الثاني لهذه الأسرة بتونس، وبدراسة العلاقة الحميمة لفرع بجاية محل النقاش بالأندلسيين المحكرين للسلطة في البلاط الحفصي في كل من تونس وبجاية.

هجرة بني فرحون إلى إفريقية والمغرب الأوسط

ظهر على مسرح الأحداث بتونس بيت ابن فرحون² الأندلسي وهجرته من الأندلس إلى إفريقية تزامن مع بدايات القرن السابع تقريبا، أين ولد محمد بن فرحون وكان من أهل العلم والفقه والدين، نشأ بتونس صدر حياته ثم جاز إلى الحجاز، وفي مصر صاهر الأشراف الحسينيين بالقاهرة ثم استقر أخيرا بالمدينة المنورة وبها توفي سنة 721 هـ،³ وأعقب أبناء وأحفاد نبهاء أصحاب مجد وسراوة، منهم عبد الله بن محمد بن فرحون المؤرخ قاضي المدينة المنورة، توفي بها في حياة أبيه سنة 693 هـ،⁴ وعبد الرحمن بن محمد بن فرحون أخوه،⁵ وأبي العباس أحمد بن فرحون (تـ 742 هـ) صاحب المؤلفات الفقهية الشهيرة،⁶ وعلي بن محمد أبي القاسم ابن فرحون الإمام المتحدث (تـ 746 هـ)،⁷ ومحمد بن إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون،⁸ وعبد العزيز ابن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن فرحون⁹ وإبراهيم بن علي بن محمد بن القاسم بن محمد بن فرحون قاضي المدينة المؤرخ صاحب "الديباج المذهب" في طبقات المالكية (تـ 799 هـ)،¹⁰ وحفيده أحمد بن أبي اليمن بن إبراهيم¹¹ وعبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن فرحون قاضي المدينة المنورة (تـ 859 هـ)،

¹ بجاية في العهد الحفصي، ص 415.

² يرى المستشرق الأمريكي د. جواتيان أن اسم فرحون والأسماء الشبيهة التي تنتهي بـ (ون) والتي ترد كثيرا في وثائق الجزيرة ذات الشأن بتجارة تونس إنما هي من أصل بربري أو إفريقي. أنظر: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ص 248.

³ السخاوي. التحفة اللطيفة 706/3-710.

⁴ ابن فرحون. الديباج 234، السخاوي. التحفة اللطيفة 403/2.

⁵ السخاوي. التحفة اللطيفة 535/2.

⁶ ابن قنفذ. الوفيات 348 الوثنبرسي. الوفيات، ص 635، ابن القاضي. لفظ الفرائد 636.

⁷ الحسيني. ذيل العبر، ص 139، السخاوي. التحفة اللطيفة 352/3، الوثنبرسي. الوفيات، ص 642، ابن القاضي. حرة الرجال، ص 402، لفظ الفرائد، ص 643.

⁸ السخاوي. التحفة اللطيفة 456/3.

⁹ المصدر نفسه، 34/3، 35.

¹⁰ السخاوي. التحفة اللطيفة 131/1، الوثنبرسي. الوفيات 710، المقرزي. دور العقود 75/1.

¹¹ السخاوي. التحفة اللطيفة 272/1.

وأخوه أبي البركات ناصر الدين بن محمد قاضي المدينة المنورة كذلك،¹ وعبد الله بن محمد بن فرحون بدر الدين قاضي المدينة المنورة (ت 769 هـ)²

إن تاريخ هذا الفرع الذي نشأ في المدينة المنورة بعد انتقاله من تونس من الشهرة بمكان؛ لما تمتلك عنه من معلومات وافية، فهو بيت علم وفقه وقضاء تكفلت كتب التراجم المشرقية منها والمغربية بإبراز محاسنهم ومآثرهم وآثارهم، وصورت لنا سيرتهم لأكثر من قرنين بشي من الإيضاح والبيان.

وأصل هذا البيت من أئمة إحدى مدن كورة جيان بالأندلس ويتسبون كبقية أهل أئمة في يعمر بن مالك الذي سبق وأن أشرنا إليه،³ ودون شك فإن بيت ابن فرحون لم يهاجر كله إلى الحجاز بل بقي جزء معتبر منه موزعا بين مدن المملكة الحفصية: تونس وبجاية وغيرها.

ظهور بني فرحون في بجاية ومناصب السيادة

تزامن ظهور بيت بني فرحون في بجاية مع مهلك الزوار محمد بن عبد العزيز الكردي حاجب تونس أيام السلطان الحفصي أبي بكر أبي بكر (718-747)، وتقدم محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس الأشبيلي في محرم سنة 728 هـ بديلا عنه، أين "جدد له العقد على بجاية وحجابه ابنه بها"، لكن ابن سيد الناس آثر أن يجمع بين حجابه السلطان بتونس وتولى أمر بجاية فقط بشكل ما، ودفع إلى حجابه ابن السلطان ببجاية نيابة عنه "صنيعته محمد بن فرحون"، وأردفه بكتابه أصيل الأندلس أبي القاسم بن المرید (أو ابن مزید)،⁴ فكونه صانع ابن سيد الناس الإشبيلي ينفي أصالته في البلد، وحرص ابن سيد الناس على أن يكون حاجب بجاية نيابة عنه أندلسيا وحتى الكاتب، يدل بشكل واضح على العصبية التي كانت تحكم سياسة الأندلسيين في المجتمعات المستضيفة لهم وفي بلاطات سلطاتهم السياسية.

وتعيين ابن سيد الناس واستنابته لابن فرحون كان مزدوج القصد متعدد الأغراض، فكان يريد البقاء في تونس عاصمة الدولة للإستحواذ على مقاليدها أين أمة الملك أقوى وأحكم منها في بجاية لحينها، والاستحواذ في نفس الوقت على هذه الأخيرة عن طريق صنيعته وولي نعمته محمد بن فرحون، ويهدف من جهة ثالثة إلى التنصل من المهام العسكرية الجسيمة التي أرقته وأرهقته، حيث كانت بجاية تان تحت حصار جيوش بني عبد السواد الزيانية إنطلاقا من تلمسان، بعد أن ضيقوا عليها الخناق ببناء حصن تيمزدكت،⁵ وبالتالي قيام محمد ابن فرحون بمهمة مدافعة الأعداء نيابة عنه وتحمل المسؤوليات التي تحملها ابن سيد الناس قبله بالإضافة إلى حجابه الأمير أبي زكريا بن السلطان أبي بكر.

¹ السخاوي. الفحفة اللطيفة 395/2.

² المقرئزي. درر العقود 333/2، الوثنرسي. الوفيات، ص 677، ابن القاضي. لفظ القراند، ص 678، ودرة الحجال، ص 315.

³ السخاوي. الفحفة اللطيفة 403/2، 706/3.

⁴ ابن خلدون. العبر 493/6 - 494.

⁵ راجع تفاصيل هذا الحصار في: ابن خلدون. العبر 491/6-412. Laurent- Charles Féraud. *Histoire de Bougie*. p.67-73.

ووصول ابن سيد الناس إلى قمة الاستبداد كان بالتوازي مع تراجع الحصار الزياتي بمساعدة السلطان المريني أبي الحسن وانقضائه تماما سنة 733 هـ، كان محطة مهمة للسلطان في مراجعة حساباته وأولوياته التي منها تصفية حاجبه ابن سيد الناس والتخلص منه فقتله بمدخلة بطانته وحاشيته من الأندلسيين،¹ لكن هذه التصفية لم تطل صنائع ابن سيد الناس وحزبه مثل ابن فرحون، مما يعطي إشارة عن الأداء الجيد والكفاءة العالية التي تميز بها خلال فترة إدارته للصرع مع الجيش المحاصر لبحاية ورعايته التامة للأمير، رغم أنه تقبض عليه مع ابن سيد الناس أول الأمر قبل مقتله ثم عفي عنه لما تأكد من براءة ذمته.

وفي سنة 735 هـ استدعى السلطان أبو بكر حاجب بحاية محمد بن فرحون إلى تونس ليكلفه بمهمة جديدة، فعلى إثر عقده لإبنه الأميرين عزوز وخالد على البلاد الساحلية الشرقية من المملكة الحفصية وجعل من مدينة سوسة مقرا لحكهما، أسند لابن فرحون أمر حجابتها ونصبه وصيا عليهما لصغر سنهما حينئذ بعد وفاة وصيهما محمد بن طاهر المرسي الأندلسي، أحد أبناء البيوتات ذات الشأن في الدولة الحفصية إذ كان أخوه أبو القاسم صاحب الأشغال بتونس، وقد استمرت وصاية وحجاية ابن فرحون للأميرين حوالي خمسة سنوات وكان هو المتصرف الحقيقي في شؤون البلاد الساحلية الشرقية لوضعية الأميرين المذكورين.²

أيا ما كان الأمر فإن الأمير أبا زكريا صاحب بحاية لم يستطع تحمل فراق وصيه وحاجبه محمد بن فرحون ولا تقبل خدمة غيره له، فاستدعاه مرة ثانية إلى بحاية وهذا مؤشر آخر على استحكام العلاقة بين الأمير وحاجبه، وكان هذا بعد أن كلف السلطان أبو بكر بن فرحون بسفارة إلى المغرب الأقصى لدى السلطان أبي الحسن المريني سنة 740 هـ بشأن الأسطول الذي بعثه مددا لهم، حين عزم أبو الحسن المريني على الجواز لعدوة الأندلس والتحضير لمعركة طريف ضد النصارى الإسيان، وهنا ظهر الرجل الثاني في بيت بني فرحون وهو زيد بن فرحون؛ الذي نصب قائدا لذلك الأسطول بحكم منصبه السابق الذي لا نعرف متى تولاه بالضبط، وفي أي الظروف ألا وهو منصب "قائد البحر" أو "رئيس البحر".³

يمكن القول أن تولي زيد بن فرحون قيادة البحر تزامن مع تولي أخيه محمد الحجابة في بحاية أول الأمر سنة 728 هـ، ولا يستبعد أن يكون الحاجب الجديد هو الذي سعى له في هذا المنصب لدى الأمير أبي زكريا، أو عن طريق ولي نعمته ابن سيد الناس لدى السلطان أبي بكر لضمان تكريس السيطرة الأندلسية الكاملة، ومنازعة مشيخة الموحدين وإضعافها تمهيدا لإقصائها،⁴ والأمر نفسه بالنسبة للقيادات المحلية.

وقد كان لرئيس البحر مكانة مرموقة في النظام البحري للدولة الحفصية إذ يجمع سلطتين في يده: عسكرية ومدنية، فهو قائد الأسطول العسكري وهو رئيس ديوان البحر والمشرف الأول على موانئه، كما يشرف على

¹ ابن خلدون. العبر 500/6.

² ابن خلدون. العبر 504/6، 515، الزركشي. تاريخ الدولتين، ص 72.

³ ابن خلدون. العبر 515/6 - 516، برنشتيغ. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ص 194/1.

⁴ Attalah Dhina. *Las Etats de l'Occident Musulman*. op. cit. p.184 .

التجارة البحرية ويراقب حركة التصدير والاستيراد وحركة الشحن والتوزيع عن طريق أعوانه وموظفي الديوان، ويعمل على استخلاص الأدعاءات الجمركية والمحافظة على الميناء وسلامة شركائه والمتعاملين معه.¹ ويبدو أن زيد بن فرحون كان محل استقطاب وتنافس بين الأندلسيين المتنفذين في بلاط تونس وبجاية وبين مشيخة الموحدين،² عمل كل طرف على كسبه لصفه ليعزز به مكانته، خاصة من ناحية القوة العسكرية والقوة المالية لما يوفره منصب قائد البحر من امتيازات وصلاحيات وعلائق واسعة بأطراف مختلفة ذات أهمية ما، وانتهى هذا الاستقطاب لصالح مشيخة الموحدين لذا وصفه ابن خلدون بصنيعتهم.

وقد عقد للقائد زيد بن فرحون بعد سفارة أخيه المذكورة على ستة عشر سفينة، أنتخبها الحفصيون من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية، وسار بها إلى سبة أين وافي أساطيل المغرب، فعقد الأمر لصاحب سبة الرئيس محمد بن علي الغزفي على كل الأسطول البالغ بعد المدد الحفصي مائة سفينة، فحاضوا به معركة أولى في مياه مضيق جبل طارق وكانت الغلبة والنصر التام للأسطول الإسلامي بفضل عدته وكفاءة قواده، لكن بعد أن نجح الأسطول في نقل العساكر إلى بر الأندلس، إنقلبت الموازين وسحق الجيش المغربي لتقصير واضح في نظام العسس والعيون والاستخبارات.³

وهذا آخر ما سطرته مصادرنا عن شخصية القائد زيد بن فرحون، دون معرفة مصيره ودوره بشكل ما من الوضوح في هذه المعركة، فهل عاد بالقطع المتبقية من الأسطول إلى بجاية بعد أن نجح؟ أم أنه أكرم بالشهادة في سبيل الدفاع عن الوجود الإسلامي في الأندلس؟

أيا ما كان الأمر فإن أخاه محمد أعيد إلى بجاية ليتولى من جديد حجابة الأمير أبي زكريا في نفس تلك السنة أي 740 هـ، واستمر في منصبه إلى أن توفي في سن الأربعين وتوفي الأمير بعد سنة 747 هـ.⁴ لقد جمع هذا البيت الأبدي ثم البحائي منصبين أساسيين في بجاية الحفصية: الحجابة ورتاسة البحر مما يعني مشروع الهيمنة السياسية والعسكرية والإقتصادية⁵ للفتات الوافدة على حساب البيوتات والكفاءات المحلية، وهذين المنصبين اللذين تحكما فيهما لحوالي عقد ونصف العقد من الزمن كان مفتاح السيادة في بجاية بعد منصب الأمير، فمن شأنهما أن يكسبا الجاه والثروة لمتولي ولعقبه من بعده، وإن أغفله المؤرخون وأخطأته المصادر.

¹ برنشفيك. تاريخ أفريقية في العهد الحفصي، ص 193/1-194، بميزيق. بجاية في العهد الحفصي، ص 219-222.

² أنظر عن دور الموحدين في الدولة الحفصية: نللي سلامة العامري. الولاية والجماع، ص 62-64، وأنظر عن أشهر أسرة موحدية في نفس الفترة: كمال السيد أبو مصطفى. بنو تافرجين في تاريخ الدولة الحفصية 647-837 هـ، ضمن: دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب، 1997، ص 3-54.

³ ابن خلدون. العبر 345/7-347، السلاوي. الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 134/1-138، الطوسي. العلاقات الأندلسية الحفصية، ص 68. عبد العزيز بن عبد الله. الأساطيل العربية الإسلامية في البحر المتوسط، مجلة التاريخ العربي، عدد 3، ص 85.

⁴ ابن خلدون. العبر 516-515/6.

⁵ بميزيق. بجاية في العهد الحفصي 416.

الصلات الاجتماعية والثقافية لبني فرحون مع المغرب الأوسط

أما علاقة الفرع الثاني لبني فرحون مستوطن المدينة المنورة بالمغرب الأوسط، فإننا نجد لها صدى عند محمد بن فرحون بن محمد بن فرحون (ت 721 هـ) التونسي المولد، الذي كان على صلوات وثيقة وخلطة وصحبة مع الشيخ الصوفي أبي عبد الله محمد البسكري ومريديه بالشرق الإسلامي، فقد سعى لابن فرحون في تزويجه من ابنة الشريف عبد الواحد الحسيني بالقاهرة، وألحق نسب أبنائه وذريته المرتقبة بأشرف نسب على وجه الأرض قديما وحديثا وهو نسب النبي ﷺ¹، على مذهب من يثبت الشرف للأبناء من جهة الأم²، فهذه الصلوات في المشرق ستلتحم من جديد وبشكل مباشر بأرض المغرب الأوسط مع الابن علي بن محمد ابن فرحون (ت 730 هـ) المدني المولد المحدث الضابط الرواية المتقن صاحب التصانيف المشهورة، فقد كانت له رحلة سنة 730 هـ إلى أفريقية والمغرب، أخذ فيها العلم من فقه وأصول وعقائد، ومع أن من ترجموا له³ لم يصرحوا بدخوله المغرب الأوسط ولا أشاروا إليه، إلا أن وصوله إلى فاس لم يكن ليتم دون التوقف في حواضر المغرب الأوسط على الأقل في بجاية وتلمسان الحاضرتان العلميتان اللتان لا تقلان أهمية عن تونس وفاس، خصوصا وأنه جاء تحديدا لدراسة الفقه المالكي وأصوله؛ والتي كانت الريادة فيه تميل لصالح تلمسان⁴، ولدينا ما يعزز هذا الرأي، حيث إشارة تدل على دخوله تلمسان طالبا متعلما على شيوخها وعلمائها، وذلك في ترجمة أحدهم وهو إبراهيم بن حكم الكناني السلوي نزيل تلمسان منذ حوالي سنة 720 هـ، أي قبل رحلة ابن فرحون هذا بعشر سنوات، وكانت بينهما مساءلات وحوارات ومناقشات في مسائل القرآن الكريم والأدب والشعر وما شاكل ذلك.⁵

¹ السعواوي. النسخة اللطيفة 707/3.

² أنظر النقاش والفتاوى التي صدرت بخصوص هذه المسألة، المازوني. الدرر المكنونة 211/3-247، النشرسي. المعاصر المغرب 208/12-211، 385-394، محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، ص 252-255، بوبه بجاني. تحفة الوارد في إحصاء الشرف من الوالد لأبي العباس أحمد بن علي بن حسن بن الخطيب المعروف بابن القنفذ القسنطيني (ت 810 هـ/1407 م) مقارنة أولية، مجلة سورتا، عدد 11، ماي 1998، ص 151-159، ويوجد مخطوط بمكتبة البديرية بالقدس الشريف بعنوان: "إسماح الصم في إنبات الشرف من قبل الأم"، ألفه محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيد المراكشي، الفماري الضريير، (ت 807 هـ) تحت رقم 778/4 فقه، يناقش فيه فتاوى علماء بجاية وتونس بشأن المسألة، أنظر: فهرس مخطوطات المكتبة البديرية بالقلمس، (نسخة إلكترونية)، ص 410.

³ ابن فرحون. الدبهاج، ص 308، ابن حجر. الدرر الكامنة 68/3، السعواوي. النسخة اللطيفة 252/3، ابن القاضي. جملوة الإقباس، ص 488/2.

⁴ راجع بخصوص ذلك: محمد بن معمر. المدرسة المالكية في حاضرة تلمسان حتى منتصف ق 7 هـ، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية-جامعة الجزائر، عدد 1، 2004، ص 200-217.

⁵ القراي. توضيح الدبهاج، ص 56، التبيكتي. النيل 25/1، ابن منصور. أعلام المغرب العربي 113/1.

خاتمة

إن البيوتات ظاهرة متميزة في تاريخ المغرب الأوسط خصوصا الأندلسية منها، نظرا لأهميتها في ميادين الثقافة والسياسة والإدارة، فقد ساهمت في صناعة كثير من الأحداث التاريخية، بالسلب والإيجاب، لفترة تزيد عن ستة قرون.

إلا أن الاهتمام بها لم يلقى العناية الكافية، وحسي هنا أني أزحت بعض الغبار الذي لف النسيان تاريخها لعدة قرون.

ومن خلال هذه الدراسة أمكن تسجيل جملة من النتائج والملاحظات أسجل أهمها على شكل نقاط:

- البيوتات ظاهرة لها قوانين تخضع لها ظهورا وتلاشيا، بعيدا عن الصدفة والاعتباطية.
- ظهور البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط هو ثمرة علاقات وأواصل متينة، ربطت العدوتين عبر تاريخهما الطويل.
- ظهور البيوتات الأندلسية ارتبط بالحواضر الكبرى وكراسي الملك.
- ساعدت السلطة السياسية على ظهور البيوتات الأندلسية بشكل رئيس لمصالح ومنافع متبادلة.
- ساهمت عقلية مجتمع المغرب الأوسط المحبول على حب الغريب الوافد من ازدهار وتنامي ظاهرة البيوتات الأندلسية في بيئته.
- ظهور البيوتات الأندلسية وتنفيذها في الأوساط النخبوية، كان على حساب البيوتات المغربية الأصيلة.
- بداية تلاشي نفوذ البيوتات الأندلسية تزامن مع ضعف السلطة المحلية الداعمة لها.
- بداية التلاشي أيضا تزامن مع استعادت البيوتات المحلية لمكانتها بجدارة منذ القرن الثامن.
- البيوتات الأندلسية العلمية هي الأكثر أعلاما والأوسع شهرة في مصنفات التاريخ، والأطول عمرا.
- نهاية البيوتات الأندلسية السياسية كان في الغالب مأساويا، صورته القتل والتكيد.
- أعظم بيت أندلسي في المغرب الأوسط تجسدت معاملة في بني حمدون أمراء المسيلة ووزراء الحماديين.
- أكبر البيوتات ظهرت في تلمسان فبحاية.
- أغلب البيوتات ظهرت في العهد الزياني فالحفصي.
- أغلب البيوتات الأندلسية من أصول عربية بمنية
- المساهمة العلمية للبيوتات الأندلسية كانت ذات أثر بالغ في الحياة الثقافية للمغرب الأوسط، والأبعد أثرا.
- تخرج على يد أعلام البيوتات الأندلسية علماء أجلاء من المغرب الأوسط، رفعوا لواء العلم وحفظوا لنا الثقافة العربية الإسلامية ردها من الزمن.
- ساهم بعض أعلام البيوتات في إحياء مدارس عريقة اندثرت في زمن ما، كما فعل الأبهلي بخصوص المدرسة الرشدية.

- خلف أعلام البيوتات تراثا علميا مكتوبا قيما، لكن من المؤسف أن أكثره مفقود أو ما يزال قابعا في صورته المخطوطة.
 - ساهمت البيوتات الأندلسية في كتابة تاريخ المغرب الأوسط، وحفظته من الضياع والضمور في عقول الأجيال التي جاءت بعدهم، خصوصا مع عبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحيى.
 - ساهمت البيوتات الأندلسية في تطوير نظم الحكم من خلال الوظائف التي شغلتها كالوزارة والكتابة والحجابه، كما ساهمت في إعطاء الشرعية للسلطة الحاكمة وأضفت عليها أهمة الحكم.
 - استعملت السلطة البيوتات الأندلسية كورقة سياسية تنافس بها البلاطات الأخرى وتتفاخر بها.
 - ساهمت البيوتات الأندلسية في بناء وإعادة بعث النشاط في مدن كانت مغمورة في فضاء المغرب الأوسط، مثل المسيلة وتدلس.
 - بيوتات تلمسان بيوتات ذات ألوان شتى: بيوتات علماء، بيوتات قضاة، بيوتات وزراء، بيوتات خطباء، بيوتات جمعت بين الولاية والقضاء والكتابة والعلم، وبيوتات جمعت بين الجندية والعلم.
 - بيوتات بحماية في أغلبها بيوتات سياسية تولت الحجابه والولاية وديوان البحر والوزارة.
 - قوة البيوتات وكثرتها مرتبط بقوة الجالية الأندلسية نفسها في حواضر المغرب الأوسط.
 - أظهرت بعض البيوتات الأندلسية مرونة فائقة في التعامل مع البلاطات المغربية المتنافسة، مع الحرص دائما على مصالحها الشخصية على حساب المغرب الأوسط.
 - دراسة موضوع البيوتات في فضاء محدد كالمغرب الأوسط، في عصر لم يكن يعرف للحدود معنى يفضي إلى نتائج مبتورة أحيانا.
- فهذا ما وسعني المقام من إثباته ولا أدعي لعملي التمام والكمال، وإنما أقول أنه جهد المقل لا دعوى المستقل، وما توفيقي إلا بالله العظيم.

ثبت المصادر والمراجع

◆ القرآن الكريم. برواية ورش عن نافع.

أ- المخطوطات

- التنبكي. أحمد بابا السوداني (ت 1036 هـ)
1. اللمعة في أجوبة المسائل الأربعة، مخطوط ضمن مجموع، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 532. التواتي. محمد بن عمر بن المبروك الجعفري
 2. نقل الروايات عن من أبدع قصور توات، نسخة مصورة عن مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي بكوسام. السنوسي. محمد بن يوسف (ت 895 هـ)
 3. المقرب المستوفي في شرح فرائض الحوفي، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع، رقم 1450. العصوني. أبو الحسن علي بن يحيى بن صالح المغيلي (ت 927 هـ)
 4. شرح التلمسانية في الفرائض، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع تحت رقم: 871. الغرناطي. أبو محمد بن القاسم
 5. نوازل الغرناطي، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2326. الشريف. أبو عبد محمد الحسيني
 6. ديوان الشريف، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2608. المازوني. أبو زكريا يحيى المغيلي التلمساني (ت 883 هـ)
 7. الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، (المجلد الثاني)، رقم 1336. ابن مرزوق الخطيب. أبو عبد الله محمد التلمساني (ت 781 هـ)
 8. المجموع، نسخة مصورة عن مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 20.
 9. نوازل ابن مرزوق. مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1342. ابن مزوار الشرفاء. أبو عبد الله محمد
 10. شجرة من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. مخطوط جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة - رقم 1/8/219. مجهول.
 11. زهر البستان في دولة بني زيان. نسخة مصورة عن مخطوط مكتبة جون راباندس بجامعة مانشيستر البريطانية، رقم 283 (القسم العربي).

ب- المصادر

- ابن الأبار. محمد بن عبد الله القضاعي (ت 658 هـ)
12. التكملة لكتاب الصلاة، تحقيق عبد السلام الهراس، بيروت: دار الفكر، 1415-1995. (4 ج)
 13. الحلة السراء، تحقيق حسين مؤنس، ط 1، بيروت: الشركة العربية، 1963. (2 ج)
 14. تحفة القادِم، تحقيق إحسان عباس، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1406-1986.

15. المعجم في أصحاب القاضي الصديقي أبي علي حسين بن أحمد، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط 1، القاهرة- بيروت: دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، 1410-1989.
- ابن أبي أصيبعة. موفق الدين أبو العباس أحمد بن قاسم بن خليفة (ت 668 هـ)
16. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط 3، بيروت: دار الثقافة، 1401-1981. (ج 2)
- ابن أبي الحديد. عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت 655 هـ)
17. شرح فتح البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار الفكر، 1339-1979.
- ابن أبي زرع. علي الفاسي (حيا 729 هـ)
18. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب منصور، ط 2، الرباط: المطبعة الملكية، 1420-1999.
- ابن أبي دينار. محمد بن أبي القاسم الرعيبي القيرواني.
19. المؤنس في أخبار الريفية وتونس، ط 3، تونس- بيروت: مؤسسة سعيدان- دار المسورة، 1993.
- ابن أبي الربيع. عبد الله بن أحمد الأموي القرشي الإشبيلي (ت 688 هـ)
20. برنامج ابن أبي الربيع، تحقيق عبد العزيز الأهواني، نشر بمحلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول- الجزء الثاني، ربيع الأول 1375- نوفمبر 1955.
- ابن أبي الربيع. شهاب الدين أحمد بن محمد (ق 3 هـ)
21. سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق عارف أحمد عبد الغاني، دمشق: دار كان، 1996.
- ابن أبي شيبعة. أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي
22. المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط 1، الرياض: مكتبة الرشد، 1409.
- الإتليدي. محمد دياب (ت 1100 هـ)
23. إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، ط 1، بيروت: دار صادر، 1410-1990.
- ابن الأثير. عز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني (ت 630 هـ)
24. الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدميري، ط 4، بيروت: دار الكتاب العربي، 1424-2004. (ج 8)
25. اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت: دار صادر، 1400-1980 (ج 4)
26. أسد الغابة في معرفة الصحابة. القاهرة: مكتبة التراث العربي.
- ابن الأحمر. أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي (807 هـ)
27. بيوتات فاس الكبرى، الرباط: دار المنصور، 1972.
28. مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تحقيق محمد التريكي، الرباط: منشورات جامعة محمد الخامس.
29. روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط: المطبعة الملكية، 1411-1991.
30. النفحة النسرينية واللحمية المرينية، تحقيق عدنان محمد آل طعمة، دمشق: دار سعد الدين، 1992.
31. نثر فرائد الجمال في نظم فحول الزمان، تحقيق رضوان الداية، بيروت: دار الثقافة، 1967.
- الإدريسي. الشريف محمد بن محمد المسيحي (ق 6 هـ)
32. نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ط 1، بيروت: عالم الكتب، 1409-1989. (ج 2)
- ابن آدم. يحيى القرشي (203 هـ)
33. كتاب الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط 1، بيروت: دار الحدائق، 1990.
- الأدروبي. أحمد بن محمد (ق 11 هـ)

34. طبقات المفسرين، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، ط 1، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1997. الإصطخري. أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ق 4 هـ)
35. المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دار القلم.
- الأصفهاني. أبو الفرج علي بن الحسين بن الهيثم القرشي (توفي بعد 360 هـ)
36. الأغاني، تحقيق سميح جابر، ط2، بيروت: دار الفكر.
- الأصفهاني. عماد الدين الكاتب
37. خريدة القصر وجريدة العصر،
- * الجزء 16: تحقيق محمد المرزوقي وآخرين، مصور عن طبعة تونس: الدار التونسية للنشر، 1966.
- * الجزء 17: تحقيق أذرتاش آذرنوش، طبعة مصورة عن طبعة 1971.
- * الجزء 18: تحقيق أذرتاش آذرنوش، طبعة مصورة عن طبعة 1972.
- * الجزء 19: تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، مصور عن طبعة مصر: مطبعة الرسالة، 1964.
- * الجزء 20: تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، مصور عن طبعة مصر: مطبعة الرسالة، 1964.
- الألوسي. أبو الفضل محمد
38. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت: دار إحياء التراث العربي. (ج 6) ابن بابيه. أبو العباس أحمد بن علي القاشاني (ت 510 هـ)
39. رأس مال الندم في تواريخ أعيان أهل الإسلام، تحقيق سهيل زكار، ط 1، بيروت: دار الفكر، 1418-1997. البادسي. عبد الحق بن إسماعيل بن أحمد (ت 722 هـ)
40. المقصد الشريف والمرع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، ط2، الرباط: المطبعة الملكية، 1414-1993.
- البي. أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البنسي (ت 488 هـ)
41. تذكرة الألباب بأصول الأنساب، تحقيق محمد مهدي الموسوي الخرسان، ط1، بيروت: مؤسسة المواهب، 1422-2001.
- البخاري. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ)
42. التاريخ الكبير، تحقيق السيد هاشم الندوي، بيروت: دار الفكر.
43. الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط3، بيروت: اليمامة - دار ابن كثير، 1407-1987. الرزلي. أبو القاسم بن أحمد (ت 841 هـ)
44. جامع مسائل الأحكام لما نزل من الأفضية بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002.
- الري. محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى التلمساني الوقشي (ت 681 هـ)
45. الجوهرة في نسب الإمام علي وآله، تحقيق محمد التونجي، ط 2، بيروت: دار الجليل، 1414-1993
46. الجوهرة في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة، (طبعة إلكترونية. PDF) ابن بسام. أبو الحسن علي الشتريني (ت 542 هـ)
47. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، 1981 (ج 8) ابن بشكوال. أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأندلسي (ت 587 هـ)

48. الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق السيد عزت العطار، ط 3، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1404-1994.
- البغدادي. إسماعيل باشا
49. هدية العارفين وأسماء المؤلفين وأثر المصنفين، استانبول: وكالة المعارف الجليلة، 1955.
50. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الضنون، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- البغدادي: عبد القادر بن طاهر (ت 429 هـ)
51. الفرق بين الفرق وبين الفرقة الناجية منهم، بيروت: دار الجيل - دار الأفاق الجديدة، 1408-1987.
- البغدادي. صفى الدين عبد المؤمن (ت 739 هـ)
52. مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق محمد علي البحاي.
- * الجزء 1: ط 1، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1373-1954.
- * الجزء 2-3: ط 1، بيروت: دار المعرفة، 1373 - 1954.
- ابن بطوطة. محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779 هـ)
53. تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار، تحقيق محمد السعيد محمد الزيني، القاهرة: المكتبة التوفيقية.
- البكري. أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت 487 هـ)
54. المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424-2003. (ج 2)
- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت 279 هـ)
55. البلدان وفتوحها وأحكامها، تحقيق سهيل زكار، ط 1، بيروت: دار الفكر، 1412-1992.
- ابن بلكين. الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس الصنهاجي (ت 483 هـ)
56. التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيوي في غرناطة، تحقيق علي عمر، ط 1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1427-2006.
- البليوي. أحمد بن علي بن داود الوادي آشي (ت 938 هـ)
57. ثبت الوادي آشي، دراسة وتحقيق عبد الله العمراني، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1403-1983.
- البليوي. أبو البقاء خالد بن عيسى الفرناطي (ق 8 هـ)
58. تاج المشرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، الإمارات العربية- المغرب: اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي.
- البوني. أحمد بن قاسم
59. التعريف ببونة إفريقية ببلد سيدي أبي مروان الشريف، تحقيق سعيد دحماني، عنابة: منشورات المجلس الشعبي البلدي لعنابة، 2001.
- البيذق. أبو بكر بن علي الصنهاجي (ق 6 هـ)
60. أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1394-1974.
61. المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب. تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط: دار المنصور، 1971.
- ابن البيطار. ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي (ت 646 هـ)
62. الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1991،
- التادلي. يوسف بن يحيى المعروف بابن الزيات (ت 617 هـ)

63. التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، ط 2، الرباط: منشورات كلية الآداب - جامعة محمد الخامس، 1997.
- التحاني. عبد الله بن محمد التونسي (حيا 717هـ -)
64. رحلة التجاني، قدم لها. ح. عبد الوهاب، تونس: المطبعة الرسمية، 1377-1958.
- التحجي. القاسم بن يوسف البنسي السبي (ت 730 هـ -)
65. برنامج التحجي، تحقيق عبد الحفيظ منصور، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1981.
66. مستفاد الرحلة والاختراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1981.
- ابن تغري بردى. جمال الدين أبو المحاس الأنابكي (ت 874 هـ -)
67. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 4 و ج 5: تحقيق إبراهيم علي طرعيان، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- التميمي. أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفاسي (ت 603 هـ -)
68. المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، دراسة وتحقيق محمد الشريف، ط 1، تطوان- المغرب: منشورات كلية الآداب - جامعة عبد الملك السعدي، 2002. (ج 2)
- التنكي. أحمد بابا السوداني (ت 1036 هـ -)
69. نيل الإبتهاج بتطريز الدياج، تحقيق علي عمر، ط 1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423-2004. (ج 2)
70. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدياج، تحقيق عبد الله الكندري، ط 1، بيروت: دار بن حزم، 1422-2002.
- التنسي. محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني (ت 899 هـ -)
71. نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعيداد، الجزائر: المكتبة الوطنية - المؤسسة الوطنية للكتاب، 1405-1985. (طبع باسم تاريخ بني زيان ملوك تلمسان)
- التوحيدي. أبو حيان علي بن محمد بن العباس (توفي بعد 380 هـ -)
72. الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت: دار ومكتبة الحياة.
73. المقابسات، تحقيق حسن السندي، ط 2، الكويت: دار سعاد الصباح، 1992.
74. الدخائر والبصائر، تحقيق وداد القاضي، ط 1، بيروت: دار صادر، 1984.
- ابن تومرت. أبو عبد الله محمد بن عبد الله المرغي السوسي (ت 524 هـ -)
75. أعز ما يطلب، تحقيق عمار طالي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.
- ابن تيمية. أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني (ت 732 هـ -)
76. درء تعارض النقل والعقل، تحقيق محمد رشاد سالم، ط 2، الرياض: منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1411-1991، (ج 11).
77. علم الحديث، تحقيق موسى محمد علي، ط 3، الجزائر - دمشق: دار الفكر، 1413-1993،
- الثعالبي. عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجزائري (ت 875 هـ -)
78. الجواهر الحسان في تفسير آي القرآن، تحقيق محمد علي عوض وآخرين، ط 1، بيروت: دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي، 1418-1997.
- الثعالبي: أبو منصور عبد الملك السنيابوري (ت 429 هـ -)
79. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403-1983.
- الجاحظ. أبو عثمان عمر بن بحر بن محبوب البصري (ت 255 هـ -)

80. البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط7، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1418-1998.
81. التاج في أخلاق الملوك، تحقيق عمر الطباع، بيروت: دار الأرقم، 1422-2002.
82. رسائل الجاحظ، تحقيق عبدأ مهنا، ط 1، بيروت: دار الحدائق، 1988.
- ابن الجزري. شمس الدين محمد بن محمد (ت 833 هـ)
83. غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج. برجستراسر، ط 1، القاهرة: مطبعة السعادة، 1351-1932.
- الجزنائي. أبو الحسن علي (من أهل القرن 8 هـ)
84. زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق مديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، 1422-2001.
- ابن الجلاب. أبو القاسم عبيد الله بن الحسين البصري (ت 378 هـ)
85. التفريع، تحقيق حسين بن سالم الدهماني، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1408-1987.
- الجهشياري. أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي (ت 331 هـ)
86. الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2004.
- الجوذري. أبو علي منصور العزيز (توفي أواخر القرن 4 هـ).
87. سيرة الأستاذ جوفو، تحقيق محمد كامل حسين وعبد الهادي شعيرة، القاهرة: دار الفكر العربي 1954.
- الجويني. أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله (ت 478 هـ)
88. الفياثي غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق ودراسة عبد العظيم ديب، ط 2، مصر: مطبعة نهضة مصر، 1401.
- ابن الحاج النمري. إبراهيم بن عبد الله الغرناطي (توفي بعد 774 هـ)
89. فيض العباب وإفاضة لداخ الأداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.
- حاجي خليفة. مصطفى بن عبد الله الحنفي القسطنطيني (ت 1067 هـ)
90. كشف الضنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار إحياء التراث العربي. (2 ج)
- الحازمي. أبو بكر محمد بن أبي عثمان الهمداني (ت 584 هـ)
91. عجالة المبتدى وفضالة المنتهى في النسب، تحقيق عبد الله كنون، ط 1، القاهرة: دار الأفاق العربية، 1422-2002.
- الحاكم النيسابوري. محمد بن عبد الله (ت 405 هـ)
92. المستدرک علی الصحیحین، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411-1990.
- ابن حبيب. أبو مروان عبد الملك بن سليمان السلمى القرطبي (ت 238 هـ)
93. كتاب التاريخ، دراسة وتحقيق خورخي أغواداي، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- معهد التعاون مع العالم العربي، 1991.
- ابن حبيش: عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله الأندلسي (584 هـ)
94. كتاب الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأوئل الثلاثة أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر وذوي النورين عثمان، تحقيق سهيل زكار، ط 1، بيروت: دار الفكر، 1412-1992.
- الحجاري. عبد الله بن إبراهيم الأندلسي وآخرين
95. النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، القاهرة: مطبعة دار الكتب، 1970.
- ابن حجر. شهاب الدين أحمد بن علي المسقلاني (ت 852 هـ)
96. الإصابة في معرفة الصحابة، بيروت: دار الكتاب العربي.
97. إنباء العمر بانباء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1419-1998.

98. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق عبد الوارث محمد علي، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417-1997.
99. لسان الميزان، تحقيق أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1416-1996.
100. اجمع المؤسس للمعجم المفهرس، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، ط 1، بيروت: دار المعرفة، 1415-1994. (ج 3)
- ابن حزم. علي بن أحمد الظاهري الأندلسي (تـ 456 هـ)
101. الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصير وعبد الرحمن عميرة، ط 1، المملكة العربية السعودية: شركة مكتبة عكاظ، 1402-1982.
102. نقط العروس في تواريخ الخلفاء، تحقيق شوقي ضيف، نشر: محلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد 13. الجزء 2.
103. جهرة أنساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة: دار المعرفة، 1948.
- الحسيني. عز الدين أبو القاسم أحمد (تـ 695 هـ)
104. صلة التكملة لوفيات النقلة، تحقيق عبد الله الكندري، ط 1، بيروت: دار ابن حزم، 1426-2005.
- الحسيني.
105. ذيل العبر في خبر من غير، تحقيق محمد زغلول، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1405-1985.
- ابن حماد. أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي البجائي (حوالي 628 هـ)
106. أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق جلول أحمد بدوي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب 1984.
- ابن حمديس. عبد الجبار الصقلي (تـ 527 هـ)
107. ديوان ابن حمديس. تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر- دار بيروت، 1379-1960.
- أبو حمو. موسى الزياتي التلمساني (تـ 791 هـ)
108. واسطة السلوك في سياسة الملوك، تونس: مطبعة الدولة التونسية، 1279-1862.
- الحموي. أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (تـ 626 هـ)
109. إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993. (ج 7)
110. المشترك وضعاً والمفترق صقعا، بغداد- بيروت: مكتبة المثنى- دار الكتاب اللبناني.
111. معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1410-1990.
- الحمدي. أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الأندلسي (تـ 488 هـ)
112. جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري، ط 1، صيدا- بيروت: المكتبة العصرية، 1425-2004.
- الحميري. محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (القرن 8 هـ)
113. الروض المطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط 2، بيروت: مكتبة لبنان، 1984.
- ابن حنبل. الإمام أحمد الشيباني البغدادي (تـ 241 هـ)
114. المسند، القاهرة: مؤسسة قرطبة.
- ابن حوقل. أبو القاسم النصيب البغدادي (توفي بعد 367 هـ)
115. صورة الأرض، بيروت: دار مكة الحياة، 1992.
- ابن حيان. أبو مروان حيان بن خلف القرطبي (تـ 469 هـ)
116. المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت: دار الثقافة، 1965.

117. المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، بيروت: دار الكتاب العربي، 1393-1973.
118. المقتبس (ج 5) تحقيق شاليتا، مدريد- الرباط: المعهد الإسباني العربي للثقافة- كلية الآداب، 1979.
- ابن حيان الأندلسي. أثر الدين محمد بن يوسف (ت 745 هـ)
119. تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1413-1993.
- ابن الخراط. عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي البحائي (ت 582 هـ)
120. إختصار إقباص الأنوار. تحقيق إيميليو مولينا وخانيتوبوسك بيلا، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- معهد التعاون مع العالم العربي، 1990.
121. الأحكام الشرعية الصغرى الصحيحة، تحقيق: الحسين آيت سعيد، ط 1، الرياض: دار طيبة، 1418-1999.
122. الأحكام الوسطى من حديث النبي ﷺ، تحقيق حمدي السلفي وصبحي السامرائي، الرياض: مكتبة الرشيد، 1416-1995.
- ابن خرداذبة. أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300 هـ)
123. المسالك والممالك، بغداد: مكتبة المثنى.
- الخشني. محمد بن حارث القيرواني (ت 361 هـ)
124. أصول الفتيا في الفقه على مذهب الإمام مالك، تحقيق محمد المنجوب وآخرين، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب - المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.
125. أخبار الفقهاء والمحدثين، دراسة وتحقيق ماري لوييا آيلا، ولوسي مولين، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1992.
126. قضاة قرطبة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط 1، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1402-1982.
- الخطيب البغدادي. أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ)
127. الكفاية في علم الرواية، بيروت: دار الكتب العلمية، 1409-1988.
128. تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد)، تحقيق بشار عواد معروف، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1422-2001.
- ابن الخطيب. لسان الدين السلماني الغرناطي (ت 776 هـ)
129. الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط 2، القاهرة: مكتبة الخانجي 1339-1973. (4 ج)
130. أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق سيد كسروي حسن، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424-2003.
131. أعمال الأعلام (القسم المغربي طبع بعنوان: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط)، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدربليضاء: دار الكتاب، 1964.
132. أعمال الأعلام (القسم الأندلسي طبع بعنوان: تاريخ إسبانيا الإسلامية)، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1426-2006.
133. أوصاف الناس في التواريخ والصلوات، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423-2002.
134. جيش التوشيح، تحقيق هلال ناجي ومحمد ماضور، ط 1، تونس: مطبعة المنار، 1967.
135. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق البشير الفورقي، تونس: مطبعة التقدم الإسلامية، 1329-1911.
136. روضة التعريف بالحلب الشريف، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424-2003.

137. ربحانة الكتاب ونجعة المتناهب، تحقيق عبد الله عنان، ط 1، القاهرة: مكتبة الخانجي، الجزء الأول: 1400-1980،
والجزء الثاني: 1401-1981.
138. الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، 1963.
139. كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق محمد كمال شبانة، ط 1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1423-2003.
140. اللمحة البدوية في الدولة النصرية، تحقيق محمد زينهم، ط 1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1425-2004.
141. مثلى الطريقة في ذم الوثيقة، تحقيق عبد الحميد التركي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.
142. معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423-
2002.
143. نفاضة الجراب في علالة الإغتراب،
* الجزء 2: تحقيق أحمد مختار العبادي، القاهرة: دار الكتاب العربي.
* الجزء 3: تحقيق السعدية فاغية، ط 1، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1409-1989.
- ابن خلدون. أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ت 808 هـ)
144. التعريف بابن خلدون ورحلته غربا و شرقا، تحقيق محمد بن تاروت الطنجي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية،
1425-2004. (طبع باسم: رحلة ابن خلدون)
145. شفاء السائل وقذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، ط 1، دمشق- بيروت: دار الفكر- دار الفكر المعاصر،
1417-1996.
146. العبر وديوان المتبدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة،
بيروت: دار الفكر، 1421-2001. (8 ج)
147. المقدمة، بيروت: دار الفكر، 1422-2002.
- ابن خلدون. أبو زكرياء يحيى بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ت 780 هـ)
148. بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،
* الجزء 1: تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنية، 1400-1980.
* الجزء 2: تحقيق ألفرد بيل، الجزائر: مطبعة فونطانة، 1328-1910.
- ابن خلكان. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681 هـ).
149. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر. (8 ج)
ابن خليل. أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأندلسي
150. إختصار القندح المعلى في التاريخ المحلي، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط 3، بيروت- القاهرة: دار الكتب الإسلامية- دار
الكتاب المصري، 1400-1980.
- ابن خياط. أبو عمر شباب خليفة العصفوري البصري (ت 240 هـ)
151. تاريخ خليفة ابن الخياط، تحقيق سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 1414-1993.
152. كتاب الطبقات، تحقيق سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 1414-1993.
- ابن خبير الإشبيلي. أبو بكر محمد بن خبير عمر الأموي (ت 575 هـ)
153. فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، تحقيق كودير وطراغو، بغداد-
بيروت: مكتبة المثنى- المكتب التجاري.
الداعي القرشي. إدريس عما الدين اليمني (ت 872 هـ)

154. عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق محمد البعلادي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2006. (طبع باسم: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب)
- الداودي. أبو جعفر أحمد بن نصر الطرابلسي التلمساني (ت 402 هـ)
155. الأموال، تحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة، ط 1، القاهرة: دار السلام، 1421-2001.
- الدباع. أبو زيد عبد الرحمن الأسدي القيرواني (ت 669 هـ) وابن ناجي التنوخي (ت 839 هـ)
156. معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق عبد المجيد خيالي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1426-2005. (4 ج)
- ابن دبوس. عبد الحق بن عبد الله اليفرنى الفاسي (ت 578 هـ)
157. كتاب الأحكام، تحقيق أحمد الهاشمي العربي الفحصي، ط 1، الدار البيضاء: دار الرشاد، 1420-2000.
- ابن دحية. أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي (ت 633 هـ)
158. المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرين، بيروت: دار العلم للجميع.
- الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 670 هـ)
159. طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، د. م، 1974. (2 ج)
- ابن دريد. أبو بكر محمد بن الحسن بن عتاهية الأزدي البصري (ت 321 هـ)
160. جوهرة اللفظة، تحقيق رمزي منير البعلبكي، ط 1، بيروت: دار العلم للملايين، 1987. (2 ج)
- ابن الدلائمي. أحمد بن عمر العذري الأندلسي.
161. ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جمع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد: منشورات معهد الدراسات الإسلامية.
- الدمشقي. أبو المحاسن الحسيني (ت 765 هـ)
162. ذيل تذكرة الحفاظ، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الدمشقي. محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين
163. الرد الوافر، تحقيق زهير الشاوش، ط 1، بيروت: المكتب الإسلامي، 1393.
- الدوادري. أبو بكر بن عبد الله بن أريك (توفي بعد 763 هـ)
164. الدررة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، وهو الجزء 6 من: كور الدرر وجامع الغرر، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة: منشورات المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، 1380-1961.
- الذهبي. شمس الدين محمد بن أحمد (ت 748 هـ)
165. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط 2، بيروت: دار الكتاب العربي، 1413-1993. (أجزاء متفرقة)
166. تذكرة الحفاظ، بيروت: دار الكتب العلمية. (4 ج)
167. دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة، بيروت: دار صادر، 1999.
168. ذيل تاريخ الإسلام، تحقيق مازن باوزير، ط 1، الرياض: دار المغني، 1419-1998.
169. ذيل العبر في خبر من غير، تحقيق محمد زغلول، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1405-1985.
170. سر أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط 2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1404-1984. (عدة أجزاء)
171. العبر في خبر من غير، تحقيق محمد زغلول، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1405-1985. (3 ج)

172. المختار من تاريخ ابن الجزري، دراسة وتحقيق خضير عباس محمد خليفة المشداوي، ط 1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1408-1988.
173. مختصر كتاب الوهم والإيهام، نشر ضمن الجزء الأول من كتاب "الأحكام الوسطى من حديث النبي ﷺ" لعبد الحق الإشبيلي البجائي، تحقيق حدي السلفي وصبحي السامرائي، الرياض: مكتبة الرشيد، 1416-1995.
174. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق بشار عواد معروف وآخرين، ط 1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1404-1984.
175. المعين في طبقات المحدثين، تحقيق همام عبد الرحمن سعيد، ط 1، عمان: دار الفرقان، 1404-1984.
- الرازي. فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين البكري الطبرستاني (ت 606 هـ)
176. التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، تحقيق خليل محي الدين الميس، بيروت: دار الفكر، 1414-1993.
177. المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعات، تحقيق محمد المعتصم بالله البгдаدي، ط 1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1410-1990.
- الراغب الأصبهاني. حسين بن محمد بن الفضل (ت 690 هـ)
178. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق إبراهيم زيدان، القاهرة: مكتبة الهلال، 1902.
- الرشاطي. أبو محمد الأندلسي (ت 542 هـ)
179. إقباس الأنوار، تحقيق إميليو مولينا وخاينتوبوسك بيلا، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- معهد التعاون مع العالم العربي، 1990.
- ابن رشد الجد. أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد القرطبي (ت 520 هـ)
180. فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1407-1987. (ج 4)
- ابن رشد الحفيد. أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي (ت 595 هـ)
181. فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من إتصال، تحقيق محمد عابد الجاهري، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997.
- ابن رشيد. أبو عبدالله محمد بن عمر السبتي الفهري الأندلسي (ت 721 هـ)
182. إفاضة النصيح بالتحريف بسند الجامع الصحيح، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، تونس: الدار التونسية للنشر.
183. ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهة إلى الحرمين مكة وطيبة، (ج 3) تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1981.
- ابن رشيقي. حسن المسيلي (ت 450 هـ)
184. أمموذج الزمان في شعراء القيروان، تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير الكوش، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411-1991.
- الرصاع. محمد الأنصاري التلمساني (ت 894 هـ)
185. فهرست الرصاع، تحقيق محمد العنابي، تونس: المكتبة الحتيقة، 1967.
- ابن رضوان. أبو القاسم عبد الله بن يوسف المالقي (ت 784 هـ)
186. الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد المزيدي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1425-2004.
- الزعيني. أبو الحسن علي بن محمد بن علي الأندلسي (ت 666 هـ)

187. برنامج شيوخ الرعييني، تحقيق إبراهيم شيوخ، دمشق: مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم- المطبعة الهاشمية، 1381-1962.
- الرفيق القيرواني. أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ق 5 هـ)
188. تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.
- الروداي. محمد بن سليمان (ت 1094 هـ)
189. صلة الخلف بموصول السلف، تحقيق محمد المحجي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1408-1988.
- ابن زاكور. محمد بن قاسم الفاسي (ق 11 هـ)
190. نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، الجزائر: مطبعة فوننتاة، 1319-1902.
- الزبيدي. محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت 1205 هـ)
191. تاج العروس في جواهر القاموس، ط 2، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2004،
- * الجزء 2: تحقيق علي الهلاي.
- * الجزء 3: تحقيق عبد الكريم العزباوي.
- * الجزء 29: تحقيق عبد الفتاح الحلو.
- ابن الزبير. أبو جعفر أحمد العاصمي الفرناطي (ت 708 هـ)
192. صلة الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1416-1995.
- (ج 4 ، 5).
- * صلة الصلة، جزء ملحق بكتاب الذيل والتكملة، السفر الثامن- القسم الثاني، تحقيق محمد بن شريفة، المغرب، أكاديمية المملكة المغربية، 1984.
- الزجلي. أحمد بن الحسن بن رضوان
193. الكتاب اللائق لمعلم الوثائق، فاس: طبعة حجرية.
- الزركشي. محمد بن إبراهيم (ق 9 هـ).
194. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط 2، تونس: المكتبة العتيقة، 1996.
- أبو زكرياء. يحيى بن أبي بكر
195. سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر: المكتبة الوطنية، 1399-1979.
- الزهري. محمد بن أبي بكر الأندلسي (ق 6 هـ)
196. كتاب الجعرايها، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- الساحلي. محمد بن محمد المالقي (ت 754 هـ)
197. بهية السالك في أشرف المسالك، تحقيق عبد الرحيم العلمي، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1424-2003. (2 ج)
- ابن سحنون. محمد التنوخي القيرواني (ت 256 هـ)
198. كتاب الأجووية، تحقيق حامد العلوي، ط 1، تونس: دار سحنون، 2000.
- السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 902 هـ)
199. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: دار مكتبة الحياة. (12 ج)
200. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، تحقيق محمد حامد الفقي، دار نشر الثقافة، 1399-1979. (3 ج)

- السراج. محمد بن محمد الوزير الأندلسي (ت 1149 هـ)
201. الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985. (3 ج)
- (
- ابن سراج الأندلسي (ت 848 هـ)
202. فتاوى قاضي الجماعة أبي القاسم بن سراج الأندلسي، تحقيق محمد أبو الأحفان، أبو ضبي: المجمع الثقافي، 1420-2000.
- السرقسطي. أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن الحاج علي البناي (ق 11 هـ)
203. الهبة والعطا في شرح العقيدة الوسطى، تونس: المطبعة التونسية، 1345 - 1926.
- ابن سعود. أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد الخزاعي التلمساني الأندلسي (ت 789 هـ)
204. تخريج الدلالات السمعية، تحقيق إحسان عباس، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985-1405.
- ابن سعيد. أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي (ت 685 هـ).
205. الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط 2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.
206. الفصول البانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار المعارف.
207. المغرب في حلي المغرب، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417 - 1997.
- ابن سلام. أبو عبيدة القاسم (ت 224 هـ)
208. الأموال، تحقيق عبد الأمير علي مهنا، ط 1، بيروت: دار الحدائق، 1988.
209. كتاب النسب. تحقيق مرجم محمد خير الدرغ، بيروت: دار الفكر، 1410 - 1989.
- ابن سلام. محمد الجمحي البصري (ت 231 هـ)
210. طبقات فحول الشعراء، بيروت: دار النهضة العربية
- السلفي. أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني (ت 576 هـ)
211. معجم السفر، تحقيق عبد الله عمر البارودي، مكة المكرمة: المكتبة التجارية.
- السمعاني. أبو سعيد عبد الكريم التميمي (ت 562 هـ)
212. الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، ط 1، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1408 - 1988.
- السنكي. زكريا الأنصاري الأزهري. (ت 925 هـ)
213. فتح الباقي على ألفية العراقي، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن سيد الناس. فتح الدين محمد بن محمد اليعمرى الإشبيلي (ت 734 هـ)
214. الأجوبة، تحقيق محمد الرواندي، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1410 - 1990.
215. عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحمد الدين متو، المدينة المنورة - دمشق: مكتبة دار التراث - دار ابن كثير. (2ج).
- السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت 911 هـ)
216. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1418 - 1997.
217. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، بيروت: دار الفكر، 1399 - 1979.
218. نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فليب حقي، ط 1، تونس: دار المعارف، 1999.
219. طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، ط 1، القاهرة: مكتبة وهبة، 1396.
220. طبقات الحفاظ، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403 - 1983.

- ابن الشاط. محمد بن علي بن محمد التوزري (ت 681 هـ)
221. **قطعة من صلة السمط**، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد: منشورات معهد الدراسات الإسلامية، 1971، (نشر مع كتاب تاريخ ابن الكردوبوس).
- الشاطبي. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الفرناطي (ت 790 هـ)
222. **فتاوى الإمام الشاطبي**، تحقيق محمد أبو الأحناف، ط 2، تونس: مطبعة الكواكب، 1985-1406.
223. **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق عبد الله دراز وآخرين، بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو شامة. شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي الدمشقي (ت 665 هـ)
224. **الذيل على الروضتين: أو تراجم القرنين السادس والسابع**، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، ط 2، بيروت: دار الجليل، 1974.
- ابن شرف. محمد بن أبي سعيد القيرواني (ت 460 هـ)
225. **مسائل الانتقاد**، ط 1، مصر: مكتبة الخانجي، 1344-1926. (طبع باسم أعلام الكلام)
- الشريف التلمساني. أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 771 هـ)
226. **مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول**، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مصر، مكتبة الرشاد، 1381-1961.
- ابن الشعار. المبارك بن أحمد الموصلي (ت 654 هـ)
227. **قلائد الجمال في شعراء هذا الزمان**. ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية - جامعة فرنكفورت. (10 ج)
- الشعراني. عبد الوهاب بن علي (ت 973 هـ)
228. **الطبقات الكبرى**، القاهرة، دار الفكر العربي.
- الشفشاوي. محمد بن عسكر الحسيني (ق 10)
229. **دوحة الناشر نحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**. تحقيق محمد حجي. الرباط: دار المغرب، 1397-1977.
- ابن الشماع. محمد بن أحمد التونسي (ق 9 هـ)
230. **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق الطاهر المعموري، تونس: الدار العربية للكتاب، 1984.
- الشهرستاني. تاج الدين محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ)
231. **الملل والنحل**. تح محمد عبد القادر الفاضل، صيدا- بيروت: المكتبة العصرية، 2003-1423.
- ابن صاحب الصلاة. عبد الملك (ت 594 هـ)
232. **المن بالإمامة على المستضعفين**، تحقيق عبد الهادي التازي، ط 3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987.
- ابن صاعد. صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن التغلبي الطليطلي (ت 462 هـ)
233. **طبقات الأهم**، تحقيق حياة بوعلون، ط 1، بيروت: دار الطبعة، 1975.
- ابن سعد. محمد بن سعيد الأندلسي التلمساني (ت 901 هـ)
234. **روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**، تحقيق يحيى بوعزيز، ط 1، الجزائر: المؤسسة الوطنية للإشهار، 2004.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764 هـ)
235. **الوابي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ط 1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000-1420.

236. أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرين، ط1، دمشق- بيروت: دار الفكر- دار الفكر المعاصر، 1418-1998.
- ابن صفوان. أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي (ت 598 هـ)
237. زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، تحقيق عبد القادر محداد، بيروت: دار الرائد، 1980.
- ابن الصلاح. أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن النصري الشهرزوري الكردي (ت 643 هـ)
238. مقدمة في علوم الحديث، تحقيق مصطفى ديب البغا، عين مليلة- الجزائر: دار الهدى. الصنوبري. أحمد بن محمد (ت 334 هـ)
239. ديوان الصنوبري، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، 1970.
- الضيبي. أحمد بن يحيى بن عميرة الأندلسي (ت 599 هـ)
240. بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق روحية السوفي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1997.
- ابن ظافر. أبو الحسن علي بن منصور الأزدي (ت 613 هـ)
241. أخبار الدول المنقطعة، تحقيق عصام هزيمة وآخرين، ط1، الأردن: مؤسسة حماد - دار الكندي، 1999.
242. بدائع الهدائه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا - بيروت: المكتبة المصرية، 1413-1992.
- ابن طاهر. المطهر المقدسي
243. البدء والتاريخ، تحقيق كلمان هوار، باريس، 1916.
- ابن طباطبا. أبو جعفر محمد بن علي العلوي الطقطقي (ت 709 هـ)
244. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، ط1، حلب - سورية: دار القلم العربي، 1418 - 1997.
- الطبراني. سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم
245. المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط2، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، 1404 - 1983.
- الطبري. أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي (ت 310 هـ)
246. تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1967.
247. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، القاهرة: دار الفكر العربي.
- ابن الطواح. عبد الواحد (بعد 718 هـ)
248. سبك المقال وفك العقال، تحقيق محمد مسعود جبران، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995.
- الطوسي. محمد بن الحسن الشيعي
249. النهاية في مجرد الفقه والفتاوى، ط2، بيروت: دار الكتاب العربي، 1400 - 1980.
- ابن عبد البر. أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (ت 463 هـ)
250. الاستيعاب في أسماء الأصحاب، تحقيق عادل مرشد، ط1، عمان: دار الأعلام، 1422-2002.
- ابن عبد الحكم. أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي المصري (ت 257 هـ)
251. فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد الحصري، ط1، بيروت: دار الفكر، 1416-1996.
- عبد الرزاق. أبو بكر بن همام الصنعائي.
252. مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط2، بيروت: المكتب الإسلامي، 1403.
- العبدري. محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود الحاحي (ق 7 هـ)
253. ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق، تحقيق أحمد بن حلو، (طبع بعنوان: الرحلة المغربية)

- ابن عبد الملك المراكشي. أبو عبد الله محمد الأوسي (ت 703 هـ).
254. الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة.
- * السفر الأول: تحقيق محمد بن شريفة، بيروت: دار الثقافة.
- * بقية السفر الرابع والسفر الخامس: تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة.
- * السفر السادس: تحقيق إحسان عباس، ط1، بيروت: دار الثقافة، 1973.
- * السفر الثامن: تحقيق محمد بن شريفة، المغرب: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984.
- ابن عبد الهادي. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الصالحي الدمشقي (ت 744 هـ)
255. طبقات علماء الحديث، تحقيق أكرم البوشي وإبراهيم الزريق، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1417-1996.
- ابن عبدون. محمد بن أحمد التحبي (من أهل القرن 5 هـ)
256. رسالة في الحسبة. نشرها ليفي برونفسال تحت عنوان: *Le Traité d'Ibn 'Abdūn* ضمن: *Journal Asiatique. Paris, 1934*.
- ابن عذاري المراكشي (بعد 712 هـ)
257. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.
- * الجزء 1 و 2 و 3: تحقيق ج. س كولان وليفي برونفسال، ط 3، بيروت: دار الثقافة، 1983.
- * الجزء 4: تحقيق إحسان عباس، ط 3، بيروت: دار الثقافة، 1983.
258. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، ط 1، الدار البيضاء-بيروت: دار الثقافة- دار الغرب الإسلامي، 1406-1985.
- العراقي. الحافظ أبو الفضل عبد الرحمن بن الحسين الكردي الرازياني (ت 806 هـ)
259. شرح ألفية العراقي المسماة بالتبصرة والتذكرة، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن العربي. أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي (ت 543 هـ)
260. قانون التأويل، تحقيق محمد سليمان، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.
261. شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان، تحقيق محمد يعلى، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية-الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي.
262. ترتيب الرحلة للترغيب في الملة، تحقيق سعيد أعراب، ضمن كتاب "مع القاضي أبي بكر بن العربي"، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1407-1987.
- العزفي. أبو العباس السبتي (ت 633 هـ)
263. دعامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب.
- ابن عساكر. أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت 571 هـ)
264. تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي، بيروت: دار الفكر، 1415-1995.
- ابن عسكرة. أبو عبد الله محمد (ت 636 هـ) وابن حميس. أبو بكر محمد (من أهل القرن 7 هـ)
265. أعلام مالقة، تحقيق عبد الله المرابط الترغي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1420-1999.
- ابن عطية. عبد الحق بن غالب الأندلسي (ت 546 هـ)
266. تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبدالسلام عبد الشافي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1422-2001.
- العقباني. أبو الفضل قاسم بن سعيد بن محمد (ت 854 هـ)

267. رسالة في الحدود النحوية، تحقيق إبراهيم بن سليمان البعيمي، الرياض: عالم المخطوطات والنوادير، مجلد 7، ع 2، 2003-2002.
- العقباني. محمد بن أحمد بن قاسم التلمساني (ت 860 هـ)
268. تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، حققه ونشره علي الشنوفي في مجلة *Bulletin d'études orientales*، العدد 19 سنة 1966-65.
- ابن علوي. علي بن محمد بن عبيد الله العباسي (ق 4 هـ)
269. سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، تحقيق سهيل زكار، ط 2، بيروت: دار الفكر، 1401-1981.
- ابن العماد. أبو الفلاح عبد الحمي الخنبلي (ت 1089 هـ)
270. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ابن عمر. يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الأندلسي (ت 289 هـ)
271. أحكام السوق، تحقيق محمود علي مكي، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1424-2004.
- ابن عنبة. جمال الدين أحمد بن علي الحسيني
272. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- العياشي. أبو سالم (ت 1090 هـ)
273. إقتضاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، تحقيق ودراسة نفيسة الذهبي، ط 1، الرباط: منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس، 1996.
- ابن غازي. محمد بن أحمد العثماني الكتامي المكناسي (ت 919 هـ)
274. كتاب التعليل برسوم الأستاذ بعد انتقال أهل المورل والناد، تحقيق محمد الزاهي، ط 1، تونس: دار بوسلامة، 1984، (طبع باسم: فهرس ابن غازي).
275. ذيل فهرس ابن غازي، طبع مع الفهرس
- الغريبي. أبو العباس أحمد بن أحمد البجائي (ت 704 هـ)
276. عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1971.
277. برنامج مشيخة الغريبي، طبع مع "عنوان الدراية".
- الغرناطي. أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج بن عبادة الأنصاري (ت 579 هـ)
278. الوثائق المختصرة، تحقيق مصطفى ناجي، ط 1، الرباط: مركز إحياء التراث المغربي، 1408-1988.
- الغزالي. أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت 505 هـ)
279. التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق سامي خضر، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية.
- ابن الغزي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 1167 هـ)
280. ديوان الإسلام، تحقيق سيد كسروي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411-1990.
- غليون. محمد بن خليل غليون الطرابلسي (ت 1150 هـ)
281. التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار، تحقيق أيمن البحري، ط 1، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1419-1998.
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد (ت 832 هـ)
282. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط 1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1405-1985.

283. تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين، تحقيق محمد حجي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1417-1996، (نشر ضمن موسوعة أعلام المغرب).
- الفتح بن خاقان. أبي نصر بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي (ت 529 هـ)
284. فلاند العقيان في محاسن الأعيان، ط1، مصر، مطبعة التقدم العلمية، 1902-1320.
285. مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق مديحة الشرفاوي، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1422-2001. (طبع باسم: تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء في الأندلس).
- أبو الفداء. الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن شاهنشاه (ت 732 هـ)
286. المختصر في أخبار البشر، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1997.
287. تقويم البلدان، نشره رينود والبارون دي سلان، باريس: دار الطباعة السلطانية، 1840.
- الفراء. أبو يعلى عبيد الله بن علي الحنبلي (ت 585 هـ)
288. الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403-1983.
- ابن فرحون. برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمرى المدني (ت 799 هـ)
289. تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ط1، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1406-1986.
290. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون الجنان، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1996.
- ابن الفرضي. أبو الوليد عبد الله محمد بن يوسف الأزدي (ت 403 هـ).
291. تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، تحقيق روحية السوي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1997.
- ابن فضل الله العمري. أحمد بن يحيى (ت 749 هـ).
292. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية- جامعة فرنكفورت، 1408-1988.
293. مسالك الأبصار (السفر الثامن: طوائف الفقراء والصفوية)، تحقيق بسام محمد بارود، أبو ظبي: المجمع الثقافي، 1421-2002.
- ابن الفقيه. أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني (توفي أواخر القرن 3 هـ)
294. مختصر كتاب البلدان، ليدن: مطبعة بريل، 1884.
- الفكون. عبد الكريم بن محمد التميمي القسنطيني (ت 1073 هـ)
295. منشور الهدايا في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1408-1987.
- الفيروز آبادي. محمد الدين محمد بن يعقوب (ت 817 هـ)
296. البلغة في تاريخ أئمة اللغة، تحقيق محمد المصري، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1392-1972.
297. القاموس المحيط، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، بيروت: دار الفكر، 1426-2005.
- ابن القاضي. أبو العباس أحمد بن أبي العافية المكناسي (ت 1025 هـ)
298. درة الرجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1423-2002.

299. لفظ الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، تحقيق محمد حجي، ضمن: موسوعة أعلام المغرب، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1417-1996.
300. جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط: دار المنصور، 1973. (2 ج)
- القاضي عياض. وولده محمد
301. مذاهب الأحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1997.
- القاضي عياض. بن موسى اليحصبي السبتي (ت 544 هـ)
302. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك، تحقيق أحمد بكر مالك، بيروت: دار ومكتبة الحياة.
303. الإلحاح إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق السيد أحمد صقر، ط1، القاهرة - تونس: دار التراث - المكتبة العتيقة، 1389-1970.
304. الفنية: فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق علي عمر، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423-2003.
- القاضي النعمان. أبو حنيفة محمد بن حيون التميمي المغربي (ت 363 هـ)
305. رسالة الفتح الدعوة، تحقيق و داد القاضي، ط1، بيروت: دار الثقافة، 1970.
306. دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام. تحقيق أصف بن علي أصغر فيضي، القاهرة: دار المعارف، 1969.
307. المهمة في آداب أتباع الأئمة، تحقيق مصطفى غالب، بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1985.
- القاضي أبو يوسف. يعقوب بن إبراهيم (ت 182 هـ)
308. كتاب الخراج، تقدم الفضل شلق، ط1، بيروت: دار الحداد، 1990.
- ابن قانع. أبو الحسن عبد الباقي (ت 351 هـ)
309. معجم الصحابة، تحقيق صلاح المصراحي، مكتبة الغرباء الأثرية.
- ابن قتيبة. عبد الله بن مسلم الكوفي (ت 276 هـ)
310. الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار المعارف.
- القرافي. بدر الدين محمد بن يحيى (ت 1008 هـ)
311. توشيح الديقاج وحلية الإبهاج، تحقيق علي عمر، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1425-2004.
- ابن القطان. أبو الحسن علي بن محمد الكمامي الفاسي المراكشي (ت 628 هـ)
312. بيان الوهم والإيهام الواقعيين في كتاب الأحكام، دراسة وتحقيق الحسين آيت السعيد، ط1، الرياض: دار طيبة، 1418-1997. (6 ج)
313. النظر في أحكام النظر بحاسة البصر، تحقيق فتحي أبو عيسى، ط1، طنطا- مصر: دار الصحابة للتراث بطنطا، 1414-1994.
- ابن القطان. أبو محمد حسن بن علي بن محمد الكمامي المراكشي (القرن 7 هـ)
314. نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، دراسة وتحقيق محمود علي مكي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.
- القفطي. جمال الدين أبو المحاسن علي بن يوسف (ت 624 هـ)
315. إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، بيروت- القاهرة: مؤسسة الكسب الثقافية- دارالفكر العربي، 1406-1986.

- القليصادي. أبو الحسن علي القرشي البسطي (ت 891 هـ)
316. تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب، دراسة وتحقيق محمد أبو الأحفان، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1978. (طبعة باسم: رحلة القليصادي)
317. شرح تلخيص أعمال الحساب، قدم له وحققه و ترجمه إلى الفرنسية فارس بنطالسب، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999.
- القلقشندي. أبو العباس أحمد
318. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة: المطبعة الأميرية، 1333-1915. (ج 5).
319. مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت: عالم الكتب.
- القمي. محمد بن علي بن بابوية (ت 381 هـ)
320. علل الشرائع، قدم له محمد صادق بحر العلوم، النجف الأشرف - العراق: دار البلاغة، 1966.
- ابن قنفذ. أحمد بن الحسن القسنطيني (ت 810 هـ)
321. أنس الفقير وعز الحفير، تحقيق نجاح عوض صيام، ط1، القاهرة: دار المقطم، 1422-2002.
322. أنس الفقير وعز الحفير، تحقيق أودولف فور ومحمد الفاسي، الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي - كلية الآداب، 1965.
323. الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس: الدار التونسية للنشر، 1968.
324. الوفيات، تحقيق عادل نويهض، ط 4، بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1403-1983.
325. وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، تحقيق سليمان الصيد، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1404-1984.
- ابن القوطية. أبو بكر محمد بن عمر القرطبي (ت 367 هـ)
326. تاريخ الصحاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط3، القاهرة- بيروت: دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، 1410-1989.
- الكتبي. محمد بن شاكر (ت 764 هـ)
327. فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة.
- ابن كثير. أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي (ت 774 هـ)
328. البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف.
329. تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار الفكر، 1422-2002.
330. السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، بيروت: دار المعرفة، 1402-1982.
- ابن الكردبوس. أبو مروان عبد الملك التوزري (ق 6 هـ).
331. الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، 1971. (طبع باسم: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ووصفه لابن الشباط: نصاب جديدان)
- ابن الكلبي. أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت 204 هـ)
332. نسب معد واليمن الكبير، تحقيق ناجي حسن، بيروت: عالم الكتب، 1425-2004. (ج 2).
- المارغني. أبو عمرو السوي (ق 6 هـ).
333. رسالة في بيان كل فرقة، تحقيق ونيس عامر، نشر في مجلة الزيتونة، العدد 3، 1994.

- المازري. أبو عبد الله محمد بن علي الصقلي (ت 536 هـ)
334. المعلم بفوائد مسلم، تحقيق وتقديم محمد الشاذلي النيفر، تونس-الجزائر: الدار التونسية للنشر - المؤسسة الوطنية للكتاب.
- المازوني. أبو زكريا يحيى المغيلي التلمساني (ت 883 هـ)
335. الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق مختار حساني، الجزائر: منشورات مخبر المعطوطات - جامعة الجزائر، 2004. (ج 3)
- ابن مأكولا. الأمير أبي نصر علي بن أبي القاسم هبة الله (ت 475 هـ)
336. الإكمال في رفع الارتفاع عن المؤلف والمختلف من الأسماء والكفى والأنساب، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411-1990.
- المالكي. أبو بكر عبد الله بن محمد القيرواني (ت 438 هـ)
337. رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، تحقيق بشير الكوش، ط 3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1414-1994.
- المارودي. أبو الحسن علي بن محمد البغدادي (ت 450 هـ)
338. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق عماد زكي البارودي، القاهرة: المكتبة التوفيقية.
339. قوانين الوزارة وسياسة الملك، صححه الهادي حسين، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- المجاري محمد بن محمد الأندلسي (ت 862 هـ)
340. برنامج المجاري، تحقيق محمد أبو الأحفان، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982.
- مجهول. (حيا أواخر القرن 6 هـ).
341. الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد: وزارة الشؤون الثقافية العامة - أفاق عربية. مجهول.
342. الذخيرة السنية في الدولة المرينية، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر: 1920. مجهول.
343. ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس مولينا، مدريد: 1983. مجهول.
344. رسائل موحديّة: مجموعة جديدة. تحقيق ودراسة أحمد عزاري، ط 1، القنيطرة - المملكة المغربية: منشورات كلية الآداب جامعة ابن طفيل، 1416 - 1995. مجهول. (حيا سنة 712 هـ).
345. مفاخر الربور. تحقيق محمد يعلى، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية - الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي. مجهول. (ق 11 هـ)
346. منهاج الصواب في قبح استكثاب أهل الكتاب، تحقيق داود علي الفاضل، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1402 - 1982. مجهول. (ق 9 هـ)
347. نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق رضوان الداية، ط 2، دمشق: دار الفكر، 1423 - 2002. مجهول.
348. نزوح مسلمي الأندلس إلى المغرب: شرح على قصيدة ابن عبدون، ملحق نشر مع كتاب "نبذة العصر".

المديني. علي بن يوسف الحكيم (ق 8 هـ)

349. الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، نشر ضمن صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد 6، 1378-1958.

المراكشي. عبد الواحد (تـ 647 هـ)

350. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1419-1998.

ابن مرزوق. أبو عبد الله محمد التلمساني الخطيب (تـ 781 هـ)

351. المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولاي أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا عيسوس بيغوا، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401-1981.

المرعشي. الحسين بن محمد (تـ 421 هـ)

352. غرر السير، تحقيق سهيل زكار، ط 1، بيروت: دار الفكر، 1417-1996.

ابن مريم. محمد بن محمد الملقب التلمساني (ق 11 هـ)

353. اليستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد ابن أبي شنب، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.

المسعودي. أبو الحسن علي بن الحسين (تـ 345 هـ)

354. مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق سعيد محمد اللحام، ط 1، بيروت: دار الفكر، 1421-2000.

مسلم. أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (تـ 261 هـ)

355. صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

المقري. أبو العباس أحمد القرشي التلمساني (تـ 1041 هـ)

356. نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1388-1968. (ج 7)

357. أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المغرب- الإمارات العربية: للجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي.

* الجزء 1 - 2 - 3: تحقيق مصطفى السقا وآخرين، 1978.

* الجزء 4: تحقيق سعيد أعراب ومحمد بن تاويت.

* الجزء 5: تحقيق سعيد أعراب وعبد السلام الهراس. 1400-1980.

ابن المطرز. أبو الفتح ناصر الدين بن السيد بنعلي

358. المغرب في ترتيب المغرب، تحقيق محمود ماحور وعبد الحميد مختار، ط 1، حلب: مكتبة أسامة بن زيد، 1979.

المقدسي. محمد بن أحمد بن أبي بكر (تـ 380 هـ)

359. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد أمين الضناوي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424-2003.

المقريزي. تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر البعلبكي الأصل (تـ 845 هـ)

360. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيبان، ط 2، القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي،

1416-1996. (ج 1)

361. المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، ط 2، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1987.

362. درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1423-

2002. (ج 4)

363. المفقى الكبير، تحقيق محمد اليملاوي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411-1991. (ج 7)

المطلي. عبد الباسط بن خليل بن شاهين الشيعي الحنفي (تـ 920 هـ).

364. الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، ألمانيا: معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية- جامعة فرنكفورت، 1414-1994.
- ابن ممتي. الأسعد بن المهذب المصري الحلبي (ت 606 هـ)
365. قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، ط 1، القاهرة: مكتبة مدبولي 1411-1991.
- ابن المناصيف. محمد بن أصبغ الأزدي المهدي (ت 620 هـ)
366. الإنجاد في أبواب الجهاد، دراسة وتحقيق قاسم عزيز الوزاني، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003.
- المنذري. زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (ت 656 هـ)
367. التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، ط4، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1408-1988.
- ابن منظور. محمد بن مكرم الإفريقي (ت 711 هـ)
368. لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، القاهرة: دار المعارف.
369. مختصر تاريخ دمشق، تحقيق سكينه الشهابي، ط1، دمشق: 1409-1989.
- الموصلي. موسى بن حسن الكاتب القاضي
370. البرد الموشي في صناعة الإنشاء، تحقيق عفاف سيدة مرة. ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1410-1990.
- المؤيد في الدين. هبة الله الشيرازي (ت 480 هـ)
371. المجالس المؤيدية، ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1414-1994.
- النباهي. أبو الحسن بن عبد الله المالقي (ق 8 هـ)
372. الموقبة العليا ليمين يستحق القضاء والفتيا، ط 5، بيروت، دار الأفاق الجديدة، 1403-1983.
- ابن النديم. أبو الفرج محمد بن إسحاق الوراق البغدادي (ق 4 هـ)
373. الفهرست، تحقيق محمد أحمد أحمد، القاهرة: المكتبة التوفيقية.
- النسائي. أحمد بن شعيب (ت 303 هـ)
374. المجتبى من السنن، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط2، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، 1406-1986.
- النويري. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733 هـ)
375. نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.
- * الجزء 23: تحقيق أحمد كمال زكي.
- * الجزء 24: تحقيق حسين نصار، 1403-1983.
- * الجزء 28: تحقيق محمد أمين محمد حلمي، 1412-1992.
- النووي. أبو زكريا محي الدين بن شرف (ت 676 هـ)
376. تهذيب الأسماء واللغات، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن هانيء. أبو القاسم محمد بن سعدون الأزدي الألبيري القرطبي (ت 362 هـ)
377. ديوان محمد بن هانيء الأندلسي، تحقيق محمد اليعلاوي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995.
378. ديوان محمد بن هانيء الأندلسي، تحقيق كرم البستاني، بيروت: دار بيروت، 1400-1980.
- ابن هشام. أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري (ت 217 هـ)
379. السيرة النبوية بشرح الوزير المغربي، تحقيق سهيل زكار، ط 1، بيروت: دار الفكر، 1412-1992.
- الوادي آشي. محمد ابن جابر التونسي (ت 749 هـ)
380. مستفاد الرحلة والإغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1975.

381. برنامج الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، ط 3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982.
- الواقدي. محمد بن عمر بن واقد المديني ثم البغدادي (تـ 207 هـ)
382. فتوح إفريقية، تونس: مكتبة المنار، 1966.
- الورتلاني. الحسين بن محمد (تـ 1193 هـ)
383. نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية- جامعة فرانكفورت، 1414-1994.
- ابن الوردي. زين الدين عمر بن مظفر (تـ 749 هـ)
384. تمة المختصر في أخبار البشر، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1997.
- الوزان. الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي (توفي بعد 957 هـ)
385. وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي وعبد الأخضر، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983.
- الونشريسي. أحمد بن يحيى التلمساني (تـ 914 هـ)
386. المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس المغرب، تحقيق محمد الحجي وآخرين، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1401-1981. (ج 13)
- اليافعي. عبد الله بن أسعد اليمني المكي (تـ 768 هـ)
387. مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعبر من حوادث الزمان، ط 2، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1337-1993.
- اليعقوبي. أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (تـ 284 هـ)
388. البلدان، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1422-2002.
- اليمني. عبد الباقي بن عبد المجيد (تـ 743 هـ)
389. إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق عبد المجيد دياب، ط 1، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1406-1986.
- اليمني. محمد بن محمد
390. سيرة الحاجب جعفر، تحقيق ايفانوف، نشر بمجلة كلية الآداب-جامعة القاهرة، المجلد 4، الجزء 2، 1936.

ج-المراجع

- إبراهيم .حسن علي.
391. تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، ط 2، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1963.
- ابن أبي الضياف. أحمد
392. تحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط 2، تونس- الجزائر: الدار التونسية للنشر والتوزيع- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1396-1976.
- أبو الأحفان محمد.
393. الإمام أبو عبد الله محمد المقرئ التلمساني، تونس: الدار العربية للكتاب، 1988.
- الأوسي. عادل محي الدين
394. الرأي العام في القرن الثالث الهجري، ط 1، بغداد: دائرة الشؤون الثقافية العامة، 1987.

395. الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط 1، دمشق: دار طلاس، 1989.
- أرسلان. شكيب
396. الحلل السندسية في الأخبار والأثار الأندلسية، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417-1997. (3 ج)
397. تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق حسن السماحي سويدان، ط 1، دمشق- بيروت: دار ابن كثير- دار التريية، 1422-2001.
- أسكندر. محمد المختار
398. المفسرون الجزائريون عبر القرون من القرن 2 هـ إلى 14 هـ، الجزائر: مطبعة دحلب. إسماعيل. محمود.
399. مغربيات: دراسات جديدة، المحمدية- المغرب، مطبعة فضالة، 1977.
400. الإدارة (172-375 هـ) حقائق جديدة، ط 1، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1411-1991.
401. فرق الشيعة بين التفكير السياسي والنفي الديني، ط 1، القاهرة: سينا للنشر، 1995.
402. المهمشون في التاريخ الإسلامي، ط 1، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2004.
403. الخوارج في المغرب حتى القرن 4 هـ، ط 2، الدار البيضاء: دار الثقافة، 1985.
- أعراب. سعيد
404. مع القاضي أبي بكر بن العربي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1407-1987.
- الأمين. السيد محسن
405. أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، بيروت: دار المعارف، 1403-1983. (10 ج)
- أومليل. علي
406. السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ط 2، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998.
- الباروني. سليمان باشا
407. الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، مراجعة محمد علي الصليبي، ط 1، لندن: دار الحكمة، 2005.
- باشا. نجاة
408. التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى القرن الثامن، تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1976.
- بحاز. إبراهيم
409. الدولة الرستمية (160-296 هـ / 777-909 م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط 2، القرارة- الجزائر: جمعية التراث.
- بركات. مصطفى
410. الألقاب والوظائف العثمانية، القاهرة: دار غريب، 2000.
- البستاني. بطرس
411. دائرة المعارف، بيروت: دار المعرفة.
- البشري. سعد عبد الله صالح
412. الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1417-1997.

413. بجاية في العهد الحفصي: دراسة اجتماعية واقتصادية، تونس: منشورات كلية الآداب- جامعة تونس، 2006. بقا. محمد مظهر
414. أعلام أصول الفقه الإسلامي ومصنفاتهم، منشورات جامعة أم القرى، 1420. بلعربي. خالد
415. الدولة الزيانية في عهد يغمراسن: دراسة تاريخية وحضارية (633- 681 هـ) ط 1، الجزائر: مطبعة تلمسان RN. 2005. بوتشيش. إبراهيم القادري
416. مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ط 1، بيروت: دار الطليعة، 1998.
417. المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الذهنيات، الأولياء، ط 2، تطوان- المغرب: منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، 2004.
418. الإسلام السري في المغرب العربي، ط 1، القاهرة: سينا للنشر، 1995. بوداود عبيد.
419. ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين 7 و 9: دراسة في التاريخ السوسيو- ثقافي، وهران: دار الغرب. بورونية. الشاذلي ومحمد الطاهر
420. قرطاجة البونية: تاريخ حضارة، تونس، مركز النشر الجامعي، 1999. بورونية. رشيد
421. الدولة الحمادية: تاريخها وحضارتها، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية- المركز الوطني للدراسات التاريخية، 1977. بوزيان. الدراجي
422. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993.
423. القبائل الأمازيغية أدوارها ومواطنها وأعيانها، ط 1، الجزائر: دار الكتاب العربي، 1999. بوعرفة. عبد القادر الهلالي
424. أعلام الفكر والتصوف بالجزائر، وهران: دار الغرب، 2004. بوعزيز. يحيى.
425. أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995. (ج 2)
426. مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، وهران: دار الغرب، 2004. بونابي. الطاهر
427. التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 الهجريين/ 12 و 13 الميلاديين، عين مليلة- الجزائر: دار الهدى، 2004. التازي. عبد الهادي
428. التاريخ الدبلوماسي للمغرب، الحمادية- المغرب: مطبعة فضالة، 1407-1987. (ج 5) تامر. عارف
429. تاريخ الإسماعيلية، ج 1: الدعوة والعقيدة، ط 1، لندن- قبرص: رياض الريس للكتب والنشر، 1991. بن تاويت. محمد
430. تاريخ سبتة، ط 1، الدار البيضاء: دار الثقافة، 1402-1982.
431. الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ط 1، الرباط: دار الثقافة، 1403-1983.

نوات. الطاهر محمد.

432. أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993.
الجابري. محمد عابد
433. فكر ابن خلدون: العصبية والدولة، ط 5، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1992.
434. ابن رشد سيرة وفكر، ط 1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998.
الجامعي. أبو زهد عبد الرحمن (ق 12 هـ / 17 م)
435. فتح مدينة وهران، تحقيق مختار حساني، منشورات جامعة الجزائر، 2003. (نشر تحت عنوان: تاريخ تحرير مدينة وهران من الإحتلال الإسباني)
الجبوري. يحيى وهيب
436. الخط والكتابة في الحضارة العربية، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994.
الجزائري. محمد بن عبد القادر
437. تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، تحقيق ممدوح حقي، ط 2، بيروت: دار البقضة العربية، 1384-1964.
حشام. هسيط
438. تأسيس الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت: دار الطليعة، 2004.
جماعي.
439. الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ط 1، الرياض: مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1417-1996.
جماعي.
440. بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والأثار، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411-1991، 587/1-610.
جماعي.
441. بحوث ندوة الأندلس: الدرس والتاريخ، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1994.
جماعي.
442. بحوث الملتقى الإسباني المغربي الثاني للعلوم التاريخية، غرناطة: 1989، ص 143-161.
جماعي.
443. التراث المغربي والأندلسي: التوثيق والقراءة، تطوان: منشورات جامعة عبد الملك السعدي، 1991، ص 519-533.
جماعي.
444. الديموغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي، تونس: دار سراس- المعهد الأعلى للتربية والتكوين المستمر. ص 5-25.
جماعي.
445. العطاء الفكري لابي الوليد بن رشد، تحرير فنحي ملكاوي وعزمي طه، ط 1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - مكتب الأردن، 1420-1999.
جماعي.
446. الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تنسيق محمد حمام، الرباط: منشورات كلية الآداب- جامعة محمد الخامس، 1995، ص 152-156.
جماعي.

447. الفهرس المغاربي: الفضاء المغاربي في العلوم الاجتماعية والإنسانيات والآداب، تصدره مؤسسة الملك عبد العزيز بالمدار البيضاء، طبعة 2005، CD.
- جماعي.
448. متنوعات محمد الحججي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998.
- جماعي.
449. المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب ابن مسيك، الدار البيضاء، 1988، ص 126-134.
- جماعي.
450. ملتقى القاضي النعمان للدراسات الفاطمية، تونس: 4-7 أوت 1977.
- جمال الدين. عبد الله محمد
451. الدولة الفاطمية: قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر، القاهرة: دار الثقافة، 1411-1991.
- جمعة. علي
452. المكابيل والموازن الشرعية، ط 1، القاهرة: دار الرسالة، 1424-2002.
- الجنحاني. الحبيب
453. دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ط 2 بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986.
- جودت. عبد الكريم يوسف
454. الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992.
455. العلاقات الخارجية للدولة الومستمية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
- الجيلالي. عبد الرحمن
456. تاريخ الجزائر العام، الجزائر: المطبعة العربية، 1373-1954. (ج 2)
- الحاج. صالح عمار
457. المغرب العربي من خلال خلافة المعز لدين الله الفاطمي، القاهرة: المكتب المصري، 2004. (ج 2)
- حاجيات. عبد الحميد
458. أبو هو موسى الزياني حياته وآثاره، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1394-1974.
- حجاجي. حمدان
459. حياة وآثار ابن زمرك، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية- المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989.
- حجازي. عبد الرحمن
460. التربية الإسلامية في القيروان في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، ط1، صيدا- بيروت، المكتبة العصرية، 1417-1997.
- الحجوي. محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي (تـ 1376 هـ)
461. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، تحقيق صالح شعبان، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1416-1995.
- الحججي. عبد الرحمن علي
462. التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط 5، دمشق: دار القلم، 1418-1997.
- حدادي. أحمد

463. رحلة ابن رشيد السبتي أبي عبد الله محمد عمر: دراسة وتحليل، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1424-2003. (2 ج)
- حركات. إبراهيم
464. مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9 هـ / 15م، ط 1، الدار البيضاء: دار الرشد الحديثة، 1421-2000. (1 ج)
- الحريري. محمد عيسى
465. تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (618-869 هـ)، ط 1، الكويت: دار القلم 1405-1985.
466. الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي: حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، ط 3، الكويت، دار القلم، 1408-1987.
- حسن. إبراهيم حسن
467. تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، ط 5، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1993.
- حسن. إبراهيم حسن وطه أحمد شرق
468. عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1366-1947.
469. المعز لدين الله، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1963.
- حسن. علي إبراهيم
470. تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، ط 2، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1963.
- حسن. محمد
471. المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، تونس: منشورات جامعة تونس الأولى، 1999. (2 ج)
- الحسيس. عبد الهادي أحمد
472. مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحد، المغرب- الإمارات: اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي، 1403-1983. (2 ج)
- حسين. حمدي عبد النعم محمد
473. دراسات في التاريخ الأندلسي - دولة بني بزغال في قرمونة، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1990.
474. تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين - دولة علي بن يوسف المرابطي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1986.
475. التاريخ السياسي لمدينة إشبيلية في العصر الأموي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1408 - 1987.
- الحصري. ساطع
476. دراسات عن مقدمة ابن خلدون، القاهرة: دار المعارف، 1953.
- الحفناوي. أبو القاسم
477. تعريف الخلف برجال السلف، ط 2، بيروت- تونس: مؤسسة الرسالة- المكتبة العتيقة، 1405-1985.
- حميش. سالم
478. الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ط 1، بيروت: دار الطليعة، 1998.
- حوالة. يوسف
479. الحياة العلمية في إفريقية منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن 5 هـ، مكة المكرمة، منشورات جامعة أم القرى، 1421-2000.

حومد. أسعد

480. محنة العرب في الأندلس، ط 1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1400 - 1980.

خالد. أحمد

481. ابن هانيء، تونس - الجزائر: الشركة التونسية للتوزيع - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976.

الخربطولي. علي حسني

482. أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، القاهرة: المطبعة الفنية الحديثة، 1972.

خربوش. حسين يوسف

483. الحاجب المصحفي حياته وآثاره الأدبية. حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت: الحولية 19، 1419 - 1999.

خضري. حسين أحمد

484. علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب (362 - 567 هـ)، ط 1، القاهرة: مكتبة مدبولي.

خلدون. بشر

485. الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.

أبر الحليل. محمد إبراهيم

486. الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري (275 - 300 هـ / 888 - 912 م)، ط 1، الرياض: مكتبة

الملك عبد العزيز العامة، 1416.

خوجة. حسين

487. ذيل كتاب بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2001.

دخان. عبد العزيز صغير

488. الإمام العلامة أحمد بن نصر الداودي المسيلي المالكي محدثاً وفقهياً، ط 1، القاهرة: مكتبة جيل، 1427.

2006.

الدهراوي. فريحات

489. الخلافة الفاطمية بالمغرب. ترجمة حمادي الساحلي، ط 1، بيروت: دار المغرب الإسلامي، 1994.

الدفاع. علي بن عبد الله

490. رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية، ط 2، مكتبة التوبة، 1993.

دنش. عصمت عبد اللطيف

491. أضواء جديدة على المرابطين، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991.

دهينة. عطا الله

492. الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان، ط 1، الجزائر في التاريخ، ج 3، الجزائر: وزارة الثقافة وال

المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

دويدار. حسين يوسف

493. المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (138 - 422 هـ)، ط 1، القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، 1414 - 1994.

الراشدي. أحمد بن عبد الرحمن

494. القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، ط 1، بيروت: دار الغرب

الإسلامي، 1991.

الراشدي. أحمد بن محمد بن علي بن سحنون

495. الثغر الجمالي في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر: منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية.
- الراوندي. محمد
496. أبو الفتح اليعمري حياته وأثاره وتحقيق أجوبته، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1410-1990.
- رجب. محمد عبد الحليم
497. دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى (125-455 هـ)، القاهرة: دار الثقافة.
- رزوق. محمد
498. دراسات في تاريخ المغرب، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 1991.
- رسلان. صلاح الدين بسويوني
499. الوزارة في الفكر السياسي دراسة مقارنة، القاهرة: دار قباء، 2000.
- أبو رميلة. هشام
500. علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط1، عمان: دار الفرقان، 1404-1984.
- الزبيري. وليد وآخرين
501. الزرعة المسيرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، ط1، بريطانيا: سلسلة إصدارات الحكمة، 1424-2003.
- ابن زرفة. (من القرن 12 هـ / 18 م)
502. الرحلة القمرية، تحقيق مختار حساني، منشورات جامعة الجزائر، 2003. (نشر تحت عنوان: تاريخ تدمير مدينة وهران من الإحتلال الإسباني).
- الزركلي. خير الدين
503. الأعلام: قاموس تراجم، ط 15، بيروت: دار العلم للملايين، 2002.
- زغروت. فتحي
504. العلاقات بين الأمويين والفاطميين في الأندلس والشمال الإفريقي (300-350 هـ)، ط 1، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1427-2006.
- زغلول. عبد الحميد
505. تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية: دار المعارف، 1990.
- زكار. سهيل
506. الجامع في أخبار القرامطة، ط 1، دمشق: دار حسان، 1987.
- زكي. محمد حسن
507. الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، دار الرائد العربي، 1401-1981.
- الزهراني. محمد مسفر
508. نظام الوزارة في الدولة العباسية (334-590 هـ) : العهدان البويهي والسلجوقي، ط 3، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1406-1986.
- الزواوي، أبو يعلى
509. تاريخ زواوة، دمشق: مطبعة الفيحاء، 1910.
- زيتون. محمد محمد

510. القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، القاهرة: دار المنار، 1408-1988. أبو زيد. علا عبد العزيز
511. الدولة الأموية دولة الفتوحات. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة: 1471-1996. الزياتي. أبو القاسم (تـ 1249 هـ / 1809 م)
512. الترفانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، المحمدية- المغرب: مطبعة فضالة، 1387-1967. ابن زيدان. عبد الرحمن
513. إتخاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، ط 1، الرباط: المطبعة الوطنية، 1932-1350. سالم. السيد عبد العزيز ومختار العبادي
514. تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، 1969. سالم. السيد عبد العزيز
515. بنو خطاب بن عبد الجبار التدميري: أسرة من المولدين بمصر في العصر الإسلامي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1989. الجامعة، 1989.
516. تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، ط 1، بيروت: دار النهضة العربية، 1969.
517. في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1985.
518. قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج2، بيروت: دار النهضة العربية، 1982.
519. المغرب الكبير العصر الإسلامي. بيروت: دار النهضة العربية، 1981. سالم. سحر السيد عبد العزيز
520. من جديد حول برغواطية هراطقة المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1993.
521. بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة 1997. سامعي. إسماعيل
522. أبو القاسم عبد الرحمن القالمي كاتب الدولة الموحدية: حياته وآثاره، الجزائر: دار الفجر، 2006. سرور. محمد جمال الدين
523. سياسة الفاطميين الحارجية، القاهرة: دار الفكر العربي، 1386-1967. سر كيس. يوسف إلياس
524. معجم المطبوعات العربية، لبنان. (ج 2) سعد الله. أبو القاسم
525. تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998.
526. شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1406-1986. سعدون. عباس نصر الله
527. دولة الأدارسة في المغرب والأندلس (القسم الثاني) بيروت: دار النهضة العربية، 1996.
528. دولة الأدارسة في المغرب: العصر الذهبي، ط1، بيروت: دار النهضة العربية، 1408-1987. سعيلوني. ناصر الدين
529. من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999.

530. دراسات أندلسية: مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003-1424.
- السلواوي. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.
531. الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ط 1، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1997.
- السنوسي. محمد بن علي (ت 1276 هـ)
532. الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، ط 4، مصر: دار المعارف، 1966-1385.
- بن سوادة. عبد السلام
533. بيوتات مدينة فاس قديما وحديثا، القسم الأول نشر في مجلة البحث العلمي، عدد 22، أبريل 1974، ص 105-123.
- السويدي. محمد
534. مفاهيم علم الاجتماع الثقافي، ط 1، الجزائر- تونس: المؤسسة الوطنية للكتاب- الدار التونسية للنشر، 1411-1991.
- السيد. رضوان
535. الجماعة والمجتمع والدولة، ط 1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1997.
- سيسالم. عصام سالم
536. جزر الأندلس التمسية، ط 1، بيروت، دار العلم للملايين، 1984.
- شاكر. عبد الحميد
537. وصايا الرسول والخلفاء الراشدين، ط 1، طرابلس-لبنان، جورس برس، 1415-1994.
- بنشريفة. محمد
538. تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب: بحوث ونصوص، المملكة المغربية: منشورات وزارة الثقافة، 2006.
- بن شقرون. محمد
539. مظاهر الثقافة المغربية، الرباط: دار الثقافة، 1406-1985.
- شلق. الفضل
540. الوعي بالعالم: مراجعات ومتابعات. ط 1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1420-2000.
- شمس الدين. عبد الأمير
541. الفكر التربوي عند ابن المقفع، الجاحظ، عبد الحميد الكاتب، ط 1، بيروت: دار إقرأ، 1405-1985.
- شمس الدين. مهدي
542. دراسات في نهج البلاغة، ط 3، دار الكتاب الإسلامي، 1401-1981.
- شنيقي. محمد البشير
543. الاحتلال الروماني لبلاد المغرب: سياسة الرومنة 146 ق.م-40 م، ط 2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.
- الشهابي. قتيبة
544. معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1995.
- الشهبائي. أبو الهيثم
545. فهرس ما لم يفهرس من المخطوطات المغربية في الخزانات الخاصة. منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث.

- صبحي. صالح
546. النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط 6، بيروت: دار العلم للملايين، 1982.
- الصديق. حسين
547. الإنسان والسلطة إشكالية العلاقة وأصولها الإشكالية، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2001.
- صفوت. أحمد زكي
548. جبهة خطب العرب، بيروت: المكتبة العلمية.
- الصلاحي محمد علي.
549. دولة الموحدين، ط 1، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1424 - 2003.
- الصمدي. خالد
550. حركة الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري: أبو محمد عبد الرحمن بن عتاب نموذجاً، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1415 - 1995.
- ضيف. شوقي
551. تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات، ط 1، القاهرة: دار المعارف، 1995.
552. تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني، ط 2، القاهرة: دار المعارف، 1975.
- أبو ضيف. مصطفى أحمد عمر
553. القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين والمرينيين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.
- الطالبي. محمد
554. دراسات في تاريخ إفريقية ولي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، تونس: منشورات كلية الآداب، 1982.
- طقوش. سهيل
555. تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام، ط 1، بيروت: دار النفائس، 1422 - 2001.
- الطمار. محمد بن عمرو
556. الروابط الثقافية بين الجزائر والخراج، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.
557. تاريخ الأدب الجزائري، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
558. تلمسان عبر العصور: دورها في سياسة وحضارة الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
- طه. عبد الواحد ذنون
559. دراسات في تاريخ وحضارة المغرب، ط 1، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2004.
560. نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، ط 1، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2004.
- طه. عبد الواحد ذنون وآخرين
561. تاريخ المغرب العربي، ط 1، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2004.
- الطوحي. أحمد محمد
562. مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1997.
- طوغان. وليد
563. مدعو النبوة في التاريخ الإسلامي، ط 1، القاهرة - لندن: مطبوعات دار الحيتال، 2004.
- الطويل. مريم قاسم

564. مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، ط 1، الدار البيضاء- بيروت: مكتبة الوحدة العربية - دار الكتب العلمية، 1414-1994.
565. مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ط1، الدار البيضاء- بيروت: مكتبة الوحدة العربية - دار الكتب العلمية، 1414-1994.
- بن عاشور. الطاهر
566. التحرير والتوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984.
- عافل. نبيه
567. تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ط 3، بيروت: دار الفكر، 1403-1983.
568. تاريخ خلافة بني أمية، ط 3، بيروت: دار الفكر، 1394-1975.
- العامري. نللي سلامة
569. الولاية والمجتمع: مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي، تونس: منشورات كلية الآداب- جامعة منوبة.
- العبادي. أحمد مختار
570. في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة العربية، 1978.
- عباس. إحسان
571. عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، ط 1، عمان: دار الشروق، 1988.
572. تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة، ط 6، بيروت: دار الثقافة، 1981.
573. أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، ط2، بيروت: دار الثقافة، 1399-1979.
- عباس. رضا هادي
574. الأندلس محاضرات في التاريخ والحضارة، مالطا: منشورات إلجا ELGA ، 1998.
- عبد الكريم. خليل
575. قریش من القبيلة إلى الدولة المركزية، ط 2، بيروت- القاهرة: دار الانتشار العربي- سيناء للنشر، 1997.
- بن عبد الله. عبد العزيز
576. معلمة التصوف الإسلامي، ط1، الرباط: دار نشر المعرفة، 2001.
- عبد الوهاب. حسن حسني
577. بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، تونس: المطبعة التونسية، 1330 هـ.
578. كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1425-2005. (4 ج)
- العبيدي. حمادي
579. ابن رشد وعلوم الشريعة، ط1، بيروت: دار الفكر العربي، 1991.
580. ابن رشد الحفيد: حياته - علمه - فقهه، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1984.
- العدوي. إبراهيم
581. ابن بطوطة في العالم الإسلامي، ط 3، القاهرة: دار المعارف، 1983.
- العربي. إسماعيل
582. دولة بني زيري موك غرناطة، الجزائر: ديوان المطبوعات، 1982.

583. عواصم بني زيوي ملوك أشير - القلعة - بجاية - غرناطة - المهديّة، ط 1، بيروت: دار الرائد العربي، 1404-1984.
584. دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1403-1983.
585. دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية، الجزائر: ديوان المطبوعات، 1994.
- عز الدين. محمد كمال الدين
586. عبد الباسط الحنفي مؤرخا، ط 1، بيروت: عالم الكتب، 1410-1990.
- علي. محمد ابراهيم
587. إصطلاح المذهب عند المالكية، ط 2، دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، 1422 - 2002.
- بن عميرة. محمد
588. دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
- ابن العنابي. محمد
589. السعي المحمود في نظام الجنود، تحقيق محمد بن عبد الكرم الجزائري، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
- عنان. محمد عبد الله
590. تراجم إسلامية: شرقية وأندلسية، ط 2، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1390-1970.
591. الحاكم بأمر الله وأسوار الدعوة الفاطمية، ط 3، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1404-1983.
592. دولة الإسلام في الأندلس، ط 3، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1408-1988.
593. لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، ط 1، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1388-1968.
- عويس. عبد الحليم.
594. دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط 2، القاهرة: دار الوفاء - دار الصحوة، 1411-1991.
595. التاصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، قطر: سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1416-1996.
- عيسى. أحمد بك
596. معجم الأطباء من سنة 650 هـ - إلى يومنا هذا، ط 1، مصر: مطبعة فتح الله إلياس نوري، 1361-1942.
- غالب. مصطفى
597. أعلام الإسماعيلية، بيروت: دار اليقظة العربية، 1964.
- غام. محمد الصغير
598. التوسع الفنيقي في غربي البحر المتوسط، ط 2، الجزائر - لبنان: ديوان المطبوعات الجامعية - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1982.
- غرميني. عبد السلام
599. المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس، ط 1، الدار البيضاء: دار الرشد الحديثة، 1420-2000.
- غلاب. عبد الكرم.
600. قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1426-2005.
- الغنيم. عبد الله يوسف
601. مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، ط 3، الكويت: ذات السلاسل، 1996.
- فارس. محمد خير

602. تاريخ الجزائر الحديث، ط 2، بيروت: مكتبة دار الشروق، 1979.
- الفاسي. عبد الحفيظ بن محمد بن طاهر بن عبد الكبير (ت 1383 هـ)
603. معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب، تحقيق عبد المجيد الخيالي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424-2003. (ج 2)
- الفاسي. عبد الكبير بن المجدوب (ت 1878/1295)
604. تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين، تحقيق محمد حجي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1417-1996، (نشر ضمن موسوعة أعلام المغرب)
- الفاسي. محمد بن عبد القادر
605. المورد المنهي بأخبار مولاي عبد السلام الشريف القادري الحسني، تحقيق عبد الرحمن سعدي، دار الكتب العلمية، 1425-2004، (طبع ضمن: ثلاث فهارس مغربية)
- فتحة. محمد
606. النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9 هـ، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب- جامعة الحسن الثاني، 1999.
- فرد. محمد أرزقي
607. القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف في القرن الخامس، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1991.
- فرج. محمود فرج
608. إقليم توات خلال القرنين 18 و19 الميلاديين، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية- المؤسسة الوطنية للكتاب.
- فرشوخ. محمد أمين
609. موسوعة عباقرة الإسلام في العلوم البحرية وعلم النبات وعلم الميكانيكا، ط 1، بيروت: دار الفكر العربي، 1995. (ج 5)
- فروخ. عمر
610. تاريخ الأدب العربي، ط 1، بيروت: دار العلم للملايين، 1982.
- أبو الفضل. محمد أحمد
611. تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي دراسات في التاريخ السياسي والحضاري، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1996.
- فيلاي. عبد العزيز وإبراهيم مجاز.
612. مدينة ميلة في العصر الوسيط، قسنطينة: دار البلاد للإتصال والخدمات، 1998.
- فيلاي. عبد العزيز
613. تلمسان في العهد الزياني، الجزائر: موفم للنشر، 2002.
614. العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ط 2، القاهرة: دار الفجر، 2001.
615. مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، قسنطينة: دار البعث، 1423-2002.
- فيلاي. مختار
616. رحلة الورتلاني. عرض ودراسة. باتنة- الجزائر: دار الشهاب 1988.
- القاسمي. طافر
617. نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ط 3، بيروت: دار النفائس، 1408-1987. (ج 2)

618. مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1415-1995. (2 ج)
- قره بلوط. علي رضا وأحمد طوران قره بلوط
619. معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم، قيصري- تركيا، دار العقبة. قسوم. عبد الرزاق
620. عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978. القصير. سيف الدين
621. ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن، دمشق: دار الينابيع. القونجي. صديق بن حسن
622. أجدد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، بيروت: دار الكتب العلمية، 1978. الكتاني. عبد الحفي
623. نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، بيروت: دار الكتاب العربي. الكتاني. الشريف محمد المنتصر الزمزمي
624. فاس عاصمة الأدارسة، تحقيق حمزة الكتاني، الرباط: 1423-2002. الكتاني. محمد بن جعفر بن إدريس (تـ 1345 هـ)
625. سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وآخرين، الدار البيضاء: دار الثقافة. (3 ج)
- كحالة. رضا
626. معجم المؤلفين، ط 1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1414-1993. (4 ج) كوركيس. عواد
627. الذخائر الشرقية، جمع جليل العطية، ط 1 بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999. الكعماك. عثمان
628. موجز التاريخ العام للجزائر، تقديم ومراجعة: أبو القاسم سعد الله وآخرين، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003. لقبال. موسى
629. الحسبة المذهبية، ط 1، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1971.
630. دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن 5 هـ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979.
631. عقبة بن نافع: أساس نظام الفهرين وتأسيس مجتمع إسلامي جديد في المغرب العربي، الجزائر: دار هومة، 2002. ماجد. عبد المنعم
632. ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ط 4، القاهرة: دار الفكر العربي، 1414-1994. مجاني. بوبة
633. أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، منشورات جامعة قسنطينة، 2003.
634. دراسات إسماعيلية، منشورات جامعة قسنطينة، 2002-2003.

- مجهول.
635. فهرس مخطوطات المكتبة البديرية بالقلم، (نسخة إلكترونية PDF) (مجهول).
636. فهرس مخطوطات القرويين. (نسخة إلكترونية PDF) (مجهول).
637. فهرس المسجد الكبير بمكناس، (طبعة إلكترونية PDF) ابن مخلوف. محمد بن محمد
638. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت: دار الفكر. مراد. حسين سيد عبد الله
639. المتصوفة في المغرب الأقصى في عصر المرابطين والموحدين، القاهرة: المطبعة الإسلامية الحديثة، 1421-2001. المراكشي. العباس بن إبراهيم
640. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط: المطبعة الملكية، الجزء 1-2: (1974)، الجزء 3: (1975)، الجزء 4-5: (1976)، الجزء 6-7-8: (1977)، الجزء 9: (1980)، الجزء 10: (1983).
- المرغني. أبو الوفا
641. فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية إلى سنة 1364 هـ/ 1945 م، القاهرة: مطبعة الأزهر 1365-1946. مرمول. الصادق
642. السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983. المزارى. الآغا بن عودة
643. طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وأسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19، تحقيق يحيى بوعزيز، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.
- مزهودي. مسعود
644. الإباضة في المغرب الأوسط، القرارة- الجزائر: جمعية التراث، 1417-1996. المصراقي. علي مصطفى
645. ابن حمديس الصقلي، سلسلة إقرأ. عدد 250. أبو مصطفى. كمال السيد
646. جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المغرب للونشريسي، الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب، 1996.
647. دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب، 1997. المطوي. محمد العروسي
648. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982.
649. السلطنة الحفصية: تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1406-1986.
650. سيرة القيروان رسائلها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي، طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1981. مطيع. محمد وعادل عيد
651. الفهرس المختصر لمخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1426-2006.

652. العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية، ط 1، مصر: عيين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2000.
653. الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423-2003.
- المسعودي. محمد مهدي
654. العلماء والمعلمون بالمجتمع المغربي في القرون الإسلامية الأولى، تونس: منشورات جامعة تونس I، 1993.
- معزوز. عبد الحق. ولخضر درباس
655. جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر، الكتاب الأول من الجزء الثاني: (مجموعة متحف تلمسان)، الجزائر: مطبعة سومر، 1422-2001.
- المعسكري. أبي راس
656. عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، الجزائر: منشورات CRASC، 2003.
- معلوف. أمين
657. الحروب الصليبية كما رآها العرب، ط2، الجزائر- بيروت: المؤسسة الوطنية للإشهار - دار الفارابي، 2001.
- معمر. علي يحيى
658. الإباضية بين الفرق الإسلامية، ط 3، سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1421-2000.
- المغراوي. محمد
659. الموحدون وأزمات المجتمع، ط1، الرباط: حذور للنشر، 2006.
- المقضي. إبراهيم أحمد
660. معجم البلدان والقبائل اليمنية، صنعاء: دار الكلمة، 1422-2002.
- مقديش. محمود السفاقي
661. نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988.
- مقيس. بشير
662. مدينة وهران دراسة في جغرافية العمران، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
- مكي. الطاهر أحمد
663. دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط 3، القاهرة، دار المعارف، 1987.
- مكي. محمود علي
664. التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، ط 1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1424-2004.
- بن منصور. عبد الوهاب
665. قبائل المغرب، الرباط: المطبعة الملكية، 1388-1968. (ج 1)
666. أعلام المغرب العربي، الرباط: المطبعة الملكية،
- * الجزء 1: ط2 (1425-2004)
- * الجزء 2: (1979-1399)
- * الجزء 3: (1403-1983)

667. المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1404 - 1983 (ج 1)
668. ورقات عن حضارة المرينيين، ط 2، الرباط: منشورات كلية الآداب، 1416 - 1996.
- المهاجي. قدور إبراهيم عمار
669. وهران تاريخ وثقافة، الجزائر: دار الأدب، 2005.
- مهران. محمد بيومي
670. المغرب القديم، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1410 - 1990.
- موسى. عز الدين عمر
671. الموحدون في المغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411 - 1991.
672. النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1424 - 2003.
- مونس: حسين
673. تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط 2، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1413 - 1993.
674. فجر الأندلس، ط 2، جدة: الدار السعودية، 1405 - 1985.
675. شيوخ العصر في الأندلس، ط 2، القاهرة: دار الرشد، 1417 - 1997.
- الميلي. مبارك بن محمد
676. تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد ميلي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الناضوري. رشيد
677. المغرب الكبير: العصور القديمة أسسها التاريخية الحضارية السياسية، بيروت: دار النهضة العربية، 1981.
- ناصر الدين. محمد الشريف
678. الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، ط 1، عمان: دار البيارق، 1420 - 1999.
- النحار. عبد المجيد
679. المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره في المغرب. ط 1، بيروت: دار المغرب الإسلامي، 1403 - 1983.
- نشاط. مصطفى
680. إطلاقات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني، وحدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003.
- نعيمي. عبد المجيد
681. تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، بيروت: دار النهضة العربية.
- النعيمي. حسين وحزمة النعيمي
682. إستدراكات على تاريخ التراث العربي، ط 1، جدة: دار ابن الجوزي، 1422. (ج 6)
- نويهض. عادل
683. معجم أعلام الجزائر، ط 2، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1400 - 1980.
684. معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط 1، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1403 - 1983.

685. عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب، ط1، تونس: المطبعة التونسية، 1351.
هارون. عبد السلام
686. قطوف أدبية: دراسات نقدية في التراث العربي، القاهرة: مكتبة السنة، 1409 - 1988.
المروس. مصطفى
687. المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،
1418 - 1997.
الهنثاني. نجح الدين
688. المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 5 هـ / 11 م، تونس: تير الزمان، 2004.
الوزاني. أبو عيسى سيدي المهدي (تـ 1342 هـ)
689. المعيار الجديد للجامع العرب عن فتوى المتأخرين من علماء المغرب، تحقيق عمر بن عباد، المغرب: وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية، 1417 - 1996.
الويسى. حسين بن علي
690. اليمون الكبرى، ط2، صنعاء: مكتبة الإرشاد، 1422 - 1991.
يسرى. عبد الغني عبد الله
691. معجم المؤرخين المسلمين حتى ق 12 هـ، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411 - 1991.
اليعلاوي. محمد
692. ابن هاني المغربي الأندلسي... شاعر الدولة الفاطمية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1405 - 1985.
693. كتاب المقفى الكبير: تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1407 -
1987.
بن يوسف. سليمان
694. حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، الجزائر: مطبعة أبوداود، 1993.
695. ثورة أبي يزيد جهاد لإعلاء كلمة الله، ط 1، قسنطينة: دار البحث، 1402 - 1981.

د - المراجع المعربة

- باتسييفا. سفيتلانا
696. العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمة رضوان إبراهيم، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1398 - 1978.
باركر. أرنست
697. الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، بيروت: دار النهضة العربية.
بال. ألفرد
698. الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، 1987.
برنشفيك. روبر
699. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 10 إلى القرن 13 م، ترجمة حماد الساحلي، ط 1، بيروت: دار الغرب
الإسلامي، 1988. (2 ج)

700. نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الألفي، باريس: مطبوعات لاروز، 1948.
701. تاريخ اسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية، ترجمة علي عبد الرؤوف اليميني وآخرين، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2002.
- بروكلمان. كارل
702. تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط3، القاهرة: دار المعارف. بلنشا. أنجل جنثال
703. تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مونس، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية. بوروية. رشيد
704. ابن تومرت. ترجمة عبد الحميد حاجيات، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية. بنونالا. إسماعيل
705. القاضي النعمان والفقهاء الإسماعيلي، ضمن: الإسماعيليون في العصر الوسيط تاريخهم وفكرهم، تحرير فرهاد دفتري، ترجمة سيف الدين القصير، ط 1، دمشق: دار المدى، 1999.
- بويكا. ك
706. المصادر التاريخية العربية في الأندلس، تعريب نايف أبوكرم، ط 1، دمشق: منشورات علاء الدين، 1999.
- بيرين. هنري
707. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ترجمة عطية القوصي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996.
- جماعي
708. الحضارة العربية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، ط2، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999. (ج 2)
- جماعي
709. دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشاوي وآخرين، بيروت: دار المعرفة. جواتاين. د
710. دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الإسلامية، تعريب و تحقيق عطية التوصي، ط 1، الكويت، وكالة المطبوعات، 1980.
- جونانان. ريلي سميث
711. الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، ط 2، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.
- دفتري. فرهاد (تحرير)
712. المناهج والأعراف العقلانية في الإسلام، ترجمة ناصح مبرز، ط 1، بيروت- لندن: دار الساقى- معهد الدراسات الإسماعيلية، 2004.
713. الإسماعيليون في العصر الوسيط تاريخهم وفكرهم، ترجمة سيف الدين القصير، ط1، دمشق: دار المدى، 1999.
- دوزي. رينهت
714. المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994. (ج 2)

715. قوطاجة: الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، ط1، دمشق: دار طلاس، 1994.
دي لوئينا. لويس سيكو
716. الحمدويون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، ترجمة عدنان محمد آل طعمة، ط1، دمشق: دار سعد الدين، 1992.
روحي. الهادي إدريس
717. الدولة الصنهاجية: تاريخ الفريقية في عهد بني زيوي من القرن 10 إلى القرن 12م. ترجمة حماد الساحلي ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992. (2 ج)
ريتان. أرنتس
718. ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعيتير، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1957.
زامباور. إدوارد فون
719. معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرين، بيروت: دار الرائد العربي، 1400-1980.
سزكين. فؤاد
720. تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، منشورات جامعة ابن سعود، 1411-1991.
فرج. محمد الصغير
721. تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتى سنة 1954، ترجمة موسى زمولي، الجزائر: منشورات زرياب، 2002.
ميكال. يان دي خويه
722. القرامطة شأنهم، دولتهم، وعلاقتهم بالفاطميين، ترجمة وتحقيق حسني زينة، ط 2، بيروت: دار ابن خلدون، 1980.
شاخت. جوزاف وكليفورد بوزورت
723. تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السهموري وآخرين، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب 8، 1985.
الطالي. محمد
724. الدولة الأغلبية، تعريب المنحي الصيادي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.
فلهاوزن. يوليوس
725. تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد الهادي أبو ريذة، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005.
فيشل. ولتر. ج
726. يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى، ترجمة سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 1408-1998.
كراتسكوفسكي. أغناطيوس يوليانوفتش
727. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان الدين هاشم، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1408-1987.
كوربان. هنري وآخرين
728. تاريخ الفلسفة الإسلامية منذ النبايع حتى وفاة ابن رشد، ترجمة نصير مروة وحسن قبيسي، ط 2، بيروت: عويدات للنشر والطباعة، 1998.
كولان. جورج. س
729. الأندلس، ترجمة إبراهيم خورشيد، ط 1، بيروت- القاهرة: دار اكتاب اللبناني - دار اكتاب المصري، 1980.

كونستبل. أوليفيا ريمي

730. التجارة والتجار في الأندلس، ترجمة فيصل عبد الله، الرياض: مكتبة العبيكان، 1423-2002.

لالاني. الرزينة. ر

731. الفكر الشيخي المبكر، ترجمة: سيف الدين القصير، ط1، بيروت- لندن: دار الساقى- معهد الدراسات الإسماعيلية، 2004.

لومبار. موريس

732. الإسلام في مجده الأول ق 8- 11 م، ترجمة إسماعيل العربي، ط2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

مارسي. جورج

733. مدن الفن الشهيرة: تلمسان، ترجمة سعيد دحمان، البليدة- الجزائر: مطبعة أ. موقان، 2004.

مرغوليوث. د. س

734. دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1422-2001.

مغربي. عبد الغني

735. سوسولوجية الفكر الخلدوني، تقديم وتعريب محمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر: دار القصبية، 2006.

مواندا. هويثي

736. التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد أكيمير، ط1، الرباط: منشورات الزمن، 2004.

ميتز. آدم

737. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة، بيروت- القاهرة: دار الكتاب العربي-

مكتبة الخانجي.

هنتس. فالتر

738. المكايل والموازن الإسلامية وما يعادها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، ط1، الأردن: منشورات الجامعة

الأردنية.

هوبكيتز. ج. ف. ب

739. النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة أمين توفيق الطيبي، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1980.

ه- الدوريات والمجلات والمنتقيات

740. حوليات جامعة الجزائر.

741. حوليات دار العلوم بالقاهرة.

742. مجلة أبحاث (الجامعة الأمريكية- بيروت).

743. مجلة اتحاد المؤرخين العرب- القاهرة-

744. مجلة الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة.

745. مجلة الأصالة.

746. مجلة أفاق الثقافة والتراث.

747. مجلة الأكاديمية.

748. مجلة إنسانيات.

749. مجلة أوراق.
750. مجلة البحث العلمي.
751. مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية - جامعة الجزائر -
752. مجلة بحوث (جامعة الجزائر).
753. مجلة التاريخ (الجزائر).
754. مجلة التاريخ العربي.
755. المجلة التاريخية المصرية.
756. المجلة التاريخية المغاربية.
757. مجلة تطوان.
758. مجلة التسامح.
759. مجلة الثقافة (الجزائر).
760. مجلة الثقافة (مصر).
761. مجلة جامعة الأمر عبد القادر - قسنطينة.
762. مجلة الحضارة الإسلامية.
763. مجلة الحياة.
764. مجلة دراسات أدبية وإنسانية.
765. مجلة الدراسات الإسلامية.
766. مجلة الدراسات التاريخية.
767. مجلة دراسات عربية.
768. مجلة دعوة الحق.
769. مجلة الرسالة.
770. مجلة سموتنا.
771. مجلة عالم الفكر.
772. مجلة عصور.
773. المجلة العربية للثقافة.
774. مجلة العلوم الإجتماعية والإنسانية - جامعة باتنة -
775. مجلة العلوم الإنسانية - جامعة قسنطينة.
776. مجلة الفكر العربي المعاصر.
777. مجلة الفيصل.
778. مجلة كنانيش.
779. مجلة كلية الآداب الرباط.
780. مجلة كلية الآداب - تطوان.
781. مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية.
782. مجلة المجمع العلمي العراقي.
783. مجلة مجمع اللغة العربية - القاهرة.

784. مجلة مركز البحث والإعلام الوثائقي.
785. مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد.
786. مجلة معهد المخطوطات العربية.
787. مجلة المستقبل العربي.
788. مجلة المورد.
789. مجلة المؤرخ العربي.
790. محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر - قسنطينة، الجزائر: مؤسسة العصر، 1983 الجزء الثاني، منشورات وزارة الشؤون الدينية، ج 2.
791. محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر، باتنة- الجزائر، 7- 14 سبتمبر 1978،
792. محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي، 1975، المجلد 1.

و- الرسائل الجامعية

- بلهوارى. فاطمة
793. النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب خلال القرن 4 هـ، رسالة دكتوراه دولة، جامعة وهران، 2004-2005.
- بوابة. عبد القادر
794. البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري 300-422 هـ/912-1031 م. رسالة دكتوراه. جامعة وهران، 1422-1423 هـ/2001-2002 م.
- بولطيف. لخضر
795. فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في المغرب الإسلامي (510-668 هـ) رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، 1423-2002.
- بوشامة. عاشور
796. علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1991.
- الخالدي. عبد الحميد
797. الحياة الفكرية بالمغرب الأوسط (الدولة الحمادية 408-547 هـ/1018-1152 م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم التاريخ جامعة بغداد، 1983.
- حطيف. صابرة
798. فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 1424-1425 هـ/2003-2004 م.
- سامعي إسماعيل
799. القاضي النعمان: حياته وجهوده في نشر الدعوة وتطورها في الدور المغربي 313-363 هـ 925-973 م، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2003.
- عزرودي. نصيرة
800. الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب الأوسط من ق 2 هـ وحتى نهاية ق 8 هـ، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، 1428 هـ- 2007 م.
- غرداوي. نورالدين

801. جوانب من الحياة الاقتصادية والفكرية بالمغرب الإسلامي في القرنين 8 و 9 هـ (14-15 م) من خلال نوازل المازوني، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005-2006.

غنحق. رابع

802. السياسة الداخلية لدولة المرابطين في عهد يوسف بن ناشقين، دبلوم الدراسات المعمقة، جامعة قسنطينة 1980-1981.

قدور. عبد المجيد

803. هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط ونتائجها الحضارية خلال القرنين 16 و17م، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 1994.

قرياني. عبد الجليل

804. السياسة التعليمية للدولة الزيانية، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1424-1425 هـ/2003-2004 م.

كحيل، ناصر محمد بيسوني

805. السياسة الخارجية لدولة بني زيان بالمغرب الأوسط (633-962 هـ)، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية.

لدرع. أمال

806. الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني 633-962 هـ، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1426-1427 هـ / 2005-2006 م.

محمال. عبد السلام

807. قضاة الجماعة بقرطبة الإسلامية من قيام الإمارة إلى نهاية الخلافة الأموية (138-422 هـ)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1414-1415 هـ / 1994-1995 م.

بن نعمان. إسماعيل

808. مدينة دلس دراسة معمارية وأثرية 10-13 هـ / 16-19 م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 95-1996.

بن النية. رضا

809. صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80-362 هـ)، مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2005-2006 م.

810. Amara. Allaoua

Pouvoir, économie et société dans le Maghreb Hammadide (395-547/1004-1152) Thèse de doctorat, Université Paris I - Sorbonne -, 2000, vol I.

ترجمت بالفرنسية - إسبانية - إنجليزية

Allaoua. Amara

811. «L'animation de la façade maritime du Maghreb central VIII^e - XII^e siècle». Revue des Lettres et des Sciences Humaines Université Emir A.E.K Constantine, N° 6. Oct. 2005, p. 5-24.

Balletto. Laura

812. «Gênes et le Maghreb Au XV^e siècle». dans : *L'Occident musulman et L'Occident chrétien au Moyen Age*. Rabat. Publication de la Faculté des Lettres- Université Mohammed V. p. 91- 106.

Bartolomé. Aránzazu Uzquiza

813. *La Familia Omeya en AL-Andalus*. dans : *Estudios Onomástico -Biograficos de Al-Andalus : (Familias Andalusies)*. Editados por Manuela Marín y Jesús Zanón, Consejo Superior de Investigaciones Científicas - Instituto de Cooperación Con el Mundo Árabe. Madrid, 1992. p. 273-431.
Lettres- Université Mohammed V. p. 91- 106.
Ben Ramdan. Farid
814. *De l'étymologie de Wahran de Ouadaharan à Oran*. Insaniyat, n° 23- 24.
Bouayed. Mahmoud -Agha
815. « *Le port de Hunayn d'union entre le Maghreb central et l'Espagne au Moyen Age* ». dans : *relaciones de la Peninsula Ibérica con El Maghreb siglos XIII-XVI; Actas del coloquio*. (Madrid; 17-18 décembre 1987), Madrid, Instituto Hispano-Arabe de cultura, 1988, p. 325-359.
Braudel. Fernand
816. « *Les Espagnols et l'Afrique du nord de 1492- 1577* ». Revue Africaine. N° 69-1928. p. 184-233.
Carobaza. Julia M^a
817. *La Familia de la Banū yaŷŷāy siglos II-VII / VIII-XIII*. dans : *Estudios Onomástico - Biograficos de Al- Andalus*. p 39 - 55.
Castells. Margarita
818. « *Medecins Andalous au Maghreb. siecles VII-IX / XIII-XV* ». dans : *Actas del II Coloquio Hispano-Maarroquí de Ciencias Históricas. "Historia, Ciencia y Sociedad"* Granada, 6-10 Nov. 1989. p. 115- 127.
Castilla. Juan
819. *Los Banū 'Amra de Murcia*. dans : *Estudios Onomástico -Biograficos de Al-Andalus*. p. 57-84.
Combizat. Paul- Luis
820. *L'évolution des cités du Tell Ifríkiya de VI^e au XI^e siècle*. Alger, O.P.U, 1986. Vol II.
Concepción De La Torre
821. *Familias Andalusies : Bibliografia Comentada*. dans : *Estudios Onomástico - Biograficos de Al- Andalus*. p. 349-371.
Cristina de La Puente.
822. *La Familia de Abū Ishāq Ibn AL-Hāŷŷ de Veleffique*. dans: *Estudios Onomástico - Biograficos de Al- Andalus*. p. 309-347.
Dhina. Atallah
823. *Les Etats de l'Occident musulman aux XIII^e, XIV^e et XV^e siècles*. Alger. ENAL- OPU.
824. *Le Royaume Abdelouadide a l'epoque d'Abou Hammou Moussa I^{er} et d'Abou Tachfin I^{er}*. Alger. ENAL- OPU.
- Epalza. Mikel de
825. *Ecrits relatifs à l'histoire de l'Espagne publiés en Algérie de 1962 à 1973*. Société nationale d'édition et de diffusion. Alger. 1976.
F. elie de La Primaudaie.
826. « *Le commerce et la navigation de L'Algérie* ». Revue Algérienne et Coloniale. juin 1860. p. 3-11.
Ferauo. (Ch. L)
827. *Conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit arabe*, Revue Africaine, N°= 67-1968. p. 245-256.
Féraud. Charles
828. *Histoire des Villes Provinge de Constantine: La Calle*, Alger. 1877.
Féraud. Laurent- Charles
829. *Histoire de Bougie*. Présntation de : Nedjma AbdelfettahLalmi. Editions Bouchene.
Fierro.Isabel

830. *Tres familias Andalusienses de época Omeya apodadas Banū Ziyād*. dans : *Estudios Onomástico –Biográficos de Al- Andalus*. p. 85- 141.
Francisco. Franco Sánchez.
831. «*Andalusienses y Magrebies en torno a los Sid Bono/a de Guadalest y Granada* ». dans : *Actas del II Coloquio Hispano-Marroquí de Ciencias Históricas "Historia, Ciencia y Sociedad"* Granada, 6-10 Nov. 1989. Agencia Española de Cooperación Internacional - Instituto de Cooperación con el Mundo Árabe. Madrid .1992. p. 217-232.
Ghaid. Moulud
832. *Histoire de Béjaïa*. 2^{ème} Edition Mimouni. Alger.
Georges. Jehel
833. «*Les Relations entre Gènes le Maghreb Occidental au Moyen Age, Aspects Politiques et Économiques* ». dans : *L'Occident musulman et L'Occident chrétien* .op. cit. p.107-122.
Goladziher. I
834. *Mohammed Ibn Toumert : et la théologie de l'Islam dans le nord de l'Afrique au XI^{ème} siècle*, Alger, 1903.
Golvin. L
835. *Le Maghreb central à l'époque des Zirides, recherche d'archéologie et d'histoire*. Arts et métiers graphiques. Paris. 1957.
Guardiola. Dolores
836. *Los Banū Hilāl*. dans: *Estudios Onomástico –Biográficos de Al- Andalus*. p. 143- 170.
Helena De Felipe.
837. *Identidad y Onomástica de Los Beréberes de Al-Andalus*, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1997.
Joaquín Vallvé
838. «*La emigración Andalusí Al Magreb en el siglo XIII (despoblación y repoblación en Al-Andalus)* », dans: *relaciones de la Península Ibérica con El Maghreb siglos XIII-XVI, Actas del coloquio*. op. cit. p.87-129.
José Enrique López De Coca Castañer
839. «*Granada y el Magreb: La emigración Andalusí (1485-1516)* », dans: *relaciones de la Península Ibérica con El Maghreb siglos XIII-XVI, Actas del coloquio*. op. cit. p.409-451.
Lagarde. Vincent
840. «*Le commerce des céréales entre al-Andalus et le Maghrib aux XI^e et XII^e siècles* ». dans : *L'Occident musulman et L'Occident chrétien au Moyen Age*. op. cit. p.123-150.
Latham. J.D.
841. «*Towns And cities of Barbary the Andalusian influence* ». in: *from Muslim Spain to Barbary*. London. Variorum reprints. 1986. p.189-190.
Lévi- Provençal. E.
842. «*Le traité d'Adab al-Kâtib d'Abū Bakr b. Haldūn* », Arabica. vol II, 1995. p. 280-288.
Lucini. Mercedes
843. *Los Banū Samayūn : una familia de Cadiés*. dans : *Estudios Onomástico –Biográficos de Al- Andalus*. p. 171-198.
María J. Viguera Molins
844. «*Relaciones entre et Magreb Y Al-Andalus en et siglo XI*». dans : *Actas Del II coloquio Hispano- Marrquí De ciencias Historicas " Historia, ciencia y sociedad "*, Granada, 6-10 Noviembre De 1989. p. 357-369.
María Luisa Ávila.
845. *Los Banū Manzūr AL-Qaysi*. dans : *Estudios Onomástico –Biográficos de Al- Andalus*. p. 23-37.
Marín. Manuela
846. «*Des migrations forcées les 'Ulama 'd' Al-Andalus face à la conquête chrétienne* ». dans : *L'Occident musulman et L'Occident chrétien au Moyen Age*. op. cit. p. 43- 59
Marín. Manuela

847. *Familias de ulemas en Toledo*. dans : *Estudios Onomástico –Biograficos de Al-Andalus*. p. 229-271.
Meouak. Mohamed
848. *Los Banū L-Rumāhis et Los Banū Tumlus, fonctionnaires au service de l'etel Hispan-Umayyade*. dans : *Estudios Onomástico –Biograficos de Al- Andalus*. p. 273-288.
Mercier. Ernest
849. *Élévation de la Famhlle el-Feggoun*, Constantine. 1879.
Molina. Luis
850. *Los Banū Jattāb y Los Banū Abi Ŷamra (siglos II-VIII / VIII- XIV)*. dans : *Estudios Onomástico –Biograficos de Al- Andalus*. p. 289-307.
Mijares. Jose Luis
851. *Civilizacion Espanola*. Madrid. 1968. vol I
Mikel de Epalza.
852. *Ecrits relatifs à l'histoire de l'Espagne publiés en Algérie de 1962 à 1973*. Société nationale d'édition et de diffusion. Alger. 1976.
M'rabet. M'hamed Ali
853. *l'Ifriqiya Aléboce Hafside*. dans : *Histaire de la Tunisie, Le Moyen Age*, Tunis. S, T, D. p. 327-406.
Rodríguez. Miguel Ángel Manzano
854. *Los Banū Abī L-'ula : Hitoria de una disidencia política*. dans : *Estudios Onomástico – Biograficos de Al- Andalus*. p. 199-227.
Souïssi. Mohammed
855. «*Un Mathematiciem Tunisa- Andalou Al- Qalsādī* » . dans : *Estudios historicos : actas del II coloquio hispano-tunecino [celebrado] en Madrid y en Barcelona en mayo de 1972*. Instituto hispano-arabe de cultura. Madrid. p. 147-169.
Stern. S.M.
856. « *Andalusian muwachahs in the musical repertoire of north Africa* », in: *primer congreso de estudios Arabes e Islamico*, Cordoba, 1962, ACTAS, Madrid, 1964. p.319-327.
Stern. S. M
857. *Thre North- African Topograhbical Notes (Islomic- Romon)*. ARABICA, Vol.I. N° 2-3-1954. p. 345.
Talbi. Mohamed
858. *Etudes d'Histoire Ifriqiyenne*. Tunis 1982.
Vizcaino. Juan. M
859. *Familias Andaluses en La Fahrassa de Ibn Jayr*. dans : *Estudios Onomástico – Biograficos de Al- Andalus* . p. 467-501.
Valerian. Dominique
860. *Bougie port Maghrébin, 1067-1510*. École Française de Rome. 2006.
861. *Frontières et territoire dans Maghreb de la fin du Moyen Age les marches occidentales du sultanat hafside*. Correspondances, N° 73, nov 2002- fév 2003. p. 3-8.
Vizcaino. Juan. M
862. *Las AL-Bāyṭ AL-Lajmī de Sevilla*. dans : *Estudios Onomástico –Biograficos de Al- Andalus*. p. 433- 466.
Zbiss. Slimane- Mostafa
863. «*Considérations sur la tentative de restauration du Pouvoir Almoravibe en Maghreb central et Oriental*». dans : *Actas del II Cologuia Hispano- Marroqui De ciencias Historicas " Historia, ciencia y sociedad "*, Granada, 6-10 Noviembre De 1989. p31-40.
864. *The Encyclopaedia of Islam*. Brill. Academic Publishers. 2003. CD.

المحتويات

3	الإهداء
4	شكر وتقدير
5	مقدمة
9	سند العمل: تقديم وتحليل المصادر
25-13	فصل تمهيدي: ظاهرة البيوتات في التاريخ الإسلامي
14	مصطلح البيوتات: مفاهيمها ودلالاتها في القواميس اللغوية
14	تعريف ابن خلدون للبيوتات
14	مصطلح البيوتات في القرآن الكريم
15	مصطلح البيوتات في السنة النبوية المشرفة
16	من كم علم يتكون البيت؟
17	توظيف البيوتات في التاريخ الإسلامي
20	السلطة والجاه وأثرهما في صناعة البيوتات
23	ظهور البيوتات وتلاشيها
62-26	الفصل الأول: الوجود الأندلسي في المغرب الأوسط مراحله وأشكاله
27	تمهيد
28	الصلات المتنوعة بين العدوتين المغربية والإسبانية قبل الفتح الإسلامي
29	العلاقات بين المغرب الأوسط والأندلس زمن الفتح الإسلامي: البداية والإرهاصات
30	مراحل الوجود الأندلسي في المغرب الوسط
30	أولا: التجار الأندلسيين وتفعيل حركية الواجهة البحرية للمغرب الأوسط
30	أ- ظهور الأندلس كقوة بحرية
32	ب- التجار الأندلسيين في سواحل المغرب الأوسط
37	ثانيا: البحارة الأندلسيين وتأسيس المدن الساحلية
39	ثالثا: الجالية الأندلسية بالمغرب الأوسط والتأثيرات الحضارية

الفصل الثاني: بيوتات المغرب الأوسط في العهد ما قبل الموحيدي

136-63

تمهيد

64

بيت بني حمدون أمراء المسيلة (280-392هـ)

102-65

65

الأصل الأندلسي لبني حمدون

66

هجرة بني حمدون إلى المغرب الأوسط

67

بواكير نشاط بني حمدون ودورهم في قيام الدولة الفاطمية

72

بناء المسيلة وتولي بني حمدون إمارتها

74

بنو حمدون في مواجهة ثورة مخلد بن كيداد الإباضي

77

الأدوار الحاسمة لجعفر بن علي بن حمدون في حرب أبي يزيد

80

بلاط بني حمدون بالمسيلة كما صورته ابن هانئ الأندلسي

84

علاقة بني حمدون ببلاط المهديّة الفاطمي

85

الاستقلال الإداري والمالي لبني حمدون

88

علاقة بني حمدون بصنهاجة وقائدها زيري بن مناد

98

فكرة استخلاف المعز لدين الله الفاطمي لابن حمدون على المغرب وإفريقية

91

مناقشة فكرة الاستخلاف

92

القطيعة بين الأسرة الحمدونية والبيت الفاطمي الحاكم

93

استقبال بني حمدون في بلاط قرطبة

95

بيت بني حمدون في الأندلس: أسماء جديدة ونشاط غامض

96

محنة بني حمدون وحياة السجون

97

بنو حمدون وولاية المغرب لصالح قرطبة

100

الأيام الأخيرة لبني حمدون بمصر

111-103

بيت بني ذكوان الأموي والنفي إلى وهران (401-403هـ)

103

أصل بني ذكوان

103

دور بني ذكوان في الأندلس والتخطيط بالقضاء

107

محنة بني ذكوان ونفيهم إلى وهران

108

الدور الغامض لبني ذكوان في وهران

109

بنو ذكوان في قرطبة من جديد

122-112

البيت الصمّادحي: مجدد مدينة تدلس (484-593هـ)

112

أصل بني صمّادح وأوليتهم

- 113 بنو صمادح أمراء المرية
- 113 بنو صمادح في كنف الدولة الحمادية
- 117 ازدهار تدلس في ظل بني صمادح
- 120 بنو صمادح في تلمسان بين الولاء المرابطي والإغراء الموحدية
- 136-123 **بيت ابن حمدون الثاني: ونهراء الدولة الحمادية (500-581 هـ)**
- 124 أصل بني حمدون وعلاقتهم ببني حمدون أمراء المسيلة
- 125 دور بني حمدون في جهاز الحكم الحمادي
- 133 مصير البيت الحمدوني بعد سقوط بجاية الحمادية
- 243-137 **الفصل الثالث: بيوتات تلمسان في العهدين الموحدية والزيرية**
- 138 تمهيد
- 148-139 **بيت ابن جبل الهمداني: قضاة وكتاب الدولتين الموحدية والزيرية (511-707 هـ)**
- 139 أصل بني جبل ونسبهم
- 139 بيت ابن جبل بين وهران وتلمسان ومراكش
- 143 الفرع المرواني لبيت ابن جبل والأدوار الجديدة
- 147 بيت ابن جبل في خدمة دويلات ما بعد الموحدية
- 155-149 **بيت ابن أبي العيش الحزرجي الإشبيلي: الفقهاء الخطباء (570-911 هـ)**
- 149 نسبهم ومكانتهم في الأندلس
- 149 هجرتهم إلى العدة المغربية
- 150 احتكار بيت ابن أبي العيش للخطابة بجامع تلمسان
- 154 مؤلفات بيت ابن أبي العيش
- 160-156 **بيت ابن الصقيل التلمساني: المحدثون المتصوفة (ق 6- ق 8 هـ)**
- 156 بني الصقيل في الأندلس
- 156 هجرتهم إلى تلمسان ودورهم بها
- 176-161 **البيت الوشقي التلمساني: العلماء المدعون (576-764 هـ)**
- 161 أصل البيت الوشقي
- 161 هجرة البيت الوشقي إلى تلمسان
- 166 الميراث العلمي للبيت الوشقي
- 172 كتاب "التلمسانية" وأثره في منظومة الثقافة المغربية
- 181-177 **بيت ابن الحضار الكتامي والمهاجر المتعددة (591-697 هـ)**

- 177 بنو الحضار من المغرب الأوسط إلى الأندلس
- 177 بنو الحضار في تلمسان
- 179 التراث العلمي لبيت بني الحضار: تلاميذهم
- 187-182 بيت بني الملاح وزراء الدولة الزيانية (633- 718 هـ)
- 183 بنو الملاح في قرطبة: وضعيتهم ووظائفهم
- 184 هجرة بني الملاح إلى تلمسان
- 185 الوظائف المتعددة لبني الملاح في البلاط الزياني
- 187 مقتل الوزراء ونهاية تاريخ بني الملاح
- 200-188 بيت الآبلي: من الجنيدية إلى المشيخة العلمية (633- 757 هـ)
- 188 أولية البيت الآبلي ونسبه
- 189 هجرة البيت الآبلي إلى تلمسان
- 189 بيت الآبلي بين الجنيدية وقيادة مرسى ومدينة هنين
- 190 إبراهيم الآبلي بين التقلبات السياسية والمسيرة المضطربة
- 193 الآثار العلمية للآبلي والأدوار الرائدة
- 196 بعض آراء الآبلي ومواقفه
- 199 الآبلي وإحياء مدرسة الرشدية
- 213-201 بيت بني سعود الخزاعيين: العلماء الوزراء (690- 789 هـ)
- 201 نسب بني سعود
- 202 مكانة بني سعود في دولة بني الأحمر بغرناطة
- 204 هجرة بني سعود إلى تلمسان
- 206 علي بن محمد بن سعود وذرة مجد البيت الخزاعي
- 210 التراث العلمي للبيت الخزاعي وكتاب: تخريج الدلالات السمعية
- 237-214 البيت العقباني: بيت العلم والاجتهاد والقضاء (716- 1080 هـ)
- 214 نسب العقبانيين وأوليتهم
- 215 الحضور الوظيفي للبيت العقباني في تلمسان واحتكار منصب قضاء الجماعة
- 221 متأخرو البيت العقباني في مصادر جديدة: الكتابة الجنائزية
- 224 الحضور العلمي الثقافي للبيت العقباني
- 227 مؤلفات أعلام البيت العقباني
- 230 شراح آثار البيت العقباني العلمية
- 231 مرويات البيت العقباني ومسموعاتهم

- 231 تلاميذ البيت العقباني
- 233 الحضور الصوفي للبيت العقباني
- 234 الحضور السياسي للبيت العقباني
- 236 الحضور السياسي للبيت العقباني في العهد العثماني
- 243-238 بيت ابن داود البلوي: والأدوار الغامضة (890- 898 هـ)
- 238 نسبهم وأوليتهم في الأندلس
- 238 بيت ابن داود البلوي بوادي آش
- 239 نزوح بيت ابن داود البلوي إلى تلمسان
- 241 الأثر العلمي لبيت ابن داود البلوي في تلمسان
- 243 هجرة البيت البلوي ونهايته في القسطنطينية

306-244

الفصل الرابع: بيوتات بجاية في العهدين الموحدية والحفصية

- 245 تمهيد
- 255-246 بيت ابن عمر الأبيدي الأنصاري والحضور الصوفي (ق 6- ق 7 هـ)
- 246 هجرة البيت الأنصاري ونشاطه ببجاية
- 247 الجيل الثاني المؤسس الحقيقي لبيت ابن عمر الأنصاري
- 251 عبد الحق بن ربيع والوظائف العدلية
- 253 تلاميذ ابن ربيع وأصحابه
- 254 وفاة ابن ربيع وتحقيق سنة ذلك
- 272-256 البيت اليعمري: بنو سيد الناس حجاب بجاية (645- 915 هـ)
- 256 نسب البيت اليعمري
- 256 الدور السياسي والعلمي لبني سيد الناس في الأندلس ومصرهم بها
- 258 هجرة بني سيد الناس إلى بجاية ونشاطهم العلمي
- 263 الميراث السياسي للبيت اليعمري في بجاية
- 264 دور بني سيد الناس في انفصال بجاية عن تونس
- 271 نهاية البيت اليعمري في المغرب الإسلامي
- 291-273 بيت ابن خلدون الإشبيلي (647- 780 هـ)
- 273 الأصول اليمينية للبيت الخلدوني
- 273 بنو خلدون في الأندلس
- 276 بنو خلدون في المغرب وإفريقية وأدوارهم السياسية
- 280 الجيل الجديد للبيت الخلدوني في المغرب الأوسط

281	البيت الخلدوني بين تناقضات السياسة وعقدة المناصب
282	عبد الرحمن بن خلدون في البلاط المريني
282	محنة عبد الرحمن بن خلدون الأولى
284	بداية ظهور يحيى بن خلدون وتولييه حجابة بجاية
286	بنو خلدون بين الولاء الزياني والولاء المريني
287	مقتل يحيى بن خلدون بتلمسان
288	عبد الرحمن بن خلدون في قلعة بني سلامة
288	تراث بني خلدون العلمي
289	دور البيت الخلدوني في كتابة تاريخ المغرب الأوسط
298-292	بيت ابن غمر السلمي: الحجاب والولاية (700-722هـ)
292	بنو غمر: نسبهم وأوليتهم
292	هجرة بيت بني غمر إلى إفريقية الحفصية
294	يعقوب بن غمر في بجاية حاجبا وواليا
295	استبداد ابن غمر في بجاية
297	علاقة الحاجب ابن غمر بمتصوفة قسنطينة
301-299	بيت ابن المنت الحضرمي بين العلم والسياسة (700-754هـ)
299	نسب ابن المنت
299	هجرته إلى بجاية دورهم السياسي
306-302	بيت ابن فرحون الأبيدي الجياني: بيت الحجابة والقيادة (728-740هـ)
302	هجرة بني فرحون إلى إفريقية والمغرب الأوسط
303	ظهور بني فرحون في بجاية ومناصب السيادة
306	العلاقات الاجتماعية والثقافية لبني فرحون مع المغرب الأوسط
307	خاتمة
359-309	ثبت المصادر والمراجع
360	المحتويات